رواية

سارة محي الدين

الملجأ الأخير

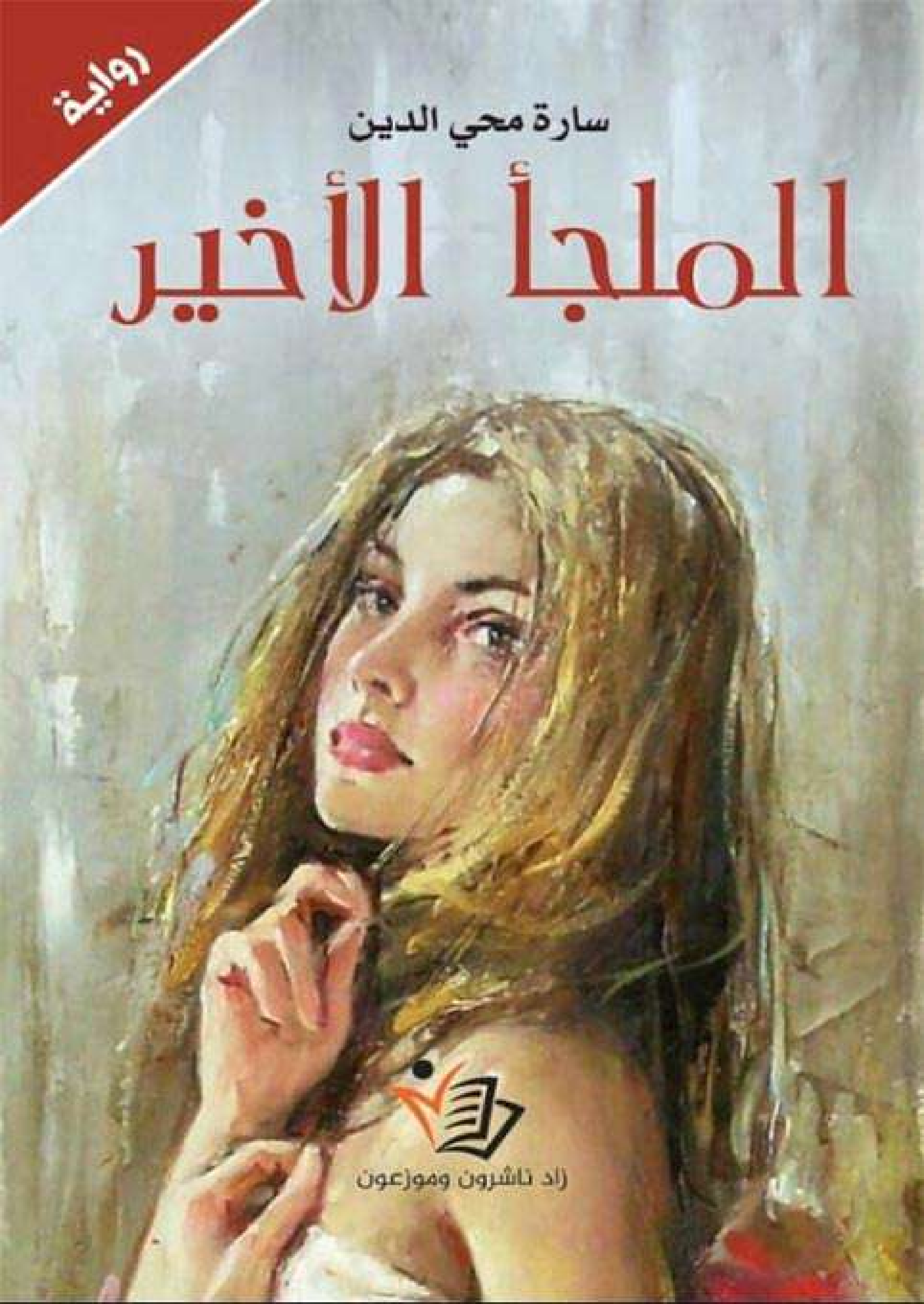

زاد ناشرون وموزعون

الملجأ الأخير

-رواية-

الطبعة الأولى 2023 م

زاد ناشرون وموزعون

عمان-المملكة الأردنية الهاشمية

هاتف: 00962 79 7241272 هاتف: 00962 79 9303338

zad.pub@hotmail.com – zad.publishers@gmail.com

www.facebook.com/ زاد ناشرون وموزعون

رقم الأيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2022/4/2140)

الرقم المعياري الدولي:3-45-779-9923-978

الواصفات:الروايات العربية//الادب العربي//العصر الحديث/

ميع الحقوق محفوظة _لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو استنساخه أو نقله كليا أو جزئيا _في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطرق إلكترونية أو آلية بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي ، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر .

تصميم الغلاف: هاشم سوالمة

التنسيق الداخلي: أحمد الشافعي ملكي

الملجأ الأخير

-روايــة-

تأليف:

سارة محي الدين

زاد ناشرون وموزعون

القسم الأول

قد يحبك الناس

وأنت تملك كل شيء

لكن كم عدد الذين يحبونك وأنت لا تملك شيء؟.

ستشرق

الشمس من جديد

إن اللهَ يعرفُ

ويريد أن يعرفَ

ويريد أن يغفرَ

الفصل الأول

عندما دقّت الساعة الخامسة، و بينما كانت شمسُ الأصيل الدافئةُ الرقيقة، تغمُر الحجرة ذاتِ الجدران الصفراء الفاتحة، كانت أثيلُ تحَدّق بإجلال إلى الرجل عريضِ الفكّيْن شفوقِ الملامح، في الصورة ضمن إطار خشبيّ عريض منقوشٍ عليه في الأسفل، عند أقصى الجانب المائل إلى اليمين، بحروف سوداء صغيرةٍ اسمَه و كُنْيَتَهُ بين نافذتين عديمتيِ الستائر، و كانت قد حوّلتْ بصرها إليه بصورة آلية،عندما باشرتْ العجوزُ صفيّة التكلُّمَ عنه كِالتزامٍ تقليديّ ضروري لزوجة وفيّةٍ مخلصة، عقِبَ انتقادها لسلوك جارها الذي تحَسّن مَزاجُها عندما وصفتْه بالمختل، ونعتَتْ زوجتَه بالمُهَرّجة، وعقِبَ توضيحِها السببَ الفعليّ وراء زيارتِها المباغتة لشقيقتها الصغرى، رغم أن هذه لا تستطيع الترحيبَ بأيّ إنسانٍ ما لم يُسْبِق الزيارة بموعد، وإن كان هذا الإنسانُ إحدى شقيقاتها الأربعِ العزيزاتِ على روحها. و إن كانت أثيلُ قد استوعبتْ أن صفية ترحّب بوجود سميحة في بيتها، لأنهما تتشاطران الآراءَ السياسية ذاتَها، لولا أنها تخبرها كلّما رأتْها أنّ عينيْها مفرطتان في الكِبَر، تشبهان عيونَ البقر. فإبْدَاء انزعاجِها من هذه الوقاحة مطلقا لا يفوتها التطرُّقُ إليه.

قالت صفية بدافق من الإشادة بخصال زوجها المتوفَّى، وهي تضع فنجان القهوة المملوء إلى نصفه على المنضدة المصنوعة من خشب السنديان،مُحدّقةً إلى صورة زوجها على الحائط المقابل للْكَنبَة التي تجلس عليها

_"كان رجلا رائعا و شفوقا، لقد دام زواجُنا ثلاثين سنة. إن قلتُ أنّها سعيدة كلُّها ،فعلى الأرجح سأبدو لكِ أني أبالغ".

ثم تخلَّل صوتَها العميقَ حسرةٌ مضاء

_"لو أنه شخَّصَ ذاك المرضَ الخبيثَ في مراحله الأولى، لكان في هذه الدقيقة جالسا مكانكِ، يذُمُّ قراراتِ الحكومة. إنها حكومة مسعورة. هكذا كان سيُعبّر.رحمهُ اللهُ، ورحمَ اللهُ والدَك و جميعَ الموتى".

_"آمين" قالت أثيلُ بصوتها الرخيم .

_"هل كنتِ تعرفين يا أثيلُ أنه عُرض عليه منصبُ عضوٍ في البرلمان؟،ورفضه دون تفكير،بل وشعر بالإهانة".

كانت أثيلُ في الواقع تعلم،حيث أنّ صفية التي أضحت ذاكرتها تخذلها بصفة متكررة، كانت قد أضافت إلى معارفها أنّ زوجها قد رفض منصبا مهما كعضوٍ في البرلمان، لكنْ أثيل لا تستطيع إلا

أن تنبهر لهذه الأنفة المترفعة و الزهد الرشيد، كأنها تطرق سمعَها للمرة الأولى، موظِّفةً مصطلحاتٍ جذابة تحت صفية على التبسّم بافتخار

_"ألمْ أخبركِ أنه رجل رائع، ليس من عبث يا حبيبتي. ففي الوقت الذي كان حُلْما كبيرا الحصولُ على منصب تحت قبة البرلمان، رفضه بإباء كما يرفض قطعة حلوى، قائلا: إن المسؤولية صعبة، و اكتفى بمعاش قليل. المهم أن يعيش مرتاحَ البال هانئَ الضمير، كما كان بمقدوره أن يتزوج امرأة أخرى غيري، تهَبُه أطفالا، يسمعهم ينادونه: "أبي" مثلما يريد كلُّ الرجال، غيرَ أنه فضّل أنْ لا يجرحَ شعوري. اعتاد القولَ: إن الحبَّ أهمُّ من الأولاد. وإنّني أُعوّضه عن أطفال الدنيا.لا تستغربي يا أثيلُ، هناك صنفٌ من الرجال يصعُب أن تفِيَهُ كلمةُ "مخلص" حقَّه الكامل".

ران الصمت لدقيقة، عندما تجلجلت عيناها نحو الصورة،وتضعضعت دموع التأثر بين أهدابها الطويلة المقوّسة :لم يكن استعراض محاسن الزوج المتوفى هدفه التفاخر بقدر ما كان الحسرة على رجل استثنائي ما كان ينبغي للموت أن يعجل في أخذه

_"أثيل "قالت مُستأنفةً الحديث" كيف والدتُك و شقيقتاك، هل أمورُهُنّ بخير؟ أعتقد أن شقيقتَك الصغرى كانت متوعّكة، هل تحسّنت؟".

أجابت أثيل عاقدةً يديها على حجرها:

_"إنهنّ بخير، أجل لقد تحسّنتْ بعد أن كدنا نفقدُ الأمل في ذلك، إنها أفضلُ الآن بفضل رعايةِ أمّي"

وهاهي الآنَ تتُوقُ إلى المغادرة. إنّ والدتَها ينتابها القلقُ،حينما تتأخّر عن العودة في الوقت المحدّد. ولقد شعرتْ بوَخْز الضمير لأنها لم تنبئْها بعزْمِها على زيارة صفية.

_"أأسكبُ لكِ مزيدا من القهوة؟"

اقترحتْ صفيةُ عندما رأتِ الفنجانَ فارغا.

رفضتْ أثيلُ شاكرةً،ليست ترغب في المزيد.

_"و كيف صِحّةُ أمّك،أرجو أنّها لا تعاني أيَّ مضاعفاتٍ جرّاءَ إجرائها تلك العملية الخطيرة التي حدثتني عنها، رغم مرور سنواتٍ عليها، لكنّ الإنسانَ يشعر بالخطر دوما، بعد أن يعيش وضْعا حَرِجا كالّذي مرتْ به والدتُك "

مس قلبها لذعة من ألم واستحوذ على أثيل شعورٌ مفاجِئٌ بالمرارة، وأحْدثَ هذا الاستفسار ضيْقًا غامضا في نفسها، وانقلبت تقاطيع وجهها إلى منقبضة كامدة، عندما استدعى عقلُها من الزوايا السحيقة، تلك المرحلة العسرة. كان قد مرَّ على تلك العملية ستُّ سنوات، وبالنسبة إلى أثيل التي ما انفكت ترتجف خوفا من فقدان والدتها، كأنها حدثتْ منذ أسبوع، إذْ أنها بالكادِ

استطاعت تجاوزَ صدمة فقدانِ والدِها في حادث عملٍ مؤسف. و ما عتَمت أن نَبَذَتِ الذّكرى المشؤومة.

_"هي بخير" أجابت بارتياح، آمِلةً لو أنّ صفية لم تتطرّق إلى تلك الذكرى الحزينة.

_"الحمد لله، كوني شاكرةً لله يا أثيل، لقد أجْرتْها في الوقتِ المناسب. أتمنى لو أتعرّفُ عليها يوما. أتصوّر أنها سيّدةٌ عظيمة، لأنها استطاعت مواجهة تقلبات الحياة وحدها، بعد وفاة والدِك، وتوليها مسؤولية ثلاث فتيات صغيرات، لا سيما مع عدم وجود أقاربَ يساعدون. ليس من فطرة النساء أن يتحمّلنَ ذاك العِبْء الثقيل وحدهنّ إلا إذا كانت المرأة عظيمة كأمك."

ابتسمت أثيل عن ثنيّتها و سطعت عيْناها كمصباحين متلألئين لاعتزازها بوالدتها.

_"أجلْ، يا سيدة صفية إنّها كذلك. و إنّي لَأرغب في دعوتك إلى بيتنا للتعرّف عليها إن كنتِ لا تمانعين ".

_"سيكون شرفا لي، بيد أنّي لا أحبذ الخروجَ من بيتي في فصل الصيف. انتظري إلى أن ينتهي، لا سيما أن صيفَ هذا العام شديدُ القَيْظ ".

وجذبتِ الوسادة ثم دستها بين ظهرها و الكنَبَة، شاكيةً من آلامٍ في خرزات الظهر السفلية، مُصدِرةً صوتا قريبا إلى التأوُّه، و سرعانَ ما عدَلَت جِلستَها. و تدرك أثيل أن هذا التعديل استعدادٌ صريح لإسداء النصائح، وشأنُها كالسيدات المُسِنّات،كانت صفية تحب تقديمها و إن لم يطلبْها أحد.

_"أثيل، أوَدُّ أن أقدم لك نصيحة جيدة"

قالت أثيل بأدب جَم:

_"تفضلي يا سيدة صفية، إنني أسمعك"

تنحْنحَتْ صفية ثلاث مرات تَلَتْها بنظرة مقتضبَة إلى خارج النافذة، ثم شرعت تقول وحدْقَتاها تشتعلان بوميض الحسرة:

_"لم أُرزقْ أطفالا كما تعلمين. كان زوجي يقول: إنّ الله حرمنا منهم، لكنه منحنا المودّةَ والرحمة و الراحة النفسية.. كان أكثرَ من زوج يا أثيل".

تملكتْ أثيل الحيرةُ، لماذا تلوك صفية نفسَ الموضوع؟، بينما هي تتحرّق إلى الانصراف، ليس بوسعها مقاطعتُها. إنها مضطرة أن تنتظرَ حتى تختمَ هذه السيرة، ثم تستأذنَ منها لتذهب.

_"كان زوجي و أبي و أخي، و أيَّ شيء تريدين، كان الرجلَ الذي عوّضني عن فراق والدي، والحائطَ الذي أستند عليه. كلُّ امرأةٍ تحتاج رجلا في حياتها، ليس فقط من أجل إنجاب الأولاد،

والاعتناء بهم.." و مدّتْ يدَها ثم تناولت فنجان القهوة، و احتستْ رشفة. و بينما هي تعيده إلى مكانه أردفت بنبرة رخوة:

_"أشعر يا أثيل، كما لو أنك لا ترغبين في الزواج. ها أنتِ قد بلغتِ السادسة و العشرين، و هو سِنٌّ مناسب لذلك، ولو أردتِ لتزوجت قبل الآن بوقت طويل. فلا يُعقل أن يتجاهلَ الرجالُ صبيةً فاتنةً مثلَك. و بالإضافة إلى جمالك فأنتِ فتاةٌ مهذبة ،مؤدبةٌ ،طيبة ومتزنة، إلى الحد الذي يسوقني إلى الاعتقاد أنّك في السابعة و الأربعين، و رفيقتُك سميحة في السادسة والعشرين، إنها طائشة كمراهقة. لا تخبريها بذلك."

ابتسمت صفية ابتسامة مشرقة تنّم عن انتصارٍ. إنها تُسَرّي عن نفسها بوصف سميحة طائشة، و تردّ لها الصاعَ لوصف عينيها بعيون البقر.

_"أرجو أنّي لم أزعجْك بتدخُّلي في أمورك الخاصة. تعلمين أنّي أريد مصلحتك."

هزّت أثيل رأسها نافيةً، فتحمّست صفية مدفوعةً بمُتعةٍ شرَدتْ عنها في الأسبوع الذي لم يزرها فيه أحد، على أنّ غايتَها الحقيقية كانت نُصحَ الفتاة الغريرة، و كانت نِيتُها سليمةً، وقلبُها نقيًا صادقا، كانت العجائز اللاتي تعرفهن أثيل، و تدأبُ على زيارتهن يقدّرْنها و يُحبِبْنها كابنة حقيقية، و إن كُنّ غيرَ جاهلات أنّ الزواجَ سيصرفها عن زيارتهنّ، إلا أن مصلحتها تتصدر القائمة. تناولت يدها برفق ثم استطردتْ:

_"حبيبتي، لقد اضطلعتِ بمسؤوليات رجلٍ،منذ أنْ مرضتْ والدتُك.لقد توليتِ واجباتِها، واعتنيت بها و بشقيقتيْك. و النساءُ اللاتي يحملنَ عِبئا ثقيلا يُصبحن قوِياتٍ جدّا، و يسهل اقتناعُهُن بالتخلي عن حاجتهنّ للرجل. يفَكّرْن أنْ لا ضرورة إليه،طالما يستطعن الإنفاقَ على أنفسهن,و ليس من السليم أن تتخلى المرأةُ عن فطرتها. لقد خلق اللهُ النساء ضعيفاتٍ سريعاتِ الانفعال و البكاء، و خلق الرجلَ أقوى منها، ليتحمّلَ،ليعتنِيَ بها، لتستند عليه، وتضعَ رأسَها على كتفه،ليشتغل بجِدّ، ويُعيلَها.هذه سُنّة الحياة يا أثيل. اسْتَبقي لنفسك تلك الحاجة، فأنت امرأة مهما عظُمت قوتك، تحتاجين وجودَ رجل في حياتك، رجلٍ كزوجي ووالدِك المتوفَّى. إن أمّك تعلمُ هذه الأمور أكثر من الجميع. لا تسمحي أن تُدَسّ تلك الثقافةُ العصرية السامّة الدخيلة على مجتمعنا في رأسك. فالرجل ليس آلةً لإلقاء الأوامر، و ليس كائنا متسلطا يحُدُّ من حريتك، كائنا يسهل الاستغناءُ عنه إذا امتلأتْ جيوبُ المرأة بالمال، لأنه سيأتي الوقت الذي لا ينفعها فيه كل أموال الدنيا. فالمال لا يشتري الدفء العائلي والمودّة والرحمة، المال لا يشتري الكتفَ القويةَ التي تسندين عليها رأسكِ المُثقلِ بالهموم. ثقافة الاستقلالية هي العدوُّ اللدود للمرأة. لن تشعري أنك صغيرة عندما تمدين يدك له لتطلبي نقودا، بينما يشعر هو أنه كبير،كبير جدّا و مُهِمٌّ، يشعر أنه

رجلٌ،أنه القائد، والرجال يحبون أن يكونوا قادةً، لأنهم خُلقوا لهذه المَهَمّة، مَهَمّةِ القيادة. حسنًا، سنتّفق أن الظروفَ أجْبرتكِ على التّنكُّر لفطرتك، وكنت تكدحين لأجل عائلتك، و لكنّ الظروف تغيرت ،فقد استعادت أمُّك صحّتها وكبِرتْ شقيقتاك. لهذا يا حبيبتي، إذا ما تقدّم رجل حسنٌ فلا ترفضيه، امنحيه فرصةً ربّما تنعمين بزواج موفّق".

غشيْتْ عيْنَيْ أثيل نظرةٌ حزينة، بينما نطق وجهُها بتعبير مُبْهم، وشهَقتْ شهقةً مكتومة. كانت صفية تجهل أكثرَ ممّا تعرف،و إذا ما عرفتْ، فلن تفهمها،فتركت نفسها تستجيب وتوافق وتظاهرت بالتأييد المطلق، وسرعان ما جهَّزتِ الجواب الملائم على قدر إلحاحها المحموم على الانصراف.

_"إنني أوافقك. كلُّ ما في الأمر أنّ الرجلَ المناسبَ لم يأتِ بعدُ"

علّقت صفية على الفور، و برزتْ على زاوية فمِها ابتسامةٌ ماكرة.

_"أشعر أنّه موجود. إنّ عينيْك تفصحان بهذا، لكنك متردّدة بسبب اعتيادك على الاعتماد على نفسك.. إنك تحبّينه بيد أنك تخافين الزواج منه".

ارتفعت حرارةُ الانفعال إلى وجنتَيْ أثيل فطفقت تعبَث بثوبها، و لكنّها حافظت على اتّزانها، على الرغم من ارتباكها.

_"لا،لا يوجد شيءٌ من هذا،أُؤكّد لك" و أسرعت بالقول قبل أن تأخذ صفية على عاتقها نُصحَها نصيحةً أخرى، فاستدارت بخفة إلى الساعة الدقّاقة المعلقة على الحائط خلفها:

_"سيدة صفية، أخشى أن الوقت قد تأخّر، وأخشى أن تكون أمّي الآن في غاية القلق والارتباك"

_"ليتك أخبرتها "قالت صفية بلهجة آسفة" أو ليتك أتيتِ باكرا".

_"لم أستطع. فقد أنهيتُ العمل عند الساعة الرابعة. لا يسمح السيد إبراهيم بترك العمل قبل هذه الساعة. أعِدُك بزيارة قريبة"و سرعان ما استوتْ واقفةً على نحوٍ رصين "هل تريدين شيئا مني".

ختمت صفية بامتنان جزيل

_"لا أسألك إلا أن تقومي بزيارتي كلَّ فترة، رغم أنه لا تربطني بكِ أيُّ صلةِ دم، و مع هذا، تُكلّفين نفسك عناءَ زيارتي، و الاطمئنانَ عليّ،وتجلسين، و تتحدثين إلى عجوز مثلي. أشكرك على رعايتك."

_"لستِ مُضطرّةً لشُكري يا سيّدة صفية. إنّ من دواعي سروري أنْ أزورك وأتحدث إليْك. عمي مساءً."

طبعتْ أثيل قُبلةً على وجنتها المُترَهّلة بعدما شيعتها صفية إلى الباب، ثم اتّجهت العجوز مُتثاقلةً بخطى مكتومة نحو النافذة لتراقبَها وهي تختفي عن ناظريها ، مُفكّرةً أنّ جوهرةً ثمينة كأثيل، لا يليق بها إلا رجلٌ شهم أصيل كزوجها المُتوفَّى.

كانت أثيل ذاتُ السادسةِ والعشرين خريفا فتاة جميلة جمالا باهرا يستغني عن التجمُّل والتبرُّج، ورثته عن أمّها قَرَوِيةِ النشأة، ذاتِ العينين السوداوين، وإن كانت أمنيةُ قلبِها أن توّزع جمالَها الخلّاب على بناتها الثلاث، فإنّ حكمةَ الله شاءت أن تحظى به ابنتُها الكبرى فقط. و لم يكنْ سِرُّ فتنتِها يكمُن في بشْرة وجهِها البيضاءِ، بلَوْن الزنبق الأبيض بملامحه الرقيقة المتناسقة و عينيها الدعجاوين الواسعتين المظللتين بأهداب كثيفة سوداء و المسقفتين بحاجبين سوداوين ثخينين فحسب ،بل في قوامها المَمْشوقِ و شعرِها الأسودِ الكثيفِ الناعمِ، بِلَوْن الآبُنُوس، و أنفها الصغير الدقيق الذي تحدده وجنتان موردتان، ،و ذقنِها البارزِ المُحَدّد، و الذي يشكل مع شفتها السُّفلى المُمتلئةِ الحمراء المُدَبَّبةِ خطًّا جذّابا في وجهها المستدير. أمّا ابتسامتُها فإنها تبرز غمّازتيْن عميقتين مُثيرتيْن مُلْفِتَتَيْن للنظر.

وحيث أنها جمعت خصائصَ ناعمةً رحيمة وناضجة في باقة واحدة، أحبّها سكان الحي المُرمِل من الصغير إلى الكبير، يحدوهم طبعُها الرزين، و عقلُها الراجحُ إلى التحدّث معها كلّما جمعتْهم بها صدفةٌ عَرَضِية صباحية أو مسائية،أو ترتيب مُسبَق، وإنْ كان سِنُّها الصغير لا يبشّر بتجارب منيعة واعدة. فإنّ استشارتَها لا تقابلها نقيصةٌ في نفوسهم حتى و إن بلغت أعمارُهم ضعفَ عمرها. وكان ذكاؤها العجيب، و نباهتها السريعة تُحَرّضهم على الالتماس منها مساعدةَ أطفالهم في حلّ المسائل البسيطة، و المُعَقّدة،حيث أن طفلا غبيا بليدا كان أكثرَ من أن تحتمله نفقاتٌ زائدة على عاتق العائلة الفقيرة، وإن تذمّرت أمُّها من اكتظاظ البيت بالأطفال، فإنها تلجأ إلى بيت جارتهم سميحة، التي لو قُدّر لها أن ترفض لها طلبا؛ فهو مخاصتمها والانفصالُ عنها رغم أنها تخاصمت مع كل إنسان تقريبًا.

وقد يتذكّر الناسُ أصواتَ فتياتهم ارتفعت، و عنّفت، و صرختْ، غيرَ أن صوت أثيل منذ طفولتِها على نفس الوتيرة؛ هادئ ناعم ،ليّن يخاطب الجميع من الطفل إلى العجوز بنبرة حنونة مؤدبة تنطوي على احترام أبيّ لكلّ إنسان، حتى وإن كان مجنونا أو عصبيّا، لا ترفع صوتها، و لا تصيح، تَزِن كلماتها بميزان تربيتها الرّصينةِ، وليدةِ اجتهاد و اهتمام والديها البالغ .

كانت تتّقِد بشُعلة الحماس،وتتصدّى بعزيمة فذّة لعوامل الإحباط رغم كل الظروف القاسية و الأعباء الثقيلة التي حملتها على عاتقها الضعيف و لا تزال تحملها إلى اليوم ، و كانت على قدر كبير من الاتّزان و رجاحة العقل، كأنّها مثالٌ رائعٌ عن العجائز اللاتي خَبُرن مِحَن السنين، فصنَعْن

من ارتعاشة الصِّبا و طيشِ الشباب نساءً راكنات إلى الوقار الحنِيف، والتمرس الورع في حسن التعامل، بالإضافة إلى قدرتها المتفنّنة على الصَّفح، ما لم يتخطَ الذنبُ في حقها حدّاً سحيقا من التنافي والغفرانَ. تسوس حياتها كما ينبغي منظِّمة أوقاتَ عملها بحذق فائق، راسمة بذلك شخصية مختلفة و متناقضة مع شخصية أختها الوسطى ميرنا.

كانت ميرنا ذاتَ مزاج متقلّب و طبع فظّ عنيد متصلّب، وُلدت بعد أربع سنوات من ولادة أثيل،و هي على قدر متواضع من الجمال، جَرّها إلى الاعتراف ساخطةً أنّها لن تحظى إلا برجل بسيط منكوبِ الوضع، لا يُلَبّي بأيّ حال تطلعاتِ قلبِها الحالمة، و لا ينتشلها من وَهْدَة الفقر المدقع.إنّها تشعر بانعدام الرضا عن حياتها المُصْفِرة، وعن منظر البيت الكريه الباهت المناسب مأْوًى للمتشردين، الذي تلف طلاؤه بسبب الرطوبة، والذي يحلو لها وصفُه بقطعة فارّةٍ من الأزمنة المظلمة،و الذي لا تفوق مساحته مئة مترا مربعا. يحوي طابقه السفلي مطبخا ذا نافذة مربّعة صغيرة، مُطلة على الشارع ،لا توفّرُ تهوية جيدة لاكتظاظها بأُصُصِ نباتِ الثعبان بأوراقه الكبيرة الرّمحية، و نباتِ الصبّار بأوراقه العريضة الدهنية. كان متهالكا متآكلَ الجدران،كثير الشقوق، مُعَطّلَ الحنفيات غالباً، تعوزه الوسائلُ العصرية ليُصبح مرضيا عنه. تفوح منه رائحة الرطوبة المُنفّرة، و تعُجُّ ثقوبُه العشوائية بالصراصير المُقززة، ترافقه حجرةٌ واحدة كبيرة بشكل غير مناسب، باهتةُ الجدران، متعدّدةُ الوظائف. فهي في النهار غرفة للطعام، واستقبال الضيوف، ومشغل لخياطة الستائر والأثواب، وفي الليل غرفةُ نوْمِ أمّها.أمّا الطابق العلويّ؛ فيحوي ثلاثَ غرفٍ ضّيقةٍ مُهَشّمةِ المظهر، تحتاجُ حاجةً مُلِحَّة إلى إصلاح سُقوفِها المتصدعة المُتسبِّبةِ في غرق الغرف بالمياه في فصلي الخريفِ و الشتاء.

هي فتاة عجفاء القوام،ذات طول مناسب،فلا هي قصيرة و لا هي طويلة ، تبلغ من العمر اثنيْن وعشرين عاما، ذات عينيْن بندقيتيْن جاحظتيْن تنُمّان عن القسوة وحب الذات، تتوهّجان بالضجر والضغينة. و كانت ذاتَ وجهٍ قلبيّ ووجنتيْن مرقّطتيْن ببُقَع داكنةٍ مِثلِ صفوف من الجزرِ المتقاربة، يكسو رأسَها شعرٌ كستنائيٌ عكش، أمّا فمُها الكبيرُ المُتْعَب بشكل جناحِ النَّوْرس، فإنّه يكشف إذا ما ابتسمت على مَضَضٍ أسنانا متناسقة،صفات لا تستطيع لفت انتباه أذواق رجال عالية المعايير ،صنفها المفضل ،و رغم ذلك ليس بوسع أحد أن يصنفها فتاة قبيحة ،لقد كان لها في الواقع جاذبية خاصة سحقها تكبرها و أنانيتها و مثالبها الكثيرة.

في المناسبات القليلة التي تجمعها بجيرانها ،قلّما فشلت غرائزهم و قوة ملاحظتهم في اكتشاف مثالب جديدة بسهولة فائقة تضاف إلى القديمة التي يعرفونها ،مثالب تدفعهم إلى تجنبها و النفور منها ،و كانت تبادلهم الشعور و تجاهر برأيها إزاء لهجتهم و فضولهم و لا تمانع إبداء انزعاجها و

نفورها منهم ،و معاملتهم بطريقة جافة غير ودية متحججة بذرائع سخيفة كعدم انسجام أفكارها و أفكارهم و اختلاف ثقافتها عن ثقافتهم .و هكذا لم تعطهم أسبابا ليغيروا نظرتهم نحوها و أصبح تحاشي تعاطي أحاديث معها يسرهم بقدر ما يسرها .

إنّ بمقدور ميرنا أن تُحِبَّ شقيقتَها الكبرى أثيل، و أنْ تعللَ لها بعضَ ما نجحت في سَتْرِهِ عن معرفة الآخرين، منذ فترة غفلت عن تاريخها الأول، أن تشفق عليها على ضوء كشفها سرها العابث ، لولا أنها عقبةٌ بارزة بائسة في طريق زواجها،و عندما أعلنت نزعتُها بضجيج هائل عن رغبتها في الارتباطِ بشاب وقعتْ في هيامِه مؤّخرا،تفاقم بغضُها حيث أصبح أمرُ إخمارِه صعبا للغاية؛ لأنها تجزم مغتمّة أنه إذَا ما رأى شقيقتَها سيميل إلى الإعجاب بها هو الآخر شأنه كمن سبقوه، وإن لم يفعل ستقوم أمُّه بأداء المَهَمّة بدلا عنه.و الأمهاتُ ينجحن دوما في التأثير على أبنائهن.

بالنسبة إلى الشقيقة الصغرى ياسمين ذاتِ السادسةَ عشرَ عاما، والتي كانت ملامحها خليطا غيرَ متكافئ بين ملامح أمِّها و والدها، تنزاح بإخلاص إلى أثيل، و تولِيها من الاحترام والتقدير ما لم يزدْ في قلب ميرنا إلا حقدا ملتهبا على كلتيْهما، لأنها كثيرا ما قرأت في عيون أختِها الصغيرة ازدراءً مقنّعا بواجب المحبة الأخوية. فحتى هذه الماكرة الصغيرة لم تتمكن من كسب ودّها، رغم أنها لم تركضْ في مضمار استدراجِ بُغضها أو بذلِ مجهودٍ ولو زهيد لنيل تجاهلها.

تتميز مليكة: والدتهن التي تحيط بها هالة من الاستقامة و الالتزام بأنّها امرأة فارعة الطول مكتنزةَ الجسم، يقدّرها المرء ضخمةَ الجثة، تعابيرُ وجهِها حازمة متردّية في نفوذ نسويّ صارم دقيق. إنّها امرأة شديدة صلبة كالصخر، لأن الحياة ألقتْ بحِملها الثقيل على أكتافها، بعد قضاء زوجها في حادث عمل مأساوي. لقد وجدت نفسها وجهًا لوجه تصارع دنيا ظالمة مُسنِدةً نفسَها بنفسِها، التفتت يمينا و شمالًا فلم تجد كتفا قويّة تتّكىء عليها، وأضحت للمرة الأولى تتحسّر كمَدا لعدم وجود شقيق أو أب أو ولدٍ يحمل عنها فيخففُ حِملَها،أو يربّت على كتفها فيواسي، أو يبسط أجنحة الهيبة على امرأة و ثلاث فتيات وحيدات. مع أن الشقيقة كانت موجودة قبل عشر سنوات، قبل أن يخطفها الموت، وتقطع كلَّ صلة متينة بأولادها. وبالرغم من امتنانها أيّام شبابها لعدم اكتسابها شقيقا ذَكرا، إذ كانت كلما التفتت حولها توسّمت نزعات الذكورة تقزّم حرية نظيراتها، رغم أن الحرية كانت تستخدمها للمكوث بين جدران المنزل. أمّا وبعد فقدانها زوجها المكينِ في سن صغيرة فليس لها إلا أن تحسدهن على نعمة الأخ، وتلعن ذاك الامتنان القديم..

بقدر ما كانت حريصة على تربية بناتها الثلاث،كانت المخاوف تنقضُّ عليها من كل جانب، إثْر ملاحظاتها المكدّرة لتربية الجيل الجديد من الفتيات. و بقدر ما كانت التربية الناقصة تقُضُّ مضجعها، كانت الملامح الجديدة المخزية في المجتمع تُغرز في عقلها مثلَ أشواك مؤلمة. فبنات هذا

الجيل على حدّ تفكيرها خليعات سيئات التربية، مهووسات متطبعات بطباع أجنبية صفيقة، حتى غدتْ معظمهن يدخّن السجائر جهارا كأنهن مداخنُ مصانع كثيرة النشاط، ويرفُلْن في ثياب مبهرجة فاضحة، تبرز مفاتنهن، و يتمايلن بمُجون في الطرقات كأنهن هِرَرٌ مشردة لا يمتلكنَ مأوى. علاوة على أن بعضهن يقفَلْن راجعاتٍ إلى بيوت أهلهن مخموراتٍ سكارى. أمّا الضيق الذي يخامرها دونما حاجة فهو ناجم عن تفكير تلك اللاتي يجلبن أخدانهُن لتوثيق المعرفة المذمومة بالأهل. أليس كلّ هذا وليدَ التربية الناقصة المبتذلة!،و اللين المفرط في التعامل مع البنات داخل البيوت؟ لا، بل وإن البعض قد ذهب بهم الطريقُ المخزي إلى نهاية مفصولة عن الحشمة فأصبح ولي الأمر يرضى مبتهجا مفتخرا مزهوا بأساليب ابنته الحياتية، وقد بعث الأمرُ في نفسه عتوا و مفخرةً جرّاء سلخ جلدته و زرع أخرى تتناسب و التفكيرَ الجريءَ المتناسق والخلاعة.

كانت سيدة عملية، تحتفظ بمستوى معين راكد من القلق الرشيق المغلّف بالهدوء المتوتر. إنها من النساء اللاتي يُكرّرن ذاتَ السؤال عن نفس الأشياء، يراوغن لسحب الاعترافات من أفواه أطفالهن. لقد بذلت جُهدا لتُنتج نسخة ثانية من زوجها الميت، كما تفعل مُعظم الأرامل، كانت لا ريْبَ سيدةً رحيمةً يكمن في شخصها اتّزان ووقار، ولكنّها اكتسبت نزعة متسلطة أفقدتها عذوبة السلوك النسوي الرقيق،خوفا من استهتار بناتها. و كانت قبل أن تُنْكبَ بكارثة موته تختلف عنه في نعومة أسلوبها، كلامها السلس، وتعامُلها المتسامح مع الأمور حولَها.

عرَفت موقفها من الدنيا قبل أن تسلم بوفاة زوجها، أدركت أنه ينبغي عليها الخروج للعمل، وهي المرأة التي كانت تسبق جولةً قصيرةً رفقة زوجها و بناتها بتخطيط مدروس يدوم أسبوعا، وإن ما قضتها متذمرة شاكية تحّن إلى جدران البيت فذلك ليس ذنبَها، فالبيئة الريفية المنطوية التي ترعرعت فيها خصمت من وجدانها حب الطواف والتلذذ بالحياة في الخارج، وإن كانت تكترث لكلام الناس فيما مضى و تجري حوارا ذاتيا معمّقًا حول أفكارهم ومواقفهم، فلا تستطيع الآن إلا تجاهلهم وإجابتهم الجواب المناسب مع أنهم لم يُبدوا يوما استنكارهم لعملها خارج المنزل.

وقنعت البنات بقلق والدتهن الدائم و قوانينها الحديدية، ولو أن أسلوبها يتخلله إفراط منفّر،إلا أن الأم الصارمة لم يسترع انتباهها إلا صورة البنات المنتزعات من أحضان التربية الصالحة والمنغمسات في أحضان الأخرى المضطهدة، ولو أنها كانت أمّا لينةً كيسةً لما استجلبت إلا معاملة الند بالند والاستهتار بوجودها، مثل زمرة من الأصدقاء المقربين، لا يُميّز الصغير عن الكبير. وقلّما عجزت هذه الأم القلقة عن إقحام نفسها في دوامة الخوف على مستقبل فتياتها الثلاث اليتيمات. فشغلت لياليها المسهّدة بالتخطيط الخائب و التفكير العقيم و الزفير اليائس.

في ذاك المساءِ، جلست ميرنا في ناحيةٍ مقابلة لأمها في المطبخ الضيّق، حاجبة يديها بين ركبتيها، ووجهها المُوشى بملامح الغرام الناصع الغارق في الحب حتّى الثمالة تغمُّره فرحة عارمة، وقد أقرّت رأيها على اتّخاذ هذه الخطوة الضّروريّة، عازمة عزما عنيفا مزدانًا بولعها المغناج برجل أحبّته على مفاتحة والدتها بخصوص مسألة عاجلة.

ومنذ قبضت عليه يهمس في أذن شقيقته بخصوصها ،طفق قلبها يبتهج و عيناها تنضحان بدموع الفرح و عقلها يتورّط في رسم مشاهد حالمة و راحت أحلامها الوردية بحجم المحيطات ترتفع وخيالها يتوسّع و أنامله ترسم و تتفنّن محفزا شفتيها على التبسّم و معنوياتها على التحليق ودافعا ببصرها إلى الشرود الأبله، فتارة تتخيّله يفصح عن عظيم حبّه لها بينما تختلج عيناها وترتفع الحمرة سريعا إلى وجهها من شدة الخجل ،وكنتيجة لهذا الإطراء الوهمي تطرف عيناها طرفا خجلا مغريا كبرهان على حيائها ،و تارة تتخيله يحاول الإمساك بيدها بعد إعلان خطوبتهما_ طبعا_ فليس من اللائق لفتاة محترمة أن تسمح لرجل غريب عنها بمثل هذه الوقاحة، وبذاك الخجل الطري تسحبها و تتركه في شوق و رغبة دائمين، وبحثت عن طرق أخرى لإبداء اهتمامه بها ،فلم تجد خيرا من تحسّسه جبينها بسبب سعالها العنيف إثر نوبة مرض مفاجئة ،فيعاتبها لإهمالها صحتها كما يعاتب الطفل الصغير ،ملقيا أوامره كقائد عسكري صارم بوجوب زيارة طبيب و التزام الفراش. وحدث أن شردت في مشهد دلال مغناج أنيس فتخيلته يطير صوابه من غيرته عليها وينجم عن هذا أن يظلمها بسوء ظنه ثم سرعان ما يكتشف خطأه الفادح في حقها فيهرع لطلب السماح منها و يتوسل إليها أن تعفو عن جرائمه المجنونة، بيد أنها تمتنع عن مسامحته بسهولة، و تقرر إرهاقه لنيل غفرانها و يتحرق قلبها لسماع المزيد من الاعتذارات ،و جلب المزيد من باقات الورود والهدايا المتملّقة لاسترضائها و الاعتكاف أمام المعهد الذي تدرس فيه مثل عاشق يائس .و أخيرا عندما تتيقّن غايتها في تشريده ،تتنازل وتقدم الصفح مثل ملكة تعفو عن مجرم محكوم عليه بالإعدام فيقدرها كجوهرة غالية و ترتفع قيمتها في نظره .و لكي تتحوّل الأحلام إلى حقيقة ينبغي أن تبقى أثيل بعيدة عن متناول ناظريه.

و هكذا سوّغت وعزمت ، رغم كدر أمّها المبلبل الذي يحول دون وصول تذمّرها الساكن المغلول تحت وشاح الرضا المتصنّع، إلّا أنّ البليّةَ لن تتكّرر هذه المرة، كانت مستعدة لأي فاجعة إلا أن يفقد الرجل المتقدم لطلب يدها ، السيطرة على نفسه عندما تدخل أثيل عليهم لتسلم عليه و على أمه و لا يبذل أي مجهود و لو ضئيل لإخفاء انبهاره بجمالها و تحمسه الخرافي لبيع العالم بما فيه مقابل نظرة من عينيها و ينسى أن على جانبه الأيمن أمه و على الأيسر جارهم المسن الذي يمثل دور رجل البيت ،يحل بذلك محل الأب المتوفى و مليكة غير المنتبهة ،و عندما

يخرج من الباب ،يكون قد اتخذ قراره الحاسم بمحوها من الوجود و استبدالها بشقيقتها كما يستبدل قميصه ، و كانت نظرته المنبهرة و حالته المفتونة معبرة كفاية لتدرك ميرنا أن الاتفاق على تفاصيل الزواج ليس ما أعاد الأم إلى بيتهم في اليوم الموالي بمظهر لاهث ،بل توسل مليكة للموافقة على تزويج البنت الكبرى دون مراعاة مشاعر ميرنا المهشمة ،تنفيذا لمشيئة ابنها ،كتمت غيظها في قلبها ،و أقنعت نفسها أنها محظوظة لأن الشاب على ما يبدو سطحي و تافه ، ينجذب إلى بريق الأشياء دون أن يهتم إن كان البريق مبعثه معدن أصيل أو مزيف ،أما المتقدم الجديد ، شقيق زميلتها فإنها و من نظرة واحدة خبيرة أدركت أنه شيء آخر ،لا شكّ أنّه هائم في حبها هي ،إذ لم تعجز ملاحظاته الأريبة عن اكتشاف تربيتها الكريمة و محاسنها المخملية ، التي تجري في مضمار الرفعة الخالصة ، رغم حظوتها بشيء يسير من الجمال الوجهي، ولكن الاحتياط واجب، فلا يستطيع المرءُ أن يحزر تصرّفَ الرجل عندما يرى فتاة أخّاذة للغاية مثل أثيل .

_"أمّي،هل ستطلبين منها ذلك؟"ناشدت ميرنا للمرّة الخامسة، وقد افترش وجهَها تعبيرٌ متوسّلٌ ناعمٌ،و كانت قد قضت الأيّامَ السالفةَ تحوم حول أمّها متحينةً فرصةً للانفراد بها وانتزاع الموافقةِ على رجائها.

فأطلقت الأمّ زفرةً قصيرةً، وتقلّصت شفتاها ،بينما تضاعفت سرعة يديها في تقشير الخضار أمامها، و قد غمر نفسَها انفعالٌ شديدٌ ناجمٌ عن تَبُرّمها،فلم ترفع بصرها إلى وجه ابنتها،في حين احتفظت ميرنا بنظرة الاستعطاف ذاتها، فما كان منها إلّا أن تعيد على مسامعها الرجاء ذاته مدفوعةً بإرادةٍ صلبة متحدية لا تخضع.

_"أمّي،أرجوك انظري إليّ،أعتقد أنّه من المناسب أن تطلبي إليها بليونة عدم حضور الخطبة، سأكون ممتنة لها إن فعلت، آخر مرة سحبت الرجل من يدي " واستحوذ على وجهها مسحةٌ من الأسى وشاب صوتَها نغمةٌ متبرّمةٌ واضحةٌ أفقدت الأمّ قدرتها على الصمت، فأحّدت إليّها النظر متجهّمة لهنيهة ثمّ أجابت:

_" ما ذنبها، لقد التزمت الصمت و لم ترفع عينيها إلى أحد "

وتوقّفت الأمُّ عن العمل المنهمكة فيه يداها، ثم أردفت بصوتها العاطفيّ المعتاد، وأحست أنّها ستكون غير منصفةٍ في حقها إن هي عاتبتها على إصرارها

_ "حسبك يا ميرنا،أخشى أنّ ذلك سيؤلمها،ماذا أقول لها؟إنّ شّقيقتَك لا تريد نزولك لترافقي الضيوف، وأن تلتزمي غرفتك إلى حين مغادرتهم، اسمعي يا طفلتي، إن كان الرجل وأهله يريدونك أنت حقا، فلن يسترعيهم وجود شقيقتك"

أصدرت ميرنا تنهيدة ملؤها السخطُ، وتدفّقتْ إلى وجنتيها حرارةُ الغضبِ ثم قالت ملوحةً بيديها في الهواء البارد الذي غمر غرفة المطبخ

_"كل مرّة تمطرينني بذات الأعذار، في حين أنا لا أجهل الحقيقة، إنّك تضربين مشاعري عُرض الحائط كيلا تتغضّن مشاعر شّقيقتي الوقورة.لست في صدد تبدّيد فرصة أخرى لأجلها، إنّ الشاب مناسب،و محترم أيضا، إنّه يعجبني وأنا لم أعد صغيرة، أضرب لك مثالا بسيطا، ابنة السيّدة نيرمين في مثل سنّي و هي أمٌّ لطفلين "و انخفضت حدّة صوتها الجزع إلى أن تلاشت في السكون المشبّع بالحنق، عندما وجّهت إليها والدتها نظراتٍ حادّةٍ، كانت أحّد من نصل المقصلة الجاهزة لفصل الجسد عن الرأس فاستحالت اللهجة العاطفيّة الأنيقة إلى زجر ثائر

_" يعجبك إذا ! ألم تقولي أنّك لا تعرفينه أم أنّك تكذبين، إن ما اكتشفت أنّ صلةً ما تربطك به سأدفنك حيّةً"

وأدركت ميرنا زَلّةَ لسانها "يعجبها! "فأزبد وجهها،إنّ أمّها لا تتقبّل بأيّ وجهٍ من الوجوه أن تحبَّ إحدى بناتها أيّ رجل،ما أسوأ ما تلفّظت به لتوِّها،ينبغي عليها أن تبتدع كذبة سريعةً بضميرٍ باردٍ،فأسرعت تصحّحُ زَلّتَّها قبل أن تغدو نّظريّةً مسلّمًا بها و لذلك سرعان ما اغتصبت شفتيها الباهتتين ابتسامةٌ خفيفة و امتشقت وداعتها المتصنَّعة من غمدها.

_"أمّي،كيف تتوهّمين ذلك.إنّك من زرع فيّ التربية الصالحة، لا أقصد أنّي هائمة به،لقد سبق و وضّحت لك،هو شقيق إحدى الفتيات اللاتي أدرس معهّن،و إنّها لفتاةٌ رائعةٌ مهذبةٌ،و ليس من الغريب في شيء أن تتحدّث عن شقيقها أمامنا، هي لم تعرض عليَّ الزواج منه بل سألتني بعض الأسئلة العادية و قالت بغير تحليل أن نتوقّع زيارتهم لنا. بناءً على ذلك، استنتجت منها أنّهم يوّدونّي، حسنا لست أنكر أنّني رأيته مرات عديدة، كما أنّه يلمحني بدوره عندما يأتي لاصطحابها من المعهد إلى البيت،لم يحاول قط التكلّم معي، يبدو في الواقع رجلاً رصينًا ومحترما، هذا كل ما في الأمر،و لكن يا أمّي أخشى أن يغيّر رأيه إن رأى أثيل، أو تنجح أمه في التأثير على موقفه كما حدث من قبل ، لهذا أسالك أن تطلبي إليها عدم الانضمام إليهما وأن تلزم مخدعها إلى أن يغادروا، أتفعلين؟"

_"أطلب إليها !أطلب إليها! "كرّرت الأمّ مُقطِّبةً ما بين حاجبيها، يلوح في وجهها اضطراب مسعور، إذْ استعصى عليها سؤال ابنتها الرهيفة طلبا غريبا كهذا.

وفجأة داهمت عقلَ ميرنا فكرةٌ مجيدةٌ،فكرة ستُؤْتي أُكُلَهَا، وتستدرّ عاطفةَ أمِها النسويّة الضعيفة، فاستشرت في وجهها الماكر تعابير ألمٍ مصطنع مرير خادع، كما يستشري الطاعون في المدينة و تلألأت الدموع في عينيها ثم نكست رأسها بنظرة بائسة.

_"حسنا،أعلم تماما ما تبغين،أنت تفضّلين ابنتك الكبرى،إنّك تتحيّزين إلى مراعاة شعور غاليتك أثيل أمّا أنا،،" وصمتت لثوان خائبة ثم أردفت "من يكترث لما أريده أنا،ما الذنب الذي ارتكبته بطلبي هذا،على أيّة حال،لن أفاتحك بالموضوع مرّة أخرى،أشكر لك دعمك"

دفعت كرسيها، وما لبثت أن انتصبت على سّاقين نحيلتين كأعواد الثقاب، ثم أدارت ظهرها متوجّهةً إلى غرفتها، ضاغطة يدا مرتجفة على وجه يائس.

_"انتظري يا ميرنا"صاحت الأم دافعةً كرسيّها إلى الخلف هي الأخرى، في محاولة لتَتُّم جنايتَها الأموميّة الدفاعيّة عن أثيل ،بعد أن زال الوهج الساخط من وجهها متحوّلا إلى حنان دفّاق وانكسرت النظرة المتيبّسة ثم ذهبت في إثرها بخطواتٍ خفيفةٍ،و عندما استوعبت ميرنا إبداعَ خطّتها إبداعا ساحقا ، تمهّلتْ الخطى و استدارت ثم خاطبتها بأدبٍ جمٍ وتعابيرُ البؤس المغشوش لاتزال قابضةً على وجهها،بينما لهجة النحيب لم تنفك تغزو صوتها.

_"لا عليك يا أمّي، أنا أتفهّم أحاسيسك، ليس عليك أن تقلقي سأكون بخير"

_"يا عصفوري الصغير "قالت الأمّ قارصةً ذقنَ ميرنا "كيف يسعك الاعتقاد أنّني أفضّل إحدى بناتي على الأخرى،إنّكن ثلاثتكن بذاتِ المنزلة، والآن "أضافت رافعةً الرأس المنكس "إنّني أعدك، سأطلب إليها ذلك "

فتهلّلت أسارير قلبها حبورًا،و زحف من عينيها بريقٌ متألّقٌ،أكثر تألّقًا من النجوم في سماء صيفية صافيةٍ، وما هي إلّا ثوانٍ حتى فتحت ذراعيها تعانق والدتها بحجم الفرحة النابضة في أعماق وجدانها، و فيما راودتها أحلام الصبايا الصغيرات، انتعشت معنوياتها طروبةً ملوّنةً بألوان بهجتها الحلوة.

_"أشكرك يا أمّي، إنّك الأروع على الإطلاق، لكن...."تثنّت قسمات وجهها قليلا،و فارقت الابتسامةُ الوهّاجةُ شفتيْها متقلّبةً إلى أخرى باهتة يعوزها لطف الابتهاج الساحر .

_" أفضّل بقاءها عند السيدة سميحة،أخشى أن يحبّبوا التعرّف إليها "

ثم قالت بنبرة تنّم عن حذر و فطنة " لا أريد تكرار المأساة السابقة "

_"سأبذل جهدي" أفصحت الأمّ قابضةً برقّة على يديّ ابنتها، و قبل أن تتّم عبارتها المطمئنة، سمعت الباب يطرق طرقًا خفيفا ناعمًا، فأدركت أنّ ابنتها الكبرى قد عادت من عملها متأخِّرة بعض الوقت، السلوك الذي لن تستحسنه قوانينها الحريصة، سيرفعها إلى سقف أصناف التصرّفات غير المقبولة في ديوان أحكامها.

_"لقد عادت ابنتك المحبوبة أخيرا "أعلنت ميرنا بازدراء، زامّةً شفتيها في حركة مستهجنة "لا شك أنّها كانت تتسكّع في بيت إحدى العجائز التافهات قصد توفير مساعدة جمّة،إنّها فائقة الرحمة كملاك طاهر."

بيْد أن الأمَّ لم تلق بالا لملاحظة ابنتها التي يقطر منها اشمئزاز بحت،لقد كانت معتادة على غزوات ميرنا الكلامية غير الموجهة ، وبعد أن أفلتت يديها توجّهت نحو الباب فاتحةً إيّاه بصورة محتدّةٍ، وبرزت أثيل أمام الباب وفي عينيها اعتذار صامتٌ، تنطبع على ثغرها ابتسامة مهذّبة، فأومأت لها أمُّها بحركة من رأسها لتدخل بسرعة، وقد اكتسحت وجهها سحابة من الحنق، وعندما دلفت أثيل إلى داخل الممرّ الضّيق، قيّد بصرها وجهَ شقيقتها ذي التقاطيع القاسية وضّاءً، كأنّه قنديلٌ قوّي النور، وألقت هذه الأخيرة نظرةً أقلُ ما يقال عنها أنّها زريّة، كانت تراها في منتهى السذاجة والغباء في مثابرة منها للتكفير عن ذنوب لا يكفي لغسلها الاهتمام بكل عجائز الدنيا، كأنّها تقامر على ورقة خاسرة، ثم شدّت جسدها في تكبّر و رفعت رأسها عاليا لشعورها بالرفعة الطاهرة والكبرياء المنتفخة، وأدارت ظهرها، تلا ذلك صعود السلم ببطء عاقدةّ ذراعيها تحت صدرها الضامر، قاصدة غرفتها في الطابق الأوّل ، فيما وجّهت الأمّ سؤالاً حازما إلى ابنتها، و لكنّ عاطفةً محدّدة طوّقتْ صوتها.

_"أثيل،حذّرتك مرارا أنّه يمنع عليك البقاء خارج البيت إلى هذا الوقت" والتفتت متضايقةً موجّهةً نظرها صوب الساعة البرونزية المعلقة على الحائط القريبة إلى السقف والتي تشير عقاربها إلى السادسة و النصف.

_"أين ياسمين؟ "استوضحت أثيل، مشرئبةً بعنقها تنقل بصرها في غرفة الضيوف

_" إنّها في الأعلى ترتّب غرفتها، لماذا تسألين عنها؟ "هزت الأمّ رأسها مبديةً تعبيرا قلقا في وجهها " لا تحاولي الإفلات من السؤال،أخبريني أين كنت؟"

_"في منزل السيّدة صفية" ولاحت في عينيها السوداوين عاطفةٌ ناعمة فأضفت عليها مسحة من الاعتذار، واتّخذت لهجتها طابعا معمّقا من العطف الفاخر، فيما أفصح وجه والدتها عن بعض القبول و الرضوخ، رغم أنّ عينيها ظلّتا محتفظتين بذات النطرة المحتدّة.

_"لقد ساعدتها قليلا في تنظيف المنزل، و رتّبت لها أغراضها المبعثرة هنا وهناك، ثم أفضت إليّ ببعض الذّي يقلقها،و جرى حديث عن زوجها الراحل، و هكذا مرّ الوقت دون أن أنتبه إنّ من الصعب أن تعيش عجوز في مثل سنّها وحيدة."

_"من الجميل أن أعلم أن ابنتي تساعد أحدا ما بحاجة إليها"علقت الأمّ بمرونة متأثّرةً بصنيع ابنتها الكريم" ليس سليما أن تعودي متأخّرة إلى المنزل دون أن تعلميني ،عزيزتي إنّك تعلمين أنّني

أبقى قلقةً عليك عندما تطيلين البقاء في الخارج، يمكنك زيارتها بعد انقضاء فترة العمل الصباحيّة أو بوسعك ترك العمل بوقت مبكّر،أشكّ أنّ السيّد إبراهيم يمانع مغادرتك لمساعدة عجوز مثله"

_"لا يمانع!!! طبعا إنّه يمانع "هزّت أثيل رأسها هازئةً تقريبا، واسترجعت في خيالها هيئة إبراهيم بقسمات وجهه المكفهرّة المظلمة، تتميّز دائرة فمه بوجود خطوطٍ تدلّ على تشدّد طبعه، أمّا الخطّ البارز العميق؛ فيقع بين حاجبيه جرّاء عقدهما بصفةٍ مستمرة "إنّه لا يغفر أن أتأخّر دقيقة واحدة، أو أغادر العمل قبلَ الوقت المحدّد"

الفصل الثاني

تطابقت عقارب الساعة عند الرقم تسعة، و كانت إحدى ليالي يونيو الحارّة كأنّها حممٌ منصهرةٌ محمرّة تتدفّق من باطن البراكين، و كان الهواء الساخن مفعمًا بالرطوبة يُستنشق بصعوبة مسبّبا موجة من السعال الحادّ. تحلّق أفراد العائلة حول الطاولة الخشبية البيضوية الخشنة، والتي تآكلت زواياها من شدّة قِدمها، وخيّم الهدوء على الغرفة الواسعة المنسّقة شحيحة النور، ذاتِ الجدران الرماديّة الشاحبة المقشرة ، و الستائر الزرقاء الضاربة إلى البنفسجي المسدلة القصيرة ،في زاويتها آلة الخياطة، وبجانبها صندوق خشبي مفتوح ،ترامت على أطرافه أصناف ملونة من الأقمشة ، و في الزاوية المقابلة سرير معدني ضّيق.

تصدّرت الأمّ ذات القسمات العابسة الطاولة كما هو مألوف، واضعة مسبحة الخرز جانبا، فيما اتّخذت أثيل مكانها المعتاد إلى يمينها وميرنا إلى يسارها، و جلست ياسمين المشاكسة الضاحكة بجانب أثيل لا تصدر أيَّ ضجّة فيما عدا بعض الضحكات المكتومة و الحركات ذات المعنى بالنسبة لها بعد تشديد الأمّ تعليماتها الصارمة فيما يتعلّق بتحاشي إثارة انفعالها، كانت تبدي شيئا من الطيش الصبياني المناور ثم تبتسم موزّعة نظراتها بين الثلاث عشوائيا، جالبة الابتهاج إلى نفسها يتبع ذلك قرص أثيل من حين لآخر تحت الطاولة.

كما هي عادتها لم تكن أمّها لترفع عينها عنها ساخطة لائمة، ومعيدة إيّاها إلى الهدوء إن ما تعدّى همسها الحدّ المعقولَ، أو تجاوز سلوكها الحدود المرسومة، حيث لم تكن تستحبُّ عادة الحديث أو الضحك حول مائدة الطعام، أمّا ميرنا و على غير عهدها الفظّ، أشرق وجهها بانتظار إعلان أمّها نبأَ خطوبتها، و شعرت بحنان مفاجىء نحو الجميع ، لقد لمحت والدةَ الشابّ تغادر منزلهم بعد ظهر اليوم.

كان يضطرم في عينيها الحالمتين الجاحظتين وميضٌ مثيرٌ ،متجّهةً بكل تفكيرها إلى مرادها، إذ ما انفكت تتحقّق من هيام الشابّ المتقدّم لطلب يدها، و كلما تتذكر اتساع ابتسامته و تضخم رقة نظراته ، يطفح قلبُها بسرورٍ فاره، و تعتريها سعادة نابضة. تضفي على وجهها سحرا و فتنة تفتقد إليهما فالشاب يجمع بين الوسامة و رغد العيش المستنتج من امتلاكه سيارة .

راحت عيناها ترصدان بدقّةٍ متناهية وجه والدتها عديم التعبير،تحدوها الرغبة في إغاظة شقيقتها، ولا سيّما الملعونة الصغيرة التي تعيّرها كلّما أُتيحت لها فرصة.

_"أمّي,أليس هناك نبأ ينبغي أن تعلنيه "قالت ميرنا بعد أن تداعى صبرها، تبتسم مزهوّة بصيدها رجلا وسيما من عائلة ذات نسب.

_"ليس الآن، سنتحدّث فيما بعد "أجابت مليكة بحزم دون أن ترفع بصرها ثمّ ملأت فمها بملعقة من الحساء".

_"لماذا،إنّنا متحلّقات حول الطاولة وإنّها لفرصة مناسبة،لماذا لا تخبرين شقيقتي أنّ عائلة محترمة عازمة على طلب يدي؟ "

فرفعت لها أمُّها عينيّن متأسّفتين، تنهدت ثم قالت:

_"إنّه غير مناسب لكِ، لقد قابلت أمَّه بعد ظهر اليوم، و تبدو عجوزًا متسلّطة، لن يناسبك الزواج من ابنها. "

هزّت ميرنا كتفيها استهجانا

_" و ما علاقتي بها،لن أتزوّجها هي،سأتزوّج ابنها،هل تخفين عني شيئا؟"

تدخّلت ياسمين بعفَويّة طفوليّة، وبشكل دّفاعي ماكر، ترتسم على شفتيها ابتسامة النكاية، موجّهة ضربة موجعة لشقيقتها " لا شيء إلّا أنّهم طلبوا يد أثيل "

وسرعان ما حدجت مليكة ابنتها الصغرى بنظرة مؤنّبة قاسية، وبنبرة آمرة ألزمتها الصمت و إلّا نالها منها عقابها العسير، وهي تعرف طبيعة هذا العقاب، فانكمشت مثل سلحفاة، أمّا ميرنا المصدومة؛ فقد تأخرت لتصدق ،بل إنها بذلت مجهودا جبارا كي تحول دون ذلك ،لكنها عندما نظرت إلى أمها ،أدركت أن ذاك الحدث الدموي يتكرر من جديد و يتكرر بصورة وحشية هذه المرة ،عندئذ أظلم وجهها حنقا و انعقدت أمام بصرها سحابة قاتمة من الخذلان الفاجع ، وسرعان ما عضّت شفتها بفعل غيظ حبيس، و عادت إليها ذكرى الهمسات الخادعة و الابتسامات المنافقة من حبيبها الوهمي ، و ذكرى أحلام النهار الساذجة التي راودتها، فأحست بكراهية سوداء تستقر في أعماقها لكليهما، وأرسلت نظراتها المعتمة إلى أختها، راشقةً إيّاها بعينين تقدحان شزرا، عينين ملتهبتين تتلظّيان حقدا، كأنّهما فوهتا بركان، تكتسح سحنتها دلائل بغضها الأول، ثم راحت تضغط بأصابعها على جبينها المتغضّن،لم تكن تلك الابتسامات المشعة تهدى لها بصفتها محط إعجابه بل بصفتها شقيقة الفتاة التي يريد و كان باستطاعتها الآن أن تحزر مضمون تلك الهمسة :أترين تلك الفتاة ؟نعم تلك، إنها شقيقتها .

أمّا أثيل؛ فإنّ إنقاذ نفسها من نظرات أختها، كان أصعب عليها من إنقاذ نفسها من براثن نمر هائج، و لذلك تحاشت النظر إليها، فطفقت ترفع الملاعق المتلاحقة إلى فمها دون أن تستبد بها رغبة في ازدراد المزيد من الطعام، وبدت للعيان كأنّها لم تتذوّق الطعام منذ أيام، ثم ما عتمت أن وضعت الملعقة جانباً بعيداً عن متناول يدها، لأن الفرار بعينها ليس بالمجدي، مغيّبةً يديها تحت الطاولة،موزّعةً نظرات حائرة بين ياسمين و أمّها، متسائلةً في سرّها عن السبب الأخرق الذي دعا

شقيقتها الصغرى لزجّ هذا التصريح على طاولة العشاء، و ما إن استقرت عيناها على وجه ميرنا حتّى قبضت عليها ترميها بنظرات قاتلة مثل رصاصة من فوهة مسدسٍ آلي، وكان وجهها المُكشِّر مثل ثمرة فجّة و قد تجمّد الدم في عروقها.

إنَّ ما حدا ميرنا إلى الامتعاض الآن بالذات، كون شقيقتِها تتصرّف كأكثر الفتيات حشمة وعفّةً و براءة و تأسفا لأن الشاب اختارها هي ، فيما هي مطّلعةٌ على الحقيقة التي تنطوي عليها هذه الهيئة البريئة النقيّة الدعائية ،لا شك أنها تتلذذ بشعور الفتاة المرغوبة ، وفضحت عيناها البندقيتان عمقَ العصبيّة الشوهاء التي عصفت بها و التي اعتادت كبحها لتحولها إلى دموع بائسة تبكيها في الخفاء ، إنَّ امتلاكَ شقيقة كأثيل ليس مكسبا، بل لعنةً شريرّةً، وفيما لا تزال نظرتُها مسمّرةً عليها قالت الأمّ بصوت خافت هادئ الرنّة يشي بمواساة:

_" أنصتي يا ميرنا ،لم أكن أودّ إطلاعك، و لكنّ لسان شقيقتك ينفلت منها " وثانية رمقت ياسمين بنظرة توبيخ " ليس لأثيل أيّ ذنب،من البداية لم تكوني أنت من وقع عليها اختيار ذاك الشاب،لقد التبس الأمر عليك، زارتني والدته تحاول إقناعي أنّها تريد ابنتي الكبرى تنفيذا لرغبة ابنها الملحاحة،و وضّحت لها بفائضٍ من الاحترام أنَّ أثيل ترفض الزواج الآن، اقترحت اسمك دون المسّ بكرامتك ، ولمحّت الى قبولي المُضْمَر على تزويجك،إلّا أنها كانت مصرّة على طلب يد أثيل، و هكذا غادرت المنزل خائبة، كفّي عن رشق أختك بهذه النظرات، فليس لها يد في رغبة الشابّ و أمّه " نطقت أمرها الأخير بجزم و بشكل منفصل.

ما أشدَّ وطأة هذه العبارة الخالية من أيّ منطق سليم، المفتقدة أبدا إلى روح العدل الرشيدة، كيف ترتفع إلى شفتيها بهذه السهولة؟،و لولا أنّ تلك الشقيّة الصغيرة فتحت فمها لما كانت لتعرف بسرقة شقيقتها الكبرى فرصة أخرى من بين يديها،قالت كاظمة غيظها بكبرياء مشروخة، معدّلةً من وضعية جلوسها، حيث رفعت ذقنها في حركة توحي بشموخ متكلّف

_"حسنا يا أمّي،إن كانوا لا يريدونني، فأنا أيضا لا أريدهم، ولكن أرجوك أن تسألي شقيقتي لربّما هي موافقة"

_"لست موافقة "أجابت أثيل بسرعة و قد تولى وجهَها تعبيرٌ مرتبك

_"و لماذا؟ هو شابّ جيّد يا أثيل "عبّرت بحقد ممزوج بالسخرية "عليك أن تعطينا أسبابا مقنعة لعدم رغبتك في الزّواج،لا تقولي إنّك ربُّ الأسرة وتتحجّجي بإعالتنا، فنحن لم نعد بذاك المستوى من الفقر،إنّ بوسعنا الآن تدبير أمورنا من دونك،نودّ معرفة أسبابك يا شقيقتي، من غير المعقول استمرارك دون زواج إلى الأبد، كلّهم يريدونك كما ترين "وابتسمت بخبث" وكلّ العجائز الطيّبات يملن إليك،أرجوك أن تشرحي أسبابك".

احمرّت وجنتا أثيل تّوترّا،فقد استدلّت على السخرية في حديث ميرنا، ثم أجابت متلعثمة

_"ياسي لا تزال صغيرة... كما أنّني...." وبالنظر إلى أسلوب الفخاخ المتّبع من طرف ميرنا،لجمت لسانها و عجزت كلماتها عن الشرح.

_"كما أنّك ماذا؟" صمّمت ميرنا على استزلالها، مراقبةً شفتيها لتحرجها ،بينما قلبها يستعر غضبا هامدا .

"إنّها جوهرة "تدخّلت ياسمين ثانية بلطف" وهؤلاء الرجال لا يليقون بها، يجب أن تتزّوج رجلا فذّا،لطيفا مثلها."

_"اااه!! إنّها جوهرة حقّا" قالت ميرنا بعينين عصبيّتين و لهجة مفعمة بالاستخفاف.

_"كفّي عن استجواب شقيقتك، فإن ما سألتها شيئا آخر لن أغفر لك "قالت الأم بانزعاج ثم ختمت الحديث

_"و الآن لا أريد جدالا حول الموضوع، لقد انتهى النقاش،إنّ الباب يدقّ،لا شك أنّها السيّدة نظيرة، تأخّرت عليها فجاءت تستعجلني، وعدتها باختيار القماش سويّا، سأعود بسرعة، ياسمين إلى غرفتك فورا،و أنتما إلى غرفتيكما أيضا سأتولّى التنظيف و رفع الصحون بنفسي بعد عودتي " وعلى الفور نهضت ياسمين طائعة، وعبرت الغرفة ثم الممرّ و هي ترنّم نشيدا ثم سرعان ما تلاشى صوتها الشجيّ.

ما إن غابت قامة والدتها الفارعة خلف جدار الغرفة، و سُمع صوت إغلاق الباب خلفها، تخلّت ميرنا عن هيئتها المستكينة القانعة وثارت بواعثها الوجدانية منعكسة على وجهها الملتهب غيظا، العاجز عن إخفاء الاحتقار والكراهية، المصطبغ بلون الخيبة المرّة، يتقاطر حقدها كدهن لحم مشوي، و كأنّ شيطانا رجيما استبد بها، و هاهو رأسها قد أضحى مرفوعا بصورة تشي بالحنق الوثّاب، مسمّرة عينيها على الجدار المقابل لها مكوّمة فمها، في الوقت الذي خامر أثيل إحساس سقيم بأنّ الغرفة ذات الجدران الصمّاء صغيرة جدا ليسعها تحمّل الثورة الكامنة في ثنايا هذا الجسد النحيل، و أقدمت على حركة مواسية إيقاعية ندمت عليها ندما جامحا، حيث أنّها قالت بلهجة مشفقة و صوت زاخر بالعاطفة "ميرنا...لا تحزني...."

ما إن أحست هذه الأخيرة بمواساتها الوقحة، حتى احتقن وجهها واستفحل جنونها، فرمقتها بنظرات خبيثة تشي بالاتّهام كاشفة غيظها العاصف وراء قلاع الصمت الملتاع، وكانت نظرتها في الواقع رحيمة أنيسة إذا قيست بما يملأ قلبها من السواد المستشري، مما جعل أثيل تتراجع عن خطوة المواساة تلك.

_"أتعرفين يا أختي "نطقت ميرنا بقسوة، و قد طبعت شبه ابتسامة لئيمة على زاوية فمها، وراح الاحتقار يغالب الاشمئزاز في صدرها، واعتراها إحساس مفحم بكراهيتها لشقيقتها من صميم قلبها

_ "إنّني شاكرة لفضلك لأنّني سأبقى عانسا ما حييت، أرأيت!! ليس من فرق بيننا طالما أنّ مِقصلتك الظالمة حكمت على كلتينا بالذنب" .

منذ عرفت ميرنا بسر أختها ،لم تنقض وعدها لنفسها بعدم مكاشفة شقيقتها و لو لمرة واحدة ،و لم تسمح لأي فن من فنونها الحاقدة بإخراجها من محرابها الكاظم للغيظ،لا سرقة رجالها ،و لا عدد مبغضيها الذي كان يرتفع في الوقت الذي يزداد عدد محبي أختها و لا البراءة المتصنعة ،و كانت تنفس عن اشمئزازها بالتلميحات و النظرات القارسة ،أما اليوم فلا توجد قوة في العالم تستطيع منعها من البوح ،استطردت "أنت لم تعدّي أمامنا ذنوبك إلى الآن،إنّ خدمة العجائز الهرمات وهذا الوجه البريء المتصنّع لن يكفّر عن خطاياك،إنّك تفترضين أنّني لا أعلم سرّك الدفين، ذاك السر المقزّز الذي يمنعك من الزّواج، رغم أنّك فارهة الحسن، والرجال يتهافتون لنيلك. "

كسف وجه أثيل واتّسعت عيناها مذهولة، وهي التي تظن واهمة أن سرّها في مأمن مؤْصد، فيما تابعت ميرنا بنبرة ناقمة، مرتجفة من الغضب الثائر

_ "لقد مزقت نفسك لأجلنا، كنّا عبئًا ثقيلا عليك كما ترجّحين، ما أشدّ ما ظلمتك الدنيا؛ لأنّ الأفواه الجائعة كانت تنتظرك لتطعمها و الأجساد المريضة لتعالجها،أليس كذلك؟ "

تجرّعت أثيل ريقها بصعوبة و جمدت مقلتاها، وخافت خوفا مميتا تغلغل إلى أحشائها مفكّرة ببؤس"إنّها تعلم"، لكنّ، لا، لا يعقل أن تعلم، لقد حرصت على دفنه و كتم صوت فداحته،قالت في نفسها :كل ما في الأمر أن ميرنا قررت منح ترقية لردود أفعالها من التفاعل بالصمت المجروح إلى التفاعل بالكلمات عن الخيبة ،فهي اعتادت على عدم قول شيء بعد كل واقعة خسارة رجل .

_"إنّ من المشين أن أخبر عارك لأحد، فكما لطّخك سيلطخني أيضا، سيلتصق بجسدي كما التصق بجسدك، وستوجّه إلينا أنا و ياسي أصابع الاحتقار و الوضاعة ما حيّينا، سيقولون، إنّهما مثل شقيقتهما، لا تنخدعوا بوجهيهما البريئين، إنهما عاهرتان ماجنتان أيضا، ألم تكوني عاهرة يا أختي؟."

أحسّت أثيل أنّها تلاشت، زالت من الوجود، تبعثرت في الأثير الرحب، أحشاؤها ذابت،وعيُها تبخّر،أفكارها تعثّرت و سقطت، فلم تجد جوابا كأنّها تواجه معضلة معقّدة لا حلّ لها،جلست متيبّسة مثل صنم حجريّ، ليس إلا خفقات قلبها المتسارعة مؤشر حيويّ،يدلّ على بقائها حيّة،

فضلًا عن ارتعاد يديها، واطّراد أنفاسها،خسف لون وجهها خسوفا تامّا، وابيضّت شفتاها الجافّتان بياضا مريعا حتى غدتا مثل غطاء الطاولة الأبيض، و سرت في جسدها رعشة قويّة، وحاولت أن تعثر على صوتها لتسأل وتتفاعل وتدافع عن نفسها، فلم تجده، لقد اضمحلّ وتهشّم، واستولى عليها ذهول كامل فمضت تحملق إلى ميرنا كما يحملق اللّصّ المبتدىء المقبوض عليه في مسرح الجريمة.

لا تعرف ما ينبغي قوله بمناسبة حلول هذه الكارثة المدمّرة،لا،لايعقل أنّ ما سمعته حقيقيّ، ربّما ميرنا تنوح فارسها المغوار و أحلامها المغتالة فحسب، و لكنّ جرسا رنّانّا أرغمها على عدم الفرار من الواقع، عاهرة، نعم قالت عاهرة، فلا سبيل للشكّ إذا، لقد عرفت وشعرت كما لو أن العالم بأسره، باستثناء أمّها مطّلع على مخازيها الموءودة،جميع الأصدقاء والجيران تذكّرتهم في شريط سريع مفزع، فزاد من رعبها، بينما توغّلت كراهية جارفة إلى الوجه المكلوم بسرقة الحبيب فأضافت ميرنا

_"من الظلم أن نقسر على دفع الثّمن معك،نتيجة بيعك نفسك لعدد من الرجال،الله يعلم كم عددهم،اااه أعرف، أعرف، لا تفسّري. كنت مضطرّة فأمّنا كانت على فراش الموت،و نحن كنا صغارا، وليس بوسعي أنا الفتاة الأنانيّة تفهّم أسبابك،أنا التّي لم تخْدعني مظاهرك البرّاقة يوما، لم يخدعني تقمصك دور الملاك الشريف، في حين دوّخت الجميع، إنّما أنت كذبة جميلة يا أثيل، بل سلسلة من الأكاذيب،كلُّ شيء فيك مغشوش،أخلاقك الرفيعة،طهرك المقدّس، لباقتك الخادعة، شغفك الوحيد هو إغواء أكبر عدد من الرجال وجمعهم حولك، يُشعرك هذا بالتفوّق، بالعظمة، بإرضاء غرورك بفتنتك، عندما تسلبين رجلا من امرأته،لا بد أنه كان هناك وسائل أخرى شريفة لا تجلب لنا العار و في أسوأ الحالات ما كان ينبغي أن تلجئي إلى ما لجأت إليه،أنت الآن لا تجهلين أسباب كراهيتي، لقد دفنت دوافعي في قلبي لوقت طويل، وأنا أعيش تحت سقف واحد مع عاهرة "

و إذا كانت في اللحظات الأولى،لم تصدّق أن شخصا ما على سطح هذه الأرض كشف مصيبتها، فإنها الآن و قد ابتعدت عن هول الصدمة،أدركت أنّ ما تسمعه صادر عن فم بشريٍّ ناقم تماما كصاحبته

_"أرجوك" قالت بعد استعادتها صوتها الحبيس بين قضبان فزعها،و التقطته ميرنا خافتا محطّما " لا تتلفّظي بهذه الكلمة "توسّلت و عبرت عيناها، لم تشعر في حياتها بالبؤس كهذه اللّحظة.

أطلقت ميرنا تأوّها عميقا هازئا

_" اااه،لا بأس نبّهيني دائما يا شقيقتي، سأعمل على تحسينها و تزيينها لأجل قلبك المرْهف، عاهرة شريفة، أيناسبك؟ فأنت لم تمارسي عهرك تحت سقف بيوت الدعارة، بل كنت تذهبين إلى شقق محترمة، تغرين رجالا فاضلين متزّوجين وعزّابًا، لا تبكي أرجوك، فقد اهتديت إلى التوبة في الوقت المناسب، وغدت مساعدة العجائز والناس كفّارةً رائعة وهكذا، هكذا "وفتحت ذراعيها مثل ممثّل شرّير بارع في مسرحية حزينة "تحوّلت داعرة الشقق إلى فتاة محترمة عفيفة في أعين النّاس، هل تشعرين ببعض الراحة؟،لديك أسبابك،كنت تتقنين الدور بمهارة، مسكينة، تقمع الجوع و المرض، كان طرقهما على الباب عنيفا "

وانحرفت لهجتها الساخرة إلى غلظة خشنة

_ "إنّ أمّي إذا علمت في هذه اللحظة أنّك عالجتها من ممارسة العهر لارتأت الموت،و لهذا أنا أستنكف عن إخبارها،لا تعتقدي أبدا أنّني أسدي معروفا لنجسة مثلك، لست إلّا نجسة، ولن تكوني جوهرة، الجواهر غالية أمّا أنت أنت......."

_"أتوسّل إليك،توقّفي "تضرّعت أثيل بصوتٍ منتحبٍ يئنُّ بثقل المرارة"كيف علمت،لقد مرّت أكثر من خمس سنوات على ذلك "

_"حتّى لو مرّت قرون يا شقيقتي،هناك أمران لا يسعنا إصلاحهما مهما فعلنا، الزجاج المحطّم والشرف المثلوم، و الأمور التي لا تُصّلح، لا تنسى ببساطة، أمّا كيف علمت؛ فاسمحي لي بالاحتفاظ بحق الصمت فيما يتعلّق بالمصدر، على أن أسرّي عن خاطرك المفجوع بقضيّة أنّ سرّك لا يزال مدفونا بالنسبة للآخرين ، و هو من حسن حظّ عائلتنا المحافظة. بهذه المناسبة الحارّة،و كوني أكاشفك بمكنونات روحي "و بدت و كأنّها تتلذّذ بإهانتها، تستطيب ماء عينيها المنهمر، تطرب لعذابها هذا الذي كان مسطورا بجلاء على وجهها الأبيض المتسربل بسربال الفاجعة،فاجعة أنّ شّقيقتها تعرف مخازيها المدفونة تحت ثّرى تعاقب السنون.

_"دعيني أعرب عن انبهاري بك، أفلحت في هذه المسألة،و استطعت بتكتّم ماهر حفظَ نفسك وحفظنا بعيدا عن صيت الفضيحة،أحمد الله لعدم علم أحد،و إلّا لاضطُرّرنا إلى التزام البيت،سيرجمنا النّاس بنظراتهم قبل ألسنتهم، وكنا سنجبر على ترك المكان والانتقال إلى حيث يجهل النّاس ماضينا المَعيب، و علاوة على هذا، يتعيّن عليّ شكرك؛ لأنّك لم تلطّخينا بأطفال السّفاح، إنّ أمّي المسكينة السَاذَجة لا تسمح لنا بالعودة متأخّرات إلى المنزل، وتمنعنا من النوم في بيوت صديقاتنا، وهي جاهلة أنّك قضيت وقتا مخزيا في أحضان الرجال، اعذريها يا شّقيقتي، لو أنّها تمتلك بعض الحذق و النباهة، لانتبهت إلى ما كنت تفعلينه خلف ظهرها" فخفضت أثيل رأسها و عصرت عينيها عصرا عنيفا ،تنسلخ روحها كشّاة مذبوحة عاجزةٍ.

"وحيث أنّها تثق فيك ثقةً عمياء،و كما هو مدرج لك،الشرفاء جدا لا ينساقون إلى قراءة انعدامه عند الآخرين، لا سيما إذا كانت ابنتها التي قوّمت تربيتها و طالما تلت على مسامعها ضرورة المحافظة على الشرف نظيفا، لقد كانت تتصوّر أنّك تعملين عملا محترما، وأنّك سلخت نفسك في العمل، ويا الله لو تعلم ماذا كان ذاك العمل، ستموت من العار سيكون أسوأ عليها من سكرات الموت " تأجّجت نار الحقد في قلبها لأنّه وجد مرتعا خصبا،و لأنّ الصدمة خنقت صوت أثيل، فهي لا تقول شيء و تكتفي بالإنصات مرغمة، إنّها لم تنظر يوما إلى فعلتها من هذا المنظار، بل كان ضميرها على الدوام يتحفّز ليسوّغ لها، أمّا في هذه اللّحظة البشعة الممضّة، فتستطيع تكوّين صورة تامّة لكيفيّة تصرّف النّاس معها عندما يعلمون، فإذا كانت أختها، هذه التي انتفعت من تضحيتها تواجهها بهذا القمع فماذا إذا سيفعل الغرباء حيال عارها، ونهشها الألم وأرمض الأسى فؤادها بينما كانت عينها ساجية لا تطرف، و بينما تصبّبت الأحاسيس الجزعة، تتدافع كجيش فارٍ و لكنّ أين عساها تفرّ.

_"وعندما كانت أمّي تحدّثنا مطمئنة عن الشرف و الرجال،و أنّه ليس من اللائق لنا كفتيات محترمات قبول هدايا منهم أو التحدّث معهم، أو قبول أن يقلنا أحدهم بسيارته، و إن كان الوضع يحتّم علينا، كانت عيناي تتسمّران تلقائيا على وجهك لأتوغّل في تعابيره و أتبيّن احتمال شعورك ببعض الإثم بصورته التي ينبغي بروزه عليها، و لكن عبثا بحثت، كنتِ دائما تبدين كطفل مؤدّب شغوف، يستمتع برواية أمّه لقصة مثيرة، وكأنّك كاملة الشرف، لست أقلّل من شأنك، بل إنّني أطريك مغالية، ينبغي أن أنحني إجلالا لبرودة أحاسيسك وأصفّق لك تصفّيق الجمهور المنبهر بعرض ممثّل مسرحيّ مبدع "

فجأة انقلبت السخرية في وجهها إلى سخط جامح فتجعّدت تعابيره، وغاضت الابتسامة المتهكّمة في ظلمة الروح السوداء، وأضحى ظاهرا أنّ ما قيل سيبدو رحيما إذا ما قيس بالقادم

_"وأفضل فكرة زرعتها في رأس أمّي، كون الزواج لديك قضيّة ليست بالمُهِمَّة، لأنّ ياسي لا تزال صغيرة والبيت الخالي من شخص الرجل يحتاجك،ها كما أنّك لست متعجّلة، لا أستطيع إلّا القول أنّك موهوبة يا شقيقتي في خلق الأعذار الملائمة كلّ الملاءمة للمناسبات الرفضية، فاليوم هذا عذرك، و غدا تتذرّعين بأنّك تخلّيت عن فكرة الزّواج نتيجة تقدّم عمرك،ثم في المستقبل تضخّين أعذارا أقدّرها من الآن بالممتازة، أعذارا تنجيك من مغبة الجواب، فأنت تدركين أنّ الرجال لا يغفرون مثل هذه الخطايا، وإن اتّفق وعرف أحدهم لن يقبل حتى النظر إلى وجهك، حتى مع هذه الفتنة التي يتردّى بها، سترزح تحت وطأة الاحتقار، وتلك العجائز الخرفات الوحيدات،إن خانك الحظّ و عرفنّ، لن تقبل أيّا منهنّ استقبالك، لن يرضين أن تدنّس أقدامك بيوتهنّ المباركة،

فالمجتمع يا غالية أمّي لا يرحّب بتعاطي حرف واحد مع ساقطة،و أنت بالطبع تشاركينني الرأي "و ارتفع صوتها الجارح كأنّه صوت سفّاح يقتل أعصاب الضحيّة قبل ذبحها

_"ليرحم الله أبي،عندما عرفت،فكرت أنه لا بد يتعذب في قبره من أفعالك،لا بد أن روحه لن تنعم بالراحة أبدا ، وأنت من أنت؟ لتحطّمي شرف أبي،من أنت لتلوّثي اسم عائلتنا؟، لقد ضقت ذرعا، بعد أن تجمّلت بالصبر، ضقت بك ذرعا توهمين كل الخلق بفضيلتك، تخنقينني وأنت تبتسمين وتعيشين حياتك بطريقة طبيعيّة في حين ينبغي أن تموتي خجلا، سئمت من اغتصابك كل رجل أريده،إنّك تقطعين السبيل أمامي كل مرّة للظفر برجل،أنت التي تتعلّقين بحبال فلاحك في إغواء أيّ رجل وأسره بمفاتنك،أنت أيّتها الملوّثة، يا من تتلفّعين بشال الطهر والطيبة، إنَّ الشّيطان لا يصحو أبدا من نشوة الاعتزاز بك،و إنّه ليتّخذ ظلّا مترنّحًا سكّيرًا خلف نفاقك،و الآن،،"ووقفت شامخة ثم انحنت نصف انحناءة وقالت بصوت حزين يصحبه ازدراء

_" أنا أكبر مواهبك الفذّة "وعندما انتصبت ثانيةً انبثق من الحدقتين البندقيتين كراهية نكراء ممزوجة بألم حبّها الخائب المطعون و أملها العاثر المسحوق و نحيب قلبها المسكين ثم أضافت بكآبة لم تظن يوما أنها ستشعر بها بهذا الحجم

_"إنّ ما يجلب العزاء إلى قلبي،أنّه يوما ما عندما تحبّين رجلا حبّا صادقا، لن تظفري به، بل ستتحطّمين من بعيد مثل منفيٍّ عن الموطن، ستتمزّقين إربا إربا مثلما مزّقت قلبي مرارا،مرارا "

دفعت كُرسيّها بعنف حتّى ارتطم بالأرض محدثا صوتا مدوّيًا، ثمّ اندفعت خارج الغرفة حانقةً مسرعةً ناهبةً الأرض تحت قدميها إلى أن غابت هي الأخرى عن مرأى أثيل، ممتصّة هذه المكاشفة الحقودة جزءا ليس باليسير من ثورة الغضب المستشرية فيها، وسمعت أثيل الباب ينفتح، فأدركت عودة أمّها من الزيارة المقتضبة وسمعتها تنادي شقيقتَها، فأسرعت تنسّق تعابير وجهها و تكفكف دمعها، إنّ من شأنها فقط إظهار نفسها أمامها برباطة جأش، من شأنها فقط عدم استعراض كآبتها، واضطراب معالم وجهها أمام ناظريها أو أن تخلّف في عقلها نوعا من الحيرة التي سرعان ما تتحوّل إلى استجواب عمليّ، مؤنب، بنّاء ومرعب. وإن ما استخلص عقلها شيئا من الحقيقة، فإنّها لن تغضّ الطّرف عن فعلتها التي ستشينها عارا و هوانا.

لقد عرفتها منذ نعومة أظافرها امرأة مستقيمة،روحاً و جسدا استقامة حقّة، الفضيلة والشرف و الطهارة تعاليمها المقوّمة التي لا تتجزّأ عنها، و لن تغفر لها إن ما أماطت الستار عن خزيها، ستموت كمدا. من المرجّح أنّها ستقدم على قتل نفسها، لأنّ أثيل هرعت إلى ذاك الطريق لتنقذها من براثن الموت، وهي أكثر من أيّ إنسان آخر تعترف بحقيقة تفضيل أمّها الموت على الحياة طالما كان الثمن المدفوع بيع ابنتها لجسدها،نعم،ستكفر بنعمة الحياة.

هذه المرأة التي علق بذهنها قصّة ابنة قريتها عندما كانت فتاة عزباء لم يتجاوز عمرها الخامسة عشرة، ابنة القرية عديمة العقل التي أقدمت على الفرار مع عشيقها، والتي لم تشفق هي الطيّبة العطوفة عندما جُرّ اسم الفتاة خارج دفتر العائلة و تمَّ التّبرّؤ منها أمام الجميع رغم علمهم بزواجها الشرعيّ

_ "أيّ تفسير يعلّل شناعة فعلتها،أنّها وقعت في حبّ الرجل؟ "تلت على مسامع أثيل ذات يوم لمّا قبض الحقد عليها لتدنيس الفتاة شرف العائلة رغم تورّعها عن الخوض في الأعراض" ليلعنه الله من شعور بذيء قميء، ليلعن الله كل امرأة لا تمنح الحب لرجل سوى زوجها، لن تعيش تلك الفتاة سعيدة يوما لتفضيلها نذلا جبانا على شرف عائلتها الطاهر".

هذه المرأة التي كانت تتخيل أن أسوأ شيء فعلته إحدى بناتها هو السماح لرجل بالتحدث إليها خمس دقائق ليعرف رأيها بخصوص الزواج منه ،أو قبول رسالة تتضمن نفس الغرض، و التي ما سمحت يوما بفستان فوق منتصف الساق أو دون كمين أو ثياب مبهرجة مغرية تبرز مفاتن الفتاة ،أو نهود مكشوفة، محشورة ، و لا نسيت تذكيرهن بوجوب رفض هدايا الرجال و رفض رسائلهم و ركوب سياراتهم و هي أمور قد لا تعلق عليها سيدات غيرها أهمية كبيرة لترك مساحة خاصة تتحرك فيها فتياتهن ،و مع أنها وضعت في حسابها إمكانية وقوع إحداهن في الحب لأنها تعجز عن التحكم في قلوبهن ،إلا أنها لم تكن لتقبل بأي وجه من الوجوه سماعها تتحدث عنه أو تحوله إلى مغامرات غرامية سرية ،أو رسائل عشق متبادلة أو سلوكيات متهورة .

سرعان ما تدفّق الارتياح إلى أعصابها المتشنّجة و تنفّست الصعداء لذهاب أمها في أعقاب ميرنا المتفجّرة غضبا.

فيما استمرت هي لوحدها جالسة إلى الطاولة، متسمرة في مكانها كوتد مرزوز بعناية في عمق الأرض، مثبتة بصرها على باب الغرفة، ينبجس من عينيها ألم عنيف بأدقّ تفاصيله، وعصف بها إحساس خانق من الضيق الهائل الذي لا قبل لها بتحمله،آملةً لو بوسعها الفرار إلى حيث لا يعرفها أحد.

كان بوسعها ترجمة نظرات أختها الذميمة إلى عشرات المعاني والفرضيات. بيد أنّها لم تكن قد أدركت من قبل أنّ الترجمة الحقيقيّة تتدثّر برداء الحقد الدفين إثر علمها حتى سمعتها تنطق بلسانها السليط، كانت قاسية مسمومة العبارات، هوت على نفسها كما يهوى السّكّين على قلب ليطعنه، كأنّها صفعتها صفعة غليظة غير متوقّعة. و على نقيض ما توهّمت إمكانيّة التصبّر على أي إساءة تبدر من أختها ،لم يسعها تحمّل هذه القسوة، ففاضت الدموع على وجنتيها مع اختلاف

انبعاثها من مكان سحيق أسود من قلبها، و تحقّقت من تحطيم المعرفة ما تبقى من كيانها و هدّت كل زاوية من زوايا روحها، بل و ذهب مداها إلى تّحوير رأيها حول كل شيء.

استقطبت في تلك الثواني القليلة أكبر كمّ من الألم، الذي لم تعلم سابقا بوجوده بهذا الحجم الذي لا يطاق، لقد كفر إيمانها المضحّي الصادق بضميرها الهانىء المرتاح، شعرت أنّه انتفض على غرار حروف تلك الكلمات المتدافعة الفعّالة فراح يقرعها و يركلها و يقاضيها، وفجأة هرمت كل تعابير وجهها بضربة واحدة حتى طرق تفكيرها صيرورتها عجوزا ناهزت السبعين،.

حزّ الألم في قلبها و أثّر فيها أنّها لم تقصد يوما أن تكون عائقا في طريق سعادة شقيقتها،إنّ الأمر برمته مرهون بعقول رجال لا تولي لهم أدنى اهتمام و لا تعرفهم حتى ،و لو كانت القضية بيدها لوجّهتهم إليها جميعهم و اكتفت بمراقبتها مسرورة، محلّقة في فضاء السعادة.

بمشقّة كبرى وقفت على ساقين منهوكتين بعد أن مسحت الدموع المنسابة متوجّهة بأقدام متهادية و خطوات متثاقلة إلى غرفتها و الألم ما عتم يضرب على أوتار قلبها كيد ماهرة تعزف على أوتار الكمان، وما إن عبرت الغرفة وبلغت بسطة السلم حتى انخلع قلبها من مكانه، وذعرت ذعر فأر بين قبضة قطّ شرس، عندما صفع أذنيها حوارُ أختها مع والدتها، كان باب الغرفة مفتوحا وصياح أختها الساخط مرتفعا والكلمات ترتفع إلى لسانها متلاحقة خاطفةً من قلبها نبض الحياة الرتيب، لو أنّ مليكة ينقر تفكيرها أنّ أثيل مصغيةٌ لصنعت أبوابا متراصّة من حديد بدل الباب الواحد، ولكنّها افترضت جلوسها في مكانها وأنّها لم تبرحه بعد، هذا الحوار مرصّع الأحقاد، جعل جسدها يكتظّ ذعرا.

_"إلى متى يتوجّب عليّ تحمل هذا الوضع" صاحت ميرنا بصوت عال صدح في البيت الساكن قويّا عنيفا بلهجة غير محترمة يشوبها تهكم مطبق، " إنها تخطف مني كل فرصة، طبعا فهي لا شكّ جميلة أخّاذة وأيضا طيبة كملاك،ناعمة كالحرير، غالية كالجواهر،هي المرة...نسيت عدد المرات من كثرتها "

_"اااه، ليتها لا تفقد صوابها " تمتمت أثيل بصوت مرتعش مستنجدة برحمة الله " يا الله، يا الله ليتها لا تجنّ فإن كان غضبها قد أخرجها عن طورها و كاشفتني، فلا غرابة أن تفضح كل شيء أمام أمّي حتى تنتقم منّي، احفظ لسانها في حلقها يا الله، لا تجعل أمّي تكتشف الضربة القاضية".

رفعت رأسها إلى السماء في دعاء ضارع، و يداها ترتجفان رجفان عصفور مصاب ثم ما عتمت أن تقدّمت خطوات أكثر لترهف السمع، فعانق مسامعها دمدمة والدتها محذرةً ميرنا من المضيّ في حديثها

_"اخفضي صوتك وإلّا صفعتك،إنّك تقلّلين من احترامي، أيّ ذنب أتت كي توجّهي لها اللوم، أتساءل دائما عن السبب الذي يجعلك تمقتينها، طبعا لن يفوتني ملاحظة تفنّنك في ذلك. "

_"يا الله ستخبرها " همست أثيل محتبسةَ النفس، متمسكة بالدرابزين كأنّه سيغمى عليها وتقريبا تبخّرت نبضات قلبها، على أنّ شقيقتها دائما لا تسرّب فورة غضبها إلّا التلميح المبهم، ذاك الطراز من التلميح الذي يفضي إلى الشكّ

_"لست أمقتها، ولكن يا أمّي إنّ هذا غير منصف، لماذا لا يحبّني الآخرون كما يحبّونها؟ ليست متفوّقة عليّ في شيء؛ بل أنا أحسن منها على الأقلّ من بعض الجوانب،بماذا هي أفضل مني؟ "كان يشوب صوتها نغمة حزينة "الجميع دون استثناء يميلون إليها، لا سيما السيّدة سميحة، أحسّ أنّها تتعوّذ منّي كلما مرّرت إزاءها، ولست أفضل منزلة في قلوب الرجال، فهاهم يتجاهلونني الواحد تلو الآخر، وما إن يراها أحدهم حتى يهرع لطلب يدها،وهي لن تتزّوج أبدا،لن يسعها أن تتزّوج "

_"لماذا ليس بوسعها أن تتزّوج؟"سألت الأمّ مرتابة والشكّ في صوتها يغالب التأثّر

_"أتوسّلك يا الله امنع معرفتها،ستخبرها،ستخبرها الآن" قبضت يد الرعب على قلبها، وأخذ ارتجاف عام يتصاعد من قدميها إلى صدرها، أمّا ركبتاها فشعرت أنّهما متخشّبتان، فأسندت ثقل جسدها على الدرابزين، وبدا كأنّ سؤال أمّها طرح منذ دهر طويل، فيما لاذت ميرنا بالصمت، بماذا تراها تفكّر في هذا الوقت الحاسم؟،لو أنّ ياسمين تنقذها بإحدى دعاباتها الصبيانية السخيفة، لو أنّ هذا البيت لا يتّسم بالسكون الهاجع، لو أنّ سميحة تطرق الباب بيديها الملحاحتين، لو أنّ ميرنا لا تكرهها، لو أنّها كانت قبيحة المنظر.

لو أنها قبيحة ستحلّ كل مشاكلها، و تفكّ كل عقدها من الألف إلى الياء، وما عتمت أن انطفأت مخاوفها عندما استأنفت ميرنا الحديث، فهذه على الأقلّ كانت تحبّ إنسانا واحدا على وجه الأرض تحبّ أمّها، ولن يسعها تحطيم قلبها.

_"ألّا ترين يا أمّي،هي تفكّر بمستقبل ياسي و تفكّر فينا، تمزّق نفسها لأجلنا كما تعلمين، ولهذا لن تتزّوج مطلقا، الجميع يعلم بالتزامها مبدأ التضحية بنفسها لأجلنا "

كانت أثيل تدرك ملسوعة أنّ شقيقتها تسخر منها، ولكنّها لا تحفل البتّة، لتسخر إن شاءت ولتضحك ملء شدقيها، ولتبصق على وجهها كلمّا رأتها، عدم معرفة أمّها هو الأولوية.

_"أتراك تسخرين!!! "قالت الأمّ متكدّرة " أتنكرين عليها الذي فعلته لأجلنا؟لقد أفنت أجمل سنوات عمرها تعمل في سبيلنا،أتنسين يا ميرنا؟ لقد عملت بجدّ، و يعود لها الفضل في كوني معافاةً سليمة بينكم،تلك المسكينة، إن نسي العالم بأسره معروفها فلن ألوذ أنا بالنسيان"

وفجأة أخلدت ميرنا إلى الصمت ولم تتابع قول شيء،على أنّ ما تفوهت به على طاولة العشاء علق في ذهن أثيل كبقعة حبر، و هزّها محدثا موجات من التمزّق شبيهة بموجات حجارة ملقاة في مياه راكدة أو صدى صوت مرتفع في غرفة مهجورة، كان قلبها ينفطر ألما وقد تفرّق النور الساطع أمامها وحلّ محله ظلام دامس، محاطة بزرافات من الغربان السوداء.

ماذا تعرف أختها عن الجحيم الذي تمرّغت فيه؟,ماذا تعرف عن الإهانات التي تلقتّها،عن الأجساد العفنة التي استلقت بجانبها؟ أتراها تعتقد أنّها كانت سعيدة وهي تجرّد جسدها مقهورة من الثياب على مرأى رجال غرباء، ثم ترتمي في أحضانهم، وتلبّي نزواتهم، و تشبع نهم شهواتهم، كلُّ هذا وهي كائن ممزّق مكدود، كلُّ هذا وهي مثخنة بالجراح فيما كانت ميرنا تقهقه مع صديقاتها في حلقات زاهيةٍ منتشيةً بأحاديث الصبا المبتهج، أمّا هي؛ فقد خرج الصبا من قلبها مدحورا منبوذا مغتالا، وبالكاد استطاعت الاحتفاظ بروحها طاهرة على ضوء تلوّث جسدها، بالكاد استطاعت الاحتفاظ بنبل قلبها، ورغم ذلك ليس بوسعها إلّا أن تكنّ الحب لها، لأنّها من لحمها ودمها، لأنّهما امرأتان ولم يكن إلّا الفقر و الحاجة من نصيبهما، لأنّهما نكبتا بمصاب فقدان الأب منذ خمسة عشر عاما،لأنّهما تشاركتا الأيّام الصعبة، رغم أن نصيبها كان أضخم من المآسي و الأعباء.

تابعت أثيل سيرها تكتنف وجهها تعابير مريرة،و توقّفت على بضع خطوات خارج غرفة شقيقتها،فيما قطعت هذه الأخيرة حبل صمتها بعد أن هدأت لبرهة متنهّدة بعمق و تكاثفت نبرة السخط على صوتها فأضافت محتدّة

_" يا لسوء حظّي،ااه" تأوّهت بجزع" أريد أن أحظى بزوج وأطفال صغار كما من يماثلنني سنا، إنّ ابنة البومة المشؤومة عديلة ليست أفضل مني لتؤسّس بيتا بينما أنا لا، لقد لمّحت البارحة عندما اجتمعنا في صدفة سيئة إلى استحالة زواجي لدرايتها أنّ جميع المتقدّمين يميلون إلى أختي، قالت: إنّني بلا حظّ..."

_"اصمتي"قاطعتها أمّها بسخط نافذة الصبر "من يسمعك يظنّ أنّك شارفت على الأربعين، وأنت لا تزالين في الثانية والعشرين، ثم كفّي عن التقليل من شأن أختك، كيف تتمادين في الحديث عنها بهذه الصورة المجحفة، أنت سيئة التربية،ليس ذنبها إن كانوا يميلون إليها، هل جرّتهم زجرا ليطلبوا يدها !،ما خطبك إنّ الرجال كالأيّام يذهب واحد ويأتي آخر،سيأتيك نصيبك في الوقت المناسب، كفّي عن التذمّر "

_"أحقا !"علقت ميرنا بلهجة تنّم عن عدم اقتناع "سيأتيني إذا في الوقت المناسب!!! و متى يحلّ هذا الوقت المبارك يا أمّي، بعد أن أغدو عانسا، إنّ نظرة الرجال لا تتجاوز جلود النساء كما تعلمين "

_"إنّك لا تعرفين شيئا عن الرجال، أتظنّينهم حمقى؟إنّ لهم عقولا إن كنت تظنّين نقيض هذا؟؟ ليست الوجوه فقط من تجذبهم، بل الأخلاق و التربية الصالحة، والآن سنتوقّف عند هذه النقطة،و لا تدعيني أسمع تذمّرك مرة أخرى، وإلّا جعلت أيّامك جحيما، ستتزّوجين عندما يحين أوان ذلك، وأختك أيضا ستتزّوج رجلا مناسب لها، رتبي هذه الفوضى حالا،لا تستطيعين حتى ترتيب غرفتك و تريدين الزّواج !!,ماذا سيفعل الرجل مع فتاة مهملة غير مسؤولة مثلك.انظري، أغراضك مبعثرة بكل مكان كأنّ كلب الشرطة كان يبحث عن الممنوعات بها، أشكّ أنّ أحد سيبالي بالزّواج بك إذ ما عرف الكيفيّة التي تعيشين بها "وأدارت ظهرها لتنصرف ،مهمهمة ببعض الكلام غير المفهوم معلنة نهاية الحديث و عبرت الباب إلى الممر.

ما إن وضعت قدما خارج الغرفة حتى لمحت أثيل واقفة مرخية يديها، يجثم على وجهها ألم ضليع، ويشعُ من أعماق عينيها السوداوين جزء أسدلت عليه ابتسامتها الخفيفة نوعا من عدم الاكثراث المتعمّد، و تبادلتا لنصف دقيقة نظرة أسف قصيرة ثابتة، وعجزت الأمّ عن تقدير المدّة الزمنية التي وقفت خلالها أثيل تصغي إلى هراء أختها، والذي من الطبيعيّ أن يلحق بها ألما جبّارا، ويشعرها بالهشاشة القلبية.

ساد الصمت لبرهة ، حتى قرّرت أثيل التحرّك صوب غرفتها و الابتسامة الرضيّة لا تزال أبدا تحوم حول شفتيها نتيجة انشراحها بعدم فضح سرها "ما أرحم الله بها " واجتاحها شعور بالشفقة نحو هذه المرأة الكليلة التي نكبت بوفاة زوجها، و خاضت غمار الفقر الكؤود والعوز المرير وحيدة، إنّ بمقدورها أن تصبر متجلدة إزاء هذه النكبات كلّها، أمّا اطلاعها على قضيّة الشرف المهدور فذلك ما لن تتحمّله بأيّ وجه.

في الحال تبعتها والدتها، كانت الغرفة تسبح في ظلام دامس قبل إنارة المصباح، وباتّزانها المعهود جلست على الكرسي مطأطئة رأسها جامعة يديها بين ركبتيها، كان آخر ما تريده الآن أن تجري نقاشا أيًا كان صنفه مع أيّ أحد وعلى وجه الخصوص والدتها، ليس من شيء أصعب من النظر إلى عينيها الحنونتين، هذه التي كانت تدافع عنها بثقة منذ قليل، إنّ شقاء هذه المرأة الناجم عن فرضية إدراكها للقضيّة المعيبة يتفوق بلوعته على أي محاولة تصبو إلى إنهاكه أو إنزال رتبته من القمة إلى أسفل القاع، وإنّ أيّ مجازفة لمحاولة تبرير الإثم ستزيد من بشاعته أكثر. حبّذا لو أنّها تنصرف دون قول شيء ،على أنّ الجزء المقروء في عينيها لن يدفع الأمّ إلا للمكوث والمواساة، و لا مليون عذر سيجرّها خارج هذه الغرفة.

_"عزيزتي "أنشأت بصوت حنون عقب جلوسها على حافة السرير ثم تناولت يدي أثيل قابضةً عليهما برقة.

_"لا أعرف ما سمعته، و لا أريدك أن تشغلي عقلك بهلوسات أختك، تعلمين حجم تهورها عندما تغضب،هي حمقاء كما تدرين وعلاوة على هذا، تطلق أيّ سخافة في ساعة الغضب،أرجوك لا تتضايقي منها "

على أنّ أثيل لم تقل شيء ، و اكتفت بتقليب شفتيها في نصف ابتسامة على مضض مضن، محاولة جرّ وجهها إلى سحنة أفضل كي لا تضاعف قلق والدتها و رفعت الأم يدي ابنتها عاليا تتأمّلهما

_" بهاتين اليدين أنقذتنا و هذا البيت من التداعي، والصحّة التي أتنعّم فيها هي شهادة على تضحيتك،لقد كنت قائد البيت و تولّيت مسؤولية رعايتي أنا وشقيقتيك فيما كنت لا تزالين صغيرة،ضحيت بدراستك ، عندما أتذكّر ماذا فعلت لأجلنا أشعر بالمرارة؛ فتلك في الواقع كانت وظيفتي أنا وليست وظيفتك."

أفلتت يديها ثم ضغطت يدها على قلب ابنتها، كانت ضرباته بطيئة بينما كانت أنفاسها عميقة "ليس كل البشر يملكون قلبا مثله،أريدك أن تثقي بأنّني أفتخر بك أكثر من أيّ ابن من أبنائي "

_"أفديك بعمري يا أمّي،أشعر بالخجل فأنا ربما خيّبت ظنك و لم أمنحك رعاية أفضل،أنت التي حملت كل الأعباء لوحدك منذ أن قضى والدي في ذاك الحادث المشؤوم "أجابت أثيل بصوت هشّ مهترئ، ويدها تعبث بحافة المكتب فيما كان بصرها موجّها إلى تلك النقطة ،متحاشية النظر إلى والدتها "أريد أن تظفرن بالأحسن،أن تحصلن على أي شيء تنشدنه، ثقي دائما أنني فعلت ما بوسعي لأوفر لك الأفضل،و كانت خياراتي محدودة. بل أستطيع الجزم أنّ خيارا واحدًا كان متوفّرا "أضافت عبارتها الأخيرة بمرارة

_" لا تكوني سخيفة يا ابنتي " اعترضت مليكة بارتباك شفوق "لقد قدّمت أفضل ما لديك، بل أفضل ممّا كان يتوقّع منك،خصوصا أن العمل الشريف صعب العثور عليه هذه الأيّام، وقد استطعت المحافظة على نفسك، إنّ هذا لوسام يحثّني على التفاخر بك بين الناس"

أغمضت أثيل عينيها، وجرت دمعة حارقة على وجنتيها ترافقها شهقة ساحقة ثم عضّت شفتها السفلى متنفسة بعمق

_ " ليس من داع مطلقا لتعتذري إليّ، لا تبكي يا حلوتي, فدموعك تقهرني وأرجو أن تقذفي بهراء أختك بعيدا عن ذهنك،أراهن أنّها قالت الكثير عندما كنت في منزل الجارة ،أجل،لقد جرحتك،ماذا قالت بالضبط؟ ماذا قالت؟ لقد جرّبت أن أغرس فيها ما غرسته فيك، ولكن حظّي من التوفيق كان قليل ، إنّ ترويض البغال العنيدة أيسر بكثير من ترويضها، دعنا نتّفق على أنّ ما تقوله شّقيقتك مجرّد تنفيس عن الغضب، هي عنيدة نوعا ما،منطلقة بصورة غير مستحبة، يقفز

أمامها باستمرار هاجس عدم إمكانية ظفرها بشابّ آخر، كل النساء يعتقدن أنّ الدنيا ستتوقف إن لم تتزوج رجلا بعينه،و كلهنّ يفترضن أنّ الاحترام و الشهامة تولد و تنتهي عند ذلك الرجل و تفشل في ولادتها مع آخر "

تجاوبت بنظرة التهكّم المكتوم،ثمّة حقيقة قاتمة وراء دموعها،ما أسذج الذين يفترضون أنّها فتاة عفيفة طاهرة، الله وهي فقط يعلمان أنها انفردت برجال قذرين تحت سقوف بيوت غريبة عنها .

_"حسنا يا أمّي أنا أسوّغ غضبها في الواقع "قالت كاذبة " لم تقل شيئا يسيء إلي، و لم أسمع سوى كلمات قليلة، فالباب كان مفتوحا جزئيا، وأنا لن ألقي آذانا صاغية لآرائها المتسرّعة" وعلت شفتيها ابتسامة مزيّفة عريضة "تبقى شقيقتي و أنا أحبّها كثيرا "

_"ابنتي المخلصة " لمعت في عينيها إشراقة امتنان يجلّيها الفخر " هذه هي ابنتي التي أعشقها وأفتخر بها، هل أسرّح لك شعرك؟"

_"لا، لا "هزّت رأسها معترضة، عقب ذلك ضغطت بقبلة حارة على يدي أمّها بالتناوب، رغبت بإلحاح في الخلود الى الوحدة "سأفعل ذلك بنفسي، لا أرى أي داع لبقائك هنا،سأنزل بعد قليل لمساعدتك في رفع الصحون و غسلها ."

_"لن تنزلي، سأتولّى ذلك بنفسي، اخلدي إلى النوم، كان يوما طويلا، أنت مرهقة "و أفلتت يدها ثم انتصبت واقفة، و عندما أصبحت عند عتبة الباب استدارت جزئيا لتضيف شيء "أثيل ستحظين بزوج فذّ رائع، يقدّر روحك الجميلة، لا تنسي هذا"

فأطرقت أثيل برأسها موافقةً و تلألأ في عينيها سرور واهن،و في اللحظة التي انسلت الأمّ خارج الغرفة عاودها ألمها الأول، على أنّ عقلها قدّر بإجلال محاولة والدتها لرفع معنوياتها المقموعة وترتّب عن ذلك إحساس دافئ جلب بعض الطمأنينة إلى فؤادها المنكوب.

لكن من الآن فصاعدا سيغدو سرّها المضغوط بين يديّ أختها سلاحا فتّاكا ضدّها، فهذه قد صرحت علانية بكراهيتها،أمّا ما يختلج في قلبها فمن العسير عليها التنبّؤ به و الله وحده يعلم متى تنفجر في إحدى نوبات غضبها فتجنّ، وتتبرّع هانئة مغتبطة بما سيسوق إلى القضاء عليها، ترافقه لّذّة الانتقام العظيمة للشرف المهدور ، وما أكثر ما ستجنّ دون سابق انذار مثل اليوم كأنّ عفريتا تملّكها أو روحا شريرة استبدّت بها.

في غضون دقائق تمدّدت في سريرها على ظهرها، بعد أن أطفأت الأضواء. كانت تودّ إغراق الغرفة في الظلام الأسود على أنّ شعاعا من ضوء القمر انساب بين ثنايا الستائر البيضاء ثم انبسط على سريرها.

وبعد أن أضحت وحيدة وفي الضوء الباهت جحظت عينا ذاكرتها مسافرة بها إلى الوراء، واستعرض ذهنها بإحساس مضطرم ذكرى بعيدة هاجمتها و زعزعتها، الذكرى الأولى التي سلّمت فيها جسدها،إنّ من المشقّة كبح جماح انفعالها كلما تذكّرت وجهه، و في أوج الصمت الأجوف برزت صورته كاملة مقززة،كان رجلا طويلا، نحيل البنية، عيناه مخيفتان مهيبتان ، محتقنتان ، ووجهه طويل يشي بالاستهتار المنفّر و هيئته غامضة، إذ لا يستطيع المرء مهما بلغت نباهته أن يتنبأ بخطوته القادمة،لكن كانت لديه ميزة واحدة مكشوفة، توسّمت فيه أثيل سيماء النعمة والغنى.

عندما بلغت باب الشقّة في الطابق الثالث، تردّدت مرارا وعادت أدراجها لتقف في منتصف السلم تترنّح مذعورةً بين مشهدين مقرّحين كل منهما أسوأ من الآخر، واحد أمامها وآخر خلفها، مشهد أمها السقيمة بأنينها القاصف وأوجاعها المكتومة وجسدها العطيل المضطجع على السرير ذي الشراشف العتيقة المهترئة، هي بكتفيها الصغيرتين ويديها العاجزتين الخاليتين من أيّ مقدرة خارقة على توفير المال و الدواء والطعام لشقيقتيها المذعورتين ومن جهة أخرى مشهد الرجل الغريب عنها ينتهك عفافها ذاك الذي ليس بزوجها، الذي لن تراه ربما لأكثر من مرة أو مرتين،مالم تحدوه الخسّة لنيلها مرات أخرى.

مكثت في السلم دقائق تتجاوز العشر والحيرة تنخر خيالها بساقين تبغيان الفرار و عقل مشوش ينشد الحكمة الضالّة، و قلب متورّم بفاجعة الأمّ العليلة المشارفة على الموت، وأخيرا اتّخذت قرارها و استقبلت الواجب بالغشاوة الرعناء، فاستدارت وتقدّمت نحو الباب ثم طرقت طرقا خفيفا وسرعان ما فتح لها الرجل ذو الهيئة الغامضة ثم بنظرة طويلة وقحة، مفزعة زحفت عيناه من قمّة رأسها إلى أخمص قدميها مرورا بشفتيها و ثدييها ثم خصرها الهفهاف وأخيرا قدميها، فجرت رجفة مزلزلة في جسدها، رجفة لا سبيل إلى السيطرة عليها، وتحرّقت برغبة نهّاشة إلى الانصراف، و بخفّة مدّ يده فجذبها و أضحت بالداخل الآن و ليس من فرصة للتراجع ثم بلهجة آمرة طلب إليها أن تمشي في إثره فنفّذت الأمر كارهة و تبعته بخطوات متردّدة وئيدة إلى أن بلغا غرفة ذات نافذة بستائر كاكية منسدلة.

كانت غرفة كبيرة تكاد تكون خالية من الأثاث، تنشر الشمس أشعتها من خلال نافذتها الواسعة ، تضم سريرا كبير و في الزاوية خزانة من خشب الزّان ذات بابين، و كنبة جلس عليها و مدّ ساقيه الطويلتين مخرجا من العلبة سيجارة أشعلها بنزق ثم طفق ينفث منها الدخان بطريقة بعثت الرعب فيها، بجانب الكنبة منضدة مستديرة خشبية موضوع عليها كأس فيها شراب أصفر مائل إلى الحمرة متوّج برغوة بيضاء، ملأ الغرفة برائحة كريهة منفرة، أفرغه في جوفه بحركة واحدة ثم طافت حول شفتيه ابتسامة ماكرة، أمّا عيناه فكانتا تتّقدان بشبق ذكوريّ شهوانيّ

محموم لم تستطع تحليله في المسار الصحيح، نظرا لانعدام خبرتها، ووضّح لها ببعض النفور أنّ فستانها ليس باللائق وأنّه إن دلّ على شيء؛ فإنّه يدلّ على انتمائها إلى الطبقة الدنيا المسحوقة، ثم عقّب بتعليق مستخف مفاده أنّ السيّدة كارمن أحيانا تحدوه إلى الانبهار ،و لولا أنّها كانت ضائعة مذعورة لربّما أدركت قصده.

ما انقضت دقائق حتى تضاعفت ارتعاشة جسدها و طفقت تبكي. كانت كارمن التي أمنّت لها الزبون،والذي دفع لها مبلغا معتبرا يحلّ ربع مشكلتها قد أوعزت لها بأوامر مشدّدة تحاشي البكاء أمام الرجال؛ فذلك يترتّب عنه نفورهم منها،و يتوجّهون بضجرهم إلى الاقتناع أنّ الفتاة لن تشبع نهمهم بالصورة المطلوبة، لكن رباطة جأشها لم تسعفها و خانتها مبادىء الطفلة البريئة التي تنفرد لأول مرة برجل غريب عنها، و تاقت إلى أحضان أمّها الآمنة بعد أن سحقتها رعدة الجسد المذعور.

قذف بعقب السيجارة على نحو عرضيّ، ثم وقف منتصبا على ساقين طويلتين وبينما هو يتقدّم نحوها،تفحّصتها عيناه بدقّة كمن يشتهي التهامها دفعة واحدة، وما هي إلا ثوان قليلة حتى أضحي أمامها،عيناه الحمراوان تواجهان عينيها السوداوين المتّسعتين في نظرة مراوغة. وعلى نحو مفاجئ أخذها بين ذراعيه بكيفية أبويّة هدّأت مخاوفها قليلا و راح يمرّر يده على شعرها الأسود بلطف نزيه،لا يفعل هذا إلا الآباء المتيّمون بحب بناتهم،إذا فالنتيجة ممتازة، هذا الرجل لن يؤذيها،و علاوة على هذا سيسمح لها بالانصراف محمّلة بكيس النقود لعلاج أمّها "شكرا يا الله لا يزال هناك رجال شرفاء، لا يزال هناك رجال فاضلون،ستخبره، نعم ستحكي له عن مرض أمها و انعدام حيلتها".

لقد أدرك الرجل بحصافته الشاسعة أنّها فتاة مسكينة بائسة،ساقتها الحاجة القاهرة إلى أحضان الضعة المشينة و طالع في عينيها الزائغتين المذعورتين، طالع جزعها، ثم سألها بصوت هادئ لطيف عن اسمها فأجابت بنغمة ضعيفة "أثيل " و تفاجأت به يوضّح لها معنى اسمها بشيء من الأصالة "إنّ اسمك جميل،أعتقد أن معناه الفتاة الأصيلة والعريقة،ذات المجد ألست مصيبا؟".

كان قد اجتاحها هدوء غرّار، و هو يسرد عليها معناه بدقّة،إنّها لم تكن تعبأ بأيّ وجه من الوجوه بمعرفة معناه الحقيقي،و لم تستوقفها حاجة أو موقف بعينه يوما لمعرفة ذلك، فجميع سكّان الحي يخبرونها باستمرار أنّ اسمها جميل، وكانت قد سميت بهذا الاسم نظرا لإصرار جدّتها الحنونة على توليها مَهمة تسمية أوّل حفيدة، على الرغم من اعتراض أمّها الشديد، كانت والدتها ترغب في تسميتها خديجة على اسم والدتها المتوفاة،أمّا والدها فكتم رغبته الأثيرة في تسميتها فيروز تفاديا لإثارة عصبية والدته، و رضخ الأبوان في النهاية لسلطة العجوز رغم أن والدة أثيل كانت

تتميّز غيظا من تدخّلها الدقيق في شؤونهم الخاصة، وأعلنت بارتياح مزيّف أنّ للعجوز الهرمة ذوقا فريدا في انتقاء أي شيء، حتّى أسماء الفتيات،لاعنة إيّاها في سرّها قبل موتها، وبعد مفارقتها الحياة كانت على غرار عدم نضجها المترتّب عن سنها الصغير،تعدّد عيوبها أمام الجميع ما عدا زوجها كثأر عادل يستصرخها البوح ،زوجها الذي لو اتّفق أن سمعها تذكر والدته بسوء لطلقها فورا حتى مع ثلاث بنات.

ما عتم أن خاب رجاؤها، خاب بصدمة دامغة ونازلة بتراء؛ لأنّ الرجل طوق خصرها على حين غرّة محكِما قبضته عليه بيد من حديد، و باليد المكدودة الأخرى رفع يدها و راح يقبّلها ثم زحفت شفتاه إلى ذراعها النحيلة موضّحا لها بأنفاس سريعة حارّة أنّها حسناء جميلة، وأنّ كارمن أسدت له معروفا جليلا لإرسالها إليه، فتخدّرت أعضاؤها و شلّت حركتها، لكنها عندما جوبهت بمجريات النكبة و أتاها التقرير الأول عن نيّة الرجل، تلّوت لتفلت جسدها عقب بزوغ الفكرة الجديدة الطارئة التي غزت تفكيرها "إنّها لا تريد ماله، لا تريد أن يلمسها فلمساته تولّد الاشمئزاز فيها و أنفاسه الحارّة تحثّها على الغثيان ".

عبثا حاولت بفعل تمكّن طاقة الرجل الوحشيّة منها، فانهارت مقاومتها، هاهو ذا يطبق فمه على فمها و يقبّلها بوحشيّة ثم ينزلق لتقبيل رقبتها انتهاءً إلى ثدييها، و أرادت أن تصرخ غير أنّ الطاقة القليلة التي تحوزها غير كافية لإنجاز كل المهام اللازمة،ليته يتركها و شأنها،حبذا لو تنقذها معجزة، حبذا لو تموت الآن،حبذا لو يمكنها ضربه بأداة ما فتحطّم جمجمته ثم تغرقه في بركة من الدماء القرمزية القاتمة، ودت بقوة لو تضربه و تبصق على وجهه ،على أنّ الغرفة كانت تفتقر إلى وجود قطعة معدنية تكافئ الغرض،و ما هي إلا دقائق حتى انتهى كل شيء ونهش الرجل عفافها.

بينما كانت ترتدي ثيابها خائرة القوى، فاترة الهمّة، شاحبة الوجه كالأموات،وضّح لها بخسّة أنّ ذلك طبيعيّ، لأنّها المرة الأولى،و ليس أكثر وضاعة من وضعه في حوزة معلوماتها أنّه يعشق المرات الأولى، فالفتاة تفقد بريقها بعد تلك المرة، و تغدو أقلّ رواءً و جاذبيّة، بيد أنّها نالت استحسانه و سيدفع مبلغا مضاعفا لينالها مرة ثانية فلا يستطيع إلا القول أنّها أكثر الفتيات جمالا و أبدعهن حسنا، و إن هي بذلت جهدا لتحسين سلوكها الفاتر ، وخضعت للنظام الذي يقتضي ولاءها لرغباته، فسيصنع منها فتاة غنية،و كان ذلك نسبيا إطراء لها،لكن لم تزد على نبذه و الاشمئزاز منه.

وكانت قد عزمت رأيها بصلابة على عدم ارتكاب هذا الإثم الخطير مرة أخرى، قبل اكتشافها أنّ المبلغ المدفوع لا يفي بالغرض ، و كنتيجة مكدّرة لذلك، وافقت مكرهة قبل أن تخطو خارج الشقة على مرة ثانية و ثالثة ،بعدها لم يعد يرغب فيها أكثر مما ترغب فيه هي.

أجرت أمها العمليّة ونجت من مخالب الموت، و بسبب أنّها كانت عليلة لم يعد في وسعها العمل كعاملة نظافة كما كانت،فلزمت الفراش على مضض منها ،اضطرت أثيل إلى التخلي عن الدراسة بشكل نهائي ،و باتت ترزح تحت أعباء فتّاكة،كان من مسؤولياتها تأمين الأدوية و الطعام،و تولّي مَهام والدتها جميعا دون تذمّر،و أثقل ما كان ينهش عاتقها إبقاؤها لحقيقة وضعها الراهن بعيدا عن متناول أمّها وشقيقتها والجيران والمعارف،لم تجرؤ حتى على التفكير بعواقب المعرفة، فراحت بالقدر المستطاع تختلق أكاذيب ناجعةً عن طرق تدبيرها المال، شاكرة بحماس مستعر، معروف الجمعيات الخيريّة وآباء صديقاتها لأنّ لهم الفضل في مواجهة الأزمة عن طريق دعمها، و مدّ يد العون لها، وإنّ الله برحمته الواسعة وكرمه الفيّاض قيّض لها امرأة صالحة أمنّت لها عملا محترما يُخمد نار الحاجة و يَبتر يد السؤال، ولقد نجحت إلى المدى الذي أفلحت بالبكاء سرّا،و إغراق البيت بالقهقهات السارّة بحيث تسوق الجميع إلى الاعتقاد أنّها راضية قانعة بالأعباء المزجاة على كتفيها. لقد كالت لها الدنيا جحيما مستعرا بنار،صنعت منها جليدا صلبا بتجاهل رهيب ما ينفك يقوى و يقوى.و كثرت المرات التي افتخر الجيران فيها بعزيمتها و برّها بعائلتها و على إثرها كثرت المرات التي كانت فيها على وشك الصياح فيهم بضمير خجل من تقديرهم أن لا ،إنني أخدعكم ،لست إلا نجسة ،مخادعة ،ملوثة ،و في الليل، عندما تستعيد تلك المشاهد كانت تبكي بكاء مرّا،و تعض على الوسادة و كثيرا ما تضغط على وجهها بكلتا يديها رافضة التصديق أنها تحولت في فترة وجيزة من فتاة شريفة إلى ساقطة ،لقد ضاع حلم الثوب الأبيض و الأمومة لكنها لم تره أبدا كابوسا مفزعا كضياع الشرف و العفة.

وهكذا ذوت الزهرة المتفتّحة، وأمست تسلّم جسدها على قدر الحاجة الملحة جدا على كراهية شديدة منها رغم أنها كانت تعيد العزم كل مرة على عدم العودة إلى ممارسة الرذيلة ،لكن يأتي ظرف يجبرها على العودة إليها ،لا سيما بعد عجزها اليائس عن إيجاد عمل تدفع عن طريقه للأدوية و الأشعة و الفحوصات اللازمة ، وهل عليها أن تعبأ بعدد الرجال بعد الرجل الأوّل !؟لا، إنّ ذلك لن يغيّر، فالواحد كالأربعة طالما النتيجة واحدة،خسارتها عفافها و نفسها،و فقدها كلّ فرصة للزواج من رجل محترم .

بعد إبعادها الخطر عن الباب،و استعادة أمّها لصحتها أشهرا بعد عمليتها ، وفوز مشيئتها في صون شقيقتها من الجوع و اليتم ، بشّت الحياة في وجهها فأصبح بوسعها الفرار من العالم الوضيع واعتزلت هذا النوع الرخيص من العمل،و حظيت بصعوبة بعمل محترم أمنّته لها صديقة العائلة سميحة،بمكتبة العجوز إبراهيم قريب زوجها يعوض كذبة العمل المتوفر عن طريق المرأة الطيبة ، قانعة بحظّها الضرير من الدنيا طالما بقي سرها في حرز أمين.

عـادت باكيـة مـن رحلتهـا الطويلـة في ثنايـا الأيّـام المتصـرّمة،محاولة إبعـاد ذهنهـا عـن المشـاهد المنغصـة،على أن صـورة جديـدة مهيبـة انتصبت أمامهـا بجلال عريـق، فجلسـت القرفصـاء متأمّلـة كسيرة صورة والدها الصامتة المعلّقة على الحائط قبالتها. كانت عيناه بندقيتين حازمتين، ولكن في الوقـت ذاتـه دافئتـين تنفـذان إلى أعماقهـا بنظـرة مظلمـة، رغـم كونهمـا سـاكنتين في صـورة صـمّاء، وشـارباه المعقوفـان إلى أعلـى يثيران الرهبـة على نحـو صـارم تبعثـان فيهـا هلعـا ذاتيـا،و كتفـاه العريضتان تغدقان عليها بنوع تليد من الطغيان الجارف،لكأنّه يقول لها إنّني أراقبك دائما، وأعرف ما فعلته، وأنا ساخط عليك لأنّك نزلت إلى تلك المرتبة الوضيعة، ولم تكن قبل مكاشفة شقيقتها تكترث لموقفه من فعلتها، وبمجرّد أن اعتنق خيالها موقف والدها من مخازيها بعد أن اهتمت عبارة أختها بترويعها (من أنت لتلوّثي شرف أبي)، تخضّب وجهها بلون العار فتفاقم شحوبه ،وشعّ من عينيها بريق خجل مدبّج بالارتباك، ووقعت فريسة الانفعال القاتم وضميرها يصارع تعدّد الأعذار و الدوافع.

إنهـا تـرى بوضـوح الآن، بعـد أن زاولـت عـدم الاكتراث لعهـد مديـد، أن والـدها لا بـد نـاقم عليهـا أينمـا هـو الآن،و روحـه تتلـوى عـذابا ،و إن كانـت قليلـة المـرات التي اهتمـت فيهـا بموقـف والـدهاء ،فإنهـا لـم تكـن كـذلك عنـدما تفكـر بـالله و عدالتـه ،أجـل ، مـاذا عـن ربّهـا؟،إنّ الزنى شـائنة كبرى وجريمـة لا تغتفـر، إن الله يعـدّها مـن الكبـائر و سـيجعلها الله تـدفع الـثمن في الـدنيا قبـل الآخـرة، وسـيبتليها بمـرض لـيس منـه شـفاء؛ لأنّهـا داسـت على حـدوده، ولأنّهـا التجـأت إلى المحرمـات، وهـا هي تجري حوارا ذاتيّا من النوع المألوف الذي اعتادت إجراءه و تخرج منه مرتاحة هانئة البال (لكنّ الله يعلـم بكل شيء، و هـو يعـرف أنّهـا لـم تجـد حيلـة لتنقـذ أمّهـا ،و لـم تترك بابـا شـريفا إلّا وطرقتـه،أيّ الخيارات كانت متاحة لها؟؟،لقد طرقت أبواب الحلول النظيفة،بابا، بابا.بيد أنّها كانت موصدة و لم تفتح في وجهها)و كانت على استعداد لأي عمل مهما بدا غير مناسب و أجره زهيد،لكنها لم تعثر عليـه لا زهيـدا و لا سـخيا حتى مع بحثهـا الـدؤوب ، و سـرعان مـا استشـهدت بقصّـة شـائعة (لقـد غفر الله لبغيّ،فـاجرة، بسـبب سقيها كلبـا عطشـانا،و إن مـا اجتهـدت في سـبيل تأكيـد توبتهـا، سـتظفر هي أيضـا بغفرانـه، أجـل، إنّ الله يعلـم و سـيغفر حتمـا لهـا، سـيغفر، هي واثقـة مـن ذلـك.و تريـد أن تشعر شعورا طيّبا إزاء هذه الخاطرة المشرقة).

عنـدما انتصـبت هـذه الأخيرة أمـام عينيهـا، انتصـبت كشـجرة الصفصـاف الباسـقة انـتعش فؤادها "لقد غفر لامرأة زانية" وأرسلت كل عقبة أمام الغفران إلى صندوق مقفل حيث لن تفكر فيه ثانية، و لم تجد أنّ من الضروريّ أن تلقي بالًا لعبارات أختها الوثنيّة، حيث أن هذه لم تضطرّ إلى قيادة زورق مهترئ بحمولة كبيرة، كان يتعيّن عليها قذف بعض الأشياء إلى البحر للمحافظة على

الزورق آمنا، وإذا ما غرق سيغرقون جميعا ويهلكون، أشياء تدرك يقينا أنّها لن تستعيدها، وإن اتّفق وحدث ذلك ستكون تالفة فاسدة عديمة الجدوى.

وقفت على رجليها و توجّهت نحو الصورة ثم جثت على ركبتيها، وقالت بصوت متهدّج مرتعش و دموع الأسف تتناثر من عينيها

_"أرجو عفوك يا أبي، أرجو عفوك"كرّرت "لقد أسأت إليك في قبرك، لم يكن في يدي ما أفعله غير الذي فعلته، ذاك كان المخرج الوحيد، انظر إلى حالتي، لقد دفعت الثمن غاليا إن كان يخمد سخطك علي، أنا مجرد كائن تعيس بائس بدون أمل"

خنق النشيج صوتها فعقّت عن الكلام، و عندما رفعت رأسها مجدّدا لتنظر إلى الصورة المعلقة،رأت بشيء من الوهم أنّ البريق الساخط قد زال عن العينين الحازمتين، وحلّ بدله ليونة أنعشتها وأحياها الأمل بمغفرة مصحوبة بأدوات التبرير، فكفّت عن البكاء ونهضت على قدميها شاكرة ممتّنةً، ولم يدر في خلدها أن الدموع هي من خلّصتها من ثقل الحمل وأنّ العينين لا تزالان على هيئتهما صارمتين نفّاذتين.

تفقّدت حقيبتها بعد أن نازلتها اليقظة فهزمتها، وبعد أن خمدت النيران المتأجّجة في عقلها،تذكّرت أنّها وضعتها على الرّفّ العلوي من الخزانة،و بعد أن دسّت يدها أخرجت جريدة مطويّة،فأسرعت تفتحها على الصفحة الثانية، وقد أضاءت ابتسامة واهنة ثغرها،رغم المصيبة الكالحة التي حلّت عليها، الناجمة عن معرفة معيبَة غير متوقّعة،استطاعت التبسّم، كأنّها لم تشهد فصل مكاشفتها بعارها،بجرعته الزائدة، كأنّها لم تسمع شّقيقتها تكيل لها الشتائم والإهانات، وتصفها بعاهرة الشقق.كأنّها لم تكن قبل قليل فزعة إلى حدّ الجنون بينما أختها وأمّها تخوضان حوارا حاميا حول شخصها الخليع من وجهة نظر ميرنا،كأنّها لم تكد تخسر والدتها إلى الأبد، لولا أن ميرنا كبحت بشقّ الأنفس لسانها الحقود.ابتسمت دون تقريع الضمير أو خوف من قادم قد يقضي عليها،تتفاعل حواسها باستخفاف وقور مع كلّ شيء حولها،هكذا كان تأثير هذا الرجل الوديع الدمث، و دائما لم تصل لسبر كنه هذا التأثير الآبد الجارف.

شرعت تقرأ مقالة اليوم مرفقة بصورة،جاء فحوى المقالة كالتالي

"أيّها الأصدقاء،أودّ اليوم الخروج عن طور العادة،لأكون فخورا بالسيّدة في الصورة أسفله"و كان في الصورة شخصه برفقة سيّدة نصف مشوّهة الوجه نتيجة حروق عميقة تعرّضت لها في الماضي، كانت امرأة طويلة القامة ذاتِ عينين يصعب تحديد لونهما، لكنّهما بدتا بنيتين،و شعر بنيٍّ أيضا مجموع إلى الخلف،و أنف أفطس و رقبة طويلة. كان عليها آثار حروق مندملة هي الأخرى،لقد تمكّنت هذه السيّدة من تحقيق إنجازات عظيمة مقارنة بما يُتوقّع من امرأة في حالتها،فقد نظّمت

معرضا ناجحا للرسم، و كتبت مجموعة من القصص القصيرة ذات الأثر الجيّد على القرّاء،و لو أنّ إنسانا آخر في مثل وضعها في هذا المجتمع اللعين تعرّض لهكذا حادثة ربما يجد صعوبة بالغة في الخطو خارج البيت خطوة واحدة، بيد أنّها فعلت أعظم من مجرد خطوات خارج منزلها، كان من الرائع أن ترى بأمّ عينها أن الرجل الذي هامت بحبّه و الذي أثار فيها زوبعة من العواطف الراشدة الجامحة يمتلك هذا القلب الكبير الرحيم،و لم يزد موقفه إلا من احترامها المقدّس له،و لن يحظى بأقلّ من التبجيل في قلبها المتيّم أبدا به، وعلى نسق مألوف برقت عيناها بوميض مشرق و فيما راحت تتمّ قراءة باقي المقالة افترّ ثغرها عن ابتسامة ناعمة ضاربة هموم الدنيا عرض الحائط "إنّ الإنسان ليس مسؤولا عن الحوادث التي تحدث معه،قد نتفق أنّ التقليل من السرعة يجنّبك حوادث المرور، و لكنّ قد تدفع ثمن تهوّر أشخاص لا يتقيدون بذات الصفة،و ذلك ما حدث مع هذه السيدة،إنّها ضحيّة استهتار الآخرين،و رغم ما حدث لم تقف يوما لتبكي مصابها الأليم و تحبس حياتها بين قضبان الخطب الجلل،و خلف ذاك الوجه إنّما يكمن عقل بارع و قلب مثابر وعزيمة متحدّية لا تستحّق أقلّ من الاعتراف بالتفوّق، أذهلتني أكثر مما أعجبتني عندما قالت لي بينما نلتقط هذه الصورة أنّ وجهها قد تغيّر و لكنّ قلبها لم يتغير قيد أنملة، وترجو من الله أن ينظر الناس إليها ببصيرة قلوبهم لا بأعينهم، فوجهها البادي للعيان قد يبدو متغيرا لكنّ قلبها أكثر بياضا من الثلج، ومن هذا المنطلق أعلن أنّني اكتشفت ذاك القلب ببصيرتي الداخلية، تلك التي يمتلكها كل إنسان، ولست بمنكر معروف ذاك الرجل، الذي يكون زوجها، من أمسك بيدها عند كل محطّة يأس، عند كل نوبة تردّد تحلّ بروحها الطموحة إلى أن أوصلها إلى أعلى القمة، هنا أتوقف لأقول لكم إن الجمال إنّما هو جمال أرواحنا، وأعظم درجات من الجمال الخارجيّ، هو الذي يحثّنا على مساعدة الآخرين في المحن،في الأوقات الصعبة، عندما يطرقون أبوابنا راجين منا العون، و في الختام أقول لكم ابحثوا عن الجمال في القلوب و ليس في الوجوه الجميلة. طاب يومكم "

بعد فراغها من القراءة، تنفّست بعمق كأنّ حملا ثقيلا تزحزح عن صدرها، مسكينة هذه المرأة ،إنها تتعاطف مع مصابها،فخورة بها، و على كل حال فذاك الرجل الفاضل الفذّ يتعاطف معها،ما أشدّ تواضعة ما أكبر رحمته،ما أطيب قلبه،ما أسمى روحه،إنّه رائع دائما عندما يكتب في السياسة، عندما ينصّب نفسه ناقدا جريئا،عندما يكتب مقالات تهكّمية عن الوضعية السيّئة التي آلت إليها البلاد، عظيم بكل حالاته، شجاع لا يخشى شيئا.

هذا الذي خطف قلبها منذ أوّل مرة وقعت عيناها عليه،أطالت النظر إليه، كانت نظرة عميقة، طويلة، أطول ما يمكن لإنسان أن ينظر، حدث حينها شيء لم تتبيّن طبيعته في اللحظات

الأولى، نما خلسة مع مرور الأيّام، فأزهر قلبها الذي اعتقدت أنّه أضحى أرضا بورا،لا يصلح لشيء إلا للنبض بغية أداء وظيفة حيوية.

كان خليل صاحب المقالة شابّا جذّابا، طريرَ الوجه ، فيه شيء من الشحوب، طويل القامة، نحيل القوام، في الثالثة والثلاثين من عمره،مع أنّ أثيل تعتقد أنه يبدو أصغر بكثير،له عينان بنيّتان فاتحتان وديعتان تشيان بالمرونة، تحملان شيئا من السخرية و الاستهتار، ولحية سوداء خفيفة ضاعفت من جاذبيته،أقل ما يقال عن ابتسامته أنّها ساحرة،كانت أسنانه منضّدة بيضاء كأنّها حبات من اللّؤلؤ، متناسقة بشكل جذّاب مع وجهه العذب، نقطة الضعف في وجهه هي أنفه الكبير،إذا ما ركّز المرء فيه،بيد أنّه مجملا شاب حسن الصورة .

فيه شيء غير عاديّ،شيء يجعل قلبها يخفق خفقانا قويّا، كلما رأته،شيء يُقلقها ويُحيّرها، يُسعدها و يضّخ الفرح إلى عينيها، تستمدّ من صورته شجاعة و عزاءً،هكذا دون تفسير منطقيّ تمنطق به سلوكها الغريب.

هي واثقة أنّ معظم الفتيات في سنها، ينجذبن إليه و يكلن له الإعجاب، يبيّتن حلم الزواج به، و كان ذلك سهل التفسير ، فهو وسيم و شجاع،لا يخاف أحدا ،مستهتر لا يخضع إلّا لرأسه،غير أنّه و على نحو فجّ لا يبدو أنّه يحفل بأيّ امرأة باستثناء أمّه، المرأة التي يحبّها بجنون و التي لم تلد ولدا سواه،و في مناسبات كأعياد ميلادها و عيد الأم نشر صورا رفقتها يضمّها، يرافق الصور بعبارات نابعة من العاطفة الحارّة الأصيلة إزاءها،فمثلا في عيد ميلادها المنصرم أين كانت تتلفّع بشال أرجواني تتدلى منه خيوط من نفس اللون كتب

_"إنّها المرأة العظيمة التي أنجبتني،إنّها أمّي،المرأة التي لا تتخلى عن نظريتها في أنّي لا أزال طفلا صغيرا، تعاملني على هذا الأساس،المرأة التي يُرهبها ارتفاع حرارة جبيني كلّما تلمّسته، والتي تهرع لطلب الطبيب، وغلي الأعشاب في الوعاء الذي تحتفظ به كذكرى غالية من جدّتي، المرأة التي تقف عند الباب تراقبني و أنا أغادر إلى عملي و لا تكترث لبرودة الطقس أو حرارة الشمس، هي المصباح المتنقّل الذي ينير حياتي بنوره، لا يكفي شكر الدنيا لإيفائها حقها الكامل، كل عام وأنت بخير، كل عام وانت أمي الغالية،أحبّك أكثر من أي شيء "

ولهذا تفكّر أثيل أنّه يعجز عن تحطيم قلب امرأة بسبب أنّ أمّه امرأة أيضا، لكنّه يجرؤ على نحو باطني منتظم على تحطيم سمعة الحكومة بمقالة أو اثنتين شهريا.

كانت مقالات جريئة،ذات طابع ساخر ،تعوزها عمليا صفة التحفظ و ضبط اليد في الكتابة ،يصب فيها كل غضبه من حكومة بائسة بات لديه قناعة أنها تموت خجلا من اتخاذ قرارات تخدم البلد و تبذل جهودها في سبيل أن تقودنا نحو المجهول المظلم ،و لم يحاول أن يلبس

الزي التنكري أو يعتمد أسلوب التلميح ،بل يجاهر برأيه دون حذر ،مبديا بذلك استعداده الكامل لزيارة السجن ،فحرية التعبير لم تكن محصنة كفاية ،و لهذا قلّما أحست أثيل بالافتخار بتهوّره البطولي و إن أرادت ذلك ،مع أنها مدركة أن ذاك التهور هو السبب الرئيسي لتعلقها به و انجذابها إليه إضافة إلى تواضعه و قدرته على الإحساس بآلام الطبقة المسحوقة رغم أنه ينتمي إلى عائلة مترفة فوالده كان أحد أكثر المحامين شهرة في البلاد ،و ربما هذا ما كان يحميه ،و كمثال عن جرأته ،نشر مقالا نقديا ذات مرة كتب فيه

_"عندما يصاب الإنسان بالجنون، يذهبون به إلى المصحة العقلية، و عندما تُكتشف موهبة المهرج في إنسان ما، يضمونه إلى طاقم السيرك لإضحاك الناس وإبهاجهم، ليس غريبا فذاك مكانه الطبيعي، أما في بلدنا الأعجوبة، فإنّهم يمنحون هذه الأصناف من الناس منصب الوزير،الذي يحوّل منصبه بكل أريحية وضمير بارد إلى مصحّة عقلية أو سيركا مسليّا يستعرض أمامنا جنونه وغباءه بكل فخر ووقاحة، وبينما يضحك هو نبكي نحن في الصميم، إلهي ،كم نبكي، و كلما أثبت جدارته كمجنون و مهرّج حصل على ترقية ،هكذا تسير الأمور في هذه البقعة الجغرافية الراعية الرسميّة لـ(نستمر برحمة الله فقط)"

و كتب مقالة أخرى لا تقلّ جرأة عن سابقتها

_"سعادة الوزير، هل فتحت مصنعا لصنع السراويل الملوّنة؟، هل تكدّست؟أتقوم بدعاية لتصريف سراويلك؟ إنّك تصنع منا مهزلة عالمية بينما تتجوّل بها في الأسواق،ليس من اللائق حتى النوم بها،إن كنت تجهل،فنحن بالأساس و بفضل جهودك المخلصة نكاد نُصنّف عالما خامسا،أرجوك ارتدِ سراويل مناسبة لمنصبك على الأقل ،لأنّك تفضحنا"

أمّا الانتخابات فإنّها المناسبة السعيدة كما يسعده وصفها هازئا ،التي توزّع فيها الابتسامات العريضة و تظهر فيها النواجذ الصفراء و توزّع فيها كذلك علب العصير، و قطع الخبز المحشوّة بالسمك المعلّب،و تتناثر فيها دموع التماسيح،و تكثر فيها الوعود المصاحبة للتصفيق والتهليل، شبّهها برجل مراوغ يخطب فتاة، عندما يتمّ الزّواج يثبت لها عمليّا بكل ما يستطيع من جهد ووقاحة أنه رجل مخادع غشّاش،و أين الوعود؟،تبخرت يا حبيبتي.لقد كان القالب التهكمي جزءا لا يتجزأ من سحره، بل يكاد المرء يوفّق إلى الإقرار أنّها المصدر المثالي لكونه محبوبا ذائع الصيت ذا شعبية واسعة .

تجهل أثيل كيف حدثت كل هذه الأشياء معها، أشياء تطلق عليها النساء لو اطلعت عليها سذاجة خرقاء، ولذلك دسّتها في قلبها، ولم تطلع أحدا عليها و بالكاد تفضحها إشراقة عينيها واحمرار وجنتيها الخفيف إذا ما كان مدار الحديث، وبالكاد تبدي عن استيائها إذا ما نعتته إحدى

النساء بالصعلوك ،إحدى النساء المتملقات للحكومة و أبرزهن جميلة زوجة صبري الأصلع المتيّم بالمناصب والانتخابات و الذي لا يمانع البكاء للظفر بأصوات الشعب.

إنها تكنّ الإعجاب لرجل لم تلتقه يوما،رجل محبوب ينتمي إلى نصف الكوكب الآخر كما يُسعد سميحة القول،إنّ أول تعليق سيوجّه لها إذا ما عرف أحد بمشاعرها "هل جننت يا أثيل،هل فقدت عقلك تحبين صحفيّا مشهورا لا يعرف أنّك موجودة في الدنيا " .

صحفي غيّر حياتها إلى الأبد من مجرد نظرة تحولت إلى عاطفة غير محددة ،اعتقد قلبها أنّها نزوة إعجاب عابرة تماما كنزلة برد قصيرة ستذهب لحالها، و فيما بعد أدركت باستغراب أنّها متعلقة به، فلم تفوّت على نفسها مرة سماع صوته في الراديو،و هو يحلّل ويجادل من أجل قضايا الأمة،أما مقالتا الأسبوع ؛فهي تنتظرهما بفارغ صبر, و راحت كلما نشر صورة له على الجريدة تجد متعة في النظر إلي عينيه البنيّتين، وملامح وجهه الوقورة التي إن عكست شيء فإنّها تعكس نبلا وتسامحا.

وفي لحظات اندفاع عابرة متكرّرة، كانت تستهويها خاطرة سادرة مناورة اتّزانها المنيع جارفة إيّاها من المنطق الرفيع إلى فوضى التصرّف الصبياني، كانت هذه الخاطرة تخالف تماما طبيعتها الهادئة المفعمة بسحر الرصانة الماثلة أبدا فيها، أن تبعث له برسالة، لأنه يختم المقالة دوما بتصريح مقتضب"من يحتاجني ما عليه إلا مراسلتي أنا بالخدمة دائما "و يدوّن عنوان بريده الإلكتروني.

وبلمح البصر تطرد الفكرة،منتقدة سلوكها: ماخطبك يا أثيل؟ إن هذه الرغبة تتملّكها من حين لآخر كشهاب خاطف،لقد كان هذا الحبّ المستحيل نعيمها و شقاءها،علّتها و دواءها،نارها وجنتها، وكان ممّا يدعو إلى السخرية أنّه لا يعطيها إلا بقدر ضنين مقابل ما يأخذه منها،كأن تضاعف لك الحكومة راتبك ثم تلهب أسعار السلع، لو أنّها لم تكن متواضعة، راضية، لأدركت أنّها تخسر دائمًا،لقد فقدت الحق في الزواج من أي رجل،و ليس هو صالحا إلا لتحبه سرا ؛ بل ومناسب كذلك لهذه المَهمة، إذا ما كانت قدرا محتوما ،و لا شك أنها ملزمة بتحمل مضاعفات الحب المستحيل المعروفة .

لكن ذاك القدر الضنين كان يكفيها ،فالحب في النهاية أن نعطي أكثر مما نأخذ ، و إذا لن يضيرها أن تحبّه الآن و ما تبقى من عمرها، تحبه حبّا نّقيًا معطرًا بإخلاصها، إن كان الحبّ يعني نبضا خفّاقا، تفكيرا مطرّدا، عيونا ساطعة،ابتسامة دافئة، جذلا منطلقا و اهتماما بالغا، تحبّه دون أن تتعشّم نيله أو تطفو إلى السطح بدعة الركض خلفه، ولو أنّها كانت في وضع مختلف لما

تجرأت على غير إيداع حبه طيّ الكتمان،فهو رجل معروف مرموق، ينتمي إلى طبقة اجتماعية غير طبقتها، ترعرع في أسرة مترفة تختلف عن أسرتها الفقيرة، وأنّى لها أن تصل إليه.

منذ سلمت بحبها له ،كانت قد درست إمكانية ذهابه إلى السجن نتيجة جرأته مرات كثيرة و عرفت ردة فعلها من ذلك ،لكنها لم تدرس حتمية زواجه إلا مرات قليلة ،لا بد أن يتزوج ذات يوم ، كل الناس يتزوجون مهما أجّلوا ذلك و إن كان من بين هؤلاء الناس رجل متعلق بعمله و أمه مثله هو ،و عندما كانت تفعل ،أدركت أن ردة فعلها ستكون ألما لا يطاق ،لكنها انتهت إلى حقيقة أن الأشياء التي تعيش في خيالنا و ليست جزءا من واقعنا نستطيع المحافظة عليها بالطريقة التي نريد ،مما يفوض لها نسيان أنه رجل متزوج و الاستمرار في اعتباره الأعزب المرغوب إلى الأبد .

راحت العبارات المسمومة التي نطقت بها شقيقتها تجدّد نفسها و تبّث الانفعال الجزع في روحها بحيث هوت صورته في حفرة عميقة، ستخاف الليلة، و غدا،و كل أيام حياتها المتبقّية.

لم تقصّ الصورة لتضمّها إلى باقي الصور كالعادة، التي تحتفظ بها في صندوق مصنوع من خشب الورد و الذي تتعمّد إخفاءه في زاوية غير مكشوفة تحت رزمة من الثياب،و لأنّ أمها لا تميل إلى عادة العبث في حاجيات بناتها أثناء غيابهم عن المنزل،لم يساورها القلق من أسئلة مباغتة حازمة عن الأسباب الكامنة خلف الاحتفاظ بصور الشابّ.

الفصل الثالث

فتحت أثيلُ عينيها في الصباح الموالي متثائبة؛ إذ لم تتمكّن من النوم إلا ساعتين منفصلتين. كانت تشعر بتعب مَرضِيٍّ هادرٍ ، و كان أوّل ما تقدّم إلى مخّيلتها هو حديثها الكاسف الشبيه بالزوبعة العاتية مع أختها في غرفة أمّهما، انزلقت آليا للتفكير فيه فنديت عيناها ووخزها فجأة القلق وتوتّر الأعصاب واغتمّت نفسها بسبب واجب لقائهما على طاولة الفطور، شعرت ومعدتها تتقلّب أنّها غير جاهزة لذلك، فهذا يتطلّب مجهودا و شجاعة كبيرين و هي لا تملكهما،الآن وقد صارحتها وأراحت نفسها المثقلة لن تمانع النظر إليها بامتعاض قاتم وسخط صريح بعد أن كان سخطا ملفوفا بالتلميح الغامض والنظرات الباردة البكماء "الله أعلم كم مضى على معرفتها " تساءلت باكتئاب"فهي لا شكّ تكرهني منذ ذاك الحين، لم يزد علمها إلّا من جنونها المتطرّف"

أحيانا تشعر بالإثم لاعتقادها بكراهية شقيقتها،ليس الأمر كذلك، هي تحبّها بلا ريب، ولكنّ طباعها المعتوهة،الطموحة ، و نزعتها القاسية نوعا ما تقودها والآخرين إلى إساءة فهمها . يستحيل أن تكره الأخت أختها وهما تحملان نفس الدم، وهي لم تكتم سرّها عن والدتها إلّا لكونها تكنّ لها شيء من الأحاسيس الصادقة." إنها تثور بسرعة البرق، و هي أيضا متقلّبة المزاج ولكنها مطلقا ليست شريرة ".

ما أقسى ما كانت الليلة الفائتة، ما أشد ما آلمتها كلماتها، وما أهول الذي ذكّرتها به، وفي الأيام القادمة ربما بعد أسبوعين أو ثلاث ستتحيّن فرصة مناسبة و تنفرد بها في حديث ودّي وستعمل على كسب مغفرتها، وربما تأييدها لذاك الذي أقدمت عليه شارحةً لها الأهوال التي تجرّعتها، والمحن التي مرّت على رأسها، لكن الظروف الراهنة لا تبعث في نفسها الرغبة، لذلك حبذا لو ترجىء المسألة إلى أن تهدأ الفورة الثائرة.

لو كانت مكانها لاخْتلقت لها الأعذار، و لما نصّبت نفسها قاضيا عليها،ما الذي كان يفترض بها فعله وهي على تلك الحال من انعدام الحيلة، لقد نالت نصيبها من الدموع و العذاب، وذبلت بجانب أجساد رجال قذرين ثم واصلت حياتها بعبء ثقيل هدّ كتفيها الواهنتين، وما خلدت روحها إلى الطمأنينة إلا عندما كفّت عن مزاولة الرذيلة و هاهي الآن و بعد سنوات تتفاجأ بإنسان عزيز عليها من دمها و لحمها يمزّق دثار ماضيها.

لا شك أن تصرفها في الليلة الفارطة كان وليد التلهف لتأسيس عائلة مع رجل رأت فيه الرجل المثالي لذلك ،كل امرأة على وجه الأرض تحلم بتأسيس عائلة عندما تبلغ سنا معينا و ميرنا لم تعد صغيرة ،فأثيل تعرف فتيات في مثل سنها يملكن طفلا أو طفلين و يشرفن على إدارة بيت كامل ،إن ميرنا تحبّ الأطفال، ولا شكّ أنّها متحمّسة لترزق طفلا،فكل جدار من جدران غرفتها معلق عليه

صورة طفل ،لا بد أنها انعكاس للرغبة في امتلاكه ، كم سيكون رائعا أن تحظى شّقيقتها بأطفال، من المؤكّد أنها ستعتبرهم أطفالها و ستشاركها العناية بهم، فهي معروف حالها، منفية من مملكة الزواج ، محرومة من حيازة الأطفال،و إلى ذاك اليوم،ربما ليس سهلا أن يلين قلب أختها، وبمجرّد أن تظفر بولد ستتخلّى عن حقدها اتّجاهها، هذا الحقد الذي تبيّن أن له مسوّغ كاسح.

اتّجهت عيناها نحو حزم أشعّة الشمس الذهبيّة المنسابة من خلال النافذة لتحدّد الوقت بالتقريب،كان المنبّه المؤقت على الساعة السابعة لا يزال صامتا، ولم يعلن بعد عن وقت مغادرتها السرير،و رغم ذلك لم تجد طائلا من الاستمرار مستلقيةً على أحد جانبيها طالما ليس بوسعها العودة إلى النوم مجددا، بين الفينة والأخرى سيملأ صوته القاصف الغرفة الساكنة فأنهضت نفسها و خرجت من السرير بخفة . وخلال دقيقة شرّعت مصراعي النافذة التي تخفيها ستائر بيضاء ثم استنشقت هواء الصباح العليل، و اتكأت بمرفقيها على إطار النافذة، كان جوا ناعما رائقا والشمس أخذت تزحف على الجدران لتصبغها، فأسرعت تلقّن نفسها شعارها المنعش في الحياة "ستشرق الشمس من جديد لا بد لها أن تشرق "، هاهي صيحات فتاتي سميحة الندية اللتين تقابل غرفتُهما، غرفتَها الضيّقة الأنيقة تتناهى إلى مسامعها كأنّهما تشاركانها الغرفةَ ذاتَها، كانتا جهورتيّ الصوت كأمّهما، تتمتعان بروح مشاكسة مرحة كروحها،تحسنان التهريج مثلها، تثيران الشجارات دوما فيما بينهما.

_"ماما،إنّها تفسد تسريحة شعري "صاحت البنت الصغرى سالي منزعجة بصوت يصل إلى الشارع المجاور" سأتأخّر الآن وتضحك علي صديقاتي، منذ الصباح وأنا أرتّبه،ماما اطلبي إليها أن تدعني و شأني "

_" لا تكذبي " احتجّت ريحان البنت الكبرى " لم ألمسك "

_"أقسم أنّني سأنتزع كل شعرة من جلد رأسيكما إن لم تكفّا عن الشجار" صاحت سميحة بعصبيّة "تتصرّفان كطفلتين صغيرتين رغم أنّكما صبيتان راشدتان،عقليكما كعقل الماعز،عندما ترى حزمة من الأعشاب... اخرسا فورا "

بعد قليل رنّ المنبّه مدويا كأنه قنبلة واستمر يرنّ ولم تنتبه، وهي شاردة الذهن، مفكّرة،و ما لبثت أن أخرسته عندما أزعجها صوته. و أسرعت تغسل وجهها في الطشت المخصص لذلك ، وترتدي ثيابها، وتمشّط شعرها، وفضلت استخدام معجون الأسنان الجديد لغسل أسنانها استعدادا للذهاب إلى العمل،اليوم بالذات تخطّط للحضور قبل الجميع حتى قبل إبراهيم نفسه،اليوم لا تودّ إطالة التحلّق حول طاولة الفطور تحاشيا لنظرات ميرنا التي لا شك أنّها سبقتها إليها، تستطيع التذرّع بالحجج المقنعة بغية الخروج من البيت بوقت مبكّر. أغلقت باب غرفتها

خلفها ثم مشت باتّجاه السلم.و عندما حاذت غرفة أختها لمحت الباب مشقوقا،و سمعت همهمات من الداخل فأدركت أنها في الغرفة و ليست في الأسفل تتناول إفطارها كما ظنت ،أخذت أحشاؤها تتقلب ، تردّدت ، ثم توقّفت لتلقي نظرة سريعة آملة كضرب من الجنون أن تكون ثائرتها قد تنازلت وهدأت،لأن فكرة غير مدروسة خطرت لها :أن تتحدث إليها الآن و تحاول أن توضح لها .

من شقّ الباب لمحتها تقف أمام المرآة الطويلة، تستعرض جسدها بعدم الرضا تتفحصه بعين الناقم ثم تتأمّل وجهها ممرّرة يديها على نقاط معينّة فيه و تشدّه في فواصل قصيرة لتحاول تحسين مظهره، و بدا جليّا أنّها برمة متحسّرة لافتقارها إلى الجمال المشتهى .

"هناك علّة صريحة، هذه البقع الداكنة تفسد مظهر وجهي،"تأففت ميرنا على نحو مفهوم، وملامحها تدلّ على تذمّرها فأنفها الذي ضغطت بأصابعها عليه لا يعجبها،وعيناها جاحظتان، ووجها النحيل قلبي الشكل يخلو من أيّ جاذبية، كما أنّ شعرها الأجعد منتصب كالأشواك، ولن تنجح المساحيق إلا في جعلها تبدو أكثر سوءا عن ذي قبل. ليس ثدياها أفضل حالا، فهما ضامران بشكل زريّ مسطّحان كبطنها، مضفيان عليها هيئة سقيمة وحاولت جاهدة إبرازهما باستقامة مفرطة على أنّهما لم يتقدما إلى الأمام إلّا كما تتقدّم السلحفاة البطيئة.

استمرت دقيقتين مدمدمة تتطلّع إلى المرآة، جرّاء عدم ملاحظتها أثيل تراقبها من شقّ الباب. و في اللحظة التي انتبهت فيها،اندفعت بعصبيّة غضبى يتطاير الشر من عينيها ، وقد كزّت على أسنانها و صفقت الباب في وجهها، ثم سمعت أثيل المفتاح يُدور في القفل، فاستنتجت أنّها تغلقه بالمفتاح و لم تجرب فتحه ، إذا فهي لا تزال ثائرة و لم تبرد نارها، في الواقع فكّرت أثيل أنّها وبعد تحرير كاهليها من عبء التزامها الصمت لن تفشل مطلقا في التعبير بحرية عن ما يختلج في صدرها من بغض فاحم بعد الآن.

في المطبخ، كانت أمّها تتولّى الإشراف بشخصها المدقّق، كأنّها تدقّق حسابات شركة رائدة، تشرف على إفطار ياسمين التي تفتقد الشهيّة، كان عود هذه الفتاة الصغيرة هزيلا، ووجهها مكدود منهوك،مما عزّز شكوك مليكة في إمكانيّة مرضها ثانية،ماذا لو توعّكت صحتها، ونامت على سرير المستشفى أسبوعا آخر ؟!،لا طاقة لها بتحمّل وعكة صحيّة كتلك.

_"إنّك أبدا لست على طبيعتك،أخشى أن تكون أعراض المرض السابق.جميع الفتيات في سنك يتناولن كميات كبيرة من الطعام، وعودهن متين متماسك "صاحت الأم في موجة من التأنيب المعتاد، إنّ عادة القلق الدائم لأجل كل شيء تثير روح الفتاة الصغيرة وتجعلها تنزعج بصورة واضحة، إنّها تريد أن تبقى نحيفة،فالأجسام البدينة لا تغري خيالها مطلقا.

_"أما أنت "استأنفت الأم المحاضرة الصباحية "فإنّ رّيحا خفيفة يمكنها حملك بسهولة، ستأكلين المزيد حتى و إن اضطرّرت إلى حشو فمك بالطعام بالقوة، ألا تّتعظين من تدهور صحّتك المرة الفائتة "

_"أمي "أجابت ياسمين باستياء متكاثف "لست أفهم سبب إرغامك لي على تناول الطعام،إنّ جسمي رشيق جميل،أفضل أن تتبنّي هذا الأسلوب مع ميرنا، فهي تكاد تقضي من شدّة الهزال "و انفجرت في قهقهة طويلة مرتفعة، دفعت الأمّ إلى ضرب مؤخرة رأسها

_"إن ما سمعتك تسخرين من أختك مجددا،,,حسنا لن أخبرك ماذا يمكن أن أفعل بك"

بعد أن قضمت كارهة قطعة خبز أخرى صغيرة، و تناولت كأسا من الحليب مرغمة. همّت ياسمين بترك المنضدة ، على أن الأم لم تقنع بهذا الحدّ القليل، إنّ ابنتها تسير نحو النحافة المرضيّة، ولطالما اقتنعت سرا و علنا أنّ ياسمين تعاني من مشاكل في الهضم، حيث أنّها لا تزدرد الطّعام بالشكل المطلوب المناسب لفتاة في سنها، وبالكاد تتناول قدرا مساويا على وجبة الغداء والعشاء، في حين تنعم الفتيات الأخريات بشهيّة تحاكي شهيّة النمور المحبوسة في قفص حديدي. و لأنّهن كذلك كنّ يتمتّعن بصحّة جيّدة، قوام بديع،وجه مشرق عذب، و بشرة نضرة مورّدة، وكانت الأمّ تولي قوام ابنتها الصغرى نصيبا كبيرا من قلقها هذه الأيّام،و فيما هي تشيّعها بطرفها، و هي ترقص تقريبا متوجّهة نحو الغرفة، اكتظّ لسانها بذات الجملة التي تكرّر ترديدها كل صباح "ليس من الصواب أن تأكل فتاة في مثل سنك هذا القدر فقط، عليك بذل جهد أكبر في استهلاك الطعام وإلّا ستتحوّلين إلى شبح يا حبيبتي"

فتلجأ ياسمين إلى جواب موجز درجت على ترديده هي الأخرى كببّغاء "سأفعل بالتأكيد" ثم ترسل قبلة في الهواء، و فيما هي ترتقي السلم مسرعة اصطدمت بأثيل. و عندما تبيّنت أنّها هي ألقت عليها تحيّة الصباح ثم لثمت وجنتها عطفا و حنانا .

_" لكن ما الذي تريدينه بهذه الفتنة كلّها؟ تبدين رائعة يا شقيقتي، كعادتك " قالت بصوت مرتفع ثم مدّت لسانها اتّجاه السلم رغبةّ منها بإغاظة ميرنا، كان وجه أثيل ينطق بالحزن والإنهاك، و كانت تفتقد الحرارة في صوتها الكئيب

_"ياسمين كفّي عن هذا التصرّف الأخرق" وبّختها أثيل بهدوء خامل و فتور خامد كأنّها تبذل جهدا كبيرا لتصدر الكلمات، كان بودّها أن تحتجز نفسها في غرفتها ولا تقابل مخلوق، بيد أنّ هذا يعني طردها من عملها، وليس بمقدورها المجازفة وخسارة عمل حصلت عليه بصعوبة.

_" لقد سمعت حوارها بالأمس مع أمي،كانت فظّة جدا،لا أحد يحبّها؛ لأنّها أنانية ومتعجرفة "

_"لا تتفوّهي بهذا الكلام عنها مرة أخرى"زجرتها بفتور و نبرتها خفيضة مرهقة "هي أكبر منك ويجدر بك احترامها، ثم لا تزالين طفلة صغيرة لتشاركي في هذه القضايا "

_"لست طفلة، لقد غدوت كبيرة، أنا في السادسة عشر "قالت ياسمين فخورة بسنها الكبير،محاولة تضخيم جسدها لتثبت أنها غدت كبيرة

_"أثبتي أنّك لست طفلة إذا و تصرّفي تصرّفا معقولا "و ابتسمت بعناء

_"حسنا،سأتصرّف كصبية كبيرة من الآن فصاعدا،ولكن يصعب علي تمالك نفسي عندما أراها تلقي اللوم عليك في كل شيء،طاب يومك يا شقيقتي "و بسرعة طبعت قبلة أخرى على وجنتها ثم أكملت سيرها تغنّي أغنيتها اللطيفة.

عرجت أثيل على المطبخ و ساهمت بدورها في تنغيص مزاج أمها، فقد أعلنت بنفور عن عدم رغبتها في تناول الفطور تجنّبا لمقابلة غير سارّة إذا ما نزلت ميرنا الآن و جلست قبالتها، بصعوبة منعت الأمّ نفسها من إبداء سخطها وسرعان ما رزمت بعض الأطعمة مصرّة عليها لأخذها لكنها رفضت ، ثم رافقتها الى الباب، تستفسر منها عن إمكانية زيارة منزل إحدى العجائز بعد انتهاء يوم العمل، فأجابت بالنفي، فليست نفسيتها بالمرحّبة بأي أحاديث.

كان البيت ذو الواجهةِ الخضراء و النوافذ المربّعة بمساحة صغيرة منتصبا في منتصف الشارع الطويل الجانبيّ الضيّق المسمّى شارع الأرامل، فمعظم البيوت تفتقر وجود ربّ البيت الذي خطفه الموت بسبب حادث أو مرض، ما عدا صبري الأصلع و نعمان متشائم الوجه و فواز عصبيّ المزاج. الشارع الذي يتميّز بالهدوء معظم الوقت،باستثناء الأحاديث القصيرة التي تحرص النسوة الفضوليّات على تبادلها من الشرفات أو على عتبات الأبواب،وضوضاء الأطفال الخفيضة التي يصدرونها كل صباح أثناء اللعب والشجارات الصبيانية.

البيت الذي سلم من المشاركة بين أكثر من واحد، كان والدها المتوفّى قد ورثه عن والده، ولن تخيب الملاحظة الحصيفة في وصفه بالمهترئ متداعي الجدران لا يصلح في أيّ زمن لا للبيع أو الرهن، يقابله منزل سميحة التي تعيش وحيدة رفقة ابنتها بعد وفاة زوجها منذ ثلاث سنين، فترمّلت وهي في سن صغير على حد قولها، لا يستطيع المرء أن ينظر إليها إلّا و يتبصّر نزعتها الهادرة في ميلها للشجار، و يرى بوضوح حجاب السذاجة المنسدل على وجهها.

لم تتحلّ يوما بالصبر الكافي لتكفّ عن النحيب المتواصل حول أنّها تُركت شابة صغيرة، وأنّه لا ينبغي أن يطلق عليها اسم أرملة، فالأرامل يجب أن يتجاوز سنهن السبعين سنة، وما أكثر ما تتطرّق إلى عدد العرسان الذين تتجاهلهم من أجل ابنتها مبديةً نوعا من التّأفّف المشبوب، ولا أقلّ من الإشارة إلى أنّ الناس يعتقدون أنّها تبدو كشقيقة كبرى لابنتها لكن مطلقا ليس كأمّ لهما،

ولولا أنّها ثرثارة بشكل مأساوي كنهر منساب تنطلق من لسانها كلمات مقذعة، تحب إثارة المشاكل؛ لاعتبرها المرء سيدة كاملة رائعة.

نشأت بينها وبين أثيل صداقة آبدة، أشاعت دهشة الناس واستغرابهم، صبية صغيرة في السادسة والعشرين هادئة الطباع راجحة العقل، وسيّدة في السابعة والأربعين طائشة تتصرّف كمراهقة بل أسوأ، فماذا يجمعهما إذا لتتآلفا كأقرب صديقتين؟، ولم تقلق أثيل من مواقف الناس إزاء صداقتهما مع تبادل الأدوار فيفترض أن تكون سميحة برزانة أثيل، وأثيل تكون بطيش سميحة؛ فهي قد نجحت في التعامل مع طيشها باحتراف مذهل، بينما فشل معظم الجيران الذين ظلّ فهمهم لهذه الكيمياء لغزا محيّرا، كانتا مولعتين ببعضهما، وانجذبتا لبعضهما من أول لقاء مثل انجذاب شوارد السالب و الموجب، تسمح أثيل لنفسها بالتهوّر معها فيما يسمى في قاموس السيّدة بروح المغامرة و تستمتع بذلك رغم اعتراضها على أفكارها، ترافقها في جولاتها إلى الأماكن التي تعتبر مناسبة أحيانا، شنيعة في أحيان أخرى كالمظاهرات، التجّمعات غير المرخّصة،و مراكز مختلفة .و كانت أثيل تتساءل مجفلة عن ردّ فعل أمّها إذ ما عرفت عن طريق صدفة سيئة طبيعة تلك الأماكن، كانت مليكة تسمح لسميحة باصطحاب ابنتها إلى وجهات مقرّرة مجهولة أو معروفة، يمنعها ولاؤها الأصيل لمعروف قديم جدا يصعب التنكّر له.

لم يكن معروفا عاديا بالنسبة إلى عائلة تتمتع بقدر كبير من العرفان بالجميل ،ففي فترة مرضها ،كانت مليكة لا تملك سببا واحدا قويا للامتنان لجيرانها الذين كانوا يأتون فقط لتفقدها في زيارات قصيرة قبل و بعد عمليتها متأسفين لأن لا شيء يقدمونه كمساعدة لامرأة بدون سند إلا الأدعية النابعة من قلوب متألمة و ما كانت لتلومهم على شيء فالفقر كان العامل المشترك بين جميع أهل الحي ، ،لكنها امتلكت بعض الأسباب الفعالة لتشعر بالامتنان لسميحة إلى آخر عمرها رغم أنها قليلا ما تعلن عن ذلك ،فقد حققت سميحة إصرارها على بيع قرطيها ،قطعة الذهب الوحيدة المتبقية لديها دون مراسم التأثر بعد أن كانت قد باعت خاتم زواجها لتحل أزمة طارئة تخص عائلتها ،لتساهم في جمع المبلغ اللازم للعملية ،لم ينبتا حتى شعرة واحدة في صلعة فالمبلغ كان مرتفعا جدا ،و لم تتأثر أثيل بنبل حركتها قدر تأثرها بإيثارها ،فلم تكن تجهل أنها رفضت بيعهما في أزمات خانقة ألمت بالعائلة ،و ما أكثرها ،فالزوج لم يكن إلا موظفا حكوميا بسيطا ،ينام بصعوبة بفعل التفكير المهموم في الديون المتراكمة ،و ليس هذا كل شيء ،فلقد أهملت بيتها و زوجها لتبقى في البيت و المشفى مع مليكة في الفترة التي تغيب فيها أثيل ،و لم تكن تتوقف عن التفكير في طرق لتوفير المال مع أنها طرق عقيمة كأن المريضة قريبتها ،و لا أحد قفز من السعادة مثلها عندما نجحت أثيل في الحصول عليه أخيرا، و لم يكن هناك طعام كثير في بيتها

و مع ذلك لم تجد صعوبة في تقاسمه مع عائلة أثيل ،لكن هذه المشاركة لم تكن فعالة أبدا ، فأثيل و أفراد عائلتها كانوا ينامون جياعا في ليال كثيرة أو يؤثرون بعضهم بعضا في خضار ذابلة و بيض مسلوق و خبز بائت ،و الأم التي لم يسبق لها أن لطمت وجهها ،فعلت ذلك خفية مرفقة إياه بدموع القهر عندما استيقظت ابنتها الصغرى في إحدى الليالي تبكي من شدة الجوع ،و أعادت فعل ذلك مرتين :الأولى عندما لاحظت لأول مرة كم هدت المسؤولية أثيل و كم غيرت من ملامح وجهها و كم سرقت من صباها العذب ،و الثانية عندما أعلمتها أنها لن تعود إلى الجامعة مجددا لأنها وجدت عملا محترما .و عندما رفض زوجها التوسط من أجل توظيفها في مكتبة إبراهيم لأنه لا محنة في الحياة و لا ضائقة أيا كان نوعها و حتى لو كانت شخصية تستحق إهانة كطلب خدمة من قريب بعيد بخيل ،لئيم كإبراهيم ،جثت على ركبتيها و تمسكت بقدمه و لم يجد بدا من تنفيذ رغبتها ،و جرى توظيف أثيل لكن ليس دون تردد و مماطلة و صعوبات ،أجل ،لقد فعلت تلك الجارة الكثير ،و كانت مستعدة لتفعل أكثر لو توفر لديها إمكانيات و هي تستحق لقب :صديقة الشدائد .

و هي تستحق لقب المرأة الأكثر إثارة للدهشة أيضا ،فهي لا تمنع نفسها و لا تخجل إطلاقا من حماقاتها السوقيّة التافهة التي من المفترض أن تنسب للمراهقات ،و التي يُعزَى ارتكابها، طموحها الشموس في أن تصبح سيدة أعمال وصاحبة أموال، و إن كان المرء يستنتج أنّها تفتخر بها في بعض الأحيان؛ فهو ليس مجنونا أو مخطئا، لكن وللصراحة رغم عيوبها المتعدّدة وثقافتها الرديئة، تنطق المدن والشخصيات على نحو مبتذل يدعو للشلل إلا أنّها سيّدة طيّبة، حلوة المعشر، تشهد لصالحها الشدائد والمصائب قبل المسرّات والأفراح .

بدت مريعة (وهي تقف على بعد خطوات قبل منزل صبري الذي يفصلها عن بيته ثلاث منازل صغيرة، أحدها انتقل أصحابه إلى مدينة مجاورة، تجري عملية حسابيّة ذهنية مستعينةً بأصابعها النحيلة الطويلة) بفضل شعرها القصير المشعّث المصبوغ حديثا باللون الأصفر الشبيه بلون سيارة الأجرة، وخصلة منه منسدلة على جانب عينها، ما أسرع ما غيّرت لونه!!!،لقد كان في الأسبوع الفارط أحمر قان، ولم يتناغم مطلقا مع بشرتها الشاحبة، و صبغت شفتيها الرقيقتين بأحمر شفاه صارخ. تزفر أثيل عادة زفير الحيرة و الاضطراب، عندما تتحقّق هذه الألوان الفاقعة، أما اليوم؛ فلن تبالي و لو لمحتها بدون ثياب .

كان وجهها الساذج الجريء يبدو مستطيلا من النحول، و حاجباها المنتوفان رفيعين مثل خطين فيه ، و كان أنفها حاد و طويل ،و على عكس يديها الجافتين بفعل استعمال الليمون عليهما للاحتفاظ بهما ناصعتي البياض،تبدو بشرة وجهها براقة و زيتية،و كانت ترتدي ثوبا من قماش محلي رخيص، حاملةً في يدها حقيبة صغيرة، واضعةً أقراطا ضخمة تشبه الأجراس ينبعث منها

صوت مزعج كلما قامت بحركة، أو هزت رأسها للقبول أو الرفض،من المؤسف أنّها كثيرة الحركة ،وكانت تعلّق حول رقبتها قلادة تظهر للعيان مشكّلة من أنياب حيوان مفترس،لا يستطيع الرائي أن يبصرها دون أن يتشكّل في خياله مشهدٌ كامل لإنسان إفريقي يرقص حول النار مؤديا طقوسا بدائية لتحضير وجبة طعام من إنسان حيّ، تشارك أثيل رأي جيرانها بأنه بشع، لا سيّما عندما تتبجّح سميحة بوضعه لرد الحسد.

"ليتها تعرف أنّها تبدو مفزعة، لا يجرؤ أحد على إخبارها عدا السيدة جميلة، وهي تعتقد واهمة أنّها تغار منها و لهذا لن تصدق كلمة إن ما هي عيّرتها" هجست أثيل بفتور، ثم تنهّدت برمة "ليس اليوم، بوسعي التحدث معها غدا، أو في الأسبوع المقبل،أو أي يوم آخر إلا اليوم "،لا مهرب منها مهما تذرّعت بالحجج،تبدو عازمة على محادثتها، لا سيّما أن لقاءاتهما في الفترة الأخيرة كانت قصيرة؛ بسبب انشغال أثيل بالعمل و بمرض ياسمين، وندر أن اجتمعت و إياها في همهمات سريّة من النوع الذي يزعج مليكة.

و كانت عيناها الصغيرتان محاطتين بهالة من الزرقة الضاربة للسواد، يعتقد المرء من بعيد أنّها كدمات ناجمةٌ عن تعرّضها للضرب المبرح، ولكنّها في الواقع مساحيق، و هكذا غارتا في دائرتين من السواد فأضحت مخيفة بشكل استثنائي،وسط بشرة بيضاء ناعمة كالحليب خالية من الشوائب والبقع، ستحتفل الشهر القادم بعيد ميلادها السابع والأربعين، بيد أنّها لا تقرّ إلا بأربعين سنة فقط.

تقدّمت أثيل نحوها، متمنّية لو تختار سميحة أوقاتا أخرى للظهور، كيلا تؤخرها عن عملها، لأن العجوز إبراهيم يكره عادة التأخير عن العمل، هي لا تستطيع بأي حال جعل نفسها شفافة حيث لن تلمحها. كانت لا تزال واقفة في مكانها تجري ذاك الحساب الصعب الدقيق في رأسها، و لم يتجاوز تعليمها مرحلة متقدّمة لتحصل على نتيجة حسابية سريعة، علاوة على ذلك كان ذكاؤها محدودا وثقافتها تجعل المرء يهتز من الضحك.

_"سيدة سميحة، صباح الخير،،، "حيّتها بابتسامة ضعيفة سرعان ما انطفأت لأنّ السيّدة قاطعتها بحركة من يدها طالبة منها أن تبقى مكانها، وتلتزم الهدوء، كيلا تشتّت ذهنها عن إجرائها الحسابي بعد أن اقتربت من النتيجة الحاسمة، واستمرت دقيقة تحرّك شفتيها الرفيعتين المصبوغتين ثم رفعت صوتها متذمّرة ،تراود فمَها ابتسامةٌ جافّةٌ.

_"أثيل،طلبت إليك مرارا التوقّف عن مناداتي بالسيّدة، حبيبتي نادني سامو مثلما يناديني الجميع "أضافت بأسلوب تشوبه الخيلاء، مبعدةً خصلة شعرها الصفراء عن عينها ثم ضمّتها إلى باقي شعرها خلف أذنها "أو ساما، أو أي اسم بعيد عن كلمة سيّدة الرسميّة، تشعرينني كما لو أنّنا

غريبتان، أو، لا،دعيني لا أتعشّم كثيرا، أعرف أدبك الجامح، كلمة سيّدة تبقى أفضل من خالتي أو عمتي، أعرفك يا أثيل، إنّ وداعتك تحملك على التلفّظ بأي لقب تظنين أنّه يعزّز تربيتك الخالصة "ثم زوت بين حاجبيها مازحة

_"سمعتك ذاك اليوم تنادين السيدة عديلة بخالتي، لو كنت مكانها ربما يغمى علي أو أتقيّأ في الطريق،كم هذا مريع" وزفرت

_"لن أناديك خالتي أبدا "قالت أثيل بأدب بينما انطوت سحنتها على خمول وسكون لم تلاحظه سميحة" ولكن لا أجرؤ على مناداتك،,,,أيضا،أحسّ أنني أقلّل من احترامك "

_"أرجوك قلّلي من احترامي يا عزيزتي، لا أمانع البتة "ضحكت بمرح ضحكة مجلجلة سرعان ما قطعتها "و الآن هلمّي أخبريني كم النتيجة عندما نقسم سبعمئة و تسعة و أربعين على سبعة، بغلتاي التعستان لا تفلحان في شيء، لقد قصمت هذه العملية رأسي "

_"مئة و سبعة "أجابت على الفور مما جعل مقلتا السيّدة تتّسعان في حركة تعجبية،ما أشدّ نباهة هذه الفتاة،إنّ ابنتها من الممكن أن تقضيا النهار بطوله لتحصلا هذه النتيجة السريعة مع أنها عملية سهلة .

_"قبل أن أكشف لك عن السبب وراء هذا الحساب،أعطني رأيك بصراحة في لون شعري "مرّرت يدها على شعرها متلفّتة يسارا و يمينا، وافترش وجهها زهوٌ يدعو إلى البؤس.

_" إنّه رائع "كذبت أثيل ثم ندمت

كان بودّها أن تكون صادقة وتصفه بالمريع لولا نظرة السيّدة الطروبة، هي لا تبدو أبدا في كامل عقلها، وليس أفضل من نعتها بالمجنونة إذا ما فقدت عدوّتها جميلة ذوقها الرفيع في الاحتفاظ ببرودة أعصابها.

_"كنت أعرف أنّك ستقولين هذا يا عزيزتي الرائعة أثيل " ضربتها بمرح ضربة خفيفة على كتفها.

_"و الآن جاء دوري لأخبرك كم هو جميل فستانك،إنّك أنيقة أيتها الفتاة الحلوة، لكن ابذلي مجهودا لتغيّري لون شعرك،ستبدين رائعة باللون الأحمر"تحمّست قسمات وجهها" أو اللون البنيّ الغامق، إن أردت الحقيقة، يلائمك أي لون و هكذا ستخلصين نفسك من هيئة الورعات التّقيّات. حبيبتي إنّها مقدمة لما سأعلنه لك "

قفزت. يفرز وجهها سرورا جليّا و غباءً مشرقا إنّ هذه الحماسة مدعاة للذعر،عندما تقفز سميحة فهذا يعني أنّ عقلها المجوّف وضع أنامله على فكرة استثمار جديدة. هي تدعي أنّها سيّدة أعمال ناجحة، وللأمانة الفجّة ليست إلا امرأة فاشلة في ميدان الأعمال،تعرّضت للنصب

والاحتيال مرتين،و لم تكن إلا وفاة قريبها منذ سنتين ونصف هي التي منحتها الفرصة لإخراج مواهبها المسعورة من جمجمة رأسها العاطل ،فلقد ترك ثروة متواضعة حصلت منها على حصة معتبرة .

اخترقت المفاجأة رأس أثيل قبل أن تنطق بها السيّدة "سأقوم باستثمار جديد "

_"يا للفاجعة"هجست أثيل محبطَة، رافعة حاجبيها موسّعة مقلتيها، واجتاحت وجهها تعابيرٌ التوتّر بفعل الخطب الشاقّ، ألا تتّعظ هذه المرأة!! وبحركة خاطفة مرّرت يدها على شعرها الأسود كأنّها تريد إنقاذه من عيون السيدة، فيما طبعت على شفتيها نصف ابتسامة متكلّفة رغم حزنها، و بالكاد استطاعت إخفاء ذهولها. وبينما كان ذهنها يسبح حائرا في طيات العبارة الأخيرة، تأبّطت سميحة ذراعَها ثم مشت بها خطوتين، كانت خطواتها وئيدة متثاقلة.

_"نعم، نعم، سأفتح صالون تجميل للنساء."شرحت بحماس، محرّكة يدها بحركات تتناغم والفكرة المستجدّة، كانت مغرمة بالمشاريع والاستثمار، أما استجابتها للخواطر المتعلّقة بالمسألة؛ فهي أسرع من استجابة غزال فارّ من أنياب أسد،إنّ خيالها لا يتواضع و ينزل إلى الأرض البتّة، ولم تنجح نوبات الفشل الذريعة في إخضاعه، وكان حظّها من النجاح ضئيلا، و غالبا ما اعتلت تلك النظرة الظافرة الحالمة المشعة عينيها، و كأنّ فيهما عملتي نقود ذهبيّة تشعّان بدل مقلتين،و ما إن تتحدّث عن المال حتى يضيء وجهها و تنشرح أساريره.

_"لم أفكّر في اسمه بعد،أرجو أن تقترحي عليّ بعض الأفكار أنت أيضا،أنا بحاجة ماسّة إلى إبداعك "و فجأة غيّرت رأيها " لا، لا، لست بحاجة إليك، أنت فتاة تقليديّة و تربيتك خالصة ومفرطة إلى حد تجعل المرء يخاف من نصائحك، إنّ المجون وقلّة الحياء أحيانا مفيدان"إن هذه السيدة تدفع المرء إلى التأكّد أنّها مجنونة حقّا

_"ولكن "نطقت أثيل، عندما صمتت سميحة لبرهة غارقة إلى أذنيها في أحلام النهار، كانت عيناها الصغيرتان غائرتين ضمن دائرتين سوداوين حالمتين، وسطع منهما وميض برّاق، وانعكس خيالها الحالم على وجهها الشاحب فغدا وجها أخرقا كوجوه الخرفان.

_" لم يمض وقت طويل على آخر استثمار قمت به، وخسرت المال والقضية أيضا، الحمد لله أنّ خسائرك كانت قليلة ثم أنا لا أذكر أنّك نجحت بأي استثمار، أعتقد أنّه،,,أقصد" وبفعل النظرات الغائمة الموجّهة إليها تلعثم لسانها، و أصبح من العصيّ عليها التفوه بالمزيد، علاوة على عدم رغبتها في الكلام، وسرعان ما أفلتت السيدة ذراعها و قد تقرّحت معالم وجهها

_"لماذا تذكّرينني يا أثيل؟؟" توقّفت عن الحركة و قالت حانقة عاقدة حاجبيها بصورة مربكة "لقد كنت فقيرة التجربة،لا أسوأ من امرأة تصارع وحدها في ميدان مكتظّ بالشياطين،إن حقوق النساء تهوي إلى الحضيض إذا لم تستوعب بعد،وبما أنّك طرحت المسألة في هذا الوقت بالذات.."

_"لم أقصد تذكيرك "قاطعتها أثيل بلطف "إنّما أردت فقط أن تفكري مليّا،لا تتعجّلي أمرك"

_"لا، يتعيّن عليّ التوضيح، ليس لأنّني بحاجة إلى ذلك،أنا لن أعصر رأسي حول أمور أعتقد يقينا أنّها لا تستحق، ولكن يا أثيل ينبغي أن أفسّر لك أنت بالذات، لم أشأ إزعاجك لأن ياسمين كانت مريضة، ولم أجد فرصة مناسبة وها قد أتت "علّقت سميحة ببرود محتفظة بالسحنة المتجّهمة مثل البارود "اسمعي،لقد احتال عليّ ذاك الوغد، بعد أن أمّنته على أموالي، ولأنّني كنت أثق في رجولته المزيّفة لم أكترث كثيرا بموضوع الوثائق، وفوق هذا شهدت تلك الجاموسة مساعدته ضدّي "

إن هذا يحسّن من مزاجها المعكّر، وتشعر بالراحة النفسية العظيمة، وهي تبرر قصص خيباتها "و عندما زرت ذاك المحامي الوغد في مكتبه، وجدته دافنا رأسه الكبير في الأوراق، وعندما انتصب على قدميه صعب عليّ تحديد إذ ما كانت البدلة تلبسه أو هو من يلبسها، كانت كبيرة عليه جدا، وحذاؤه كان ثقيلا إلى الحدّ الذي تظنّين فيه أنّه يحمل كرة كبيرة على ظهره مثل طَلّوسْ "

_"تقصدين أطلس" رمقتها أثيل بنظرة تدلّ على جهلها و ارتجف أحد حاجبيها إثر الجهل غير المحدود الذي يعشعش في رأس السيّدة.

_"لا يهم،الفكرة ذاتها، سأكمل سرد الوقائع، عليك أن لا تصدقي مطلقا أي محام يا أثيل، جميعهم دون استثناء لصوص، يعدونك بالنصر المحتّم ثم في الأخير لا تظفرين إلا بالخسارة، حسنا أين توقفنا،ها"

تنفّست بعمق، أحست أثيل أنّها سحبته من أعماق رئتيها " كما سردت عليك، أقسم لك، راح يذرع الغرفة بحركات أشبه بحركات عملاق ممسّدًا ذقنه بيده المحمومة،و هكذا دوّنت في عقلي أنّه محام متمرّس، و بعد أن درس قضيّتي توقّف في مكانه و بحركة غريبة رفع رأسه إلى السماء ثم هتف بصوت جهوريّ ملعلع كجندي مغوار و كأنّه يغنّي أغاني المجد وحب الوطن: أنا يا سيّدة سميحة، أنا من سينتقم لك من الأنذال، أنا من سيعيد لك حقك،أنا. وتنفّست الصعداء وطربت كما تطرب الغبيّات، وكدت أرقص لولا أن الحياء منعني، نعم الحياء يا حبيبتي"

تفوهت بها بشيء من السكينة و السخرية بذاتها، مما أغرى أثيل على الضحك،فصدرت عنها ضحكة صادقة حقيقيّة، قادمة من قلب منكسر، قلّما فشلت سميحة في تحسين مزاجها، ثم استأنفت و وجهها يظفر بمسحة الأسى الجادّ " عندما ذهبنا إلى المحكمة،جاء غريمي النذل

يصحب معه محاميّة مثيرة، كانت ساقاها المنحوتتان شديدتا البياض مكشوفتين للعيان؛ لأنّها ترتدي ثوبا قصيرا، وشعرها ناعم و تضع مساحيق ناعمة أضفت عليها سحرا و جاذبية، وكل الرجال كانوا يحدقون إليها بأعين مخطوفة، و حتى الكلب الذي وكّلته كان عاجزا عن رفع عينيه عنها رغم ضعف بصره، اكتشفت هذا متأخّرة، انتبهي لم يكن غارقا في الأوراق؛ لأنّه متمرّس، بل لأنّه لا يرى جيدا،ابن ...." و بالكاد أكملت كلمتها حتى أغمضت أثيل عينيها بقوّة وصفقت فمها، وتخضّب وجهها بلون الخجل الفائق، ولمّا فتحتهما، تطلعت يمنة و يسرة لتتأكّد من عدم وجود مستمع ثم ولولت كمنتحب

_"أرجوك يا سيّدة سميحة لا تتفوّهي بهذه الألفاظ، إنّها مريعة،إذ ما سمعك أحد،،"

تأبّطت سميحة ذراعها من جديد وجرّتها من حيث تودّ الوقوف قائلة بلهجة تنّم عن عدم الاكتراث بالملاحظة الأخيرة

"عليك أن تقولي كلمة مقذعة أحيانا، أنت لا تدرين كم يخفّف عنك من الغضب،إنها تعبّر عن فورتك الداخليّة بأحسن صورة، وتخلّصك من طعم الأدب العالق في فمك الناعم، و لكن مطلقا لا تستهيني بروحك، و تفكّري بقولها أمام والدتك، فأنا لا أعرف كم ستعيشين بعدها،قد تُكسّر عظامك؛ فهي امرأة صعبة المراس،،،الآن كفّي عن مقاطعتي،أريد التنفيس عن غضبي. كل الذنب ذنبك لأنّك ذكّرتني بذاك القطيع من الأوغاد. حسنا، كما اتّفق و رويت لك،جلب معه محاميّة أذهلت عقول الجميع؛ مما اضطرّني إلى الاعتراف أنّها أجمل مني،نعم،لا تستغربي لقد كانت جميلة حقا، لو علمت بخطّته مسبقا للجأت إلى توكيل امرأة فاتنة مثلها، ولنزعت عنها نصف ثيابها بصفة مغرية، وهكذا سيجنّ القاضي و حاشيته، وتتعارك الدجاجتان و تفوز الأكثر فتنة و تأثيرا،أما العدل ليرحمه الله كان طيّبا وابن عائلة محترمة،القاعدة تقول: لا ترشي القاضي،اجلبي له محاميّة مثيرة"

أضافت عشوائيا بينما ضايقتها خصلة شعرها الصفراء فتوعّدتها بالقصّ الكامل:

_"انتبهي لقد تعمّد ذاك الوقح إقحام محامية جميلة في المسألة، ولم يكن القاضي أحسن حالا، لقد أغرته في الحال و فتح فمه مثل كلب لهّاث وطفق الخرف يؤلف فصولا عن الطريقة التي سيحضنها بها، و يقبّلها ويلمس بشرتها الناعمة، أما ذاك الجلف الذي وكّلته للدفاع عني؛ فراح يتسكّع في القاعة مثل شيخ فاقد الذاكرة. كان يعدّل من موضع نظارته كل خمس ثوان، ويتصرّف بطريقة خرقاء، مما دفع القاضي إلى الاقتناع أنّني لست جديّة في قضيتي، وأضعف ذلك موقفي. اااه لو سمح القاضي لي بالكلام لدافعت عن نفسي وعن ذاك المحامي أيضا، كان ينبح باستمرار آمرا إياي بالتزام الصمت وإلا سيوجّه لي اتهامات خطيرة بإهانة قاعة المحكمة وإهانة شخصه،

والعقوبة تتمثل في ليلة كاملة في السجن. وما لبثت أن قامت تلك المحتالة المثيرة تختال برشاقة دافعةً ثديها إلى الأمام، أقصد المحاميّة قامت تضرب أخماس لأسداس، لا أنكر، كانت تملك صدرا بارزا مشدودا منتصبا ليس كالسمكتين منزوعتي العمود الفقري اللتّين أملكهما، وتمشي كعارضة أزياء محركّة حاجبيها لإثارة القاضي بحركاتها، تبتسم ابتسامة شقيّة، لقد كانت تمارس الإغراء عليه، ودعمتها مفاتنها. لم يكن إطلاقا يتحلّى بالعقل الرزين ليفرّ بجلده من إغوائها، وقبل أن ينبح بالحكم، قال كلاما كثيرا لم أفهم منه فصلا واحدا، وأغلب الظن أنّه كان يشتمني ويهدّد بطردي من القاعة "

تحوّلت نبرة صوتها إلى هازئة حانقة

"أما يا عزيزتي عندما يخاطب تلك اللعينة، فإنّه يتحوّل إلى كائن وديع، و ليس أفضل حالا من محاميّ العزيز الذي أصبح لديه قناعة جديدة أنّني أكذب، بفعل السحر الذي رمته عليه تلك الماجنة،أتصدقين!! لقد غدا يتأتىء وعندما تنظر إليه ترتعش أوصاله و يفقد السيطرة على انفعالاته،و أقسم أنّه كاد يتهّمني بأسوأ التهم و يتحوّل للدفاع عن غريمي الوغد لولا خوفه من الفضيحة، تصوّري راح يستجوبني ليثبت علي التُهمة،لما لا، وقد تلبّسته تلك الجنيّة،اااه لقد فضحني . و لكن، لا "

انبعثت من عينيها نظرةٌ متوعدة يشوبها بغض راعد "سأجعل ذاك الخروف يدفع الثمن، سألصق باسمه العار إلى الأبد، سأفضحه بين الناس و أقسم أنّه لن ينال إنسانا يدافع عنه بعد الآن، سأصنع منه متسوّلا. فيما بعد علمت أنّه نام ذات مرة بقاعة المحكمة لعمله في الزراعة واستيقظ و هو يصيح الفلفل،,, الطماطم،, و حكم على ثلاث من موكليه بالإعدام خلال السنوات الثلاث الأخيرة، كان عليّ أن أوكّل المحامي الذي اقترحته لمياء الصلعاء، إن فمه مدجّج بالكلمات البذيئة كما أنه سليط اللسان كامرأة سوقيّة، ولكن لا بأس فأنا لست أحسن منه" وتداركت فكرتها، ليست سديدة أيضا " لن يتغيّر شيء، كان سيلهث مثل كلب بمجرّد أن يراها وسيقع تحت تأثير سحرها، أليس هذا مريعا يا عزيزتي؟ أن تغدو رقابنا وحقوقنا تحت رحمة المساحيق البرّاقة و الأثداء الناهدة والسيقان المنحوتة !!،أجبروني على ما أنوي: سأوكّل محامية فاتنة إن استدعت الضرورة في المستقبل "قالتها ببساطة أوقعت أثيل في الحيرة.

"كنت منشغلةً جدّا بمرض ياسي، فلم أستطع أن أسرد عليك كل هذه التفاصيل الرديئة، هل تيقنت الآن أن الخطأ لم يكن خطئي؟ لست عازمة على تكرار نفس الهفوات مرة ثانية، هذه المرة أعرف تماما أين أضع قدمي، لن تزلق. ليست فكرة الصالون فقط من تحتّل رأسي، هناك رزم من الخواطر المجدية الجاهزة،مثلا،," وعلى نحو مفاجيء توقّفت عن الحركة مضيّقةً حدقتها في

حركة نزقة ثم اقتربت إلى صورة معلقّة على الجدار المقابل لمنزل صبري، كان يرتدي بدلة رماديّة تتلاءم و ربطة العنق السوداء، و بحروف عريضة سوداء كتب شعار معبّر "انتخبوا من أجل التغيير"، لن يمرّ الأمر مرور الكرام، إن سميحة تمقت هذا الرجل حتى ولو علمت أنّه شارك في الحرب التحريرية،و إنّها لن تحبه بصورة خاصّة، و هو يشارك في المهزلة الانتخابية. كان رجلا قصيرا بدينا ذا هيئة خرقاء ووجه شبيه بوجه الخنزير على حد قولها أصلع الرأس، وكانت عيناه عديمتا الأهداب تشيان بغريزة وحشيّة جشعة رغم ما يظهره الرجل من وداعة ملفتة، وفيما كانت واقفة باستقامة مثبّتة طرفها عليه، تنتفض أجفانها، ما برحت أثيل تنقل بصرها بسرعة بينها و بين شرفة السيّد و زوجته آملة في سرّها أن لا تندلع حرب كلامية بين هاتين الاثنتين، إن سميحة لتجد متنفّسا عظيما في إثارة المشاكل،أما عندما تجد الأسباب الوجيهة فإنها تطرب سرورا.

كانت الحرب بينهما قد وضعت أوزارها لفترة يسيرة، و لكن عامل الفتنة النسوية ضيّع جهود أثيل لتوثيق الهدنة الباردة؛ فحمي الوضع و عادت الأمور إلى عهدها الأول حيث ثارت سميحة عندما قررت إحدى السيدات ممارسة النميمة على أصولها فأبلغتها، وهي تتكلّف مظاهر الانزعاج أن جميلة سخرت من نحافتها في حلقة نسوية ثرثارة، وضحكت عندما وصفت استخدامها بفزاعة الطيور في حقول القمح بالمناسب جدا، وأفلست كلمات أثيل المهدئة في إطفاء حريق أعصابها؛ فلم تتحمّل طويل لتسدّد دين الإهانة اللاذعة و عمدت إلى الاجتماع بذات النسوة التافهات و أعلنت بدورها أن المكان المناسب للغوريلا جميلة هو الأدغال أملا في تطوّع إحداهن لتبليغها الرسالة المهينة، ولم يكنَّ ليرفضنَّ هذه المنحة الدسمة؛ فأسرعن يشعلن نار الحرب من جديد،ما أعظم النساء و هن يتحدثن برقة عن بغضهن للفتنة و النميمة بينما يؤدين طقوسها بتفنّن، ما أعظمهنّ وهنّ يلقين الحطب على النار بينما يتظاهرن بإلقاء الماء، ومنذ ذلك أصبحت رؤيتهما تتبادلان الشتائم أو الصمت الناري منظرا مألوفا.

_"أين منديلي؟" مدّت صوتها و طفقت تتحسّس جيوب حقيبتها.

_"ما حاجتك إليه "صاحت أثيل و قد التّف بها الارتباك.

فقامت بسلسلة من الحركات المعبّرة

_"سأبكي من التأثّر يا عزيزتي،ألا ترين المكتوب هنا؟،تأثّري يا أثيل تأثّري، انتحبي، انتحبي بأعلى صوت، نحن ماذا،.النموذج الواعد للتغيير، يا له من خنزير، وغد، سافل، منحط، بذيء،رديء الخلق..."

صمتت حانقة تفتّش في قاموس الفواحش عن كلمة تصف بها الغضب المستعر "أتصدقين؟ لقد رأيته بالأمس صدفة، كان الوغد يبكي، وهو يتوسّط مجموعة من الأغبياء،السذّج، يقنعهم

ببرنامجه الوهمي المحفوف بالكذب والخداع، مثل الجزّار يقنع العجل بضرورة ذبحه. ولو طلب منه الزحف على بطنه، لم يكن ليمانع، يريدون منّا التصويت أليس كذلك؟، سوف لن أمنح صوتي لأيّ عاهة مستديمة من تلك العاهات،أراهن بكل ما أملك أنّه كان يكذب"

إن سميحة بالطبع لا تمتلك الحيطة وحفظ اللسان اللذين يكسبانها محبّة الآخرين، و من بين ميزاتها الفريدة قولها الحقيقة كما هي من غير مجاملات أو تغليف، و يندر بل يستحيل أن تضع قناع النفاق وتتملّق أحد، وباستثناء أثيل وعائلتها لم يكن أحد ليكنّ لها أكثر من الكراهية المعلنة، فالإنسان الصريح مؤيدوه نادرون.

"والتقط بعض الصور الجميلة مع المتسولين ووزّع بعض العصير والخبز مع توزيع الوعود الكاذبة."

_"اخفضي صوتك يا سيّدة سميحة، لربما سمعتنا السيّدة جميلة "قالت أثيل بحذر، بصوت خفيض قريب إلى الهمس، كانت توسلات هذه الأخيرة أضعف من أن تسكتها أو تنجح في ضبط اضطرابها الفوّار، فوحده عقلها المتهوّر من يقودها "من غير الحكمة إثارة شجار هنا في هذا الوقت المبكر من الصباح، دعنا نذهب، هم أحرار، حدّثيني بتفاصيل أدقّ عن مشروعك القادم " آخر ما تهتم به أثيل هي مشاريع سميحة، لكنّها محاولة مكدودة لإلهائها عن قضية صبري.

_"الانتخابات هي المرة الوحيدة التي نرى وجوههم فيها".

من بوسعه جرّها بعيدا عن الصورة؟من يستطيع إيقافها؟ الآن وقد عقدت العزم على إثارة المشاكل، ولم يذهب طلب أثيل أبعد ولو خطوة عن صورة صبري الوحش، ولم تأبه بملاحظتها الأخيرة.

"انظري كيف يبتسم في الصورة حتى نواجذه تظهر، وعندما يفوز لن يلقي عليك حتى شتيمة، بودّي سؤاله عن برنامجه؟"و رفعت حدّة صوتها

"أعرف ما هو البرنامج، رحلات مجانية له ولعائلته، نقود كثيرة في المصارف، شقق في كل مكان، واحدة للعطلة، واحدة لارتخاء الأعصاب، دراسة مجانية لأولاده في الخارج، تلك الغوريلا جميلة هي وأولادها سينعمون بوقت طيب و يتناولون أحسن أنواع السمك....في حين أرثي أنا أسعار البطاطا، إنّ أسعارها تقفز كأنّها تشارك في الألعاب الأولمبية للقفز، أما الدجاج "ورفعت حاجبيها في حركة استنكارية ماطّة شفتيها، وقد تقيّحت تقاطيع وجهها، واحمرت وجنتاها من الغضب ثم قالت عرضيا "فقد حلّق بعيدا،أصبح جناحاه أقوى من جناحي الصقر،اللعنة عليّ إن أنا منحتهم صوتي، سأبصق على وجهي، وأسمح لجميلة بالبصق عليه إن أنا انتخبت على زوجها النذل، تأمّلي الورع والتقوى من وجهه، يعدوننا بالجنّة، وفي الواقع الجنّة لهم ولهيب الأسعار لنا ".

لم تستطع مقاومة الرغبة في البصق عليه، وهي تتقّلب في غمرة الغضب المضطرم فبصقت عليه.

_"صباح الخير يا أثيل "قال صوت عميق قادم من شرفة البيت المقابل، كانت جميلة ذات الهيئة الأرستقراطية الزائفة تقف مبتسمة على الشرفة تحمل في يدها المثقلة بأساور ذهبية عديدة كوبا من القهوة ترتشفها بطريقة مستفزة رافلة في ثوب أحمر صارخ.

_"يا الله ستندلع الحرب و لن تنطفئ أبدا "قالت أثيل في سرّها، كان وجهها يتردّى في الارتباك المشؤوم، وقد نسيت في هذه اللحظات جرحها النازف .

_"صباح الخير يا سيّدة جميلة "أسرعت تردّ عليها فيما تغضّن وجه سميحة واتّسعت مقلتاها كأنّها تستعد للقتال،و لم توجّه لها التحيّة؛ لأنّهما كانتا على خصام دائم.

_"نريد صوتك يا عزيزتي أثيل، أنت وعائلتك "قالت جميلة بسرور، إن هؤلاء الناس لديهم أكثر من البرامج الوهمية، لديهم ثقة عمياء و وقاحة جمّة، صفاقتهم من الدرجة الأولى، إنّهم بلا حياء

_"إن رؤوس الحمقى هي وجهتكم المفضّلة"قالت بغير وعي لما تتلّفظ به، لن يهمها أن تهين حتى نفسها،اذا اقتضت الضرورة إهانة جميلة و تكدير صفوها "أ ليس كذلك؟ما أسهل أن يسير الحمار غافلا خلف رزمة من الجزر على عصا غليظة ".

ما هذا؟هل تعني سميحة أن أثيل و عائلتها حمقى، هل تقصد أنّهم حمير

"أنتم أيها الأورام الخبيثة، يا آكلات لحوم البشر "استحال الجّو متوتّرا والهواء ثقيل، وتعدّ مَهمة مستحيلة إيقاف سيل الكلام من سميحة التي كانت قاتمة الوجه من الغضب

_"سميحة "ردّت جميلة بلهجة بطيئة رتيبة ممدودة مفعمة بالسخرية، وشدّت على العقد الذهبي الضخم حول جيدها؛ لتعزز الثقة بثرائها "تبدين، تبدين مفزعة بهذا اللون يا عزيزتي، ماذا حلّ بعينيك ما هذه الكدمات؟ هل تعرّضتِ للتعنيف؟ إنّ هذا مؤلم، أريحي أعصابك ولا تتواني أبدا في زيارة طبيب الأحقاد، فأنتِ لا ريب ترزحين تحت وطأة الكراهية المفجعة، ما لك وزوجي، أ لأنه رجل نزيه و يبدو جذابا في الصورة تملّكتك الغيرة؟،ثم لماذا تقلقين،فأولئك الذين لا يملكون شيء،لا يخسرون شيء "

_"أغار!! " قهقهت بصوت مدوّ غير أنّ أعصابها كانت تحترق و لو قُدّر لإنسان رؤية شيء الآن فوق رأسها سيرى دّخانا قادما من النار المضطرمة في عروقها، لقد لذعتها الكلمة أكثر مما حاولت أن تخفي "منك و من زوجك الخنزير اللص!! إنّكما متناغمان كالنشيد مع رفع العلم في بداية الأسبوع ، تريدون من التعساء أن يكونوا جسرا لتصلوا إلى مبتغاكم الّنرجسيّ؟ أليس كذلك؟،و لما

لا تتملّقين؟ وأنت بحاجة إلى كل صوت شّقيّ، فأنت لم تشعري بوخز الضمير يوما، وأنت التي عقدت صلحا مع النفاق، ثم من تتصوّرين أنك ستغرين بذلك اللون الأحمر ثورا أو بغلا على وشك أن ينفق، إنّ متسوّلة تملك ذوقا أحسن منك "

_"أرجوك ياسيدة سميحة"استعطفت أثيل بصوت متوّسل مرتعش فالوضع آل إلى التعقيد"دعنا نذهب لقد تأخّرت عن العمل، كما أنه لا يجدر بك التصرّف على هذا النحو، ستضعين نفسك في الموضع الذي تريده لك هي، تستفزّك لتظهرك امرأة سوقيّة، هيا ننصرف"

_"حتى تقول إنني جبانة"تلجلجت ثم رفعت صوتها "ستعتقد تلك المتوحشة أنها على حق، إنها تشبه الرجال، و تفتقد لأيّ حس أنثوي، ثم تسخر من شعري زاعمة بمنتهى الوقاحة أنّه مفزع "وما إن رفعت رأسها لتسدّد هدفا في الشباك حتى وجدت أن جميلة قد بارحت الشرفة

_"لقد فرّت،الجبانة، تواجه صعوبة في مجادلتي"

اكتسى وجهها بنظرة الظفر، إن المسألة لم تتعدَ تجاهلا صريحا، كانت جميلة قد صرّحت بكل ما لديها محافظة على هيئتها الوقورة، وقد تجهل سميحة أن الآخرين ينظرون إليها كمراهقة شغوفة بإثارة المشاكل، وفجأة طفقت تدعو بأعلى صوتها ضامّة يديها إلى بعضهما، رافعة رأسها إلى السماء

"يا الله لتصبهم الأمراض التي لا علاج لها، ليفقدوا عقولهم فيطلقوا النار على رؤوسهم الخاوية،لتشلّ أقدامهم "

و تطّربت في صوتها لتعود إلى حالتها السابقة، من أسهل الأمور عليها العودة إلى موضوعها الأول متخلّية عن الهيئة العصبيّة، موجّهة حديثها إلى النقطة التي توقفت عندها.

_"أين توقفنا قبل رؤية وجه الشؤم، ذاك الذي لا يمكن أن يلمحه الإنسان دون عضّ لسانه من الحنق" صرحت بهزل واستأنفتا المشي بخطوات رقيقة.

_"كنت تقولين أنّك تفكرين باستثمار جيّد لأموالك " ردّت على الفور مخافة إثارة ضجة أخرى.

_"ليست أموالي بالكثيرة،سأبيع جزءا من الأساور التي اشتريتها من الإرث الذي تركه قريبي ليرحمه الله، لولا ذلك المال لما استطعت أن أحقّق أحلامي، جاء في الوقت المناسب. كما أخبرتك،أرغب في الاستثمار "

قفزت إلى نقطة أخرى" أثيل، لولا أنني أخشى على سمعة زوجي، ولولا أنني امرأة محترمة إلى هذا الحد"

كانت نبرتها أقرب إلى النحيب،كأنّها تستعرض أحداث قصة حزينة "أنا وفيّة لذكراه"

ثم التفتت لتقول بلهجة نائحة جدية

"اااااه، لولا ذلك لتوجّهت صوبا إلى دار القمار و لكنت لعبت، أراهن أن لي مواهب تجعلني أربح".

لا حدّ لما يمكن أن تفكر فيه سميحة،إن عقلها أشبه بعقل مختل وخنقت الكلمة صوت أثيل وأحسّت أنّ وجهها يتقلّص بفعل الفكرة، القمار، عليها إعلان توبتها فورا.

بنبرة مندهشة و لكن منفرجة أجابت

_"أرجوك أن تتحلّي ببعض الجدية "

_"اسمعي "صاحت سميحة معاتبة "لا تظهري لي هذه السحنة، أنت تجهلين كم يكسب الناس من القمار، أقصد المتمرسين، أصحاب الخبرة، و ليس أسهل من أن أغدو متمرّسةً، إذا وجدت من يلّقنني دروسا في ذلك، تعوزني الجرأة فقط،اااه "تأوّهت من أعماق قلبها "لو لم أكن وفيّة لذكرى زوجي الراحل؛ لكنت فعلت أمورا كثيرة، الجرأة هي العامل المفيد لأي مسألة تودّين الظفر بها " وفكرت أثيل بعبوس لا يوصف أن جرأة سميحة لا يمكن أن تكون طبيعية، و هاهي تنتقل من نقطة إلى أخرى.

_"هلمّي أخبريني عن ذاك العجوز المتوحش "زمجرت متدلية الشدق

_"من تقصدين؟ "أجابت أثيل بسؤال آخر.

_"أنت تعرفين من أقصد، تعرفين من أقصد "كرّرت"وحش الأدغال، قريب زوجي رحمه الله، العجوز إبراهيم، هو أسوأ من الحيوانات التي يجبر أبناءه و زوجاتهم على مشاهدتها".

انزعجت أثيل من هذا النعت القميء في حق ربّ عملها

_"إنّه بخير،و لكنه ليس سيئا إلى ذاك الحد"

_"أحقا يا سفيرة النوايا الحسنة؟"ضحكت مسرورة بمنح أثيل هذا اللقب، وعنّ لها أن هذا الكائن الواقف أمامها ساذج جدا "بخيل جدا ، كما أنّه لا يسمح لك بالتغيّب،آخر مرة كما أذكر تعاقبت على وجهك كل الألوان وأنت تسأليني كيف يسعك طلب إجازة منه،دون أن يطردك، أصمّم على نعته بالمتوحش، كان أفضل و زوجته حيّة، و بعد أن ماتت غدا لا يطاق، هيا ألقي مواعظك وأخبريني أنه لا يجوز علي التحدّث عنه بهذه الكيفيّة، لدي قناعة أنك ستدافعين عن التنين بينما يفتح فمه لحرقك و الأنفاس تدبّ في صدرك، تسبّبين لي مغصا رهيبا عندما تدافعين عن الأوغاد".

_"هو ليس بذاك السوء "اعترضت أثيل غير مقتنعة ، إنها تدافع عن أي إنسان حتى مع حقيقة أنّ العجوز إبراهيم غاية في التزمّت والبخل،و القسوة غير المبررة "إنه طيّب القلب على أنّه

لا يحب أن يظنّ النّاس أنّه كذلك،لنقل أحيانا ، إنّ القسوة و العزلة ليستا مؤشرا دائما إلى الشر، قد تكون نوعا من الحماية الذاتية ".

_" قسوة وعزلة؟ما هذه الفلسفة المفحمة مع الصباح يا فتاتي الجميلة، لا توجد صبية تماثلك نبلا و طيبة، لن تقرئي السوء في أي إنسان،بحكم طبيعتك الرحيمة، لكم أحبك" وقرصت سميحة ذقنها ثم ظهر لأثيل أن تسألها سؤالا غريبا بينما رنت إليها بنظرة شاحبة طريّة كسيرة و استعاد صوتها نبرته المكسّرة العاطفيّة

_"سيّدة سميحة،هل ستحبّينني دائما مهما عرفتِ عني؟ "

_"أعرف عنك ماذا؟أنا أعرفك أكثر من أي إنسان، وأفهمك أفضل من أمّك. ولست مستعّدة لأن أحب أي إنسان لا يحبّك،أنت لا تعرفين أي جوهرة كريمة تكونين "و شعرت أثيل بالذنب

وعندما فتحت فمها لتتكلّم، مرّت ميرنا بجانبهما، مرّت مسرعة كسهم انطلق من قوسه، كانت محتدّة إلى درجة لم تلق التحيّة على سميحة، ولم يفت السيدة ملاحظة ذلك فصاحت

_"صباح الخير يا ميرنا "غير أنّها لم تتلقّ جوابا"ما بها أختك المجنونة، لماذا هي مسرعة هكذا"

_"في الواقع "تمتمت أثيل، و هي تتابع بعينيها شخص أختها "هي غاضبة "

_"ما الخطب "استفسرت سميحة باهتمام ووجهها يشي بالفضول

_" لا يسعني أن أشرح لك،ليست على طبيعتها، كالعادة حدث ذاك الأمر " وامتنعت عن شرح الأمر أعمق فكل إنسان بالحي مطلّع على حقيقة طباع أختها، تلك الطباع الحادة التي يستنكرها معظم الناس حتى و لو لم يملكوا الجرأة للتصريح بها على مسامع أفراد عائلتها، لا سيما عندما يفلت منها رجل و يفضّل أثيل عليها.

_"اذًا فقد فرّ رجل جديد بجلده،و فضّلك عليها " استنتجت سميحة وابتسمت واسترعى انتباهها طفل صغير يبكي، فدسّت يدها في الجيب وأخرجت قطعة الحلوى ثم انحنت مادّة يدها، تخبره أنه ولد مزعج بليد بكلّ صراحة، ثم صفعت وجنته اللحيمة برقّة في وجهه المشقّق لاعنة صراخ الأطفال و نحيبهم المستمّر "مصدر إزعاج"،وعندما استقامت مجدّدا واقفة أضافت بتهكّم

_"إنها بوضعها هذا أخطر من مجرم طليق ثبتت عليه تهمة القتل، ولا شكّ أنّها تلومك، لأنّها تعتبرك عقبة ثقيلة في طريق زواجها،والله إنّها لمخطئة، قلبها أسود كالفحم و يستطيع أي إنسان تمييز النفوس الشرّيرة من على أميال عديدة "

_"لاتتكلّمي على هذا النحو عن شقيقتي يا سيّدة سميحة "انفعلت أثيل بشكل دّفاعي، غائمة النظرات،لا تستطيع أن تتحمّل كلاما يسيء إلى أختها، وإن كانت سميحة الغالية على قلبها.

_"جميل منك أن تحافظي على حبّك لشقيقتك رغم كل ما يصدر عنها، هي لا تكنّ لك إلا الكراهية، وأكاد أجنّ، لأنني لا أفهم أسبابها؛ فهي لا تكلّف نفسها عناء إخفاء أحقادها اتّجاهك، أنت التي استنزفت نفسك في سبيلهن "قالت بضيق،مجعّدة تقاطيع وجهها. "تكافئك بأحقادها، لقد عملت و جلدت نفسك ووقفت عند كل باب لتنقذي أمّك وتؤمّني لهم حياةً مريحة، ثم بماذا تكافئك هذه الجاحدة، نعم إنّها جاحدة للمعروف، ولعلمي بسلوكها معك،أنا لا أميل إليها، و لولا أنّها شّقيقتك لما سلمت عليها حتى "

_" إنّها لا تكرهني يا سيدة سميحة"انقبض وجه أثيل وتفطّر قلبها، فأختها تملك أسبابا وجيهة لتغضب منها، لكنها لا تكرهها. _"لا حدّ لما يمكن أن تقدم عليه شّقيقتك الغالية بسبب كراهيتها، أخشى أن تؤذيك يوما ما،حيث أنّ الكراهية تُعمي البصيرة،و عندما تخرج الأحقاد عن السيطرة، يغدو الإنسان وضيعا و منحطّا،إنّ قصّتكما تشبه قصّة قابيل و هابيل،ألم يقتله لأنّه حقد عليه؟"

_"إنّها شقيقتي "قالت أثيل متضايقة، بيد أن عينيها برقتا ببعض الخوف والشك من كون الكلام صحيحا، و سرعان ما استطردت بحزم "ولن تؤذيني و أحسبني أعرفها جيّدا،و الآن دعنا ننهي هذا النقاش حولها"

_"قبل إنهائه،هناك سؤال يحوم في رأسي دائما، لا تريدين الجواب عليه، ما هو سبب إعراضك عن الزواج، إنّ الرجال بأشكالهم يخضعون لنظرة من عينيك، أهو حب رجل معيّن من يعيقك عن الزواج؟"و غمزت مستفهمة و لم تقل أثيل شيء بل استمرت صامتة جرّاء جزعها من ماهيّة السؤال، لقد علمت أختها و المصدر غير معروف و ليس بعيدا أن تعلم سميحة أيضا، هذه التي تعجز عن تكهّن بما يمكن أن تفعله،حتما ستخسر صداقتها.

_"أنا أمزح معك، لك الحق في الاحتفاظ ببعض الأسرار لنفسك، دعيني أعتذر إليك؛ لأنّني أسأت لشقيقتك،أدرك مقدار حبّك لها، أنتِ إنسانة رائعة يا أثيل بروح شفافة، ندر وجودها، ولهذا ستحظين برجل فذّ رائع مثلك تماما ذات يوم، و هناك نصيحة صغيرة أودّ إسداءها لك،أعرف أن العجائز الهرمات سبق و نصحنك بها، لقد كبرت شّقيقتاك، و أعتقد أنّك وهبت نفسك للمسؤولية بما فيه الكفاية، وآن أوان أن تحبّي وتتزّوجي، نعم إن الحبّ عاطفة رائعة أكثر مما تتصوّرين، كما أن شعور الأمومة يجلب من المسرّة ما لا تتوقعين، أنا من خبرت كل هذه الأمور، تجاهلي الأعباء وانطلقي، فأنت فتاة جميلة جدا. هذا الجمال ينبغي أن يناله من يستحّقه "ولذعتها الآلام فانكمش وجهها بتأثير النصيحة سليمة النية ثم حاولت التهرّب من هذا النوع المكدّر من الأحاديث فنظرت إلى ساعة يدها.

_" أما تلك العجائز السخيفات؛ فدعهن لأقدارهن، أعجز عن فهمك، كيف تتحمّلهن، خصوصا تلك التي تنام واقفة، ما كان اسمها اللعين، ااه،حسنا، ستتأخّرين عن العمل، لن أتسبّب في حملة حالكة ضد التأخير من طرف المتوحّش، و أنا سأتوجّه صوبا لأشتري الخضر، و لكن عليّ اللعنات جميعا من الألف إلى الياء، إن سمحت لنفسي بشراء البطاطا، في الواقع "فكّرت يكتظّها الغيظ ثم نطقت" لم يحافظ إلا البقدونس والبصل على رجليهما في الأرض، حافظا على إنسانيتهما على الأقل،،حتى اللفت الوغد طار مع البقيّة، لما لا يطلبون من الخضر التصويت لهم بدلا عنّا، أصبحوا أغلى منّا قيمة "،وبعد تبادلهما تحيّة الوداع، تحرّكتا مبتعدتين عن بعضهما في اتّجاهين متعاكسين عند ناصية الشارع، عندئذ تناهى إلى سمع أثيل صوت يناديها، كانت فكرة عطرة قد تسلّلت إلى عقل سميحة، فكرة تحلّ كلّ أزماتها بقالب فكاهيّ مبهج

_"أثيل ما رأيك أن أشارك في الانتخابات،إنها مشروع مربح أليس كذلك؟".

الفصل الرابع

تبعد المكتبة التي تعمل فيها أثيل مسافة عشرين دقيقة مشياً على الأقدام عن بيتها، و تقع على شارع جانبيّ مفضَى من الشارع العام، كان الشارع مكتظّا بحركة المرور الخانقة ثم حركة الناس التي لا تنقطع على مدار اليوم، شأنه كالشارع الرئيسي، أناس يروحون و يجيئون ينزلون ويصعدون، مشكّلين صفوفا طويلة، و كانت مزامير السيارات التي تتحرّك ببطء شديد بسبب الازدحام بأصحابها المتعجّلين تصدر أصواتا مرتفعة مزعجة،حتى في أحلك ليالي الشتاء وأكثرها برودة توجد حركة و لو على صورة أقلّ، و بالنسبة للغريب القادم من مدينة أخرى لم يكن إلا شارعا رئيسيا و لا يجعله شارعا جانبيّا إلا موقعه العرضي،و اللوحة التي تشير إلى ذلك.

يقابلها محل لبيع الثياب النسائية، ينقص صاحبه الذوق الرفيع و مواكبة الموضة ليكون محله مقصودا مكتظّا بالزبائن، و باستثناء نساء عديمات الذوق مثله يغريهن خفض السعر إلى نصفه في المناسبات و الأعياد ، لم يكن يحظى ببيع طيّب مرض، وعلى جانبها الأيسر محل الغشّاش حميد لبيع اللحوم، هذا ما ينعته به الزبائن، بمئزره الأبيض المتسخ ،الملطخ بالدم ، أُشيع عنه فيما مضى ارتكابه مخالفة قانونيّة وإنسانيّة وأخلاقيّة،حيث قام ببيع لحوم الحمير، كان رجلا ذا ملامحَ منحوسة، عيناه خضراوان ترسلان نظرات مستريبة كعيون محقّقي الجرائم، لم يكن يتمتّع بقدر مناسب من الاحترام كي يكّف عن إزعاج أثيل.

على الجانب الأيمن محل العجوز بركة لصنع الحلويات شبه المعتم للتقتير من فاتورة الكهرباء، يصلح أن تندمج هي و الجزّار حميد في شخص واحد، على الرغم من أنها تنفر منه بالقدر ذاته الذي ينفر هو منها، امرأة مكتنزة الصدر، شعرها فضيّ أشعث،كثيرة الإغماء المتعمّد و الذي تحتفظ خلاله بإدراكها لكل ما يدور حولها، و لكنها تستسلم له استجلابا للاهتمام، تناهز السبعين من عمرها ذات صوت كئيب كثير الشكوى، وما لم يتظاهر المرء بعدم رؤيتها أو يتحرّك مبتعدا عنها بسرعة لن ينفذ من تذمرها المستمر حول كل شيء.

"الطبيب اللصّ الذي يسرق مالها تحت ذريعة التحاليل و الأشعة التي تعتقد جازمة أنها إجراء استغلالي إضافيّ لنهب جيبها، البقّال الذي يبيع لها خضرا فاسدة؛ كونها عجوز عاجزة ضعيفة الرؤية، رغم أن نظرها أقوى من العقاب، زوجات أبنائها الحقودات اللاتي يبيتن نيّة إرسالها في أول فرصة سانحة إلى دار العجزة لقضاء باقي أيام عمرها بين جدرانها، ثم الاستفراد بنقودها وقطع مجوهراتها الثمينة، العمّال الذين ترتاب أنّهم يسرقونها بسرّيّة، وبالإجماع. إن الأمانة صفة نادرة هذه الأيام "هكذا دأبت بركة على القول.كانت تترصّد بعينيها نظرة فضوليّة بحته،تراقب الشارع أكثر مما تراقب موظفيها كشاب متسكع لا يملك عملا.

كانت المكتبة ذات واجهة زجاجيّة لماعة ملفتة، مبنى ضخم يقزّم المحلات على جانبيه بحيث تظهر كدكاكين ريفيّة حجريّة قديمة، كانت مكانا واسعا نظيفا مرتّبا بأناقة ،منسّق الأثاث رغم كونه عتيق،و نافذتين واسعتين مشرّعتيّ المصراعين، تطلّان على شارع جانبي مزدحم آخر. تتألّف من طابقين: أرضيّ يتضمّن صفوفا من الرفوف المرتفعة المتباعدة المنتظمة عليها كل أنواع الكتب، تتدلّى من سقفه ثريا عملاقة ببلوراتها البرّاقة، تنشر في المكان ضوءً أبيضا قويّا،و طابق أوّل مخصّص للقراءة به طاولات و كراس خشبيّة و ينبغي الدفع مقابل قراءة الكتاب ما لم يقرّر الزبون شراءه.

يحرص العجوز ابراهيم مربّع الحاجبين، مالك المكتبة على أن يحظى الزبون بمعاملة جيّدة مع عدم الإهدار في الكلام بلا معنى، أو الخروج عن نطاق العمل، وأن يجد أي كتاب يبحث عنه،و كان يصرّح أمام أصدقائه متفاخرا أن مكتبته هي الأحسن على الإطلاق.

كما يحرص على إظهار نفسه بمظهر الرجل المثقّف رغم أنه لم يقرأ كتابا في حياته، يصفه معارفة بالبخيل، لا يحبونه لأنه لا يعطّل هذه الصفة في شخصه لكسب حبهم، يقتضي التماس يوم إجازة استجماعا للشجاعة ندر أن اكتسبتها موظفاته الثلاث بالنظر إلى طبعه المتشدّد، فأثيل مثلا لم تتغلّب على نزعته القاسية إلّا مرتين،اضطرت فيهما إلى التطوير من أساليبها المتعرقة كي تظفر بإجازة ملحّة،و عندما يهدّد بالطرد فهو يعني ما يقول،و فورا يُخرج السيرة الذاتية لبديلات مستميتات للحصول على عمل،و كان يمكن أن تتخيل أثيل أي مصيبة تحل عليها إلا فقدانها لعملها بمكتبته لأنها لا تسمح لنفسها بنسيان أن إيجاد عمل مهمة شبه مستحيلة، لهذا صبرت على صراخه و قسوته و نظامه .كان يجري حسابات ذهنيّة دقيقة تكتنفها صحة النتائج، و لم يقع و لو لمرة واحدة في خطأ حسابي أيا كان نوعه،و بمقدوره أن يتحرّك بشكل رشيق كشاب فتي رغم أن كل خط من خطوط وجهه يعترف بهرمه ،و كان شديد الملاحظة،يستطيع أن يتصيد كل هفوة ترتكبها موظفاته لكنه نادرا مع تسامح مع إحداها ،و لم يكن هناك شيء أسهل عليه من التصريح بآرائه الجارحة دون مراوغة أو مراعاة لمشاعر غيره .

لم ينل احترام و محبّة الناس لكونه ليس رجل مواقف خاصة إذا اقتضى الموقف دعما ماديّا، أو مجرّد تلميح مداعب إلى تبرعه ببعض البنسات إلى أحد المعوزين أو الأصدقاء الواقعين في ورطة،و شمل هذا النظام المترّمت أولاده الخمس وابنتيه الاثنتين،الذين لم ينالوا منه أكثر من التبرّع ببعض النصائح والمواساة اللفظيّة حتى في أحلك الظروف، أما المكتبة، فهو ينفق عليها الكثير كيما تدرّ عليه أموالا مضاعفة بالمقابل، فالإنفاق على مكان يجلب الأموال أحسن من صرفها على إنسان خمول لا يفيد بأي منفعة.

ما كان لأحد أن يصدق أن الدموع يمكن أن تنزل من عينيه الداكنتين الباردتين مصدر النظرات النفاذة التي تصيب بالشلل و تترنح على سحنته المتجهمة ،لكن ذلك حصل عندما ماتت زوجته ،فرغم مقاومته انفجرت دموعه ،و لان طبعه ،و أضحى افتراض تغيره مسموحا به لأول مرة، وسرعان ما أثبت لكل من افترض ذلك أنه أحمق ،إذ أخفى أحزانه بعناية ليعيشها عندما يعود إلى البيت و لا يجدها ،و التغير الوحيد الذي طرأ عليه في علاقاته و شؤون العمل هو ارتفاع منسوب تزمته و تشدد طبعه.

لا يعتبر موقع المكتبة مريحا بالنسبة لأثيل،فكل من حميد و بركة بطباعهما السيئة حالا دون ذلك،كان الاثنان يصعبان مَهمة عملها بمراقبتهما الدائمة، فالعجوز بركة تقطع عليها الطريق بصورة متواصلة لإلقاء تذمرها بشكل مؤسف، و ما لم تلمح إبراهيم في المكتبة تتسلّل مثل ضفادع المستنقعات إلى داخلها لتنفرد و إياها بأحاديث تطلق عليها "فتح قلبها "و متى يغلق قلبها للأبد لترتاح البائسة أثيل، وما إن خامرت عقلها هذه الخاطرة الإجراميّة ذات مرة، طفقت تؤنّب نفسها،إذ تبدو كمن تطلب الموت لها.

ولم يبد العجوز إبراهيم إلا نفورا صريحا من هذين الاثنين هو الآخر، من المؤكّد أن احترام شخص وُجّهت له اتهامات بالغة الخطورة كبيع الحمير أمر شاذّ، ولم يكن يقدّر الأمور الشاذّة، وليس حاله أفضل مع بركة، كان تذمّرها الدائم المستميت في سبيل تكدير مزاج الآخرين يجلب له الإحباط و يحمله على وصفها وصفا شنيعا.

أمسى يكشّر محتدّا كلما رآها،ككلب موبوء مستعّد لعضّها، إذ ما هي فتحت فمها لتشتكي. وما زاد الطين بلّة أنها نزحت إلى قلة الاحترام نزوحا بليدا أخرقا،عن طريق إلغاء الكلفة بينهما، فلا تسبق اسم السيّد قبل مخاطبته، بل تستمتع بصورة مفرطة الغباء و هي تخاطبه حتى أمام حشد من الناس، و تساءلت أثيل إذا ما كانت العجوز تملك عقلا فعلا، وكثيرا ما كان ثغرها يفترّ عن ابتسامة مرحة عندما يحضر إلى ذهنها صورتها وهي تجري وراء الرجال و تناديهم بأسمائهم مباشرة سواء الذين تعرفهم أم الذين لا تعرفهم.

كان ينفر منهما نفور النار من الماء. بسببهما وجد العجوز نفسه في مأزق حرج، بيد أن تغيير موقع المكتبة يعني خسارة زبائن، و إبراهيم موطّن غريزيا و فطريّا لخسارة إحدى كليته، على خسارة زبون واحد.

يتمثّل عملها في ترتيب الكتب و مساعدة الزبون على الحصول على الكتاب الذي يبحث عنه، علاوة على أنّها كانت تعطيه نبذة مقتضبة سريعة عن محتوى كل كتاب و نبذة عن كاتبه أيضا،كانت ثقافتها واسعة و معرفتها شاملة اكتسبتها من قراءة الكتب طيلة عملها في المكتبة

،قراءات دافعها حب المعرفة و ليس الفراغ ،و كان العجوز يسمح للموظفات بقراءة الكتب شريطة أن لا يتم إتلافها ،و إن حصل هذا ،يجبرها على تعويض الخسائر بشرائه بعد أن ينتهي من توبيخه الرعدي ،و لكثرة ما قرأت ،فكرت في كتابة قصص قصيرة ،لكنها لم تكتب إلا عددا قليلا ،لأن وقتها لم يسمح من جهة و من جهة أخرى ،اصطدمت بعدة عراقيل أهمها ،رصيدها اللغوي الضعيف إذ كانت تسبح في الأوراق البيضاء لغة غير ناضجة ،و كلمات مكررة ،و أفكار ساذجة ،و بدل أن تتدرب على الكتابة ،قررت تأجيل المشروع إلى وقت تكون فيه جاهزة لذلك .

لم يمل إبراهيم رغم بخله الشديد إلى استغلال الموظفين،فهو يدفع راتبا مقبولا و لا يقدّم علاوات إذ ما كان العمل أكثر من ممتاز خلال الشهر، كما أنه متشدّد في الجانب الأخلاقيّ مثل أمها، لا علاقات مشبوهة لا غراميات تجلب المشاكل إلى مكان العمل،و ما كان لينتظر يوم العمل الأول ليلقي هذه التعليمات،بل في اللحظة التي يقول فيها نعم ،موافقا بذلك على التوظيف .

يُوزع الراتب إلى جانب ما تجنيه أمّها من عمل الخياطة على لوازم البيت الضروريّة، ومصاريف دراسة الفتاتين، و أدوية والدتها و شقيقتها ياسمين التي مرضت هي الأخرى و تعافت جزئيا و المتابعة الدوريّة الطبية، تلك التي لولا التزام والدتها بها، لعاشت أثيل في حالة عدم اطمئنان دائمة. مع استحالة ادّخار جزء منه، فهو بالكاد يغطّي مصاريف نصف الشهر إذا اشتهت اثيل إنفاق بعضا منه على ثوب جميل، أو ألحّت ياسمين على الخروج في نزهة تقضي على نصفه.

والحق أن أثيل ،كانت تكره العجوز أحيانا من أعماق قلبها ، و تستصعب تحاشي ذلك بكل الوسائل .خاصة عندما يقرر أن يصب عصبيته على شخص ما ،فيركز هدفه عليها، و سرعان ما يتجاهل أنها نشيطة ،أمينة ،مخلصة في عملها .و حدث أن أقسمت أنها لن ترهق نفسها في العمل و تزهق طاقتها فوق المطلوب ، لأنه متقلب المزاج،سريع التغير ،و شديد البخل و وافر التزمت، وحدث كذلك مرة أن وجدت في تعاسته بفقدان زوجته عقابا عادلاً على قسوته وتساءلت كيف وسعها احتمال الحياة معه و التأقلم مع طباعه و الصبر على عشرته، وأسرعت في اللحظة الموالية تعتذر في نفسها لشماتتها في مصابه . و كانت أحيانا تنكر على سميحة هجومها عليه بيد أن حواسها تتلذّذ بذلك و تعزل نفسها عن الدفاع عنه وتفضل أن لا تبدي انزعاجها وتبتسم بسرور هامد عندما يلقب بالحمار الوحشي و تتمنى لو تنعته بالمزيد من النعوت المزرية ،و لم تكن لتصدق أنها هي ذاتها من ترفع يديها إلى الله لتنزل مصيبة على العجوز لا قبل له بتحملها لأنه عنّفها بقسوة ذات مرة ،لكنها لم تكن دعوة نابعة من قلبها بل وليدة الغضب فقط ، و هكذا كلما تصدت إحدى صيحاته عليها أو إعراضه عن منحها إجازة يوم واحد لجهدها في الصبر على سلوكه ،فإن كل المفاوضات مع نزعتها المهذبة تنتهي إلى كراهيته و التلذذ بتخيل المصائب تنزل عليه .

بعد العمل، غالبا ما تدأب على زيارة بيوت العجائز الوحيدات المسنات، تمضي معهنّ بعض الوقت قبل أن يتحفّز ارتباكها المترتّب عن خوفها من تأنيب أمها لعودتها متأخّرة إلى البيت، تسمع أحاديثهن، تواسي وحدتهن، تساهم في إفراخ مخاوفهن و أحزانهن، تتقمّص دور الممرضة من خلال تطبيق المراهم على مناطق الألم, والمفاصل الملتهبة، تساعد في رتق الثياب، وتمشيط الشعور الدهنيّة الخفيفة التي تؤول إلى ضفيرتين منسدلتين على الأكتاف، تقلّم الأظافر الخشنة المصفرّة،و تراعي النظرة المتلهفة إلى الماضي أين تنظر معظم العجائز،الماضي بأيامه البسيطة المشرقة، وخصاله الأصيلة الصادقة بجذوة عطائه المشتعلة، بكل ما فيه من نيّات سليمة وقلوب صافية ومحبّة شفافة، وباستثناء هذا التوقيت، لم تملك فسحة لزيارتهن، فهي تعمل بمعدل أسبوع كامل من الثامنة إلى الرابعة مساءً ، عدا يوم الجمعة.

كانت مستمعا جيدا، وهذا ما يحتاجه من هم في سنهن ، آذان صاغية حريصة بدون مقاطعة ثم مستجيبة كليا للنصائح و المواعظ، وليس أفضل للشيوخ و العجائز من شباب يتقبّلون النصائح بصدر رحب حتى مع عدم تطبيقها إذ ما دعت الضرورة لها.

بالمعنى الحرفيّ ، كانت مواساة أثيل لمصابهن الأليم سواءً بالفقد أو الوحدة تفعل فعلها كالسحر، لأنها خبرت لوعة خسارة إنسان عزيز هي أيضا، و تعرف ما معنى الفقد والشوق للراحلين بشكل نهائيّ، فتجرّدهن من أعمق اللحظات الأليمة لتهبهن راحة و سكينة، محوّلة اليأس الباسل في عيونهن الغائرة والتعبير الكئيب المكدّس على وجوههن إلى رضا مبتهل بالقدر الذي قدّره الله لعبده، وكانت للأمانة تفعل هذا بدافع التفكير عن الذنب أكثر منه لكسب الحسنات و الأجر .

تجاوزت الساعة الثامنة بعشر دقائق، اختلست أثيل النظر بحذر، تبحث في الأرجاء الواسعة عن العجوز،ما كانت لتصل متأخرة و ترغم على التسلل كلص لو أن سميحة تتمتع ببعض الوعي ،لا فائدة ، فقد قيّد بصرها العجوز إبراهيم يجلس قرب النافذة المفتوحة على كرسي هزّاز ينظر إلى الخارج موليا ظهره إلى القادمين من باب المكتبة و بعد أن ألقت حقيبتها في مكانها المعتاد مشت نحوه بخطوات خفيفة تنتابها قشعريرة أسف باردة ،ينبغي عليها أن تبالغ في إبداء الأسف ،و تصبر على إهاناته خشية الطرد ،بدون هذا العمل كيف ستنفق على أسرتها

_"صباح الخير يا سيّد إبراهيم، لقد تأخّرت "قالت بأسف عندما بلغته "إنني بالغة الأسف".

فلم يرفع لها عينيه المؤنبتين، بل استمر يحدق إلى الخارج، وقد غزا وجهه تعابير تشي بالعصبية المكتومة

"أرجو أن يكون عذرك مقنع،أتيت متأخرة هذا الشهر مرتين ،و أشعر أنك تتمادين في ذلك ،يا آنسة ،إنه مكان عمل"

"أعتذر إليك يا سيد إبراهيم "أجابت مرتبكة "أعدك أن هذا لن يتكرر "و ندمت لدفاعها عنه هذا الصباح ،كم كانت سميحة على حق .كيف وسعها أن تدافع عن مخلوق مثل هذا .

"أذكر أنك أنشدت هذا الموال المرة السابقة ،و أرى أنك لا تتعظين .يؤسفني أن أخبرك أنه المرة القادمة لن أسمح لك حتى بالاعتذار ،سأريك الباب مباشرة ."و شعرت بشيء من الإذلال "هناك الكثيرات يحلمن بالعمل هنا ،لن تجدي مثله بسهولة ،اذهبي إلى عملك "و دون أن تقول شيء ،استدارت وانضمت إلى رفيقتها ،كانت صاحبة الجبهة الناتئة المرتفعة : مايا تغمغم بكلام خافت و هي ترتب الكتب على الرف،مستهجنة الأسلوب القبيح الذي عوملت به أثيل ثم رفعت صوتها متحفظة حذرة :

"لا عليك ،أخذنا نصيبنا قبلك،صاح في وجهي بسبب إسقاطي كتاب و توعدني بالطرد، ووبخ ماريا بسبب نصحها إياه بأدب جم أن يغير موضع كتب الفلسفة ،نصحتها أن لا تفعل، وكأنها لا تعرفه،انفجر في وجهها مثل قنبلة ،لا أراها "و حركت رأسها بجميع الاتجاهات "أراهن أنها تغسل الإهانة ببعض الدموع، اااه، لو أنني أحصل على عمل أحسن ،لأسعدني أن أخبره أي المتحجرين هو "و ربتت على كتف أثيل عندما استطلعت المرارة و الأسى الجلي في وجهها "لا تحزني، كان مقيتا جدا، لا عليك ،ربما نتزوج قريبا و نتخلص منه "ثم أضافت بحرارة بينما توهجت عيناها فجأة "أثيل ،هناك خبر رائع أود إطلاعك عليه ".

"ماذا "قالت أثيل مبتسمة بغير حماس .

"لقد حدث ،كلّم والدي مساء أمس ،عندما عدت إلى البيت أخبرتني أمي ،طبعا ،تظاهرت أني لا أعرفه ،رغم أنني أحبه إلى حد الجنون ،أليس رائعا يا أثيل أن تتزوجي الرجل الذي تحبين ؟لم أنم الليلة بطولها من فرط السعادة ،أتمنى أن تعيشي هذا الشعور قريبا و تتزوجي الرجل الذي تريدين ،تستحقين يا حبيبتي "

أطلقت أثيل من صدرها تنهيدة شبه منطفئة، يكتنفها الحزن الملتاع واخترقتها حسرة قاتمة،بينما الفتاة تكاد تحلق بلا جناحين، وخافت أن يكون الشعور الذي يطل من داخلها هو الحسد، لأنها تمنت أن تنال نيلا كريما مثل حظها.لكن هذا لن يحدث لا الآن و لا بوقت آخر .لقد كان فعلا ما تشعر به حسد عاق حاولت بقدر ما تستطيع أن تتغلب عليه،بيد أنها لم تستطع.

و رغم ذلك بشت في وجهها ثم قالت بصوت منخفض يكاد لا يسمع

"أنا سعيدة لأجلك،أهنئك ".

"أشكرك يا أثيل،أعرف حجم سعادتك من أجلي ،لهذا لم أشأ إخفاء الأمر عنك ،سأبحث عن ماريا ،لا شك أنها في الطابق الأول "و التصق بصر أثيل و قد خبت ابتسامتها بالجسد الطائر فرحا

بأجنحة هفهافة ، السعيد غاية السعادة ،أما هي فقد بترت جناحاها ،لن يكون لها هذا الحظ السعيد يوما،لن تضحك و تقضي الليل ساهرة من شدة الفرح بحبيب يتقدم لطلب يدها بعد قصة حب طويلة خافية.

الحب يجعل الناس سعداء للغاية،لو ظلت محتفظة بعفافها طاهرا لوسعها أن تحلق أيضا ،بدل أن تزهد في الزواج و الرجال و إنجاب الأطفال ،بدل أن تحرم من الحب و مباهجه و تهرع لمصادقة العجائز و خدمتهن للتفكير عن الذنوب التي أثقلت ميزانها.

وتلوّن وجهها بلون الألم المضطرم، كأنّ نارا بطيئة قد زحفت إلى قلبها،لن ينطفىء أبدا ، ستتقّد تلك النار آليا من حطب فاجعتها.

"ااه ،من الدنيا".

لم يبق لها إلا أن تراقب بالقدر الأدنى أو المعدوم من الغيرة ،فتيات في مثل سنها يتزوجن و يبتهجن و ينطلقن و يتذمرن من أوزانهن إذا زادت و من البثور إذا ظهرت و من الوجوه إذا شحبت ،و تستمع إلى قصصهن المصبوبة عن الغرام المتبادل و الرغبات الصامتة و الغزل العفيف و الإطراء المرغوب ،و الحياء المشبوب .قانعة بحظها الشبيه بحظ أرملة هندية ،هذا هو نصيبها، فاتنة بزي الحداد الأبيض .

الفصل الخامس

مضى يوم آخر من أيّام يوليو القائظة ،قريبا ستتراجع الشمس المتوهجّة طوال النهار بأشعّتها الرهيفة الشبيهة بالرماح الذهبيّة، مخلّفة لوحة بديعة قرمزيّة في الأفق البعيد الخلّاب محرّرة الدنيا من كل أثر للضوء الساطع المنير،باعثة في الفضاء سكينة مذهلة.

جلست أثيل في زاوية المكتبة قبل عشر دقائق من انصرافها تكرّر قراءة فقرة من كتاب ، تقرؤها بصوت مسموع بغصة ثكلى،أين يخاطب قسطنطين تمثال والده برانكومير الذي شد إلى قاعدته بأغلال في الساحة العامة باحترام و تقدير ممتنعا عن الوشاية بخيانته العظمى ،قانعا بنصيبه الشقي و قدره المخير ،قائلا أنه أهداه تاجا أكثر شرفا من التاج الذي كان يصبو إليه ،أهداه تاج التاريخ و البطولة و الشرف و الوطنية و الموت بنزاهة .

وتولّدت عاطفة مواسية في صدرها،و طفقت الدموع الرهيفة تنهمر من عينيها، مال هذا الشّقيّ البائس يخاطب والده الخائن بهذه اللهجة البريئة الصادقة في هذه اللحظات الصعاب، وهو الذي يشار إليه كمجرم آثم و يبصق على وجهه كأنّه وغد حقير،لا تستطيع أن تقرأ هذه الفقرات إلا وتكرّرها مرات عديدة، إلا و تبكي كمدا على هذا المسكين البائس،أما ما يعدّ عزاءً مكينا لقلبها فانّ له خادمة مخلصة لا بد لها أن تنتزعه من أيادي الجماهير الغاضبة الظالمة في نهاية القصة.

_"ولكنه سيموت"هجست عندما تدفّق شعور بالإشفاق إلى قلبها. ليس ممن يستحقون الموت بهذه الطريقة،ليس من عدالة في هذه الدنيا،دائما دائما يعيش الأنذال عيشة كريمة ثم يموتون كالأبطال المزيفين، بينما يموت الشرفاء ميتة ملعونة لا تمت إلى الشرف بأي صلة، ولكن الله يعلم وبعض البشر المنصفين يعلمون أيضا، والتاريخ لا يمكن تزييفه لأن الله من يرعاه، و ليس البشر ولكل حقيقة يوم، ولكل كذبة أجل.

داهمتها بغتة باضطراب خاطرة ممضّة بعد أن طوت زاوية الكتاب عند هذه الصفحة وأغلقته بلطف ثم وضعته في مكانه الأوّل بين الكتب، فهذا الأسبوع لم ينشر الصحفيّ الشابّ"خليل" أي مقالة جديدة. افتقدته كثيرا بالقدر الذي تعوّدت عليه،و لم يخامر عقلها من قبل أنها شديدة التعلّق به و بمقالاته إلى هذا الحد البعيد الأمر الذي أرهبها، ثم أرغمها على الاعتراف أنّها أسيرة حبّه بصورة مرمضة، ترى كم فتاة يرمضها غيابه المفاجىء؟.فليست تستطيع الاقتناع بأنها وحدها من خلب لبّها و سرق قلبها.

في الواقع، لم يتخلّف مرة عن النشر باستثناء الفترة الحزينة التي توفي فيها والده، تذكر والجزع يتولّاها قدر التعاسة التي تملّكته، رغم أنّها لم تكن تراه لتقرأ وجهه، بيد أنها قرأت كلماته التي تحمل في طياتها ألما رهيبا،.

_"ما هذا الذي وقع له فحداه إلى التخلّف عن النشر كعهده،لو أن واقعة سيئة حدثت لعلمت كل الدنيا ".

و أجفلتها الخاطرة فطردتها بعيدا، ليس عليها أن تفكّر في الوقائع الرهيبة دوما، ما هذه الخاطرة الكافرة المارقة!!،إنها كبوم الشؤم في معظم الأحيان "أطلقت على نفسها هذه الصفة، ليبقى سالما آمنا ".

"لعله ذهب في رحلة،إنه يرهق نفسه و لا بد من أن يفصل نفسه عن العمل المضني بين الحين و الآخر" رغم إصرارها على أنه يهوى عمله أكثر من نفسه.

وانطلق خيالها يسرح في عوالم مختلفة،،إنّها تشتاق إليه، وهي التي ألفت تسكين روعها بكلماته و مقالاته، ولولا وجوده في حياتها حتى مع جهله بما يجول و يصول في قلبها لاختلف كل شيء،فهو من يمنحها الشجاعة لتواصل،و يبدّد ذكريات التمزّق التي عايشتها.

هناك في أعمق عقلها راحت فكرة تطبخ نفسها بنفسها، رغم أنّها نبذت شقيقتها للتو،فليس من عادته أن يختفي هذه المدة الطويلة، إن هذه الفكرة المشؤومة التي اكتسبت كفاءة قديرة لتُدرّ عليها بقلق شديد، وتتآمر عليها مجندّة كل طاقتها في سبيل بثّ الحيرة في صدرها،لا ليست مرتاحة لهذا التغيّب المفاجئ.

و هاهي ذي تستعّد للخروج مضطربة،و في قلبها برودة مثلجة

_"أنا افتقده فقط "حدّثت نفسها في محاولة لتهدئة روعها" لن يصيبه أي مكروه،نعم إنّني أفتقده،و لا شك أن كل من يحبونه يفتقدونه،هو رجل مشغول، أو ربما هي أمه ليست على ما يرام،لقد كان مطلع إحدى المقالات تدهور صحّة والدته، وطلب إلينا الدعاء لأجلها،على الأرجح هي مريضة وكيف يسعه العمل والكتابة و والدته متوعّكة !!،هذا كل ما في الأمر...."

لكن هذا التعليل الذي تبرّعت به لذاتها لم يكن يقنعها،إن عقلها المشوّش يندّد بكل سلطة جانبيّة، وإنّه لعازم على تضخيم رعبها. و أبت أن تطيعه في مجهود لتصفية ذهنها فانسلت خارج المكتبة متجاهلة الأفكار المنذرة بالشؤم بعد أن ألقت تحيّه الوداع على الفتاتين مقتبسةً من عيونهما الضاحكتين بعض الطمأنينة المُسكّنة.

في هذه الأسابيع التي مرّت كانت تعيش جنبا إلى جنب بركان ثائر، بركان لا يُتكّهن بالضبط متى يثور فيفضح كل شيء؛لأن أختها الصامتة متجّهمة الوجه تطرّقت إلى الهدوء المزيّف،ذلك النوع المفضي إلى الجنون، إلى الرغبة في حجزها في زاوية الغرفة و التحدّث معها عنوة عن الذي يطوف في عقلها، كان يخفق في وجهها عتاب راعد مفاده (إنّ فعلتك تفوق إمكانيّة الصفح).

ومنذ ليلة الاعتراف تلك،لم تتبادل معها كلمة واحدة .فقط تنظر إليها بتأنيب، وشيئا آخر لم تستطع تحليله،ربما الاشمئزاز من عيشها تحت سقف واحد مع عاهرة.

كانت رؤيتها توقظ فيها الحقد البتّار المقرون بأزمة الشرف المهدور،فهاهي تضحك وتتبادل الأحاديث وعندما تراها تصمت و تتقلّص تعابير وجهها، رغم تحمس أثيل لإظهار مذلتها ، خجلها ، استكانتها و اعتذارها الأبكم و خضوعها الناجم عن النتيجة المشينة :خسارة العفة ، الشيء الوحيد الساطع الذي يُسطر تحته بأسطر حمراء لا نهاية لها ،فيما الدوافع الحافية،العليلة ، لا تنال حتى سطر واحد في ظل مجتمع محافظ محتقر للساقطات احتقارا بديهيا ، آليا،فطريا،غريزيا ،خارجا عن الإرادة و السيطرة ، حتى مع تعدد الأسباب المزنوقة و الإنسانية ، و رغم إبدائها الرغبة الصامتة في الاتفاق معها على أن الخطأ فادح من خلال حركاتها المنكمشة و رأسها المنكس ،فاستحقاق المغفرة أو الإدانة في مثل حالتها الملوثة أمر مرتبط بمدى تسامح و كرم الطرف الآخر لا سيما من أحد أفراد العائلة ،و بما أن ميرنا قررت إدانتها فالصفح من طرفها سيكون كرما منها و فرجا يستحق الشكر ،فرجا ستنتظره بفارغ الصبر.

و هكذا ،وجدت أثيل صعوبة في صدّ نظراتها التي تفيض حقدا، المصوّبة نحوها كمسدّس محشو بعدد هائل من الطلقات، والعرق يتصفّد من جبينها خوفا من لحظة الطلقة الأولى وأين سيكون الموضع؟ أتراها تطلق على رأسها أو قلبها؟، غير أنّها لا تطلق مطلقا،إنّها تبقيها منفعلة مذعورة طيلة الوقت، الخيار الوحيد الذي وجدته نافعا هو تجنّب النظر إليها، لم تعمد إلى إقحام نفسها في أي مبادرة للانفراد بها و تعاطي أحاديث عن القضية الشائنة، فهي تنصرف بسرعة إلى غرفتها و تغلق الباب خلفها، وبحثت مرارا؛ فلم تجد أسبابا مقنعة لرفضها الانضمام إليهن، وأثناء العشاء تستلم الأم زمام الحديث إن لم تخلد إلى الصمت و تأمرهنّ بذلك.

لكن ، من جهة أخرى ،فهذه النظرات المفترسة قادتها نسبيا إلى الاعتراف أن سميحة قالت بعض الحق عندما صرّحت أمامها بمنطق سليم سليل محبّة خالصة لها، أن في العينين الجاحظتين حقد قديم لاذع ، لا ينفك يتضخّم ككرة ثلج في منحدر جبلي ، وأن مشاعرها نحوها، لأسوأ من الطاعون، أسوأ من الموت،حقد قد يسبب لها أذية دموية،مدمرة .و فعلا ،إنّ تلك النظرات لتحرقها بلهيب جهنمي كلما قبضت عليها تنظر إليها

_ "لا أعوذ بالله من نفسي،هي لا تبيّت لي أي نيّة سيئة،لن تؤذيني أبدا ،هي أختي رغم كل شيء" لن تسمح أن تدخّر كلمات سميحة في عقلها كما تدخّر المؤن في قبو البيوت، فسميحة تقرّ بعدم ارتياحها لشّقيقتها بشكل صريح.

مالت في زيارة مفاجئة إلى بيت العجوز راضية قبل أن تقفل راجعة إلى البيت، بينما كانت الشمس تزول بهدوء عن كبد السماء، كانت هذه تعيش لوحدها دون رفيق تنشد فيه فكّ عزلتها وإمتاعها ببعض الأحاديث حتى و لو كانت تافهة. و ناشدتها في آخر مرة تكثيف زياراتها حيث أنّها ترتجف حتى الموت من تركها وحيدة فالأفكار الخائنة تهجم عليها ثم تثير فيها نوعا من الاكتئاب. وليس من فكرة أسوأ من اقتيادها مجنونة إلى مركز الأمراض العقلية.

كانت العجوز الطويلة، الهزيلة ذات الجلد الأسمر المائل إلى السواد ترتدي فستانا مائلا إلى الصفرة الفاقعة، هي عجوز تجيد احتكار الأحاديث بصوتها المجلجل و السيطرة عليها، وفي وجهها تعبير حزين مزمن متأصل ، تشعر شعورا مرّا قاسيا لعزوف إخوتها عن زيارتها، و تنخرط في أزمات البكاء بينما تروي قصص كفاحها في سبيلهم .

وقبل أن تفتح الباب فتحا معتبرا، شقته قليلا لتتبيّن هويّة الزائر،إذ أنّ اللصوص يهيمون حبّا في سرقة العجائز الوحيدات لاقتناعهم بأنهن يحتفظن بأموال طائلة و ألماس بأحجار نادرة، وقبل أن يغادروا البيت محمّلين بالكنوز كما يتصورون، يجدون صعوبة في مقاومة الرغبة في قتلهن، هي لا تستطيع تفسير لماذا ينبغي أن يقتلن رغم أن أصواتهن واهنة وذاكرتهن ضعيفة في الاحتفاظ بالوجوه؟،و لن تميزه حتى و لو اعترف بنفسه أنه من قام بسرقتها،لكن هؤلاء اللصوص يعمدون دائما إلى قتل العجائز قبل أن يبرحوا بيوتهن، ربما يعتقدون أنهن لا يستحّققنّ الحياة،أو للذة عظيمة في تجربة ماهية القتل و ليس أحسن من عجوز هرمة تشرف على الموت على كل حال.

_"فقدت كل أمل في أن تزوريني يا طفلتي "قالت العجوز و هي تضع كوب الشاي أمام أثيل وفي نبرتها شيء من العتاب، كأنّ أثيل أخلّت بأحد واجباتها، إنها ملزمة بالزيارة وإن ما أخلفت مرة فلن تحظى بأكثر من التأنيب المزخرف بالانكسار.

_" كل ما أسمع طرق الباب عند الجيران أستاء كثيرا و تنتابني رغبة في البكاء،ثم أتساءل لماذا لا يزورني أحد،أنا من دون كل الناس لا أملك عائلة تقلق لأجلي "

_"أنا بالغة الأسف يا سيّدة راضية "أجابت أثيل و قد بلغها الشعور بالتأنيب ، بلغها في أبشع حالاته و وخزها ضميرها، لأن دموعا طافت بأهداب العجوز القليلة المتفرّقة

- "كنت منشغلة بعض الشيء، كانت شقيقتي في غاية المرض، وقضت فترة في المستشفى وفقدت كل صلة بجميع معارفي لفترة معتبرة، كان ينبغي أن أساعد أمي في رعايتها، لم أكن أقابل أحدًا حتى السيّدة سميحة أهملتها في تلك الفترة. ولكنني أعدك بعدم التغيّب عن زيارتك مرة أخرى. سآتي إليك كل يومين" راحت تعد بأي شيء، كيما تلطّف من كآبة العجوز

_" ليس هذا من مسؤولياتك "

إنّ العجائز المتناقضات يتمتّعن بطاقة فائقة في إرهاق الآخرين بعبء عذاب الضمير ؛ ولذلك راحت تزيد من التوابل التي تصبّ في مصلحتها و تزيد من وطأة الضمير، ستخدش أعصابها وتقودها إلى جلد نفسها بعد قليل

_" أنت تسدين لي معروفا يا طفلتي، وأنّى لي أن أتذمّر إن لم تتفقّديني وليس بيننا أي أواصر قرابة تذكر،هل أشتكي من رداءة المعروف؟"

_"بلى "هتفت أثيل و قد انفعلت معالم وجهها و زاد عطفها "إنه واجبي، ويتعيّن علي أن أؤديه على أكمل وجه.أنت عزيزة علي يا سيدة راضية،أنا ألوم نفسي لانقطاعي عن زيارتك تلك الفترة "

فحملقت إليها العجوز بنظرة حنونة ثم غيرت من لهجتها قليلا

_"لاتفعلي يا أثيل،أعتقد أنك تلومين نفسك على كل الأمور التي تحصل للآخرين،حتى أعتقد أنك تلومين نفسك على الكوارث الطبيعية التي تقع من الحين إلى الآخر،أنت فتاة بسيطة وطيبّة وليس عليك أن تشعري بالذنب، إن كان أشقائي لا يشعرون به.عندما كانوا صغارا،كنت أشعر بالذنب لعدم امتلاكهم أشياء و أمور كثيرة لكي أعوّض فقدهم حنان الأبوين، و كذلك كنت أشعر إزاء أي أحد لا يملك أبوين،أنت مثلي يا أثيل، أستطيع أن أفهمك من تلك النظرة الكسيرة في عينيك التي لم أفشل يوما في تحليلها، الموحية بشعورك بالذنب "

انطلقت العجوز في وصلة سرد متاعبها النفسيّة بعد أن صمتت لبرهة

_ " يعتقد الناس أنّ العجائز اللاتي تجاوزن الستين قد فُقد كل أمل منهن، وينبغي أن يبعث بهن إلى صندوق مقفل لا يفتح إلا لتقديم الطعام أو الشراب ثم يقفل من جديد، لسن كذلك يا عزيزتي،بعد هذا السن ندرك ما يكتمه كل إنسان "

_"تدركين ما يكتم؟ "اضطرب صوت اثيل، هل يمكن لهذه العجوز أن تدرك ما يكدّرها، هل علمت هي أيضا؟.

_"نعم، أعرف لقد كلّفت نفسك مسؤولية والدتك و شقيقتيك. وأنت تشعرين أنّ ما منحته كان ناقصا.و هذا ليس عادلا،انظري إلى حالتي، لم أتزّوج و أكوّن أسرة في سبيل أشقائي وشقيقاتي، نزحت إلى البقاء وحيدة في سبيلهم،أمنّت لهم حياة مستقيمة هانئة، ثم لا يزورني أحد منهم كما ترين، ولست أحظى إلا برسائل قليلة مرفقة ببعض المال. لا أريد مالا ولا رسائل، أودّ أن أشعر بوجودهم بجانبي أن أراهم،أستمتع برؤية أولادهم و أحفادهم يلعبون ويمرحون حولي، أودّ لو يشاركونني الوجبات بدل أن أتناولها وحيدة، أودّ أن أعثر بينهم على شخص يعطف عليّ، يشعرني أنني إنسان، يصرّ على اصطحابي في نزهة خارج هذا الجحر الموحش"واستولى على العجوز عاطفة مريرة،و برز في عينيها بريق حزين.

_" هناك على الدوام أشخاص يدفعون الثمن،ليس لأجل أنفسهم؛ بل لأجل غيرهم و بالمقابل هناك أناس دائما يستفيدون، وفي النهاية لايقرّون بشيء ثم يعتبرون أن المعادلة كانت منصفة، وأن واجب الفتاة الكبيرة أن تهب حياتها لخدمتهم كما تهب الراهبة نفسها لخدمة الدير، ويبرّرون أي أنانية تصدر عنهم،فهاهو شقيقي الأصغر مثلا يبعث لي رسالة جافّة، يشرح لي بغير مراعاة لمشاعري أنّه أضحى مسؤولا عن عائلة و ليس عليّ معاتبته لعدم إغداقه الزيارات.و دعيني ألفت انتباهك أن شقيقتي الأكبر منه بعثت لي برسالة أخرى طويلة تعدّ فيها الأسباب وتمنحني مبرّرات تافهة لانعدام الزيارات: إن زوجها على حد قولها يمانع تنقّلها بين ولاية وأخرى، كما أنها تنتظر حفيدا جديدا. وياليتني كنت بلا وعي عندما قرأت الرسالة الثالثة، فإحدى شقيقاتي لا تزال تعتبرني مجرد راعية للمنزل و وعاء عديم الشعور لإلقاء الهموم فيه أو زاوية تكديس الطاقة السلبية، ذكرت في رسالتها تشتكي و تروّح عن نفسها المغتّمة،لأنّها كانت تتميّز غيظا،من تصرّف وضيع غير مسؤول أقدم عليه ابنها الأكبر.تصوّري ماذا فعل يا أثيل !"

-"ماذا فعل؟"سألت أثيل بفضول مكشوف،فراضية لديها أسلوب جذّاب في سرد الوقائع.

شهقت راضية شهقة كثيفة

_"لقد تزّوج فتاة من ذاك الصنف، تدركين قصدي؟"

لقد أدركت و حصّنت نفسها من كشف الانفعال و طافت حمرة خفيفة بوجنتيها بينما رعد قلبها

أردفت راضية:

_" حتى مع رفض شقيقتي الهائج .أجل،أجل، ذلك ما حزً في نفسها،إنّ الفتاة ليست طاهرة، فلا شكّ أنها قد أسبقت زواجها بعلاقات متعدّدة، وأنها نامت على عدد ضخم من الأسرة قبل الزواج، وذكرت في الرسالة أنّها لن تصفح عن فعلته أو تمرّرها دون عاصفة مهوّلة،مصنّفة عمله ضربا من الوضاعة المجنونة،كما أنه ضرب خادش لتعاليمنا و عاداتنا، وكتبت أيضا بيد مرتجفة لخروجها عن الخط باستمرار و هذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على غليانها غليانا شديدا.كتبت أنّها لن تسمح لتلك الفاسقة ذات الشعر الأصفر والعيون الزرقاء الخبيثة أن تطأ عتبة بيتها الشريف،لأنّها ستدّنسه، وذكرت أن ما يقودها إلى الاشتعال غضبا، محاولة زوجها إقناعها بتقبّل الفتاة كزوجة ابن لهما وإلا يصعب عليهما الإفلات من فرضية خسارة ابنهما،هذا ما جنّنها،كيف يقف زوجها هذا الموقف،فظيع،فظيع "

_"هل،،هل،،هل توافقين شقيقتك على مبدئها؟"قاطعتها أثيل بصوت ضعيف واهن وبنكسة في حلقها.

_"أنصتي يا حبيبتي،لو كان الولد ابني بدل أن يكون ابنها لما سمحت مطلقا بهذا الزّواج. لا توجد أمّ ترضى. بوسع الأمّ تقبّل الفتاة مشلولة القدمين، عمياء العينين أو حتى فاقدة إحدى ذراعيها،و لكن ليست فاقدة عفافها. ولو استنفذت الفتاة حياتها بطولها تعدّد الأسباب التي دفعتها لتدلي بنفسها في مستنقع الدعارة و العهر،لما غيّرت قيد أنملة من مواقف البشر، لأنّ انطباعا وضيعا تكوّن حولها، ستحلّ كل القضايا الصعبة بجسدها،هي العملة الوحيدة التي تعرفها،لا تعرف سواها، تدفع بها النوائب بحكم العادة، و لن تتطبّع بأي طبع حميد حتى ولو تغيّرت ظروفها"

كانت أثيل تغالب ألمها كيلا يطفو على وجهها و راحت ارتعاشة عرضيّة تحكم السيطرة على يديها المحجوبتين تحت حقيبتها عن ناظري العجوز، تمنّت بقلب مفجوع لو تتفادى العجائز الخوض في هذه المسائل التي تزعجها، حبّذا لو تعود إلى النقطة الأولى،حبّذا لو تستطيع حبس انفعالها، ولكن العجوز لن تفلت الموضوع من يدها،لن تلوذ بالصمت لسببين، كونها لم تثرثر لأيّام أما و قد انطلق اللسان من عقاله فلن يثبّته أشدّ الأوتاد، أما السبب الثاني كونها في غاية الحنق من سلوك أشقائها،ستتكلم حتى يتلاشى احتدامها بالكامل،و ليس من إنسان بائس تلقي عليه الحمل أحسن من هذا الكائن المتألّم، هذا الكائن الذي كان يستعر كمدا،هذا الكائن الذي أحسّ أنها تقصده و تبغضه بمثل بغض شقيقتها لزوجة ابن غير طاهرة.

_"لكن هناك زوايا مختلفة ينظر منها الرجال، لا تنظر منها النساء "تابعت العجوز وحقد طفيف يراود عينيها الغائرتين،كمن تستخرج من القضيّة سهما تصيب به شقيقتها في قلبها، إنّها فخورة بصنيع الابن الذي انتقم لها من أخت مهملة،ناكرة للجميل.

_ "الرجال عنيدون عندما يقعون في الحب و يغدون حمقى.و الحمق يسكر عقولهم فيتغاضون عن أهم القضايا المبجّلة.و لئن استطاع الأحمق أن ينسى لها عارها،فإن المجتمع لن يدعه ينسى طالما هم يعلمون.أجهل الخيوط الرفيعة التي قادت أختي للمعرفة، ربما ذاك الغبي ابنها قد صارحها. هناك أمور يُفضّل عدم اطلّاع العائلة عليها،ينبغي أن يتركها الرجل طيّ الكتمان مثل أعماق البحر.أرأيت أين الخلل يا حبيبتي؟ليس عار الفتاة،بل معرفة الناس بالأمر.انتقدت أختي الفتاة في نقطة أخرى بعدوانيّة، ذكرت أنها هي المسؤول الأوّل و الأخير عن هذا الشقّ الشاسع بينها و بين ابنها، إذ أنها أغوته بجمالها فغضّ الطرف عن خزيها. سألفت انتباهك أنّ شقيقتي تتمنى ارتباط أبنائها بفتيات جميلات ذوات شعر متموّج أصفر وعيون زرقاء،. لأصدقك القول، لولا علمها لكانت الآن في الرسالة تذكر لي أنها سعيدة ومسرورة لاختيار ابنها الموفّق لفتاة جميلة.إذا كل العقدة في معرفة الأخرين و ليس الإثم المرتكب،كل مستور مقبول و كل مكشوف مرفوض و مدان"

زايلتها رجفة يديها و استرخى وجهها المتقلّص فبدا مرتاحا نوعا ما،و باشرت تطرح سؤالا على العجوز

_"هل تقصدين أن هناك صنفا من الرجال يغفرون هذا النوع من الأخطاء؟ "

_"ذلك يعتمد على طبيعة الرجل أوّلا "أجابت بغطرسة عجائزية معتّدة لأن أثيل أبدت نوعا من الاهتمام،و لهذا اندفعت تمنحها فلسفة مجانيّة عن الحياة مثل معلّمة بطاقة متفجّرة،ثم هي تفعل هذا عامدة كيما تثير إعجاب الفتاة فتدأب على زيارتها.

_"ثم على حجم الحبّ الذي يكنّه لك.فكلما أحبّك أكثر، تغافل عن أفظع الصفات فيك، وما الحبّ يا عزيزتي إلا حجاب يغطي كل العيوب حتى إنه ليجلّيها بمنظر جميل .إن المحبّ لا يرى عيوب الحبيب كأنّه ضرير، و إلا لما أعتبر هذا حبّا "

_"وماذا عن كرامة الرجل "استفهمت أثيل متظاهرة بعدم الاكتراث، فقد نظرت إلى فقاعات الصابون تتلاشى تدريجيا من وعاء الغسيل "ألا يعتبر ذلك إهانة لكرامته؟ "

_"كرامة؟"و بدت العجوز مستهترة "أي كرامة يا عزيزتي،إنّ الحبّ يلغي الكرامة رفيعة المقام، ويخدّر عقل الإنسان فتبقى الساحة فارغة ليتصرّف القلب كما يريد، و يأمر بما يشاء ويطاع فورا. و عندما يترك الرجل حرية التصرّف لقلبه، يحقّق المعجزات للفتاة التي يحبّها ويغفر لها حتى ارتكابها تلك الجريمة في حق شرفها، وإذا كيف تفسّرين إقدام هذا الغبيّ، عديم العقل على الزواج بها. رغم مقدرته على مضاجعتها دون زواج، بمقابل بسيط فقط بعد التفاوض معها، اعذريني على هذه الكلمة فهي لا تناسب عزباوتين مثلنا "و ضحكت "ولا أتصوّر أن ابن شقيقتي يخاف الله كثيرا بحيث يمتنع الزنى، لقد أحبّها بصدق و لم يطاوعه قلبه أن يفعل بها ما فعله رجال آخرون، ثم يتركها لهذه الحياة القذرة.فشاء أن يتطوّع و يمنحها حياة كريمة.ألا ترين ما هي خسائره؟ خسر أبويه و أشك في مقدرته يوما على نيل احترام المجتمع، لقد خسر كل شيء ليُكسب تلك الفتاة حياة كريمة. هذا هو الحب يا طفلتي."

وشردت أثيل بخيالها فيما ظلّت عيناها مثبّتتين على فم العجوز المنكمش مستعرضة مواهبها المترفعة.إنّها لتطيع كارهة هذه الأفكار،و لم يخامر عقلها يوما إمكانية طاعتها كفرا مارقا كهذا،قاب قوسين أو أدنى من الإلحاد بالمعتقدات السالفة.و إنّها للحظة ثمينة ككنز نفيس لقرصان البحر. وتسلّحت بعدم التصديق، بالتجاهل. فلم تلبّها الحكمة إلا بالتقهقر أمام جبروت عبارات العجوز،و مرّت صور خليل تختال مبتسمة لها فخفق قلبها خفقانا قويّا.

لا إنّها لن تؤمن بهذه الخرافات،إنها لن تتزّوج يوما ما،وقّعت وثيقة سلبها هذا الحق، ولكن،، الحب،،، لا،،، إنّه غبيّ،، هو يحبّها.. تزّوجها رغم عارها... المجتمع ... وهكذا تصارعت الأفكار في عقلها فلم تتشبّث بأي واحدة .

_"هناك دائما استثناءات في الحياة يا عزيزتي أثيل،إنّها ليست معادلة رياضية،ليست واحد زائد واحد يساوي اثنين،ليست رياضيات أو نظريات ثابتة غير متغيرة،ليست المشاعر مقادير قابلة للقياس،بل هي أشياء لا يمكنك الإمساك بها بيديك أو عقلك،أشياء فارّة منك، أكبر منك أقوى منك، تغلبك على الدوام،ها،،لقد توغّلنا كثيرا في هذا الأمر "قالت العجوز مستدركة، وعاودها الغضب ثانية،أما أثيل فهي لم تعد بعد،أين هي بالضبط؟ في عالم يبيح كل شيء،أو آخر لا يسمح لها بشيء، من هي؟ على أية حال، ماذا تصنف في دنيا لم توفر لها إلا الأعباء والآلام و الخيار الواحد؟

_"أثيل، أثيل "كرّرت العجوز نداءها ملّوحةً بيدها

_"أنا أصغي "قالت عندما عادت من رحلة الشرود الطويلة.

_"لا لست تصغين،أفترض أنّك تعتبرين ابن أختي غبيّا أيضا "قالت العجوز ثم استطردت بشكل دفاعيّ

_ "هو شجاع يا حبيبتي،لقد واجه الدنيا بأسرها لأجل الفتاة،أستطيع أن أحترمه رغما عني مع أني أعارض القصة بمجملها "تنهّدت"هكذا بقيت يا أثيل، أعيش وحدي و أستقبل الرسائل المثقلة بالهموم و أحترم الانحراف عن الطريق و التعاليم،و لا أتمنى لك نفس المصير " نظرت لها بعطف يحمل صوتها شيئا من الحسرة "نحن متشابهتان يا أثيل،فكلتانا وهبت حياتها لأجل عائلتها على أنّك أحسن منّي "

_"أحسن منك !" استغربت أثيل بأسلوب رصين مستفهم.

_"نعم أحسن مني بكثير" أجابت العجوز بإصرار، بتعبير محدّد من وجهها و تجوّلت ببصرها في الحجرة ثم توقّفت لتدقّق النظر في مزهرية خشبية طويلة العنق كأنها تقرأ منها "إنّما الشباب خدعة، فخّ مطمور لن تكتشفيه حتى تقعي فيه،أنت شابّة الآن، يافعة،جميلة، قادرة على أن هذه الأشياء لا تدوم لأحد،و لن تدوم لك "لا تفارق لمعة الندم عينيها

"لا تزالين شابّة صغيرة، لم تقعي في الفخّ بعد، بوسعك تكوين عائلة، أحذّرك من البقاء بدون زواج لأجلهنّ،عندما تكبرين و تضحين هرمة مثلي ستفهمين ما كنت أعنيه، و ستتذكرين نصائحي، ستمكثين في بيت مهجور موحش لوحدك تحدّثين نفسك كمجنون، و تأكلين لوحدك كمشرّد .لن تنعمي أبدا بأمور طبيعيّة، ستضعين صحنا واحدا و ترفعينه ببؤس، و هو كما هو ممتلىء بالطعام

لأن شهيّتك لن تسعفك، و في الليل ستخافين، و تزورك الوساوس، و سينهش الندم نبضك، نعم في الليل عندما تخمد الأصوات و يهجع الناس لبيوتهم. تتكالب عليك الذكريات فتغرس فكّيها في روحك مما يضاعف عذابك. لن يسأل عن أحوالك أحد، و لن تقدرا تضحيتك الثمينة. و كل ما ستتكرّمان به هو رسائل من عهد السعادة فيما ترزحين أنت تحت عبء الوحدة، وإن كانتا مقيتتين جدا ستنصّبانك وعاءً لقذف الهموم بصفاقة أنانية بفعل تصوّرهما أنّك خلقت لتتحملي و تحملي أعباءهما إلى أن تلفظي أنفاسك، لست أخيفك يا أثيل؛ بل أمنحك صورة مستقبلية واضحة شفّافة مثل الزجاج عن وضعك عندما تهرمين. إن الناس لا يسمحون لك أن تشتكي بعد الاستسلام الطويل لأهوائهم، هل تفهمين يا أثيل؟,هل تدركين ما الذي أصبو إليه؟"

كانت عينا العجوز تنطويان على حزن عميق، ويكتنفهما ألم سحق روحها، ألم راحت تترجمه لصيغ حيّة. لقد نسفت بكل أحلامها من أجل أناس لا يستحقون، واكتشفت هذه الحقيقة بعد فوات الأوان. أو ربما انطفأت كشمعة لتنير دروبهم. و في الأخير أضحت هي وحيدة بين جدران الظلام. هذه هي النتيجة التي سلّطت عليها الضوء، على أنّها تفتقر المعرفة بأمور سريّة، لقد خلقت أثيل لنفسها حاجز صلدا يفوق المسؤولية و التضحية بسنوات العمر من أجل العائلة و تعدّاها إلى التضحية بالجسد و الشرف والعفة،حاجزا مرتفعا بينها و بين الزواج و الرجال.

_"نعم فهمت "قالت أثيل بنغمة بطيئة تفتقر إلى الحرارة "إنني آسفة لأنك تشعرين بالفراغ، وهذه المشاعر الحزينة أسفة لأنك تعيشينها،و لأنك أُجبرت على البقاء وحيدة ".

_"لتكن قصتي عبرة لك "زفرت العجوز زفرة أسى حارّة"احذري أن ترتكبي نفس أخطائي، لا تضحي بنفسك و تكوني كبش الفداء،مازال لديك فرصة الزواج و تكوين عائلة جميلة " وفجأة تذكرت إخبارها شيئا مهمّا "أثيل هل علمت أن السيدة أسماء فقدت ابنها منذ أسبوعين'.لقد مات المسكين وهو لا يزال شابّا صغير ا"

صاحت أثيل متفاجئة وتحوّل لون وجهها إلى مصفرّ شاحب "مسكينة، كيف حالها؟"

_"ليست بخير،تكاد تفقد صوابها،زرتها لأعزيها،راحت تلطم صدرها وتبكي بمرارة،مرارة الفقد،إنه صعب يا حبيبتي "

_"كيف مات؟ "سألت أثيل بعاطفة متألّمة مشفقة

_" ااااه "تأوهت العجوز و تنهّدت تنهيدة مقلقة "في الواقع لا يستطيع المرء أن يحدّد إن ما كان حادثا عرضيا أو انتحارا؟ "

_"انتحارا! "خرجت هذه الكلمة من فم أثيل ترافقها دهشة متأثرة "و لكن لما عساه ينتحر؟"

_" لا أجزم بذلك،لست متأكّدة يا فتاتي،لقد راجت هذه الإشاعة في الأوساط، لكن ليس من تأكيد، في الواقع كان الشابّ مصابا بمرض الاكتئاب، لقد وقع من مرتفع شاهق و تحطّمت جمجمته ثم مات من فوره قبل أن تغرق جثته في البحر، و لهذا احتار الناس بين موت طبيعي أو مخطّط له" وابتلعت أثيل ريقها بصعوبة ضاغطةً يدها على رقبتها واكتنف عينيها بريق الفزع، ثم أحست بأنفاسها تتسارع بسبب خوفها من المرتفعات و البحر. لم تجرؤ يوما على الوقوف من على مكان شاهق،علاوة على هذا كانت تخاف من البحر والموت غرقا حيث كادت تغرق في صغرها نتيجة إغفال أمها و تابعت العجوز تحلّل الواقعة

_" أنا استبعد نظرية الانتحار رغم أن الناس يلغطون فيما بينهم، لو كان ذاك هدفه، كان يستطيع أن ينتحر في البيت؟لماذا يلجأ إلى مكان بعيد و يفعل ذلك،كان يمكن أن يشنق نفسه أو يتناول أدوية تتسبّب في موته. على الأرجح أنّه كان حادثا فعلا،مسكين، لقد عاش حياة بائسة غير طبيعيّة كغيره من الشباب،و أكثر منه بؤسا هي أمّه،،كان سينفطر قلبها إلى آخر يوم في عمرها لأنه غادر الدنيا بهذه الطريقة المدمّرة،إن احتمال كون الحادث عرضيّا يبرد نارها، أما احتمال انتحاره،هذا الاحتمال يحرقها ويفطر فؤادها .لهذا لفّقت كذبة"وصمتت آسفة،مجعّدة فمها" رحت أزعم أنني صادفته ساعتين قبل وفاته،و كان مغتبطا بسبب تحقيقه أمنية عزيزة على قلبه،و ذكر أمامي أنه ذاهب إلى البحر ليستنشق بعض الهواء العليل ثم يعود فيبشرها بالخبر، لقد كذبت يا طفلتي،كذبت عليها لأسكّن آلامها و قد سكنت فعلا .هل أخطأت؟"

_"لا "تفاعلت أثيل دون تفكير" لم تأتي أي خطأ. على العكس،ذلك عين الصواب يا سيّدة راضية،من الجميل أن الفكرة طرقت عقلك "

_"أحمد الله لأنّك تؤازرينني، أشعر بالذنب لكذبي عليها،أنامثلك يا عزيزتي أكره الكذب والكاذبين "

_" سأزورها قريبا"

وشيّعتها إلى الباب عندما حان أوان انصرافها ثم ودّعتها مطرقة رأسها جزعة، ستغدو وحيدة من جديد كجزيرة نَائِيَةٍ،و أحست العجوز أنّها أنانية. و أرادت أن تشعر شعورا أفضل فلم تستطع.

_"لا تحزني سأزورك قريبا "ختمت أثيل باقتضاب وودعتها

تشاركت المرارة مع الأسف في ضرب السلام المتبقّي في قلبها،و هاهي غيمة من الاضطراب الكثيف تتصاعد فوق شخصها و هي تخطو بتثاقل عائدة إلى البيت .فشقيقتها تحقد عليها منذ أن واجهتها،و الرجل الذي تحبّه اختفى منذ أيام ، ثم هاهو وضع العجوز الوحيدة يؤرق راحتها، وفي الأخير، في سبيل أن تصبح الأمور أسوأ يأتي النبأ الصادم عن وفاة ابن السيّدة أسماء.

حاصرتها الهموم وركلتها أقدام الحسرة،أمسى المطالعون لوجهها مطلعين على أغوار نفسها، إنّها شاحبة كئيبة، تفحصت عيناها السوداوان الجميلتان المارّين بمحاذاتها،كانت وجوها متقلّصة عابسة لا تنطق إلا تجهّما،كل إنسان يحمل على كاهليه عبئًا مرهقا.

الفصل السادس

من ناصية الشارع التقط نظرها سميحة تغلق باب منزلها خلفها. فانشرحت أساريرها، وأحسّت أن كدرها يتلاشى في مدى نظرها،بدا جليا أنها متوجهة نحو مكان ما،إنها لا تخرج إلا بعد أن يزول قيظ الظهيرة خوفا من ضربات الشمس القوية لتقتني أغراض البيت ،و ربما ستضطر لقول: لا، أكثر من مرة لالتماس مرافقتها إلى وجهتها غير المعروفة ،أرادت بتلهف طفل أن تخبرها عن وفاة ابن أسماء و تخبرها بأسف بالغ عن احتمال موته منتحرا ،و ضرورة زيارتها و مواساتها و تقديم التعازي لها ،و كم أحرق هذا النبأ قلبها و كم هي شاعرة بالأسف على ضياع حياة شاب بعمر الزهور

تحرّكت بسرعة صوبها، وعندما أصبحت على بعد خطوات قليلة، شرعت سميحة تتشدّق:

_"أثيل لقد غدوت فتاة متحرّرة جدا،ما هذا!! تأتين في هذا الوقت المتأخّر "قلّدت أسلوب أمها ووجهها محمرّ جرّاء تطبيقها وصفة غير مناسبة لبشرتها الحسّاسة.

استأنفت و هي تتحسّس وجنتيها

_"كيف يبدو وجهي؟،أشعر أنه موقد، لست مطمئنة لهذه النتيجة، ادعّت الغبيّة ريحان أنه يشدّ البشرة، كيف تجدينه يا أثيل "

_"لا يبدو طبيعيّ "أجابت أثيل بعدم اكتراث،مقررة تأجيل إخبارها بالنبأ إلى أن تنتهي من عرض مشكلتها "إنه قرمزيّ، بشرتك حسّاسة يا سيّدة سميحة. لكن لا تقلقي،ضعي عليه فقط قطعا من الثلج البارد و سيزول بعد قليل "

_"تلك فكرة صائبة، سأطبّقها بعد عودتي من المتجر، أنت مدعوة لتناول المعكرونة على الطريقة الإيطالية "و ابتسمت هازئة رافعة حاجبيها في تعبير مشكّك، لارتيابها في مواهب ابنتها "إن ريحان تعتزم مفاجأتنا، تعالي لتُدهشي معنا " .

فهمت أثيل المغزى من العبارة فابتسمت بفتور، إذ أن آخر مفاجأة أعدّتها ريحان لا تزال عالقة في ذاكرة لسانها.

"هل وصلك النبأ المؤسف؟" استفهمت سميحة فجأة دون مقدمات

_"أرجوك يا سيّدة سميحة "علّقت بنفور، معرضة بكفّ يدها، ووجهها ينكمش "لست بمزاج مريح يبيح لي سماع أنباء سيئة، فمنذ قليل تلقّيت نبأ وفاة ابن السيّدة أسماء، لقد فارق المسكين الحياة إثر سقوطه من مرتفع شاهق عن البحر"

_"اااه،لم يصلني النبأ ليرحمه الله "و انقلبت لمسة الهزل في صوتها إلى نغمة رزينة حزينة، وطفقت عيناها تومضان تعاطفا، لكن لم يبرز تعاطفا مع مصاب العجوز أسماء؛ فهما لا تجمعهما معرفة متينة

_"سأخبرك على أيّة حال،لا تخافي على هذا النحو، لن يشكّل أي فرق كبير لديك، بيد أنني أستلطفه "و غشيت عينها حسرةُ طفيفة.

_"ذلك الشابّ،ما كان اسمه؟ دائما ما أضيّع اسمه و يغيب عن عقلي".

_"أيّ شابّ؟ "استوضحت أثيل.

_"ذلك الصحفيّ،ما كان اسمه؟الذي يشتم الحكومة؟،الذي لمح أنّ وزير الصناعة لا يليق حتى بوابّا ".

_"خليل؟ "نطقت أثيل اسمه بارتعاشة في شفتيها، و انْكفأ لون وجهها

_"اه نعم اسمه خليل، إنّه الوحيد الذي يقول للحكومة: اذهبي إلى جهنّم؛ ولهذا أنا اقدّره..."

_"ما به؟" قاطعتها بحزم بصوت يقترب إلى الزعيق و قلبها يرتعد "ما الذي أصابه؟"

_"اااه يا حبيبتي، لقد تعرّض لحادث خطير،قد لا ينجو منه،،، مسكين.. ذاك الشابّ،،"

إثر هذا النبأ امتقع وجهها و ابيضّت شفتاها، وسرت في أمعائها رجفةٌ سوداء سريعة، شاعرة بصدمة متوحّشة بربرية. و بنار ضروس تحرق حياتها ، راح ضجيج الأطفال وكلمات سميحة ولعلعة الأصوات البعيدة يندمجون في نغمة واحدة غامضة تتسلّل إلى أذنيها كصوت ضبابيّ متدرّج دون أن تحفل بتحليل كل كلمة على حدى. و راح الجيران يمرّون إزاءها كمجرّد أجساد تلتقطها عيناها آليا غير أنّها لا تراهم أو تميّز هوياتهم، ولا يعنون لها شيء البتة .كانوا يحيّونها تحيّة المساء بينما هي لا تسمعهم، بل تسرّبت أصواتهم هي الأخرى إلى أذنيها كمجرّد كلمات مهموسة غير مفهومة بوعيها الغارق في العتمة، كخرابيش عرضية عديمة اللون على الحائط، كانت صورهم هلاميّة، وأشكالهم متشابهة، لقد تمزّق قلبها إلى أشلاء أشلاء واندثر في الفضاء الرحب، وغدت الحياة لا تعني لها إلّا واجبا شاقّا كمريض في غيبوبة، إنّها منفصلة ومتصلة بآن واحد عن العالم المادّيّ، و خلا رأسها من أي فكرة باستثناء واحدة كسيحة خطيرة " قد لا ينجو،لاينجو ". إنه بين أنياب الموت وإن ما سرقه الموت، لن تستطيع العيش هانئة بعده .

مضت فترة من الوقت و سميحة تسرد عليها الوقائع بتفاصيلها الدقيقة التي تعوّدت تقديمها حول أي مسألة، على أن وعيها توقّف عند لفظة الموت،و لم تعد قادرة على استيعاب معلومات جديدة، ولم تكن مستسلمة لفكرة الموت يوما كهذه اللحظة السقيمة. لقد فرضت نفسها عليها فرضا عنيفا.

واستفاض الجزع في قلبها، وشرعت نبضاته تتباطأ بصورة مقلقة، واقتبست من المجانين تحت رحمة العقاقير المهدئة هيئة نموذجيّة، أما عقلها؛ فأحسّت كما لو أنّه مشلول بفعل المصيبة النكراء. كانت محتبسة الأنفاس، جامدة التعابير بعينين شبه مخدّرتين .لقد جهزت نفسها لنبأ زواجه لأنه أمر حتمي لا مفر منه و هو كما سبق و أقنعت نفسها سيبقى بالنسبة إليها العازب فقط و سيبقى لها في خيالها لأنها تحبه من دون أن تجن لعدم امتلاكه ،لكنها لم تضع في حسابها احتمالا مخيفا كالموت ،يأخذه إلى الأبد من هذا العالم ،يلقيه تحت كومة تراب و يوضع شاهد باسمه ،يمحي أثره من الدنيا كما لو أنه لم يكن موجودا يوما ،و على أية حال فالحزن على حب مستحيل لرجل حي أكثر رحمة و أكثر احتمالا من حب رجل ميت لن يعود من الموت أبدا .

وفجأة لم تعد تشعر أين هي على وجه التحديد، وحركاتها أضحت لا إرادية فارتدت إلى الخلف قابضة بيدها على حنجرتها ، فاستدارت على عقبيها دون وعي منها كسائر في نومه متوجّهة بصورة آلية نحو باب البيت، فيما لا تزال سميحة تتحسّر على الوضع الخطير الذي آل إليه، ولم يعد سمعها يلتقط بنت شفة بعد معرفتها بالنبأ القاصم، كان وجهها قد ازداد شحوبًا على نحو مخيف،فاستحال كقطعة من ورق، و كانت عيناها العاجزتان عن البكاء ساكنتين خاملتين و أهدابها انعدمت رفرفتها ،و أثر الصدمة تجلّى بشراسة على وجهها الشاحب الواقع في الكارثة الصماء، وما إن سارت خطوتين حتى فقدت توازنها ثم ترنحت كترنّح ورقة خريف مصفرّة يابسة، ووقعت أخيرا على الأرض مغشيّا عليها.

بعد أن استعادت بعض وعيها حاولت أن تتبيّن حقيقة ما جرى، غير أنّها لا تزال تشعر ببعض الدّوار مما أفقدها القدرة على التفكير في الثواني الأولى، راحت تحدق إلى السقف بنظرة واهنة ،فمها فاغر و يداها مرخيتان ، وعندما عاد وعيها كليا، وجدت نفسها مستلقية على السرير المعدني الضيّق في غرفة الضيوف، وأمها جالسة إلى جنبها ضاغطة على يدها بقوّة وأمارات قلقها المعتاد قد رُسمت بيد فنان ماهر على وجهها متجليّة على سحنة مذعورة. فيما كانت سميحة منحنية فوقها تستغرب من الذي أصابها وتكرّر تلفّظ اسمها وشقيقتاها واقفتان كلا على حدى، فياسمين الصغيرة راحت تضغط بمنديلها على فمها مرتعدة الفرائص؛ فقد أثارت الواقعة فيها اضطرابا مهولا، كانت جامدة في نقطة قريبة من أختها المغشيّ عليها، أما ميرنا فكانت عاقدة ذراعيها تحت صدرها مسندة ظهرها إلى الحائط، وجهها خال من أثر الاهتمام؛ بل تبدو تقريبا هازئة من حالة أثيل، وراحت ابتسامة ساخرة تتراقص على شفتيها خفية. تحرّكت بخطوات وئيدة متريثة صوب المطبخ عندما بلغتها أوامر أمّها الصارمة بإحضار كوب ماء على عجل، يلتهب عقلها بنار الحسد - "إنّها محور اهتمام الجميع باستمرار، ومنذ طفولتها تسرق الأضواء. بعد فترة يسيرة ستطرق باب

البيت أياد متوجسة متخوفة، فالجميع شاهدوا من شرفاتهم فصل إغمائها في منتصف الشارع. ستحتشد عتبه الباب بجيران يعلو قسمات وجوههم قلق أنيق،لو أنّها هي التي أغمي عليها لن يشكل هذا فرقا عند أحد".

أحفظتها الخاطرة فكزّت على أسنانها، وغزت عينيها نظرةُ حقد "لن يحفل أحد بي، فهذه المسماة سميحة لن تعبأ إن مرت فوقي شاحنة ثقيلة وتحوّل جسدي إلى نتف صغيرة. هذه الدنيا ليست عادلة،فكيف توهب تلك الداعرة هذا العدد من المحبّين بينما أنا،,,أنا لا يحبّني أحد،لا يحفل بي أحد"

سكبت الماء في الكأس حانقة ثم ضغطت عليه بأصابعها متوعّدة "ذات يوم،ذات يوم، نعم ليس الآن، عندما أتزوّج رجلا مناسبا، وأضمن مستقبلي ثم أنجب طفلا، سأفضحها أمامهم جميعا وأنشر عارها كما ينشر الغسيل على الحبال فوق السطوح. عندئذ سأشعر بلذّة عظيمة وأنا أفعل ذلك، سأخبرهم أي الدنيئات الساقطات هي هذه المنافقة، أنا أقطع عهدا على نفسي، عهدا لا يخيس "

وضربت صدرها بكفّ يدها ضربات متلاحقة "عندها ستطيب نفسي،و أرتاح وأنا أملأ عيني بمنظرها تدفع ثمن آثامها، نعم هناك فقط، ما من مكسب نافع إذا ما فتحت فمي الآن وفضحت عارها، سيضعونني بنفس المستوى معها، ويعتبرونني سيئة السمعة مثلها، و كأنني أنا من ارتكبت الزنى، ولن يقبل الزواج مني أي رجل،لن تكون لدينا أنا و ياسمين أي فرصة،اااه ما أقسى الحياة "

_"كل هذا بسبب طعامك القليل،أنت ترهقين نفسك في العمل، ولا تتناولين كمية مناسبة من الطعام "صاحت الأم بصوت منتحب معاتب "انظري إلى العواقب، لقد أغمي عليك في الشارع ووقعت على الأرض"

فتحت أثيل فمها لتردّعلى أن الدّوار خنق الكلمات قبل بلوغها شفتيها . كان وجهها لا يزال شاحبا و عيناها شبه مغمضتين توّزع النظرات بقلّة إدراك بين السقف و أمها ووجه سميحة الغارق في الحيرة.

_"اشربي بعض الماء "و جرّعتها رشفة ماء، و عندئذ استرجعت المشهد الأليم،لقد تذكّرت كل الذي جرى دفعة واحدة بحسرة شامخة شموخ جبل عات. لقد أنبأتها سميحة أن غاليها خليل تعرّض لحادث خطير وهو في عداد الأموات؛ فانفطر قلبها ثانية و سرت موجة من الانفعال في جسدها دافعة الوجه الجميل إلى التورّم المفجع، لكنّها حاولت تنسيق أسارير وجهها المتقرّح بصورة تناسب أهواء أمها المذعورة.

_"ما الخطب "استفهمت الأمّ و عيناها الملحّتان تنشدان تفسيرا.

_"أريد الذهاب إلى غرفتي، أشعر بتحسّن،أنا أفضل حالا " اندفعت أثيل محاولة إنهاض نفسها وقبل أن ترفع جسدها قليلا أوقفتها يد أمها المنفعلة، و صوتها تخالطه خشونة لاذعة.

_"ليس بهذه الحالة ستذهبين إلى غرفتك،أنت تشعرين بالدّوار، ابقي مستلقية"

فأرسلت أثيل نظرة استجداء إلى سميحة، كانت رسالة أكثر منها نظرة، أدركت سميحة أن أثيل تريد محادثتها على انفراد، فقالت بلطف ممرّرة يدها على رأس اثيل

_"حسنا سأرافقها إلى غرفتها، وأمكث معها إلى أن تتحسّن،حضّري لها كوبا من الزيزفون، سيساعدها على الاسترخاء".

_"ماذا أخبر الجيران عندما يسألونني ما خطبها؟ "احتارت الأم المتيّمة بطبعها المتأصل ، المتخّوف من كلام الناس "لقد شاهدوها تقع على الأرض، والذي لم يشاهد سينقلون إليه الخبر قبل حلول الظلام،الجميع سيدري ".

_"أخبريهم أنها تعرضت لضربة شمس"أجابت سميحة بفظاظة، واكتسى وجهها علامات الضجر، كانت عادة القلق هذه تسبّب لها نوعا من العصبية علاوة على مبالغتها في خوفها من كلام الناس بصورة تجلب الامتعاض "أخبريهم أنها تعاني ألما في رأسها، وإن ما وجدتها أعذارا سخيفة فبشّريهم أنها حامل، ما رأيك؟"

قهقهت ياسمين بضحكة مرتفعة ملأت البيت الساكن، كانت قد استعادت رباطة الجأش، فيما انسدل على وجه أثيل حجاب قرمزيّ أعاد الدم الحيويّ الدفّاق إلى وجنتيها. كانت مثل هذه الدعابات عاديّة بين سميحة وابنتيها. أما أثيل فهي تفتقر الجرأة للتفوّه و لو مازحة بهذه الكلمة في وجه أمّها التي استهجنت هذا الأسلوب السوقيّ البذيء، وسرعان ما وافقت كارهة على انصراف أثيل رفقة سميحة، تستوطن الغيرة صدرها. فهي تعلم بقدر ما تسعفها ملاحظتها القويّة أنّ سميحة هي مكمن أسرار ابنتها الكبرى.

"كفّي عن الضحك يا ياسمين "قالت ساخطة مصوّبة نظراتها المعاتبة نحو سميحة "يجدر بالسيّدة سميحة تحسين ألفاظها و أن تتورّع عن ذكر هذه الأمور المقيتة أمامك، لا تزالين طفلة "

عندما تحقّقت أثيل أنّها أصبحت خارج دائرة مراقبة والدتها بعد اعتلائها آخر درجات السّلّم، جذبت يد سميحة بحركة خاطفة، وسرعان ما دخلت بها الغرفة بتعجّل، موصدة الباب خلفهما، وترتّب عن الحركة استغراب سميحة و طفقت تتأملها بذهول لافتقادها عنصر الفهم، ولم تستطع التغلّب على دهشتها، في حين طفا إلى السطح وجهٌ كئيب مرتجف وعينان كاشفتان عن ألمهما الصريح، عذاب مضطرم استطاعت بشقّ الأنفس حجبه عن أعين أمها المستجوبة. عبرت الغرفة لتبلغ السرير، هاهما تجلسان على حافته، ثم قبضت على يدي سميحة بصورة غريبة،

ليست هذه هي الفتاة الرزينة التي ألفت سميحة الاجتماع بها في الصباحات والأمسيات والليالي القصيرة و الطويلة، وساعات الأصيل البديعة. ليست هي الفتاة الوقورة الحسّاسة المخلدة إلى الصمت بشكل يدعو إلى الضجر أحيانا، هناك خطب ما لم تدرك سميحة كنهه، تغير طرأ عليها و لم يطرق تفكيرها أو تربط بين حادثة الشابّ و الأحداث الأخيرة. بل توقّعت أن السبب وفاة ابن أسماء أو ضغط في العمل فإبراهيم مكشوفة أساليبه أو على الأرجح أن إحدى العجائز المقيتات تسبّبن في زعزعة معنوياتها و جرح شعورها بقصصهن المُغبرة عن الحياة السابقة، ومشاكلهن المدلّلة الرخاميّة. من المرجّح أن السافلة راضية قد حدثّتها عن أمور بشعة، عن وحدتها، و نظرا لحساسيتها الشديدة، لم يتحمّل قلبها الرقيق هذا الألم الكبير.

_"أخبريني بسرعة كيف حاله "سألت أثيل بعينين متحرّقتين، ووجه بائس والدموع في مقلتيها، كان في نظراتها وهَجٌ مريب و في صوتها تهشّم جلي.

_"من هو؟" تفاجأت سميحة، و عجزت عن الفهم "من تقصدين؟"

_"خليل "قالت ببساطة" أخبريني بسرعة، هل سيموت؟ "وانفجرت في موجة صاخبة من البكاء مطلقةً العنان لدموعها فيما كانت الحيرة حصريا من نصيب وجه سميحة،و مردّ ذلك عدم استيعابها بأي حال حقيقة الذي يحدث، من الغريب أن يغمى عليها،و لكن ليس أغرب من بكائها بهذه الصورة، ما شأنها و البكاء عليه؟ تساءلت في سرها، لماذا لم تندفع هي إلى هذا البكاء الهستيري؟ أليست طبيعية؟ أتكون كائنا باردا صلبا عديم الإحساس؟ إذًا لقد كان الخبر يقتضي نحيبها بأعلى صوت. لقد تشاركتا أحاديث طويلة بخصوصه، وأعلنت هي من طرفها أنّه رجل رائع نادر المثال بجرأة خالدة و قلب مقدام. بيد أنها لم تر عذاب فتاة تبكي لفرط حساسيتها أو لقلبها المرهف الطيّب،لا، إنّها ترى دموعا من نوع آخر، وعندما اصطدمت بالعارضة الشاقة لجمت الصدمة لسانها، تبا،إن الفتاة لم تكن يوما كائنا حالما، إنها فتاة واقعية. و لم تستطع في اللحظات الأولى أن تقرّر طبيعة السؤال.

_"أنا لا أعرف إلّا الذي نقلته إليك "أجابت حذرة، دون مواجهتها فورا بما يدور في خلدها "إنّ الرجل في وضع سيئ، و كما أنبأتك تعرّضت والدته لنوبة قلبيّة، و هي في المشفى الذي يرقد فيه ابنها، وحالها ليست أفضل من حاله، لكن لماذا تبكين،ما الخطب يا عزيزتي؟"

جحظت العينان الدامعتان هلعا وانفغر فمها كمدا، ولم تقل شيء للحظات يسيرة، اذ احتدمت الأفكار في عقلها على أنّها همهمت بكلمات قلائل بعد قليل

_"ليست أمّه، إنّه يحبها، ليست أمّه "و انزلقت عن حافة السرير ثم ارتمت على ركبتيها ضاغطة على اليدين الدافئتين نتيجة الشدّ المتواصل عليهما.

_"ما الخطب يا حبيبتي، ما علاقتك أنت بكل هذا "سألت باستغراب هادر ووجهها صفحة حائرة، ولم تحر أثيل جوابا؛ بل أطرقت رأسها بنظرة كسيرة وصوت نشيجها المتقطّع يلفّ الغرفة،هذه التي بدت جدرانا هشّة لقلب كسير منفطر.

_"ماذا هناك؟ " استوضحت سميحة ثانية بنفاذ صبر عندما لم تتلق جوابا يروي عطش حيرتها، وأمارات الدهشة تنخر قسمات وجهها. لم تدر كيف تتصرف و هي التي تعرف أن أثيل فتاة عاقلة ولا تنزلق إلى مثل هذه السخافات التي تتعاطاها فتيات السادسة عشرة، ثم وضعت يدها أسفل الذقن المدبب الصغير ورفعت الوجه القرمزيّ المنتفخ المهترىء، كانت العينان تسبحان في بحر من الدموع التي عجزت عن إيقافها.

"إنّني لا أكاد أفهمك، لماذا تبكين إلى هذا الحد، كفكفي دموعك، وحدثيني بصدق ماذا هناك؟ إنّك تحيرينني؟ما خطبك؟ "

_"أشعر أنّ قلبي سيتمزّق،إن ما مات؟،إن مات؟" كرّرت و خنقت الدموع صوتها مجددا وراح قلبها يقرع كالطبل.

_" لا أزال أنتظر جوابا "قالت سميحة بكياسة "ما علاقتك أنت به،هل تعرفينه من قبل؟ "

_" أنا أحبّه،أحبّه "اعترفت أثيل بصراحة.في مناسبة غير هذه، كانت سميحة ستُسرّ كثيرا بفكاهة زاهية مضحكة ترفع من معنوياتها كهذه، وكانت ستقهقه بصوت مرتفع. ولكنها اليوم تصلّبت مثل عمود خشبي و هرع عقلها المخدّر بفكاهة نهاية اليوم الصيفي الطويل يبرّر الموقف، محاولة ترتيب تشعّث الشعر الأملس برفق و مضت ثوانٍ ثم علّقت متظاهرة بعدم الفهم:

_"كل الناس يحبونه،حتى أنا أحبّه، إن كان يهمك أن تعرفي، بل إنني أحبه كثيرا، و لكنني لم أبك مثلك، إنك كائن بكّاء،فائق الحساسية يا أثيل، تبكين لأي أمر،ما أسهل أن تُثار عاطفتك المفرطة في العذوبة، لندعو الله من أجله "

_" إنّك لا تفهمين يا سيّدة سميحة"صاحت أثيل ضاغطة على ثوبها و قد أغدق دمعها ثم رفعت لها عينين بائستين معذبتين، يموج فيهما وميض تعيس لفتاة ألمّ بها مصاب جلل، وتبخّرت في طيّات الكلمات الكليلة والدموع الرقراقة، الفتاة الرزينة الهادئة التي كان يعتقد الجميع أنّها أعقل من أي فتاة.

_ "لا أحبّه كما تحبونه أنتم،أنا واقعة تحت سلطان عشقه منذ زمن طويل، منذ رأيته أوّل مرة وقرأت له أول مرة، بل إنني أموت حبّا فيه، وإذا ما حدث شيء له سأموت هل تفهمينني يا سيّدة سميحة؟ أبوسعك ذلك؟ "

إلى أي درجـة تكـون فيهـا الفتيـات سـاذجات.سـخيفات؟ لقـد اتّفـق وسـمعت سـميحة حـوارا مشابها لهذا الهراء من قبل،لكن أين؟ لقد تذكّرت،سمعته في إحدى المسرحيات المأساويّة،كانت الفتـاة العاشـقة تـؤدي هـذا الـدور رافلـة في فسـتان مخملي أبـيض طويـل عـاري الصـدر عـريض الكمين، وهي تحمل سكينا ذا نصل حاد ومقبض مرصّع بالأحجار. موجّهة إيّاه إلى قلبها صارخة بصوت كئيب والدموع تجري على وجنتيها المورّدتين "سأقتل نفسي فداءً لحبك "فيما يكون حبيبها الفقير مقيدا إلى أوتاد خشبية في رداء خليف، بانتظار تنفيذ الحكم بالإعدام راجيا من حبيبته عدم البكاء

_"أحبّك يا أميرتي، إن منعوا عنا الاجتماع في الحياة، سنجتمع بعد الموت في عالم عادل خال من الأحقاد "و لحظت بعينيها، وسمعت نفسها تضحك ضحكة مكتومة، ولاحت لها أثيل فتاة ساذجة و غير واعية لكن ينبغي عليها الصفح عن هراء الفتاة، فبنات هذا الجيل سريعات التأثّر بالمشاهد الغثّة المثيرة للعواطف البلهاء المعروضة أمامهن، ليسامح الله مؤلفي هذه المسرحيات لا، بل ليلعنهم الله، لقد أفسدوا عقولهنّ، لو أن إحدى ابنتيها جثت على ركبتيها بهذه الصورة لتعلن حبها الصفيق لذلك الرجل؛ لدقّت عنقها فورا، و قرّرت بسرعة: ليس من المفيد معاتبتها أو التقليل من شأن مشاعرها.

لكن ،و لبرهة ذاهلة فكرت أنّ الفتاة أصابها مس من الجنون و فقدت عقلها،أي هراء هذا الذي اعتراها فجأة؟ لقد كان مقبولا سماع هذه الكلمات الغبيّة من أفواه فتيات حمقاوات، يقودهن دوار الصبا الغرير ،حتى هي تذكر قولها هراءً كهذا،لكن من أثيل !!!لا ،و ألف لا ،و كان من المعقول أن تهيم الفتاة بحبّ ابن الجيران الباسم، أو بائع الخبز المثابر،أو مدرّس الرياضة الرقيق،أو حتى المهندس الوسيم الذي يملك سيارة بيضاء فاخرة، ولكن أن تبكي فتاة لأجل القمر، نعم القمر، فهو بعيد جدا ولا يسع إلا فتاة في المليون الوصول إليه. إن الأمر أشبه بالبكاء على رجل مات منذ ردح طويل، لن تحصل عليه مهما فعلت، وأخذت على عاتقها أمر إرشادها بعقل حكيم ،نعم ،نعم ليس من الصائب معاملتها كفتاة مجنونة وهي في مثل هذا الحال الزريّ والقلب المحطّم. وتدرك سميحة أن أثيل ليست فتاة سخيفة شأنها كالفتيات الأخريات، ولولا ذلك لما كتمت عنها هذا السرّ لتفضحه الآن فخاطبتها بلهجة رقيقة تنسجم كل الانسجام و حالتها الحسّاسة:

_" تحبينه من غير أمل. حتى و لو عاد إلى الحياة؛ فلن تحصلي عليه أبدا،لأيّ هدف إذن تشقين قلبك التعيس؟،ثم ماذا تعرفين عن حياته، ربما كان مرتبطا أو متزّوجا،أنت لم تقابليه يوما على حد علمي، ولم تتحدثي إليه. هل حدث و تبادلتما حديثا في وقت سابق؟".

_"لا "حركت أثيل رأسها ببطء "أنت لا تفهمينني".

_"تعالي، اجلسي بجانبي " قالت بطمأنينة وجعلتها تجلس بجانبها بعد ذاك الفصل المروّع" والآن اجعليني أفهمك، لأنّ ذلك يبدو أمرا غريبا، توقّفي عن البكاء، إن ما باغتتنا أمّك بفتح ذاك الباب، ستعتقد أنّك حامل حقا و ستولول حتى يغمى عليها".

_"لست أحبّه لأجل أن أتزوجه "شرحت أثيل و هي تجاهد لتجمع شتات نفسها، سميحة على حقّ، إذ ما برزت أمّها من ذلك الباب المغلق ستسأل حتى يجفّ حلقها، و ليست بوضع يبيح لها منح أجوبة

_ "لست أطمع في امتلاكه أو الزواج به. و لو توفّر لي أن أختار لما أحببته أبدا. ولكن ذلك كان قدري،كان ابتلائي، أنا مصابة به كمصاب بمرض مزمن، إنّه يعشعش في عقلي و قلبي و لا يغيب عنّي للحظة واحدة، وكلما حاولت نبذ هذا الشعور، يلتصق بي أكثر.أدرك، أنت تعتبرينني مجنونة في هذه اللحظة، و لست أعترض، حتى أنا يا سيّدة سميحة أفشل في تحليل السبب الذي جعلني أتعلّق به إلى هذه الدرجة ، و لكن ماذا أفعل أنا أحبّه، أحبّه"

كانت سميحة ترغب في القهقهة بشكل صريح، متى تعوّد لسان هذه الفتاة على هذه الكلمة!! لكن الآن يفي بالغرض إبداء نوع من الفتور المرن إزاء هذا المصطلح الشنيع، هي تكرّرها بين أسنانها كما لو كانت كلمة عاديّة مثل كلمة الماء، وفجأة تدلّى فمها و تغضّن جبينها، وأحسّت أن يديها بحاجة إلى بعض الحريّة، و إصدار بعض الحركات المعبّرة

_"حبيبتي أدرك أنّك تحبينه. لا أستطيع أن أقول شيء بهذا الخصوص، في النهاية قلوبنا لها ميول مخبولة في الاختيار، هذا طبيعيّ للغاية "قالت بهدوء المرأة الصبورة على نزوات طفل حرون"لكن لنكن واضحتين، لا توجد فتاة تحبّ رجل إلا و تطمع في الزّواج به، لاتخدعي نفسك...".

_"إلا أنا "قاطعتها أثيل و قد اكتظّ قلبها بهذا الحوار، إنّها تودّ أن تعرف عنه أخبارا فحسب . وليس من شأن أي إنسان التحليل عميقا في مشاعرها من المؤكّد أنّها كانت مصيبة لكتمانها أحاسيسها في قلبها، و لم تخبر بها أي شخص "لا يهمني أن أتزّوجه؛ فليتزّوج من يشاء،أريده أن يكون حيّا سعيدا ".

وفورا حضّرت سميحة جوابا غير موافق،غير مقتنع

_"حسنا أيّها الملاك الإنساني،لايقنعني هذا الكلام ولكن،,,أنت تتوّهمين أنّك واقعة في غرامه، وستنسينه مع الوقت و تحبين من جديد".

_"أرجوك يا سيّدة سميحة" صاحت أثيل بامتعاض ضجر و زفرت، ولم تكن يوما من الأشخاص الذين يفقدون صوابهم، ولكن وجهها تملّص من تعابير الحزن ليحلّ محلها حنق ناهد"

لا تجعليني أندم لإطلاعك على أسراري الخاصة، أتوّسل مساعدتك، ليس من أحد سواك ألجأ إليه".

_"بأيّ خصوص تحتاجين مساعدتي؟ "ونظرت إليها بدهشة، نظرة تلاشت منها مسحة التهكّم.

_"أودّ أن أعرف عنه أخبارا "وتطلّعت إليها بعينين متوسلتين، كانت النظرة فيهما ترهق الحجر الصلب، ثم تعلّقت بيديها محكمة القبض عليهما إن التعسة جديّة إذا، لن تملك إلا مسايرتها إلى أن يفرج الله كربها الجزع.

_"لا نملك إلا أن ننتظر أخبارا من الجرائد أو الراديو "

_"لن أنتظر "أجابت بعناد ووثبت على قدميها تطوف بأرجاء الغرفة، فيما تفاقمت حيرة سميحة، وشملتها بنظرة غير مصدّقة. إن الجسد جسد أثيل، و لكن العقل ليس عقلها.

_"ماذا نفعل إذا؟ "سألت حذرة و انكمشت

_"نذهب إلى المستشفى لنسأل عنه "

تبّا، لقد توقّعت أي اقتراح إلا هذا. و هكذا رفعت حاجبيها في استغراب، مشدوهةً عندما بلغ أذنيها الالتماس الساذج.

_"هل نأخذ ورودا؟ "قالت بتهكّم. لقد نفذ صبرها و ينبغي أن تدوّي بضحكتها المكتومة في أرجاء الغرفة، ولكنها سرعان ما سحبت عبارتها حيث أنّ أثيل رمقتها بنظرات محمرّة بفعل الغضب. نظرات لم تألفها من عينين عذبتين ودودتين لفتاة ناعمة تنصح النساء بناتهن أن يحذون حذوها. لقد أفقدتها الصدمة طبيعتها الزاهية الوقورة، كان ذلك عمليّا صحيحا جدا، فكلّ من تعرفها تتمنى أن تكون ابنتها رائعة كأثيل. وإن ما سمعتها إحداهن هذه الليلة،ستعضّ يديها ندما على نصيحتها.

جاش صدرها إشفاقا عندما طفقت أثيل تبكي ثانية فتوجّهت صوبها و أخذتها بين ذراعيها

_" لا تبكي أرجوك. لم أقصد دفعك إلى البكاء، ولكن كيف نذهب إلى هناك؟، أيّ عذر سنقدمه لوالدتك؟ ثم ماذا عن ذاك الوحش، لن يمنحك يوم عطلة؟ و العائق الأكبر نسأل عنه بصفتنا من؟ نحن لسنا فردا من عائلته، لا شك أن أصدقاءه و أقرباءه جميعا مزروعون هناك كأشجار الصنوبر ينتظرون بقلق أخبارا عنه".

_"لا يهمني أي أحد "و رفعت صوتها الرفيع باكيةً كطفلة صغيرة لا يهمها شيء إلا تحقيق رغبتها "أريد الاطمئنان عليه. إن كنت تمانعين الذهاب معي فسأذهب لوحدي و لن أبالي"

"يا للمأزق "هجست سميحة وأبعدت الرأس الحرون عن صدرها، وتأرجحت بين المنطق وعاطفتها نحو أثيل وأخيرا انتصرت العاطفة وانسحق المنطق "حسنا يا حبيبتي. إن كنت مصرّة

سنقوم بزيارة خفيفة ونستطلع وضعه من بعيد، لكن ما الخطّة؟. أي عذر نطرحه أمام والدتك، إنها لن تسمح لك. أما العجوز إبراهيم سيسلخ وجهه بيديه".

_" بمقدورك تدبّر الأمر "قالت أثيل بثقة

_"أنا؟.كيف أقنع أمّك باصطحابك إلى العاصمة " قالت باستخفاف ذاتيّ

_"أنت تجيدين اختلاق الحجج، بإمكانك أن تناوري بأي كذبة،لا شيء يصعب عليك إذا ما وضعته نصب عينيك"

وقفت سميحة واجمةً متحجّرةً أمام هذا التصريح الوقح "ليست هذه أثيل، لقد اختطفوا صديقتي". لقد فقدت الفتاة صوابها و أضحت تتكلّم عن الكذب ببساطة ليّنة ولا شيء سيثنيها عن عزمها. و لهذا استسلمت لطلبها أسرع مما تعوّدت.

الفصل السابع

أسندت أثيل والحزن المغموم يكتنفها صدغَها إلى زجاج نافذة الحافلة المتوجّهة نحو العاصمة، كانت الرحلة ستستغرق على أقلّ تقدير ثلاث ساعات إن سارت الأمور على النحو الطبيعيّ،ما لم تتهافت طوارىء إطارات العجلات المثقوبة والشجارات المفتعلة وإجراءات المخالفات القانونية نتيجة السرعة المفرطة، وإن كان السائق يتمتّع ببعض الجديّة والمسؤولية التي نادرا ما وُجدت صفةً أثيرةً في أيّ سائق حافلة.

كانت عيناها السوداوان متورّمتين من البكاء و وجهها المنهك تشوبه صفرة الأموات .لقد قضت الأيّام المنصرمة منذ أن نكبت بالنبأ تبكي بمرارة كلما انفردت بنفسها و ترتعب من أدنى فكرة تلمح إلى الموت ، وقد مضى على ذلك أسبوع، بدت أيّامه طويلة كأيّام الزمن ،ما كانت قادرة على تصور هذه الحياة من دونه،من دون كلماته و مواقفه و مقالاته ،إنّها تأنس بوجوده حتى مع أميال بعيدة تفصل بينهما. حتى مع جهله بحبها. معرفته أنّها موجودة في عالم يخلو من الصدف المميّزة ، لولا أنّها أحبته ذات يوم من نظرة عشوائية ، لولا ذلك لكانت الحياة عقيمة بلا طعم، بلا أمل حقيقي. هذا الشعور الدافئ ،النقي يمنحها مقاومة لتستمر رغم الذي ألمّ بها في فترة أقلّ ما يقال عنها أنّها "جائرة ".لن يحلو لها العيش بعده ثانية واحدة، و ما من شيء أو إنسان سيكون له القدرة على إخراجها من الكآبة المترتبة عن فقده إلا موت يأخذها إلى جواره .

و لأنه معنى حياتها الوحيد ،مصدر سعادتها و منزلته امبراطورية في قلبها ، كان من المستحيل أن لا يقلب وضعه ما بين الحياة و الموت حياتها رأسا على عقب ،و أن لا ينجم عن ذلك تغيرات واضحة على أبعادها السلوكية و النفسية و الجسدية ، تغيرات جلبت لها تفاعلات متفاوتة،رغم أنها كانت تملك من الاتزان ما يكفي لتكسب حربها ضد إثارة أي نوع من الشكوك ،لكن اتزانها قدم أسفه :إنه مصمم ضد أي شيء إلا احتمال موت من تحبين.

أكثر من استاء من التغيرات التي طرأت عليها هو العجوز إبراهيم،ليس لأن حالتها المتوعكة دفعت أحد الزبائن الدائمين للتدخل في شؤونه الخاصة ،بالاقتراح عليه منح الفتاة المسكينة يوما للراحة لأنها تبدو عليلة مرهقة ،و كراهيته الغريزية لتلك الكلمة المسماة عطلة أو يوم راحة ، فهو ما كان ليتصور نفسه يستدعيها و يعرض عليها التوقف عن العمل إلى حين تحسن معنوياتها و هي التي استنفذت أيام إجازتها السنوية كلها دفعة واحدة ،بل لأن شرودها و اضطرابها سببا حالة من اللانظامية غير المحددة ،إذ تكرر سقوط الكتب من يدها ،و عاد زبونان إلى المكتبة لينزعجا من منحهما الكتاب الخاطىء ،و لم تكن تركز إطلاقا مما يدفع الناس إلى إعادة الكلام لها ،و نتيجة تيهانها ، ترتطم بالرفوف و به هو شخصيا ،و بلغت حدا فاق الحدود من الإهمال و الشرود ساقها

هي إلى ارتكاب المزيد من الحماقات و ساقه هو إلى تنبيهها بحزم إلى ترك مشاكلها خارج مكتبته ،و مع أن الفتاتين حاولتا مرار ،فقد فشلتا في تمزيق الستار عن ماهية الحزن المنبعث من عينيها الذابلتين كأوراق ورود لم تسق ماءً،و كان الشيء الوحيد الذي تستطيعان مساعدتها به هو التغطية على هفواتها التي تنضح تشتتا ، كيما تمنعا عملية طرد محتملة،و إذا كانتا واثقتين أن تلك الجهود ستمنع حتما حدوثها ،فإنهما ما كانتا كذلك عندما تحدثت أثيل عن ضرورة طلبها ليوم إجازة بشكل ملّح ،إذ أن الرجل المتزمت الذي استمر يراقبها بعين الضيق و السخط،كان سيريها الباب فورا لحظة تجرؤها على طلبها ،و يمكن أن تحصل عليها في حالة واحدة :أن تطلب منه زوجته الميتة في المنام ،قالت زميلتها ذلك من باب المزاح .

لكن زوجته الميتة لم تأته في المنام لتطلب منه ،و بدل ذلك جاءته سميحة في الواقع ،عند ساعة مبكرة من الصباح ،كانت سميحة تملك قائمة طويلة بالأشخاص الذين تكرههم و كان إبراهيم على رأسها ،ليس لأن زوجها الراحل كان يعده واحدا من أسوأ البشر الذين عرفهم على الإطلاق فحسب ،بل لأنها لم تسمع شخصا واحدا يتكلم عنه بخير حتى أولاده إلا البلهاء أثيل ما لم يتجاوز الحد في خدشها بأحد بذاءاته،و خلال فترة زواجها لم تدخل بيته يوما و لا دخل بيتها رغم أن لها علاقة هزيلة بزوجته و ابنته الكبرى ،و لم يضطرها أي سبب للتحدث معه إلا مرات قليلة شديدة الاقتضاب و الرسمية ،لكن أثيل بإنجازها الملحمي المتمثل في حب مستحيل جرتها جر حيوان ميت إلى مكتبته ، و مما لا شك فيه أن العجوز المتصخّر ما كان ليعلن عن موافقته على تغيّب موظفته لو أن سميحة لم تتشوق كثيرا للعب دور الأرملة المغلوب على أمرها :

"يا سيّد إبراهيم ، لو تعلم كم أن المرأة المسكينة مريضة، أخشى أن تموت ولا أراها "قالت سميحة بصوتها المنتحب ،مستعرضة قصّتها المزيّفة وهي تقف أمام إبراهيم بشجاعة منقطعة النظير، غير أنها اعترفت فيما بعد مقسمة بالثلاث أن أحشاءها كادت تتمزّق من الذعر وركبتيها كانتا ترتعشان على أنها أحسنت إخفاء ذلك

_"وتعلم أنني امرأة وحيدة بدون رجل أعتمد عليه، وابنتي ضعيفتان، إحداهما صغيرة كما تعلم والأخرى يغمي عليها بمجرد رؤية مريض أمامها ثم أخشى استحالة تحمّلها طول المسافة، في آخر مرة أغمي عليها بمجرّد قطعنا بعض الأميال القليلة. اااه، عندما تُترك المرأة من غير رجل يسندها "بدأت تندب "لقد مات وتركني صغيرة "على أن إبراهيم لم يفهم الهدف من هذا النواح في وقت مبكّر من النهار" لو كان حيّا لرافقني إلى زيارة المرضى، وارتياد الأعراس والمناسبات، والذهاب للتنزّه" وهكذا خرجت عن النص شأنها عندما تجد آذانا صاغية، غير أن شيئا في العينين النفّاذتين جعلها تتحجّم مثل رفاص تحت الضغط، و ها هي تبتلع ريقها بصعوبة عندما بلغتها

الرسالة من عينيه الحادّتين التي زوى ما بينهما و كأنه يقول لها " أنت لا تتوقّعين أيّتها المرأة الحمقاء أن أصحبك لزيارة قريبتك المريضة "ولهذا أسرعت توضّح له حقيقة مآربها كخطوة حتميّة لتفادي نفاذ صبره.

_"كما سبق ووضّحت لك، إن ابنتي ليس لها القوة الكافية للسفر معي، وأنا بحاجة إلى رفقة. أنا امرأة وحيدة ضعيفة و ليس بمقدوري السفر لوحدي، وأنت رجل محترم لا ترضى لي أن أقطع كل تلك المسافات بمفردي لذلك أطمع في كرمك بالسماح لأثيل بمرافقتي و سأكون شاكرة. هل آمل موافقتك يا سيّد إبراهيم؟"

نكست رأسها، نكسته متقنةً دور العاجزة وشفتاها يابستان كصحراء قاحلة بحنق مفطوم، وانكسار فيّاض. وظهر بعض الضيق على الوجه الخالي من المساحيق، ثم كالت السخط لأثيل لقذفها بها في هذه المأزق الزريّ، لكن لا مناص من ضرب الوتر العاطفي.

"حسنا " وافق بلهجة متخشّبة، بتعبير يشي بقبول عديم الحيلة كأنها تبتزه بسر خلاعي تعرفه عنه ، متحاشيا النظر إلى وجهها "لن أسمح بتغيّب آخر. سأمنحها عطلة ليوم واحد و إلا سأضطرّ لطردها، و أنا جاد".

لقد قالت كثيرا لأثيل و ريحان "إن الرجال لا ينفع معهم إلا التملق و التظاهر بالعجز ،و البكاء أمامهم"على أن أثيل مقتنعة أن لا شيء من ذلك ينطبق على إبراهيم و التفسير الوحيد الذي وجدته معقولا فيما بعد أن العجوز على الأرجح بدأ يتقبل الانتقادات الموجهة إلى نظامه أو لسبب غامض يحتفظ به لنفسه .

ارتفعت إلى شفتيها كلمات الامتنان، فراحت تنحني مثل خرقاء. إنها في غاية السعادة، ولكن لماذا؟ على حد علمها هي لا تعير المسألة أكثر من إرضاء نزوة عابرة لفتاة تمرّ بأزمة عاطفية غبية، كأزمات رجال منتصف العمر، تحسب أن الدنيا ستتوقّف عند هذا الرجل،اااه، الآن عرفت لقد استطاعت إخضاع تزمت هذا الرجل المتوحش ، إنها لشهادة دامغة على مواهبها الفذة.

وإذ كانت أثيل قد أثارت استياء ربي عملها ،فإنها أثارت في أمها قلقا ساحقا ،فهذه و إن لم تمتلك عيونا خارقة لتطلع على الحقائق الخفيّة، فحتما لن يفشل قلبها، قلب الأم الملمّ بشؤون أطفالها، لم يفشل في حدس وجود علة ما، رغم فشلها في تحديد موطنها. فمنذ المساء الذي وقعت فيه أثيل على الأرض مغشيّا عليها، وهي مغتمّة مكتظّة .و كان مما لا يفوت ملاحظته أن الفتاة تزداد شحوبا يوما بعد يوم و جسدها غدا مرهقا بصورة غير مريحة ، و أكثر ما خشيته أن يكون مرضا ما قد انسل إلى جسدها هي الأخرى فصيّره على هذه الصورة المرهقة الهزيلة ، فاستعجلت بعد أن تريّثت نافذة الصبر في سبر أغوار فتاتها الكبرى ،راحت تسأل دون توقف ،بإلحاح جموح

،مستعطفة إياها بمكانتها في قلبها و روح أبيها الميت و اقترحت عليها عرض نفسها على طبيب ليطمئن قلبها ، وقبل أن تفرّ أثيل بجسدها المرتبك المعذّب من الاستجواب المصمم ، لم تكن الأم لتنتزع منها أكثر من عبارات مطمئنة مقتضبة، لم تفشل في التخفيف من وطأة حيرتها فحسب، بل إنّها ضاعفت من شأنها الكثير.

لم تيأس ،و ظلّت عيناها تترصّدان كعيني نسر، تتقنّصان ضعف الفريسة، تترّصدان خمود عزيمتها الحريصة ، فتبوح لها في لحظة طيش موفّقة عن الذي يكدر صفو حياتها، عن الذي يمنع وجهها من الإشراق كعادته ،عن الذي يجعلها قليلة الشهية ،شاردة الذهن ،حزينة العينين ،ميالة أكثر عن ذي قبل إلى التردد على بيت سميحة كأنه متجر يبيع الطمأنينة.

ولو أنّ اثيل كانت فتاة حمقاء متهوّرة، لاتزن الأمور بعقل راجح متزّن، لرضخت لإلحاح أمها و لوهبتها ثقتها ثم أطلعتها في لحظة بهيميّة على سرّها الرديء، بل إنّه سيكون أسوأ ما يمكن أن ينصحها به عقلها المشتّت ولجعلتها تندم ندما عضالا مرفقا ببنود إدانتها على خطوتها المتصدّعة. إنّ الحب في قاموس مليكة ممنوع منبوذ كخائن من قبيلة شريفة، شعور مبتذل قبيح رغم كونه أجمل إحساس في الدنيا، بيد أن ينزل منزلة ارتكاب خطيئة الزنى، لا فرق بين فتاة غارقة في أنهار الحب وارتكابها رذيلة شنيعة، فكلتاهما تفضيان إلى الإخلال بالأعراف،و كلتاهما تفضيان إلى الفرار مع الحبيب والوقوع في المحظور المتمثّل في إنجاب أطفال السفاح.

بالمقابل ،لا شيء من هذا التحفظ و التحصين في وجه سميحة ، التي تظهر أمامها على سجيّتها الشفّافة، مصرة مزيدا من الإصرار أنها تحبه و إن ما مات ستموت معه ،مبدية ذاك العناد الصخري ذاته على زيارته في المشفى ،متسائلة عن السبب الذي يمنع جعجعة الصحف من فعل خير واحد في مشوارها و ذكر مستجدات عنه ،كانت تروح و تجيء أمامها ،تبكي و تنشج و تمخط في منديل كتاني و أحيانا ترتمي في أحضانها خائفة ،مذعورة ، فتكتفي سميحة بتأملها ذاهلة، رافعة حاجبيها حتى تكاد تلامس أعلى جبينها ،معيدة السؤال ذاته :هل هذا طبيعي و معقول !و منذ النقاش الأول الذي دار بينهما و إعلان استسلامها ، لم تحاول أن تعلق سلبا على أي دمعة أو قرار ،أو تعترض على رجاء ،أو تخلف بوعد قطعته أو تقول لا ، و لهذا قامت بإزاحة عائق آخر أمام عزمها ، فطرقت باب البيت المقابل لبيتها في وقت مبكّر من صباح آخر و أبلغت صاحبته رجاءَها باصطحاب ابنتها إلى العاصمة، لأنّ لها قريبة وجب عليها زيارتها. كما أن حالة الفتاة التعسة تحتاج إلى تجديد الجو، مثيرة حنقا مضاعفا في صدرها ،مصحوبا بغيرة جنونيّة؛ لإدراك مليكة منذ ردح من الزمن بغريزتها أنّهما ليستا مقرّبتين فحسب؛ بل إن ابنتها الكبرى العزيزة على قلبها تفضّلها دائما لمشاركتها أسرارا تصممّ على عدم وجودها إلا في خيال الأم القلق، بينما ينبغي على

الفتيات أن يمنحن أمهاتهن الأفضليّة في كل شيء،و في الوضع الراهن :فهمها لما تحتاجه و لا تحتاجه ابنتها ،و مقدرتها على تهيئة أجواء ملائمة تخرجها من حالتها التي توضح أن سببها ضغط العمل كما سبق و بررت أثيل ،لم ترغب في جعل تلك النقطة محلّ نقاش بحري ،و تخلت عن حقها في إبداء جزعها ، ولهذا بعد خطاب مرتجل قصير ألقته سميحة المتبجّحة على مسامعها قابلته بعدد قليل من الأسئلة ظفرت بالغاية، ظفرت بموافقتها شريطة إعادتها إلى البيت قبل الساعة السابعة. وإلا ،،، وإلا فهي لن تسمح لها مرة ثانية باصطحابها إلى أيّ مكان قريب أو بعيد.

الفصل الثامن

قطعت الحافلة أميال قليلة دون طوارئ، وواجب الثرثرة يحتّم على سميحة الاستفادة من جعجعة أحد المسافرين، ويستحسن أن تكون سيّدة ظريفة تقاربها سنّا تتعاطى معها بعض الأحاديث المسلية إلى حين وصولهم سالمين، حيث أن روحها الفكاهيّة،و دعاباتها السخيفة المضحكة لم ينجحوا بالقدر المتعارف عليه في إنعاش معنويات الفتاة الرازحة تحت وطأة الألم، كانت صامتة تسند رأسها بقوة إلى زجاج النافذة، تحدق خارجا دون أن تخشع بوعيها التام .و قبل مزاولتها الانعزال الكئيب ، كانت قد أفضت لها فزعة بكوابيسها المتكرّرة كل ليلة، إنها تستيقظ من أعماق حلم مفزع وقلبها منتفخ ساخن كأنه قُلّب على الجمر . اذا هذا ما يفسر حالة عينيها المنتفختين المحاطتين بهالة داكنة ،لا شك أن النوم لم يعرف طريقا إلى عينيها، و إن ما أتيحت لها هذه المزيّة للحظات ، تنقض عليها الكوابيس عديمة الرحمة فتثب فزعة مروّعة.

"كانت غرفة بيضاء الجدران فيها نور خافت وفي أحد أركانها وضع جسد على سرير متأرجح، مدفون تحت ملاءات بيضاء كثيرة، وعندما فتحت الباب و بينما هي تقترب من السرير، ارتجف قلبها و جمدت نظرتها وخامرها شعور فائق بالخوف، لكأنها أدركت بدراية متمكنة من يضطجع ميتا تحت تلك الأغطية. لم يكن هو،عرفت ذلك،على أنّ الاسم كان يفزعها أيضا، لم تصنّف الوجه مألوفا،هل سيموت؟؟؟"

وأحسّت سميحة بالشفقة عليها ، دون أن تحاول توجيه أيّ تأنيب واقعي بينما كانت تراقبها، و تستمع إلى كلمات تعكس حالتها المكدودة، هذه من كانت تحميها من سخطها ومعاتبتها وتلقينها الدروس حول سذاجتها ،رغم أنها لا تفتأ تتفاجأ من نفسها : كيف تكيّفت مع هذا الهراء، وسمحت بجرّها أميال للاطمئنان على رجل غريب لا تعترف إلا بشجاعته في إهانة و انتقاد حكومة غبيّة سيئة التسيير، وليست متأكّدة من مقدرتها على ابتلاع سخافة أخرى من هذا النوع الأخرق.

وسرعان ما استبعدت، وهي تعمّق النظر في الوجه الملتاع المنقبض أن تكون القضية نزوة صبيانية، ما من شعور يعتري أساريرها إلا الأسف البالغ، فهذه الفتاة لا تلغي الكلفة بين أحلامها وواقعها فحسب، بل ولا تزجّ بنفسها في أي صراع عقلانيّ طبيعيّ.

"ستتألّم يوم زواجه إن ما قُدّرت له حياة جديدة "فكرت سميحة يحرّكها إحساس بالعطف" ألما مضاعفا عن يوم مماته، وستبكي حتى تتورّم عيناها إن ظلّ قلبها العنيد معرضا عن خوض معركة النسيان".

إنّها عالمة أنه لن يكون لها يوما، ولكن هذا لن يمنعها من حبّه إلى آخر يوم في حياتها، أذعنت سميحة إلى هذه الحقيقة محبطة .فلا يخفى عليها الجانب الوفيّ فيها .لطالما اختلفت عن باقي

الفتيات على نحو جلي واسع شامل، فهي بنظامها الساذج ووفائها البهيّ لا تنضم في مجملها إلى أي صنف رديء غير ناضج؛ بل إلى صنف مميّز لا يغريه بريق الذهب، ولا قطع الغيار، ولا البيوت الفارهة.و ليست جاهلة أنّها لم تحبّه لمكانته الاجتماعية ولا لوسامته النجمية. بل أغرمت به لإنسانيته اللامعة، لمواقفه المشرّفة. وهذا بالذات ما يُعسّر أمر نسيانه و انتزاعه من قلبها الهائم .

أنّى لها أن تحبه وهي الفتاة البسيطة كلتا البساطتين، بساطة الطبقة الاجتماعية، وبساطة روحها النقيّة الخالية من الجرأة. إن المسألة شبيهة بتمني نيل القمر، أو نجم ناءٍ بعيد عنها، لن يزيد نوره المتجلّي في سماء صافية فوق رأسها إلا من عذابها، فيما تظّل طول حياتها تعتقد ببراءة ساذجة للغاية ووهم خادع، أنّه يشملها وحدها لا غيرها ببريقه المشعّ الأعزل.

وتساءلت مكتئبة وهي تختلس النظر إلى الوجه الجميل المصفرّ الذي عُني بغمّ مستطير، ونكبة نكراء عن نسبة درايتها الذاتية بكونها أشقى الفتيات وأكثرهنّ بؤسا،نعم ،أشقاهن ، لهيامها بحب رجل لن يكون لها يوما ،شقية لأنّها تهواه بلا أمل في فضاء رحب واسع يستحيل فيه التحام الأرض مع السماء.

أرهقتها سذاجة الفتاة المخلدة إلى الصمت، مشبكة اليدين، هذه التي يبلغ حبّه في قلبها أنّه لا يستطيع إلا جرّها إليه مسلوبة الإرادة. لقد لجأت إلى مؤازرة رغبتها بعد تصويتها دون تفكير على خسارتها، ضاربة عرض الحائط كل المبادئ الجبّارة التي جبلت عليها، ليس من تعليل إلا وجود قوة بارعة تتحكّم فيها. لغاية أبعد من مجرّد نيل حبيب بين أنياب الموت، إنّها عدم نيله مطلقا سواء حيّا أو ميتا، وليس أسخف من الركض وراء حلم مستحيل إلا إعطاؤه منحة نهاية الخدمة مسبقا.

لسان الحال يقول إنّها تبذر في أرض قاحلة، أو تسكب ماء في رمل جافّ. ما أسوأ طالع من يحظى بقلب يدبّر له مكيدة شريرة كهذه، دون أن يهتز له وجدان، أو يصرّح صادقا بتوقيعه وثيقة رهنه كليا لأيّام كادحة دون أجر، تكدح من أجل حب هو أخدع من السراب. رَهَنَه لأنفاق من الليالي الساهدة لا ينتهي منها إلا كما تنتهي فراشة تهيم بحب النور. فلتخسأ هذه القلوب التي لو كان فيها خيرا لما ظلمت أصحابها بهذا السراب الواهم والعذاب الكئيب،هناك فرق بسيط بين أن تفقأ عينيك بيديك، وأن تحرق نفسك بقلبك البليد إن لم يحدوك التفكير إلى الجزم من تطابقها منطقا وطابعا.

وعلى نحو مفاجئ تذكرت بشيء من القلق ملاحظة أمها بخصوص إعادتها إلى المنزل قبل الساعة السابعة، ثم دمدمت بين أسنانها "إن لم أعد بها قبل تلك الساعة، ستغضب كثيرا ،و قد تقوم بإجراءات حازمة لمنع لقاءاتنا ،و هي من التسلط بحيث تستطيع إقرار ذلك ،و ألقت بالفكرة بعيدا ثم هجست :

" ليتني أحظى برفقة ممتعة إلى أن نبلغ العاصمة "

وسرعان ما حظيت برفقة، وأسرع من ذلك نفرت منها، ووجدت أنّها رفقة خليعة بغيضة، وهجرت رغبتها المستميتة في حصولها عليها، هجرتها بعد فوات الأوان. كانت امرأة في حوالي الأربعين من عمرها أو أقلّ من ذلك انضمت إلى الحافلة وجلست قبالتها، كانت امرأة بدينة، ذات صدر ناهد، متجمّع في كتلة واحدة، يبدو كضرع بقرة حلوب، ووجه لحيم أبيض ينّم عن عدم مبالاة، وكانت عيناها واسعتين تشيان بغطرسة ظاهرة، أما شعرها الكستنائي فإنه مرتّب، وثيابها إن دلّت على شيء فإنّها تدلّ على ذوق رفيع وسعة في المال، ومن تقاطيع وجهها كان يفيض انكسار متحفّز، يُطالع من نظرة حاذقة كاشفة. ورغم تصوّرها أنّها نفرت من المرأة من الوهلة الأولى، فهي لم تتحقّق من ذلك إلا عندما شرعت في الحديث .

_"أيتها الصفراء "أنشأت المرأة بصوت عميق واثق "أين تقصدان؟".

_"العاصمة "أجابت سميحة متثاقلة، منزعجةً من لقيها الجديد.

_"جيّد،أنا سأنزل في المحطة القادمة"

_"رائع "همهمت سميحة "رائع جدا "ليس ذنبها إن كانت هيئة المرأة تبعث على النفور قبل تعاطي أيّ حديث معها.

_"ماذا تعملين "استفهمت المرأة بطريقة استهلاكيّة .

_"سأفتح صالونا للتجميل الشهر المقبل" أقرّت مزهوّة، وكانت قد عقدت عزمها على مشروعها القادم، بالرغم من انعدام الاقتناع الذي لمسته في وجه كل إنسان ،يفلت لسانها أمامه بما تنوي القيام به حيث لا أحد يشجعها .أما الآن، فأحسّت أنّ الغطرسة الكامنة في وجه المرأة ينبغي أن تثوب إلى رشدها وتتواضع قليلا، إنها سيّدة أعمال رفيعة الشأن، إن استطاعت كبح لجام لسانها، وأعرضت بحذق بالغ عن ذكر قصص صغيرة طريفة عن قاعات المحاكم. والأدهى من ذلك إن صمد عقلها عن بثّ نوبات الخسارة المريرة، إن الكذب والصدق لديها سيان إذا ما تحقّز أحدهما عند الضرورة.

_"حقًا، هذا جيّد، لكن احذري أن تحرقي شعور السيّدات أو تشوهّي وجوههنّ، واحرصي على عدم طلي بشرتهن بالمساحيق الصارخة كما طليت بشرتك، لا تبدين بحالة عقلية جيدة!!"

انطلقت من السيدة ضحكة ساخرة. لم تعتد على حرمة الحافلة، فقد قطعتها في ظرف زمنيّ يقارب خمس ثوان، فيما احمرّ وجه سميحة جرّاء ضيق حبيس، واستضحكت بدورها ضحكة صفراء . ثم ردت عليها بثقة،محافظة على أعصابها هادئة .

_"أنا لا أريد أن أناقش امرأة غريبة في شؤوني الخاصة، و لكن كوني على يقين أن النجاح سيكون حليفي كما هو دائما" .

تباهت كاذبة،وليس من أحد تحت سقف الحافلة يعلم سر خسارتها ذائعة الصيت، إلا أثيل غير أنّها كانت في دنيا أخرى، منتكسة العزيمة،خائرة المشاعر. كانت قد انتهت منذ قليل من سفح بعض الدموع، وكانت سميحة قد بدأت في حيرة جديدة "كيف يسع فتاة أن تبكي على رجل لا يتبادلان المعرفة. إن هذا غريب.لن أبكي مطلقا على رجل لا أعرفه، إنّها لا تكتفي بعدم معرفته فحسب، بل وتحبه أيضا وتبكي عليه، يا للدعابة السخيفة، يا الله ارحم عقلي، فلا أصعب من فقده،إلا فقد الأحباء"

_" ليتني أحوز ثقتك،هل هذه الفتاة ابنتك؟"

_"لا، لست متقدمة في السن كثيرا لتكون ابنتي،إنها ابنة أختي"

_"لا تبدو على ما يرام،هل هي مريضة؟"

_"لا "نفت بعبوس "ليست مريضة، تعاني من بعض الإرهاق،كما أنّها لا تحب الثرثرة"

_"تبدو بمنتهى البراءة، ما أجملها!! ليحمها الله دائما ".

_" وأنت ماذا تعملين؟"سألت سميحة بتهكّم رغبة منها في معادلة النتيجة .

_"لست أعمل الآن شيء، حصلت على التقاعد، لكنّني كنت أعمل عملا لا يستحبه الناس، ذاك النوع من العمل".

ظنّت سميحة أنها تتحدّث عن قيادة الشاحنات من النوع الثقيل لمسافات طويلة، أو أنّها كانت تتعاطى عملا غير نسويّ، بيد أن الصدمة خنقت صوتها عندما صرّحت المرأة بجرأة عن طبيعة عملها،كأنها كانت وزيرة.

_"كنت أعمل في أحد بيوت البغاء،نعم لا تصفرّي هكذا،إنّنا لا نعرف بعضنا على أيّة حال ،لا تخافي ،لن أزورك في المنزل لأدنّسه،سيبقى بيتك نظيفا".

وحتى أثيل استدعت وعيها الشارد في جميع الاتجاهات عندما طرقت العبارة مسامعها، فالتفتت بخفّة إلى المرأة و نظرت إليها نظرات خاطفة يطفو منها سيل من الاستغراب، و قبل أن يتلاشى الدم من وجنتيها، استدارت بوجه مرتعش تتفقّد تعابير المحيطين بها، و لم تدلّ على التقاط مسامعهم شيئا،إذ أن همهمة مرتفعة كانت تسري بين الركاب أذابت كلماتها فأشاحت بوجهها تستمع على مضض.

_"ااااه ما هذا الفسق "تأوهت سميحة جزعة "هل يُسمّى هذا عملا، وحصلت على التقاعد أيضا!!!! ليلعن الله العاهرات، إنّ لهن وجوها صدئة كالقصدير" .

_" وضحي لي "استطردت المرأة بصوت هامس تشوبه بعض المرارة "ما الفرق بين أن تسلّمي جسدك للرجل باسم الحب، وتبيعيه جسدك بغرض الحصول على المال، إن كليهما سيان عندي، على أن الناس يطلقون على الأولى اسم الغبية والثانية عاهرة، اشرحي لي الفرق، الحب يصنع الغبيات والفقر يصنع العاهرات وفي الحالتين لن تعودي نظيفة والنظافة أمر مهمّ لتتزّوجي. وإن كانت على نظرة الرجل لك، فهو في الحالة الثانية يحتقرك احتقارا شنيعا لأنه دفع ثمنك، وتعرفين أن الرجال يبجّلون الأشياء التي يدفعون مقابلها ما عدا أجساد النساء، لأنّها كائن مثلهم يحسّ إذا ما شتمته وقمت بتحقيره، لذلك هم يجدون عزاء مريحا في ذلك لتعويض خسائرهم المادية بالإضافة إلى تذوّقهم طعم السلطة، ليشعروا بكبريائهم المجنونة تمارسها . على أن الأحمق المغرور لا يدري أنه لن يستطيع جرح الموضع مرتين وقتل الميّت مرتين. أما في الحالة الأولى؛ فهو يعلم يقينا أن نظرة الاحتقار ستقتلك وتحطّم روحك".

لم تكن المرأة تتحدث لهدف معين، ولا حتى للتبرير أو الافتخار بماضيها الكسيح، بل بدت كأنها تستلهم من العدم عدما آخر، كان الكلام يخفّف عنها، كأنّه دموع محبوسة أبت أن تنبجس، وعندما تُحبس الدموع تتفاقم الآلام.

-"ولذلك لن يتوانى عن قتلك. لأنه يعتبر نفسه شهما بقراره الزواج بك، و إصلاح ما أفسده غباؤك، يعتقد أنه يقوم خطأك الغبيّ لا خطؤه هو. أفضّل على أيّة حال عدم رؤية وجه الرجل الذي ضاجعته مرة أخرى. أترين؟أيتها السيّدة، إننا نحن العاهرات محظوظات. وموطن حظنا استحالة زواجنا من ذاك الرجل، وهكذا نتحاشى تلك النظرة البغيضة المتقزّزة التي تتكرّر بصفة يومية، أحتار إذا كيف تعتقد الغبيّة أنها أحسن حالا من العاهرة. لقد قابلت منذ قليل فتاة تعرف ماضي كاملا، كانت تتوّسل الرجل الذي قتل شرفها التزّوج بها، و إلا فهي ستضيع و تهوي في درك الفضيحة، وفي نفس الوقت كانت ترمقني بنظرات تشي بالاشمئزاز والتحقير "وابتسمت ابتسامة حملت طابع الغيظ و حاولت تغليفها بالسخريّة

_"أنا على الأقلّ لم أكن أتوّسل الرجل قبل مغادرته سريري ليتزّوجني، وأرضى بدون اكتراث إلقاءه علي نظرته العفنة أكثر منه "أضافت بصراحة اعتبرتها سميحة إجهارا وقحا بالفجور "المهمّ أن يدفع لي، أريد أن يجيبني إنسان ما؟" قالت بإلحاح و تصميم "لماذا تعتقد الغبيّات أنهنّ أشرف من العاهرات؟ من الممكن أن لا تحظى الغبيّة بالزواج أبدا، بينما تحظى العاهرة على الأقلّ بدراهمها . ثمّ ما الفرق بين أن يحدث الأمر مرة أو ألف مرة، طالما المرارة تستنسخ نفسها كل يوم حتى و لو لم تعيدي الكرة ".

صُعق وجه سميحة كمن تلقّى صعقة كهربائية، وهي التي لم تحرم من الحديث الممتع فحسب، بل حظيت بأكثر الأحاديث مجونا "ماذا تحاول أن تثبت هذه الداعرة "إنها تفضّل هراء أثيل الساذج ألف مرة.

وإن كان لا بد لأثيل الشعور بشيء حيال قصّة المرأة، فإنها اختارت إنصافها والتعاطف مع غصّتها المحجوبة؛ لأنّ الكلمات المتدفقة منها كانت تنم عن حُرقة داخلية لا تنطفيء جرّاء الأحكام البشرية السطحيّة، وتعلّقت أذناها بالقصّة فأرهفت السمع شاعرة بألمها، هي مرآتها التي ترى من خلالها ماضيها الأسود و تعطيها لمحة عن مستقبلها عندما يعلم الناس.

_"حسنا يمكن للمرأة أن تصبر على ألم الحبّ، فلا تسلّم نفسها للرجل، ولكن هل تصبر على ألم البؤس والحاجة و الجوع فتتورّع عن ذلك؟ هل كان لي الحقّ في الاختيار،أعزو أخطائي إلى انعدام الخيارات "

اتّسعت مقلتاها استجابة لاكتشاف مذهل

_"فالنتيجة أن من تسلّم نفسها لأجل الحبّ هي العاهرة، لامتلاكها خيارات واسعة، كالصبر، كالنسيان، كتحمل الألم النفسيّ المترتّب عن الفراق أو ضغط الرجل اللعوب على معاشرتها معاشرة الأزواج منوّما إياها بالأحلام الورديّة، لم تكن لتموت جوعا إذا تخلّى عنها الرجل الذي تحبّه.أما أنا فلا،لم أكن إلا شقيّة بائسة، معدمة الحيلة، مسدودة الطرق، عاجزةً عن الاحتفاظ بشرفي عفيفا، أخبرني بصدق، هل كنت لأسلك هذا الطريق في حال وجدت طريقا أفضل، هل في رأي الآخرين البصقُ، والمعاملة الفظّة و الروائح الكريهة أفضل؟.لا،إنّهم يجهلون أسبابي، ولكنّهم كانوا دائما يسارعون إلى إصدار الأحكام و لفّ حبل النبذ حول رقبتي، لست أتعشّم مغفرتهم، بل مغفرة الله، لأنّه يعرف ويريد أن يعرف ويريد أن يغفر. أمّا البشر؛ فإنهم لا يعلمون ولا يريدون أن يعلموا، وليسوا بقلوبهم الضيّقة السوداء أهلا لأن يغفروا، ولست أتسوّل غفرانهم، فلينشدوه لخطاياهم،التي يخفونها عن الأعين"

صمتت لبرهة تنتظر دعما، على أنّها لم تحظ بأكثر من وجه مبهم التعبير، ونظرة مندهلة فأردفت

_"ما كانت حاجتي إلى الطهارة طالما أنا جائعة و مريضة؟ إن الذين يملكون ما يأكلون وأصحاب البطون المتخمة يحسنون القول و يسهل عليهم إيجاد المخارج الوهميّة، والقول هذا يجوز، وهذا لا: كان الأفضل لك الموت جوعا على بيع جسدك. ما أسهل أن تلوي لسانك داخل فمك وتنتج الكلام، طالما هم ليسوا أنا، فهم لم يجوعوا، لم يطرق صاحب المنزل بابهم متوعّدا موبخا كل شهر طلبا للأجرة اللعينة، وإن لم يستلمها هدّد بالطرد، ثم يصفكِ بأشنع الألفاظ بسبب عدم تأمين

المال، حتى ذاك إن ما عدمت المال، لم يكن يمانع أن أدفع له بالطريقة التي أجيدها، أدفع له بجسدي. لقد كان ذلك يبعده عن الباب على الأقلّ، و يوقفه عن النباح مثل كلب مسعور. و في فترة ما، أضحى يفضّل طريقتي تلك على المال "وسخطت عليه و على العالم "لماذا لا يسمّى عاهرا؟ لا "واستخدمت سبابتها لزجر منطق البشر" إنه رجل، شأنه كأبي السكّير، الذي أهملني أنا وأمي المريضة وإخوتي الصغار، لا أحد يسمّيه عاهرا، رغم أنه صنع عاهرة موهوبة، حتى ذاك شرب خمرا من جسدي، كنت أعطيه المال تجنّبا لضربه القاسي،أ ترين؟ حتى هذه الأشياء البسيطة يجب أن تدفعي ثمنها، لتُخرسي فمًا حقيرا، و تَكبحي يدا طاغية، عليك أن تدفعي.".

حشدت جملتها الأخيرة بحقد دفين، محاولة تصوير حجم الظلم و الأذى الذي خلقه والدها "تدفعي ثمن أن يترنّح حتى يسقط على الأرض و يحضره أحد المتطوعين إلى البيت، ذاك أيضا دفعته من جسدي. كان عاهرا لأنه زفّني كعاهرة إلى بيت البغاء. لا لرجل واحد؛ بل لعدد لا يحصى من الرجال، كانوا مقرفين، روائحهم كريهة، وأفواههم قبيحة ،معظمهم متزوجون. و الأسوأ إرغامك على سماع أحاديثه عن عائلته الجميلة. مقدار حبّه لابنته الصغيرة، ودخول ابنه الكبير إلى الجامعة، نزهه مع زوجته طوال اليوم، أما أنا فما إن ينتهي مني حتى يبصق في فمي ليزيد من بؤسي، الوغد يظنّ أنّني أتعاطى اللذّة، في حين لم أتعاطى إلا الفاحشة".

وأخرجت قارورة ماء بفعل جفاف حلقها من تدفّق الكلمات المكتومة، وشربت حتى ارتوت ثم استأنفت دون أن تأبه، وقد نضجت المرارة في صوتها.

_"لم أدع أبي يعلم عملي كعاهرة. كان يراوده اعتقاد نزيه بممارستي عملا شريفا. لقد مات دون أن يدري، وهذا ما يحزّ في نفسي ويرمض فؤادي هذا هو الذنب الذي لا أغفره لنفسي. ما أشد حمقي لافتراضي أن سكّيرا بائسا يُجلس الشرف على كرسيّ العرش أو يحتل المقام الأول عنده .ذاك الذي وضع عقله في مكان مكافئ مع كأس الخمرة، لكنّه رجل أيضا، قبل أن يترشّح ليصبح سكّيرا. لا بد أنه كان يولي اهتماما عفيفا عندما يكون يقظا، ولا أستطيع إبداء نفس الرأي وهو مخمور، لماذا لم أكشف له عن حقيقة عملي عندما كان متيقّظا؟" عبّرت كأنها تجري نقاشا مع نفسها "كنت سأقتله للحظات .حتى لو ضربني، هل كنت لأبالي؟ لا،مطلقا،لا يمكن أن تؤذي ميتا إذا ما ضربته. تمنيت لو عذبته بهذه المعرفة الوضيعة حتى يضرب رأسه بالحائط ندما ويبكي بمرارة، كانت دمعة واحدة من عينيه كفيلة لتغسل غيظي و تعوض خسارتي، أتراه ظنّ أنه نظيف طالما ليس لديه شرف يبيعه؟. لماذا لم يطلقوا على أبي اسم عاهر أيضا؟"سألت مجدّدا، لأنها تعرف استحالة ذلك "ما من عدالة في الحياة، ثم تعالي أحدثك عن الورع يا سيّدتي، يحلوا لهم تلقينك دروسا عنه كلّما التقيت بهم، أو يلمحون في حال لم يمنحوا فرصة للتعبير. ولكن إن أجرمت وحاولت أن تكوني فتاة

صالحة أو قررت التوبة والانخراط في حملة الورع التقيّة لا يسمحون لك؟ أيّ تناقض خبيث هو هذا؟ كل نظرة منهم تذكرك بأنّك وسخة وسخا لا سبيل إلى تنظيفه. ومن هذا المنطلق استنتجت أن الورع ما هو إلا منهج حقير يسلكونه ليزيدوا عذابك. لن يسمح لك الناس بالنظافة مطلقا، لا بد أنك فهمت ما أعنيه، كنت أريد أن أتوب، على أن الباب كان يفتح لإسداء المواعظ عن الشرف فقط ،و ليس لتمرّي منه نحو التوبة،لاستحالة سماحهم لك بذلك. هم بسلوكهم المحقّر من يدفعونك للعودة إلى الوكر الذي خرجت منه آملة في حياة كريمة. لقد أقسموا أن عدد العاهرات سيظلّ نفسه و لن تنقص منه واحدة، يريدون أن يظلّ شرفهم مترفّع وشرفك دنيء ليشعروا بالأفضلية و الطهر الطبقيّ، هل تدركين الآن، لا يمكن أن تظلّ الفتاة شريفة وهي فقيرة فقرا شديدا يعوزه حتى قطعة الخبز اليابس و الجورب المثقوب ليكون فقرا معتدلا ، هذا مستحيل، اسمعي لقد راودتني فكرة الآن "وابتسمت ابتسامة زاهية رغم الحزن المنبثق من عينيها "أنا أغفر لنفسي لعدم إخبار أبي. لست أهلا لأن أحكم عليه، كما حكم علي غيري. فلا بد أن ذات الأسباب التي دفعتني إلى البغاء دفعته إلى الحانات، إن الأرجل لا تقصد تلك الأماكن دون سبب، هناك ما يدفعها والنتيجة واحدة، تدمير للروح الإنسانيّة، لقد تحطم هو أيضا، أحمد الله أنني لم أخبره، لا يتعدّ أن يكون شّقيّا مثلي، فلماذا ألومه؟ لماذا أعذبه؟ ليرحمه الله، على الأقلّ مات معتقدا بالنظافة، بينما قذارتي أنا ستظلّ مثل المتلازمة، لن تنظف مطلقا، لكنه البؤس إنه أسوأ كابوس أسود، ماذا كنت لأكون غير فتاة الهوى، هذه الكلمة تهزّ أعصابي هزّا عنيفا، ليتهم يجدون مصطلحات أحسن "و تنهّدت

ما كانت العاطفة فائقة الحساسية عند الفتاة مثلومة الفؤاد إلا أن تدفعها إلى التعاطف، هما قادمتان من ذات البئر، كلتاهما جلّادتان وضحيتان في الوقت ذاته، كلتاهما بريئتان ومذنبتان، كلتاهما كافأتا العلّة ببيع جسديهما، إنها تفهمها، وإن ما عجز إنسان عن فهم دوافعها فهي دون سواها تمنحها فهمها ومواساتها. ولكنها أخفت وجهها عن نظر المرأة، فيما تحرّقت يداها لتقبضا بهناء على يديها ثم تدفئ قلبها البارد، ونالت منها الرزانة فنبذت الفكرة وطردتها بعيدا، وبحثت في عقلها عن شيء تقوله،على أن الخيبة واجهتها بالجفاء فصمتت.

وأردفت السيّدة كلامها، كان جرحها العميق الصامت ينطق قبل كلماتها وكأنّ في الكلمات مسطور عذابها

_"لم أكن متعلّمة فألتمس وظيفة محترمة"فكرت أثيل بسخف هذه النظرية،هل فك التعليم لغز مأزقها؟ " لم تلقني أمي التي منذ وعيت على الدنيا وهي مريضة أيا من أشغال اليد التي تمنّ علي ببديل جيد عن الانحراف، ماذا كان يسعني أن أفعل غير ذلك؟ الناس يفترضون أنني ذهبت إلى

هناك وعدد الخيارات بقدر عدد أصابع يدي، كنت أتألم إن كانوا يجهلون، ويتمزّق قلبي،إننا نملك قلوبا أيضا،فيما يعتقدون أننا بدونها، يلوموننا لأننا لا نتفقّد ضمائرنا، وأنّى للعاهرة بالضمير؟ ألا إنها طرفة بديعة، أليس كذلك؟،عاهرة تملك ضميرا" وابتسمت ابتسامة ساخرة "إني أملك واحدا، ولم يكن يصمت أبدا، بيد أنني كنت أخرسه بطريقتي، عندما أُذكّره أن الضمير والبؤس لا يلتقيان، وكان يهدأ مطمئنا هانئ البال عندما أوضّح له أنني لا أسبّب الألم لغير نفسي، لقد كان هذا يرضيه على نحو مبهم ، حتى ضميري كان عدوي، كان يرتاح على وسادة مخمليّة عندما يعرف أنني أتألم، أما فكرة عذاب الآخرين تجعله يثور كثور هائج،هذا ما يؤرقه، لا يهنأ إلا عندما يراني أبكي. وأنا لا أبكي إلا لجعله مرتاحا.حتى أثبت له أنني أتعذّب وعذابي مقتصر على نفسي ولا يطال أحد فيؤذيه، الحقير،يتهّمني أحيانا بإفساد المجتمع، وغفل عن الشناعة التي ارتكبها المجتمع في حقي، ثار مرة ينتقدني بعنف لمساهمة يدي الخليعة في تخريب بيوت الناس الأتقياء "و قهقهت كأنّها مجنونة غير أن الضحكات كانت وجعها المخزّن" هل أرغمت الرجل التقيّ على معاشرتي.لا،إنه من يأتي إلي برجليه و مشاكله ومجونه، ما ذنبي أنا، إن كان ليس سعيدا مع زوجته كما يدعّي،كانوا يدعّون فقط، يريدون كل شيء، قتلهم الملل و كثرة المال فلم يدروا كيف ينفقونه،ما ذنبي أخبريني، أنت أيتها الفتاة، أخبريني "

غير أن أثيل عجزت عن الالتفات إليها، بل وأبعدت وجهها عن ناظريها تجنبا للنظر المباشر في عينيها. كانتا تتشاركان لمعة الجحيم ذاتها المنعكسة لجوف مدحور و قلب جريح "حسنا، لا أحد يلوم الرجل، المسكين إنه ضعيف أمام المرأة ،أليس كذلك،ولا يستطيع التحكّم بشهواته الماجنة. ولهذا أنا من ينبغي أن تلام على أفعاله، و لهذا كان ضميري البائس يصرخ. إنه يعمل عملا إضافيّا وينوب عن ضمائر الآخرين الميته، ما أوقحه!!،ما أشدّ خسته!! ليس مستعدا للنواح على مصائبي، بينما يكون هانئا متلهفا لإلقاء الملامة علي "وتجرّعت ماءً من القارورة موجّهة بصرها إلى خارج النافذة وقد لمعت في عقلها نقطة أخرى، نقطة مهمة كانت قد غفلت عن سردها.

_"لم أخبركما عن قصة توبتي بعد، أقصد اعتزامي التوبة، وما عتمت أن عدت أدراجي قبل أن تُتمّ بدعتي الواهنة شهامتها "واكتسى فمها بابتسامة قصيرة "عندما أحببت رجلا شريفا، انتبها قلت شريفا، فمن غير اللائق أن أحبّ رجلا عاهرا ضاجعني و احتقرني عندما فرغ مني. واااه عندما تقع حشرة مقيتة في حب الزهرة، الأمر لم يزد عن كونه مغامرة جريئة بروح مشوهة، حدث ذلك عندما ذهبت لشراء قماش أخيطه فستانا، كان شابّا يافعا ذا عينين زرقاوين و لحية كثيفة سوداء و بشرة بيضاء، وطول فارع، لم أكن حمقاء فأحب رجلا لصفاته الجسدية، ولكن لأول مرة في حياتي عاملني صنف من البشر بطريقة لطيفة، كان عذبا وديعا وسرق قلبي، هل رأيتما، إن لي قلبا ينبض

في صدري و إلى جانب الوظيفة الجسديّة يستطيع أن يحبّ بلهفة. عندها جمعت رأيي، أقصد عندما وقعت في حبّه، رغبت أن أكون نظيفة لأجله، كرهت أن أكون ملوّثة، كم كنت غبيّة؟"

تلفّظتها بحرقة وتلألأت الدموع في عينيها، وتردّى وجهها في سحنة مفؤودة، حرّضت الحزن في قلب سميحة. أما أثيل؛ فإنّها قد استسلمت للحزن منذ بداية القصة

_"هل يرضى رجل مثله بالزواج من فتاة مثلي؟اسمعي،كنت شجاعة جدا رغم كوني غبيّة، نبذت الفكرة قبل غزوها رأسي و إطباقها الحصار علي كيلا يزيد شقائي، ولكنها سيطرت علي، الحب معتوه، و القلب ظالم، كان يحرّضني على بدعة خطيرة، لقد أفسد عقلي وأعاقني عن عملي المعتاد حتى غدوت أطلب التوبة و تمنيت القمر، ولم يحملني المنطق على الاعتقاد أنني بلهاء، بل انصرف و تركني لشأني، أتعرفين ما فعلت؟ذهبت إليه و اعترفت له أنني أحبّه، و يا ليت الموت طرق بابي قبل أن أفعلها، لقد كان عالما بانتمائي إلى ذاك الصنف الرديء،عديم الشرف،كان يعلم، لم أحزن لمعرفته لقد قطع نصف الطريق علي. بل قال أن أقصى ما يسعه هو الإشفاق على عاهرة، لكن ليس الزواج منها. وعاد المنطق بعد نزهة قصيرة يتبجّح أمامي، مدّعيا محاولته المشرّفة لإيقاظي من أحلامي. وما انتزع منه التمرّس في إبلاغ الرسالة هو التخدّر جرّاء أحلام النهار وسلطة القلب القمعيّة، إنه سافل تماما كضميري. كل ما هو ذكر يعتبر سافلا لعينا، كوني على يقين من هذا. فعلت بعض الأشياء الغبية أيضا، قد تطلقين عليها اسم السذاجة البلهاء، سأعترف ببعضها إن كنت تسمحين" بدا أنّها تسخر من نفسها أو تعاقبها بفضحها أكثر، يحتار المرء في الهدف من تشهيرها بنفسها، ربما هو الألم القوي. لا تزال تتذكّر ذاك الشابّ، لا تزال تحبّه، ذكراه تؤلمها، تعجز عن نسيانه، تعجز عن ابتلاع ذاك الألم والرفض، ليست تستطيع العيش مع هذا العذاب جنبا لجنب،إنه ينتصر عليها،ذاكرتها قوية، إنها شّقيّة مثل جميع أصحاب الذاكرة القويّة .

"اشتريت له ورودا ذات مرة، لا بد أنه ضحك علي، وكنت أزوره أيضا وأبكي لمرضه،ألم أكن خرقاء"ما من شك أنها تشعر بالحرج من نفسها والغباء غير المحدود للتجرؤ على حب رجل شريف، لكن العجوز راضية قالت أن هناك استثناءات، لم يشملها العفو الذكوريّ للأسف ،لأن الرجل لم يكن يحبّها و إلا لغفر لها، هذا ما دافعت عنه راضية في بيتها "اضحكي إن شئت، اضحكي، ولكنني كنت مستعدة للموت في سبيله "و تنهدت ملء رئتيها، مريحة نفسها من هم أغمها طويلا.

_"هناك نوع من الحبّ يجب دفنه قبل أن يغدو بلاءً، لا ،لا يتعدى كونه جالبا للقهر، وَجب التخلص منه قبل أن يجهز علينا، قبل أن يحولنا إلى مجرّد أرواح جوفاء، أرواح حيّة على قيد الموت. فقدت كل حق في الحب، ولكن قلبي تمرّد علي وأحبّ و أغراني بالأحلام الورديّة. ثوب زفاف أبيض، أغراني بالزواج و العائلة و أطفال بعيون زرقاء، وثمن الأحلام باهظ جدا "و بنظرة نادمة

نظرت خارج النافذة "يا ليتني كنت غير التي كنت عليها، يا ليتني لم أرتكب ذلك، يا ليتني أستطيع العودة إلى الوراء لأصحح المسار، ولكن يا ليت لا تنفع، كل ما ينفعني الآن هو طلب التوبة، إنني أصلي باستمرار و أنا متيقنة أن الله سيغفر لي، لقد وعدنا بذلك أليس كذلك؟ سنموت جميعا و نقابله وأود أن أقابله و كأني لم أرتكب ذنبا"

أخرجت منديلا و جمعته في يدها لتكفكف به دمعة حارة نزلت على وجنتيها، وتوقفت الحافلة وأبلغ السائق بفظاظة المترجلين الإسراع بالنزول ووقفت المرأة لتنزل ،ثم استدارت وأضافت بصوت كئيب

_"أتعرفين ما أغلى شيء أملكه الآن، أحلام على ورق، وكل المال الذي معي لن يشتري أحلامي".

ثم ترجّلت ووضعت سميحة يدا مؤنسة على كتف أثيل، كانت كلمات المرأة تقرقع في رأسها محدثة ضجّة صاخبة في عقلها، و فيما همّت سميحة أن تخاطبها أحست بيد غليظة تضرب على كتفها

_"سيّدتي "قالت امرأة حمراء الشعر، كأنّها هيكل عظمي باسمة ،تعرض علبة مستديرة كبيرة "إنه مستحضر لترطيب الشعر الأجعد، إنه قادر على تثبيط أشواك القنفذ في ستة أيّام،هل تشترين؟ "

_"لو كان مفيدا"قالت سميحة بفظاظة" لنجح مع شعرك، إنه خشن كالديس، اعملي معروفا لشعرك واشتريه له،أشكّ أن أحسن المستحضرات ستنجح في تأديبه في مدة أقل من عشر سنوات".

الفصل التاسع

لاحظت أثيل باضطراب محموم أن المشفى كان يغصّ بعدد مهوّل من المرضى شاحبي الوجوه،متعبي الهيئة والجرحى مضمّدي الأذرع والأرجل،بعضهم ملطّخو الوجوه بالدم ،ومرافيقهم بوجوههم المتشنجة وعددا كبير من سيّارات الإسعاف، وأكثر منهم عمّال المشفى. وقفت موقف المذهول من هذا الازدحام المروّع غير المعهود. لم يتّفق لها في حياتها أن رأت هذا الحشد الضخم من البشر مجتمعين في مكان وآن واحد، كأن النّاس أصيبوا بالمرض جميعا دفعة واحدة .

لقد اعتادت على تفقد شقيقتها ياسمين و بعض العجائز الهرمات ممن تقوم بواجب رعايتهنّ عندما ينقضّ عليهنّ المرض على حين غرّة ، مما يترتّب عليه إقامتهن القصيرة على أسرّة المرض في المشفى الصغير المنتصب بآخر المدينة، و الذي لم تتوسّم فيه إلا الهدوء و التنظيم ،حتى أن العجائز كثيرا ما قالوا أن المشفى أكثر هدوء من محل إقامتهن ،أما هذا المكان فيبدو مثل مشفى تابع لجيش يخوض حربا ضروس.

كان يتميّز بالحركة السريعة في كل النواحي، لا سيما الأطباء و الممرّضين ببدلاتهم البيضاء والزرقاء و الخضراء، يهرعون مهرولين يستحوذ عليهم التّوتّر المضبوط في جميع الاتجاهات بأياد فارغة، أو يدفعون الكراسي المتحركة، و أيادٍ تقبض على أياد هزيلة واهنة شاحبة، و رأت جميع أصناف الوجوه الشاحبة والغاضبة والمتكدّرة. أما تلك الباسمة؛ فتكاد تكون منعدمة باستثناء بعض الممرضات ممن تتغلّب طبيعتهنّ المرحة على بؤس المشفى بكدره الكئيب.

وتناهى إلى مسامعها صوت أنين قاصف يخلع القلب و يثير الشفقة تطغى عليه أو تمتزج به أصوات شجارات حامية، وضجيج أصوات أخرى يعلو وينخفض، واللغط المبهم والجلبة الصاخبة، وصدح وسط الضوضاء العارمة نغمات متبرمة ، غاضبة من سوء الخدمات صدرت عن مرافقي المرضى. ممن اجتاحهم الخوف والذعر على ذويهم فراحوا ينفّسون عن هلعهم بالصراخ والتنديد، و يرافق ذلك حركات عصبيّة من أياديهم فيما يحاول الموّظف التهدئة من روعهم بطريقة لبقة "إنني أحسّ بألمك،و لكن الصراخ لا يجدي نفعا، إننا نبذل جهدنا "أو أخرى صارمة غير لبقة تفتقر إلى الاحترام و الشعور بالمؤازرة "كفّ عن الصراخ لست في الشارع "..التزموا الهدوء،هناك مرضى يحتاجون إلى الراحة". وما لم يضبط المرافق سلوكه فإن استدعاء الأمن يصبح ضرورة ملحة .

مما هو مسلم به أن المَشافي تعاني ندرة الموّاد الطبيّة، وقلّة أجهزة الكشف أو تعرّضها للعطل طيلة الوقت، غير أنّ المسؤول عن هذه المحن الملعلعة يكون بعيدا مسافات طويلة، ربما في عطلة صيفيّة ممتعة على أحد الجزر، أو الشواطئ الدافئة، ينعم بوقت لطيف، ولا يواجه الملامة أو

يتعرّض للنقد اللاذع، ويعوّضه في تحمّل الواجب الشاق عامل هزيل عديم الحيلة براتب أكثر مرضا من المريض البائس، ذاك من يُنصّبه حظّه العاثر في فوهة المدفع ليتلقّى قانعا ما تقذف به الأفواه المنددة.

وكان لهذا المشهد أثر مهوّل في نفس أثيل، فأحسّت أن قلبها ينقبض و عاطفتها تهيّج كمدا وراحت أنفاسها تهدج و عقلها يصخب بالأفكار المتهالكة، يتملّكها فزع عظيم كلّما راودتها خاطرة موته، كانت روحها تحترق بجحيم خرافي، وكلّما حاولت التملّص من هذا الشعور ، إذ بإحدى الصور المشوّهة أمامها تغرزه فيها أكثر، هناك عدد كاف من الأسباب التي تدفعها إلى الكآبة، و ليست بحاجة إلى أخرى تقوّض فوادها أعمق من هذا.

وهاهما واقفتان حائرتان في المدخل تتجوّلان بناظريهما دون تحديد ما ينبغي فعله،تكتفيان بتأمل الوجوه التي تمر إزاءهما دون أن تقولا شيئا لبعضهما،غير عالمتين بخطوتهما القادمة ،أتذهبان يمينا أو يسارا !! على أن سميحة لم تكن قد قررت التوقف عن التعجب من نفسها "من أجل ماذا هي هنا ،كيف سمحت أن تساس من قبل نزوة حب تافهة ،إنها تفعل أمورا كثيرة لا يفعلها الناس الطبيعيون لكنها لم تتخيل يوما أن تفعل ما تفعله الآن :تقف حائرة وسط حشد من الناس المبلبلين، لتلتقط شخصا ما تسأله عن الصحفي الذي تعرض لحادث ،كيف تبرر لهم هذا السؤال !!! ليس بمقدورها طبعا قول الحقيقية المتمثلة في أن صديقتها الرائعة لم تستطع أن تحصل على مستجدات عنه فقررت من شده قلقها أن تقطع هذه المسافة الطويلة لتحصل عليها و أنها ميتة من فزعها عليه ،و التفسير هيامها بمواقفه و مقالاته و به شخصيا، لكنها تستطيع أن تثير سخريتهم من سذاجتها التي كسذاجة القرويات بكيفية بسيطة ألا و هي السؤال عنه بصفتها مواطنا صالحا و مخلصا جاء يستفسر عن صحة مواطن مخلص آخر يفضح الفساد و اللصوص بجرأة مقدامة في مقالاته البطولية ،و راح العطف الذي أبدته في الغرفة و الحافلة يستحيل امتعاضا ساخطا على نفسها و على أثيل بفعل العجز و الإعياء و عدم معرفة ما ينبغي فعله ، لماذا ،لماذا نسيت أنها تفوقها سنا !لماذا لم تحسن استعمال مدخراتها من التهكم لتسخر من عاطفتها ،لماذا لم تعترض على أهوائها و ترفع إصبع الحزم في وجهها قائلة ،لا ،يعني لا،و تصر على قولها في الغد و في جميع الأيام التي تليه ،إنها واثقة أن أثيل عندما تنساه و هذا أمر حتمي الوقوع ستصبح هذه الرحلة كلها ذكرى اسفنجية ،تشعرهما بالخجل و العار أو تهزهما من الضحك إلى حد سيلان الدموع.

ستقول حينها لأثيل "كم كنت مجنونة يا بغلة ".

وسترد أثيل مخفية وجهها بكلتا يديها و هي تكاد تموت من الضحك " لا تذكريني يا سيدة سميحة ،لكن كيف وافقتني ،لست أقل جنونا مني ".

كانت تفكر على هذا النحو و لا تعرف أيهما عليها أن تكبح،غضبها أم ضحكها الممتعض !!و لم يكن هذا ما فكرت فيه فحسب ،بل فكرت كذلك في التغيرات التي طرأت على هذه المدينة ،مدينتها التي ولدت و ترعرت فيها ،كيف أصبحت بهذا الصخب و الحركة ، وكيف تغيرت ملامح الناس التي كانت فيما مضى تتميز بالليونة و الطيبة أما الآن فلا تراود وجوههم إلا الفظاظة و الخشونة و الاحتدام ، وكانت قد توسمت هذا التغيّر المستجد بقلب خائر وروح بليدة و معنويات متهدلة.

كان الحرّ شديدا، والشمس في كبد السماء تسطع وهّاجة بأشعّتها الذهبيّة الملتهبة، والنسيم البارد يحتضر في طيّات الحرارة الحارقة، أحسّت أثيل أنه سيغمى عليها من شدّة الإرهاق؛ فقد قطعت رحلة طويلة لم تألفها، إلى جانب سيرها بخطًى وئيدة متعثّرة مسافات غير هيّنة، وأوجعت عينيها رماحُ الشمس الحادّة بينما بصرها يمتّد إلى كل الجهات. وشعرت كذلك أن الحرّ قد استبّد بها و ثيابها غدت ثقيلة جدا دبقة على جسدها.

لم تضع لقمة في فمها إلى اللحظة التي وقفت فيها في المدخل، خامدة الأعضاء، خائرة العزيمة. و غاب عن عقل سميحة التركيز في وجه الفتاة الشاحب المتعب و هي في غمرة الارتباك والوجوم .

بعد أن حرّضت عقلها على التفكير بشكل مختلف وتطهّرت من تيهانها، قبضت سميحة على فكرة خمّنت بادئ الأمر أنّها جيّدة، فتناولت يد أثيل المرتخية وجذبتها ثم مشت صوب قسم الطوارئ و تاه بصرها عن الحشد تبحث عن شخص محدّد.

ما إن خطت خطوة واحدة داخل قسم الطوارىء، حتى انكمشت فكرتها بخصوص الاستفسار من موظّف الاستقبال بسبب ما رأته .إنه رجل أيضا، و الرجال يغريهم الإطراء إذا ما زُرّر بشكل جذّاب. ولم يكن رجاء الكلمات المتملّقة يخيب مطلقا، من حيث أنها ترفعه إلى المقام الذي يأمل، محل القيمة و الأهميّة بمكانة مرموقة كطبيب جرّاح، ذاك الذي كان يشقّ طريقه بين الجمهور بخيلاء عظيمة،وهيبة مجيدة.

كان موظّف الاستقبال قد فرغ لتوه من شجار حام يصل صوته إلى آخر المدينة، فيما لا يزال الناس متحلّقين حولهما ليفضّوه بسلميّة دون خسائر جسمانيّة ضليعة.

كان رجلا طويل القامة ،خشن الطبع ذا عينين حادّتين تنطقان بالشر. وفي هذه اللحظة بالذات راح يرغي ويزبد، واندفع في سيل من الشتائم بين أسنانه المصطكة، هو ومن على شاكلته لا يتكهّن المرء بما يمكن أن يقدموا عليهم في فورة الغضب.

لقد بدا وجهه المرتعش أزرقا من العصبيّة، كان شرسا متأهبا لا شعوريا للقتال دون سلاح، لقد أفقده ذاك الشجار كل نيّة في استدعاء صوابه من حيث انفلت منه، وإن تجرّأ أحد على سؤاله سؤالا غريبا أو خارجا عن نطاق وظيفته ، يستطيع فقط أن يصرخ في الوجه ويطلق العنان للصياح و اللعنات ، هذا ما تنبّأت به حواس سميحة، التي لا تخطىء في تقدير ردّة فعل الحانقين تقديرا ممتازا قبل الاقتراب منهم. وبينما احتقن الجوّ وعلت الضوضاء،لمحت سميحة رجلا مهندما بشكل أنيق في الزاوية يراقب ساخرا، ويداه مدسوستان في جيوب سرواله الأسود العريض، ترتسم على زاوية فمه ابتسامة تشي بالاستخفاف،و استنتجت أن هذا لديه وسائط جاهزة تطمئنه و تريحه ،و لم تعرف لماذا ،لكنها بقيت تنظر إليه أكثر من دقيقة .

اتّخذتا مكانا بجانب سيّدتين في العقد الرابع تتبادلان حديثا هامسا. كانت إحداهما ذات وجهٍ مربّع منفعل كثير الحركة و الأخرى ذات عينين بنيّتين ناعستين و فم كبير.

_"اااه كم هذا مؤلم لشاب في عمره، مؤلم "قالت ذات الوجه المربّع مؤكّدة عليها، وفي صوتها مسحة من إشفاق، فاستقر وشاح القلق على وجه أثيل.

"لكم ينفطر قلبي كمدا عليه،لقد أقرّوا رأيهم و سيبترون قدمه اليمنى. ليس من سبيل آخر وإلا سيستشري المرض في كل جسده يا الله يا له من مسكين"

_"يا الله.من هذا الذي سيبترون رجله؟"تساءلت أثيل و قد تكبّد قلبها ألما ضاريا، وكانت تصيخ السمع إليهما "أيكون خليل؟!،,,,ليس هو،,,,لقد تعرّض لحادث والرجل الذي تتحسّران عليه أغلب الظن أنه مصاب بورم خبيث"

نظرت إليها سميحة؛ فوجدتها شاردة تحوم بنظرها حول الموظّف الهائج كالثور، تقلّبه عيناها تقليبا ذا نيّة محددة، وكانت سميحة قد حقنت عقلها بعقيدة أن سؤال الموظّف إثم لا يغتفر.

_"لا تقولي لي" حقنت صوتها بلهجة تهكّم " إنّك تفكّرين في ذاك الرجل. ها لقد فعلتها إذا؟ لقد عزلت نفسي عن الفكرة، هي مهلكة كما ترين هيئته الفظّة تعبّر عن نفسها راقبيه يا عزيزتي، يكاد يخلع وجهه من الغضب، انظري كيف يرتعش شدقاه، كم هو أزرق، لقد جعلوه مثل الوحش الكاسر، أراهنك أنه سيضربنا في حال تهوّرنا واقتربنا منه، سيفرمنا بأسنانه، تأمّلي كيف تصطكّ كطاحونة لحم، سينفجر مثل قنبلة يدويّة بمجرّد طرحك ذلك السؤال المسلوق، ثم سيجيب بفظاظة قاذفا بنا في بئر الفضيحة القاتمة بصوت أجشّ كصوت خوار البقرة (من تكونان، أي قرابة تجمعكما به، لماذا تسألان عنه)، سيعلم الموكب الكريم هنا أننا نسأل عن ذاك الصحفيّ الشابّ، وأيّ قرابة تجمعنا به لنستوضح بخصوص وضعه، وإن ادّعينا أننا أبناء العمّ الطيّبون، سيكتشف بخبرته المتخمة أننا لسنا كذلك، وليس من السلامة العقليّة له الاعتراف بكونك

تتعشّقينه من بعيد منذ سنوات و ترجمين حبك الطاهر في قلبك بحجارة الصبر الجميل، سيجري وراءنا بالمكنسة أو ربما يقذفنا بحذائه، الإجراء الثاني ينال حصّة الأسد، هو مختلّ العقل، يميلون إلى تسليم هذه المناصب للمختلّين عقليا، لقد تيقّنت الآن أن هناك استثناءات في المناهج التي تؤتي أكلها دائما، فهذا الصعلوك مثلا، ليس له قابلية لاستقبال الإطراء مني تحت أي ظرف، انظري، انظري، إنه متجهّم كليلة شّتويّة"

أعارت أثيل أذنا جاحدة مستنكرة لفكاهات سميحة ،وفشلت في بلع سخافاتها ، وفشلت في إزاحة الهمّ الثقيل، في الواقع ليست تفصلها عنه إلا خطوات قليلة، ولكنها تعتبر أميالا بين الهند وافريقيا، في مثل وضعها المبلّل بالإحباط.

هي لا تحفل إن أقدم ذاك المعتوه على شتمها أو ضربها، ولن تزيد على تحمّل أي شيء يصدر عنه بروح طيّبة؛ بل وستصغي بخشوع منقطع النظير. ما يهمها هو الحصول على مستجدات عن حالة خليل ، هي بحاجة ماسّة إلى من يهبها بعض هدوء الأعصاب والراحة النفسية. إن رأسها يضجّ بحركة الأفكار المتضاربة، تماما كالحركة المزدحمة من حولها، أعصابها مشدودة متوتّرة، وليس سلوكه الشرس ما يمنعها عن الإقدام بتلك الخطوة التي جلدتها سميحة ببلاغة إدراكها؛ بل وعيها التامّ بعدم استخراجها منه أكثر من السخرية اللاذعة والتشهير بها بين الجموع، وكما سبق وأشارت رفيقتها سيستفهم منها بارتياب عن الصفة التي تسأل بها.

في هذه اللحظة التعبة بلغ بها القلق مبلغا عاصفا، هذا القلق الذي لا ينفك ينهشها ، لو أن موتها يخلّصه من براثن الموت لقدّمت روحها في سبيله، ليس هذا بجنون كما سبق و أن فسّرت لنفسها، لا،إنه مجرّد شعور نبيل بريء احتلّها ذات يوم و فعل ذلك في الوقت المناسب ، أسمته إعجابا عنيفا، لقد ابتسمت عيناها يومئذ، واستسلم قلبها .ابتسمت برّقة الأطفال،و سيان لديها أتفهمت سميحة ذلك أو لم تتفهمه ،أتسميه هراء أو تسميه جنونا ،فهي ذاتها لم تفهم كيف أحبته و لا كيف أصبح أكثر شخص يهمها في الحياة ، و رغم جهودها ،لم تستطيع التوصل إلى تحليل أسباب هذا الحب العنيف ،لكنها تحبه إلى درجة أنها هنا،في مشفى تقع في مدينة ليست مدينتها ،بين حشد صاخب من الناس و المرضى،هنا ببساطة تامة و هنا لأجله هو ، و تشعر بألم مزلزل لأجله هو ، و تكاد تموت من الرعب، خوفا عليه هو ،و يعذبها انعدام الحيلة عذابا شديدا ، كان كل ما يحيط بها فراغ وضياع،و كان قلبها يخور وأعصابها تهوي، و تشعر أنها راغبة في تحرير صرخة قويّة من جوفها،و قد ينثلم صبرها في أي لحظة ، إذ بات من المشقّة إسداء النصح له بالتجمل.

وافتها فكرة مفاجئة ،وهي في غمرة اليأس والضياع، ماذا لو أرهفت السمع بكل مكان يجتمع به اثنان كما اتّفق وحدث مع السيّدتين، ربما يتطرقان إلى مسألته، ستلتقط أي خبر فهو رجل معروف و أغلب الظنّ أن نصف البلد يعرفونه، هنا بالذات لا بد أن يكون مدار حديث من أصل خمس على الأقل و سرعان ما انجزر مدّها بعد أن قلبتها في رأسها تقليبا معقولا.

و بعد دقيقة من دفن الفكرة السابقة ،و دون سابق إنذار سيطرت عليها خاطرة معتوهة، و بلمح البصر وبدون تفكير أو تحليل أو تدبّر عميق، اندفعت مخدّرة تشقّ طريقها بين الحضور نحو موظّف الاستقبال الشرس بلونه الأزرق و عيونه المحتقنة، متنكّرة لتحذير سميحة، وقد قدّرت في عقلها بسرعة نسبة لا تزيد عن واحد لامتلاكه جوابا على انشغالها، إنّها نسبة ضئيلة، و لكن قد يستخرج المرء منها معجزة كجواب شاف، وعندما أصبح يفصلها عنه ثلاث خطوات، حدث ما أعاق وضع خطّتها محلّ تنفيذ كامل؛ بل لقد أنقذها اصطدام عنيف بامرأة رجراجة الأرداف من توبيخ الموظّف. و جرّاء هذا الاصطدام سقطت المرأة على الأرض فمالت فوقها أثيل لتساعدها على الوقوف على أن هذه كانت تغلي حانقة وصاحت في وجهها.

_"ألا تنظرين أمامك! هل أنت عمياء !لماذا تركضين !هل تعتقدين نفسك في مضمار السباق؟،,ما أشدّ حمقك".

_"إننا نعتذر إليك" قالت سميحة بلهجة مهذّبة، والتي ذهبت في إثر أثيل بعد أن لمحتها تذهب في اتّجاه الرجل المتجهّم "حسنا دعيني أجمع حاجياتك".

_"لا حاجة لي بمساعدتك " زأرت بوقاحة "بمقدوري الاهتمام بشؤوني" .

_"حسنا كما تشائين "و أومأت برأسها معتذرة قبل أن تجذب أثيل من يدها وتندفع خارج قسم الطوارئ و عندما أصبحتا خارجا.حدقت فيها بعينين معاتبتين، وقد نفذ صبرها.

_"هل جننت؟،ماذا دهاك.هل كنت تعتزمين فعلا سؤال ذاك المختلّ؟ لا أكاد أفهمك، ماذا حلّ بك؟. هل أنت حقا بخير؟ لقد سبق و نبهتك أن ذاك الإجراء لا يجدي نفعا، وتلك اللئيمة صبّت كل غضبها في وجهك، ستتحمّلين المزيد من الإهانات ما لم تحكّمي عقلك. لقد حقّقت رغبتك بالمجيء إلى هنا،و لكن لا تتهوّري،لا تبكي"

خفضت من حدّة صوتها عندما تطلّعت إلى العينين المتلألئتين بدموع الإهانة،لا يمكن لومها ،لقد خاطبتها المرأة حقا بأسلوب جارح ونبرة وقحة.

_"إنني أتساءل "استغربت مقطّبة حاجبيها "ماذا يمكن أن تفعلي لأجله. لا يتجادل اثنان في أن هذا أغرب ما يمكن أن يسمعا به في حياتهما، كيف أقنعتني؟ كيف تحبينه؟ وأنت لا تعرفينه..كيف..؟!؟!"

وحصر تفكيرها بسرعة كوميض البرق،ما الذي يمكنها أن تقدم عليه في سبيله؟ إن في وسعها كأدنى درجات البذل من أجله الوقوف على قدميها الصغيرتين سنة بطولها في لهيب الشمس تعقبها بسنة أخرى تحت أمطار الخريف وقرّ الشتاء فقط لتطمئن عليه، وسرعان ما قيد بصرها مريض مقعد و عجوز تدفع الكرسي المتحرّك، فتفاقم شحوب وجهها.

_" لن تري هنا إلا هذه المناظر الموجعة، لذلك تمالكي نفسك لدي فكرة، لنجلس في الحديقة، وسأحاول تصيّد أي موظّف يعمل هنا، موظّف من شأني مداهنته لقطف الأخبار. عمّال الصحّة متكبرون كما تعلمين، وجرّهم إلى الكلام كجرّ جبل من مكانه، هل سمعت بجبل يتزحزح؟!.من المؤكّد لا، تعالي دعنا نجلس في الحديقة و نراقب "

ومشتا متقاربتين ، صامتتين بخطوات وئيدة باتّجاه الحديقة ثم استقرّتا على مقعد خشبي منخفض متآكل الأطراف تحت ظلال شجرة فنّاء باسقة ، لكنها لم تف بالغرض المطلوب، لأنّها حجبت أشعّة الشمس فيما الحرّ لاهب دائم لا يزول.

مضت الثواني والدقائق وها قد جاوزت الساعة منتصف النهار ، ولم تتصيّد سميحة أي شخص يُثري عقليهما الباهتين بأنباء، لا تستطيعان طرح ذاك السؤال على أي أحد دون أن يرافق الردّ دهشة واستغراب .

وحينما أيقنت سميحة خيبة الرجاء، وعادت كل محاولة بيدين فارغتين خاويتين قرّرت مغادرتهما خلال نصف ساعة ما لم تحظيا بالمطلوب، فجُوبهت باحتجاج فولاذي أفقدها رباطة جأشها

_"لن أتحرّك من هنا من غير الاطمئنان عليه، لن أتزحزح .أنا مستعدة للنوم تحت هذه الشجرة إن اقتضت الضرورة، نحن لا نفعل شيئا غير البقاء تحتها، كيف سنعرف إذا "صرّحت أثيل بذلك علانية أمام سميحة وهي تضرب الأرض لا شعوريا بقدميها و في عينيها وميض تصميم فائق، لقد كانت في ما مضى فتاة سهلة الانقياد، لها طواعية لينة أما الآن فإن تلك المرونة في وجهها قد نشفت، وحلّ محلّها عناد متصلب، هذا العناد الذي أعياها وأتعبها و أذاب رأسها الحاسر تحت الشمس الحارقة، و نزل عليها التصريح المتصلب كأغلال تُقيّد لسانها ،تمنعها من البوح بما يختلج في صدرها، إن لها وجهة نظر واحدة و هي الاستنكار منذ أن صدمت بمعرفة العشق الصامت الأبكم في قلب الفتاة التعسة على أنّها تكتفي كارهة بالتلميح الساخر، كان هذا التصلب مثل العقدة المحكمة في منتصف حبل طويل لن تتمكن من فكّها مهما فعلت، جاء بمثابة آخر إثبات لعشق الفتاة المتمرّد.

"إن بك لوثة "صرّحت سميحة بلهجة ضخّت فيها ما استطاعت من الرتابة والحذر"نعم إنّ بك لوثة،ماذا قلت! سننام هنا، تحت الشجرة؟ لقد ضقت ذرعا وإذ ما قلت شيئا سخيفا آخر فأقسم أنني سأباشر العويل هنا. تحت ظلال هذه الشجرة و سأخبر الجميع أنك السبب ".

_"أرجوك يا سيّدة سميحة "قالت أثيل باستعطاف و قد تجلّى في عينيها إحباط مغتمّ "لن نعدم الوسيلة، لو نتجوّل قليلا في المشفى فلا بد لنا أن نلتقط خبرا، أما ونحن جالستان هنا،سأجنّ إن فشلت في الاطمئنان عليه، لن تقرّ عيناي مطلقا إذا ما عدت دون أنباء".

_"ليس زوجك يا عزيزتي "قالت بنبرة قاسية "ليس زوجك.إنّه مجرد رجل تتوّهمين أنّك تحبّينه، وأنا كيف سايرتك" كل مرة تتحسّر على ترك نفسها تُخدع من طرف فتاة حمقاء.

_"لست واهمة، لو كنت كذلك ماذا نفعل هنا؟ "

_"نعم إنّه سؤال جيّد "قالت سميحة ضاحكة ضحكة نهاية الطريق لامرأة نفذ صبرها كليّا "إنه ممتاز في الواقع، يجب أن أصفّق لك بحرارة لطرحك هذا السؤال المهم .ماذا نفعل هنا؟. الجواب على رأس لساني؟ماذا كان؟ إنّك مجنونة وأنا مثلك، هذا هو الجواب لمثل هذه الأسئلة الفلسفية، هناك أسئلة شائكة حقا، ليس لها جواب، اسمعي يا مجنونتي،دعينا نذهب إلى البيت ولا تخافي إن حدث معه سوء، سيفد إلينا النبأ. فالأخبار السيئة تسافر على بساط الرّيح، و في حال لم تفد فهذا يعني أنه بخير،ما الجدوى من مكوثنا هنا؟!النشوى في هذا الحر !!"

_"أرجوك، لنمكث هنا يا سيدة سميحة، لنمكث فترة أطول،لكن دعينا لا نبقى مسمرتين في مكان واحد،أشعر و كأننا مسماران"ولكن رجاءها بالمكوث فترة أطول لاقى استنكارا مستعدّا للعضّ من طرف سميحة.

_"تقصدين لنشو مدّة أطول.أريد نزع ملابسي و البقاء دونها، أشعر بالحرّ، ألا تشعرين به؟" اصطبغت وجنتا أثيل بحمرة الخجل الخفيفة و لم تحر جوابا بل نكست رأسها.

_"طبعا إن أدبك الناعم يشعر بالخجل أليس كذلك؟وفّري رأسك المطأطأ لتقفي به أمام والدتك. أنا سأفّر بجلدي قبل أن أقف في بلاط سعادتها الموقّرة،لا بد أنها ستصلبني" وانكمش فمها عندما مرّت صورة مليكة العبوسة المتغضنة بذهنها "لا شيء سيقيك من فورة غضبها لو عدت بك بعد الساعة السابعة، لن أكون أحسن منك، فهي ستمنعني من رؤيتك، نتيجة اقتناعها بتأثيري السيئ على أخلاقك. ستعتقد معتوهة أنني أحطّم سمعتك بينما أنت من تفعلين ذلك. ما أشقّ الأهوال التي تنتظرني !!"

لم تكن أثيل في هنيهة ما، منذ وطأت قدماها أرض المشفى تفكّر في والدتها ، كان وجهها المتجهّم وعيناها القلقتان لا يفدان لها بأي أحجية صعبة أو نازلة ممضّة؛ لأنها كانت في دنيا أخرى

قلقة ملتاعة،مضطربةٌ فرائصها. ولم تعترف لنفسها إلا بجزء يسير من الإثم، ذلك أنها علّلت الغاية، علّلتها بدافع عفيف،ونكسة قلبية جارفة، وعشق يستعر متوقّدا، ونزفت حصافتها، فدقّت آخر مسمار في نعش الشعور بالذنب، ليس هناك ما يجعلها تشعر بالإثم، لعدم ارتكابها حمقا أو إتيانها شينا، وبات استحضار صورة والدتها في عقلها المشوّش المرتبك قضية فيها نظر . حتى لو بقيت هنا سنة كاملة، لن تتمكّن قوّة من جرّها دون الظفر بالمطلوب.

_"تأمّلي هذه الوجوه المنقبضة "تابعت سميحة بعد أن سرحت طويلا "هل تتوقّعين منها أي خير، تأمّليهم، إنّهم حتى لا يبتسمون، شفاههم عقيمة . انظري إلى تلك المرأة القصيرة، وجهها أحمر يشبه الجزرة "شعرت بالملل فقرّرت السخرية من الموظّفين " ها، إنّها تضحك على الأقل، إنّها تضحك" ورددت العبارة، ثم فجأة خبا صوتها، وراحت تدقّق النظر في المرأة التي ترتدي بدلة بيضاء مجعّدة، كانت شفتاها خشنتين كالنقانق، ذات منظر مضحك، راحت تمعن النظر فيها كأنّها ميّزتها بشيء ما، لكأنها تعرفها ثم اتّسعت عيناها فاضحتين ذهولهما. لقد أتاها الفرج من حيث لا تدري و عندما سارت المرأة بمحاذاتهما ،صاحت سميحة دون شرح غايتها

_"مطغْ،مطغْ، إنّها تهطل بغزاغَة " تقصد مطر

إنهم في عزّ الصيف والحرارة تكاد تُذيبهم، أي نزوة حلّت بها؟ هل تتعمّد إثارة مشكلة كما هو عهدها،إنّها لن تتورّع عن ذلك طالما هي تعاني من الفراغ، هي تعتبر مرور ساعات مع عدم إثارة مشاكل جريمة عظمى. ووثبت على قدميها مندفعةً صوب المرأة القصيرة ثم منتصبةً أمامها بحركة غريبة. هل قررت السيّدة سميحة إتقان التزلّف، هل شوّهت حرارة الشمس دماغها؟ ما بالها تتصرّف كحمقاء؟.

_"إنّها تُمطغْ "و فتحت كفّي يديها باتّجاه السماء رافعة رأسها، بحركة توحي بالاستمتاع بهطول الأمطار "أيتها الغبيّة، إنها أنا، ألم تعرفيني؟ نعم، نعم .إن لم تنطقي اسمي خلال ثوان سأعضّك، لقد فعلتها ذات يوم ".

_"سميحة "هتفت المرأة و هي تقفز كقرد على شجرة. تلا الهتاف عناق دام دهرا، وتبادلتا قبلات ممتزجة بالضحكات، مدفوعة بسرور اللقاء العنيف .جذبت انتباه الجالسين والمارّين إزاءهما.

لزمت أثيل جلستها كطفلٍ مؤدّب،يلفّ ذهنَها غموضٌ مجوّفٌ،ممانعة حشر نفسها بين امرأتين خمنّت غير مكترثة أنّهما صديقتان قديمتان ثم أكبّت رأسها على حجرها وراحت تفكر، وهكذا أحدثت سميحة وصديقتها ضجّة علت فوق السكون الناعم لحديقة المشفى وسمعت المرأة

القصيرة ذات الوجه الأحمر تقول بصوت مبحوح و بكلمات بطيئة مما أماط اللثام عن رواية الغاء والراء

_"ماذا تفعلين هنا؟ ااا‌ه لو تغفين كم اشتقت إليك، لم أغك منذ سنوات، لم تتغيغي كثيرا على أيّة حال "و عانقتها بحرارة مجددا.

_"لقد اشتقت إليك أيضا أيتها الخنفساء، إنها لفرصة سعيدة هذه التي جمعتني بك "قالت سميحة بدافق من السرور و قد التحمت يداها مع يدي المرأة. ولكن يا للهول إنّه لنعت وضيع هذا التي تطلقه عليها "خنفساء "خمنّت أثيل التي انفعلت وجنتاها تلقائيا.

_"أخبريني عنك، يبدو أنك تعملين هنا ،لم تنجح خططك في السفر و العمل بالخارج ، يشهد الله أني حذرتك من الأحلام المستحيلة " أضافت سميحة بمكر وعيناها يطفر منهما بريق الفرح المشرق.

_" في الواقع، لم تتحقّق أمنيتي "أجابت المرأة و قد تكوّر فمها بابتسامة أسف "لم أستطع نيل ما أغيده،أنا أعمل ممغضة هنا بقسم الأطفال، كما تغفين أنا أحبّ الأطفال"

_"أدغي، أدغي "قلدّتها سميحة بشيء من السخرية، ولم تزد المرأة على أن ضحكت على أسلوبها في التقليد" ألا تزالين مع ذاك القرد المنكوب، ماذا كان اسمه؟ "

_"جمال،جمال،نعم ،مازلنا معا ،لدينا أغبعة أولاد،.إنهم غائعون " قالت كلمة الروعة مشدّدة بقوة على حرف الغاء هذه المرة.

_"لا أظن "قالت سميحة بغير اقتناع "من أين تأتيهم الروعة،أذكر أن ذاك الصعلوك كان يشبه القرد.و أنت معروف حالك،إني لأرثي لحالهم دون أن أقابلهم ".

ألقت الاثنتان رأسيهما إلى الخلف وطفقتا تضحكان. الله يعلم ما المضحك في هذا الحديث التافه، والله يعلم لماذا تقهقه المرأة القصيرة وسميحة تشتمها علنا.

_"وماذا عنك؟ كنت تودّين أن تكوني سيّدة أعمال،هل نجحت ،و زوجك كيف حالك و ابنتيك ؟ "سألت المرأة

_" لقد توفي منذ سنوات ليرحمه الله ،و ابنتاي كبرتا ".

_"ااا‌ه،أنا متأسفة لأجلك يا عزيزتي سميحة"

_"إنّها الأقدار يا عزيزتي،و نعم لقد حقّقت أمنيتي، إنني سيّدة أعمال ناجحة "وأخيرا طاف تعبير التعجّب حول وجه أثيل، و ارتفع حاجباها في وجه هذه الكذبة الدامغة.

_"كنت ضعيفة في الغياضيات.حتى أن أبسط عمليّة حسابيّة كنت تفشلين في حلّها.و لكن حتما كنت تحبّين الدولاغات و الدنانيغ.و لهذا يُتوقّع منك أن تصبحي سيّدة أعمال "

_"لا شك أنك تذكرين كيف قمت بعضّك أيتها الحمقاء" تُرى أليس لهذه المخلوقة الساذجة اسم؟ لقد نعتتها بالخنفساء و الغبيّة و الحمقاء، و لكن إلى الآن لم تخاطبها باسمها الحقيقي .

_"ااااه يا سميحة. كنت قميئة جدا عندما فعلتها" وضحكت حتى اغرورقت عيناها بالدموع .ما أجمل أن ينعم المرء بأصدقاء يضحكون على مصائبهم القديمة الطائشة "و لقد خلعت ذغاعي يومها. لعدم تمكّني من نقل حلّ المسألة لك أثناء الامتحان. اسمعي، يشهد الله أنني لم أخنك أو أتغاجع عن وعدي لك، ولكن لم تواتني الفغصة المناسبة، لقد نقّطك الأستاذ صفغا، ثم غدوت مثل الكلب المسعوغ وهجمت عليّ وصنعت في ذغاعي مغاغة ككهف كغوبيغا (كروبيرا)"

_"تستحقين "قالت سميحة بحقد و تبدّدت الابتسامة من وجهها إثر استرجاعها ذكرى تبلغ من السقم المنتهى.

"أيّتها الخسيسة، لقد رسبت بسببك. ثم طردت من الثانوية، لأنني لم أعد مقبولة. لو أنك كنت تنعمين ببعض الحذق لكنت وجدت طريقة ما لتنقليني الأجوبة. لماذا اعتمدت على جبانة مثلك!؟ كان ينبغي أن أبذل مجهودا أوفر لو اعتمدت على غيرك لكنت الآن متوّجة بأعلى الشهادات. لقد كان معنا طالب يعرض خدماته مقابل المال، يا ليتني اشتريت الأجوبة منه .لقد عاقبك الله و لم تصبحي طبيبة كما تمنيت ، وهذا يجلب لي نوعا من العزاء. تستحقين ".

وقرصتها من ذراعها، لقد كانت تعني ما تقول.إذا فسميحة كانت غشّاشة اتكاليّة، ألم تسمعها أثيل تفاخر بذكائها، ألم تسرد عليها قصّة حزينة عن انقطاعها عن الدراسة بسبب مرض أمّها المفاجئ. إذا فلقد رسبت و طردت بسبب غبائها.

_"هل مازلت تحبّين المطغ؟"تابعت محوّلة حقدها إلى دعابة مسلية "إنّها تمطغ. تمطغ، أتذكّر كيف كنت تقفزين تحت المطر،وتبلّلين نفسك ثم تصابين بالزكام ".

_"نعم لازلت أحبه "قالت المرأة باندفاع يغري على الضحك " لكن الحغّ اليوم شديد "

_"ليتك تحبّين أشياء لا تحتوي على حرف الراء، مسكين هذا الحرف لقد أجلست عليه حرف الغاء عنوة واغتصبت حقه في الظهور" وكانت ردة الفعل ذاتها :لقد ضحكت مجددا ،و أجابت كلتاهما عن أسئلة بدت لانهائية عن الأقارب و الأحوال و الحياة .

_"ماذا تفعلين هنا يا سميحة "سألت أخيرا السؤال الذي أعاد إلى ذهن سميحة أنّها ليست لوحدها، وأنها اصطحبت معها فتاة تعسة مغتمّة. للاطمئنان على رجل أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، فاستدارت ملقية عليها نظرة طويلة. كانت تعابير وجهها لا تزال خامدة، ويداها محشورتين بين ركبتيها وعيناها المنكوبتان تفيضان أدبا.

_"تعالي يا أثيل "خاطبتها بلهجة رقيقة، وما لبثت أن انتصبت بجانبهما حائرة السحنة بتأثير الحوار التافه الذي دار بينهما.

_"دعيني أقدّم لك صديقتي الصغيرة، إنها أثيل.أكثر فتيات الدنيا جمالا و أدبا، ورزانة،إنني أؤكّد على هذه كلمة ،رزانة "كان واضحا أن في لهجتها شيء من السخرية، فهي لم توظّف الكلمة وتؤكّد عليها إلا للتلميح إلى نقيضها

"سعدت بلقائك "قالت أثيل باقتضاب بإيماءة من رأسها فلديها القليل لتقوله لأشخاص تعرفهم و أقلّ بكثير لأولئك الذين لا تعرفهم.

_"إنّها إحسان "فقدت أثيل كل أمل لحيازة المرأة اسما" انتبهي إنّها اسم على غير مسمّى، أراهن أنّها لم تحسن لشخص في حياتها " خلا وجهها من أي تعبير ساخر و قالت بنوع من الجديّة و المودّة " هي صديقة طفولتي وشبابي، بل أروع صديقة نعمت بها، أجهل كيف افترقت عنها. لكن انظري إلى هذه الصدفة الرائعة، لقد اجتمعنا ثانية. إن الحياة غريبة مليئة بالصدف والمفاجآت "

_"اسمعي لقد بحثت عنك و سألت، و لكن لم أستطلع أخباغك من أحد "علّلت إحسان" إنّها فتاة جميلة حقا، لماذا تجلسينها هنا تحت أشعّة الشمس الحاغقة، ثم لم تجيبيني ماذا تفعلين هنا؟".

_"أنا أُجْلسها؟"هجست سميحة حانقة "أنا ضحيّتها المسكينة".

"جارة قديمة .جئت أزورها " أجابت بسرعة قبل أن تفتح أثيل لتستفسر عن الشابّ" ولكن عندما وصلت اكتشفت مغادرتها المشفى بالأمس صباحا، لقد قطعت هذه المسافة من أجل لا شيء.ليلعن الله حظّي"

_"بأيّ قسم كانت، ممّا تشكو؟"

_"إنّها تعاني من..." تلعثمت سميحة "إنّها تعاني من،،،لقد كان جلدها يتفتت تلقائيا، وظهرت بعض البقع الحمراء على جسدها، لا أذكر ما كان اسم ذاك المرض، عندما أعود سأزورها وأطمئن عليها. لا بد أنّها تحسّنت وإلا كيف سمحوا لها بالمغادرة ".

_"حسنا إذا.دعيني أستضيفك الليلة في منزلي. ونتحدّث عن الأيام الماضية، إنّ زوجي ليس بالمنزل ".

_"لا "هزّت رأسها غير موافقة "ليس بوسعي المكوث هنا فترة أطول، لقد اصطحبت الفتاة معي ووالدتها لا تسمح بنومها خارج المنزل، تفشل الأم المسكينة في ضبط قلقها ".

_"هذا مؤسف. كنت سأسعد جدا باستضافتكما " قالت بخيبة أمل غير أنّ سميحة راحت تنقب في رأسها عن طريقة لسؤالها عن القضيّة التي قدمتا لأجلها و تبادلت مع أثيل نظرات ذات مغزى

_"أين كنت متوجّهة؟.أعتقد أنك مشغولة و أنا أخذت من وقتك".

_"كنت ذاهبة إلى المخبغ،لجلب بعد التحاليل،لا تقلقي،لن تكون جاهزة قبل الغد، تعغفين كيف تسيغ الأموغ في المستشفيات و لكن عليهم أن يغسلوكِ (يرسلوكِ) حتى إلى للحفغ في المناجم إن ما قبضوا عليك جالسة دون عمل شيء "

_"ها.و لكن يا عزيزتي عليك وضع قبعة على رأسك في هذا الحرّ. إن وجهك يلتهب بسرعة. ربّما تتعرّضين لضربة شمس قويّة ".

_"لقد تفوقت عليّ في هذا "قالت إحسان باستهتار "لو تغين وجهك، سنستدعي غجال الإطفاء إن ما مكثت هنا فتغة أطول ".

_" اسمعي يا إحسان ،بمناسبة الحديث عن رجال الإطفاء. لقد تذكّرت حادثة مريعة حدثت مع شابّ.. إنّه ذاك الصحفي،،ما كان اسمه،،سمعت أنّه بهذه المشفى، و علمت أن حالته سيئة،، لكن نسيت اسمه ".

_"اااه "تأوهت احسان طويلا، وعلا وجهها ضيق ممزوج بالأسى. أما أثيل؛ فقد وقفت محتبسة النفس و قد غار الدمّ من وجهها. و أمسى مصفرّا كقشرة ليمون مما دفع سميحة للضغط بشدة على يدها مُعنونَةً قبضتها ب "تمالكي نفسك ولا تثيري الشبهات حولنا". فحاولت احتجاز اضطرابها. و تصنّع عدم الاكتراث. وعمل في صالحها كون إحسان لم تكن توجّه النظرات أو الكلام إليها.

استدارت إحسان فجأة مرسلةً طرفها إلى بناية شاهقة مؤلفة من خمس طوابق مصبوغة باللون الأصفر الداكن، وهمهمت بصوت خفيض آسف" اسمه خليل، إنه هناك" وبسرعة كلمح البصر حوّلت أثيل بصرها إلى البناية بعينين جاحظتين، وأحسّت بضربات قلبها تتسارع، وسرت في جسدها قشعريرة باردة، و تراءى لها المبنى كحجرة واحدة مغلقة في وجهها. لقد كان هذا المبنى منذ الصباح أمام بصرها، وخامرها شعور ممضّ و غُصّة ارتفعت من قلبها الى حلقها

_"ذاك المسكين، لقد فاغقت والدته الحياة بعد نوبة قلبية. مكثت في المشفى أيضا و لكن قلبها لم يتحمل ، لم تتحمّل أن يصيبه مكغوه "وفغرت أثيل فاها من هول الصدمة. أما نظرتها؛ فقد جمدت كأنّها كائن مشلول فلم تهتد إلى البكاء. لكنها احتفظت برباطة جأشها لأنّ سميحة ضغطت على يدها بعنف أكبر

_"و ماذا عنه "سألت سميحة فورا

_"لقد تجاوز مغحلة الخطغ.سيعيش"فتنفست أثيل الصعداء و تنهدت تنهيدة ارتياح، حتى إن إحسان لاحظت بارتياب أن التنهيدة كانت أغرب من إدراجها ضمن المعقول

_"ما بها الفتاة، تبدو شاحبة " استفسرت و عيناها تنطقان بالارتياب

_"لا يا عزيزتي"أسرعت سميحة مرتبكة تفسّر الموقف لأن الزفرة صدرت من أعمق رئتيها "إنّها مرهقة من الرحلة.هي كابنتي الغبيتين، لا تتحمل مشقّة السفر" وحملقت إلى أثيل بنظرة يغالب التأنيب فيها التوسّل ثم استرسلت مستميتة لتشتّت انتباهها.

_"إذا فلقد نجا. أنا سعيدة لأجله، إنّه شاب طيّب و شهم، الوحيد الذي يستطيع قول الحقيقة، أنا متأسّفة لفقدانه والدته. لا شك أنه تألّم عندما بلغه نبأ وفاتها ".

_"لم يتحسّن إلى ذاك الحد، لم يخبغوه عن وفاتها ،في الواقع لا يسمحون لنا بالاقتغاب من غغفته أبدا. إن له قغيبة تعمل هنا. هي ابنة عمته، وهي مغّوسة مثل شجغة بقغبه. وإن حدث وانصغفت لبعض شؤونها خلّفت حاغسا ينوب عنها. يشغف طبيب أغّفه على حالته، ولكنه متكتّم بخصوص الوضع. كل ما أخبغني به أنه سيعيش، وذلك بأعجوبة أشبه بمعجزة، سيعيش"

انتعشت أثيل، وأزهرت معنوياتها وسطعت عيناها سطوعا قويا ، و سرعان ما افتّر ثغرها عن ابتسامة شاكرة "سيعيش،سيعيش "وهكذا تلاشت معالم النكسة وحلّ محلها ارتياح دفّاق "سيعيش" ولأنّ السعادة تملّكتها لم تنصت إلى بقيّة الحديث بنباهة عمليّة

_"لكن "أردفت إحسان مغمغمة تقريبا "هناك خطب ما، إن هناك حغكة مغيبة حوله. غغم أنّهم متكتّمون. لقد حصل معه شيء. هذا ما أمكنني استنتاجه من الطريقة المتأسّفة التي يتحدث بها طبيبه كلما خذنا في حديث عنه".

_"ما هو هذا الخطب؟ "

_"لا أغّف يا عزيزتي. إنهم يحيطونه بعناية مكثّفة، على أنها مغيبة (مريبة)، أطبّاء يغوحون ويجيئون ويكثفون فحوصاتهم. يجغون تحاليل و أشعة ، وقد غأيت الطبيب المشغف عليه يشغح بحركات غير مطمئنة عن حالته ".

_"حسنا. حسنا. المهم أنه نجا "هتفت سميحة " ربما كانوا يتجادلون عن كيفية إخباره بنبأ وفاة أمّه،ذلك صعب كما تعلمين.أنصتي يا إحسان. إنّ الشابّ عزيز علينا جميعا. ولهذا أطلب منك أن تنقلي لي أي خبر عنه"

_"نعم. نعم "وافقت إحسان دون تردّد "إنه عزيز علينا. وأعدك أنني إن ظفغت بأي نبأ عنه سأنقله لك.دعيني أخبغك أيتها الفتاة أنك جميلة "

كانت الغبطة المتينة قد استحوذت على عقل أثيل، فلم تعد منذ برهة تنصت لكلمات إحسان البطيئة، و سرحت عيناها الحالمتان إلى أن استقرتا على المبنى قبالتها و بطّنت الآلام بخرق الأمل المنتعش. إنّها على استعداد تامّ لأن تهب عمرها بطوله لهذه اللحظة المجيدة الزاخرة بنعمة عودته سالما، ولم تنقض دقائق حتى استيقظت حواسها المغيّبة في الجدران الصفراء على صوت سميحة العميق كمزمار مزعج والتي كانت قد هزّتها هزّا يستيقظ على إثره الموتى.

"أثيل. إنّ إحسان تكلمك يا عزيزتي".

_"أعتذر،لم أكن أنصت إليك، ماذا كنت تقولين يا سيّدة إحسان" قالت أثيل باسمة بنبرة يشوبها الارتياح

_"كانت تطريك يا عزيزتي. تقول إنّك جميلة "

_"أشكرك "قالت باقتضاب و قد توردت وجنتاها.

_"الآن دعنا نغادر، أنا مسرورة جدا لرؤيتك مجدّدا يا إحسان. لم تذهب رحلتي المضنية الطويلة هباءً "و تبادلتا العناق مجددا و برقت الدموع في عيونهما كأنّهما تتبادلان وداعا أخيرا.

_"اسمعي "صاحت سميحة "اهتمي بجسمك قليلا، إنك مثل البقرة "

كانت هذه العبارة مناسبة لتلطيف كدر الفراق. وما إن انصرفت إحسان إلى عملها، حتى نزلت أثيل درجات الحديقة بسرعة، ونزلت في أعقابها سميحة تتميّز غيظا و عبرت الطريق لتتوقّف منتصبة أمام المبنى الأصفر الداكن و رفعت عينيها المتضرّعتين إلى السماء، ودعت في سرها دعاءً خافتا، وبعد أن فرغت استدارت إلى سميحة اللهّاثة و قالت

_"لو أستطيع البقاء هنا طول حياتي، لن أمانع أبدا".

فكشّرت سميحة عن أنيابها، ولكنّها أدركت منذ زمن طويل أنّ الفتاة لم تعد تستجيب إلا لقلبها فرفعت رأسها إلى أعلى مستنجدة برحمة الله.

الفصل العاشر

أبلّت أثيل من رعبها و تقهقرت أسباب الذعر مدحورة منتكسة، وحلّقت في سماء الطمأنينة الغضة مثل عصفور حديث الطيران سعيد بجناحيه المرفرفين. بعد انسحاق روحها لأيّام عدّة، انسحقت موجوعة خائفة، لقد مضت الأيّام الحالكة وحلّت بدلها أيّام هانئة، وأشرقت الشمس من جديد بعد أن حُجبت بغيمة ثابتة قاتمة. إنها لا تعد نفسها الآن إلا فتاة جبلت من طين السعادة. الآن يسعها إخفاء نار حبها المستعرة وجرّه إلى ركن الكتمان من جديد، لكن ليس طيّ النسيان، حيث أنّها لن تتمكّن من نسيانه مهما ابتذلت من مجهود، إن عشقه الفتيّ ما ينفك يجتاح نبضها.

و لوعيها بتعلقه الشديد بأمه المتوفاة ،لم تكن لتتصور أنه من السهل عليه تجاوز المحنة ،لكنها كانت تدرك دونما معرفة شخصية به أنه قادر على المضي قدما حتى مع تلك الجراح المخلفة فهو يملك من التجلد بحيث يتحمل جميع المصائب بما فيها مصيبة الموت ،و هي على يقين جرانيتي أنها بحلول نهاية شهر تشرين الثاني ستكون قد قرأت المقالة الخامسة له على الأقل ،و حينها ستعود الحياة وردية كما كانت من قبل .

وغدت بفعل الارتياح بعد المحنة كزهور الربيع المتفتّحة،يزدان وجهها بابتسامة شاردة منشرحة،أثارت ريبة أمّها وقذفت بأختها في سراديب الازدراء، منذ أيّام فقط كانت بحال سيئة. بينما الآن ابتسامتها لا تفارق شفتيها. إنّ ميرنا لتنذهل كيف تهنأ هذه المخلوقة المستهترة بعيشتها وهي مثلومة الشرف، في الوقت الذي ينبغي فيه جلد نفسها على ذنوبها الشائنة، وتحبس نفسها في مخدعها، وتعيش مرتعشة محتبسة الأنفاس من اكتشاف الجيران و الأصدقاء لعارها "أعوذ بالله من جرأتها،ألا يقرّعها ضميرها ؟".

على أنّها تصفع بصيت الفضيحة غير متوجّسة، ولا يسعها إلا الاعتقاد حانقة أن شّقيقتها المصونة لا يباغتها الندم مطلقا: بسبب أنها شانت نفسها وشانتهم بعمل شائن فتعيد التحسر :اااه ،لولا أنها تخشى على والدتها من أثر الفضيحة. لكان من دواعي كراهيتها أن ترفع الستار عن عارها. وتصحّح مفاهيم الناس عن الاحترام و الأدب الذي يتوّهمه الآخرون في شخصها .

و ككل مرة ،تشرع غيرتها في إجراء تلك المقارنات المختنقة: إن الجميع يحبّونها دون استثناء وليس في سيرتها الذاتيّة إلا خدمتها المخلصة للعجائز الهرمات، تعاملها الرحيم مع كل مخلوق، تهذيبها في أي موقف، عدد المغرمين بها.اااه حتى جميلة النكدة ذات المزاج المتقلّب وزوجها الجشع المفتري صبري و اللذان لم ينتزع أحدا حبّهما ،يحبّانها.

أما هي الفتاة الصالحة، الشريفة، المستقيمة، فلا أحد يتوسّم مزاياها الفاتنة، لكونها فتاة غير جميلة. ولا تجيد التزلّف، لولا أنّها شقيقة الفتاة الوقورة وابنة السيّدة المحترمة لما ألقوا عليها حتى التحيّة، فسميحة تزدريها، ولا تمانع التلميح بصدر رحب أنّها فتاة قاسية وأنانية، وبالنسبة للآخرين،فهي لم تكسب منهم إلا مودة مجحفة منقّطة بالاحتقار مزخرفة بالبغض. لأنهم أغبياء لا يعلمون، ولو كانوا يتجسّسون من حين لآخر على الأسرار الوضيعة المغلّفة بمكارم الأخلاق، لكان لهم رأي آخر أكثر إنصافا في حقّها المهان.

و تشفق على حسن تقدير أمها لابنتها " لن تفطن ، وهي ترى مسحة البراءة الملتهبة في وجهها، و لن يقدح زناد تفكيرها إلا أن ابنتها الجذّابة وليدة التربية الحسنة لا ترفع رأسها عن الأرض مطلقا، ولن تخامرها الظنون أبدا أنها كانت في وقت قريب في الشقق تستلقي بجانب المتزوّج و الأعزب. أما الآن فإنّها تغازلهم صامتة برقصة من عينيها وحركة شفّافة واضحة من حاجبيها و ابتسامة باعثة على الشلل في زاوية فمها، مستغلّة جمالها الأخّاذ لتسرق منها كل رجل، ولا تدري أن ما تأتيه عزيزتها من مخاز يحول ليس فقط عن رفع رأسها أمام الناس، بل حتى أمام الكلاب الضّالة.

ولم يلسعها ضميرها يوما جرّاء جفائها المحموم لعلمها بالحقيقة الوضيعة التي وُجدت نتيجة دوافع ملحّة،جفاءً مطلقا يتحيّن المواقف ليبرز لغاية التذكير بالذنب.

كانت الأخبار التي تفد متتابعة من إحسان مبهجة منعشة، فقد بشّرت سميحة بتحسّنه المتدرّج البطيء، مع أن هذه الأخيرة لا يزال شكّها قائما بحدوث خطب محجوب. وهذا ما تفشل في نسيان تأكيده في كل مرة و سيان لديها أوجد الداعي لذلك أم لم يوجد .

_"هي مصابة بالشكّ المرضيّ منذ أن كنّا في الثانوية، كان هذا عهدها، ليتها توفّر علينا غباءها "علّقت سميحة مغتمّة من الأسلوب المشؤوم الذي تتّبعه صديقتها في عرض فطنتها.

وفي نهاية المطاف ثبت يقينا أنّها لم تكن إنسانا شكّاكا، أو مريضا بالوساوس، إذ أن شكوكها التي كانت تشتهر بها قولا و كتابة كانت واقعيّة، ونقلت إلى سميحة النبأ العاصف و الذي أخفته أيّاما عن أثيل، هذه التي لم يعد يُتمكّن بردود أفعالها، و متى تهوي إلى حضيض الانفعال سريعا!. والتي أمست تفقد طبعها كعجوز مسنّة. غير أن طارئة ألغت قرارها، فإن لم تتطوّع هي لتنقل لها النبأ الكسيح، سيروي شخص آخر قريب أو غريب الواقعة لها عن طريق الصدفة .ربما ستسقط مغشيّا عليها أمام أشخاص غرباء كما حدث ذلك اليوم في الشارع، ليس من الصواب إذا عدم إبلاغها، وهي سميحة من ستتكلّف بالمَهمة الشاقّة.

"تعالي يا أثيل،ادخلي "قالت سميحة عند عتبة الباب، كانت قد أرسلت ابنتها سالي في مَهمة طلب أثيل إلى بيتها بعد الفراغ من وجبة العشاء.

مشت أثيل في إثرها إلى غرفة الضيوف في آخر الطابق السفليّ، تبعتها متخوّفة، لم تكن سميحة يوما إنسانا يُعتمد عليه في مطالعة وجهها، وفجأة توقّفت عند باب المطبخ مشدّدة التعليمات إلى ابنتيها، كانت سالي ترفع بخفّة الصحون نصف الممتلئة طعاما، بينما كانت ريحان واقفة ساهمة شاردة، تقلّب فكرة ما في رأسها.

_"أصغيا،أيّتها الغبيّتان "صاحت بغلظة "إن ما تشاجرتما ثانية وبلغني زعيقكما،سأجعلكما تندمان، أنت يا سالي نظّفي الصحون جيّدا، لا تنظّفيها كالمرّة السابقة، لأنني سأتفقّدها، و أنت يا ريحان كفّي عن الوقوف مثل بلهاء و لمّعي الأرضية". وبعد أن ابتسمتا لبرهة،انطلقت كلا منهما إلى الوظيفة التي كيلت لها.

"هل هو بخير؟"سألت أثيل مرتبكة، ومن عينيها تدحرج وميض الخوف، بينما لا تزال واقفة أمام المنضدة الخشبيّة المنخفضة ، هذه التي تفضّلها سميحة لأنّها ذكرى عزيزة من زوجها.

_"إنه بخير.إنه بخير "كرّرت بينما تقمصت شفتاها ابتسامة ضعيفة ، و ضغطت بيديها النحيلتين على كتفيّ أثيل لتُجلسها عنوة، غير أنّ هذه أبدت مقاومة، في هذه اللحظة لم يستقبل قلقها فكرة تحسّنه بالقبول المعتاد.

_"أقسم أنه بخير، و لقد غادر المشفى،حبيبتي لقد تحسّن،ألم تقولي أن بقاءه حيّا هو كل ما يهمك، حسنا إنه حيّ يرزق "فجلست أثيل تظفر شفتاها بشبه ابتسامة غير مصدقة سرعان ما خنقتها.

_"لماذا،لماذا؟" سألت متلعثمة بصوت ينمّ عن التردّد "لماذا إذا أرسلت في طلبي؟ "و كانت تضغط على يديها متوترة

_"اااه،ليست مسألة مرتبطة به "أجابت دون أن تنظر إليها ثم مضت إلى النافذة لتحكم إغلاقها كأنّها ترجئ بقدر ما تستطيع نقل النبأ المشؤوم.

_"أثيل،أتعرفين السيّدة فاطمة؟ تلك التي تسكن خلف ناصية شارع ن. ت، يفصلنا عنه شارعان "

_"ربما، لست متأكّدة إن كانت هي التي في ذهني، ما خطبها؟"وكانت سميحة تراقب اليدين المضطربتين والعينين المنفعلتين ثم الوجه المرتبك .

_"لقد سألتني مفاتحتك في موضوع يتعلّق بابنها" وبأسلوب فكاهي أضافت "إنّها تعلم أننا مقرّبتان وصديقتان، رغم أن هذا يثير دهشتها، فبيننا عمر مديد، ما كان أوقحها عندما أشارت أن

هذا غريب، ما رأيك؟ هو شابّ ممتاز يا أثيل، لديه عمل مستقّر، كما أنه يكره الحكومة مثلنا،ويشتمها، أقسم أنني سمعته يشتمها "قالت هذا لاقتناعها أن أثيل تُغرم بالذين يشتمون الحكومة "لا تقاطعيني "قالت بإشارة حازمة من يدها، عندما فتحت أثيل فمها قليلا لتعترض ثم قبضت على القبضتين المحكمتين ففتحتهما.

_ "إنك لا تعرفينه لترفضيه فورا، لا ينبغي أن تقرّي رأيك بهذه السرعة، ينبغي أن تتزّوجي ذات يوم، لا يعقل أن تستمري على هذا النحو،لن تسترسلي في هرائك يا أثيل حول ذاك الشابّ، اصرفي النظر عن مسألته ".

_"أرفض الحديث بخصوصه "قالت بانفعال مفتعل ، مفلتة يديها ثم خفضت رأسها لثوان مضيفة بلهجة متحدّية "لن أتزّوج ابن السيّدة فاطمة، لن أتزّوج أي أحد،أنا قانعة بهذا الوضع ".

فانتفضت سميحة مثل ديك شرس واخترقتها نوبة من العصبيّة أمام هذا العناد الصلب كعناد البغال الحرونة

_"ذاك الرجل خليل هو الذي ترغبين فيه" ودون التقليل من حدّة سخطها أبدت بعض العطف "لا يمكنك نيله يا أثيل، لنقل أنني وإياك سلمنا بحقيقة حبّك له، لكن أين تتوجّهين؟ ينبغي أن تطرحي هذا السؤال على نفسك، طريق مسدود،إنك لن تناليه،والآن في وضعه الجديد، لن تكون لك أي فرصة و لا أمل".

_"وضعه الجديد! "هجست أثيل حائرة "أي وضع هذا ،ماذا تقصد؟".

_"ماذا تقصدين بوضعه الجديد يا سيّدة سميحة "قالت بسرعة بعد أن فكرت لبرهة

_"تمالكي نفسك،لأن ما سأبلغك به قد يكون قاسيا عليك "قالت سميحة ببطء ولكنها عندما رأت رعبا مجنونا في عينيها أسرعت تهدئ من ذعرها، كما أن يديها طفقتا ترتجفان

_"لم يمت،لم يمت، لقد غادر المشفى، و لكن ليس على قدميه "اخترقت العبارة الأخيرة أذني أثيل بعدم تحليل، بدون مشاعر محدّدة، لكن تعابير وجهها تجمّدت في ثانية و أصبح جسدها عديم الحركة، واستطاعت سماع نفسها تسأل في سرّية تامّة عن ماهية المسألة "هل فقد القدرة على المشي ،أو أنهم بتروا رجليه،أكان هو الذي تعاطت السيّدتان حديثا عنه في قسم الطوارىء، وعندما طرق عقلها ذاك الحديث جحظت عيناها و رفّ قلبها هلعا، ثم تسارعت أنفاسها و سرعان ما التفتت إلى سميحة تطلب تفسيرا

_"حبيبتي"خاطبتها بهدوء كأنها تخاطب طفلا مذعورا، تخشى أن يغمى عليه أو تصيبه نوبة عصبيّة "لقد شُلّت قدماه إثر ضربة عنيفة تعرّض لها، هذا ما أخبرتني به إحسان. والواقع أنها ذكرت ذلك أمامنا في حديقة المشفى إذا كنت تذكرين، ذكرت أن هناك خطبا ما، لأن عددا من

الأطباء يروحون ويجيئون، هذا هو الخطب الذي حلّ به، لقد فقد القدرة على المشي" واسترسلت سميحة بصوت رقيق ينمّ عن العطف "ليس في العالم شابّ أقلّ حظّا منه في هذه اللحظة، لقد خسر كل شيء في غضون أسابيع، والدته وعمله و قدميه. ما أقسى ما تعرّض له هذا التعس دفعة واحدة، وأسوأ منهم جميعا فقدانه الرغبة في الحياة، أعلمتني إحسان أنه أضحى يطلب الموت بعد إبلاغه بوفاة أمه، كما سبق و ذكرت، لقد كان يحبّها ومتعلّقا بها، وإنها لتعني له كل شيء، والآن وقد فقدها غدا روحا ميتة " .

كأنّها انفصلت عن عقلها، لم يسعها الصحو من ذهولها، على أن دموعا حارّة انبجست من عينيها مرة واحدة، وتطهّرت من الألم وأحسّت بدله بالشفقة المريرة .

_" كانت العالم بالنسبة له "قالت أثيل بمرارة، لا يشترط أن تشاركه الأحاديث و تقضي معه الساعات والأيّام، ولا يشترط أن تنظر مباشرة في عينيه البنيّتين الوديعتين لتعرف من هو؟ وماذا يريد؟،إنها تدرك تعلّقه بوالدته أكثر من تعلّق أي إنسان آخر بأمه. وإنه لرجل عزيز النفس،رقيق القلب، هي تعرفه معرفة حقّة ليس بعشرة السنين بل ببصيرة قلبها.

_"إنه لا يستقبل أحد "أردفت سميحة حائرة إزاء الوجه الممتقع بفاجعة النبأ" و يرفض أي مبادرة للعلاج، لقد دخل إلى جحيم الكآبة التامّ. وذكرت إحسان بناءً على الأقاويل المتداولة في المشفى أنه ربما،،، ربما، سيجنّ قريبا، للأسف، لقد فقد هذا الشاب الرائع كل فرصة ليعود كما كان، لم يستطع التحمّل، كان الله في عونه..."وبذات اللهجة الرزينة المشفقة استطردت كلامها مراقبة بعناية ملامح الفتاة الفزعة

_"أصغي إلي، ليس بوسعك مساعدته.كفّي عن البكاء، فحتى أقاربه عجزوا عن ذلك، إنه يعيش في المنزل وحيدا كئيبا، لا يتقبّل شفقة أحد، نعم هكذا يسمي أمثاله مساعدة الآخرين، شفقة وإحسانا، ولم يكن يوما إلا رجلا.... "

_"عزيز النفس "أكملت أثيل "إنه عزيز النفس ولن يرضى أن يمدّ أحد له يد العون، لأن له كبرياءً رفيعة "و شهقت شهقات متكرّرة.

_"هذا قدره يا أثيل،و لقد استسلم سريعا عكس ما كان ينتظر منه ".

شملت أثيل أرجاء الغرفة بنظرة متنقّلة، وهي تتلوى شفقة، ناهيك عن شعورها بألم عنيف في قلبها.

لا يمكن أن يكون هذا الذي حصل معه، هو من بين جميع الخلق الذين تعرفهم، لا تصدّق، هي لا تصدّق، سيتناقص عدد أحبائه الآن، ثم يغدو وحيدا. كانت دائما تتساءل (قد يحبّك الناس

وأنت تملك كل شيء،لكن كم عدد الذين يحبّونك و أنت لا تملك شيء؟)، إنه وحيد تعيش هناك بين جدران البيت الكبير، لقد غدا بيتا مهجورا

_"اااه كيف سيتحمّل البيت دون أمّه،لا شكّ أن الذكريات تقهره كلما وقعت عيناه على أحد أشيائها العزيزة،ليس إلا سجنا في هذه الوهلة، وليس أقبح من الأصوات التي تحتفظ بهم الجدران والصور المعلّقة عليها، من يسعه إخراس ألمه ، قد قحِلت الحياة بفاجعة متعددة الوجوه "وعلى نحو مفاجئ أصبح من العسير عليها التنفّس إثر انقباضة هوجاء في صدرها.

_"هذا هو وضعه الجديد، لم يعد كالسابق، وأعتقد بضرورة بَذْلِك جهدا في سبيل نسيانه، انزعيه من رأسك، ليس بالأمر الشاقّ عليك، لم يعد صحفيّا ناجحا، ولا رجلا كاملا، ماكان يجذبك إليه قد تبدّد، لا أبالغ إذا قلت أنه يعتبر رجلا ميّتا، لست تحبينه يا أثيل، كنت فقط مغرمة بأفكاره و جرأته، هذا ما جذبك إليه أول مرة، انتبهي ،ليس لدي شيء ضد الرجل، و لازلت أحترمه" فقذفتها أثيل بنظرة ملتهبة و نشأ في قلبها نفور جامح و ازدراء مزمجر، لم تحجم عن إظهاره.

_"لن يموت" قالت ملتاعة وعيناها تبرقان تحديا "لن أسمح بموته، ولن أسمح لك يا سيّدة سميحة أن تتكلمي عنه بهذه الصورة، سأحبّه الى الأبد، و سأحبّه كيفما كان وضعه، ولئن فقد كل وظائفه، فلن ينتقص هذا من حبّي ذرة واحدة ".

_" لا أحد يحسن فن العناد مثلك يا أثيل، حينما تعوّلين عليه "زمجرت سميحة برمة،بنبرة همجيّة تقريبا،فاقدة آخر ورقة صبر تمتلكها، ملوية فمها ثم تحرّكت مبتعدة عنها، وراحت تذرع أرض الغرفة ثم توقّفت وقصدت الباب لتتأكّد أن الفتاتين لا تسترقان السمع عن غير قصد. وأفكارها تجري في مجرى غير الذي خطّطت له.

_"تلك الكتب التي تطالعينها، تُلوّث عقلك يا أثيل، فلسفة عقيمة "خاطبتها بلهجة شديدة فيما أطرقت أثيل رأسها منهمكة في التفكير، في العزلة التي تغلّف حياة غاليها.

"حدثّيني عن أي رجل آخر، و سترين بأمّ عينيك كيف سأتفهّمك بسرعة البرق، لكن ليس ذلك الرجل، و إذا مّا قدرنا الأمور ببعض العقل،أقول العقل. فلن تجدي أن لك أي فرصة معه. أخبريني الآن، لا تأتيني بأفكار حمقاء من صميم قلبك ، بل زني الأمور بعقلك يا أثيل. مع أن الله وحده يعرف أنني فقدت الأمل في عودته إليك. وضّحي لي، ماذا يسعك فعله لأجله. هل ستنتقلين للعيش معه تحت سقف واحد و تعتنين به "فرفعت أثيل عينيها المطرقتين بسرعة، كانت الفكرة ممتازة، لكنها لم تقفز إلى عقلها من قبل

_"ها،،،، إذا،،،لقد نالت فخامة الفكرة استحسانك،نفّذيها كي تموت أمك من العار،،،والله إنّك لتطاردين سرابا، لم يسمح حتى لأقربائه بالعيش معه، ليبيح لك أنت هذا،،،لقد غدا مشلولا.

و لكنه لم يتحوّل إلى خسيس" ومرة ثانية ألفت نفسها تطوف في أرجاء الغرفة كأنها اكتسبت طاقة عملاقة. وكلما راودتها خاطرة ساخرة ألقتها حانقة "أو ما رأيك أن تتسمّري عند باب بيته ثم تتوسّلي إليه منحك شرف الاعتناء به،، الآن سأكون سعيدة يا أثيل إذا تفضّلت وشرحت لي كيف تعتزمين مساعدته، لثقتي الدائمة أنني جزء مهمّ من خططك، سنتسكّع سويا أمام بيته بعد تسكّعنا في المشفى التي كان فيها،،،اااه يا أثيل "

قررت سميحة أن أثيل صخرة من العناد، و أزعجتها هذه الصفة حديثة الظهور، وجلست متوسّلة بوجه خال من السخرية لأن هذا الأسلوب لم يجد نفعا.

_" إن ابن السيّدة فاطمة رجل رائع، سيجعلك تنسين ذاك المخلوق بلمح البصر، أنت لم تقابليه بعد، لو أنّ إحدى ابنتي تمتلك وجهك الجميل، وكانت تلك العروض تتهافت عليها بدلا عنك. لما توانيت لحظة عن الموافقة "وتوسّمت الليونة في الوجه المنقبض، وما عتمت أثيل أن وجّهت إليها نظرة ذات معنى. كان في أعماق العينين مسحة متموّجة من الحزن، وكان في الوجه الجميل أمارات الألم، ثم بؤس لم تر له مثيل في وجه إنسان فأمضّها الاسترسال في الكلام غير آبهة لتعاسة الفتاة، وهنا نطقت أثيل تتدحرج دمعة على وجنتها المورّدة

"إنك لا تفهمين، لا تستطيعين أن تفهمي، ليس الخيار بيدي، هو يسكنني، يعيش في داخلي، كأنّه وُلدَ معي، لو كان مكانا لغيّرته، لو كان ثوبا لتخلّصت منه، و لكن هل يسعك التخلّص من روحك، إنه روحي،هل تستطيعين زهق روحك؟ أعرف أني لن أناله أبدا و أنه ليس لي ،و لكنني أحبه ،ماذا أفعل ؟"سرعان ما تلا الدمعة الأولى سيل متدفّق من الدموع، وكان في صوتها نغم حزين " هل تفهمينني؟أنا أحيا به،لقد مِتّ منذ زمن طويل، وليس لي أنفاس إلا التي يهبني إياها، لن تفهمي هذا أبدا ".

_"ليلعن الله الفلاسفة " لعنتهم سميحة في سرّها و أتت تعبيرا يدل على ضجرها ، ثم سخّرت كل تركيزها لتحاول فهم الفتاة،ماذا تقصد بأنّها ماتت منذ زمن.

_"أنا التي أحتاجه يا سيّدة سميحة وليس هو، لا أتنفّس من دونه، ولست آبه لنظرة العالم بأسره للذي أفعله، وأنا على استعداد لرهن حياتي لأجله ".

_"هل فقدت عقلك؟ "قالت سميحة برمة و ضربت ركبتيها بكلتا يديها "إنني أحاول بكل ما أستطيع أن أضبط أعصابي، ولكنني تخرجينني عن طوري كل مرة. تثيرين أعصابي يا أثيل ما هذا الهراء الذي تطلقينه من فمك!؟،لقد تحمّلت سخافاتك بما يكفي، وإن ما تفوهت بعبارات التضحية و الرهن مرة أخرى، فأقسم أنني لن أتحمّل، لقد زحفت وراءك أميالا عديدة كمراهقة،

دون أن أوجّه لك أي لوم، ظنّا مني أنك ستثيبين إلى رشدك، و لكنك تتمادين،ثم ماذا تعنين بأنك ميتة منذ زمن طويلا؟"

_"أودّ إطلاعك على سرّ يا سيّدة سميحة "قالت أثيل بصوت متقطّع وأثر الدمع لا يزال في عينيها "لقد تعبت من إخفائه، لكن أخشى" وثانية أطرقت عينيها ، ومرّت دقيقة قبل أن تنطق، فيما كانت سميحة تنتظر بلهفة

_"أخشى أن أفقدك،أخشى أن تكرهيني "

_"ما هذا السرّ؟ "استوضحت سميحة حائرة، فلا يوجد أمر لا تعرفه عن أثيل "ثم كيف أكرهك أيتها الحمقاء، إنني أحبّك مثل ابنتي ".

_"ولكن، ولكن" تردّدت أثيل ثم أغمضت عينيها وهي تستعيد ذكرى بعيدة منفرة عندما سلبتها الحاجة روحها الإنسانية، عندما وضعت جسدها على مقصلة الرذيلة. و تخلّل صمتها صور مؤرقة، فافتقدت الشجاعة فيما كانت أنفاسها تتباطأ بشكل غريب.

_"ها أخبريني،ماذا هناك يا أثيل؟،أهو سرّ يتعلّق بذاك الشابّ، هل تعرفينه؟"

_"لا "نفت بهزّ الرأس، غدت هادئة بشكل غريب وتملّكتها الحيرة، هل سترتاح إن ما اعترفت أو ستزيد أعباؤها. و ما لبثت أن أقرّت رأيها، ستخبرها بكل شيء، ربما ستفهمها. ستفهم أنها تحبّه دون أمل، ولن تستطيع أن تتزّوجه،لا هو، و لا رجلا آخر.

_"أتذكرين؟، عندما مرضت أمّي يا سيّدة سميحة "

_" و هل أنسى؟!،كانت أيّاما صعبة عليك، ما شأنها و بلوتك؟ "

_"كنت،كنت "تهدّجت نغمتها و انهارت باكية "مضطرّة "وفجأة وقفت سميحة على قدميها، وقد تغيّر لون وجهها.

_"أثيل،هل،هل؟ "و سرت في جسد أثيل قشعريرة باردة و خافت،خافت كثيرا .لقد فهمت سميحة بسرعة.

_"أقسم أنني كنت مضطرة" و مرة أخرى طفقت تبكي، وأعصابها تهوي إلى الانهيار.

_"أخبريني أنّها عظامي، أتوسّل إليك،أخبريني أنه صرير عظامي" وأطلقت صيحة. ما هذا الذي تتفوه به هذه المجنونة؟" ليس الصحن، ليس الصحن، أقسم أنني سأكسر عظامها" واندفعت خارج الغرفة، ثم سمعت أثيل وقع خطواتها الهائجة نحو المطبخ، من المؤكّد أن صحنا انزلق من يد سالي المتعجّلة المرتعشة، فارتطم بالأرض وتهشّم إلى قطع صغيرة. الأمهات لا يغفرن لغير أنفسهنّ كسر أحد الصحون،إنهن يعلّلنّ لذواتهنّ أي سلوك طائش، ولكن ليس لأبنائهن.

_"ما هذا يا ريحان؟" صاحت سميحة فزعة كأنّ عظما من عظامها قد تهشّم، ولو أنها تفضّل مخلصة أن يتحطّم ساقها على تحطّم أحد الصحون الغالية على قلبها، فالجبيرة تفي بالغرض للساق أما الصحن الغالي،،لن تنفعه أي جبيرة.

_"إنك غريبة الأطوار هذا المساء، أصبحت تكسرين الصحون أيضا، ليس من عادتك، ما خطبك يا فتاة؟.لم تتذوّقي أي شيء على العشاء، وكنت شاردة و تبتسمين كالمجانين، و الآن أراك تكسرين صحوني"

_" إن عقلها في زحل، أتعرفين زحل يا أمي؟" علّقت سالي بتهكّم

_"من هذا الوغد " أجابت سميحة مغتاظة

_"إنه كوكب و ليس رجلا" ثم عقبت عبارتها بضحكة مدويّة ،لكنها سرعان ما أوقفتها نظرة أمها النفّاذة الساخطة فكوّمت فمها بحركة واحدة، فيما بقي جسدها يهتز من أثر الضحك المكتوم.

_"احفظي لسانك، و إلا أرسلتك إلى زحل هذا .ليس وقت السخرية " قالت بصوت سليط

_"إنني آسفة يا أمي "اعتذرت ريحان بأدب "لقد انزلق من يدي".

_"ها انزلق إذا !!حتى عقلك انزلق من مكانه .أسرعا بتنظيف المطبخ بهدوء ولتذهبا إلى الغرفة "قالت بحزم ثم قفلت راجعة إلى الغرفة. وفتّشت عيناها في أرجائها فلم تعثر على أحد، لقد غادرت أثيل، غادرت دون أن تكشف عن السر.

بعد أن اندفعت سميحة خارج الغرفة، بهيئة ساخطة وملامح تشي باستعداد لقتال ابنتها المتسبّبة في تهشّم الصحن، تاركة أثيل في منتصف السرد، بقيت هذه الأخيرة لوحدها في غرفة كبيرة ذات جدران رمادية و ستائر مبهرجة، بقيت جامدة تنظر باندهاش إلى نقطة معينّة في الجدار المقابل، ثم سرعان ما بلغ مسامعها تأنيب سميحة لابنتها فأعادها إلى وعيها.

وبسرعة البرق وقفت على رجليها تبغي المغادرة، ما هذه الحماقة التي كانت سترتكبها منذ قليل!، كيف أطاعت غباءها بهذه السهولة، ثم مشت على رؤوس أصابعها دون أن تصدر صوتا كقط رشيق مكتوم المُواء، ومرّت إزاء المطبخ بهدوء كنسمة هواء دون أن تلاحظ الثلاثة جسدها وهو يغادر المنزل، لأن الباب كان مشقوقا شقّا ضئيلا لا يفي بغرض المراقبة.

فتحت الباب بلطف ثم أغلقته خلفها، وهي ترتجف بحمى الذعر، ليس ذعرها الأول الناجم عن سماعها نبأ فقدان خليل القدرة على المشي فحسب، بل إن ذعرا آخر طوّقها، لقد كانت على وشك البوح لسميحة بمخازيها، ما هذا الذي اعتراها؟ما هذا الذي دهاها؟أكانت تصطاد كراهيتها بحمق فائق؟ أكانت تبتاع احتقارها إلى آخر نفس لها؟ كيف راهنت على أن سميحة ستتفهّم

فعلتها؟ كيف اجترّت هذا الأسلوب السخيف في البوح بأسرارها تباعا؟ وفجأة نما في قلبها كره ذاتيّ، كرهت نفسها الخرقاء، كرهت سذاجتها العمياء و فطنتها الخامدة.

لا تزال يد الله رحيمة بها، وهو ساتر عليها، فلماذا تتطوّع كريمة لتعرض عارها و كأنها أتت صنيعا من النوع الممتاز. لكأنّ وسام الشرف عُلّق على صدرها بدل وسام العار. من الآن فصاعدا ينبغي عليها أن تحتفظ بلسانها صامتا، ينبغي عليها أن تكرّس طاقتها لإبقاء سرها طيّ الكتمان.

وصلت في هذه الدقيقة إلى أمام بيتها، ووقفت هنيهة قصيرة تجفّف عينيها من أي أثر للدمع، وترتّب أحاسيسها المبعثرة، مسكّنة اضطرابها الفوّار، استعدادا منها لأي لقاء عرضيّ مع أمّها، لقاء سيمخض عن عدد هائل من الأسئلة، ومرة ثانية انذهلت ذهولا صارخا من السذاجة البهيميّة التي كانت ستسوقها إلى الاعتراف، و ألفت نفسها في مخزن التوبيخ الذاتيّ.

كان حريّا بها التدقيق أولا في الأثر العميق الذي ستخلّفه مكاشفتها في نفس السيّدة المحافظة، فهي رغم تهوّرها و طيشها ثم تصرّفاتها الصبيانيّة الخرقاء، لم تهجر أصول نشأتها الورعة، التي تنصّ على ضرورة التزام الفتاة بتعاليم الشرف والفضيلة . ولن يشفع حبّها الكبير لها. لن يشقّ لها طريقا سالكا للغفران.

تنفّست بعمق، و تفشّت فيها راحة نفسية، وهاهي الآن بدل جلد نفسها، تشعر بالامتنان لريحان، فلولا أن الصحن انزلق من اليد المرتعشة ثم تهشّم لكانت الآن سميحة تشرّع أبواب منزلها على أوسع ما تستطيع ثم تطردها بلهجة متقزّزة قائلة و عيناها تبرقان اشمئزازا

-"لا تظنّي أنني سأخبر أحدا عما أفشيته لي منذ قليل. ليس من أجلك أنت،لا، من أجل تلك السيّدة المسكينة التي لو اطّلعت على فعلتك، لماتت من فورها ".

_"لا ليس ذلك بالعذر المقبول مطلقا. لا تجرئي أبدا على تبرير عارك، ليتك لا تصبحين مُنفّرة أكثر من هذا فتبرريه ".

ما كانت تلك الخطوة الحمقاء لتبدو لها كارثية لولا معرفتها الجيدة بهذه المرأة أيضا ، قد تتفهّم وضعها الحالي بحبّها المستحيل الذي يطلّ عليها من نافذة الهذيان،و قد تنتقص من قدر مشاعرها و ليس من الصعب أن تغيّر رأيها في اليوم الموالي فتُشجّعها على المضي قدما، و تستطيع بنفس المزاج المتقلّب و النفس المرهفة أن تقطع معها أميالا إليه، بل إلى أي مكان بالدنيا، لأنها مولعة بها و بتربيتها رغم ما تبديه من دعابات مضحكة، و الله وحده يعلم أنها قادرة على فعل أي شيء لأجلها،و لكنها لن تقطع إليها الشارع الضيّق بينهما بهذا الذنب الوضيع.

بينما هي تصعد درجات السلّم على رؤوس أصابعها، شعرت بسكينة مفرطة. وكان جليا أن أفراد البيت قد آوى كل منهم إلى غرفته، الحمد لله أن أمّها لم تغرس نفسها أمام الباب منتظرة

عودة ابنتها، والحمد لله أن ميرنا التي غدت تشغل وظيفة جديدة "القناص" قد انشغلت بقضية ما، فلم تعمد إلى انتظارها، فقط لتُذكّرها خرساء أنها تمقتها. و عندما بلغت غرفتها ودلفت إليها. كان أول ما فعلته أن أغرقت الغرفة في ظلمة حالكة، صافقة فمها مستمرة برهة ضاغطة عليه، مسندة ظهرها إلى الباب.

وفي العتمة السوداء اهتدت إلى سريرها ثم اضطجعت عليه وطفقت تفكّر، ليس في كذبة معقولة توضّح بها لسميحة قضية السرّ الدفين،ليس ذلك ما كان يشغل تفكيرها الآن، بل كيف تساعد ذاك التعيس المسكين وتخرجه من جحيم الفقدان و الهزيمة اللذين مُنيا بهما في آن واحد.

عاودها الألم الضليع مرة أخرى فيما انقطع نهر أفكارها، ليس مصابه بالكابوس الذي سيذهب لشأنه بعد أن تستيقظ من نومها، وليس بالوهم الذي لو قُدّر لها اختراقه إلى الجهة الأخرى لنعمت بالطمأنينة. ليس إلا الحقيقة، وهكذا وجدت نفسها تواجه عزلاء عدوّا عاقّا أقوى منها ،عدوّا جاسرا، يريد أن يسرق منها حبيبها، أن يسرق منه لمعته و اندفاعه وشهامته وشبابه. هذا الذي سخّر كلّ قوته إلى عزله في بيت مهجور ثم قتله ببطء،ااه ما بيدها لتفعل؟!ما بيدها لتفعل و هي معدومة السلاح.

انقضى أوّل الليل، ولا تزال مستلقية تتقلّب من حين لآخر، لم يشقّ النوم طريقا إلى جفنيها المتعبين ،كانت عيناها مفتوحتين في الظلام وعقلها متيقّظ متحفّز للتفكير،و يداها تتنقلان آليا من صدغيها الى صدرها مرورا بوجنتيها مطلقة أنفاسا ثقيلة. إنها تودّ تصفية ذهنها "يا الله أمددني بحيلة مناسبة، ياالله اطرد اليأس عنه حتى يعود كما كان ".

سرعان ما سئمت من تمددها دون فائدة تذكر. فجلست على السرير ضامّة يديها أمام فمها، و الصراع في رأسها ما ينفك يزداد و يزداد، كان عقلها المشتّت ينتج أنواعا من الأفكار، غير أنها نبذتها بعد خضوعها لمعايير المنطق و المعقول.

"لا ،لن تذهب إلى بيته، إن سميحة لا شكّ ستخرج عن رباطة جأشها ثم ستصفعها هذه المرة. وستتهّمها في عقلها، ليست بالفكرة المستحسنة ثم لتفرض أنّ سميحة شاركتها الرأي، إنه لن يرضى بمقابلتها لعدم معرفتهما ببعضهما، ثم ماذا عساها تستفيد.لا شيء لا شيء ".

_"لا لن تذهب إلى مقرّ عمله، لتطلب إليهم جميعا دعمه في هذه المرحلة. أي فائدة ستعود عليها من هذه الخطوة ،إن سميحة على وجه التحديد ستصعق إن ما اقترحتها أمامها ".

_"لن تزور أقاربه كذلك. إن لهذه الزيارة وقع رهيب على مخيلتهم، ماذا سيظنون بها، ومن أين لها بعناوينهم؟".

كل الخواطر كانت تصل في نهاية المطاف إلى طريق مسدود، بدون نتائج تكرّم مجهودات الوسائل، لو أنهما يعيشان تحت سماء مدينة واحدة ، لتوفّرت الأدوات و لغدت النتائج أقرب إلى النجاح منه إلى الفشل ، أي عقوق هذا الذي يلفّ ذهنها!.

قفزت بحركة واحدة من السرير لتذرع أرض الغرفة، وتحوّل انفعالها إلى دروب من العصبيّة، فشرعت تلوّي يديها، فهي إلى الآن لم تظفر بفكرة منطقية، وعندما توقفت قليلا مضت نحو النافذة لتفتحها، كانت ليلة صحوة دافئة من أيّام أيلول الأولى. وكان السكون يلفّ الشارع كله، ولم تسمع إلا ضجيجا عاليا بعيدا آتيا من شوارع أخرى، و فكّرت و الأسى يتولّاها أن الخريف يُبرق برسائل تبعث على الكآبة و عندئذ أغلقت النافذة بتعجّل و عادت أدراجها إلى سريرها.

على نحو مفاجئ و من أعماق الظلام الدامس، شقّ نور فكرة وديعة دربه إلى عقلها، فأشرقت نفسها، وتلاشى غمّها على جانبي الدرب الذي يكتنفه الظلام ، كأنها حقنة دواء شافية، وما هي إلا لحظات حتى رقصت ابتسامة على شفتيها "ليست بالمحاولة السيئة، رغم أن نتائجها غير مضمونة،سأنفّذها على أية حال، لن يضيرني أن أنفّذها، نعم،نعم لن أخسر شيء، ليس لدي بديل آخر،قد لا أكون مصيبة، ولكنها محاولة على أية حال "ورفعت رأسها إلى السقف ثم شعرت بالامتنان والشكر الغزير "لا ليس هذا بضلال، ليس بغي ولا بضلال لست واهمة، أنا أحبه وسأحبه إلى الأبد، ولن تمنعني قوة على وجه الأرض أن أحبه، لن أسمح له بعزل نفسه عن الدنيا فيما هو بذاك الحماس، و تلك الطاقة المتفجّرة ".

اتّجهت بكل تفكيرها إلى خطتها الجديدة واضعة نصب عينيها الوسائل التي ينبغي اعتمادها وشدت للأمر مئزرها، وأحسّت واللهفة تغمرها أن قلبها يخفق كجناح عصفور وأن وجنتيها اصطبغتا بلون الأمل الورديّ، وبيد متوترة تحسستهما، كأن تدفّق الدم إليهما قد ولّد حرارة قوية، ثم ما لبثت أن خاطبت نفسها بأسلوب عمليّ، آمرة ذاتها بالتزام الهدوء، آملة بهذه الحركة تصفية ذهنها.

انطلاقا من الغد سيبدأ عهد جديد في حياتها، ستكون قريبة منه، من المحتمل أن لا تنجح ولكن لا ضير من المحاولة، لن يعرف اليأس ولا الكلل طريقا إلى قلبها. ستضع فكرتها قيد التنفيذ وإن وقفت قِوى العالم بأسره في وجهها.

الفصل الحادي عشر

"السيّد خليل

أودّ في رسالتي الأولى تقديم نفسي. اسمي هو أثيل، شعاري المفضّل في الحياة :ستشرق الشمس من جديد، وأنا من مدينة س.ب، لا يمكن أن يُذكر أمامك هذا الاسم دون أن تستحضر في مخيّلتك الأسطورة الشهيرة المتعلّقة بها، أنت تعرفها بلا ريب؟ أسطورة المرأة الثكلى التي تمدّ يدها باكية إلى البحر. يروى أنّها أرسلت ابنها كارهة في رحلة بحرية من أجل تحصيل بعض المهارات المُهمّة ضمن زمرة من الشبان المشتركين معه في السن. ولكنّه دون المجموعة لم يعد إليها حيث أنه مات غرقا. ولهذا استمرت تنتظره مادّة يدها إلى البحر تبكي بحرقة، ترتّب عن ذلك أنها أوشكت على فقدان بصرها إلى أن خاطبها ذات مرة هائجا تقريبا:

(اسمعي يا سيّدة، لم آخذه منك إلا تنفيذا لمشيئة سماويّة.و أنت لست عالمة بالخير خلف ذلك. فإنّه لو عاد إليك؛ لسبّب لك ألمًا أعمق من الذي تتجرّعينه الآن، اعلمي أنّ خلف كل مصيبة منحة و خلف كل فاجعة خير، وخيرك في خسارته. كما ترى يا سيّد خليل هناك دائما حكمة خلف المآسي التي نعتقد أنّها نهاية العالم، ودائما ما تكافئنا الحياة ببديل عوضا عن الذي خسرناه بطريقة بسيطة أن نخرج للبحث عنه.

أدرك أنني متأخرة نوعا ما للمشاركة في التجربة الميدانية التي أعلنتها السنة الماضية بخصوص نقل التقارير حول الظروف الاجتماعية التي لا تستطيع أن تصل إليها ،أذكر حينها تأكيدك قراءة كل رسالة تصلك،و نظرا لعدم إعلانك عن أحسن تجربة وصلتك ،استنتجت أن أيا منها لم تنل إعجابك ،أطمح لنيل ذاك الحظ.

من الآن فصاعدا سأقدم لك تقريرا شاملا عن كل الوقائع اليوميّة التي تمرّ عليّ بالمدينة التي أقطن فيها، بعد أن عيّنت نفسي بوظيفة صديقتك الجديدة بترخيص جاهز منك، وباعتبارك أعلنتك أنك صديقنا جميعا. أنا واثقة أنّ تلك الابتسامة العريضة التي تطبع على شفتيك بينما تقرأ رسالتي منبعثة من عقيدة امتلاكك معجبات بحجم شعر رأسك، ،أنا فتاة مجتهدة فقط ،مغرمة بقراءة الكتب والجرائد،كنت أحلم أن أكون صحفية لكي انقل الصورة الحقيقية للحياة الخفية و العالم العميق و رفع الستار عن المسرح المظلم لحياة بعض التعساء، و لكن القدر أعطى رأيا آخر .

أشعر بالحماس و شرع خيالي الخصب يحيك و ينسج باحترافية ،سأؤدّي وظيفتي بإخلاص تام.

أجري استعداداتي حاليّا للذهاب إلى العمل، ليست هناك ضرورة لتسألني ما هو عملي؟ لأنني سأحدثك عنه مساءً، فأنا في عجلة من أمري. ستتعرّض للإزعاج بشكل متواصل لا يوصف وغير منتظم كذلك، بناءً على وظيفتي الجديدة، تترك صديقتك الجديدة البيت بعد عشر دقائق وإن تأخّرت سيتم طردها، وليس أسوأ من بقائها عاطلة بدون عمل، طاب يومك يا سيّد خليل .

ملاحظة: تذكر دوما أن الشمس ستشرق من جديد

قلمك الجديد أثيل مع أجمل التمنيات "

" السيّد خليل

مساء الخير، لقد عدت من العمل لتوي. وهرعت لأنقل لك تقرير اليوم الأول في الوظيفة الجديدة التي أحاول التأقلم معها، أنا أعمل بمكتبة لبيع الكتب القديمة، إنّ مالكها رجل طيّب ومهذب وفي الوقت ذاته متزمّت ونزق بخصوص الإجازات و يحارب كل فرصة أمامك للتنزّه أو المكوث بالبيت في فترات المرض و الإرهاق، بمقدوره تحمّل أي نبأ غير سار حيث أن له قابلية لذلك. أما أن تنتزع منه الموافقة لأجل عطلة قصيرة؛ فهو يفضل أن يُعدم السمع و الإحساس.

اسمه السيد إبراهيم، له عينان باردتان، ووجه مقطّب وشارب كثّ معقوف إلى أعلى وصلعة ملساء، يشبه زعماء القبائل المتعصّبة القديمة، عندما تنظر إليه يقتحم عقلك منظر السيوف القاضبة بصليلها المرعب، يرافقها هتاف الحرب وجلجلة الفرسان، وسحب الغبار الأحمر وصهيل الأحصنة الأصيلة. بالمجمل هو يحارب ضد العطل و ضياع الأموال، إن لم تقتنع برأيه من المرة الأولى ينظر إليك بتجهّم دون أن ينبس ببنت شفة ، و تقريبا يبذل بعض معارفه جهدا جبّارا كيما يحبّوه، ومن العقائد التي لا تحتاج نقدا أنه لا يحفل سواءً أ أحبه الناس أم لا، في الواقع أنا أحترمه كثيرا، وأميل إلى الاعتقاد أنه رجل جيد، إن الناس يحكمون على القشور، ولكن الصميم لا يعلمون عنه شيئا، ولو أنهم بذلوا مجهودا قليلا ليعرفوه على حقيقته؛ لكان رأيهم فيه أفضل، لا سبب يدعوك لأن تدمدم بين أسنانك، لأنني في صدد ضخّ التقرير بتفاصيله، أبدأ من ركضي في الشارع مثل العدائين لأجل الوصول في الموعد قبل أن تثار غريزة السيّد، بسبب تأخّري الثالث عن العمل خلال شهر و نصف، ثم تمّ إجراء بعض التعديلات الطفيفة بناء على أوامره الهدارة، كوضع الروايات الأجنبية مع كتب الفلسفة، والكتب التاريخية مع الكتب العلمية ،و أصر على عرض الكتب الرومنسية في الواجهة على سرور مستور و مضض موارب ، لأنها الأكثر طلبا ، و تذمر من محتوى بعضها الذي لم يقرأه ،بل سمع عنه ، و اعترض على أغلفتها غير المحتشمة و توعّد دور

النشر بالتأنيب بينما نسي لوم نفسه لبيعها قائلا أن السيئات ستنال كاتبها و ناشرها ، لا أستطيع استيعاب قرارات الرجل الفجائية، التي لو حدث أن ناقشتها أنا أو إحدى الزميلتين لسعد بتنبيهنا أنه يعلم ما يفعل، يشهد الله أنه إجراء فاشل كامتحان فجائي، ثم لا شيء جديد، كان عدد الزبائن اليوم قليل مقارنة بالأمس، فسرحت أتأمل في غارات شرود عن القراءة ، و قد اتّضح لي أن الخريف عازم على جعلنا نكتئب هذه السنة، ألا تظن أن قدومه المبكر يسوق الإنسان إلى الانزواء في البيت؟ تصوّر معي رياح تعوي كالذئاب، وأمطار غزيرة تختطف الناس من الخارج وتحتفظ بهم رهائن في البيت،أشجار عارية ،جو بذوق الخسوف ، وردم تحت بطانيات سميكة قطنية للتدفئة، ونوافذ مغلقة طيلة الوقت، وليس من الحكمة عدم شروق الشمس التي أعشقها، و تحوّلها إلى مجرمة فارّةٍ من عدالة الخريف تختبىء وراء السحب القاتمة، كأنها مرسلة في مهمة عاجلة مملة تنفذها وتعود بسرعة قبل أن تحلّ عليها اللعنات، يطلق سراحها بعد تفاوض عسير معها وإملاء الشروط عليها كعدوّ منهزم. وقبل أن تتبختر بضعة أميال يقبض عليها مجددا، ما أشد مشاكسات الخريف، أفشل في جعلي نفسي أتفاءل بمقدمه، عقب إعلانه التجهّم من الأيّام الأولى، أشكّ أنني سأحتفظ بلساني صامتا، سأقدم على التذمر منه في معظم الرسائل.

أثيل صديقتك التي تكره فصل الخريف.

ملاحظة، ربما تدهش إن عرفت أنني من مواليد الشهر الثاني من هذا الفصل، هل تصدق؟! هل سمعت بإنسان يمقت الفصل الذي ولد فيه، أيعقل أن تكره أنت الشتاء لأنك مولود بشهره الأخير؟،على الأرجح أنت تعتبر ذلك فكاهة مسليّة، مطلقا لن أحبّ هذا الفصل،لا أحبه لأسباب مناخيّة، إنه متقلّب المزاج، و مردّ ذلك الى رغبته الجامحة في جعلنا نكتئب"

" السيّد خليل

انتزعتني أمّي الغالية من مكاني أمام الحاسوب، لغرض تناول العشاء مع شقيقتيّ، ذات يوم سأخبرك عن أمّي و عائلتي الصغيرة، عطّلت بذلك مَهمتي في عرض تفاصيل اليوم، خضنا أثناء ذلك نقاشا فعّالا يكاد يكون سياسيا حول تجهّم اليوم، أطلقت عليه والدتي العزيزة اسما مميّزا [اليوم السعيد]، حاولت أن لا أستاء، على أنّ علامات الاستحسان و القبول انسحبت من وجهي، أما لماذا دلّلته أمّي بهذا الاسم: إن فطرتها المساندة لأماني الفلاحين وحقوق الحبوب والقمح، ومسرّات الحقول والحيوانات تقي حبورها الرقيق في رؤية الشمس مشرقةً متلألئة، حسنا أقرّ أنّ أكثر اللحظات تجهّما تجلب السعادة أيضا من وجهة نظر أخرى، هل أعتزل التذمّر من فصل الخريف إذا؟!هل أحيّيه غدا بوجه منشرح و ابتسامة ودودة، هل أحرّره من لقب الخصم المشاكس؟ ليس من بديل عن ذلك.

حسنا يا سيّد خليل، لنعد إلى موضوعنا، بعد أن تأمّلت الطقس في الخارج، عدت إلى القراءة، كان كتابا فلسفيّا مملّا، غير مقنع ومعقّدا كذلك، قد يصيبك بتقلّب المزاج قبل بلوغك الصفحة العاشرة،لماذا يعقد الفلاسفة الحياة على هذا النحو الغائم بينما هي بسيطة جدا ،عشها كما تريد و انتهينا ، وهكذا عزمت على إعادته إلى مكانه. تسأل إن كنت قد قرأت جميع الكتب !بالطبع لا ، يستغرق قراءتي للكتاب الواحد شهرا على الأقلّ،أحب رواية الجريمة و العقاب العبقرية كثيرا ،حتى إنني قرأتها ثلاث مرات ، انصرفت من المكتبة عند الساعة الرابعة، يفشل السيّد إبراهيم في إطلاق سراحنا قبل ذلك، يستمتع وهو يشاهدنا نغادر عندما يتجاوز العقرب الطويل الرابعة ببضع دقائق.

أثيل صديقتك المخلصة"

"السيّد خليل

بينما كنت متوجّهة إلى سريري، عجزت عن منع نفسي عن كتابة هذه الرسالة القصيرة، أحسست بضرورة إخبارك أنّك شخص موهوب و متواضع و مؤثر للغاية و قدوة فاخرة ، أجهل السرّ الكامن خلف هذه الرغبة الهستيريّة في إخبارك ذلك، يحبك جميع الناس،تستحق بجدارة نظرا لما قمت به من مساعدات جيدة ، لا يمكن أن تصفّني بمنعدمة العقل، هل فكّرت بشيء من هذا القبيل؟،لا،لست قاسيا إلى هذا الحد ،إنّك تخاف أن أستقيل خصوصا أنني أبدي تميّزا ساحرا في الوظيفة. لقد أطلت الرسالة أكثر مما نويت،طابت ليلتك أيها السيّد المحبوب

أثيل المميّزة دوما "

"السيّد خليل

صباحك سعيد ومشرق كالشمس التي أؤمن بشروقها اليوم، رغم أن هزيز الريّاح المولولة يحذّرني من التفاؤل، إنّ حياتي رتيبة كما ترى: استيقاظ، تناول الفطور رفقة العائلة،ذهاب إلى العمل، القيام به على أكمل وجه ثم العودة إلى المنزل مساءً، أنا أتمتع بروح المغامرة و أحب التجارب المحفوفة بالأخطار ، ويحصل ذلك أحيانا برفقة إحدى الجارات العزيزات على قلبي. قبل أن تنطلق رسالتي إليك، أودّ منحها قالبا مختلفا، قرأت فقرة من كتاب، أؤكّد لك أنها علقت برأسي حتى حفظتها عن ظهر قلب و سأعرضها عليك [من سمّ الأفاعي و العقارب نصنع العقاقير،و من سواد النفط نصنع موادّا للتجميل. ولولا الظلام لما ميّزنا النور، ولولا دقائق الأسى لما ميّزنا السعادة، إنني أؤمن أنّ جوهر الحياة هو الرضا الكامل بأقدارنا و عثراتنا و التأقلم معها، تعزف الحياة اللحن الذي تريد و ليس لنا كبشر إلا الإصغاء، فهي لن تأخذ برأينا قبل بداية العزف و إلا لاختار كل منا لحنا يناسبه، المشاكل و السقوط و الفقد جزء من هذه الدنيا وإن لم تحدث هذه

المشكلة حدثت تلك، وإنّ سرّها هو الوقوف بعد السقوط، سنتعثر دوما شئنا أم أبينا، من يتقن فنّ النهوض سيتقن أي شيء آخر، لأنها قضية الحياة الرئيسية، حاولوا دائما، لأنّ الحياة لا تكترث إلى قهقهاتكم المرتفعة لتعبّروا عن كونكم سعداء أو دموعكم الرقراقة لتعبّروا عن كونكم تعساء. إنّها تحتاج أن تقفوا أمام محنها، وتذكروا جيدا أن السعادة والتعاسة والمشاكل و الراحة ليسوا دائمين تماما كالفصول .كل منا يعتقد أن آلامه فوق الاحتمال وأن مشاكلة معقدة فوق الحلول، أن همومه تصنع جبالا وأن أحزانه سرمدية، لكن ذلك غير صحيح فكل منا له قسمته التي ينبغي أن يرضى بها، السعداء ليسوا أشخاصا تخلو حياتهم من المشاكل، بل من استطاعوا التكيف معها و البحث عن حلول دون أن يعتبروا أنفسهم ضحايا، وليشهد الله أنني كنت منبطحة على الأرض ذات يوم مُثخنة بالجراح وقلبي منفطر مفجوع، وأدرك معنى الوقوف بعد السقوط، أي أنني أدرك جوهر الحياة و محرّكها الأساسيّ المخلصة دائما أثيل "

" السيّد خليل

عمت مساءً

لقد أشرقت الشمس كما أملت، وبينما رحت أراقب أشعّتها الصفراء، استحضرت وجهة نظر والدتي بالليلة الفارطة، إنّها مصيبة، قررت أن أشاركها رأيها، إنه فصل كئيب، لكن في الوقت ذاته لا أميل إلى جعل السنة كلّها فصل صيف، ففي هذه الحالة لن يشعر المرء بالصيف دون خريف و لا بالربيع دون الشّتاء، حبّذا لو تمطر، وحبّذا لو تهبّ الرّياح قويّة، أنا متلهفة الآن لسماع صفير الرياح، وتساقط أوراق الشجر، كيما أحسّ حقا بمظاهر فصل الخريف، وأتمنّى أيضا لو تهطل الثلوج البيضاء بكثافة في فصل الشتاء بحيث يتعسّر علينا الخروج من منازلنا، حتى إذا أتى الربيع، شعرنا بدرجة التغيّر، ستعود العصافير، وتزهر الحقول، وتتفتّح الأزهار، وتخلو السماء من السحب القاتمة. ألست متناقضة و مجنونة ؟أكاد أجزم أنّك تطلق عليّ هذه النعوت

أثيل الصديقة المزاجية"

" السيّد خليل

قبل أن أقصّ عليك الذي حدث منذ قليل في الشارع، سأعلمك بقراري رفع الكلفة بيننا وبهذا ألغي كلمة السيّد لأنها تزعجني ، لا تشغل نفسك بإبداء استحسانك، واثقة أنّك لا تمانع،فالسكوت الدائم علامة الرضا، خرجت كالمعتاد من المكتبة يا خليل، استوقفتني السيّدة بركة، وهي صاحبة المحلّ المجاور للمكتبة التي أعمل فيها، إنّها عجوز غريبة الأطوار، و ليست أقلّ غرابة من السيّد إبراهيم، فهي تنادي الناس بأسمائهم مباشرة ملغية الرسميّة الاجتماعية بالرغم من عدم وجود صلة قرابة بينهم أو معرفة متينة، ولا يكفّ السيّد عن انتقاد أسلوبها الجريء

وسذاجتها المستفزّة . أوقفتني لتنقل إلي انشغالها الحانق المتمثّل في تذمّرها من الطبيب الذي أخطأ فوصف لها دواءً للمصابين بالأمراض العقليّة بدل دواء يساعدها على النوم، لا تشكّ أبدا بمهارة الطبيب أو تمرّسه، ليس ذنبه على أية حال، هي تشتكي من أيّ شيء في الدنيا حتى النملة التي تدبّ بعيدا عنها، وطبعا استمعت لها بكثير من المتعة حتى أوشكت على الانفجار من الضحك، وعندما حلّت عليّ بركات الله وأنقذتني امرأة يستهويها التنقّل بين المتاجر وتمضية الوقت في الثرثرة النسويّة، انسحبت من بينهما وقفلت عائدة إلى البيت. التقيت صدفة بجارتي سميحة، لقد كانت تغلي من الغضب، غضبا لا يوصف، و كان وجهها غائما يبشّر بشرّ مستطير .اسمح لي أن أقدمها إليك، إنّها مخلوق متوهجّ متحمّس بروح مرحة، تسري إثارة الشجارات في دمها، تبرق عيناها بصورة آلية عندما تدور الأحاديث عن المشاريع، من المستحيل أن يفوتك ملاحظة ذلك منذ أول لقاء يجمعك بها ، هي في السابعة و الأربعين من عمرها، و لكنها تبدو أصغر سنّا، و كذلك هي تدّعي أنّها في الأربعين فقط و ذات مرة مستهترة، ادّعت أنّها في الثلاثين حتى بُهت مستمعوها، بيد أنّها لا تأبه مطلقا إن ما كانوا مطّلعين على كذبتها ، ستدهش عندما تعلم أنّها أقرب صديقاتي، لا سيما أنني في السادسة والعشرين، لقد توفّي زوجها منذ ثلاث سنوات تقريبا، شهيدا على حد قولها، فلقد أرسلته في يوم حارٍّ جدا ليشتري لها غرضا ومات في الطريق،ليرحمه الله، حسنا سأروي لك التفاصيل الباقية بعد قليل في رسالة أخرى

المخلصة دوما أثيل"

"عزيزنا خليل

مرحبا

سأناديك عزيزنا أيضا وأرجو أن لا تكتب لي قائلا إنني أقفز أكثر مما ينبغي، تستهويني القفزات النوعيّة السريعة، لهذا أرحّب بخطوة رفع الكلفة بيننا، فنحن حتما صديقان مقرّبان الآن ولا حاجة للرسميّات، سأكمل لك الذي حصل مع السيّدة سميحة، في حال لم تكن تعرف إنسانا يموت حبّا في المشاكل وإحداث الشجارات؛ فسيسعدك التعرّف على السيّدة سميحة كما سبق و أخبرتك، لها تاريخ طويل استثنائيّ حافل بالفشل و الخيبة، حسنا لقد ذهبت إلى مبنى البلديّة من أجل رخصة محلها الجديد للتجميل، و يبدو أنّهم لا يبيتون نيّة منحها إياها ولهذا أخذوا يماطلون ويطرحون الأعذار أمامها، وصباح هذا اليوم تهيّأت نفسيا لاستلامها وأشاعت بين الجميع نبأ استلامها قبل ظهر اليوم، علاوة على أنّها وعدت كل نساء الحيّ بيوم مجانيّ لهن من أجل تصفيف الشعر. أشكّ أن امرأة واحدة رحّبت بهذه الفكرة، بل على النقيض تماما، أربدت وجوههنّ خوفا على شعورهنّ لعلمهنّ بالتجارب الحصيفة الحية أنّها امرأة متهوّرة، ما إن وصلت إلى البلديّة حتى

أعلمها الموظّف أن هناك نقصا في الأوراق فاشتعلت غضبا و غيظا، و سرعان ما صرخت في وجهه ثم جمعت الناس حوله، فاحمرّ وجه الرجل و انتفخ من الفضيحة (هكذا أخبرتني)، ذلك أنّها ذكرت أمور محرجة عن سلوكه بالخارج، في الواقع وأحمد الله، لم تطلعني على هذه الأمور، ولكنها أجرت تحريّاتها عنه، ثم فضحته أمام الجميع، راحت تتوعّد و تهدّد بعودتها إليه في الصباح الموالي لتثير شجارا أعنف عن سابقه، إنّها تستيقظ كلّ صباح و فكرة واحدة تغزو رأسها العنيد: الشجار، الشجار

أتمنّى أن لا تكون رسائلي مزعجة بالنسبة إليك

أثيل

ملاحظة قصيرة لا تقرأ الرسالة إلى منتصفها، اقرأها كاملة يا عزيزي".

" عزيزنا الرائع خليل

أتدري ما الذي خفف من ثورة السيّدة سميحة، وسكّن غضبها، سأذكر بهذه المناسبة أكثر اثنين تمقتهما السيّدة سميحة من كل قلبها: السيّد صبري و زوجته جميلة التي التقطتهما خارجين من بيتهما، تحاول جاهدة انتقاء أقبح الألقاب بغية استخدامها لرشقهما بها، وتطوّر فيها بقدر ما يسعها بحيث تشيع في الأوساط وتلقى ترحيبا، زوج من الأدمغة المختلّة ،مصّاصو دماء. وأحيانا تطلق عليهما ألقابا غريبة أخرى، أذكر مرة أنّها أطلقت على السيّد صبري اسم القرش الشرس، وعن زوجته،الغوريلا و ذات الرداء المريع، و ترجو من صميم قلبها أن يتمّ تصنيفهما ضمن قائمة أشرار التاريخ في أقرب وقت ، قد تتساءل عن السبب الذي يجعلها تكرههما !السبب بسيط، وجدت السيّدة سميحة في إصرار السيّد صبري على المشاركة في الانتخابات حجّة معقولة .أما ما يتأصّل في خيالي منذ كنت طفلة صغيرة، فإنّ أوّل شرارة بينهما اندلعت قبل وقت طويل من أوّل اجتماع عقده السيّد صبري لأجل عرض مواهبه في اتقان الكذب و الترهات و البكاء المزيّف بينما يعرض برنامجه الانتخابي الملتوي، وإن كان يفعل ذلك أملا في النجاح، فإنّه لم يوفّق ولو لمرة واحدة، دائما يخسر، ودائما يتوعّد أنه سيفوز المرة المقبلة، وتأتي المرة المقبلة وتروح ولا يحصد إلا الخيبة، أجل، هي تمقتهما لهذا السبب وتزعم أن كل من يشارك في الانتخابات هدفه هو تغيير حياته وليس حياة الشعب. حسنا منذ أن خسر السيّد صبري في الانتخابات الأخيرة أصبح هو و زوجته نادرا الظهور في الشارع خاصة إن كانت السيّدة سميحة تحتلّه،بعد أن تفاخرا طويلا بفوز السيد وتربعت غريزة الطبقة الأرستقراطية على عرش سلوكهما ، لا يتورطان بالخروج من بيتهما ويتحاشيان لقاءها، يرسلان أحد الأحفاد الصغار لتفقّد وضع الشارع من الجانبين، وما إن يتيقنا

أنه آمن حتى يخرجا من الجحر. ولأنّ حظهما كان تعيسا هذا المساء، اتّفق أن التقيا بها بينما هي متوجّهة إلى بيتها

صديقتك الرائعة أثيل"

ملاحظة: يحقّ لك أن ترسل رسالة لتمنعني من لفظ عزيزي، أو تمانع رفع الكلفة أو تعترض على أسلوبي في كتابة التقارير ، و لكن لا يحقّ لك معارضة صفة رائعة التي أطلقتها على نفسي.

"خليلنا الصامت

لقد دقّت الساعة التاسعة منذ قليل، تفرز عيناي اتّهامات نزيهة، وتزعمان أنني أتعبهما بالسهر إلى هذا الوقت، إنّهما دبقتان، نصف مغمضتين، هل أنا دجاجة؟فليس إلا الدجاج يخلد إلى القنّ مبكّرا برأيي الشخصيّ، سأحدّثك عن المعنى الحقيقي لسوء الحظ، عندما خرج الزوجان من البيت ثم ابتعدا قليلا عن عتبة الباب، اكتشفا المأزق الناضح حرجا، فامتلأ وجهاهما بالبؤس، لم تكن العودة سهلة حيث قبضت عليهما ثم انقضت أسرع مما توقّعا،و ما هي إلا ثوانٍ حتى شرعت تتشدّق عليهما فيما كنت أنهرها بعقلانيّة عن ذلك. إن ذلك محرج نوعا ما يا خليل،اااه لقد احمرّت وجنتاي من الخجل، بيد أن سلوكها في الشجار يطغى عليه طابع خارق من التسليّة،سأخبرك سرّا،ضحكت قليلا في داخلي من طريقتها في التهجّم عليهما،. إنّ ذلك غير لائق، أعلم أعلم،حتى أنت لن تستطيع التغلّب على الرغبة في الضحك عندما تثير السيّدة سميحة شجارا، و الأسوأ من ذلك أنّها تصمد بروح واثقة ثم تجادل و إن هي على خطأ.

راحت السيّدة جميلة تختبىء وراء زوجها و دفعته حتى كاد يقع، ولم يكن هو بحال أفضل، فقد أخفى وجهه عنها، صدقني لو توفّر لديه في تلك اللحظة خيار إجراء عمليّة جراحية سريعة لتغيير ملامح وجهه لما رفض مطلقا، المهم أن يتخلّص منها، وسمعته يطلب هامسا من زوجته عدم دفعه و أن تحميه من السيّدة سميحة؛ لأنهما امرأتان، على أن المسكينة لم تكن إلا أشقى حظا، وسرعان ما انهالت عليهما بفكاهاتها و هما ملتصقان بالحائط منكمشان (تشبه الجزّار يا سيد صبري تحتاج سكّينا و مئزرا ملطّخا بالدم، لا تبكِ مرة أخرى يا سيد صبري بينما تقنع العجول بحاجتها إلى السلخ، إنّك لتجرح قلبي، وأنت يا وجه الشؤم، ماذا كنت تقولين؟،،،) وسرعان ما انسحبا من أمامنا والسيّد صبري ينظر إليها نظرةً جانبيّة، قائلا: إنه سيّد فاضل وليس من الشهامة معاملة النساء بغير احترام، لو تعلم ماذا فعلت؟ قرقرت في ضحكها في منتصف الشارع، وقالت: إنّها أفكه دعابة سمعتها، وشيّعتهما بقصف شنيع لم يعرفا له مثيل. إنّها حقا امرأة غريبة الأطوار، هكذا تغيّر مزاجها من سيء إلى مشرق، فقط لأن فرصة سنحت لها فصرّحت بمشاعرها نحوهما ، هي مطلقا لا تتخلّى عن عاداتها، و لكن، ولكن، لم أر امرأة تكافح مثلها، إنها تسقط باستمرار، وما

تلبث أن تقف بعزيمة أصلب عن ذي قبل، لم أرها يوما تتحدّث عن آلامها أو أحزانها، أنا أحبّها يا خليل،أحبّها كثيرا و أرجو أن تحبّها أنت أيضا،أريد أن يحبّها العالم بأسره لأنّها تستحق، مثلك تماما ،,,تصبح على خير

الدجاجة أثيل

ملاحظة،ستنسى في اليوم الموالي أنّي نعت نفسي بالدجاجة،حيث أنني أفشل في كبح أعصابي عندما ينعتني أحد غير نفسي بهذا اللقب"

"خليلنا الوديع

صباح الخير . لقد شارف أيلول على النهاية، مرّ شهر على مزاولتي مهنتي التي حلمت بها ، لم أُخلّ بواجبي أو أبدي أي تقصير, هل تمنحني وساما شرفيّا نظير مجهوداتي المهنيّة؟ حيث إنني لم أتخلّف يوما عن مراسلتك و نقل التقرير بحذافيره؟أو على الأرجح أنت من النوع الذي يفقأ مرارة الإنسان قبل تعليق الوسام على صدره.

هاهي الأمطار الغزيرة تتساقط لليوم الثالث على التوالي، تدرك أنني سأجبر على حمل المظلّة في يدي و فتحها و إغلاقها،هل السماء حزينة يا ترى؟ يستهويك منظر المطر أليس كذلك؟ تحبّ الأمطار يا خليل،إلهي كما تحبها 'هكذا عبرت ذات مرة، هنا يكمن الاختلاف بيننا فأنا لا أميل إلى المطر كثيرا، كما أننا نجسّد مليون اختلاف بيننا،إنّك تعشق القهوة و تكتب مقالات عنها وتصفها بحبيبة قلبك، لكم هي محظوظة !!!في حين لا أحبّ احتساءها إلاّ مجاملة في إطار ضيافة لا تتيح الخيارات، أتكهّن أنّك تفرط في احتساء عزيزتك القهوة، وليست هذه العادة مدرجة ضمن النظام الصحيّ المعقول، تلقي على عاتقي الكثير من المسؤوليّات بالإضافة إلى كتابة التقارير. ألا أستحق رسالة شكر لأنني أحفل بصحتك؟ أو أنك تتشاور مع عقلك في جلسة عمليّة كيدة؟ . إن انتهيت أنت و عقلك إلى تجريدي من منصبي سأرفع عليكما قضيّة عدم دفع الأتعاب المكدّسة.

بالمناسبة أتخلّى عن أتعابي في حالة واحدة، إن أبحت لي الخروج عن النص و القول أنّك تملك أجمل عينين في الدنيا، وددت أن أخبرك بذلك، لا تبتسم على ذاك النحو المستفز وتسمح لخيالك بإطلاق الأحكام، فأنا لست أغازلك، ولكنهما جميلتان حقا. أنا ذاهبة إلى العمل، أعرب السيّد إبراهيم عن نيّته في مفاجأتنا و إنعاش معنوياتنا اليوم، بصراحة لا أستطيع أن أخمّن كيف سيفاجئنا؟ فهو لا يتقن إلا فنّ تقويض معنوياتنا، لن يرفع الراتب إن كان ذلك ما فكرت فيه، هل تعتقد أنّه سيمنحنا يوم عطلة، إن الأمر أشبه برؤيتك حصانا يمشي على قائمتين، ألمّح إلى عدم إمكانية ذلك.

إن تأخرت في مراسلتك فاعلم أن طارئا ما أخّرني لهذا لا تقلق

الصديقة أثيل "

" صديقنا الغالي خليل

إنّها تمطر بإفاضة في الخارج. إنّ إصابتي بالزكام و التهاب الحلق حتميّة لا مناص منها، وكانت أمّي تؤنبني لعدم ارتدائي ملابس كافية، في الوقت الذي ينبغي أن أخرج مثل سكان الإسكيمو من وجهة نظرها، لم أتطرّق للحديث عن أمّي وعائلتي، سأفعل قريبا. هل ينتابك الفضول لتعلم كيف أنعش السيّد إبراهيم معنوياتنا؟! إنّه نبأ أشبه بالقنبلة، خبر رائع يا خليل، يصلح عنوانا على الصفحة الأولى في الجريدة، ففي الوقت الذي أتذمّر فيه من ضيق الوقت وانعدام فرصة للتنزه، يطرق عقل السيّد أننا نحتاج إلى يوم راحة آخر بالإضافة إلى الجمعة، تصوّر لقد منحنا يوم راحة آخر، أصبح لدي يوما عطلة الجمعة والسبت. أليس هذا مبهجا !؟قد أبدو لك خرقاء أو طفلة تفرح بهديّة مغلّفة غلافا برّاقا ؟ لعدم معرفتك بنظرية السيّد حول العطل، إنه تنازل خارق ومخالفة عجيبة لطباعه الحادّة، بوسعك تهنئتي بهذه المناسبة السعيدة، أنت تظنّ أنه ينبغي علي أن أحتفل أيضا؟ سأفكّر

صديقتك الوفية أثيل

ملاحظة.خطر لي أن السيد إبراهيم فقد جودة قدراته العقلية، هل تنسجم وشكوكي؟ سأخبر السيّدة سميحة أن تنصحه بفحص نفسه عند طبيب مختص، لازلت لا أشخّص قراره إلا ضربا من الجنون "

"خليل البخيل الذي يقرأ رسائلي حتما و لا يتنازل ليكتب لي كلمة واحدة

لديّ كل الحق في هجائك أحيانا، فلا تنزعج من لفظ البخيل، لقد نمت الليلة الفارطة بوقت مبكّر تحت طبقات من الأغطية، لأن حلقي كان يؤلمني كما أن حرارتي ارتفعت، لم يسبق أن بلغت هذه المرحلة الزريّة من الزكام .لا يسلك المرض سلوكا حسنا بهذا الفصل؛ بل إنه يتغذّى من رداءة الطقس.

لا تنذهل إن ما أبلغتك أنني أحضر نفسي للتوجّه إلى العمل، ولو كنت مريضة، فغريزة السيّد إبراهيم العزيزة تفضّل زحفنا على بطوننا مثل دودة القزّ على التغيّب ، تعتقد أنه يحتاج حمّاما رغويّا لدماغه؟أعتقد أنه يحتاج عمليّة دقيقة.

لقد قرأت لتوي مقولة رائعة ، سأذكرها لك قبل أن أغادر"كن سندا لنفسك، اتّكىء على بعضك و انهض "،أتدري ما الغرض منها؟، أنوي تدوينها على أوراق بيضاء ثم إلصاقها على حائط المكتبة من أجل الموظّفة المسكينة التي تعمل معي، إنّها محبطة قليلا بسبب ظروف بيتية مجهولة،

أفترض أنها ستشجعها، لا أجيد رفع معنويات الآخرين يا خليل. أتمنى إتقان هذه الخاصية قريبا بفضل بعض التدريبات المثابرة ، سأنصرف الآن،أكتب لك لاحقا

أثيل المصابة بالزكام"

" فخر بلدنا خليل

هل بوسعك الإقرار بوجود طاقة خارقة في كل إنسان؟،انتعش قلبي عندما رأيت أثناء عودتي إلى المنزل مثالا بطوليّا و شهادة دامغة على ذلك، حفّزتني على روايتها لك، لمحت طفلا صغيرا يريد قطع الشارع، وبدا متردّدا خائفا من شيء ما. فرغم خلو الطريق، لم يتجرأ على العبور إلى الجهة المقابلة، أفترض أن أحدا حفّز فيه الخوف من قطع الطريق وحيدا، وفجأة وقفت عجوز طاعنة في السنّ في نفس جهته يفصل بينهما بضع خطوات .و أجزم أن بصرها ضعيف و سمعها ضئيل، و لولا ذلك لانتبهت للسيارة المسرعة القادمة، ما الذي حصل برأيك؟ ركض إليها يقبض على يدها النحيلة، وبيده الأخرى أصدر إشارة إلى السائق القادم بتخفيف السرعة؛ لأنه ينوي نقل العجوز إلى الجهة المقابلة، إنه لم يكن شجاعا لأجل نفسه كما ترى، ولكنه تشجّع لأجلها؛ لأجل من هم أضعف منه، لأنها أحوج منه إلى المساعدة، أراهنك أنه سيقطع الطريق بعد الآن بتردّد قليل و حذر كاف .

بالمناسبة لا أزال مصابة بالزكام وأنا بحاجة إلى رعاية مكثفة، أتناول أدوية مرة كالعلقم، لا أستطيع إلا ابتلاعها على مضض؛ لأنّها تفيدني، أليس من الغريب أن تكون الأدوية التي تمنحك الشفاء مرّة لا تطاق؟ هذا ينطبق على الحياة بصفة عامة إن ما حلّلتها بشيء من النباهة، كل ما هو مرّ، الدواء أو التجارب يهبك شفاءً و نفسا جديدا. أنا شاكرة للمرارة التي وهبتني صحة جيّدة

أثيل في طريقها للتعافي"

" خليلنا العزيز

قبل أن أخلد إلى النوم اعترتني رغبة دفّاقة في الحديث عن عائلتي، سيكون عادلا أن توجّه لي اللوم لتأخّري في خطّ رسالة جيّدة لأحدثك عنهم، لاحظ أنني لم أذكر أبي في أيّ رسالة فهو متوفّى منذ أكثر من عشر سنوات. مات في حادث مأساوي خطّطت له أيادي الإهمال و عدم الاكتراث بسلامة العمّال.

أعيش رفقة أمّي و شقيقتي، كلتاهما أصغر مني، نشكّل عائلة نموذجيّة متماسكة رغم افتقارنا وجود والدنا. أفترض غالبا أننا محل حسد الجيران و الأصدقاء، فلدينا حبّ كبير لنتبادله فيما بيننا، وحرصنا على دعم بعضنا البعض في أي نائبة تذكر حقيقة ملموسة، وعلى نحو مشرق نتقبّل مساعدة بعضنا بكل طيبة نفس.

أذكر بوضوح هيئة الرجل الذي غير نبأه القاصم حياتنا إلى الأبد ،أذكر عينيه الذابلتين ووجهه المرهق و قبعته السوداء التي حال لونها لقدمها ،أذكر عوده النحيل و بروز عظام وجهه ،أذكر حذاءه المغبر و يديه المشققتين و أظافره المتكسرة ،أذكر سترته الكاكية عديمة الأزرار ،بها جيب صغير ناحية اليسار ،لا أنسى كيف نكس رأسه و رجف صوته و كيف تحاشى النظر إلى عيني أمي بينما ينقل إليها فاجعة موت زوجها ،كنت أقف خلفها متعلقة بثوبها ،مثل من يخاف أن تنتزع منه أمه ،لم تبك أمي مثل النساء يومها و لم تلطم و لم تندب وجهها و تتهالك على الأرض بل قالت بغير وعي دون أن تذرف دمعة "لا ينبغي أن يموت ،لدية ثلاث فتيات لا يملكن أحدا سواه ،هناك عدد كبير من الرجال في العالم بوسعهم الموت دون قلق ،كيف استطاع أن يموت دون تفكير بهن ،يجب أن يموت زوج امرأة أخرى ليس زوجي أنا "فاستدار الرجل و غادر ونظرته سكنتني كتفاصيل وجهه ،انتقمت منها الدموع التي لم تحررها يومها ،فبكت كل ليالي عمرها الآتية .

ترك أبي خلفه امرأة وحيدة بدون أواصر قرابة متينة تدعمها أو مهنة جيّدة ترعى شؤونها مع ثلاث فتيات صغيرات، كان أبي رجلا عظيما يا خليل، وسنحتفظ به حيّا إلى الأبد في ذاكرتنا، كانت كل الصفات المميزة تتزعّم شخصه، كان رجلا طيبّا مكافحا و أخاله الآن فخورا بأمي و بنا؛ لأننا اعتمدنا على أنفسنا لمواجهتنا العوز والحاجة بمفردنا، لأننا لم نحني قامتنا أبدا للظروف الصعبة، لأننا تجلّدنا بالصبر، لأننا وقفنا دائما بعد السقوط؛ ولأنني أحبّه حقا، سأنهض دائما بعد السقوط فذلك فقط ما يسعده، سأحدثك لاحقا عن أمي العظيمة

المحبة دوما أثيل"

"عزيزنا خليل

مرّت عشر دقائق على آخر رسالة أرسلتها إليك، غفوت قليلا ثم استيقظت، فقد وافتني فكرة نسيت إطلاعك عليها ، لقد سنّت الحكومة قوانين شاذة جديدة، أعتقد أنه ينبغي إرسال أعضائها جميعا إلى مصحّة عقليّة، إنهم بلا ريب يعانون من خلل في الوظائف الدماغيّة، لقد رفعوا الأسعار ثانية ، نعم في ظرف أسبوع عصبيّ واحد، لأننا نعاني على حد سفاهتهم الوقحة من عجز ماليّ في الخزينة. بينما لا تتنازل حكومتنا الغالية عن انتقاء فساتين مخمليّة جميلة لنفسها و إبهاجها بالصورة المجزية المستفزة. هذا هو المنطق الحاذق الذي تنتهجه حكومتنا البائسة، أتساءل دائما عن السبب الذي يمنعهم تطبيق القرارات الجائرة على أنفسهم !؟ أما ذاك البرلمان ليلعنه الله، إنهم يجتمعون في جلسة يسمونها مغلقة ليرفعوا أياديهم من أجل أن يغلقوا علينا أبواب الرحمة، أراهن أنهم مجانين، تصرّ السيّدة سميحة على وجوب التبرّع بعقولهم إلى أحد المخابر العالمية لمعرفة السبب وراء الغباء البشريّ. يسوقوننا إلى الانقراض كما ترى

أثيل تطالب بإسقاط الحكومة "

" عزيزنا خليل

صباحك نور وشمس، إنّه أول أيام تشرين الأول، استيقظت و أنا أشعر بحماس جمّ، وطاقة غريبة، لست أعزو السبب إلى واقعة معينة، ولكنني أشعر بفائض من السعادة.

هل أصف لك الطقس؟ إنّه مشمس دافئ،و نور الشمس يغمر الدنيا بأسرها، أليست الشمس جميلة؟ أليست مبعثا للسرور المتجدّد؟ إنها تغيب في المساء و تشرق في الصباح، لكم يذهلني قانون الطبيعة، لا بد من يوم جديد، ولا بد من شروق جديد، لا بد من أمل جديد. الآن أنا مضطرّة للانصراف، بالمناسبة هل تؤمن برسائل الطبيعة؟ لا تظنّ أني متعالية، ولكنني أؤمن أن شمس اليوم أشرقت لأجلي.

أثيل صديقة الشمس "

"عزيزنا خليل

يقال أنّ لكل إنسان أمر يخافه، واحد على الأقل، وكذلك يقال أن أفضل وسيلة للقضاء على مخاوفك هي مواجهتها، إنّي عازمة على الثورة ضد الشيء القبيح الداخلي الذي أخافه، وأتمرّن كيما أمحو كل أثر له، ستختلج عيناكِ عندما أخبرك به. فلا أنت و لا أي إنسان آخر يتوقّع أن أخاف من البحر و أكثر منه أخاف المرتفعات بأنواعها. أجل يا خليل، لا يسعني رؤية لونه الأزرق دون أن يطفح قلبي هلعا، أو تعانق أصوات أمواجه أذني دون أن تتوتّر أعصابي، ورائحته تحثّني على الغثيان.

لك أن تتخيّل أن البحر الذي يمتصّ غضب الآخرين، و يجمع أحزانهم في حقيبة واحدة ثم يُخلّصهم منها، البحر الذي يلطّف المزاج مهما كان حادّا يخيفني أنا.

ليست المسألة عرضيّة، في الواقع لقد كدت أغرق عندما كنت طفلة صغيرة لم يتجاوز عمري العاشرة، عندما تعطّل انتباه والدتي و انشغل بإتقان ترتيب الأشياء في العلبة الكبيرة، ما أبشعه من شعور، كدت أختنق وتنقطع أنفاسي لولا أنني كنت لحسن الحظ في مدى بصر إحدى السيّدات الماهرات في السباحة كأنّها كانت ملاكي المنقذ، هل تصدّق أنني ندر أن قمت بزيارة له منذ تاريخ الحادث رغم أن المسافة بيننا بضعة أميال . لست أزوره إلا عندما تنطلي علي إحدى حيل السيدة سميحة،و تصطحبني عنوة قبل أن أتمكّن من الرفض،و أثناء ذلك أحرص على إبقاء نفسي بعيدة عن مياهه كيلا تغرقني و تفصل روحي عن جسدي، أتحرّى السرعة في العودة إلى البيت.

أدرك الخطوة النبيلة التي تعتزم السيّدة سميحة القيام بها، إنّها تحاول جرّي خارج دائرة الخوف، عن طريق وضعي وجها لوجه مع الشيء الذي أخافه، عندما نمشي بمحاذاة الشاطئ، تلك الفترة القصيرة يشقّ لسانها الطريق نحو ثرثرتها الوديّة التي لا أعتقد أنها تنجح في إشغالي عن الصوت والرائحة و اللون و الرمل، لم أوضّح لها أنّ ما تفعله من أجلي لم يثمر إلى الآن، ويبدو أنني سأغيّر هذا الوضع الجبان في أقرب وقت، لأنني أعتزم مفاجأتها بمنظر يبهجها جزاءً لها على ثقتها الخالصة بإرادتي، عندما أضع قدمي المرتعشتين فرقا في مياه البحر الزرقاء، وهكذا أقضي على مخاوفي، تسألني كيف سأتجاوز الحاجز؟حتى أنا نفسي أجري تشاورا ذاتيّا عميقا لم يسفر بعد عن نتائج مريحة،لكنني سأفعلها ،خطوة خطوة.

الخطوة الأولى: سأصارح نفسي متشجّعة في جلسات تحفيزيّة واعدة، أنني أخاف من المواجهة بسبب جبني، وأن البحر يذكّرني بحادث مريع، وأن الذنب لم يكن ذنبه؛ بل إن مصدر الفاجعة كلّها كان تهوّري الصبيانيّ.

و لولا أنني ابتعدت عن المنطقة الآمنة؛ لما وجد البحر سببا لإغراقي. إن كان بوسع الإنسان إسداء المواعظ لغيره، أليس بمقدوره إسداؤها لنفسه!، تماما كما لو كانا شخصين منفصلين هكذا "اسمعي يا أثيل، أنت لم تكوني يوما فتاة جبانة، لن يغرقك يا فتاتي الحلوة، لقد كبرت وأصبحت ساقاك طويلتين و أنت واعية الآن. أجل قفي أمامه و أخبريه أنّك لا تخافين منه"

الخطوة الثانية :سأذهب إليه عامدة برفقة السيّدة سميحة ثم تدريجيّا سأقنعها بوجوب التخلّي عنها و الذهاب لوحدي، طبعا ستتّسع عيناها الصغيرتان ثم تُجري استجوابا دقيقا كمحققي الجرائم مقسمة أنها لن تترك يدي حتى لو رأت كلبا مسعورا هائجا قادما نحونا، غير أنني سأواجهها متحدّيّة قائلة و رأسي شامخ، يشوب وجهي سحنة واثقة "سيّدة سميحة،لم أعد طفلة، ليس بمقدوري التغلّب على خوفي إن رافقتني مثل مدبّرة المنزل الحازمة،،سأنظر إليه فقط و أقترب بضع خطوات "

متى أنوي فعل ذلك؟ أجهل تاريخ عقد أول اجتماع سرّيّ لإسقاط نظام الخوف المستبدّ المديد ذائع الصيت. ولكن حتما سأفعلها، والآن حان وقت النوم، تصبح على خير

أثيل التي ستواجه مخاوفها

ملاحظة، يمكن أن تصوّت على خطواتي الجريئة برسالة قصيرة، ولكنني أعرفك رجلا شحيحا متعاليّا، لذلك سأصوّت لصالح نفسي ".

" خليلنا المتكتّم

أمّي امرأة عظيمة، بعد أن قضى أبي في ذاك الحادث المأساويّ، كافحت لأجلنا بيديها الأُموميتين الضعيفتين، رغم المرض والضعف وقسوة الحياة ،لم تكرّس صوتها يوما كيما تتذمّر من بشاعتها في الخارج.

كانت تعمل عاملة نظافة في إحدى المكاتب الصغيرة، تخرج صباحا وتعود مساءً وابتسامة الكبرياء تطوف بشفتيها، وكانت آلة الخياطة بصوتها الصاخب تضع يدا مطمئنة على قلبي تنبئني أن الدنيا لا تزال بخير، وأننا بمأمن، كنت أشعر بالارتياح آليا حينما تفتح الباب وتحتضننا، إنّها منكرة لذاتها، تنكر شعورها بالتعب، لم تكن تئن أو تتألّم أمامنا كما لم تعدّد عيوب اضطلاع السيّدات بمسؤوليات الرجال.

إنّها فقط تصرف ضيقها وتحرّض ابتسامتها المبهرجة الأنيقة على الالتفاف بشفتيها ثم تعيد على مسامعنا مرّة بعد مرّة أنها سعيدة بوجود ثلاث فتيات رائعات في حياتها.

من الصعب أن تتظاهر أنّك بخير بينما أنت مفطور القلب منهوك. راقبتها ذات يوم من ثقب باب غرفتها؛ لأنني لم أستطع ضبط رغبتي في رؤية وجه أمّي الحقيقي دون قناعها اللمّاع القانع، فرأيتها تبكي بحرقة ، تتأمّل يديها المقرّحتين و تستعيد يومها الشاق . كانت تحجبهما عنّا و لا تسمح لنا برؤية مشهدهما. أجل أمّي امرأة عظيمة، أنا أشعر بالامتنان لها. ظروفنا الآن أفضل بكثير مما كانت عليه. وأمّي لا تكف عن القلق ومزاولة مهنة التّوتّر إن تأخّرت إحدانا عن العودة إلى البيت خمس دقائق. إنها مهنة رائعة، أتمنّى أن تمارسها أمّي إلى الأبد دون مبالغة كيما أحسّ بوجودها.

هل فتحت النافذة اليوم؟ و تأمّلت الشمس،تذكّرت أنك تحب عبّاد الشمس و أنا أيضا أحبّه

أثيل تقول لك تصبح على خير "

ملاحظة سألتني السيّدة سميحة مرافقتها إلى الريف يوم السبت،تلبية لدعوة أقرباء زوجها للتعرّف عليهم،أرغب بعنف في الذهاب،هل تعتقد أن أمّي العظيمة ستسمح لي بذلك؟.

" قمرنا الّلألاء خليل

صباحك رائع أيّها الفريد من نوعك، البيت يعبق برائحة الخبز الساخن .لقد اشترته أختي الصغيرة ياسي لتوها من المخبزة الواقعة على شارع يبعد عن بيتنا عشر دقائق (اسمها ياسمين ونحن ندعوها ياسي)، اليوم أشعر بنوع من الخمول حتى إنني لم أستطع انتزاع نفسي من السرير إلا بمشقّة، أحسّ أنني بمقام عجوز هرمة تجاوزت الثمانين، إن زلّ لسانك وسألتها إن كانت تشكو من شيء تمطرك بالشكاوى حتى تندم سنتين قادمتين على شهامتك .

إن ما سمعتني إحداهن أتفوّه بهذا التصريح ستتجهّم سحنتها حيث أنهن يعتبرن أنفسهن منطلقات نشطات على نقيض فتيات الجيل الصاعد، توقّفت عن الكتابة في منتصف الرسالة ثم

سرت نحو النافذة، بمجرّد أن ألقيت نظرة و استنشقت الهواء انتعشت روحي. أعزو السبب إلى الطقس الجميل الذي التقطته عيناي. أنت أيضا ينبغي أن تلقي نظرة من النافذة لتلمح خيوط الطقس الجميل تتساقط تباعا. سأنزل إلى الأسفل و أسأل أمّي إن ما كانت تسمح لي بمرافقة السيّدة سميحة إلى القرية أين تقيم قريبة زوجها وابنتها الوحيدة. تتحدّث والدتي بإسهاب عن أيّام شبابها حينما ترفض مسألة ما، آمل أن تحدّثني عن أيّام زواجها من أبي بدلا عن ذلك، طاب يومك.

أثيل الخمولة تبعث إليك بتحيّاتها من خلال النافذة "

"عزيزنا خليل

لقد عدت لتوي من المكتبة حتى أنّي لم أغيّر ثيابي بعد، أنا في عجلة من أمري لأقدّم لك تقريرا مفصلا عن الذي حدث اليوم.إنّها قصّة عجيبة؛ بل هي غاية في العجب، زارتنا امرأة في العقد الخامس من عمرها ذات شعر كثيف و عنق سامق ، لغرض شراء كتاب، و بينما وقفت لأساعدها، بدأت تقصّ عليّ جزءا بائسا من حياتها،ااا‌ه ، لقد شعرت بالأسى اتّجاهها، قضت المسكينة عشر سنوات وراء القضبان؛ بسبب ارتكابها جريمة قتل، ليس من اللائق أن أذكر أمامك تفاصيل الجريمة.

خرجت منذ أسبوعين فقط،ما أدهشني أنّها قررت بحزم تغيير حياتها إلى الأفضل، ووضحّت أنّها تملك أربعة أطفال، و تشكر الله أنّها لا تزال تحتفظ بمحبّتهم رغم انقضاء عشر سنوات، أليس هذا محزنا؟قد تستغرب أنني أشفق على إنسان قاتل. هي نادمة لإقدامها على تلك الجريمة الشنيعة. ولكن أنّى لها بفرصة أخرى تصحّح بها مسار حياتها؟ و ها قد دفعت ثمنا غاليا، عشر سنوات ذهبت هدرا. أليس على الإنسان دائما الإمعان في التفكير بتعقّل قبل اتّخاذ قرارات متسرعة و طائشة ، يدفع ثمنها إلى آخر يوم في عمره، إنها لا تفترض أنّ الأوان قد فات، أثناء فترة سجنها كانت تقرأ سلسلة من الكتب الجيّدة، وأخبرتني أن تلك الفترة الرهيبة كانت نفقها المظلم إلى حياة جديدة وجسرا منيعا نحو التحرّر المطلق،أترى ما أغرب الحياة؟!هناك خاسرون استفادوا من هزائمهم و حوّلوها إلى أرباح و منح، نحن فقط رهائن أفكارنا الذاتيّه،متى وثقنا بأنفسنا سحقنا كل الحواجز ، ومتى خضعنا للعواصف وأحنينا رقابنا ازددنا ضعفا، إذا فالتحرّر من ذواتنا المستسلمة قرار ذاتيّ ألا توافقني؟

أثيل ذاتيّة القرار "

ملاحظة: لم تمنحني أمّي العظيمة الإذن لمرافقة السيّدة سميحة، وعندما لمحت انزعاجي الصامت الذي أيّده إلحاح السيّدة سميحة ، وعدتني بالسماح لي بمرافقتها في أوّل أشهر الشّتاء. ستكون مغامرة ممتعة، سأنعم بوقت رائع وسط الثلوج البيضاء . أنا أتلهف لقدوم فصل

الشّتاء،لا يزال شهر ونصف، أتصوّر أنّك قمت بسلسلة من الرحلات من هذا النوع، ذات يوم عليك أن تروي لي بالتفاصيل المملّة عنها. عندما وافقت أمي شعرت شقيقتي الوسطى ميرنا ببعض الغيرة و على نقيض عادتها المحبّة أبدت بعض الحسد؛ لأنها دائما تفضّل أن أتمتّع أنا بأي منحة عائلية،إذ إنني أقضي وقتي بين جدران مكتبة مملة مُرهقة. أما شقيقتاي فتقضيان وقتا ممتعا مع صديقاتهن، وفي الأخير أعلنت بمرح أنّها سعيدة لأجلي. إن شقيقتي ميرنا فتاة طيّبة مغالية في حبّها لي وأكون عمياء إن لم أستطع ملاحظة مشاعرها الخالصة، ليلتك برائحة الورد

أثيل الحائزة على جائزة موافقة أمها"

"عزيزنا خليل

صباحك سعيد، أكتب إليك في هذا الوقت المبكّر من الصباح و أنا في غاية الألم، ثم أعتذر إليك لعدم تمكّني من مراسلتك بالأمس،اااه لو تدري كيف قضيت يوم الجمعة، عانيت من ألم فظيع في ضرس العقل، لماذا يخلق الله هذا الضرس عديم الفائدة؟!سريع التسوّس،الجالب لأوجاع عصيّة، جرّبت كل شيء معه الثوم، القرنفل، و نماذج مختلفة من الأعشاب نصحتني بها أمي . لم ينفع معه إلا استئنافه إيلامي بعد فواصل من الهدنة . إن ما كنت قد جرّبت ألم الأسنان من قبل فستفهمني ثم ستشعر بالأسف لأجلي، هناك مشكلة أخرى برزت أمامي هذا الصباح و إن ما أخبرتك بها ستضحك حتى تدمع عيناك. إنني أخشى طبيب الأسنان و أدواته الحادّة، أليست مخيفة؟ يبدو كجزّار جاهز للسلخ .اااه ذات مرّة هربتُ عندما سمعت صراخ امرأة من الداخل، ولم أكن الوحيدة،كل الوجوه كانت شاحبة واجمة كأننا لاجئو حرب ما عدا مرافقات المريضات باعتبارهن غير معنيات بالكارثة القادمة،كنّ يضحكن حتى تبرز نواجذهنّ. إن أوصالي ترتجف من الآن كلّما تذكّرت زعيق المرأة الحادّ .و ليس من مجال للتراجع عن هذه الخطوة، لا يسعني احتمال ألم الليلتين الفارطتين، إن خير طريقة للتخلّص من المخاوف هي مواجهتها، لست أعوّل إلا على المضيّ قدما. الأمر يحتاج عزيمة عالية،لن يؤلمني الأمر إذا ما صرفت النظر عن ذلك،سأتألّم فقط عندما أخاف.

كيف كانوا يقلعون الضرس اللعين في العصور القديمة دون مخدّر و بكماشة أيضا ؟إن هذه فاجعة بشريّة تفوق بشاعتها الطعن بسكّين حادّ، قرأت مرة أنهم يتميزون بهمجيّة متوحّشة ،في عام 1890 كانوا يجلسون المريض على كرسيّ خاص ثم يربطونه بسلاسل معدنيّة صلبة وفي الحال يثبّتون فكّيّه بين آلة حديديّة لتجنّب حركته أو فراره.1900 تقدم العلم و قل العنف فغدوا يربطونه بحبال و يثبتون رأسه بشريط من القماش إلى الكرسي ثم يسحبون الضرس و يتركون فمه مثل فم مصاص دماء انتهى لتوه من وجبة دم دسمة .

أحمد الله أن تلك الطرق البدائيّة العدوانيّة المتوحّشة لم تعد موجودة، كما ترى نحن أحسن من مريض العصور القديمة على الأقل، إذا لماذا ينبغي عليّ أن أخاف، ألست بعيدة عن المنطق؟،لقد تطوّر الطب والعلم وغدت كل العمليّات الصغيرة و الكبيرة سهلة جدا تحت تأثير مخدر قوي يغيب الإحساس بالألم ،كأنّك تقضم قطعة كعك مصنوعة من النشاء.كما أنّ النتيجة مضمونة و العمليّات ناجحة مرضية فليس علي أن أخشى شيء.

أنا قادمة يا عزيزي طبيب الأسنان بهمّة فائقة انتظرني"

تعقيب: طرق تفكيري اصطحاب السيّدة سميحة،بيد أنني نبذت الفكرة. أخشى أن تثير مشكلة و نطرد من العيادة معا.

"صديقنا الغالي

سأحاول إيجاز سرد الأحداث قدر المستطاع. و إن كانت ثرثرتي قد تجاوزت الحدّ فليس ذنبي، لو أنّك تعرّفت سابقا على السيّدة سميحة ستعذرني. نعم، لقد التقيت بها و أصرّت على مرافقتي فليس من عمل مفيد تقوم به. وافترضت حاجتي إليها بعد عمليّة القلع،و إن كنت قد رفضت خدماتها فإنّ لي أسبابي، و إن هي تجاهلت استنكاري، فلها أسبابها أيضا. وهكذا أذعنتُ لها كارهة و طوال الطريق، وأنا أهمهم بكلام غير مفهوم راجية الله أن تتحلّى السيّدة ببعض الرصانة وتبقى بعيدة عن المشاكل. وأيضا دعوت الله أن تحدث معضلة ويعارض الطبيب خلع الضرس كتجمع الصديد تحته أو التهابه أو حاجته إلى دواء قبل الخلع، ليس ذنبي إن ما هجرني الإشفاق على الإنسان البدائيّ و ألغيت الأفضليّة وعاودني الشعور بالخوف.

عندما حان دوري و نادت الممرّضة باسمي ارتجفت ركبتاي و احتمال أن أهرب كان موفّقا، على أن نظرات اللاجئين الآخرين كانت مصوّبة نحوي، ولهذا قرّرت أن أكون بطلة في نظرهم ومثالا لامعا يُحتذى به،هكذا شمخ رأسي كأنني ملكة في مَهمة رسميّة، وأقسم أن قلبي كان يقرع كأنّه طبل، قادتني الممرّضة إلى الغرفة و كأنّها تقودني إلى مقصلة الإعدام، بينما راحت السيدة سميحة تتعاطى حوارا ممتعا مع إحدى العجائز المشتكيات من طقم أسنانها ، لم تدرك إلا متأخّرة مبارحتي قاعة الانتظار، هل جربت شعور الجلوس على كرسيّ الأسنان؟ هناك تخلّيت عن وقاري الملكيّ وتحوّلت الشجاعة المزيّفة إلى رعب جلي سرعان ما قرأه الطبيب في عيني فطمأنني بلطف أنه لن يؤلمني، في الواقع لقد كانت أقواله صادقة،و باستثناء وخز الإبرة لم اشعر بأيّ ألم.

كانت عمليّة الخلع سهلة، ومن فرحتي لمعت عيناي ببريق الامتنان وشعرت أنّه رجل فذّ، أطلقت عليه اسم المخلّص الشجاع، لم تكن سميحة لتجعلني أعيش لحظة الانتصار الساحق

بهناءة، فقد سمعت و الطبيب جلبةً ترتفع في الخارج ولغط أشخاص عددهم أكثر من اثنين. نعم،لقد فعلتها و تشاجرت مع الممرّضة و نعتتها بالعقرب السّام،ثم الأفعى السامّة.

تمّ حظر أسمائنا بفضل مجهودات جارتي، وأوصى الطبيب الممرّضة بلهجة صارمة أن تضعنا ضمن قائمة المشاغبين المثيرين للمشاكل، وليس أسوأ من حرماني من تلك الأيادي الناعمة الحنونة. ليسامحه الله ما ذنبي أنا لأؤخذ بذنبها، هل كان الطبيب سيلغي قراره لو نقلت إليه على سبيل أن أكون مفيدة له أنني لا أعرفها،و أتظاهر بالاشمئزاز من تصرفاتها السوقية؟

أثيل المدرجة على القائمة السوداء "

" خليلنا الوديع

إنّها الثالثة مساءً. لقد بارحني الألم وأنا أشعر بارتياح واسترخاء حقيقيّن، في الواقع لن تستنشق هذه المتعة بصورتها الكاملة إلا بعد تجربة مريرة متواصلة من الوجع.

أنا الآن أشعر برتابة غريبة،هل نظرت من خلال النافذة اليوم؟ هل تشعر أنت أيضا بالملل، إنني أشتاق إلى أبي يا خليل في هذه اللحظات، أذكر السن اللبني الذي أخذني لقلعه. هل راودك إحساس يوما ما أن أعزاءنا الراحلين يعيشون معنا. وليس حضورهم في أحلامنا إلا رغبة منهم في التواصل معنا . أنا مثلا لا تمرّ ليلة واحدة دون أن أراه في حلمي،لست أخفي عليك أنني لا أظهر عجزي بأي موقف إلا لأجله،فلو قُدّر له أن أحسّ بذلك،لن يناله إلا التعب،سأثقل عليه، لهذا سأتشجّع لأجله،وسأقف دائما لأجله مهما كان ألم السقوط قويّا، ها أشتهي تناول قطعة من السكر ولكن الألم المنطبع في عقلي دفعني إلى التوبة من تناول السكريّات. بالإضافة إلى أن الثورة التي أعلنتها تفرز أول نتائج النجاح الباهر.

أثيل التائبة من تناول السكريّات المحطّمة للأسنان"

" صديقنا خليل

رغم عدم رغبتي في الذهاب إلى العمل، إلا أن لسان السيّد إبراهيم الذي سيمزّق أذني يحدوني كارهة إلى ذلك، هذه الأيّام يُوكل إلى نفسه مَهمة تذكرينا بكرم إضافته إلى رصيدنا الزريّ من العطل يوما آخر، وهو يخصّص كل طاقته المتباهية لهذا الغرض، مقسما أننا لن ننال يوما في منتصف الأسبوع إلا على موته وإنّها كلمته الأخيرة،ذوقه فنيّ مبدع في التذكير بالأعمال الطيّبة.

لست مريضة. أنا طاقم كامل من النشاط و الحيويّة،اليوم بالذات انفتح مزاجي المشرق على إتيان أشياء مغايرة بدل الذهاب إلى ذات المكان كل يوم، أتمنّى لو أنني عصفور وأتجوّل أينما أريد،و أحلّق في الجوّ الرحب كيفما أشاء.

لـو أسـتطيع التمـرّد على قواعـد السـيّد إبـراهيم دون متلازمـة الطـرد تلـك وأذهـب إلى مكـان مختلف. وأنخرط بين صفوف من النّاس. هذه هي طبيعة الإنسان، إنّه اجتماعيّ، لم يخلق لينعزل عن الآخرين؛بل لينضمّ إليهم ويكون جزءا لا يتجزّأ منهم.العزلة تقتل عزيمة الإنسان، بالمناسبة هل تمنيت يوما أن تكون عصفورا مغرّدا؟

أثيل تذهب إلى العمل على مضض "

" صديقنا الرائع خليل

مرحبا يا كنزنا ،لم أشعر بالعزلة مطلقا فقد زارتني إحدى العجائز اللاتي أعرفهن، في الواقع يسـتطيع المـرء تصـنيف واقعـة حـدثت معهـا (لـم تطلعني عليهـا حتى اليـوم) نكتـة طريفـة مغريّـة للضحك. وإن ما كنت حاذقا وتعمّقت فيها فلن تضحك ،بل ستستفيدمن قصّتها عبرة عظيمة، منذ فترة شخّص الطبيب و الجزع يخفق في وجهه أعراضا ظاهرة مرضا خبيثا،بعد أن زايلتها صدمتها الأولى أدركـت أن الـزمن المتبقّي بـين يـديها قليـل إذا مـاقيس بـالزمن المديـد الـذي عاشـته هانئـة مستكينة إلى العافية و الصحّة المكينة، وسرعان ما اتّخذت بعض القرارات الحاسمة على رأسها: إصلاح علاقتها مع خصومها، فقصدت بيوتهم آملة و الرضا بمصيرها يفترش صدرها أن لا يصّدوا زيارتها بجفاء النزاعات القديمة،و ما إن ظهرت في مرأى إحداهنّ حتى صاحت بأعلى صوتها كأنّها رأت لصّا، آمرة إيّاها بالانصراف، وما كان تصميم العجوز المشرفة على الموت ليلين أو يأبه لبرود تعامل المرأة.

ومرت ساعة ثم ساعتان ثم ثلاث وهي لا تزال منتصبة أمام الباب، اختارت الوقوف على قدميها لتؤكّد عزمها بالرغم من الإعياء في ركبتيها، ومأساة مرضها.و في النهاية أذعن عناد المرأة وفتحت الباب ثانية مرحّبة بها، وهكذا طُويت صفحة النزاع الطويل على قضايا حياتيّة تافهة.

ما لبثت أن نفّذت مشروعها الإصلاحي بكل بيت تربطها به خصومة محسومة، وكلما همّت أن تغادر، تقبّل عدوتها السابقة ست قبلات على الأقل وتعانقها عناقا حارّا، جرّاء اكتشافها المزهر لفداحة خطئها في تعظيم شأن الأحقاد. لقد أدركت كم كانت مخطئة، ولو أنّ الأيّام تعود بها إلى الخلف لما دشّنت هذه النزاعات عديمة المصدر،لقد اكتشفت قصر الحياة و فشل نظريّة انتظارها لأحد حتى يفرغ من بغضه .

إنّها تستمر رغما عنّا سواء أكنا تعساء أو أشقياء، ولم تعد تأمل في أيّامها المعدودات المتبقيّة إلا فرصة ثانية تعوّض بها ما قد فات.لقد كان الله كريما معها على الأقل فمنحها وقتا إضافيّا. أما موطن الضحك؛فإنّها عندما راجعت الطبيب مجددا اعتذر لارتكابه خطأ جسيم في تشخيص حالتها، ولو أنها لم تكن ممتنة جدا لهذا الخبر السعيد لقتلته،حيث أنه أفزعها.

أخبرتني أنّها نالت أكثر من فرصة، وهاهي الآن تشمّر عن ذراعيها لتستفيد من النعمة السخيّة التي منحت لها، هب أنّك مكانها ألن تكون سعيدا؛ لأن الحياة منحتك فرصة بديلة عن الموت؟ خذني مثالا ،عندما سمعت قصّتها شعرت بالسعادة لأجلها، أنا سعيدة لأنّ أيامها القصيرة غدت مجالا مفتوحا وليس مغلقا

أثيل متأثّرة و تشعر برغبة في البكاء "

" صخرتنا الصلبة خليل

قررت اليوم قرارا مفاجئا،بمجرّد أن أعود من العمل، سأبدّل موضع الأثاث في غرفتي.لا يسعني تغييره في الفترة الراهنة بالنظر إلى الظروف المادية الصعبة. إن ذلك أشبه بمعضلة، الظروف لا تستوعب مصاريف أخرى، وليست بخطوة سيئة الاكتفاء بتبادل الأماكن وتغيير موطن الأثاث بموطن آخر،ما أعظم التجديد ! هذا سيخلق جوّا مغايرا للعادة.و سأنعم بإطلالة محترفة بوسائل بسيطة. لاحظ ، بوسع المرء إمتاع نفسه بأمور تبدو أصغر من الذرة، فالرتابة تقتل حماس الإنسان وتقبر اندفاعه، سأصف لك بإيجاز خريطة عملي الإبداعيّة من أجل غرفة مختلفة.أعيد المكتب إلى مكانه القديم أي تحت النافذة، وأبعده عن السرير، وأحرّك الخزانة قريبا من المكتب كما أنني أنوي تغيير لون الستائر،إنّ لونها القاتم يثير حفيظتي كما أنه يجعلني مغتمّة. أرشّح اللون الأبيض أو الزهريّ.أنت تميل إلى اللون الأزرق الفاتح،هل سبق وأخبرتك من قبل أنه يناسبك، تتضاعف وسامتك عندما ترتدي قمصانا زرقاء،كما أنه ينعكس على عينيك الهادئتين،إنّهما جميلتان،لا سيما وأنّهما متناغمتان مع ملامح وجهك

أثيل تعمد إلى التجديد، لأن الرتابة مثبّطة للعزيمة"

" خليلنا المواظب على الصمت

إن ما كنت قد فتحت النافذة اليوم، فلن يفوتك رؤيتي ،أعتقد أن نوافذ البيت تشبه نوافذ الحياة ترى من خلالها ما يدور بعقلك ،تلهمني النوافذ كثيرا و لا أعرف لماذا ؟،أحب فتحها و أمقت إغلاقها .

لقد حدث وغيّرت إطلالة الغرفة بأياد فنيّة ماهرة، إنها شاهد حقيقي على براعتي ، إنّ عنصر التخاذل و الانطواء مفقود كليّا من شخصيتي، رغم أن الخزانة أطلقت امتعاضها القاصف على قراري، فلقد تهشّمت مرآتها وأنا أجرّها إلى موطنها الجديد، يبدو أنّها لم تتفاءل بالتجديد الذي وقعتُ عليه

يحيا التفاؤل،،أثيل "

" عزيزنا خليل

قلّما قدرت المعنى الحقيقي لوجود سقف يأويك، أما في هذا الصباح الباكر. فقد استوحيت من مشهد أدمى قلبي عرفانا بالجميل لله، لأنّه منحني بيتا آوي إليه، في أحد الأزقّة المهجورة الجانبية التي أمرّ بها للطوارئ فقط، جرّاء غارة مفاجئة للذّة التأخّر عن العمل و بهذا أتحرّش بأعصاب السيّد العجوز قليلا. إنّ منظره وهو يستهجن الدقائق اللعينة للتخلّف عن الحضور المبكر يحدوني إلى تعمّد فعلها، لا،لا لست شرّيرة .آمل أن لا تسقي دموع المهانة وجنتي كما حصل آخر مرة عندما صرخ في وجهي .

لأعد إلى الموضوع الأوّل، تمثّل المشهد في صبيّ صغير لم يتجاوز عمره السادسة، كان ينام بثيابه الرثّة و حذائه الممزّق المهترئ في الشارع، مدثّرًا نفسه بخرفة ممزّقة،اااه كم هذا مؤلم. أليس هذا رهيبا يا خليل. إنه كفر بالطفولة البريئة أن يستلقي طفل وحيد على الأرض العارية دون سقف يأويه، أين هي تلك الجمعيات المتبجّحة المتسوّلة ذات ألف وجه المدعيّة لحبّ عمل الخير، ومساعدة الفقراء، إنّ الجهات المعنية التي لا تستطيع تأمين سقف لهذا الصبيّ. جهات مثخنة بالأنانية والعجرفة والشرّ، جديرة بأن تسقط في هوة العار و المحاسبة الحازمة، ولكن هيهات هيهات، عندما يموت الضمير يصبح الإنسان عالة على غيره و ليس على نفسه، والمسؤول الذي لا ينشغل بمشاغل العامة،منشغل ببناء نفسه و تأمين مستقبله

أثيل تعتقد أن الطفولة في خطر "

"صديقنا المملّ خليل

هناك سؤال يرنّ في ذهني، ما هو مفهوم الحريّة بالنسبة للبشر؟.أن يفعلوا أي شيء يريدونه. أو نقيض هذه الفكرة، أي أن لا يفعلوا أي شيء يريدونه. هل يكمن جوهر الحريّة في الانطلاق دون حدود. هل تبني الحرية حواجز أم أنها تزيلها، ينبغي الوقوف قليلا لتحليل المعنى الحقيقيّ للحريّة، أنت بالطبع لا تتضايق من سؤالي كما فعلت رفيقتي في العمل، ذكرت أمامي أنّها فلسفة تافهة، واحتاط فمها من نعت سؤالي الممتاز بألفاظ أكثر وقاحة. أتفترض أن الفراغ هو من يدفعني إلى هذه الفلسفة؟، أنت مثلا ما تعريفك للحريّة؟ ليتك تتفضّل عليّ برأيك "

أثيل الفيلسوفة تبعث إليك بتحيّاتها

ملاحظة: أنا أطرح أسئِلة غريبة على كل الذين أعرفهم، حتى أنني شرحت لأمّي بالأمس ماهيّة السعادة الحقيقية من وجهة نظر أرسطو، فلم تشجعني على الاسترسال إلا قليلا؛ لأن نظراتها السليطة عقدت لساني قبل أن أبلغ ذروة الشرح ،قائلة إنها لا تحبّذ وجود فيلسوفة في البيت.

" خليل المتجاهل

ليكن مدرجا لديك، أنني غاضبة منك، لا يقتضي شعوري هذا ارتكابك هفوة، فلا تزعج نفسك بالبحث مطولا عن السبب، فأنا نفسي لاأذكر أنّك أتيت ذنبا يدفعني إلى الغضب منك، أتصوّر أنك تجعلنا نحن أصدقاءك الأوفياء نشتاق إليك كثيرا و نفتقد مقالاتك واهتمامك بانشغالاتنا . نحن نفتقد حجارتك التي ترشق بها الفاشلين ،عباراتك الرشيقة، وأسلوبك العذب في طرح الأحداث، أعمد إلى مخاصمتك كما أنني مستقيلة من وظيفتي الحالية، لست صحفيا لطيفا، وأنا حرّة في انتقاء أي نعت أجده يليق بك. أعتقد كذلك أنك لئيم لؤما نادرا، أحسّ واثقة أنّك تعتبر رسائلي سخيفة و مدعاة للسخرية لا تستحق الرد

أثيل غاضبة و مستقيلة "

" خليلنا اللئيم

قانون الجذب هذا ليس بدعة سخيفة كما كنت أعتقد، لأبدّد ملامح الغموض لديك، كنت أنظر إلى مُعتنقيه نظرة استخفاف، وفي الوقت الذي أشرفت فيه على تأكيد نظريتي، اكتشفت أنه في الواقع أشبه أن يكون نظرية ملموسة، كيف ذلك؟هذا سهل، لقد وردتني منك رسالة ذهنيّة تحثني فيها على المواصلة ،و أن لا أكون جبانة ،قررت أن أتمسك بخطتي وأحاول تطوير مهاراتي

أثيل تتخلّى عن قرار الاستقالة "

"خليل غريب الأطوار

هل تلكّأت ذات يوم في اتّخاذ قرار ما؟ هل أحسست ذات يوم بالضياع؟ هل اتّفق وشعرت بخوف ليس له تفسير؟ هذا ما أمرّ به في هذه الفترة، وليس شعوري بالخوف ما يقلقني؛ بل جهلي للأسباب، فلو أني لا أجهلها لكنت قضيت على هذا النوع من الشعور السلبي، هل خفت يوما من خسارة إنسان تحبّه؟ عندما كنت صغيرة كنت أخاف فقدان أمّي و أبي، وها قد فقدت أحدهما، ولكنني واجهت الأمر بكل رضا، هذا يعني أن الشعور بالخوف ما هو إلا استهانة بقدرة الإنسان على التحمّل، و تقييم ذاتي بضعف نفوسنا على مجابهة المآسي، لأن الطاقة الفعالة التي حبانا الله بها خليقة بتفتيت أي عقبة، وكما تأتي المأساة يأتي صبرها معها، كل شيء يعتمد على إرادة الإنسان. الخوف لن يطعننا إلا إذا منحناه نحن سكّينا، ولن يهزمنا إلا بسلاحنا.

خليلنا الغالي إن معرفة أسباب الخوف تؤدي إلى إنهاكه بسرعة؛ لذلك سأحاول بجهد العثور على الأسباب المفضية إليه

الخوف ليس حلّا "

" عزيزنا خليل

كنت أخشى من أحداث المستقبل جرّاء الاسترسال في تفكير غير مجد. أخبرني بالله عليك، هل من المنطقي أن يقلق المرء من لحظة لم تأت بعد، وربما لن يكون جزءا منها، ربّما لن أكون جزءا من ذاك المستقبل الذي أنا مرعوبة منه، ربما ذاك الشيء الذي يؤرق راحتي لن يحدث مطلقا، إنني أقول لنفسي أحيانا كيف سأواجه فاجعة إصابتي بمرض السرطان، وأحيانا أتساءل كيف سأتعامل مع خسارة إنسان أحبّه.

في الماضي الذي تعتبر لحظتي الحاليّة هي مستقبله فكرت بسلبية، أتذكّر أنني طرحت أسرابا من المخاوف، ثم منحتها شرعية كاملة كبقائي بدون منزل، أو إصابتي بمرض خطير، وفي هذه اللحظة أجلس لأغرق في ضحك متواصل على تلك المخاوف، لم يحدث شيء مما كنت أتوقّعه.فها أنا ذا بصحّة وعافية، كما أن البيت لا يزال منتصبا فوق رأسي، وعلى نقيض ما كنت أفترض، حدثت أمور جيّدة و سيئة، واستطعت مواجهة أي ظرف سيء، إذا فالتفكير في المستقبل البعيد إهدار وإهانة للحاضر، إن كنت ستبكي على إنسان تعتقد من الآن أنه سيترك حياتك؛ فلن يغيّر نحيبك شيء إن ما كان سيذهب حقا، ستحرم نفسك من الاستمتاع بوقتك برفقته، وهكذا فأنت تضيّع وقتك سدى، والتفكير في الماضي ثم البكاء عليه أشبه بحوار مع شبح لا يراه أحد باستثنائك أنت. ومتى كانت محاورة الأشباح تأتي فائدة معينة!.ما ذهب قد ذهب ،ما الجدوى من البكاء على الأطلال، على أمور لن تعود حتى لو تحسّرنا عليها دهرا. إن الأموات لا يعودون أبدا، الانشغال بالماضي هو قتل للحاضر و كذلك التفكير بالمستقبل، لسنا نملك إلا الحاضر،اللحظة الآنية ثمينة جدا، لهذا لن أدفعها مقابل لحظة سقيمة مدفونة في زمن ولى وذهب، حياتنا طريق، الماضي شوط قطعناه، العودة إليه يؤدي إلى نهاية مسدودة. المستقبل مقطع غامض لم يجهز بعد "

"مصدر حماسنا خليل

أخيرا أنا أقوم بحزم حقيبتي لأجل رحلة الغد، أجبرتني أمي على حزم عدد كبير من المعاطف والجوارب و القلانس و القفازات في حقيبة صغيرة، و كأنني سأغيب إلى الأبد، كل ما أنا بحاجة إليه معطف واحد وقميص صوفيّ دافئ، فأنا أصاب بالزكام بسرعة، وهذا ما تخشاه والدتي، و تفاقم خوفها عندما حدثّتها السيدة سميحة بكرم مفرط يبعث على الشلل عن البرد القارس في المناطق الريفيّة، على أنني أشعر بنوع غريب من الحماس، وكأنني سأطير بدون جناحين كطفلة في السادسة. إنني أتحرّك في الغرفة و كأن بي طاقة خارقة كفيلة بإرسالي إلى الفضاء.

مع أن تلك الرحلة كانت مدرجة بشهر كانون الأول كما سبق وأعلمتك، على أن مزاج السيّدة سميحة غير ثابت مثل الزئبق، كنت قد أخبرتك وأنا في غاية الاستياء أنّها عدلت عن رأيها وصمّمت

على سفرنا بشهر كانون الثاني، وكما ترى إننا في منتصفه،و لولا أنني خائفة من تفويت فرصة سقوط الثلوج ورؤية الجبال المكتسية بالبياض لما ألححت عليها. بالكاد انتزعت موافقة والدتي.

حسنا سأمكث نهاية الأسبوع فقط، و أعود إلى العمل يوم الأحد مع رغبتي في المكوث أسبوعا كاملا، ليت السيّد إبراهيم يكون أقلّ تشدّدا فيما يتعلق بالإجازات و العطل.

هناك مفاجأة أخرى سنسافر بالقطار، لم يسبق لي أن نعمت بهذه الفرصة. سأركب القطار لأول مرة.، كم هذا رائع يا خليل، أنت سعيد لأجلي أليس كذلك؟، إن ما افتقدت وجودي فقم بفتح النافذة حينها ستراني. لم يتفق أن قدمت لك وصفا لنفسي.حسنا لدي عينان سوداوان عاديتان ، ولدي شعر أسود أيضا و وجه أبيض ولست بذاك الحسن. إنني فتاة على قدر متواضع من الجمال. لا تخبرني أنّك تفضّل إحدى صديقاتك رائعات الجمال عليّ؟ دعني أسمعك تقول ذلك لأقتلك مباشرة، .تستطيع حينها تفضيلهن عليّ و أنت بالقبر،إن ذلك يهوّن الأمر عليّ.أنا أمزح فقط ،و أكاد لا أستطيع كتم ضحكتي بفعل هذه المزحة الغبية .أتمنى أن لا تعتبر هذا أيضا خروجا عن النص؟.

في القرية لا يتوفّر حاسوب ،و لهذا يستحيل تواصل الأشخاص بواسطة الرسائل.اااه لو توفّر لدي حمام زاجل لوجدت وسيلة لتثبيت رسالة ورقية في قدمها لأرسل إليك تقريرا حول الأحوال هناك ،لا شك أنها تؤلف كتابا بألف صفحة و ليس تقريرا من سبعة أسطر .لا يوجد إلا الدجاج هناك وهو لا ينفع لشيء بالنسبة لي.

طاقم الرحلة مكوّن من السيّدة سميحة التي من المؤكّد إطلاقها لرّصاص الشجارات على أي شخص يعترض طرق تفكيرها، فهي مهووسة بالمشاكل ثم تصمد بهمّة إلى أن تخمد عزيمة خصمها. أعتقد أنّها من أصول إيطالية.

بالإضافة إلى ابنتها الجبانتين،لست أنا من أطلق عليهما هذا اللقب. إنّ مصدره هو والدتهما الكريمة. وأثيل المتلهّفة لرؤية المناظر الريفية . لن تستلم رسالة الصباح كالعادة، لأنني سأكون على متن القطار و سنسافر بوقت مبكر.

ملاحظة أمي لا تكفّ عن الدمدمة بين أسنانها، أتصوّر أنّها ندمت على موافقتها. كما أنها حزينة و كأنني سأذهب إلى القطب الشمالي دون عودة، و نقطة أخرى، بعد عدوتي سأقدّم لك تقريرا مفصلا عن الوقائع، وأخذت لذلك الغرض مفكرة أدوّن عليها كل شيء

أثيل سعيدة للغاية "

" خليلنا اللامع

عمت مساءً يا صديقنا الغالي. أجل لقد عدت لتوي، و قبل أن أغيّر ملابسي، عزمت على الكتابة لك أولا، مجرد كلمات لا يسعها وصف انبهاري بهذه الرحلة رغم ما مررنا به من صعوبات و

عراقيل.هناك شعرت بالأسف لكل إنسان لم تتح له زيارة الريف .إنه مكان ساحر وإلهي كم هي رائعة رائحة الريف ،أقلد أسلوبك و أهتز من الضحك ،رائحة الأشجار و التراب المبلل و الحيوانات و دخان المواقد التقليدية ،رائحة البساطة و السعادة بأبسط الأشياء.

بجعبتي الكثير لسرده عليك،و لكن هذا ليس بالوقت المناسب، فأمّي وشقيقتاي بانتظاري لأروي لهن تفاصيل الرحلة،رغم أنني مرهقة جدا. حسنا سأستيقظ غدا صباحا لأسرد عليك التفاصيل.

ملاحظة أتنبّأ مذعورة بنزلة برد قويّة قادمة و سعال حاد يسلخ قصباتي الهوائية، وأشعر كذلك أن حرارتي بدأت تجتهد لترفع درجاتها. أرجو أن لا اضطرّ كارهة إلى ملازمة الفراش. أو النوم على أسرّة المشفى لمدة أسبوع كما حدث منذ سنتين.

أثيل ترتعد من فرضية إصابتها بالزكام"

"عزيزنا خليل

إنّها كما ترى الساعة الرابعة، و رغم أن النوم لا يزال يغازل عيني إلا أنني أعرضت عنه كيما أبرّ بوعدي لك، فها أنا قد استيقظت باكرا لأروي لك تفاصيل الرحلة إلى الريف قبل توجّهي إلى العمل.

كنت أودّ أن أنشىء رسالة طويلة مؤلفة من عدد كبير من الصفحات، ولكن عندما فكّرت مليا، وجدت أن الملل سيصيبك قبل أن تتمّ القراءة، ولهذا سأقسمها إلى مجموعة من الرسائل، تصلك متتابعة،أرجو أن تستمتع بقراءتها

أثيل المكافحة ضد النوم "

"لا أعرف من أين ينبغي عليّ البدء. حسنا لنتّخذ القطار نقطة البداية ،لقد تأخر نصف ساعة . كانت هذه تجربة فريدة. فأنا لم يتّفق لي السفر بواسطة القطار و على الدوام كانت الحافلة وسيلة النقل الوحيدة التي استعملتها للتنقّل، و قلّما أرغمتني الظروف على التنقّل إلى مكان بعيد. صفيره أوحى لي بشعور مبهج، كما أن فصل انتظاره و منظر تدافع الناس كان باعثا على السرور.و عندما ولج ظلمة النفق غمرني شعور فوق الوصف أعادني إلى أيام الطفولة ، ليس هذا بالغريب ، أنا مختلفة فقط، و أحبّ أشياء لا تنجح في إغراء الناس لحبّها.

كاد القطار يخلو من أي مكان شاغر نظرا لعدد المسافرين الضخم. أعتقد أن معظمهم عائلات بكامل أفرادها كانوا متوجّهين إلى الريف لذات الغاية معنا، وهي التزلّج و رؤية الثلوج المتساقطة حديثا بكثافة. كان القطار مزدحما للغاية،جلست رفقة السيّدة سميحة و ابنتها.

لا يسعني ذكر اسم السيّدة سميحة دون التطرّق إلى سوق الأسهم والعقليّة التجاريّة المتأصلة فيها ثم الصفقات، فقد حشرت أذنيها بادئ الأمر بين حوار رجلين خلفنا يتحدثان عن صفقة تجارية، و ماهي إلا دقائق حتى جذبتها رفقتهما كأنّهما مغناطيس، فحشرت فمها المغرور في إطراء نفسها. والغريب تجاوبهما بصورة حسنة مع تدخّلها الصفيق في شؤونهما الخاصّة. سمعتها تطري نباهتها التجارية فيما انطلقت ابنتاها في وصلة طويلة من الضحك المكتوم على أمّهما، لعلمهما بعدد خفيّ حنين التي ترتدّ بهما كل مرة إلى البيت، إنها أفشل تاجرة عرفتها، ويشير حدسي إلى أنها ستكون أكثر النساء ارتيادا لقاعات المحاكم في السنوات القادمة .

لك أن تتخيّل كيف تفاعلت السيّدة سميحة مع عبارات الإطراء التي أطلقها السيدان، وبعد أن تقبّلت المسألة جلت ببصري في المناظر الساحرة الخلّابة التي تكتنف الطريق من أحد الجانبين، ما أجمل الطبيعة ياخليل، الأشجار العارية المغطاة بطبقة من الثلج الأفقع ، الحقول الشاسعة الحمراء تكسوها طبقات من البياض الناصع ،و البيوت الريفيّة المتفرّقة بصورة عشوائيّة، ودخّان المدافئ المتسرّب من المداخن،البيوت البلاستيكية،البيوت المهجورة المشيدة من الحجارة عديمة الأسقف ، أليست تلك لوحة إبداعية مميّزة؟ لقد كان الطريق أحسن ما في الرحلة. لم تتشاجر السيّدة سميحة مع أي أحد على متن القطار، أحمد الله على ذلك، لانهماكها في التباهي بمواهبها الفاتنة.

ملاحظة. أخذت كتابا معي لقراءته على متن القطار. لكن الفرصة لم تسنح لذلك، لأن الطبيعة في الخارج سحرت خيالي ".

"استغرقت الرحلة ثلاث ساعات ونصف، كان الضجيج مرتفعا والحركة مستمرة لا تنقطع، ولغط الأصوات مزعج نوعا ما، لست بالكائن الذي يتحمّل الضوضاء، أميل إلى الهدوء والسكون، وصلنا إلى الريف في حدود الساعة التاسعة، ووقفنا في المحطّة، نتوقّع في أي لحظة قدوم ابنة قريبة زوج السيّدة سميحة، وأثناء ذلك أحسست أن قدمي قد تجمّدتا كليا بسبب البرد القارس و أطرافي ترتعش و أسناني تصطك ، أما سالي و ريحان، فقد تحوّل جسر أنفيهما إلى قرمزيّ كما كانت رجفة تسيطر عليهما . فيما راحت السيّدة سميحة تقوم بتفقيع أصابعها وتتأفّف من تأخّر المرأة في المجيء إلى اصطحابنا، ووجهها يتردّى في سحابة غضب مولول أسود. كانت كالقنبلة الموقوتة لا يُتكهن بموعد انفجارها، وبعد قليل تشاجرت ابنتاها مما اضطرّها إلى فصلهما، أشكّ أن عادة الشجار هذه إرث موصى عليه من الأجداد إلى الأحفاد، وقبل أن ينفلت لسان السيّدة بشتائم لاذعة حضرت المرأة على بغل يكاد ينفق. أجل، لقد كانت تمتطيه وأوّل سؤال خطر ببالي: هل تصوّرت المرأة أننا سنركب كلّنا على ظهر المسكين،بينما اتّسعت مقلتا السيّدة سميحة للصورة

الكئيبة التي يظهر عليها ذاك المسكين، وطوحت بنفسها عن ظهره فارتفعت همّته، وانتصبت أذناه قليلا؛ لتخلّصه من الحمل رغم أن المرأة نحيلة.

ملاحظة: لم أر بغلا من قبل

ثم هرولت نحونا غامرة السيّدة سميحة التي لا تزال محملقة بدهشة إلى هيئة البغل بعدد لا منته من القبل المرحّبة، وما لبثت أن غمرتنا بذات العاطفة الجيّاشة.سائلة عن أحوالنا. موجّهة كلاما إلى قريبتها: إن والدتي تتحرّق شوقا إلى رؤيتك يا سيّدة سميحة، على أن السيّدة سميحة التي انطوت تعابير وجهها على الاشمئزاز والبرود والعصبية صاحت فيها: ألم تجدي إلا هذا المخلوق المسكين لتعذّبيه؟

"رافقنا المرأة التي يمتزج نطق اسمها مع المشقّة الصخرية (بارق اللاح نيسام)، هكذا كان اسمها،و اختصارا ينادونها بارق،أليس اسما غريبا؟

بروح فكاهيّة بلّغتنا أننا سنذهب مشيًا على الأقدام إلى البيت، وأنه لا يبعد إلا عشر دقائق، دقّ عقولنا في البداية أنها مزحة صباحية ثقيلة، ولم تؤكّد سحنتها الجادة إلا أنها واقع مرّ حتميّ.

عندما امتطت البغل التعيس مجدّدا ارتخت أذناه، هناك علاقة طردية بين الامتطاء و حالة الأذنين، يبدو أنه يعبّر عن شقائه. مشينا في إثرها مثل أسرى المعركة الأخيرة، كنت مشوّشة التفكير ولم ألتقط أحكاما معينّة بيد أنه في صميمي كنت أشعر بمتعة حبيسة عظيمة. ولا يبدو أن السيّدة وابنتها كانتا تشاركاني الرأي، فالسيّدة ذهلت من الصدمة،و لهذا كانت بين والفنية والأخرى تزفر كأنّها تّئن.مدمدمة إذا ما تعثّرت قدماها بحجارة، أو لطّخها الطين لاعنة القريبة وابنتها متحجّرة القلب كما سبق ووصفتها.

ورأيت دموع سالي الصغيرة الحسّاسة تنهمر على وجنتها الموردّتين،أما ريحان فقد تيبّست مشاعرها من الصدمة القويّة،أراهن أنّهما كانتا تتوقّعان مفاجآت سارّة، ربّما زرعتا في رأسيهما صورا لجبال سويسرا، ومناظرها البديعة، فنكبتا بمنظر بغل على وشك الموت، لقد اضمحلت حماستهما وتاقتا إلى العودة إلى المدينة.

دعني أصف لك الطريق إلى البيت، كان شديد الالتواء و كثير المنعطفات ،عبارة عن منحدرات تارة ننزلها و تارة نصعدها، تلاءمت خطواتنا مع خطى البغل البطيء ،اختارت بارق أن لا تصمت و تعرفنا على كل مكان نمر عليه، فهذه المقبرة المحاطة بسور طويل من الطوب وهاهي بيوت القرية الموزعة على جانبي الطريق ، المتناثرة المسيجة بعدد من الأشجار و الحجارة المكومة ،أشجار الصنوبر الشبيهة بالمظلات المفتوحة و أشجار السرو الشبيهة بالمظلات المغلقة وأشجار الزيتون التي كست أغصانها المتهدلة ، طبقة كثيفة من الثلوج أرغمتها على الانحناء لتحيتنا وبعض

الأشجار التي جردها الشتاء من أوراقها كشجرة التين و التوت الأسود والصفصاف، وهاهي مدرسة القرية التي اكتشفت فيما بعد أنها بعيدة للغاية وأن الأطفال التعساء يذهبون إليها سيرا على الأقدام صيفا و شتاءً. ومررنا بجانب واد عميق لم أتجرأ على الاقتراب من حافته وحانوت عديم النافذة صغير بحجم قن الدجاج ،هناك بيت مميز لشيخ مسن ،قالت بارق أنه قاضي القرية وهو الذي يفصل الخلافات بطريقة ودية، ولهذا هم لا يلجئون إلى محاكم الدولة، ورأينا من بعيد سلسلة من الجبال مليئة بصفوف من أشجار الأرز و البلوط مثل فرق عسكرية منظمة بزيها الأبيض، تظهر قممها شامخة مكسوة بالثلوج ،بدت ساحرة للغاية وهي تعانق الضباب المتكاثف، وكانت تغلف السماء غيوم داكنة، وأراض ممتدة تتخللها أثلام الحرث، وبيادر تتوسطها أعمدة خشبية لغرض الدرس في موسم الحصاد وحظائر الحيوانات تنتصب على مسافة قريبة من البيوت ،و أكواخ لحفظ الحطب اليابس لغرض التدفئة.

كان أهل القرية يستوقفوننا لأجل واجب التعارف المقدّس،عيونهم تنم عن تواضع وجوههم تشي بسذاجة وطيبة وطريقة كلامهم عن بساطة، رجالها تبوح وجوههم بالشدة والهيبة بشواربهم الكثة، يرتدون معاطف تقليدية و يعتمرون قلانس تنزلق إلى الأذن وأياديهم خشنة من تكسير الحطب والفلاحة لا تكسوها القفازات وينتعلون جزمات تمتد إلى الركب دست سراويلهم داخلها، قابلناهم في طريقهم للجبال في مجموعات من أجل صيد الأرانب وجلب الحطب على بغالهم الهزيلة يحملون فؤوسا وعصيا طويلة، ونساؤها يتلفعن بشيلان سميكة مصنوعة باليد وعلى رؤوسهن أغطية تستر شعورهن،و زنانير ثقيلة فضية تشدّ أوساطهن، لوحن بأياديهن للترحيب بنا، علمن بقدومنا، بل كل أهل القرية علموا، وأطفالها يتراشقون بكرات الثلج ويجرون خلف الدجاج ويلعبون ويصنعون رجال الثلج ،وجذبهم منظرنا الغريب وشعورنا المكشوفة كأننا مهرجات للعرض فتقافزوا خلفنا و ضحكوا و تحدثوا .

وكلّما أوقفنا شخص ما، تنزل بارق عن بغلها، لتشرف بنفسها على عملية التقديم والتعارف. إن أسئلتهم الفضوليّة المتلاحقة تعتنق عقلك مثل تحقيق قسم الشرطة المختصّ في قضيّة سرقة أو جريمة قتل خطيرة: من أين أنتن،كم أعماركن،كم ستقمن هنا،هل حقا تتقرّفن من خبز الشعير،ااه لهذا أنتن على هذه الهيئة.إنكن تشبهن أعواد الكبريت، هل أرهقتكن الرحلة؟كأننا قادمون من كوكب آخر .

لا، إن السيّدة سميحة لن تمرّر أبدا هذا الكابوس الأسود المزعج التي ألقتها في جوفه ابنة العجوز إبراهيم الكبيرة. كانت هي من اقترحت عليها قبول دعوة العجوز و ابنتها و طرق مسامعي همهمة خافتة تشتمهم فيها جميعا كطائفة قبلية تقليدية همجية. وكان كلما فرغ جمع منهم من

استجوابه استأنفنا المشي.و الحمم الملتهبة تنفث من وجوه السيّدة و ريحان.رحنا ننفخ في أيادينا من شدة البرد و نتلمس وجوهنا و نغطي أنفسنا .

(ماما ،إن قدمي تؤلمانني،متى سنصل؟) اشتكت سالي

(هل ترين أنني في وضع أحسن منك !هل أُحمل أنا على حصان مُسرّج ! لقد قالت عشر دقائق وهاهي قد مرّت نصف ساعة، و لا يبدو أنّها تنوي الوصول. واصلي السير و أنت صامتة وإلا بترتهما و تركت من دونهما ،اسكتوا أيها الأطفال المزعجون).

(كم هو خفيف دمك يا قريبتي)قالت بارق ضاحكة (إنني سعيدة لزيارتك. سنصل قريبا أيتها الكسولة،بيتنا خلف تلك التلة).

فأجابتها السيّدة حانقة، تستشيط غيظا (طبعا يحقّ لك نعتنا بالكسالى، طالما أنت تعربدين على هذا البائس قليل الحظ).

ولم تزد على أن ضحكت وردّت (لو أنه يوافق لجعلتك تأخذين مكاني يا قريبتي).

قالت سميحة هازئة (شكرا، لم أبلغ هذا الدرك الوضيع من السفالة بعد .أراهن أنّه لو نطق لطالب بشنقك).

أما أنا فأقسم أنّه رغم تيبّس رجلي من البرد، كنت أضحك بصمت حتى لا أثير حفيظة السيّدة سميحة، إنّ في ذلك لذّة عظيمة.

هل تفترض أنني مجنونة لاستمتاعي بهذا البؤس. فقط شارك فيه وسترى كم هو مسلّ. شريطة أن ترافقك السيّدة سميحة و بناتها "

"كل هذا لا يساوي شيء، مقارنة بما كان ينتظرنا.وصلنا بعد أربعين دقيقة إلى البيت، لقد تمدّدت العشر دقائق بفعل السحر .كان بيتا حجريّا صغيرا ذا باب خشبي و عضائد و نوافذ خشبية. اكتشفت فيما بعد أنّه مؤلّف من غرفتين، و ردهة كبيرة ، في زاويتها موقد حجري ذو فوهة ضيّقة أسود من السخام ، وطاولة خشبية ضخمة مترنّحة القوائم عليها أوان خزفية قديمة .يتصل البيت بفناء مستطيل واسع تكسو أحد جدرانه أغصان دالية العنب العارية وآخر أغصان اللبلاب .في أحد الزوايا برميل ماء كبير ،و صف من أحواض أزهار على طول الحائط ودلاء مملوءة و كومة من الحجارة و الأخشاب، وأغراض استغنت عنها العائلة، وسطل به أحذية قديمة ،و معول و رفش بمقبض خشبي .

بعد أن أودعت بارق البغل الإسطبل. عادت بسرعة ثم دلفنا إلى الداخل، وهنا كانت النكبة الحقيقية، فقد داهمتنا سحابة ثقيلة من الدخّان المتكاثف. وكدنا نختنق و لم أسمع إلا سعال

العجوز، و لم يسمح لي الدخّان برؤيتها بوضوح، فقفلنا عائدين إلى الخارج بسرعة، وكالعادة ارتفع صوت السيّدة سميحة في تذمّر صريح

(إنّ هذا كثير، هذا انتقام منّا،أو ربما عقاب، هل ارتكبنا جريمة من الدرجة الأولى ليُزّج بنا في هذا السجن سيء الأحوال؟ لنهرب أيتها البنات)

فما كان مني إلا أن ضحكت بصخب على نكتتها الطريفة، وأطلّت بارق برأسها من النافذة التي شرعت مصراعيها لينفذ الدخان خارجا، تناشدنا الصبر إلى حين (لندعو الله أن لا يكون الحين هذا كالمسافة بين المحطّة والبيت) قالت سميحة ساخرة. غير مصدّقة (اشرحي لنا الذي يحصل بالضبط، ثم استدعي رجال الإطفاء).

(إن هذا الأمر عادي، يحدث كل يوم) صاحت بارق من الداخل بلهجة تنمّ عن الاستمتاع، الممتزج بقبول الأحداث الجارية(عادي؟) استنكرت السيّدة سميحة واندهشت من توظيف مصطلحات مثل هذه لوضع فوضوي (ولولن يا بنات).

عندما زالت الغمامة دلفنا مجددا بدعوة آمنة من بارق بخطى حذرة من مفاجآت أخرى كأنّه بيت ملغّم، كانت العجوز المسماة عربسة، امرأة قصيرة، عيناها متقاربتان خضراوان مرحتان ، وكانتا محمرّتين جرّاء الدّخّان. ترفع طرف فستانها تحت إبطها، تستعّد للانقضاض علينا من أجل أداء طقوس التقبيل والترحيب بضمير نزيه، موافقة ابنتها في النزعة الترحيبية الباسلة، كانت الصدمة الأولى في عيون السيّدة سميحة وابنتها قد تبدّدت وحلّ محلها شعور بالفراغ. ثم التخوّف من جحيم الآتي، ومنعهنّ الاحتياط من انهيار السقف على رؤوسهن ثم الذعر من موتهنّ تحت الأنقاض من الاستمتاع باللحظة الساحرة، لحظة دخول بيت مبنيّ على الطراز الريفي القديم من الحجارة و الملاط و الصلصال .

بعد أن فرغت من تقبيلنا و الترحيب بنا، أجلستنا على وسائد مريحة قرب الموقد الذي تتوسّطه آنية غريبة مصنوعة من الفخّار، طهت عليها للتو أربعة من الخبز ومن الشعير و أسندتها في صفّ متتابع مرصوص إلى الحائط. وكانت الردهة تعبق برائحة حساء العدس. في الواقع إنّها رائحة زكيّة. وخرج من أحد الغرف طفل صغير لم يتجاوز السابعة و عيناه الحمراوان تدمعان وابتسامة قانعة تعتنق شفتيه الصغيرتين، قدّمته لنا بارق باعتزاز (هذا ابني رعد) أسميته على اسم أبيه رحمة الله عليه

أختم رسالتي هذه مخبرة إيّاك أن الطفل لم ير والده أبدا "

"مرت الساعة الأولى في استجواب يبلغ طوله سور الصين العظيم، و جرى حديث عن العائلة و زوج السيّدة سميحة والعيش في الريف والرغبة في زيارة المدينة ومشاكل الزراعة وموسم الحرث

والحصاد وموت الحيوانات بسبب البرد،و بابتسامة تباهت بضجر الطبيب القادم من المدينة الناجم عن انعدام المرضى ثم رحيله ،إذ أن العلاج يعتمد بالدرجة الأولى على الأعشاب، وبشرح معمق شحنت رؤوسنا التي اكتشفت أنها جاهلة رغم المدارس و العلوم باستعمالات كل عشبة ،للقضاء على الديدان المعوية لدى الأطفال ،الثوم و الشيح و بذور القرعة ،للتخلص من سموم الجسم و عسر الهضم و آلام البطن و الإسهال ،ورق الغار أو اكليل الجبل ،لخفض درجة حرارة الجسم المرتفعة ،الجعدة ،للسعال و الكحة ،لحاء الدردار و الزعتر و الزنجبيل، لديها لكل علة دواء،حتى الكسور تجبر في البيت .و لم تعتقنا السيّدة عربسة من دوّامة الأسئلة و عرض المعارف إلا بعد تذمّر رعد الصغير معلنا أنّه جائع بلكنة ريفيّة مميّزة.

لقد كان أوّل عهدهما بمعرفة السيّدة سميحة، رغم أنهما قريبتا زوجها. وبينما انكمشت الفتاتان قريبا من أمّهما متجيّشتين بحرصهما المتيقظ، تبرّر ذاتُ الأسباب الأولي نفورهما من المكان، خوفا من كارثة مفاجئة محتملة، وضعت بارق أمامنا منضدة قصيرة القوائم مستديرة عليها خبزة من الشعير و طبقا من العدس. تسألني إن ما كان لذيذا؟، إنه أروع ما تذوّقت في حياتي.كان مطهوّا بشكل جيّد تتوسّم فيه طعما مميّزا،أراهن أنّ السيّدة عربسة أحسن طاهية قابلتها. حسنا، بما أننا خصّصنا يومين فقط للرحلة، عرضت علينا بارق جولة في الأنحاء،و لولا أنّ سالي وريحان خشيتا من واقعة عرضيّة أخرى تودي بسلامتهما إلى عواقب وخيمة، لاستنكفتا الخروج، ونفسه السبب الذي يمنعهما من الخروج يخيفهما من البقاء .

إنّهما تخافان من الحيوانات باستثناء القطط، كانت المحطّة التمهيدية هي الإسطبل، هل لك أن تتخيّل أنّ هاتين المرأتين تديران مزرعة لوحدهما دون الاعتماد على رجل، إنّ هذا مذهل أليس كذلك؟.من قال إنّ النساء ضعيفات و مدلّلات،إن عربسة و ابنتها تقبران هذا المفهوم الخاطئ.

حسنا، في الإسطبل مجموعة من الأبقار الملوّنة بالأبيض و البنيّ الداكن والعجول الصغيرة، إنّها فائقة الجمال، تمنيت لو أستطيع اصطحاب ذاك العجل الأبيض حديث الوليدة، وأيضا يوجد خراف صغيرة ومواشي و سمعت ثغاءها لأول مرة بالإضافة إلى البغل الشقيّ، وحمار أعجف أسوأ منه حظّا، ليس لديهما حصان، كذلك توجد ثلاث من الماعز إحداها تملك قرنين عدوانيين وتعلق في أعناقها أجراس، رأيت المحراث الخشبي الذي يستعمل لحراثة الأرض ، مقابل الإسطبل قن للدجاج، وآخر للبطّ و الإوزّ، و بحوزتهم أيضا مزجر كلب أسود مقعي ليس مربوطا بسلاسل لهذا أثار الهلع في قلوبنا قبل أن نتبيّن أنه وديع وداعة الخراف.

ورغم محاولات بارق لتهدئة روع السيدة سميحة وابنتيها و إقناعهنّ أنّه كلب مسالم، إلا أنّه لم يكن بمقدورهن مضغ هذه اللقمة العصيّة وفاءً لنظريتهن المكتسبة وليدة الحوادث المفجعة.

واستنسخن رأيا مخالفا، لا سيما أن بارق تقلّل من شأن كل شيء ابتداء من الوقت، ألم تقل أنّها عشر دقائق ثم تبيّن أنّها أربعون دقيقة، لقد تلاشت المصداقية من هناك

هل تخطط الآن لزيارة الريف؟،لن تندم أبدا أعدك "

"إنّها الخامسة و النصف و أنا لم أصل حتى إلى منتصف السرد بعد أن عرّفتنا بارق على حيواناتها الأليفة، التي استلطفتها كثيرا و لا يسعني قول الشيء ذاته عن الفتاتين التي كانت نظراتهما تقول أنّهما فزعتان،دعتنا والشعور بالكبرياء يغمر تقاطيع وجهها إلى مشاهدة كوخ حجري ذي باب منخفض صغير ، يحدث صوتا مزعجا عند انفتاحه، وبحركة غريبة خشّبت أبصارنا ،ولم ندرك ما الذي يحدث إلا بعد انقضاء فترة من الزمن، حسنا،لقد ارتكزت بارق على كفيّ يديها وركبتيها بوضعية طفل يحبو ثم ولجت إلى الداخل برشاقة تدعو إلى الانبهار، وبعد أن عدلت وضعها في ذاك الكوخ أطلّت علينا برأسها مشيرة لنا بإلقاء نظره من فتحة في سقف الكوخ حتى تشرح لنا عملية مهمّة. نفذنا طلبها و أوّل من اعتلى السلّم الخشبيّ هي السيّدة سميحة المشدوهة،مثل من تلقى صفعة نفّذ على إثرها الأوامر، وفتحت الفتحة المغلقة بإحكام ثم صاحت ساخطة تغمرها الحيرة

(برقة، ماذا هناك لترينا، إن الرائحة كريهة).

(بارق و ليس برقة)أجابت بارق بنبرة مستمتعة ، يشوبها السرور بكوخها

(اعذري زلّة لساني و أسرعي بالشرح، إنّ البنات ينتظرن أدوارهن ثم إن البرد قارس، نريد العودة إلى البيت) ردّت السيّدة سميحة بلهجة تنمّ عن نفاذ الصبر

(أترين هذه الأكياس؟)سمعت بارق تقول بافتخار، كأنّه مفخرة نادرة تتوارثها العائلة (إننا ندّخر فيها روث الحيوانات المجفّف،لغرض الطهو عليه والتدفئة) و عندها انهارت معنويات السيّدة سميحة و جال في رأسها أفكار مشمئزة فسألتها على الفور

(هل تقصدين أن والدتك طهت ذاك الخبز على هذا الروث المجفّف).

(نعم، وهو مصدر ذاك الدخّان الكثيف) وعندما بلغت القضية مسامع سالي وريحان تبادلتا نظرات التقرف الصامت وارتجف وجهاهما الجامدان،أما والدتهما؛ فقد استدارت خائبة وقد أفقدتها المعرفة القدرة على التعبير، فغاصت في غفوة صمت طويل كصنم حجريّ، وسرعان ما استفاقت على صوت بارق يدعوها إلى التنحّي جانبا، لنلقي نحن بنات المدينة الجاهلات بشؤون الريف المتعطشات لتزويد رؤوسنا الطريّة المدلّلة نظرة تبصرية، لكنها خلافا على المتوقّع أغلقت الفتحة متجهّمة السحنة كأنها سحابة ثم نزلت بخفّة و توجّهت إلى الباب بعد أن التقطت قطعة خشبيّة ووقفت عنده تستعر غضبا قائلة بصوت عميق (اخرجي أيتها الخسيسة) ثم التفتت إلى

ابنتيها التي لم يخب ظنّهما في مشاهدة جبال سويسرا فحسب، بل صدمتا أكثر مما تتحمّلان (توقفا عن التجشّؤ أيتها البنات،إنّكما تثيران اشمئزازي، وأنت يا أثيل توقّفي عن الضحك،لقد أكلت معنا،سأنتقم منها الآن، اخرجي يا برقة"

(بارق و ليس برقة)أجابت بارق متأهبة للخروج.

ملاحظة،لم أضحك في حياتي كما ضحكت ذاك اليوم."

"انسلخت الساعات ونحن محبوسون بين جدران البيت، فاقترحت السيّدة عربسة علينا الصعود إلى الجبل الواقع خلف البيت الصغير. لم تستحسن السيّدة سميحة الفكرة مطلقا، بل أبدت عبوسا متجهما رفقة ابنتيها قائلة بصوت غليظ (أريها السها و تريني القمر)، ولم أدرك أنني وجدت ضالّتي المنشودة في هذا الاقتراح الرائع إلا عندما بادرت بارق إلى مدح نشوة الوصول الى ذروة الجبل. و في الحقيقة، كانت نفسي تهفو لمثل هذه المغامرة فائقة التشويق،و نتيجة جهلي بالمناطق الريفيّة تلهّفت إلى المسألة أكثر مما ينبغي فما كان من السيّدة سميحة إلا أن حدجتني بنظرات محذرة كونها امرأة عقلانية، مبدية فتورا جافا إزاء حماسي المنجّد بقلّة المعرفة .

لقد ركّزت تفكيري على القمّة ساهية عن الصعوبات التي ستعترض طريقي. وهكذا سددت أذني مغرورة عن تنبيهات السيّدة سميحة، وأدرت ظهري لشحوب وجه ابنتيها و انتقادهما الصريح للفكرة ثم أجمعت رأيي على خوض غمار المخاطرة .كانت الريح عاتية و الثلوج تتساقط. أما البرد فكان يجتاح جسدي في موجات قارسة. لم أخرج لوحدي من البيت، فقد جنّدت بارق ابنها الصغير ذا الأعوام القليلة ، لمرافقتي تحسّبا لأي طارئ: كالكلاب المشرّدة أو الثعالب المكّارة، وليس من التواضع تجاهل الذئاب الشرسة، بعد أن دثّرته بطبقة ثخينة من الألبسة، الأمر الذي فاقم استياءه

هو بدوره جمع عددا من أصدقائه الذين يماثلونه سنّا، جمع حوالي عشرة أطفال تباينت أعمارهم . و لم أعرف أنني في أياد صغيرة أمينة، إلا عندما أقدمت بدوافع صادقة على قرص وجنتين لحيمتين مسجّلتين باسم صبيّ بدين، فقد افتعلوا جميعا ضجّة صاخبة، واستنكر المعنيّ بالقرص فعلتي قائلا بصدر منتفخ: إنه رجل كبير، وليس من اللائق التعامل معه كطفل يمصّ زجاجة الحليب، أليس هذا مسلّيا؟،و قال معقّبا أنّ التنازل لمصافحة النساء أمر فيه نظر، وبينما أنا أصعد الجبل الشاهق استدرت لأرى عيون السيّدة سميحة تغشاها نظرةٌ قلقة ملوّحةً لي بيدها موصية إياي باستعمال إشارات بيدها بعدم التأخّر وتوخّي الحذر والحيطة، لقد تركت لي حريّة التصرّف على مضض واضح، مع انتقائها عبارات معيّنة لغاية تحذيري "لا تلوميني إن ما أصابك مكروه بالخارج. إنك عنيدة كبغل ويصعب التحكّم بنزواتك في الفترة الأخيرة، اذهبي، وإذا سمعتك

تشتكين من شيء فسوف أسدّ أذني "إنها تدعّي الشدّة و عدم الاكتراث، لكنّها تقلق علي مثل أمّي، إلهي كم أحبّها.لا تنزعج لأني أستعمل كلمتك باستمرار ،إلهي كم تعجبني .

"وجهت حراب تركيزي نحو القمّة،على أن ذلك ليس كافيا لتبلغها بأمان، استطعت أن أبلي حسنا في البداية قبل أن تهتمّ الطبيعة بإثبات العكس لي. لم أفترض أن المسألة بهذه الصعوبة، إلا عندما تسرّب البرد إلى عظامي فأحسست أنني أتجمّد و قاست رجلاي ألما مبرّحا، كما أن الأشقياء الصغار تذمّروا بدمدمات خفيضة متبادلة فيما بينهم من تلكئي في السير كسلحفاة، كانت تعوزهم الكياسة لمجاراة خطوات صبيّة لطيفة ناعمة مثلي، وهكذا ألفت نفسي في مأزق حقيقيّ نتيجة إفراطي في الثقة بقدراتي على التأقلم مع الجو في الخارج. كنّا كلّما تقدّمنا أكثر، شعرت ببرودة الطقس تتضاعف، لكن كان لا يزال يحلو لي منح المغامرة طابع اللذّة، رغم الذي برّحتني إياه الطبيعة القاسية من تجمّد و ارتجاف، أتعرف الذي حدث فيما بعد؟

كأنّ الحظّ السيئ انتظر هذه اللحظة بالذات ليلتف حولي، لقد وقعت بسبب تعثّر قدمي بحجارة متدارية تحت طبقة كثيفة من الثلوج، وضحك هؤلاء الأطفال بصخب، و لست متأكّدة من المدّة الزمنيّة التي بقيت خلالها منبطحة على الأرض. و لتزداد الأمور سوءا تمزّق جلد إحدى ركبتي، إنّها في هذه اللحظة تؤلمني كما أنّها مصطبغة باللون البنفسجيّ و الأحمر تتخلّلها خطوط برتقاليّة. لم أتحوّل إلى حمقاء فأخبر أمّي عن الحادث، لأنّها ستلقي باللائمة على السيّدة سميحة، ثم اعتبارها مرافقة فاشلة و مراقبة سيئة، ولن تتمهّل وهي في ذروة الغضب القسم بأغلظ الأيمان بعدم السماح لي برحلة أخرى.

أكافح قدر المستطاع للوقوف مستقيمة أمامها، وليس من السهل التظاهر بانعدام الألم في حين أنني أتألّم بشدة، كلّه في سبيل العودة إلى هناك ذات يوم.حسنا، لأعد إلى النقطة الأخيرة، لقد تأخّر الوقت وبعد قليل يتعيّن علي الاستعداد للتوجّه الى العمل، طبعا لا يتمتّع هؤلاء الجراء الصغار بأي محاسن مترفّعة تحدوهم إلى إغلاق أفواههم و دسّ ضحكاتهم في صدورهم الصغيرة، لقد طفقوا يهمهمون تحت أياديهم المضغوطة على شفاههم، لإيمانهم المتين أن فتاة في السادسة والعشرين ينبغي أن تتماسك وتتفادى الوقوع تحت أي ظرف. واستطعت تمييز صوت رعد الصغير ينعتني بالهرمة، فاحمرّت وجنتاي خجلا، وبتلك الركبة المنسلخة قرّرت مواصلة رحلتي، رغم التشدّق الذي دار حولي، والآراء الهازئة التي استهدفت عزيمتي بفطرة ذكوريّة مستهترة (الرجال جميعا متشابهون مناهضون لهمّة النساء") ثم خطط الطبيعة الغامضة الموجّهة ضدي، إلا أنني واصلت بأعصاب من حديد وقلب من جليد. أجل، حتى بلغت القمة، لقد طفح قلبي في تلك اللحظة بأجود أنواع الفرح،لتجاهلي جروح ركبة عاجزة تنثني عن عزمها في بلوغ الآمال البعيدة.

ملاحظة،إذا اتّفق وخانك الحظ ذات يوم ووقعت على الأرض أثناء صعودك الجبل فانهض بسرعة مبتسما ، و تظاهر بعدم حدوث شيء، كيما تتجنب جعل نفسك عرضا مسلّيا لزمرة من الأشقياء الصغار الشامتين ،انهض دائما، ثم اضرب بأسباب الاستسلام عرض الحائط ،وواصل السير حتى لو كلفك ذلك زحفا عسيرا، لأن نقطة النهوض ما هي إلا وصول للقمّة.

"في ليلة الجمعة، وبينما نحن نتناول عصيدة شهيّة حضّرتها السيّدة عربسة من طحين وزبدة البقر مضيفة لها كميّة مغالية من السكر، انقطعت الكهرباء، فلقّنتنا بارق بعض التعليمات الصارمة (لا تتحركن من أماكنكن، إن الأمر طبيعيّ،تنقطع الكهرباء في اليوم مرتين دونما مقدمات) و لأول مرة منذ نزلنا ضيوفا عند المرأة وابنتها لم أسمع السيّدة سميحة تستدعي سخطها، وبينما أنا أستدعي تعجّبي من هدوئها، أجهزت الرياح على مصدر التدفئة [نار الموقد] ، شعار هذا البيت (المصائب تأتي مرة واحدة وبارق هي الناطق الرسمي باسم تقزيم المصائب و إعطائها لقب طبيعي).

شعرت بالأسف حيالهما، ما يصيبني بالاستغراب، كونهما لا تتذمّران من أي شيء يحدث، بل إنّهما تقفان موقفا باردا مع كل الوقائع، وإن كانتا تشعران بأي امتعاض داخلي فهما لا تسرّبان منه قيد أنملة، وإن كان الطفل الصغير رعد يُلزم نفسه بإخفاء حنقه الطفولي، فمرد ذلك إلى أن داخله خال من أي شعور بالنقص، لقد تعوّدوا على هذا النوع الصعب من الحياة، بوحي مستفيض من القناعة الصامدة، وقلوبهم تنبض نضالا وكفاحا، وإن ما انعكس شيء على وجوههم، فهي مقاومة باسلة و رضا بالموجود، توضّح لي أن السيّدة سميحة و الفتاتين لم يقنعن بالتأقلم مع الوضع فحسب، بل أخذن في الشعور بمعاناة السيّدتين، فتخلّين عن وصلات التذمّر و السخط. على قدر ما كانت الظروف محطّمة،على قدر ما كانت العزيمة صلبة صامدة، هكذا برزت لهن النتيجة الشامخة، من نافذة التعاطف والتآزر مع مآسي امرأتين وحيدتين كأهون صور التضامن.

بقينا في الظلام إلى أن أضاء الردهة نور شمعة وُضعت في منتصف الطاولة، وهكذا عمدت العجوز إلى تحويل المسائل المعتمة إلى نكت لم تجلب إلا ابتسامات واهنة ، خفيفة لأفواه تتصّل صلة عضويّة بقلوب تنوء تحت ثقل الشفقة، هدّها فهم الحقيقة المرّة. وطفرت دموع حزينة من عيون سالي الرقيقة، فأسرعت أمّها بخفة لسانها المُستَفّز تقوّم الموقف قائلة بفكاهة مرحة أنّ ابنتها وليدة بيئة تعشق النوم المبكّر، وعلى وجه السرعة أرسلتها متثائبة، وهي ترتجف من قمّة رأسها إلى أخمص قدميها إلى الغرفة المقابلة لتنام، ثم تابعت بانتقاد لاذع مجهول الدوافع موجّه إلى ابنتها الخمولة ريحان كنوع من إضفاء المرح، وعدم الاكتراث على الجوّ الغائم بسحاب البؤس قائلة.

"إنك لتشبهين فرخا مبلّلا، اذهبي في إثر أختك، لا تنفعان لشيء" وهكذا انسحبت الفتاة المتفهّمة على رؤوس أصابعها لتوافي أختها، اكتشفنا بعد أن دار بيننا حديث قصير، أنّ الأمّ فقدت ثلاثة أولاد و صهرا وفقدت الابنة ثلاثة إخوة و زوجا في يوم واحد، وحادث واحد جرّاء انفجار لغم مطمور، ورغم أن السيّدة سميحة تشاركهما القرابة، لم تطّلع على هذه الحقائق مطلقا، واعتمل في صدرها شعور مرير، يحيط بوجهها حزن سحيق. أما أنا ،فشعرت بغصّة تجتاح كياني. هذا محزن حقا، إن ما يشعرك بالدهشة ليس مصائبهما، بل تجلّدهما حيال هذه المآسي المتتابعة الشاقّة، إن شعارهما في الحياة (الحزن لا يغيّر شيء،لن يعيد الموتى من القبور، ولن يصلح المحن، فلماذا نحزن؟ ".

أجل ، لقد أدركتا بفطنة رشيدة أن الأحزان لا تعيد الذين غادروا الدنيا دون عودة، لهذا مضتا قدما متحلّيتين بأندر أنواع الشجاعة، متجاهلتين أعتى أصناف الظروف القاسية،الحزن لن يعيد الأمور إلى نصابها، هو فقط يخدّر العقل بمخدّر لعب دور الضحيّة، وبدل ذلك تفنيان حياتهما في تجهيز طفل صغير للحياة،هو عزاؤهما، أجل هناك تعويض مستمر لكل خسارة إن سخّرنا وقتنا للبحث عنه بدل البكاء على ما ذهب.

ملاحظة، سأتمسّك بكل تلك الذكريات لأنّها جميلة، و أتجاهل ذكرى واحدة وهي سقوطي على الأرض المكتسية بالبياض، لأنّها تجلب لي قبيلة كاملة من الخجل "

"يوم السبت لم يحدث الكثير، فقد تطوّعنا أربعتنا لمساعدة العجوز وابنتها، وتنزّهنا في أرجاء القرية، ثم دعتنا بعض العجائز صاحبات البيوت المجاورة المنفصلة إلى شرب الشّاي وتبادل الأحاديث التافهة، هكذا أطلقت عليها سالي الصغيرة، قبل أن تعيد النظر في نعتها، حيث انهالت عليها يد أمّها الواقعة تحت رحمة عشق اللغو ، كان استهتارا بذيئا بعقلها المالي، حيث أخذت تتحدّث دون انقطاع عن المشاريع والتجارة وختمت الجولة بإثارة شجار مع صاحب الدكّان الصغير، ألصقت به تهمة الحسد لعدم تحمّسه لتشجيعها على فتح مطعم بالقرية.

وأصارحك أن فكرة زيارة أخرى في فصل الربيع أو الصيف قد أغرتني من الآن، فإن كان شتاء الريف بهذه الروعة فكيف هو الربيع هناك إذا!؟ إن ذلك يعتمد على احتفاظ سالي وريحان بأفواههما مغلقة. كما يعتمد على صمود جسدي أمام جيوش الزكام و السعال وحشرجة الأصوات.

"مصدر إلهامنا خليل

دعني أشرح لك، وأنا أتكبد أصناف متنوعة من التوبيخ عن أسباب تخلفي عن مراسلتك لمدة أسبوع كامل

لسوء طالعي حدث ما كنت أخشاه، لم يصمد جسدي الخائن أمام مكر الزكام،إذ تسبّبت نزهتي صعودا إلى الجبل بنزلة برد لم أعهدها من قبل، وتناسقت الظنون المترصّدة بعقل أمي مع اعترافات سالي وشقيقتها، تدينانني بفورة راعدة بصعودي جبلا شاهقا رفقة زمرة من الأطفال الصغار، بينما كان البرد القارس يلفّ الريف،و أجلّت على قدر ما استطاعت إطلاق العنان للوم و التوبيخ، فأنا وللأسف دخلت المشفى ومكثت أربعة أيّام وسط جلبة من الحرارة والسعال، ظننت أنني لن أخرج حية من أنياب الوعكة .كدت أموت ، لولا يد الله الرحيمة التي أمدّت الحكمة الرشيدة ليد الطبيب المشرف. و كاد العجوز إبراهيم أن يحجز له سريرا في المشفى أيضا لإصابته بنوبة غياب عصبيّة لإحدى الموظّفات المريضات، ولحسن الحظ نزلت كل القنابل على رأس ابنته المأخوذة بحبّ تقديم النصائح والسيّدة سميحة الرقيبة الفاشلة، لست مخلوقا شريرا. لن تطردا من عملهما، سيطالهما بعض التوبيخ و القصف، أما أنا ،فلست الآن أعاني إلا من علة واحدة ألا و هي توبيخ أمي و قسمها المتكرّر بعدم الانخراط، بأي رحلة إلى أي مكان صيفا أو شتاءً ، لم أكن حكيمة حينما أخذت بنصيحة غروري بخوض تلك المخاطرة، بدت وردية للغاية، بينما اسودّ لونها و أنا أئن في المشفى.

لك أن تتخيّل مقدار بؤسي لإصدار أمي حكمها الجائر بحرماني، و للأبد من زيارة ممتعة إلى الرّيف أين يتصادق البشر والحيوانات، وأنا التي آمنت جذلة بعودتي إلى هناك في فصل الربيع، إن أمي العظيمة قد وقّعت ذاك القرار، و لا سبيل إلى إلغائه إلا بمعجزة تتكرّم علي بليونتها.

" عزيزنا الرائع خليل

طيّب القلب، صاحب المواهب الرنانة ، غدا السابع عشر من فبراير،غدا هي مناسبة عظيمة، يجب عدم تفويتها دون ضجّة صاخبة ، غدا هو عيد ميلاد أروع انسان في الدنيا. صديقنا الغالي نادر المثال خليل. لا نستطيع أن نوفّر كعكة كبيرة و زجاجات العصير ولا شيء من هذا القبيل و لا بالونات بألوان خضراء و صفراء،و برتقالية ولا جوّا خرافيّا من النوع الذي تعوّدت عليه،في مثل هذا اليوم أتيت إلى الدنيا. ولست أملك هديّة أقدمها إليك إلا عبارة واحدة "إنك أروع صديق نعمنا به. وإن صداقتك لنا لمكسب حقيقي و غنيمة ماسيّة، أنت الانسان الأكثر روعة على الإطلاق، تصبح على خير "

" خليلنا العزيز

صباحك مشرق مثل هذه الشمس الخجولة التي تختفي خلف سحابة قاتمة،عيد ميلاد سعيد،بهذه المناسبة أودّ أن أتذمر من تمتّعنا بقليل من الحقوق. فأنت لا تهتم بنا مطلقا. أجل إنه اليوم الموعود لازدهار الشكاوى ضد قليلي الإحساس مثلك، لقد قلت أمس إنك رائع. في الواقع،

درست الموضوع بتحليل أكبر و اكتشفت أنك لست رائعا بما يكفي، فأنت لا تأتي مطلقا في مستوى التوقّعات، لكن رغم ذلك أنا مسرورة للغاية، لأن اليوم هو عيد ميلادك ، نتمنى أن تكون هذه السنة أحسن من سابقتها، أنت تستحّق الأفضل دائما، أثيل صديقتك المخلصة التي تكنّ لك كل التقدير"

"عزيزنا خليل

كيف مرّ عيد الميلاد؟ هل حضر أصدقاؤك، و ماذا عن صديقاتك ؟ هل حضرن؟،إلهي ما أجمل صديقاتي!! ،إنني أمزح ، أعتقد أنهن تملّقنك كثيرا و مدحنك بتكلّف مزيّف قائلات أنّك تبدو وسيما للغاية،باعتبارهن حنونات طيّبات كالماء، لايتوقّع منهن أحسن من هذا، إنهن من أنصار (العناية بالمشاعر الإنسانية)، مستندات إلى جدار ليونتك و شهامتك الضارية، ما أنبلك!، إن ما غازلتك إحداهن، فليس عليك أن تعبس في وجهها كما يفضّل أن لا تضحك كأنّها أطلقت نكتة فكاهية أيضا. فقط قف بوقار واشكرها على شكل تجاهل، ضع غطرستك وتجاهلك وجفاءك في المكان المناسب، إنني أمزح مرة ثانية ،إلهي كم أحب المزاح، ماذا فعلت بهذه المناسبة السارّة، هل زرت مكانا محددا، هل تلقّيت هدايا، هل قدّم أصدقاؤك الرائعون هدايا مميزة ؟أرجو لك عيد ميلاد سعيدة مرة أخرى"

" خليلنا العزيز

أكتب إليك وأنا أنزوي في غرفتي نائحة، و على وشك التقيؤ،اعذرني لعدم تمتّعي باللباقة، إن السيّدة مفيدة و هي إحدى الجارات القديمات هنا، حضّرت طبقا غريبا ، ثم وزّعته على أهل الحيّ جميعا كأحد مظاهر كرمها المفاجىء، صوّرته أمامنا كطبق فاخر غير أنّي لا أعتبره إلا عطلا تقنيا في ذوقها وارتجاجا نزقا في دماغها، ليس تذوّقه أقلّ شذوذا من طهوه على البخار ثم مزجه في مرق أحمر متماوج، دسست اشمئزازي العوّاء في قلبي ثم تبرّعت لها بابتسامة استحسان واعدة وروّضت ملامح وجهي المتبعثرة كقطع الزجاج، إن كان احتمال الموت جوعا بسبب انعدام الطعام، و توفّر هذا الكائن فقط، فلا عجب أنني سوف أختار الموت جوعا.

لم أعرف مسبقا أن بإمكان إنسان طبيعيّ يتمتّع بكامل قواه العقليّة والجسدية أن يأكل هذا المخلوق الذي لو اتّفق أن صادفته في الطريق لغيّرت المسار على وجه السرعة، إنه صحن مملوء بمرق أحمر تسبح فيه مجموعة من الحلزونات الصغيرة نقلت وصفته عن التلفزيون، وأكّدت خمس مرات أنه طبق مشهور و يقدّم في أحسن الفنادق الفخمة . يتضّح لي أنه من السهل إقناع النساء بأي وصفة حتى لو كانت تحتوي في مكوناتها العشب الأخضر وأوراق الأشجار.

أفضّل الجري مع طرزان في الغابات لأثبت أنني إنسان حضري متخلّف فاقد للأهلية المتمدّنة على أكل هذا المخلوق المقزّز، و بكل تودّد أثرت عقولنا بطريقة تحضيره، حيث أنّها طهته على البخار والروح تدبّ فيه ثم أضافت كميّة من الزعتر لتغرز فيه قضية اللذّة العسيرة، أليست السيّدة مفيدة مخلوقا شرسا متوحّشا عديم الرأفة؟ وهكذا وقفت أمي وفمها فاغر تستخدمه للتعبير الديمقراطي المتحفظ في المواقف الرأسمالية كهذه، فيما فرّت ياسي الصغيرة زاعقة زعيقا مكتوما، هل سبق لك ووضعت هذا المخلوق في فمك؟ لا أتوقّع هذا منك ، سأقول لأي شخص يأكله اذهب إلى جهنم. وداعا "

ملاحظة. ليست السيّدة مفيدة أكثر شراسة من أشخاص يتناولون الأخطبوط، يقال أنهم يلقونه في الماء المغلي ، إن الإنسانية في خطر كبير، علينا أن نعقد اجتماعات طارئة لإنقاذ هذه المخلوقات من الهمجيّة البشريّة، من غير الحكمة منح البشر كل هذه الحريّة لتناول أي شيء يرغبون فيه ".

" عزيزنا خليل

عدت لتوي من العمل، وعندما صرت على بضع خطوات من البيت استرعى انتباهي صبيّ صغير أقرع في حوالي السابعة من عمره، كدت لا أتعرّف عليه من التغييرات الرهيبة التي طرأت على شكله و شوّهته بصورة مأساوية، إنه الصغير فهد ابن السيّدة فادية، خرج من المشفى ليقضي أياما في البيت، لقد كان في ما مضى يملك شعرا أصفر كثيف يتلألأ في أشعة الشمس وحاجبين شقراوين غليظين ، وعينين زرقاوين بلون السماء، أما الآن و بتأثير سيء من مرض خبيث لم يبق من ذلك الصبيّ تعيس الحظّ إلا وجه شاحب كوجوه الموتى،وعينان عديمتا الأهداب بالإضافة إلى جسد نحيل هزيل. إنه مصاب بالسرطان، هو من ذاك الصنف من الأطفال الذي تكذب عليه أمّه بشأن أسباب بكائها فتخبره أن البصل أدمع عينيها في حين أنها تبكي كمدا على حالته، و رغم أنها لا تحتمل رؤيته يتألّم من عقاقير العلاج، والحقن ذات الإبر الثخينة، إلا أنها لا تملك شيء لتدفع به المعاناة عنه و تعارض بها إرادة الله فيما أراد .لا يوجد في الدنيا بأسرها ألم يعادل هذا الألم، أن تقف مكتوف الأيادي أمام شيء أقوى منك، بل إنه أقوى من أي إنسان، وحقيقة كونه علّة لا يمكن الشفاء منها لا تخفى على أحد، إنّه لا يعقد هدنة أو سلاما، وليست المفاوضات معه بالمفضية إلى نتيجة مشرّفة، أتدري ما أذهلني في حالة الصبيّ الصغير صاحب السبع سنوات، صاحب الشعر المفقود و الوجه الأصفر الشاحب؟،إبداؤه مقاومة يستحّق التصفيق عليها بحرارة، إنّ الابتسامة المعتكفة في زاوية فمه لتحفّز شعوري بالإثم لعدم قناعتي ببعض نواحي الحياة، أنا وافرة الصحة مكتملة الهناء. أنا التي لا أصحو و أنام على الحقن و العقاقير. أنا التي لا أتردد على

المشـافي كل يـوم و صـدري يجـيش خوفـا مـن الآلام المرهقـة، و كـأن ابتسـامته تسـخر مـن تـذمّر الأصحّاء،قائلة "احمدوا الله على النعم التي تغرقون فيها من السحر إلى الشفق ".

ملاحظة. عندما رآني أبكي، هبّ نحوي ليسألني عن السبب، فزعمت أن البصل أضرّت بعيني ودفعتهما إلى البكاء، و حيث أنه رقيق القلب لعن البصل بإسهاب، لأنّها سبق و أدمعت عيني أمّه "

"صديقنا الأغلى

السحب الداكنة تغلّف السماء والأمطار تهطل بغزارة لم يسبق لها مثيل، بينما هذه الأرض لا تزال منجّدة بالصقيع في كل صباح، هذا ما خصّصه الربيع المختبئ الجبان من مفاجآت لنا في أيّامه الأولى، تعوزه الشجاعة والشهامة ليقول للشتاء أغرب عن الدنيا إنه دوري، لك أن تتخيّل قضاءنا شهر شّتاء آخر،ااه لماذا يجتاح هذا الفصل خصوصية فصول أخرى دون حياء، أودّ مشاهدة الطبيعة الخضراء ورؤية الطيور المهاجر تغرّد على عتبه النافذة و الزهور بألوانها الزهرية والحمراء والصفراء تكسو الأرض القاحلة، ألا يستطيع أحد كبح سلطة الشّتاء، إنه أنانيّ جدا، متكبّر و مغرور،لم نكن لنقسر على تحمّل يوم آخر منتحب كأرملة ما لم يتخاذل الربيع في فرض ذاته، إنها أيامه فلماذا يتبرّع بها للشّتاء؟، يا له من جبان رعديد. وانظر إلى الشمس الصفراء، من الصعب أن أحافظ على هدوء مزاجي عندما أتحرّى جبنها، ليست تجيد إلا الامتثال لأوامر السحب، إنها تختبئ كأنّها تلعب الغميضة،الربيع التعس يحتاج إلى محام جيد بعد أن انسحب الخريف والصيف من منصّة الشهود،أنا أتحرّق بلهفة الفتاة الصغيرة إلى يوم ربيعي هادئ،أنت تفكّر مثلي أليس كذلك؟ لا تحبّ التجهّم و الغطرسة. مهلا، لقد ضحكت عندما طرق عقلي أمر صحيح، إنك تشبه الشّتاء كأنكما توأمان، وهكذا فقد جاءت حبّة القمح تشتكي إلى الديك أفعال الدجاجة،إلهي كم أحب الشتاء ،لا أستطيع منع نفسي من تقليدك ".

"نجمنا الساطع خليل

سيهمّك أن تعرف أنني كنت أتبنّى نيّة خالصة بإفناء يوم السبت كاملا في الكتابة إليك، قبل أن أجد نفسي في جوف مأزق عديم الملامح، لقد هجمت السيّدة سميحة على البيت منذ قليل بضوضائها المعتادة ، وبعد أن جادلت أمّي العظيمة بعناد في جدال قصير غير راعد أشبه باجتماع سري كهربائي خرجت منه منتصرة كما هو شأنها دائما، اقتحمت غرفتي على طريقة يسهل إيجاد وصف لها (ديكتاتورية) آمرة إياي بلهجة واثقة بارتداء ملابسي على عجل لعزمها على أداء مهمة سامية للغاية، رغم إلحاحي على سؤالها عن وجهتنا اللامعة إلا أنها أكرمتني بجواب مهلهل تفيض منه معالم الاعتزاز و البطولة قائلة (سنذهب في مهمة استثنائية لإعادة بناء الإنسان).

لا يستهويني بناء أي إنسان رفقة السيّدة سميحة المعتوهة، ويتعيّن علي إنشاد نشيد المصائب و تلحين أهازيج المآسي بصوت منتحب قبل أن أبارح البيت. لا بد أنّها قد قرّرت الزجّ بي في جوف إحداها غير آبهة بملاحظات أمّي الأخيرة، بعد أن امتثلت لطلبها، ناشدتها السماح لي بالاختلاء بنفسي لفترة يسيرة، ها أنا أكتب إليك وحيدة وقلبي يرتجف من مهام السيّدة سميحة، أين تظنّها تأخذني؟ لا تستغرب إن أفضيت إليك أن بعضا من مظاهر الاطمئنان قد لوّحت مودّعة لي وتشرّدت الراحة النفسية التي كنت أنعم بها. وعوضا عن ذلك تكفر الأعصاب المتوتّرة بمحاولة تهدئتها عديمة الجدوى.

تحذّرني غريزتي تحذيرا غير محدّد الوجهة بأن كارثة ستقع، ادع من أجلي ،ربما سأكون بأحد مراكز الشرطة قبل غروب الشمس، لأنني من الممكن أن أنبت هناك كشاهد لنزاع أو شجار أو ربما كشريك مساهم في قضية ما بدرجة ضحيّة، يمكنك تحويل البقرة إلى ثور والديس إلى صبّار، لكن لا تستطيع انتزاع نزعة السيّدة سميحة الضارية المغرمة أبدا بحبّ المشاكل

وداعا يا صديقنا العزيز ".

"خليلنا العزيز

مساء الخير،ها أنا قد عدت سالمة آمنة دون أن أعرج على مركز الشرطة، لقد سلمت من منحهم شرف زيارتي الوقورة برحمة من الله، و رغم أن أمّي استفسرت عن المكان الذي كنت فيه، إلا أنّني استنجدت ببعض الأكاذيب البيضاء، ليس من الصواب منحها سببا حاسما لفصلي عن السيّدة إلى الأبد، أتدري أين أخذتني المصلحة الاجتماعيّة والمؤثّرة النفسيّة، من السهل تلقين ذهن أي أحد وجهتها بما أنه لا يجهل مبدأها في الحياة (إلى مركز للعلاج من إدمان الكحول)، أقسم أنني لست أمزح هذه المرة ، ليست مدمنة الحمد لله. عقدت الصدمة لساني عندما أنبأتني بحرفية نسويّة تحبس الأنفاس عزمها على إلقاء خطاب مرتجل أمام ثلاثين شخصا من مدمني الكحول، بحكم علاقتها الوطيدة مع مديرة المركز التي بمجرّد أن عُرضت أمامها مواهب السيّدة حتى سال لعابها وسارعت تصطادها كقنّاص مصيب للأهداف توهما منها أن هراءها كلام حكيم و عبقرية فذة ، واعدة إياها بضمّها كمشرفة للمركز، إن ما نجحت في إقناعهم بالعدول عن الإدمان بضربة قاضية، إن الأمر أشبه بشهادة زور أو تقديم رشوة لقضاء أحد المسائل العالقة، مهما حاولت أن أعتنق الفكرة بشيء من العرفان بالجوانب الجيّدة في شخصها إلا أن كل محاولاتي أُجهضت و ارتدّت خائبة (السيّدة سميحة تعظ مدمني الكحول) إنها نكتة القرن، هذا هو الوصف المناسب لسخافة مثل هذه.

عندما انتقدت قرارها، كان الأوان قد فات حيث أننا شارفنا على الوصول، وسألتها والاضطراب يُفعم قلبي عن السبب الذي صرفها عن اختيار إحدى ابنتيها الغاليتين لهذه المَهمة النبيلة، فأجابت ملصقةً بي تهمة الجرأة التي أتبرأ منها إن كانت تودي بي إلى مراكز العلاج من الإدمان (هل تتوقّعين أن أصطحب معي فأرة مثل سالي أو ريحان، أعوذ بالله من مواعظ الشيطان، إنها ذرّيّة ملعونة أعرضت عن محاسني و التصقت بالغراء بمساوئ زوجي رحمة الله عليه، ليس بوسع المرء استخلاص أي حسنة منهما. ما لم تنفّذي رفقتي هذه المَهمة، فليس بمقدور أحد تنفيذها،هذه التجربة الزاخرة بالإثارة و الجرأة لا تليق إلا بمواطنين موهوبين صالحين مثلنا)، أقسم أنني لا أريد هذا الثناء من الطراز المداهن، و لست أُؤيد كرمها بوصفي بالصالحة الموهوبة، والآن سأغيب لنصف ساعة، لدي عمل عاجل وكّلته أمي إلي، ثم أعود فأتابع سرد ما حدث بالمركز".

"لقد عدت قبل انقضاء الوقت، ذلك أنني أنجزت المَهمة في وقت قياسيّ . سأكمل لك الآن قصّة زيارتنا البديعة إلى مركز علاج الإدمان على الكحول، عندما ولجنا إلى الداخل كانت الساحة الكبيرة خالية تماما وتبدو كما لو أنّها ساحة المدارس ،محاطة بأسوار مرتفعة،تتضمن مبنيين باهتين، الأول صغير إداري والثاني عبارة عن مقر إقامة المدمنين، ولو أن السيّدة سميحة كانت تعلم أنّها ستقابل هذا المنظر الجافّ البارد لارتأت البقاء في منزلها و لعتقت رقبتي من هذه المَهمة المسماة سامية، توجّهنا إلى مكتب المديرة الكائن ضمن المبنى الإداري ، وأشرفت على عملية الاستقبال بلطف مفرط فتاة بدينة ذات خدود لحيمة وعيون بلون الزبرجد، كانت تزدهر على وجهها علامات السذاجة المطبقة، ما عتمت أن قادتنا إلى مكتب السيّدة حسناء، مديرة المركز التي تعتبر امرأة مسنّة رغم مظاهر الغنج التي تضفيها على نفسها، ذكّرتني بالسيدة بركة، استقبلتنا بطريقة باردة كأقرس ليالي الشتاء تنافي في مضمونها استقبال موظّفتها بالخارج .

كانت عيناها داكنتين، تنتجان نظرات باردة ، ووجهها طويل ينمّ عن الحزم والعناد، من النوع الذي إذا أخبرته أنّ الأرض مدوّرة، يصرّ على كونها مستطيلة أو مثلّثة، وجه يفتقر إلى مسحة الرقّة الأنثوية ، بينما شعرها بلاتيني مجموع إلى الخلف، و يداها كبيرتين خشنتين تظهران نزعة شرّ موّاءة، وما إن وقعت عيناها علينا حتى انفرج وجهها قليلا، أما أنا التي لم تتوقّع حضوري فقد رمقتني بنظرة مستريبة تنمّ عن استياء تقريبا، وقريبا منها جلس رجل فارع القامة نحيل كأنّه هيكل عظمي، عيناه غائرتان، تبدو عليه أمارات المرح المكبوح بعصا الاستبداد الأسرّي كما أوعزت جارتي، لنقل إن حظّ العبوس كان أوفر فتقلّصت ملامح وجهه مثل من دخل بيت الطاعة للنكد، تبيّن أنه

الطبيب المشرف على المدمنين و هو في نفس الوقت زوج السيّدة حسناء، و هذا الرباط بينهما يترك في عقلك انطباعا مقوّسا، إذ أنّهما غير متناغمين البتّة .

وكان مكتبها جافا للغاية ،تعمق النظر في أثاثه و جدرانه بحثا عن شيء يبعث على السكينة، فلا تجده إلا إذا نظرت خارج النافذة ،و أمعنت النظر في رأس تمثال منحوت، قاسي الملامح، انتصب على منضدة هزيلة القوائم بل قل إنها أجبرت على تحمله ،تكاد تسقطه لوزنه المعتبرة ويكاد يعبر عن نزعة الطغيان الكامنة في شخص المرأة .

جاء التقرير عن وضع السيدة و زوجها و تمثالها على لسان السيّدة سميحة، عندما همست في أذني و هي تلوي رقبتها ، بينما كانت السيّدة تلقّن زوجها بطريقة شنيعة بعض فنون التعامل مع أحد المدمنين (انظري،واضح أنه ضحيّة عنف منزلي،إنّ حقوق الرجال تتراجع في الآونة الأخير، إنّها سبب وجيه ليس لاحتساء الخمور فحسب، بل لتعاطي المخدّرات أيضا، كيف يصمد هذا الرجل المسكين في وجه هذا الإغراء المناظر لشراسة هذه العشبة الضارّة؟! ينبغي أن لا يصحو أبدا، و هكذا يوفّر على نفسه رؤية وجهها المشؤوم، ثم انظري إلى بنيته، تسوقك إلى الاقتناع بأنّه لا يأكل، لم أر إلا في حالات قليلة رجلا بهذه البنية كقضبان الحديد، لا تطعمه وتفرض عليه عقوبات قاسية كما أن فكرة وجودها في حياته تسدّ شهيّته. وليس لسانها السليط بأفضل، إنه يكفي لتحرير قصيدة هجائية منقطعة البراعة، من المحبط أن تتولّى هذه المرأة مسؤولية إدارة مركز كهذا. هذا ما يطلقون عليه الشخص غير المناسب في المكان المناسب،و يا أثيل، ما ذاك التمثال؟ الناس تموت جوعا و هي تقتني الرؤوس الوثنية ،كم سعره برأيك؟ عندما أتولى منصبا مهما هنا ،سأحطمه متظاهرة بأن الأمر كان حادثا غير مقصود .

إنها مؤهّلة لتنظيم سوق بيع السيارات و المواشي، يا لها من كاذبة!!.عندما التقيت بها أخبرتني أن زواجها كان وليد قصّة حبّ عظيمة، لم ينضب رغم تعاقب السنون، أراهن أن الرجل تزّوجها تحت تهديد مسلح".

قبل أن تضيف السيّدة سميحة تعليقا آخر قاطعتها مديرة المركز بصوت يشي بالصرامة بعد أن استنزفت كل الدّم من وجه الطبيب الذي بدا كمن يعاني من فقر الدم الحادّ طيلة الفترة التي كانت تخاطبه فيها، ثم تناول منديلا ورقيّا وشرع يجّفف العرق المتصفّد بغزارة من جبينه. كلما نظرت إليه ازددت قناعة أن للسيّدة سميحة وجهة نظرة سليمة.

قالت السيّدة حسناء بصراحة (حسنا يا سيّدة سميحة،لم أتوقّع أن تأتي بضيف آخر معك، لكن لا بأس إنّك سيدة المفاجآت، لم أكن لأنكر عليك هذه الرفقة السارّة لو أنك أحطتني علما بوقت سابق، لا أحبّذ أن يضعني الآخرون أمام الأمر الواقع) و أيّد قولها إشارة من إصبعها

المستهجن ثم أضافت (و الآن لندخل في صلب الموضوع، كنت أفضّل أناسا تعافوا ، لهم تجارب شخصيّة طويلة مع تعاطي الكحول ، لينقل لنا أحداثًا واقعية و مشاعرَ ملموسةً وهكذا يقدّم لنا تقريرا حقيقيا عن الكيفيّة التي أقلع بها، بيد أنني عندما سمعتك يا سيّدة سميحة في لقائنا المشترك مع صديقتي المقرّبة بدرية، أقنعني حماسك، وأبهرتني قدرتك على الإقناع ثم لمستك السحرية ولهذا تخلّيت عن بحثي وقررت منحك الفرصة لمساعدة هؤلاء المساكين ،بما أنك تطوّعت بكامل إرادتك لمثل هذا العمل الإنساني و تفاديا لكل المشاكل ،ينبغي أن نقف عند بعض النقاط المهمة التي يشترط التزامك بها أثناء إلقاء الخطاب

_أولا يمنع منعا باتا التلفّظ بألفاظ مقذعة وغير محترمة، أو سوقيّة، لأن المعنيات جميعا نساء، و هنّ يعادلن عدد الرجال في مراكز أخرى ونتوقّع في المستقبل أن يتفوّقن عليهم في العدد

وهنا انتفضت فضيلة السيّدة سميحة و تجعّدت تقاطيع وجهها،أما أنا ،فلم أتحمّس لإظهار اندهاشي، واحتفظت بهدوئي بحيث لا أتحرّش بأعصاب السيّدة المحتّدة (نساء،يا للهول ، يتعاطين الخمور؟) وصفّرت السيّدة سميحة صفيرا بطول اليوم والدهشة تتمرّغ على وجهها بينما تألّقت عيناها بشعاع الاحتجاج ، ولولا أن الوقت ضيّق و البديل غير متوفّر لأسعد السيّدة حسناء طردها بسبب التصفير غير اللائق بالسيّدات (إن هذا أغرب ما سمعته، أضحت حريّات النساء تتوسع بشكل يدعو إلى القلق، وتأتي دون حياء مستجدية الشفاء، أليس هذا نوع منقرض من انعدام الحشمة؟،ألا يخجلن من إظهار وجوههنّ دون غطاء، يتعالجن؟ وماذا بعد العلاج،ألا يخشين من الفضيحة،ألا تخشى أن تعلق صورتها في ذاكرة واحدة من الحاضرات، فتنشر عارها في المستقبل بين جمع من الناس، إن هذا مريع، لا أستطيع تخيّل امرأة تترنّح و هي عائدة مساءً من الحانة أو أنهنّ يشربن في البيوت، لماذا إذا لا يتعالجن في ذات المكان؟".

عندئذ، رأيت وجه السيّدة حسناء يتغضّن وأسنانها العلوية الكبيرة تُطبق الحصار على شفتها السفلى في حركة تنمّ عن بلوغ الدم رأسها من الغضب و سرعان ما صوّبت نظرات نارية نحو زوجها الذي كست وجهه معالم الانشراح (اسمعي يا سيّدة سميحة،لسنا هنا للنقاش حول التصويت على توزيع الحقوق،كما أنه ليس من حقنا توزيع الأحكام على حياة الآخرين، إنها هنا لأجل العلاج و هذه خطوة جريئة تحسد عليها، وليس لإلقاء الملامة عليها و عتابها، وهذه هي القاعدة التي أنا في صدد الكلام عنها

_يمنع منعا باتا جرح مشاعر المدمنة أو توجيه أي إهانة نظرا لحساسية حالتها لسلوكها هذا المسار المنحرف، نحن هنا لعلاجهنّ وليس لإغراقهن بالعتاب والاتّهامات، وباستثناء تقديم المواعظ

اللطيفة الخالية من التجريح وبثّ الإرادة في قلوبهنّ، لا يحقّ لك التبرّع بأي حديث جانبي لا طائل منه أو الانحراف عن الغاية النبيلة.

_ الحمقاء التي استعنت بها المرة الماضية قضت كل فترة الخطاب تمجّد نفسها، كأنها قائد جيش، حيث أنها لم تنس تفصيلا واحدا عن طفولتها وأيام مراهقتها، وعلاقاتها و حالاتها النفسية التي تتغيّر كالفصول، كأنني عقدت صفقة مع الغباء في حد ذاته، إن كنت تنعمين ببعض تلك الخصائص فأرجو أن ترسليها الآن في إجازة يا سيّدة سميحة، والآن، دعنا نتوجّه فورا إلى القاعة حيث تجتمع المدمنات، وبعد أن أُلقي تمهيدا قصيرا سأستدعيك بصفتك خبيرة نفسية لإلقاء كلمتك، أرجو عدم إخبارهن نقيض ذلك حتى لا تتقوّض مصداقيتنا بين الناس وتهوي سمعتنا إلى الحضيض، فنحن رغم جهودنا الجبّارة أنا و زوجي لم نتمكن من توفير خبيرة واحدة.

ولم يسبق أن رأيت صديقتي بمثل ذاك الحماس عندما نُسبت لها وظيفة الخبيرة،و رفعت رأسها قليلا مصدقة ، كأنها منحت قرضا ضخما، أفضّل أن أقطع الرسالة. لأنها غدت أطول من أيام الصيف.

ملاحظة. تخلّفت عنهم خطوات لأغرق في الضحك على مصطلح خبيرة نفسية. لا شك أنك متشوّق لتعرف خطاب السيّدة سميحة، لنقل بصراحة أنّه بجودة خطاب مانديلا ،باختلاف أنه ليس ثوريا ".

"عندما اعتلت السيّدة سميحة المنصّة الخشبية وسط عاصفة من التصفيق الحارّ بأيادي جمهور غفير، يوحي إلى عقلك أن ربع نساء البلد يتعاطين الكحول، حسنا،لو أن وعاء السيّدة سميحة يحوي دماغا لما تحمّست لهذه المَهمة بعد مقابلتها هذا الحشد، على أنّ نزعتها المعتوهة تفوّقت ،وفوّتت عليها إدراك حقيقة الوضع، منصّات العرش دائما مغرية لاعتلائها، هكذا كانت تنظر السيّدة سميحة إلى المنصّة التي تقف عليها بقدمين واثقتين مع أنّها لم تجهّز خريطة عمل تهتدي بها.

أما أنا ،فقد تعارك المرح و التوتر في داخلي، و بحكم معرفتي بها التي يجوز وصفها بالعميقة، أدركت أنها ستثير فضيحة و تخرج عن النصّ الموكل إليها ، وتُشرّع قوانين جديدة غير تلك التي أملتها على مسامعها السيّدة حسناء. أو ليست وظيفة السيّدة سميحة ممتعة؟حسنا، لأحدثك باقتضاب عن المدمنات، كان عددهنّ يقارب الثلاثين أو يزيد بأعمار متفاوتة من السادسة عشر إلى الخمسين، وجوههنّ متشابهة كأنهنّ حبّات عنب أسود، تستنتج من النظرة الأولى أنهنّ بائسات المجتمع. نظراتهن منكسرة، يتحرّين الشفاء الجماعي بعد عجزهن عن تقفّي أثر الشفاء الفردي، لقد سَلبن تضامني المطلق مع حالتهنّ قبل أن تعانق أذني حكاياتهن.

أعتقد أن هناك دوافعا وراء كل شيء ،و لا يجوز لنا مطلقا إطلاق الأحكام ما لم نُقسر على عيش ظروفهنّ، قرأت في تلك العيون التائهة ألما سحيقا ويأسا فتّاكا يعلّل حالتهن المتدهورة، اليأس صعب للغاية، و بسبب تلك الهالات السوداء الواضحة تحت أعينهن شعرت بشفقة قويّة على مأساتهنّ، لا أقلّ من وصفها بالمأساة، أنا أنحني إجلالا لهن لعدم قبولهن بالهزيمة النكراء، وهاهن على الأقل يكافحن في سبيل حياة أفضل، هاهن يتودّدن إلى تحقيق ذواتهن بعيدا عن زجاجات الخمر، تتقّد في أجوافهن نيران العزيمة المثابرة، وأنا أنظر إلى تلك الوجوه أدركت بتجاربي البسيطة ، أنهن لن يعدن إلى بيوتهن بأياد خاوية، لن يروي عطشهنّ إلا النصر ضد ذواتهن، إنهن طاقات بشرية متفجّرة، لا ينتظر منهن أقل من التغلّب على ضعفهن، ومرّة أخرى وجدتني أمام نماذج أخرى من الكفاح ضد الانكسار والانهيار والوقوف بعد السقوط، حسنا سأخبرك في الرسالة القادمة نصّ خطاب المهاتما غاندي.

أثيل المغامرة في سفينة سميحة المتهوّرة "

" خليلنا الغالي

إليك نصّ الخطاب

أيتها السيّدات الفاضلات، أرجو أن لا تكنّ ثملات جدا بحيث لا تستوعبن نصائح خبيرتكن النفسية المجتهدة، وعندها رأيت وجه السيّدة حسناء يحمرّ من الغضب وعينيها تتورّمان بنظرة حادّة كنصل السيف، مزحة ثقيلة على أنّ الضحكات التي ارتفعت خفّفت من صقيع عصبيّتها ،بينما وضعت أول حجر في جدار الكارثة القادمة، أردفت جارتي الغالية بعد أن خفّت وطأة القهقهات الصاخبة و نضبت الهمهمات السارية (لقد وجّهت لي السيّدة اللطيفة حسناء دعوة لإلقاء كلمة، ولهذا أنا أشكرها على كرم الضيافة والاستقبال الأسطوري الذي حظيت به. لا أريد أن أكون امرأة مطيعة فيما يخصّ تعليماتها الصارمة بعدم الالتفاف إلى نقاط معيّنة، سنفتح آفاقا متشعّبة للجدال "و عندها تملكتني الحيرة، إذ طالما كانت استراتيجيات السيّدة مقلقة جالبة للنحس (أولا، أودّ أن أتطرّق إلى نقطة لا بد أن تكون موضع البداية، ما هي الأسباب التي دفعتكن إلى إدمان الكحول؟، إنه سؤال جيد، فطالما عُرف السبب بطل العجب كما يقال)إن هذا لم يكن مدرجا ضمن لائحة تعليمات مديرة المركز الوقورة، وحيث أنّها حذّرتها من الانحراف عن القوانين، تميّزت غيظا لكن احتجاجها ظلّ صامتا يجدّف على اليابسة

(مثلا ،أنت يا صاحبة الشعر الأحمر،التي تجلسين على الحافّة، قبل كل شيء، أعترف أن فستانك ظريف، لديك ذوق فنيّ، بعد الانتهاء من المحاضرة زيّني معرفتي المتواضعة بالمحلّ حتى أقصده في أقرب وقت، لا تخجلي يا عزيزتي، فطالما أنت تكشفين لنا عن وجهك، فلا ضير أن تفتحي

لنا قلبك وتوضّحي لنا، فنحن جميعا شقيقات هنا،هل توافقن على هذا المبدأ جميعا" وعلت التصفيقات عندما تفجّرت المواهب بداخل جارتي الظريفة، وهكذا خلقت جوّا ممتعا وغدا الجميع مستمتعا ما عدا المرأة ذات الشعر البلاتيني والأنف الحادّ كأنف الصقر، وما عدا زوجها الذي يدعّي معاداة منهجية جارتي ،تشجّعت المرأة ذات الشعر الأحمر بفعل ارتفاع حماسها، فنهضت على قدميها والارتباك يتواطأ مع الخجل ثم أعلنت بصوت مرتعش (لقد قبضت على زوجي يخونني مع امرأة أخرى) وطفق الدمع يتهاطل كأمطار إبريل المتأخّرة (وبدل أن يعتذر عن خيانته قام بتطليقي و تزّوج منها ولهذا لجأت إلى الكحول لأنّها تقلّص من وطأة الألم) وانقضّت العيون المشفقة على وجهها المتألّم، و سرعان ما جلست في مكانها منكسة الرأس، وقبل أن تطلق المديرة لسانها لتحتجّ على السياسة المدنسة للمقدسات المتعارف عليها، نطقت السيّدة سميحة بلسان لولا أنّه ملتصق بوجهها لاعتقدت أنها استعارته (حسنا ذلك جيّد جدا، إذا فلقد خانك الوغد، ليقطع الله نسلهم، لا يأتِ منهم إلا الخيانات والنكد، في كل مرة يظهر لنا كائن من الأدغال ليثبت لنا أن الرجال غاية في الوفاء ، لماذا لم تغنّي له أغنية الخيانة ثم تصفعيه وينتهي الأمر.حسنا،حسنا، أفهم أن صوتك ليس بالجميل"مزحت" وإن ما غنيت له سيطلّقك ثلاث مرات بدل المرة الواحدة، وهكذا فقد كنت غبيّة جدا وأعطيته فرصة أخرى لإذلالك. ليست تلك بطريقة ممتازة تُوظّف لغرض الانتقام للكبرياء الجريحة يا قطتي المسكينة. سأوضّح كيف، تلك كانت فرصة موفّقة لتعرفي حقيقة زوجك، و كان بوسعك أن تحمدي الله ألف مرة ،لأن استمراره في خيانتك إلى الأبد ممكن جدا. كان ينبغي أن تنجحي أيتها الخرقاء لا أن تفشلي. ولو أنك فكرت ببعض النباهة لكان الآن يركض وراءك مثل كلب ضالّ، بيد أنكن أبدا لا تنصفنّ أنفسكن، ما ذنب كبدك المسكين لتحرقيه، ستكسبين حسنات بديلة إذا تبرّعت بنصفه إلى أحد المرضى المحتاجين. تعزلين نفسك عن الحياة لأجل خائن استبدلك بقطعة أثاث رثّة!؟ ولست متأخّرة عن موكب الحياة والحرب الباردة، ألا تودّين الانتقام لكرامتك المهدورة) وفجأة شعّ في وجه المرأة تصميم وأمل، كأنّ الفكرة المعروضة راقت لها(كما يقول، ما كان اسمه، كم أنني كثيرة النسيان، تشي جيفارا انتقمي بنجاحك، و لهذا انطلاقا من اللحظة الراهنة اقذفي بالزجاجة و ابحثي عن ذاك الجرذ ثم أثبتي له أنّك لست عاطلة، فلا شك أنه يستمتع بوقته خصوصا إذا ما علم عن طريق بعض الأفواه الشامتة أنك تتعاطين، لأنه تركك هل تودّين أن يستمتع بتعاستك؟),و رفعت المرأة عينين متحدّيتين والتصميم في وجهها يتلوّى لينتصر، يبدو أن السيّدة سميحة تفلح في عمل ما مرة واحدة في القرن، وبرزت حقيقة الكنز الذي يقيم مقابل منزلي جلية واضحة برّاقة كالماس، إذا فجارتي سيّدة عظيمة و أدركت جميع النسوة المنبهرات تلك الحقيقة الخالدة عن حذق المرأة

الكريمة ،ما عدا مديرة المركز المنزعجة التي يبدو أنها لا تستمتع إلا كأسير في سجن العدوّ بعرض ساخر عن أمجاد وطنه، والتي يظهر أنها تودّ الاحتفاظ بهنّ مدمنات، لقد خسرت للتو زبونة دائمة، وبعد برهة ستخسر بمزايا العقل الثاقب زبونات أخريات، وعندما آن أوان التنديد قاطعتها النسوة ممتعضات،ثم خوفا من طردها خارج القاعة التزمت الصمت

يتبع"

"اتّبعت أم سالي ذات السياسة المنبوذة في القيم العقلانية للسيّدة حسناء بروح مثابرة، مخلصة لعملها الجديد مع النساء الأخريات، ولهذا أسرعت توجّه سؤالا إلى فتاة أخرى ضخمة الجثّة منتفخة الوجه (أنت أيتها الصبيّة، أنت التي تشبهين كهنة معبد آمون تبدين ثملة، هذا لا يتناسب وسمعة المركز، أرجوك أن تتطوّعي و تنقلي لنا تجربتك وتحدّثينا باختصار عن الدوافع التي ساقتك إلى هذا المسار، لا تتخندقي، كلهنّ سيؤدين نفس الدور، إنّ نقطة حمراء إضافية في سجلّك الحافل، لن تضيرك على أية حال) نهضت الفتاة آليا متخلّية عن مظهر الحياء، فلقد أقدمت على مثل هذه المجازفة امرأة مثلها، وتدفّقت الكلمات الحبيسة في جوف يتلظى بؤسا (أنا دائما أفشل في الحياة، لست أنفع لشيء، فشلت في الحصول على شهادة الباكالوريا ثلاث مرات، و أي شيء أوجّه تلهّفي إليه يتحوّل إلى مصائب، ولست متأكّدة أن النحس الذي أرزح تحت وطأته مصنّف ضمن العادي، لأنني أطرد بعد أيام قلائل من أي وظيفة دون مبرّرات مقنعة، وبعد أن حصدت شهرة عالمية في ميدان الإخفاق، قرّرت الانعزال في البيت الذي أعيش فيه مع جدتي وأعيش الإحباط المعلّق برقبتي رفقة زجاجة الخمر، هذه هي قضيتي) وساد الصمت لبرهة واستدارت الرؤوس لترى الفتاة ذات الخامسة و العشرين التي كانت تبكي بحرقة، تبكي طموحها المطعون في قلبه (حسنا إذا، فهذه هي قصّتك، هناك قصص كثيرة لا شك أنّك تعرّفت على إحداها ذات مرة، اتّخذيني مثالا مائلا، هل أعدّ لك عدد الخيبات التي تعرّضت لها .طردت من الثانوية، فشلت مشاريعي، نُصب علي كما أنني حظيت بإقامة دائمة ذات خمس نجوم في قاعات المحاكم".

كانت هذه أول مرة تعترف فيها جارتي بخيباتها دونما شعور بإهانة كبريائها، أول مرة لا يطاوعها لسانها على الكذب فيما يتعلّق بالمشاريع (كم فشلت من مرة!!،ألا تعرفين أن النجاح الباهر مرتبط بعدد الخيبات، أجل أيتها المغفّلة، كلما ارتفع الرقم، زادت حظوظك في إحراز نجاح ندر مثيله، وإن تاهت نباهتك عن الأمثلة فتذكّري عالم الفيزياء،ما كان اسمه يا أثيل، نعم هو، نعم، ألم يرسلوا إلى والدته بورقة الطرد لأنّه لا يصلح لشيء، فيما بعد غيّر العالم بأسره،قد تكونين في هذه اللحظة مرشّحة لجائزة عظيمة في إحدى المجالات، لا تعرفين ماذا يخبىء المستقبل، لكن طالما أنت تعاقرين الخمر كالرجال في إحدى زوايا بيت الجدّة الخرفة التي لو اطّلعت على عارك

لاستعجلت ملك الموت لقبض روحها بوقت أسبق عن الموعد المحّدد، طالما أنت كذلك فالجائزة العظيمة لا شك تحذو حذوك، تسكر في الزوايا، لا تزالين صغيرة يا فتاتي لتتبادلي معنا قصصك عن الفشل، إنك على الأقل تنعمين بصحة سليمة ونشاط خفيف، ارفعي سقف التحدّي بكل مهنية واقذفي بتلك الزجاجة بعيدا عن عقلك، لقد كفّنت دماغك بكفن الوهم وظننت أنّ تعطيل وظائفه لساعات قليلة قد يجنّبك رؤية الحياة الظالمة، أنت من اخترت رؤيتها على تلك الصورة، هل تعديننا بالعدول عن هذا المسار) طاف في صدري شعور بالاعتزاز وأفعم قلبي تيّار دافئ من التأثّر، و لو أن أحدا ما أخبرني أن هذا العرض المبدع سيكون نصيبي من هذا اليوم لما صدّقته، إن أذني لا شك تخدعانني، جارتي امرأة طيّبة بمؤهلات لا تقدّر بثمن، رائعة عندما تقرّر أن تكون كذلك، جارتي إنسانيّة للغاية،رحيمة لأقصى درجات الرحمة، نبيلة القلب تتمتّع بمخزون عجيب من الحنان المتحفّظ، رغم الدعابات التي أطلقتها مثل الصواريخ التائهة عن المسار، وبينما غاب وجه السيّدة حسناء خلف سحابة قاتمة فغدا وجهها السمين كوجه القتلة، رحت أصفّق بحرارة، وانتقلت جارتي إلى سيّدة أخرى، امرأة في حوالي الثلاثين من عمرها، وجهها مستدير و عيناها زرقاوان و التي عنيت بمَهمة مماثلة لسابقاتها، ذكرت دوافع نزوحها إلى ملجأ الكحول (توفّي زوجي الذي أحببته أكثر من أي شخص في الدنيا منذ سنتين، و بعده بسنة ماتت ابنتي الوحيدة ذات الثلاث سنوات، دهستها سيارة مسرعة أثناء انشغالي عنها بربط خيوط حذائي، لم أتقبّل أن الرابط الوحيد مع زوجي وحبيبي المتوفّى قد ضاع إلى الأبد) و ساحت الدموع من العينين المتعبتين وانقبضت وجوه الحاضرات وصدح في القاعة أصوات خافتة متعاطفة (لم أستطع التحمّل، كان ذلك أقوى مني، حاولت الهروب من فكرة خسارتها فلجأت إلى الكحول لتصون قلبي من العذاب والألم، وكنت أحيط نفسي بأغراضها و ألعابها وثيابها ،وقبل أن أسافر في رحلة طويلة من انعدام الوعي، كنت أبكي حتى تتورّم عيناي، لطالما كانت الكحول تنسيني ألمي، تجعل صورة الطفلة الصغيرة ذات اليدين الناعمتين و العيون الخضراء الحنونة تسقط من ذاكرتي. وهكذا يخفّ عبء المأساة يا سيّدتي وأنعم ببعض السكينة، وعلى قدر ما كانت تفيدني، على قدر ما كان الإثم ووخز الضمير يراودانني، لأن أعزائي ما كانوا ليرضوا بمثل هذا الوضع الذي آلت حالتي إليه،ولهذا أنا أحاول العودة كما كنت ولكن عبثا، فكلّما عدت إلى البيت وارتفعت الذكريات إلى عقلي أهرع إلى الزجاجة المقيتة لأهوّن المصائب على نفسي) حينها ارتفعت شهقات المرأة المتقطّعة و ناولتها إحدى السيّدات القريبات منها منديلا لتكفكف به الدمع ،و نهضت أخرى تربّت على كتفها فيما سالت الدموع من عيون جميع الحاضرات ما عدا متحجّرة القلب: السيّدة حسناء وحتى زوجها شعّت بعض الشفقة من عينيه الغائرتين عديمتي التعبير (سيدتي العزيزة)أجابت السيّدة سميحة (

اجلسي أرجوك، وتحلّي ببعض الصبر و أنتن أيتها السيّدات، لا داعي إلى النواح لأنكن تفزعن المرأة، حسنا يا سيّدتي إنّ لي ابنتين، ولو أني فقدت إحداهما لكنت أتألّم مثلك الآن، كما أقول دائما ،هناك تعويض لكل شيء ولكن ينبغي أن نفتّش عنه في المكان الصحيح و الزمن المناسب، كان عليك أولا التبرّع بأشيائها إلى أطفال بحاجة إليها، إنّ من الصعب عليك ترويض هذه التعاسة وأنت تشاهدين أشياءها الصغيرة بشكل يومي، ثم أن تبحثي عن حبّ جديد،لا تتفاجئي يا عزيزتي، هذا ما تحتاجين إليه،إنّ قلبك مهجور فارغ، يحتاج زوجا وأطفالا، كل إنسان يعتقد أنه لن يحبّ ثانية بعد فقدانه لحبّه الأوّل وهذا غير صائب، لقد خلقت قلوبنا لتحبّ، الحبّ يصنع المعجزات، يعوّض كل الخسائر ويهوّن التعب والإرهاق، ويخضع الألم أيا كانت درجته ،كما أنه يدفئ الأماكن الأكثر تجمّدا في أجسادنا، لكنه لن يزورك وأنت قابعة بين الجدران تسكرين وتبكين وتهشّمين روحك بذاك السمّ القاتل بطيء المفعول، عليك أن تفتّشي عنه في الخارج، أنا متأكّدة أن الأشياء التي تفتشين عنها سوف تفتّش عنك بدورها، تأنّقي واهتمي بنفسك واخرجي إلى الدنيا ثم ستجدين الحب وستنبهرين من تعويض الله لك، هذه هي الطريقة المثلى المضمونة لتعويض ضياع أحبائك، أما صغيرتك التي رحلت فإن للحزن وجهة نظر حولها، لن يعيدها لك مهما تألّمت،لأن الموتى لا يعودون،تذكّريها كأوّل هدية من الله، لا تنسي ضحكتها، لأنها تمنحك القوة ،و غدا يا عزيزتي غدا هو يوم متجدّد وفرصة أخرى وأمل آخر، غدا ستشرق الشمس .

أثيل تفتخر بصاحبة السعادة: السيّدة سميحة "

"استمعنا إلى قصص عدد من المدمنات، وُجّهت إليهن عشوائيا أسئِلة بقالب فكاهيّ، استنفذت كلّ صبر مديرة المركز التي أدّخرت تعليماتها في مخزن التجاهل، إن ذلك كان كثير بالنسبة إلى استيعابها، ناهيك عن تجاوب النساء مع إرشادات امرأة كنت أظنّها بلا عقل، سوف أتخلّى عن فكرتي هذه حولها حالما تسنح فرصة ثانية تطابق فيها حكمتها هذه المرة.

وتخلّت في نقطة معينة عن هيئة المزاح متحوّلة إلى مخلوق عمليّ مهنيّ "كل يوم جديد،كل نفس جديد، هو فرصة جديدة، لتقويم أنفسنا، إنّه مرادف آخر لعبارة (قبل فوات الأوان)، وعلاوة على انفصالكن عن الحياة، خسرتن أشياء أخرى لم تكنّ لتخسرنها لو أنّ لكنّ عقولا تفكّر، ولكن لم يفت الأوان بعد، الانعزال و البكاء على الماضي و الحزن ليس حلا ناجعا، هل لديكن مشاكل نفسيّة، صحيّة، عائلية؟جميعنا لدينا مشاكل و هموم ، و لكن الفرق الفاصل في انتقاء الحلول، فالبعض منّا يبحث عن الحل و البعض المحبط يسأل لماذا حلّت علي هذه المشكلة، وأنا لم أتوّقعها و أرفضها، لا أستّحقها، على مر السنين كان حلّ تعاطي الكحول والهروب من الواقع منتقى من

طرف الحمقى، الضعفاء، عديمي الإرادة،الفاشلين، ضعفاء النفوس، أما أولئك الأقوياء العمالقة، ذوي الهمم العالية ، فلن ينساقوا إلى مثل هذا الطريق أبدا مهما كان معدّل سقطاتهم مرتفعا.

و سرعان ما كالت الشتائم للحكومة دون سبب ،ووجدت نقاط تشابه بينها و بين الخمر من حيث إعطاء الوعود الكاذبة ،و عالم خال من المعاناة .

ملاحظة يبدو أن السيدة حسناء أحسّت بالضيق؛ لانتمائها إلى الفئة التي تحبّ الحكومة وتؤمن بوعودها، فقد تحوّل احتجاجها الصامت إلى استنكار علنيّ، ووبّخت السيّدات اللاتي طالبن بجلسة أخرى مع هذه الخبيرة المثالية و التي أُستدعيت للمكتب على عجل .

تتساءل إن ما كنّا سنطرد؟ لقد طردنا بعد أن أمطرنا بوابل من المسبّات، مع وعد بإرسالنا إلى السجن. إن ذنبي الوحيد أنني صديقة تلك المرأة المتيّمة بحبّ المشاكل، في الرسالة القادمة سأوضّح الذي حدث في المكتب مع السيّدة و زوجها"

"عزيزنا خليل

لقد نعمت بوقت رائع إن كان يهمك أن تعرف تقريري عن تلك الزيارة، وقفلت عائدة إلى البيت بفائض من السرور فيما كانت جارتي تتردّى في ثورة من الغيظ،حيث أبلّت حسنا و كان جزاؤها سوء المعاملة على صنيعها، وليس أقلّ من نعت المديرة بالغيورة، الحقودة، صاحبة القلب الأسود، المتسلّطة، وفتّشت في رأسها عن نعوت أسوأ تكافئ بها تلك الكافرة بالمعروف.فلم تجد .

قالت السيّدة حسناء وهي تصخب وتفور غضبى، بينما شفتاها ترتعشان كأوراق تحرّكها الرياح فور إغلاقها باب المكتب خلفنا بالإضافة إلى زوجها (ما هذا الذي قمت به أيتها المرأة القميئة الخرقاء،ليس هذا ما اتّفقنا عليه، كيف تسأليهن عن أمورهنّ الخاصّة، ما علاقتك ودوافعهنّ؟، طلبت إليك إلقاء خطاب مختصر، فإذا بك تصفعين قواعد المركز بقلّة عقلك، إنك أسوأ من الحمقاء التي جلبتها السنة الفائتة، على الأقل هي لم تنعتهن بالحمقاوات وتقتحم خصوصيّتهنّ، كان خطئي أنني وثقت بامرأة مجنونة مثلك، سأبلّغ عنك السلطات لتجرؤك على سبّ الحكومة، إننا نفتخر بها و أنت تشبّهينها بالكحول؟".

وجاء الردّ سريعا بشيء من البرود غير المكترث (أثيل، وأنت أيها الطبيب مهضوم الحقوق، كونا منصفين و قولا الحقيقة،هل حصل و أن انزعجت السيّدات من أسئلتي؟،هل لاحظتما أنني بالغت في خطتي الإصلاحية؟ أنا شخصيا لفت انتباهي شيء واحد، لقد حقّقت نتيجة لا تفلح حتى أحسن الخبيرات في إحرازها بأدوات بسيطة، كما أن هناك مطالب بتخصيص جلسات أخرى برفقتي، لا تكوني حسودة و تقبّلي أنني أستحق مهنة المشرفة، أنا البطاقة الرابحة لهذا المركز، تخافين أن تشفى هؤلاء النسوة أيتها الخسيسة، إن الفكرة ترعبك، ثم ماذا فعلت الحكومة لتحبّيها

أيتها المتملّقة؟) وأراد الطبيب متلهّفا أن يكيل الثناء للسيّدة معربا عن إعجابه بأدائها بحيث كاد يطلب توقيعها كأنها شخصيّة مشهورة، لولا أن نظرة ناريّة أحرقت نواياه الصادقة، فاستطردت جارتي بنبرة واعظة (عزيزي الطبيب، أعرف محام طلاق جيّد إن ما كان الاستبداد قد بلغ أقصاه، أعي أنك تتعرّض لهذا الاضطهاد بسبب نصف ثورة، أكمل واجبك وكرّم الثورة الكاملة وسترى كيف يكون الازدهار، هناك عالم جميل بانتظارك، لقد لاحقتك اللعنات لوقت طويل، وباب الحياة مفتوح على مصراعيه، أقرّ رأيك وأنا سأدعمك) ومن خلال نظرة الغضب رأيت عينيْ السيّدة حسناء تنتفضان حنقا (يبدو أنني سأبتكر طرقا جديدة للتعامل مع كائن بغيض مثلك، إن زوجي يحبّني، كما أنه يحبّ عيوبي جميعها بعد أن عرفها، وليس كل النساء ينعمن بهذه النعمة الجليلة ".

(أحقا) ضحكت السيّدة سميحة بتهكّم و أضاء وجهها بزهو كمصباح ،وأصبح جليا أن فرصتها في نيل بطاقة العضوية، قد أفلتت كليا من يديها و لن يشكّل فرقا البوح بكل ما يختلج في قلبها (أحقا؟، الآن أفهم لماذا تحبين الحكومة، إنّها مثلك، إنك تتعاملين معه بسياسة حقيرة، وفي الواقع أفشل في معرفه بماذا تهدّدينه، إن الانتخابات غير النزيهة و المزوّرة تأتي دائما بشخص غير مرغوب فيه من طرف الشعب، وهكذا هو حال زوجك، لو نسأله عن رأيه بديمقراطية دون ضغط أو تزوير، أراهن أنه سيقتلك قبل أن يهجرك، أين الحب أيتها الكاذبة؟،لم أر رجلا تعسا في حياتي أكثر منه، يبدو كوجه الجن جان في رواية البؤساء "تقصد جان فالجان "،أظن أن هذا اسمها ، أليس هذا صحيحا يا أثيل، أسمعك دائما تذكرين هذا الاسم أمامي، أو محكوم مدى الحياة بالأعمال الشاقّة، ادّخري أكاذيبك عن الحب و العيوب لآذان أخرى غير أذني، فإن لي عينين راشدتين كما ترين، وأنت أيها الطبيب إن كنت مهتما بفكّ الأغلال فأنا أقيم بشارع...)و قبل أن تملي عليه العنوان، كان رجلا ضخما يتولّى مهمة إلقائنا خارجا،الحقيقة المؤسفة أن رفيقتي لا تتمتّع بميزة حفظ لسانها المتمرّد في مكانه الصحيح مما يؤدّي إلى طردها من أي مكان.

في طريقنا إلى البيت تبلورت في ذهنها فكرة موهوبة، أن تفتح مصنعا لصنع الخمور لأنّ عدد المتعاطين كبير، و لها زبائن جاهزون يسهل إقناعهم باقتناء المنتوج، فمثلا السيّد وائل الحزين على مشروعه المفلس،يسهل استدراجه، كما أن بعضا من معارفها التعسات لن يرفسن نعمة مساعدتهن، وفجأة تذكّرت أنّها تجارة غير شرعية و مال حرام و لن يبارك الله فيه، وفي المستقبل ستفتح مركزا للعلاج من الإدمان مقابل مركز السيّدة حسناء وهكذا تقضي على فرصها في نيل مدمن واحد.هذا ما يسمى الرجوع إلى الأصل فضيلة. لقد عادت جارتي المعتوهة إلى عهدها الذي لن تكون أبدا معشوقة دونه

ملاحظة : لم أخرج من هناك خاوية اليدين، على الأقل اكتشفت أن مواهبا مبدعة تحتاج التكريم و الالتفاف إليها، بالإضافة إلى أن زادي في الحياة قد ارتفع بفعل التجارب والعبر"

"كنزنا النفيس، صاحب الابتسامة الأكثر جمالا في الدنيا

إنني أقرّ بفائض من التصميم أنّك تشبه هذا اليوم الربيعي الجميل، هل ترى أخيرا؟! لقد استقرّ مزاح الربيع المتقلّب، إنه مثل الأكل لا تستلذّه إلا في قاع الصحن، و هكذا حال الربيع، لا يغدو حلوا و صحوا إلا في الشهر الأخير، سننعم من الآن فصاعدا بسماء زرقاء صافية وطبيعة خضراء، كما أنّ العصافير بأصواتها المختلفة ستعزف ألحانا شجيّة، سوف نستيقظ كل صباح على تغاريدها، أليس الربيع فصلا مذهلا؟إنّ الذهاب إلى العمل في مثل هذا اليوم يحيطك بهالة من السعادة و النشاط، ويمنحك شعورا طيّبا، والنسيم العليل يجلّي الدنيا برونق مختلف، وأي أحد لا يحبّ الربيع فلا حاجة له بصداقتي، لأنني والربيع صديقان حميمان

صديقتك المخلصة دائما أثيل المحبّة لهذا الصنف من الطقس"

"خليلنا المحبوب

ذكرت في رسالة سابقة أنني في صدد قراءة رواية جديدة عنوانها : ثم لم يبق أحد، لأجاثا كريستي،إنها رواية فائقة التشويق و الإثارة، في الواقع لقد انقطعت عن قراءتها لأيّام بسبب أشغالي المكدّسة التي لا تنتهي،و خطرت على ذهني عندما دقّت السّاعة التاسعة، عندما وجدت قصيدة نقلتها ياسي على ورقة بيضاء فتذكّرت القصيدة الغامضة في الرواية، لذلك أتممتها دفعة واحدة بحماس محموم دون تريّث لأعرف هوية القاتل . لقد فعلتها أجاثا مجددا وتبيّن أن القاتل آخر شخص يمكن أن ترشّحه لَمهمة القتل .اااه، لم أتوقّع أن يكون القاضي وارغريف،في حين انصبّ يقيني على المراوغ فيليب لومبارد أو الطبيب آرمسترونغ، حتى السيّد بلور كان مرشّحا قويّا لتنفيذ الجرائم، و استبعدت فيرا كلايثون و إميلي برنت ،لأنهما امرأتان، وليس لهما تلك القوة الجسدية و الصلابة الحسية لارتكاب جريمة ، كل الرجال في الرواية كانوا محلّ شبهة ما عدا الشخص الوحيد الذي تبيّن أنه القاتل في الأخير،كما أنه أقدم على الانتحار، هل تلك طريقة سليمة لتحقيق العدالة، لقد تركت فيرا الطفل سيريل يموت و بالمقابل هي لم تقتله بسلاح جريمة، هل يمكن أن نطلق على هذا الشّرّ جريمة؟كما أن إميلي لم تقتل الفتاة التي انتحرت، لقد عاملتها بقسوة أما قتل الفتاة نفسها، فكان قرارا ذاتيا، إذا ما قرأتها فسيسرني أن أعرف رأيك حول هذه القضية، إنها فعلا رواية غاية في التشويق

ملاحظة أظنني أخطأت عندما أطلعتك على اسم القاتل، لن ترغب في قراءتها الآن، أتمنى أن تكون قد فعلت، لأنّ عنصر التشويق قد تلاشى، لا أقرأ كتابا إلا و تنتابني الرغبة في تقديم نبذة طويلة عنه، كما أنني أفشل في كبح لساني عن فرش النهاية أمام الآخرين بوسعك قراءة رواية الفتاة الثالثة، على الأقل لم أفشِ اسم القاتل بعد، إنها تلك اللئيمة التي تنكرّت بهيئة زوجة أبيها، سوف تعرف اسمها فيما بعد"

"خليلنا الشجاع

التقيت منذ أيّام صديقة قديمة ، هي من النوع الذي قلّما تلتقيها في صدفة عرضيّة، كما أنّها تميل إلى الانطواء و تتحاشى الثرثرة الفارغة التي لا طائل منها. إنّ لها قصّة مختلفة. لقد أصابها مرض غريب تسبّب في إيذاء جزء معتبر من كبدها.وضّح لها الطبيب أنها ستعيش لشهور قليلة إن لم تجر عمليّة نسبة نجاحها ضئيلة جدا،كما أنّ موتها على طاولة العمليات أكثر احتمال من سقوط شعرة من رأسك في الصباح، ستموت إن انتظرت، لكن إن ما نجحت العملية قليلة الحظ، فهي ستعيش حياة هانئة طبيعيّة خالية من المخاوف والقلق، تقول إنّها وقفت موقف الحائر، كما أن خوفها تفاقم، لكن لا خيار لها إلا المجازفة، تصوّر أن لا يصبح لديك خيارات كثيرة في الحياة و تضطرّ إلى خيار بشع واحد لا سبيل إلى ركله أو تجاهله، لم يكن خيار العملية سهلا عليها، بيد أن تفكيرها انحصر في خاطرة مربكة،فأيا كانت النتيجة لن تكون أسوأ من حياتها هذه وبدل أن تخاف كل يوم قرّرت أن تخاف مرة واحدة بحجم كل المخاوف الصغيرة، وعزمت على إجرائها بكامل تفاصيلها المفضية إلى نهاية حياتها، إن العيش مع الخوف من الموت أشدّ فتكا منه، علمت اليوم من مصدر موثوق أن عمليتها قد نجحت،أترى يا خليل: المجازفة تبقى خير من الانتظار، أحيّي شجاعتها، لقد علمتني درسا مهمّا،الخوف لا يشجع على الحياة؛ بل يشجع على الموت، و ثمن الجبن أبهظ من ثمن الشجاعة

المخلصة دوما أثيل "

" عزيزنا خليل

إنّ الصيف شقيق الربيع في الروعة والسحر، ها قد حل الصيف الودود المنعش، والطقس مناسب لرحلة على متن الطائرة إلى أحد الجزر الهادئة البعيدة الرائعة. ذات يوم عندما أصبح غنيّة سأذهب لزيارة أكثر بلد أحبّه: سنغافورة، أي بلد تريد؟يخيّل إلي أنك تحب البلدان ذات الطقس المتجمد وتحب زيارة المتاحف،و تنفر من الأدغال و الغابات دائما ما أفكر أنه يليق بك أن تكون عالم آثار، أحلم بزيارة الهند أيضا إنها ليست بعيدة عنا،أمزح فقط، و ليست فكرة سخيفة أن يفكر المرء في زيارة كل بقعة من هذا العالم البديع، و لكن ذلك لن يتحقّق،أنا أحلم كثيرا و لكن

يقال أن الوقائع الحقيقية وليدة الأحلام الأكثر سخفا في الدنيا. و لهذا سأحلم دوما، ذات يوم سأحقّق كل أحلامي، هل لديك أحلام سخيفة تنمو في رأسك الآن، لا تهملها دعها تكبر الحالمة السخيفة أثيل "

القسم الثاني

الفصل الأول

بينما كانت رفيداء تنفض الوسائدَ تحت شعاع الشمس الصباحي المتدفّق إلى الغرفة، وترتّب شراشف السرير المزينة برسوم مطرزة باليد في إحدى صباحات أواخر أغسطس الشامسة الحارّة، سمعت طرقات مجلجلة مستعجلة على الباب، تتخلّلها فواصل قصيرة من الانقطاع. إن الطرق العنيف مرتبط حسب مفهومها بالأنباء السيئة، و راح الغيم المنقبض المتشكّل من هذا الطرق يحرث أثلاما عميقة من الخوف في عقلها، متسائلة بشيء من الفضول البالغ بينما تصوّب بصرها الضعيف نحو السّاعة الصغيرة عن هويّة هذا الطارق اللحوح المزعج .

تناولت غطاء الرأس المربّع الأملس ثم ثنته بشكل مثلث ووضعته على رأسها، وعلى نحو سريعٍ عقدته عقدتين محكمتين تحت ذقنها، و هاهي تنسل خارجَ الغرفة ثم تنزل درجات السلّم متريّثة دون إحداث صوت متمسّكة بقوّة بالدرابزين، ذلك أن سنّها المتقدّم البالغ الخامس والستين لا يوفّر لها خطوات أكثر خفة، عندما بلغت الباب أخيرًا وقفت مستريبةً ملصقةً أذنها به مستفسرةً بصوت لين بطيء عن هويّة الطارق.

وما لبثت أن سمعت خلف الباب جرسا أجشّا عرفته أذناها، فاستجابت عيناها بوهج مسرور، وزحف إليها إحساس بالراحة واسترخت أعصابها المشدودة، وعندئذ فتحت الباب وابتسامة ودودة تتراقص على شفتيها، برز رجل في الخامسة و الثلاثين من عمره مربوع القامة ملفتا للنظر بثيابه الفاخرة الأنيقة، كان ذا مظهر محترم يرتدي قميصا أبيض وسترة سوداء وسروالا انسجم لونه و لون القميص ، عيناه زرقاوان وشعره الأشقر مصفّف بعناية، كما أنه حليق اللحية،تتدلى من رقبته سلسلة فضية أظهرها قميصه مفتوح الصدر. وتلا العناق الطويل انحناء لتقبيل يديها مستوضحا عن أحوالها و أخبارها، ثم سرعان ما ألحّت عليه ذكريات البيت لاستحضارها، كم يحبّ هذه الردهة وكم تعني له تلك الأبواب المغلقة، وبينما بصره يقفز و يحلّق تراءى له أن البيت قد تغيّر تغيّرا ملحوظا وأنّ الجدران المطلية باللون الزهري الصقيل، قد كانت فيما مضى صفراء فاترة، وأنه قد تصرّم دهر على آخر زيارة، وعندما عاد بصره إليها راح يكيل لها ثناءً مشاكسا كما هو شأنه مع كل العجائز في سنّها، مقسما أنها تزداد جمالا يوما بعد يوم، وأن صبايا العشرين لا يأملنّ في حيازة نصف فتنتها، وبينما كانت تعاتبه مبتسمة على غيابه الطويل، طافت عيناه من جديد في ردهة المنزل ثم تحوّلت إلى الدرابزين لتستقرّا أخيرا على باب المكتبة

ما عتم أن أفلت يديها وشرع في صياح هادر صدّاح، مكرّرا النداء (يا كلب الصيد،أين أنت) مخلّفا العجوز تهمهم بصوت واهن، يحثّ خطوات عرضيّة ويتحرّك من ناحية إلى أخرى برشاقة،

يتقدّم و يتراجع، يفتح الأبواب الموصدة ماسحا بنظرة سريعة جدران الغرف ثم مقفلا إياها خائبا دون أن تلتقط عيناه الشخص المراد.

وعنّ له الصعود إلى الطابق العلوي فاتجهت أنظاره إلى السلم، لا شك أن الشخص المراد هناك، إنه لا يزال نائما، وما لم يوقظه و يلكزه بلكمات عنيفة على بطنه و صدره لن يرتاح مزاجه المنفعل، وما إن وضع قدما رشيقة على الدرجة الرابعة من السلم و كفّ عن الصياح حتى استوقفه صوت رفيداء بنغمة تفيض هدوءً

"إنه ليس بالمنزل يا بنيّ، لو أنك تكفّ عن الصياح لكنت سمعتني أخبرك عن عدم تواجده بالمنزل، لقد خرج منذ الساعة السادسة، وأكّد على عدم عودته قبل الساعة التاسعة"

استدار عمرُ إليها مقطّب الجبين مطبق الشفاه ،مركزا بصره على وجهها المتعب بارتياب فيما لا تزال يده قابضة على الدرابزين مستوضحا بصوت خائب محتجّ

_"خرج عند السادسة؟! إلى أين ذهب في مثل ذاك الوقت المبكّر؟ألم يخبرك؟ "

_"لا يا عزيزي، لم يقدّم أيّ إيضاح عن المكان الذي سيذهب إليه، وأنا لا أوجّه له الأسئلة"

نزل عمر الدرجات الأربع زاويًا ما بين عينيه وغصّة الخيبة تخفق في وجهه وقد خطر له استفسار عملي شعر أنّه تأخّر بطرحه، و مدّ ذراعه فطوّق كتفيها المنحنيتين ثم ساقها برويّة إلى غرفة الضيوف متسائلا

_"خالتي رفيداء، ما الذي حدث بالضبط؟،كيف حدث و أن طرأ عليه كل هذا التغيير، عندما وردتني رسالة الآنسة سمراء غمرتني الدهشة".

و فتح باب الحجرة، و دفعها برفق إلى الداخل بينما برق من عينيه شعاع الاهتمام المتحرق "وكدت لا أصدّق، لقد أقمت معه طيلة هذه الفترة، و تكهّنت أنّك الشخص الوحيد الذي استطاع إقناعه بما عجزنا جميعا، لأنك خالته و تأتين بالمرتبة الثانية بعد والدته".

_"لا يا عزيزي "نفت العجوز بحركة من رأسها و تعبير التأثّر يغلّف وجهها، بينما كانت تجلس على الكنبة "الآنسة سمراء طرحت علي ذات السؤال ،وكنت صادقة عندما أجبتها أنني لا أعرف كيف غيّر رأيه،أنا مثلكم مندهشة من الذي حصل، لم يكن يخاطبني البتة منذ إقامتي معه. بالكاد استطعت استعطافه بذكرى أمّه الغالية أن يسمح لي بالاعتناء به، ولولا أنها كانت عزيزة عليه لما أباح لي ذلك، إنني لم أفهم شيء شأني شأنكم. هناك شخص غيري أخذ على عاتقه هذه المَهمة، لأن قناعته الجديدة لم تكن وليدة تصميم ذاتيّ، باختصار شديد هناك علامة استفهام يتردّى بها عقلي أنا أيضا "

_"هل وافق على مقابلة شخص غريب خلال هذه الأشهر؟هل زاره أحد؟،من الممكن أن يكون له أصدقاء لا نعرفهم "استوضح عمر باهتمام الرجل العملي و عيناه لا تحيدان عن وجهها "تقول الآنسة سمراء أنه لم يكن يرضى بمقابلتها هي أيضا ، و حتى أنا صدّني بنفس الرفض"

أنشأت رفيداء تشرح

_"لا، طيلة هذه الأشهر رفض بشكل قطعي مقابلة كل شخص زارنا للاطمئنان عليه، أنا فقط من كنت أراه بشكل يوميّ، و لم يكن يوجّه لي أي كلام من أي نوع غير إيماءة رفض أو موافقة من رأسه ، و يحرص على جعل الغرفة تغرق في الظلام الدامس، و إبقاء المصاريع مغلقة، أخاله لم يكن يفرّق الليل عن النهار، وينام طيلة الوقت، وعندما يكون مستيقظا يحدّق إلى السقف شاردا مفكّرا، لم يكن يحسّ بوجودي في الغرفة كأنني طيف " تنفّست بعمق ثم أردفت" وكان يوبّخني على أي نصيحة أحاول إسداءها له ،فيصرخ معنّفا (اخرجي من هنا)،حتى عندما نصحته بالإقامة بغرفة أمه بالطابق السفلي تسهيلا لتنقلاته بالبيت زجرني بنبرة عصبية وأمرني أن أغلقها ولا ألمس أغراضها أو أجرؤ على تغيير مكانها وأصّر على المكوث بغرفته، وأما الطعام بالكاد كان يزدرد بعض ملاعق تعينه على حفظ نفسه من الموت جوعا. وبلغت بي المخاوف مدى بعيدا، خشيت أن يقدم على قتل نفسه، و لهذا عمدت إلى عدم ترك سكاكين في متناول يده أو أي أدوات يمكن أن تخدم غايته من شدة اليأس، لقد كان شابا قويّا ولكن الكآبة عندما تسيطر على الإنسان تجعل الدنيا عديمة اللون و تدفع إلى الانتحار غالبا، لقد فقد المسكين كل شيء في ظرف شهر واحد، قدميه ووالدته العزيزة ووظيفته ومركزه الاجتماعي، كل شيء ما عدا بعض الأقارب و الأصدقاء الأوفياء مثلك و لم يسمح لأحد بمواساته، تعرف طبيعة كبريائه، إنه لا يبيح لأحد أن يشفق عليه في حضوره. لقد صنع جبلا شامخا بيننا وبينه، وكنت أشعر بالتمزّق من حالته الكسيحة ، عاجزة عن مساعدة ابن شقيقتي الوحيد، أراقبه وهو يذوي، شاب مثل القمر يذوب أمامي ،و أنا يا ابني عمر لا يسعني فعل شيء، و لكن"

وتضاعف اهتمام عمر عندما تلفّظت رفيداء بـ"لكن"، إنها تفضي إلى تحليل الأمور ووضعها في نصابها فأومأ برأسه إيماءات متتالية ليحثّها على السرد على نسق أسرع

"لاحظت أن تغيّرا غير محدّد الطابع طرأ على حالته بعد انقضاء شهور من ذاك الحادث المؤلم الذي نسف بكل أركان حياته، و بعد أن فقد أمه الغالية ،على نحو غريب و مفاجئ تهذّب طبعه المغالي في الغلظة، سلسلة من التغييرات التي لم أستطع تفسيرها بأي حال من الأحوال، بقدر ما كانت تجعلني سعيدة بقدر ما كانت تزيد من حيرتي . أصبح يطلب إلي أن أشرّع مصراعي النوافذ ليستمتع بحرارة الشمس، بعد أن كان مجرّد اقتراح إحداث شقّ صغير كيما تلج ويتغير هواء

الغرفة العفن يجلب العصبيّة إلى وجهه فيأمرني بنبرة مشحونة بالسخط بتركه وحده متوعّدا إياي بالطرد خارج المنزل إن ما تدخّلت ثانية و حاولت اقتراح ذلك" انفعل صوتها المنحوت الحائر ثم أردفت

_" وأضحى بين الفنية و الأخرى يخاطبني بنغمة دافئة مؤدّبة كما كان يفعل قبل أن تموت شقيقتي الغالية وتتعطّل قدماه و ينعزل في غرفته، ثم يعلّق عشوائيا و يطرح علي أسئِلة غريبة فيها شيء من استهتاره القديم مثلما تفعل أنت كأن يقول: خالتي هل هرمت حقا وخرفت ذاكرتك؟،خالتي أعتقد أنني فعلت أشياء جيّدة في حياتي و أنا الآن أجني الثمار، من الجيّد أن المكافآت تمهّلت لتأتي في هذا الوقت الحرج، خالتي إن اللون البرتقالي لا يلائمك، إنك تبدين مثل حبّة برتقال متدحرجة، ويضحك وأنا التي ظننت أنه نسي كيف يبتسم ويضحك، أنا التي تصوّرت أنه لا يتقن إلا الغضب والخشونة والفظاظة و الشراسة . لقد استيقظت فيه خصاله الدمثة التي كنا نحبها جميعا فيه. وتلك اللمعة اليائسة القانطة في عينيه تحوّلت إلى وميض من الرضا بحالته، وأصبح في وقت ما يستدعيني على عجل إلى غرفته ثم يخصّص لي مكانا قريبا منه بل ويصرّ على جلوسي بجانبه يسألني عن أموري الخاصة، مطالبا إياي بالاهتمام بصحّتي وعدم إهمالها و يحدّثني أحاديث قصيرة ممتعة مبتسما ابتسامة عريضة عن الطقس والأيام الماضية وأمور أخرى لم أكن أفهمها أكثر من فهمي لسلوكه الجديد، بل اتّفق أن لثم جبيني ويدي بامتنان، معتذرا عن فظاظته و وقاحته في التعامل معي، فاندهشت مستفهمة عن الذي يدور في خلده، بل كنت أخشى أحيانا أن يكون قد فقد عقله بفعل الانعزال الطويل، وعدم تبادل الأحاديث مع الآخرين، ثم ذات يوم في الصباح رأيته يجلس على كرسيه المتحرّك ينظر من خلال النافذة مبتسما مشرق الوجه و كأنه يتبادل التبسّم مع إنسان آخر فذهلت و قال هو بكلمات رقيقة: ألا تبدو الشمس جميلة اليوم يا خالتي رفيداء، إنها مختلفة عن كل الأيام، فتساءلت عن الذي يجعلها مختلفة،إنها ككل يوم و سمعته في صباح شّتويّ لأول مرة منذ عودته من المشفى يغرق في ضحك مدوٍّ فاعتقدت أنها نوبة عصبيّة أو أنه جنّ رغم افتقادي لضحكته، وعندما فتحت باب الغرفة لاهثة مذعورة .تكلّم كإنسان طبيعي سعيد (ماذا يا خالتي رفيداء هل تريدين شيء) هكذا قال، فأجبته و الدهشة تعقد لساني أنني جئت أسأله إن ما كان يريد قهوة،على أنه أعاد رأسه إلى الخلف و طفق يضحك من جديد.كان الشيء الذي يحثّه على الضحك قادما من شاشة الحاسوب، تلا ذلك عواصف من الضحك المتكرّرة في ليال أخرى، رغم تحرّقي لكشف الأسباب إلا أنني تذكّرت ملاحظته الصارمة حول احتفاظي بفمي مغلقا . أما المفاجأة الحقيقية؛ فكانت ساعة طلب مني أن أساعده لنزول الدرج و القيام بجولة رفقته في غرفة والدته و حديقة البيت الخلفية و نظرا لافتقاري قوّة كافية،

وافق برحابة صدر أن أستعين برجلين آخرين. لم يمانع رؤية أناس آخرين غيري. لقد بكيت دموع الفرح عندما غادرت غرفته من فرط السعادة و خاطبت صورة شقيقتي المعلّقة في الردهة بهمهمة خافتة (انظري يا أختي ، إن ابنك يتحسّن، إنه لن يَضيع أبدا،سترتاحين الآن في قبرك وتنعمين بالطمأنينة، لقد كان ابنا بارا و صالحا.و إن دعواتك لتشقّ له طريقا في الظلام، انظري إليه، سيخرج لأول مرة من تلك الغرفة المقيتة و يزور غرفتك التي ما اعتقدت أنها ستنفتح يوما ويتنزّه في حديقتك الغنّاء التي أوليتها عناية واهتماما، لقد رفع الأمل المنكس رأسه عاليا، وارتفعت همّته، ااه يا شقيقتي لو أنك ترين ذاك الوجه المفعم بالأمل، لكنت طرت سرورا،اااه، لو أنّك بيننا الآن تُشبعين عينيك بمشهده وهو هادئ، حنون و رحيم بوجهه الوديع و تهكمه اللاذع وروحه الفكاهية كما كان دائما)، أجل يا عمر لقد تبدّد صراخه و طبعه النزق الشرس، وغدا أليفا مسالما هادئا كما كان دائما، ولن أنسَ ذاك اليوم طوال حياتي، كان آخر يوم من فبراير، يوما ممطرا و السماء قاتمة تنذر بعاصفة قادمة، استعجلني الالتحاق بغرفته فألفت نفسي أسمعه بخشوع المؤمنين، و هو ينقل إلي موافقته على إجراء العمليّة"

زيّنت ابتسامة ودودة شفتيها

"وأنه يتوجّب علي استدعاء ابنة عمته على عجل للحضور في أقرب وقت بغية الاتّفاق على الإجراءات اللازمة، و وقفت أمامه مبهوتة مجفلة منحازة إلى كفّة عدم التصديق، وطفق عقلي يندفع في جميع الاتّجاهات بطليعة مستجيبة و خلفية مترنّحة من قلّة الاقتناع، أهذا خليل الذي ينطق بمثل هذا العجب؟ سألت نفسي يومها، أتراه يمزح ليرى أثر مزحته على وجه عجوز ضعيفة العود مثلي؟،أتراه يجدني تسلية يتفكّه من خلالها؟ما خطبه؟ و لو أنّه اكتفي بالقهقهة في أواخر الليل أو التبسّم مثل الأبله من خلال النافذة أو أشياء من تلك القبيل لما وجدت سببا للحيرة والاندهاش، لكن أن يوافق دونما سابق إنذار على تلك العملية فذلك ما لم يتجاوز عظام رأسي الخارجية، و بينما كان يراقب سحنتي الغارقة في الحيرة، خاطبني بنبرة هادئة رقيقة كأنما يخاطب طفلا صغيرا (ألست سعيدة بقراري، كنت أخال أن هذه النصيحة كانت ترتفع إلى شفتيك كلّما رأيتني، أتظنّين أنني لم أكن أقرأ أفكارك يا خالتي؟ما بال وجهك يتمرغ في هذه الألوان الحائرة)، عندها عدت إلى رشدي،متبيّنة أن ما تلفّظ به إنما كان قرارا واقعيا نابعا من تصميم و إرادة و لن يثنيه عن عزمه حاجز أو احتجاج،ذاك كان خليلي مصدر فخري، أما ابنة عمته ، فساعة كلمتها عاتبتني بصوت سليط ناهرة إياي عن إتيان مثل هذه الدعابات الحمقاء، لأن أوانها لم يحن بعد. ولولا أنني أقسمت وحلفت باسم الله الأعظم لما أخذت كلامي على محمل الجد، كانت عمليّة معقدة قد لا تنجح فينتكس و تتدهور نفسيته أكثر ، بيد أنه تشبّث بأمل ما. أمل قادم من بقعة

سريّة مجهولة مثل أعماق الكهوف و الحمد لله أنه لم يعد بخفيّ حُنين بل عاد على قدميه و نظرة الظفر تزيّن عينيه الهادئتين، ليحفظه الله كم أنه شاب حاذق جميل يتنعّم بكل صفات الرجل المهذّب".

_"غريب" انحنى عمر بجسده الى الأمام، و قد اقتحمت معالم وجهه دهشة موبوءة"مما تراه يضحك؟ و من شحنه بكل هذا التدبير السليم، لقد تركته في حالة يرثى لها، حالة إنسان ميّت. أفلتت كل حبال الأمل من بين يديه. لقد كان يحبّ أمّه بجنون و تدرين كم كان متعلّقا بها خصوصا بعد أن فقد والده "

_"ليرحمهما الله "

نكست رأسها و تلألأت دموع الذكرى المريرة في عينيها "كم كانت شقيقتي امرأة طيّبة وعطوفة، لقد كانت أمّ الجميع، اااه إنها لخسارة فادحة أن ترحل امرأة مثلها عن الدنيا، لم يتحمّل قلبُها و ودعتنا ..." قبل أن تُتمّ عباراتها الأخيرة خنقتها الدموع فجشّ صوتها وصمتت، وانتقل عمر ليجلس بجوارها ضاغطا رأسها على صدره ممرّرا يده على شعرها الرماديّ

_" لا تبكي يا خالتي رفيداء، ليرحمها الله، إنها مشيئة القدر.ما كانت والدته لتجد أحسن منك لتوليها مسؤولية ابنها، و الآن هلمّي كفكفي دموعك وزيديني معلومات بخصوص وضعه، لم يسعني التصديق أنه وافق على إجراء تلك العملية بكامل تعقيداتها ،هل يبدي تقدّما ملحوظا؟ هل يستطيع المشي بشكل عادي، هل يتعثّر أو يسقط؟ لقد نجحت بنسبة جيّدة ولكن يستغرق عودته إلى حالته القديمة وقتا طويلا ربما "

أبعدت رفيداء رأسها عن الصدر القوي ماسحة دمعها بظهر يدها ثم استأنفت كلامها مضفية حماسا على صوتها النائح

_" يستطيع المشي، ليس برشاقته الماضية، يخضع للعلاج الفيزيائي المكثّف ،و يبدي تحسّنا مقبولا، لا أستطيع القول إلا أنه يملك إرادة عملاقة، إنه شعلة من الحماس كأنّ في جوفه طاقة خرافية"و ابتسمت ابتسامة خفيفة "يتفكّه ويطلق الدعابات و يستهتر كسابق عهده، منذ أسبوع عاد من إقامته ببيت عمته، لقد صمّمت على أخذه إلى بيتها بعد مغادرته المشفى، طبعا كانت تحنّ إلى ابن شقيقها الوحيد الذي كان يمتنع عن مقابلتها هي أيضا، إنه خليل الذي كنا نعرفه قبل ذاك الحادث، لا ليس هو فحسب، بل لقد استباحت شخصيته طباع جديدة، على أن تكتّمه القديم لا يزال جزءا أساسيا فيه .و لهذا لم أستخلص منه أي أجوبة على أسئلتي ".

_"سأجعله يعترف " قال عمر ممسّدا ذقنه ممرّرا لسانه على شفتيه وخيوط من التصميم تنسج نفسها على وجهه

_"ماذا عنك يا بنيّ "سألت العجوز فجأة ،و قد عادت إلى طبيعتها " متى عدت إلى البلاد؟، أنت تعمل ببلاد أجنبية أليس كذلك؟"

_"أجل، أجل "قال بينما كان عقله في دوّامة من التفكير، محتارا بتأثير من رواية رفيداء، قلقا جرّاء تأخّر صديقه، يشوب وجهه انفعال مضطرم "لقد وصلت أمس بوقت متأخّر من الليل، ولولا أنني خشيت إزعاج سيّدة لطيفة رقيقة المشاعر مثلك لأتيت من المطار مباشرة إلى هنا" وانحنى يقبّل يدها مجددا

_"أيها المشاغب " قرصت وجنته " كُفّ عن مزاحك و أخبرني متى ستتزّوج؟".

_"أنا؟ "قال مبتعدا عنها،نزق التعابير على نحو غير متوقّع "أعوذ بالله، أتزّوج !!لا، إنني طائر حرّ مغرّد، أستغني عن دخول القفص البغيض حتى أتفادى تلك النتيجة الفاشيّة، أتزّوج وأعيش عيشة الكلاب؟ أعاني مثل هؤلاء الرجال المساكين أعانهم الله؟ لا أحد يشجّعك على مثل هذه الخطوة، إنها تجربة فاشلة بشهادة المجرّبين،كلهم نادمون وتريدين أن تنزلق رجلي إلى ذاك الفخ . إن قصصهم عن الزواج تشبه مغامرات سندباد المسكين يخرج من ورطة ليقع في أخرى .لست مستعدا لذلك أنا سعيد بحالتي هذه " .

_" هذه نظرية فاشلة "احتجّت العجوز محتدّة "من قال إن الزواج قفص، إنك تخاف من المسؤولية فقط، و أعتقد أن الخطوة لم تنضج في عقلك لأنك لم تقابل امرأة رائعة تشجعك عليها"

_"لست أعرف إلا النساء الرائعات يا سيّدتي"هتف متبجحّا" إنّهن شقراوات بعيون زرقاء، وشعر بملمس الحرير و بشرة بلون الثلج و لسن كفتيات هذا البلد، اللاتي يألفن العيش بسلام مع الوحوش الضارية في البرية، فضلا على أن تجنيدهن في الجيش ليس بالفكرة السيئة، سيبلين حسنا و يقاتلن بضراوة العدوّ الغاشم، إن بشرتهن مريعة كجلد التمساح و أصواتهن عميقة كصوت رجال الفايكنغ الثائرين، أما نفسياتهنّ فتشبه مزاج المختلّ العقلي مشوّش الذكريات، لا تفهمين لماذا يضحك أو يبكي، وإن ما تطرّقنا إلى قضية الأنوثة و اللطافة فأعوذ بالله، إنهن لا ينعمن إلا برصيد كبير من الخشونة "وعندما لمح الضيق في وجهها ابتسم مستدركا مداهنا "ما عداك بالطبع يا جميلتي،فأنت ناعمة كالقطن،،,"

"كُفّ عن مغازلة خالتي أيها الوغد" هتف صوت جهوري يخامره المرح قادم من باب الحجرة لرجل نحيل القامة أسود الشعر، عيناه بنيّتان فاتحتان و لحيته سوداء مرتّبة، وقف منتصبا على قدميه تكسو وجهه سحنة بشوشة و تشعّ أسنانه البيضاء من خلال ابتسامة مشرقة،وما إن تناهى صوته إلى مسامع الجالسين حتى استدارا إليه في لفتة خاطفة، فغمره عمر بنظرة متفحّصة طويلة شملت كل قامته من أعلى رأسه الى أخمص قدميه صعودا ونزولا، فاغر الفم، متجمّد

الوجه في دهشة غرارة، وعندما زايله أثر المفاجأة اندفع بحماس باتّجاه خليل معانقا إياه عناقا قويا ،فاختلّ توازنه و كاد يتسبّب في وقوعه لولا أنه ارتكز بكفّ يده على حافة الباب، و أثمرت مساعيه أخيرا في إعادة الاتّزان إلى صديقه مستعينا ببعض الأوصاف الملائمة

_"ما هذا الهراء الذي كنت تفسد به عقل خالتي رفيداء، ألا ترى أنها صعبة المنال؟!،ليست من النوع الذي يخضع بسهولة "

_"لا توجد امرأة في الدنيا لا أستطيع إخضاعها "قال عمر متباهيا فيما ضحكت رفيداء لهذا المزاح المدار حول شخصها، ووقفت تعتذر للانصراف لشراء أغراض مهمّة من السوق تاركة إياهما غارقين في عاصفة من المزاح والهزل الصبياني، حتى إذا جلسا كلا منهما، تحسّس الفضول طريقه مثبتا وجوده و تدفّقت الأسئلة إلى الشفاه المتلهّفة

_"خليل، إنني لا أصدق ما أراه، لقد أرسلت لي قريبتك رسالة تنبئني بالأخبار السعيدة فقرّرت أن أعود لأراك.لم تتسنّ لي فرصة للسفر قبل هذا الموعد ، لقد تأخّروا في منحي إجازة،، كيف حالك؟ هل تشعر بأنك تحسّنت تماما؟ما الذي حدث على وجه التحديد؟كيف أنت،، حسنا،إنني عاتب عليك كما تعرف لأنّك لم ترض بمقابلتي أبدا، و لكن سنصفّي ذاك الحساب لاحقا،ثم هل تحسّ أنك بخير، أين كنت هذا الصباح؟كيف حدث و أن غيرت رأيك؟ آخر رسالة وردتني من ابنة عمّك تبشّرني أنّك استدعيتها لترتب لك إجراءات العملية، و قد صدمت، خصوصا أنك كنت تتمسّك بالرفض المطلق لأي عملية أو طريقة لتتحسن، لم تشأ المخاطرة، أرسلت لك رسائل كثيرة ، وفقدت الأمل في استلام رد منك، كيف تتركني لتلك الحيرة؟،،اه يا صديقي إن عودتك إلى حالتك الطبيعية تبهجني و تبعث السرور في قلبي، أنا سعيد جدا "

_"ها رويدك علي، إنك تسأل كثيرا "قال خليل بلهجة متريثة وعيناه تشعّان، فيما كانت ابتسامة زاهية تجتاح شفتيه تنمّ عن قلب سعيد و مزاج مبتهج"يا صاحبي،لا يسعني الإجابة على كل هذه الأسئلة دفعة واحدة.أجل، إنني بخير كما ترى، أعتقد أن الدنيا جميعا بلغها أنني تعافيت،فمنذ أسبوع لم تتوقف رسائل التهنئة ".

_"أجل، لم يعلم أحد شيء عن ظروف إجراء تلك العملية و لا عن ما تلاها ،على ما يبدو ، ابنة عمتك، الآنسة سمراء تحسن فنّ التكتّم ،أما الآن فقد شاع الخبر طبعا ، إنك كلب صيد محبوب بالنسبة للكثيرين،أفضالك لا تنسى ،حسنا لنقل، إن بعض المخرّبين الأشرار لا يستلطفونك كثيرا، و لم يستحسنوا كثيرا نبأ شفائك .ليس أقل من إعلانهم الحداد "و بدا للحظة غير متحمس لهذا المسار الذي يؤول إليه الحديث فغيّره بسرعة "أخبرني ما الذي حدث؟،كيف اتّفق وأن أجمعت رأيك على إجرائها، هل أدركت أخيرا أن خطّتك بالاعتزال كانت رديئة للغاية؟ ".

بدا عمر مشوّشا، وعيناه مستفهمتان و الأسئلة تتدافع في رأسه تدافع الحشود للفرار من أزمة حالكة، أسئِلة لم يرو عطشها أجوبة مناسبة

"أخبرني بسرعة، ظننت أننا ندين بالفضل للخالة رفيداء، و قد أنكرت منذ قليل أن يكون لها علاقة بالأمر، هل كانت تتواضع أو أنها تفوّهت بالحقيقة، هي الوحيدة التي كانت تحظى بشرف رؤيتك ،وخمّنت أنها من دفعتك إلى الاقتناع بضرورة العودة إلى الحياة يا صديقي. حسنا،هذا ما كان ينبغي أن تفعله من الأول، كيف حدث أن؟؟،،كيف حدث كل هذا؟ "

_"ما الذي حدث؟ "علّق خليل بلهجة مداهنة, و قد عزم على إرهاق هذا الفضول المتوهّج في عينيَّ عمر بأسلوب متحذلق" لا شيء خاص، أنا فقط قرّرت إجراءها والعودة إلى طبيعتي، ليس في الأمر أي سرّ أو فضل لأحد "

_"ها "تضايق عمر،و فضحت سحنته انزعاجه من الطريقة التي يداهنه بها و بدا غير مصدّق "لست أصدّقك، إن في المسألة سرّ بالطبع، و إن ما أخفيته عني سأكتشفه بطريقتي الخاصة، دعني أخمّن، إن في القضية شبحا أليس كذلك؟ شبحا برداء أبيض و شعر طويل متموّج، لطالما آمنت بوجود الأشباح خاصة من صنف النساء، فهن لا يهدأن بأي مكان حتى القبور".

_"لقد ذهبت هذا الصباح لمقابلة رئيس تحرير جريدة الكفاح "وعمد خليل إلى تغيير الموضوع دونما إشباع لجوع اللهفة مجيبا عن سؤال لم يكن موضع اهتمام رئيسي "لقد اتّفقنا ،و سأباشر العمل انطلاقا من الأسبوع القادم، ليت خالتي حضّرت لنا بعض القهوة قبل خروجها، ألن تهنئني على الوظيفة الجديدة؟"

_" إنه يوم مبارك، أن أراك على قدميك ثم تزفّ إلي هذه الأخبار الجيدة، أهنئك يا صديقي، لم اسمع بهذه الجريدة من قبل، ربما لأنني لا أعيش هنا ".

"و حتى إن كنت تعيش هنا لن تسمع بها، إنها تكافح في سبيل الفشل، لفظت أنفاسها أكثر من مرة و لكنها تحيا من جديد لتفشل، من المحتمل أنها لا تدخل حتى في الترتيب، أعجز عن فهم صمودها إلى الآن! ".

فذهل عمر و غاب حماسه

_"هل تمزح يا خليل ؟"

"أقسم أنني لست أمزح "و انطلقت من فمه ضحكة خفيفة "إنها كما وصفتها جريدة فاشلة"

_"إذا،كيف ترضى بالعمل لصالحها؟ إنك صّحفيّ جيّد و لطالما كنت محط استقطاب الصحف المشهورة "سأل عمر مرتابا، مستغربا النهج الغريب للتلاعب بالحياة .

_" كنت يا أخي، كنت " تغير تعبير وجه خليل واستحال حزينا ذابلا تقريبا ثم قال متأسّفا متنهّدا "و لم أعد الآن، أنا إنسان يخطو أول خطواته في الحياة الجديدة كطفل يتعلّم المشي ".

_"و لكن يا خليل"اعترض عمر متضايقا" ما الذي دهاك، بمقدورك أن تتقدّم للعمل في جرائد جيدة، بمجرّد أن تعرض عليهم خدماتك، سيوافقون فورا"

ابتسم خليل شبه ابتسامة، بدت ساخرة

_"حتى إن عرضوا علي، لن أرض بالعمل معهم"

_"لماذا يا خليل؟، يكاد عقلي يتخشّب من انعدام الفهم"

وضع خليل مرفقه على مسند الكنبة

_"السيّد مالك و هو صاحب جريدة الكفاح الفاشلة، الفاشلة "أكّد عليها كأنه يريد أن تطبع الكلمة في عقل صديقه "هو الوحيد الذي عرض علي عملا بحالتي .... دعني لا أتلفّظ بالكلمة لأنها تضايقني، الوحيد الذي شجّعني على العمل، و قال إن باب جريدته مفتوح لي في أي وقت أشاء" ولم يبد عمر مسرورا بالحقيقة التي اكتشفها لتوه، إنه ليس مسرورا البتة،يعمل في جريدة فاشلة لمجرّد أنها عرضت عليه عملا عندما كان مقعدا!! إن خليل يغدو عاطفيا بشكل مبتذل أحيانا،فأسرع يصرّح بموقفه من هذه الكفّارة الغبية .

_"خليل، لا تكن عاطفيا، تصرّف بعقلانية يا صديقي، إنك تدمّر مستقبلك، أنت تشعر بواجب العمل لصالح هذا الرجل لمجرّد أنه عرض عليك وظيفة في وقت حرج، وهذا ما يسمى بالعاطفة الساذجة البعيدة عن المنطق، لست مضطرّا لوضع رأسك تحت أي واجب. أنت صحفيّ متمرس و مرغوب ، وأي جريدة ستتشرف بانضمامك إليها و ليست الكفاح هذه بالخيار الصائب".

فحملق خليل إلى وجهه بنظرة طويلة غامضة، كأنه يحلل كلامه بشيء من الاستخفاف البارد ثم منح صوته نغمة تشي بالمزاح و قال

_"إذا فأنا عاطفي؟و شعوري بالامتنان للرجل الذي وقف إلى جانبي بعيد عن المنطق، ما أغرب منطقك يا عمر، أرى الأمور من زاوية أخرى لا تراها أنت، و لا يسعك إدراكها، لأننا لم نمرّ بذات الحالة"

_"اشرح لي، فأنا قاب قوسين أو أدنى من،،،لا أجد مصطلحا مناسبا "صرّح جزعا وظهر عليه نوع مربك من التشتّت الذهني " إنّ السيّدة رفيداء ذكرت لي أمورا غريبة قبل أن تأتي،من يراك الآن لن يربط أي علاقة بينك وبين الرجل المحبط الذي أخرجته من المشفى منذ أشهر. احك لي ما كان يحدث في تلك الغرفة الموصدة؟، ماذا كنت تفعل؟. تقول خالتك أنك كنت تغرق الغرفة في الظلمة وعجزت هي عن إقناعك بفتح النوافذ ولو لدقائق، وكنت بالكاد تأكل وتخاطبها، ثم حصل تغيير

مفاجئ مرده إلى سر غامض، لم تستطع فك خيوطه،،ما الذي تغيّر يا خليل، إنك لم تكن تتمتع بأي لباقة لتردّ على رسائلي و تخلصني من القلق الدائم عليك، يقال أيضا " ورفع حاجبيه بحركة مشككة ، حتى تعمّقت خيوط جبينه" أنك كنت تضحك بصخب في بعض الأحيان أمام الحاسوب؟"

_"إذا فإن الخالة العزيزة لم تلجم لسانها" قال خليل مؤنبا بصوت يحمل بعض السرور "ماذا أخبرتك كذلك؟"

_" لا تلقِ باللوم عليها، لم تفش شيئا مفيدا، ليس بالقدر الذي يشبع فضولي، تعرف أنها ليست سيّدة ثرثارة، إنها كتومة، هي سعيدة لأجلك، لقد اعتنت بك يا خليل و لم تتخلّ عنك أبدا، ليس عليك لومها لاعترافها ببعض الأمور "

_"ما أكثر السرعة التي تخلّى بها البعض عني "قال و قد شاب صوته لحن حزين "طيلة هذه الأشهر، كنت أكبر قيمة المواقف،إن المصائب مفيدة أحيانا لتعرف موضعك في قلوب الناس، حتى أنني تلقيت رسائل تنطوي على الشماتة المغلّفة بالتعاطف من بعض الأصدقاء المزيفين. ولم يفتني أن أستجليها "

_" كنت تقرأ الرسائل إذا، أيها الوغد لماذا لم ترد على رسائلي؟ " صاح عمر و لكز صدره بلكمة خرقاء فتأوّه خليل آهة مزيّفة .

_"لم أرد على رسائل أي إنسان، لأنه كان لدي القليل لأقوله، ثم ماذا يوجد كرد ملائم على الشفقة المنقّطة بالحزن علي ،ولست ممن يستجيبون لشفقة الآخرين بالعاطفة المنصهرة بالتظاهر الكاذب ، كل الرسائل كانت على شاكلة واحدة (إننا نشعر بألمك....تأقلم مع إعاقتك لأنها جزء الآن من حياتك..هناك الآلاف مثلك لكنهم لم ينعزلوا الحياة، نحن نحبك رغم كل شيء، كن قويا كما كنت دوما، مطلقا لن يفيدك حبس نفسك بين الجدران) وسرعان ما انقطعت رسائل المشفقين والمخادعين والمنافقين، الأصدقاء والأعداء، الحقيقيين والمزيفين.ااه ما أقسى الحياة عندما تقع،ما أسهل سقوط الأقنعة دون اضطرار لوضعها ثانية، ترفع الستائر حينئذ،لقد عشت فترة صعبة، أصعب مما تظن"و هجرته سحنته المرحة و تحوّلت نبرته إلى جدية " كنت لا أفرّق الحال أكان ليلا أو نهارا،فقدت الإحساس بالمكان و الزمان، ولم أكن أبالي، والمصيبة تكمن هنا كوني استغنيت عن عنصر المبالاة،العنصر الذي يعني الحياة والشغف والوجود، لتصميمي النهم على جعل حياتي أسوأ ما يكون لأن الفقد صعب،صعب جدا،مرّ الى درجة لا توصف، إلى درجة أنك تتخدّر فلا تهتم بما يدور حولك من أحداث على نحو مريع. فقدت أغلى إنسان على قلبي، أمّي الغالية "و صمت و أصاخ السمع كأنه يسمع صوتها و نظر باتّجاه الباب كأنه يرى طيفها جاثما أمام

الباب ثم تحرّكت عيناه صوب الزاوية التي اعتادت الجلوس فيها، تحيك و تغني أغاني شعبية قديمة و بعد دقيقة عادت عيناه إلى وجه عمر الحزين " كان الألم يفترسني كمخالب حيوان متوحّش لأنني عاجز، لأنني مهزوم،وحيد،موجوع، لأنه لم يعد لي وظيفة لامعة ولم أعد مرغوبا من أحد. ولم أملك الشجاعة لأخرج من باب الغرفة فأواجه النظرات والعبارات المشفقة أو الجارحة، ثم أنظر في عيون الأعداء فأقرأ الشماتة بالمصاب،و لم أستطع التجوّل في أنحاء البيت دون أن أرى طيف أمي يتحرّك فيه. فقدان الأم أصعب ما يمكن أن يتعرض له أي إنسان ، إنه البؤس الحقيقي .عندما تموت أمّك ستخاف من كل شيء، ستفقد العطاء اللامشروط، ستفقد الثقة في نفسك. وهكذا استقرّ قراري عند خيار واحد، سأبقى أسير تلك الغرفة حتى أتجنّب كل ألم زائد عن الألم الذي يجتاحني. أثناء وجودي في المستشفى بعد الحادث سمعت الطبيب يهمس لابنة عمتي عن تعقيدات العملية، و أن نسبة النجاح غير محددة، قد تنجح وقد لا، ولهذا قررت عدم المخاطرة، تجنبا لخيبة مرة أخرى، ليس تخوفا من فقدان الحياة لأنني بحكم الميت.لا، ليس ذلك ما كنت أخشاه، كنت أخشى من مواجهة خسارة أخرى لا قبل لي بتحملها، عدا ذلك لقد حطّم ذاك الحادث أي رغبة لي في الحياة الطبيعة. وهكذا تحملت هزيمتي الأولى بروح منهارة متعبة،و جاءت الخالة الطيّبة بقلب مخلّع تتوسل إلي الاعتناء بي، فوافقت شريطة أن تتركني وشأني،و لا تمطرني بالنصائح كل هنيهة، و إلا استغنيت عنها هي أيضا. و رغم أنها لم ترحّب بأسلوبي الفظّ معها فقد التزمت بالتعليمات دون جدال، وتفانت في خدمتي على الوتيرة التي أريد.لم أسمعها يوما تتذمّر،لم تكن ترتاد غرفتي إلا لأجل الضرورة القصوى امتثالا لأوامري، لم تفتح يوما النوافذ أو تسحب الستائر. حتى إنها لم تخاطبني ببنت شفة دون مناسبة، حذّرتها من إدخال أحد علي بدافع من محبّتها؛ لأنهما سيخرجان مترافقين من باب البيت، لقد تحملتني هذه العجوز بصدر رحب واسع،صدر أم ثانية، تسألني كيف كنت أحسّ؟ كنت أعيش في الجحيم بعناصره المجتمعة، أبكي عندما أشعر بالمرارة، أضحك ساخرا من الحالة التي انتهيت إليها ثم سرعان ما تتحوّل الضحكات إلى شهقات، إلى سخط،إلى انعدام الرضا بالقدر الذي خطّ مأساتي.تمنيت لو كنت مدمنا على شيء ما، فيسكن الوجع في لمح البصر،تمنيت لو كنت سكّيرا أو متعاطيا،و خامرتني أمنية الموت فدعوت الله مرارا أن أموت وأرتاح، وذات يوم قررت الانقطاع عن ازدراد الطعام لأيام حتى يضعف هذا الجسد عديم الجدوى و ترتفع الروح إلى السماء فأرتاح، و لكن لا ليس الموت سهلا عندما تطلبه. إنه يغدو متعاليا عليك هو الآخر، أيبدو غريبا أن تستمتع إلى هذه العبارات من رجل شديد البأس مثلي متماسكا في كل الظروف؟، رجل تعود على الضحك و الاستهتار و السخرية من كل المواقف و التجرؤ على قول كل ما يراه مناسبا ،حتى أنا ذهلت من سرعة استسلامي،ذهلت من جبني،من

تغير تفكيري ،لم أعرف نفسي ،لكنني إنسان أيضا،إنسان قابل للسقوط ،قابل لأن ينهزم و يجبن ،و كل إنسان لديه جانب ضعيف يمكن أن يكشف في وقت يُظن أن صاحبه صلب كالصخر،كان بوسعي احتمال أي خسارة أخرى بروح سامية قانعة،كان بوسعي تحمل فكرة الذهاب إلى السجن إذا ما تطلب قول الحقيقة تضحية كتلك ، لكن لم أستطع مقاومة عجز في أحد أعضاء جسدي و مصيبة رحيل أمي،لقد هدّني هذا المصاب "

فجأة تجلّى على وجهه ألم راعد، ألم يعكس قلبا مفجوعا و تأثّرا بالغا، وتحوّلت لهجته إلى حزينة مهشّمة فيما تكبّد قلب عمر آلاما قاسية

_ " على ذاك الكرسي إنما جلست لأتفقّه في العالم المظلم الجديد المنحصر بين جدران صماء، الذي وجدت نفسي مرغما على العيش فيه مهزوما وحيدا، ليس الفرج هو الذي انتظرته، فقد فقدت الأمل من مقدرتي على المشي، كان واضحا أنه ليس لدي فرصة؛ بل أن تمضي الأيام بسرعة دون تلكّؤ فأغدو رجلا تقدمت به السنون ثم شيخا هرما. و هكذا يتناسق وضعي مع سنّي فلا يشفق علي إنسان، و لكن ما الذي حدث؟ما الذي حدث"

زايلته غصّة الألم وظهر دفء في عينيه، مصوبا نظراته المشرقة باتّجاه النافذة كأن عبئا ثقيلا أُزيح عن كاهله "حدث أن جاءني الفرج وأنا لا أزال شابا يافعا. في البداية تنكرت له وأشحت بقلبي الكليم عنه، برز لي كلغو تافه يشابه في مضمونه ما سبق. هل لك أن تتخيل، ظلام و عتمة، ضياع وفقد، فتزورك نقطة نور صغيرة بحجم عين الإبرة ثم ما تنفك تكبر وتكبر ككرة الثلج المتدحرجة حتى تمسي نافذة أجبرتني على استقبال ضوء ملأ كل حياتي نورا ساطعا "

و التفت عمر إلى النافذة التي يوليها ظهره، هناك شيء ما ليرى، و لكنه لم ير شيء

_"و سقطت من عقلي مصطلحات الكآبة و الاستسلام و التراجع، تاركة فسحة شاسعة للأمل والكفاح، والتعلّق بالحياة، أجل عندما ذهبت أمي ظننت أن العالم قد انهار، و مع رحيلها رحل كل شيء جميل في حياتي. ولو أنها لم تغادر الدنيا و تتركني لشعرت ببعض العزاء حتى مع ساقين مشلولتين و داخل محطّم، ثم أمل مبسوط على جناح مهشّم، كانت أمي ستعوّض أي نقص، وكانت كلماتها الحنونة ستطفئ أي ثورة أسى تنفجر في صدري، و تداوي أي جروح تخلّفها نظرات الأقرباء و الغرباء المشفقة، وإن كان هناك شعور أمقته من كل قلبي فهو الشفقة الصريحة. ولكن حدث أن حصلت على تعويض أكبر مما توقّعت.لقد منّ الله علي بأمٍ أخرى، أجل أمٍ أخرى،أخالها أصغر من أن تكون مناسبة لمثل هذه المكانة، ولكنها قالت كلماتها لو أنّها حية، وسلكت طريقها، واستني دون إظهار شفقتها علي أو إشارة إلى حالتي "

غشيت عينيه نظرةٌ حالمة، و كانت عاطفة جامحة مسطورة على وجهه، مقروءة واضحة

_" لم يسند ضعفي سواها،و لم يهوّن مأساتي إلا وجودها و لولاها لما قامت لي قائمة أبدا، ولاستمرت حياتي بين جدران أربع من دون ضوء و لا نور.كانت رابطي الوحيد للاتّصال مع العالم الخارجي ورمز الحياة،من خلالها برزت مصيبتي تافهة مقارنة بمصائب أناس آخرين لا أعرفهم، غير أن قصصهم كانت تشعرني بالخجل من نفسي لأنني أحسن منهم آلاف الدرجات بينما لا يصدر عنهم تذمّر أو شكوى، بينما لم يعتزلوا الحياة، بل يعيشونها كما هي قانعين بنصيبهم منها، راضين كل الرضا، خاضوا معاركها بروح مثابرة و عزيمة جبارّة،معظمهم مجرد نساء وحيدات ضعيفات. تتفوق قدراتهن على التغلّب على الكوارث على بنيتهن الجسدية "

_"من هي "استوضح عمر أخيرا مندهشا

_"لا أعرف إلا اسمها، لم أرها يوما، و لكنها تسيطر على خيالي "و ابتسم ابتسامة منعشة، فيما حوّل نظراته مجددا إلى النافذة ينظر إلى لا شيء صامتا شاردا.

_"إذا ففي القضية فتاة؟و ليس شبحا "أجاب بمكر،مضيقا عينيه الزرقاوين الصغيرتين على أنه لم يتلق جوابا فكرّر سؤاله بطريقة مختلفة "ما اسمها ".

_"أثيل "قال مباشرة مبتسما بعذوبة، و عيناه مسمرتان على النافذة لكأنها ماثلة أمامه

_" إذا فقد صدق حدسي "قال مستحسنا"لم تكن نهضتك من عدم،هناك من دفعك بيدين متحدتين إلى الطريق السليم. أي كلمات لم نقلها نحن هذه التي بثّت في نفسك كل هذا الطاقة،من هذه، من تكون؟أهي معجبة سرية؟ لطالما أيقنت أنك بارع في امتلاك قلوب النساء بسهولة دون استعمال وسائلنا الملتوية، إذا فالملاك المنقذ المسمى أثيل هو من انتشلك من براثن الإحباط والهزيمة"أضاف هازئا "ماذا فعلت بالضبط؟"

"أرسلت لي رسائل مشجعة كل يوم، كل صباح ومساء، شجعتني "قال بتأثّر" رسائل رائعة مفعمة بالود والنقاء و التحفيز،لم تخلف يوما".

"ببساطة منتهية،رائع، رسائل إذا!! ماذا تتضمن؟ هل روت لك قصص ألف ليلة وليلة فغيّرتك مثلما تغيّر الملك شهريار ، أرجو أن تكون جميلة مثل شهرزاد . إن غريزتي أبدا لا تسمح لي بتلقي مواساة أو دعم من فتاة قبيحة حتى لو قضيت حياتي وحيدا أصيد الذباب بين جدران غرفة قاتمة عديمة الأبواب،ليس الذنب ذنبي على أية حال إنها الغريزة ".

_"لست مهتمّا إن كانت جميلة أو لا " أجاب بحزم، بعينين تتوهجان احتجاجا، تكفران بهذا التعليق السخيف "فلتكن أقبح نساء الدنيا،لست أبالي، أنا أراها بقلبي و ليس بعينيّ،و طيلة هذه الشهور كانت أجمل النساء بالنسبة لي، بنبل مشاعرها و طيبة قلبها، لم تفقد الأمل مني واستمرت

تكتب لي دونما انقطاع إلى أن،إلى أن،لقد كفّت فجأة،بمجرد أن أرسلت لها رسالتي الأولى لأشكرها فيها و أبشرها باستعادتي لعافيتي ".

_"إنني مهتم بمعرفة الذي كانت تكتبه "قال عمر باهتمام،محركا رأسه"أو أنك تحتفظ بمضمونها سريا عن أقرب صديق لك،ليس عدلا أن تتركني في هذه الحالة من الحيرة،حيث أني أجد قصتك هذه غريبة ممتعة،مغالية في الندرة،فتاة مجهولة لم ترها يوما،و لا تعرف عنها إلا اسمها تمدّ لك يدا داعمة في أعماق الحفرة المظلمة،وتتمكّن ببساطة من إخراجك منها،ألم تعجبك يدي؟ "و كوّر قبضته، ثم رفعها إلى مستوٍ مكافئ مع عينيه وراح يقلّبها بتهكّم "ألم تعجبك؟ لم أكتب رسائل بعدد الآنسة الغامضة أثيل، و لكن المحتوى كان صادقا منزها عن أي شفقة تذكر،كنت أدعمك أيضا فلماذا لم ألهمك؟، أرجوك يا خليل أن تتواضع و تخبرني عن الذي كتبته هذه الفتاة ،فهذا البريق اللألاء في عينيك الهائتين إنما يدفعني إلى التلصّص على رسائل قادمة من المجهول " أطبق يديه في حركة توسّل تنمّ عن سخرية

"اضحك كما تشاء، لست أبالي " قال خليل هازا منكبيه بغير اكتراث وعاد خياله مزهرا إلى رسائلها كأنها مطبوعة في عقله، يحفظها كلمة، كلمة.فابتسم ابتسامة عريضة "ذاك المجهول التي تسخر منه،إنما تسبّب في انحراف قدري المثلوم،ذاك المجهول الذي استباح كل ثانية من عمري المنهك، إنما دفّأ قلبي المتجمد.عندما تلقيت أول رسالة منها تجاهلتها و كلي غلّ عليها لأنني محبط أسير رجلين مثقلتين بالإعاقة محكومتين بالتصلّب، ولم يكن موجّها لها بصورة خاصة، بل على كل إنسان يحاول أن يظهر بمظهر الداعم .علمت بخبرتي المستجدة أنه تمهيد لرسالة طويلة تسهب فيها بالشفقة علي شأنها كالآخرين .فتاة اسمها أثيل تقطن في مدينة س.ب، فتساءلت إن ما كان أحد قد أخبرها أنّها حمقاء وأن رسائلها ساذجة، أو أنّ هذه المَهمة ستكون من نصيبي أيضا.كان سيسرّني أن أخبرها أنها غبية، وأنني لا آبه إن كانت من مدينة س.ب، أوح.ج،أو من المشتري أو أي مكان آخر. فلتذهب إلى الجحيم و تدعني و شأني،و كانت أحقادي كافية لجعلها تبكي ما تبقّى من حياتها، و شعرت بالسعادة و أنا أتخيّل نفسي أتسبّب في بكاء إنسان،خاصة فتاة من النوع الأحمق. وهممت أن أشحن الرسالة بأكثر العبارات قسوة وفظاظة، أن أؤلمها بقدر ألمي. أن أجرّدها من أي رغبة عواء في كتابة رسائل أخرى. ولست أعرف لماذا اخترتها هي بالذات لأجرحها،من بين كل الناس المهتمين بإبداء روح التعاطف. لكن أوقفني شيء ما، لم يكن خوفي على مشاعرها أن تخدش،لا، أحسست أنّها لا تستحقّ تبديد أعصابي عليها، فأنا رغم كل الحطام المحيط بي كنت لا أزال أحتفظ بكبريائي الراقية و نزعة الاعتزاز بنفسي. ينبغي أن لا أقدّم لها فرصة لتعتقد أنني أتألّم، سأتجاهلها،و أجعلها ترتدّ خائبة،ثم سرعان ما فكّرت أنها ستنقطع عن مراسلتي بعد مرتين أو ثلاث

على أحسن تقدير، وكان ذلك مصيبا مع كل الغربان السوداء. هكذا كنت أطلق عليهم و أنا في ذروة التعاسة،إلا هي"

ألقى عليه عمر نظرة غير مريحة،و هزّ رأسه، إذا فقد كان يطلق عليه غرابا أسودا أيضا

_"بيد أنها على غير المتوقّع لم تتوقّف. و خطر لي مرة أخرى أن أقطع الطريق في وجهها، وأعاتبها بلهجة شديدة، لكنني وجدت رسائلها لطيفة تتحرّش بأنامل القوقعة التي غلّفتُ نفسي بها ،فتحدث فيها ثقوبا دقيقة وتدفعني إلى التبسّم و عندما اصطدمت بهذه الحقيقة كرهتها كرها وحشيا يفوق كراهيتي لإعاقتي، و كرهت رسائلها الغبية،فتوجّه تفكيري إلى التوقّف عن قراءتها، وهكذا دون أن أهين مقامي الرفيع و أشمتها مثل رجل الشارع غير المهذب، على الأقل كان بمقدوري التعلّق بمظاهر المجتمع المهذبة، هكذا أبليت حسنا في توجيه قراري إلى عدم قراءة رسائلها مجددا، محيطا نفسي بكبرياء شامخة، وإهانة غبية لها، سأذّلها بهذه الطريقة، سأصفع اهتمامها، وتدخّلت أيادي الفراغ الخامل بين الجدران البائسة تصفّق مجلجلة في أذني، و اشتعل الفضول في رأسي كلهيب النار، و لم أستسلم بادئ الأمر، بل تمهّلت الخطى، ولكن،،و لكن "

ارتفعت لهجته فغدت مثل أوامر قائد عسكري "كان في رسائلها ما يشدّني، يدفعني إلى الاستسلام، وتساءلت متطفلا ،متحرقا ما الذي فعلته اليوم؟ أين ذهبت؟ بماذا ستنعتني بماذا ستحاول استفزازي لأجيب على رسائلها ؟،ثم ماذا فعلت السيّدة المجنونة سميحة،تلك التي تملك نصف عقل،لا، إنها بدونه "

_"و من هذه؟ " سأل عمر رافعا حاجبيه مستغربا من الاسم الجديد، وكأنّها فرد مألوف من العائلة .

_"إنها جارة العائلة المحترمة "قال خليل ساخرا و أحسّ أنه يهتزّ من ضحك مكتوم نابع من استعراض الحكايات السالفة " امرأة تجري المشاريع و الشجارات في دمها و أنفاسها، لا تنفك تحدث بلبلة و ضجّة بأي مكان تذهب إليه، إن لديها ابنتين مضحكتين مثلها أتذكّر على نحو غائم اسم الصغيرة ،بينما دائما يغيب عن عقلي اسم الكبيرة،إنها تؤمن مفاجآت مسلية بنكهة الفلفل الحار،ذلك هو السبب الكامن خلف قهقهاتي المتكرّرة التي لو وجدت خالتي طريقا سالكا لسؤالي عنها لما تردّدت،ليست محاطة بتلك المجنونة فحسب هناك المزيد، عجوز تشتغل في مكتبته، قد يموت إثر سكتة قلبية نتيجة تغيّب إحدى موظّفاته، و زمرة أخرى من العجائز والمعارف الشاذين،غريبي الطباع،كأنهم من كوكب آخر،على أن خلف كل شخصية عرضتها أمامي قصة مؤلمة،أناس يتألّمون و لكنهم صامدون مكافحون،أشخاص أُنتزعت منهم كل متع الحياة ،و بعضهم انتزع منه الموت أحبّاءه، حتى إن إحداهنّ مات أبناؤها الثلاثة دفعة واحدة ولكنها تقاوم ،و أمها

سيدة بسيطة فقيرة،اضطرت للكفاح و العمل من أجل بناتها بعد وفاة الأب،لم تتطرق يوما إلى حالتي أو تشير إلى إعاقتي أو تذكرني بين الدقيقة و أختها أنها تشعر بألمي، أو تتعاطف مع مصابي، لو أنها فعلت ذلك لما أعطتني سببا واحدا لأكرّس أفكاري، وعقلي و كل دقائق عمري لأجلها،أجل يا صديقي ذلك ما حادني عن رأيي العنيد و جعلني أعيد التفكير مرة و اثنتين و ثلاثة، هذه الصبيّة التي لم أرها يوما، التي تألّمت لألمها و ضحكت لدعاباتها و إن ما تغيّبت، كنت أموت خوفا و هلعا،و تتحزّب كل عواطفي في كتلة واحدة: الذعر من فقدانها، ذات مرة أصيبت بنوبة برد فأدخلت المشفى و غابت أسبوعا كاملا، لم يكن إلا مصطلح الجنون ليصف حالتي، مررت بأسوأ الأوقات على الإطلاق، و تسارعت الخواطر تُنغصُ طمأنينتي، تجاريها حمى القلق الرهيب مقدرة وسرعة: هل أصابها مكروه،أو أنها اعتزلت مراسلتي إثر جفائي البارد معها، أو أنها ماتت: إن تلك الخاطرة المشؤومة كانت الأسوأ على الإطلاق، أحسست أنّ أمّي قد تركتني للمرة الثانية .وقبل أن أتنازل وأرسل إليها رسالة اطمئنان عليها، استقبلت رسالة منها تعدّد لي أسباب غيابها،فاسترخت أعصابي، هي الصبيّة التي قادتني إلى استقبال ضوء الشمس وفتح النافذة ،الصبية التي اكتشفت يوما وأنا اعالج موضوعها بيني و بين نفسي إن ما كان غريبا ما يحدث معي، و تساءلت مشوّشا: ماذا يسمى هذا،أتراني أحبها !،هل يمكن أن يحبّ الرجل فتاة لم يرها يوما !لا ليس الأمر كذلك،لن أحبّها، لن أحبّها،و مرة أخرى كرهت نفسي لأنني أشعر بهذا التعلّق اللا إرادي بها. ولكن أي شيء أستطيع أن أفعله، إنني عاجز أمام صبيتها، أمام عفوية طفلة صغيرة تتجلّى براءتها في مخاطبتي خليلي، ملاكي، كنزي، أمام فتاة ذكية، ساذجة مصممة شجاعة، جريئة".

تدفّقت الكلمات المحمومة كأنها جاهزة للنطق بها،قادمة من كتاب قديم مفتوح واضح" تنكّرت لشعوري الذي يدينني كما يتنكّر المقبوض عليه في مسرح الجريمة،و ذات ليلة من ليالي الشتاء اعترفت كمجرم مذنب،اعترفت أنني أحتاجها كما تحتاج الرئة إلى الهواء،كما يحتاج القلب إلى النبضات، بعد أن تقلّبت في فراش النكران طويلا، تقبّلت بطيبة خاطر هزيمتي أمام سلطانها، تقبّلت أن العيش من دونها عقاب ظالم .و لأول مرة لم أكرهها، بل كرهت ذاك الكرسي المتحرّك،كرهت السجن الذي يفصلني عن وجهها. حتى إن خاطرة جديدة ومضت في عقلي، تلهّفت إلى التخلّي عنه. حيث أنني لم أجرؤ على الردّ عليها و أنا جليسه،مجبول عليه، ينبغي أن أقف على قدمي لأجل نفسي،لأجل الذين يثقون بي، ولأجل أن أعرف هوية الفتاة التي تهتم بي كل هذا الاهتمام، يقتلني الفضول لمعرفة من تكون؟، عزمت على تنفيذ قراري لن يحدث على أية حال أسوأ مما حدث، لقد خسرت من قبل ،مما الخوف؟ ، و هكذا مدفوعا بصورتها و إرادتها ، صمّمت على

إجراء تلك العملية رغم التعقيدات المحفوفة،و راح الضعف والتردّد يتملّصان من عقلي شيئا فشيئا . هي،هي ملجأي، ملجأي و لا أملك ملجأ سواها"

ران الصمت لهنيهة غير قصيرة و هو يعاود النظر باتّجاه النافذة مثل من يحرّر إفادته بوحي من صورتها ويستمدّ قوة وشدة، صورة رسمتها أنامل عقله بوحي من وصف باهت الدقّة، شحيح التفاصيل و لكنها صورة على الأقلّ، إنها ليست بذاك الجمال ولكنها ليست منفرة أيضا، شعرها أسود وكذلك عيناها.صورة يرحّب بها خياله ترحيبا سارّا و يمنحها أوسمة القبول ولفحة من الغبطة، وأضاء الوجه المتعبّد بابتسامة ناعمة تدعم حقيقة ظاهرة منمّقة.

_"ثم ؟سأل عمر مرتابا " أكمل، ماذا تنوي من كل هذا؟،لست مرتاحا لهذه النظرة الخرقاء في عينيك"

أخلد إلى السكون مفكّرا،ما الذي ينوي فعله؟ لم يجد السؤال و طريقة طرحه سليمة؟كان فيها نوع من الاستخفاف بمجهود الفتاة، ما الذي ينوي فعله؟ ومرّ وقت طويل قبل أن يجيب جوابا واثقا

_"أنا أبحث عنها، أودّ مقابلتها، لا أعرف كيف؟ لكن ذلك سيتحقّق في وقت ما، رغم أنها لا تردّ على رسائلي"

وقابله عمر بانزعاج مُكشّر، أضحى خليل يعالج كل أموره بعاطفة خرقاء وبقليل من الحذر، في البداية يرضى بالعمل لصالح جريدة فاشلة والآن يبحث عن شخص مجهول آمن أنه أسهم في إخراجه من عزلته

"أرسل لها رسالة تشكرها فيها و دعنا نغلق هذه الصفحة"

كأنّ ضربة هوت على رأسه فأفقدته هدوءه و حدّق إلى عمر بنظرة غريبة تحمل على متنها عتابا و زجرا

_ "لست أودّ شكرها، لست أبحث عنها لأشكرها"

_"لأي غرض إذا تبحث عنها؟ "استوضح عمر محتد التعابير "إنك مجنون و لطالما كنت تعلّق أهمية على أمور صغيرة غير ذات بال، لأي شيء تبحث عنها؟إنك تخدع نفسك بتوجيه كل ما وصلت إليه إلى جهودها،في الواقع كنت تستمدّ القوة من نفسك،لطالما كنت قويا شجاعا يا خليل، لقد قضيت وقتا طويلا لوحدك، ومن الطبيعي أن تأنس برسائلها، لست أنت من تعينه فتاة على الوقوف من جديد"

_"أتعرف؟ "قال خليل مطمئنا تحيط بوجهه هالة من القناعة الحاسمة "لقد خَبرتُ كل أنواع الألم و الوحدة، ولو لم أكن في مثل تلك المحنة أقاتل من أجل الخسارة، الخسارة "شدّد عليها" لما

عنّ لي أن أتحسّس وجودها،في الواقع أنا لم أستمد شيء من ذاتي، لأنني لم أكن أملك أي دعم أو قوة أو طاقة، فحتى ذاتي تخلت عني،و لست أخجل من اعترافي بالضعف والهزيمة، كل شيء كان وليد نضالها من أجلي،لقد جعلتني أستهين بمخاوفي كما كانت ستفعل والدتي لو بقيت على قيد الحياة،و لن أعود جبانا ما حييت. وأنت كعادتك تقلّل من شأن النساء كثيرا يا صديقي و تفترض أنهن ضعيفات يصرخن و يولولن من رؤية صرصور على الأرض.لا إن منطقك غير سليم، و آمل أن تغيّر من ذهنيتك ذات يوم "و أضاف بحدّة، تلفّ وجهه سحنة تصميم "أجل سأبحث عنها، و إن اضطررت إلى طرق كل باب من بيوت مدينة س،ب،و سأظلّ أرسل الرسائل إليها الى أن تتخلّى عن عنادها و تتنازل لترد لي جوابا "

_"تتنازل هي تتنازل،لتحمد الله لأنك تمنّ عليها برسالة شكر " وتصلّب وجهه حانقا "لا تكن عاطفيا يا خليل، أنت رجل وقور بمكانة معتبرة ،كيف تتوسّل فتاة مجهولة الهوية كي تردّ عليك جوابا؟ لا ينبغي أن تسخر بمنزلتك بهذه الطريقة المهينة "

_"مكانتي "و قهقه خليل قهقهة مجلجلة ، هزت جدران الغرفة" أستغرب من أقوالك يا عمر، أي مكانة، منذ أشهر لم أكن إلا رجلا مقعدا مطرودا من الوظيفة لأنه لا ينفع لشيء، مدعاة للشفقة وحيدا، معزولا و كئيبا، يعيش على معروف الأقرباء، لم أكن أملك إلا ما ترسله لي عمتي و بعض الأقارب الحريصين على أواصر القرابة "

نهض من مكانه متجّها نحو النافذة ووجهه ينطق بسخرية مكبوحة وبعد إلقائه نظرة عاد فجلس ثم خاطبه بجفاء "يبدو أنك لا تزال تعتبرني الصحفي اللامع الناجح صاحب الألقاب والمواهب المتعددة،لا لم أعد كذلك،حتى أولئك الذين كانوا يتملقونني لم أستقبل منهم أكثر من رسالة واحدة و بعضهم وجدها كثيرة علي، أي مكانة يا صاحبي!"

اتّقد الاشمئزاز في عينيه كنار زاحفة في غابة شاسعة "في الواقع كانت مكانتي الوحيدة هي الحفر العميقة و الهزائم و السقوط المنبطح على الأرض،لم أكن شيء، و هي من أوجدتني من جديد.و لذلك إنني أدعو الله أن ينزل بعض الرحمة في قلبها فترضى بمقابلتي و إنه لشرف عظيم لي"

_"خليل" قال عمر بغير حماس ووجهه عبوس منقبض " أنت لا تحبّها، إنه مجرد تعلّق وقتي سيذهب إلى حاله.أوافقك، لقد أبدعت الفتاة و نحن شاكرون لها معروفها، طالما إنك تصرّ على إلصاق كل الفضل برقبتها. ولكن لست بحاجة إلى البحث عن فتاة لا تعرف عنها إلا اسمها،و بناء على ما رويت لي ،تبدو بيئتها سوقية جدا لا تنسجم و بيئتك و جيرانها عاميون ،و عائلتها بسيطة للغاية ،و عملها في مكتبة،ليس علي أن أقول المزيد ،لا بد أنني قلت ما يكفي لتعيد النظر في مسألة البحث عنها ، ستحصل على فتاة مناسبة ابنة عائلة راقية ، عندما تنطلق بحياتك الجديدة"

_"إنك تعلّق أهمية كبيرة على الطبقة الاجتماعية ،هذه معايير التوافق لديك "أجاب خليل بازدراء" ولكن هل تقف فتاتك المناسبة بجانب رجل مقعد لا يملك شيء؟. لا إن التزييف لا يفنى إلا على مذابح المواقف،و إنها لمعدن خالص،سيكون من حسن طالعي أن أظفر به،و لست أبالي بجمالها أو مكانتها،و إن كنت لا أعلم عنها إلا اسمها الآن،فقريبا سأعرف عنها كل شيء"

_" افهم يا خليل،أنت لا تعرفها و هنا تكمن المشكلة،من تكون؟ربما القصص التي سردتها كاذبة "و قطّب عمر حاجبيه شبه منتحب لهذا العزم المضطرم المتهوّر "ينبغي أن تكون حذرا،لا تتهوّر يا خليل،ربما تكون الفتاة وليدة بيئة غير جيدة،لست مرتاحا "

_"هل كنت حذرا أنت في مغامراتك ؟ "قال خليل بتهكّم

_"لا إنني صياد ، لم اقع في حبّ أي من تلك النساء اللاتي خذت معهن المغامرات،لقد نعمت بوقت طيّب و بالكاد أذكر وجوههن "صاح عمر متفاخرا والزهو يقفز من عينيه الصغيرتين" وهذا هو الفرق، أما أنت فيبدو أنك مفتون،مخلوب اللب بها، إن التعلّق يخرب خلايا التفكير كما أرى، ويصبح الإنسان عاجزا عن التحكم بأوراق حياته ،أوراقي أنا كانت تحت سيطرتي الكاملة، أفشل في سبر أغوار عقلك وهذا ما يخيفني، ينبغي أن تقف عند بعض النقاط المهمّة، ربما كان هدف الفتاة من الأول الإيقاع بك في شباكها، أجل ربما هو فخّ،و ربما هي تستدرجك لأجل إلحاق الأذى بك أو ربما ليست موجودة إطلاقا".

كانت لدى خليل فكرة مؤلفة من ثلاث عناصر، إنها موجودة،اسمها أثيل،و هي فتاة جيدة، وهي فكرة منيعة تدافع عن نفسها تصدّ كل محاولة للعبث بها.

_"إنني أحب الفخاخ "قال خليل ضاحكا "خاصة تلك التي تنصب لأجل المصلحة،و أنا سعيد جدا لوقوعي في الفخ، ليتها تمنحني فرصة لأراها و لا أمتنع أن تمزّق جلدي، لا تكن خائفا علي ،ليست أبدا من النوع الذي ينصب الفخاخ و يشكّل خطرا،هي فتاة بسيطة ابنة عائلة محترمة، أستطيع أن أعتمد على إحساسي و هو يقول أنها موجودة من دم و لحم، تتنفس مثلنا وكلّ ما كتبته صدق وحقيقة، ولن يثنيني عن عزمي أي رادع،و طالما قضيت سنة عاطلا عالة على غيري لا آتي بأي منفعة،لا أمانع أن أقضي أخرى في التسكّع في بحث مضن عن فتاة مثلها،فتاة تعادل قيمتها جبالا شاهقة من الألماس الخالص"

ومرة أخرى حدّق عمر إلى وجهه بنظرة مثقلة بالاستياء،كان هذه النوع من الاندفاع يؤرقه دائما،و باعتباره رجلا متحفّظا حريصا امتنع عن اعتناق هذا الاندفاع المارق . وبعد أن صمت لدقيقة كاملة ينقّب في أعماق عقله برز له استحالة قدرته على منع نفسه من تنبيه ثانية قال

_"أخبرتني أنك لم تعد تتلقى منها رسائل، إذا فلقد انسحبت"

_"و ليست تردّ على رسائلي أيضا،و هذا ما يمضّني، أفترض أن هدفها كان حملي على الخروج من النفسية المزرية التي كنت فيها، و بما أنها بلغت غايتها وحققت مرادها فلن تأبه لمسألة الرد".

_"ذاك ممتاز "علق عمر بسرور "لو أنها فعلت ما فعلت بسبب أنها تحبك لكانت الآن مسرورة وهي تتبادل معك الرسائل، إذا فالآنسة العظيمة أثيل أُوكلت لها مهمة مساعدتك، ولذلك لا تتعب نفسك بالبحث عنها "

_" لا تحبني؟"قال جزعا وقد اكتسب وجهه تعبير مغتاظ "إذا فعلي بذل مجهود في سبيل الظفر بقلبها. إن مثل تلك القلوب نادرة و امتلاكها مكسب عظيم، سأتودّد إليها بكل ما أستطيع من حيل من أجل نيلها، أهناك نصائح تودّ إسداءها بهذا الشأن؟ "

و رفع عمر حاجبيه زافرا زفرة ضجر طويلة، كان جليا أن خليل يتشدّق ثم هزّ منكبيه

_"نصائح،لا، إنني لا أملك إلا نصائح لأجل استدراج الفتاة ثم تركها بالنهاية، أنت لم تجرّب هذه المتعة من قبل، إنها متناهية اللذّة، لذة الصيد،لا أحب سمكات الزواج و الحب ، بقدر ما أحب سمكات المتعة، أما حالتك هذه ،فإنني لا أقدرها إلا حمقا زريّا، وأحسبك لن تصغي إلى رأي أحد لذلك افعل ما يحلو لك،تذكّر أنني نصحتك و أرجو أن لا تخيب آمالك ذات يوم وتعود خاوي اليدين "

_"أولئك الذين يخسرون دائما، يتحملون خسارة أخرى بقلب كبير و إيمان قوي "قال خليل بثقة وقورة ،ووجهه ينقلب إلى حالة البرود "إن لي الحياة بطولها لأنتظرها و لست في عجلة من أمري".

سمع الاثنان باب البيت يفتح، ثم سمع وقع أقدام السيّدة العجوز تتهادى باتّجاه المطبخ

_"لقد عادت خالتك العزيزة، كانت تسألني منذ قليل عن الزواج فصدمتها بعدم عزمي على الزواج، هب أنني تزّوجت و أسأت الاختيار،ماذا ستكون النتيجة،صراخ و مشاكل و شجارات طوال اليوم "و فجأة اتّجه بالحديث إلى نقطة مغايرة "ماذا عن العمل،لست تنوي العودة إلى التحرّش بأعصاب هؤلاء الآفات أليس كذلك؟ اسمع لا تنشر شيء بخصوصهم، إن تهوّرك بشأن الفتاة لن يودي بك غالبا إلى السجن ،و لذلك لست أبالي بأمرها، افعل ما تراه مناسبا بحياتك. أما هؤلاء ،فلن يغفروا لك نزوة عرضية أخرى من نزواتك، لقد كدت تدخل السجن المرة الفائتة، لا أعرف كيف نجوت منها،و بعد الانتخابات الأخيرة جرى تضييق على الحريات بشكل يدعو إلى القلق ، كن عاقلا،إنك واعي أكثر مما هو ضروري و هم يغفرون أي شيء إلا أن تكون واعيا ،الوعي في هذه البقعة خطيئة ."

_"ما رأيك أن ألبس ثوبا و أضع غطاءً على رأسي أيضا "قال خليل مازحا رامقا إياه بنظرة معاتبة "حتى أثبت لهم أنني خائف مرتعب، الدكتاتورية تستنزف الحرية و الديمقراطية توفرها و بين تستنزف و توفر طريق وعر طويل سأقطعه ،يصنعون منا عبيدا في أقفاص يجعلون منا وحوشا يأكل بعضنا بعضاً العبودية تجعل الإنسان وحشا أنانيا، وإن صمتنا يقودهم إلى الطغيان أكثر، و لولا أن يد الحق انسحبت لما عبثت أيادي الباطل في مستقبل الناس وحكمت نفسها وصية عليهم. سأقول ما أجده مناسبا ولست أبالي إن كانوا يستحسنونه أو لا. ذلك ليس من شأني، لقد كنت و لا أزال يقظ الضمير،سأبدأ ما كنت عازما عليه قبل الحادث،الوزير مرزوق الذي استولى على الأراضي الغربية الزراعية من مدينة ن.و، وحولها إلى منشآت صناعية مخالفا بذلك القانون ،و استغل منصبه لعقد صفقات مشبوهة معروفة،بالإضافة إلى تبديد المال العام و رغم ذلك لا يزال على رأس منصبه"

أمسى صوته مرتفعا حازما جازما واندفع عقله في موجة من السخط "لن أقف مكتوف الأيادي أمام ما يحصل، حتى لو ذهبت إلى السجن "

_" أصبحت أعند عن ذي قبل يا خليل، إنني أسدي لك نصيحة شقيق لشقيقه، أنا خائف على مصلحتك فقط، لن يتهاونوا مطلقا في قطع أي لسان يتكلم عن أعمالهم. اعقد هدنة معهم، تعافيت لتوك،من أكلّم أنا؟!من أحاول أن أنصح، كلب صيد لاشيء ينفع معك،،لكنني جد سعيد لتعافيك،، خالتي رفيداء،،, خالتي رفيداء,أحتاج بعض القهوة، إن رأسي يكاد ينفجر،,لا جدوى من النقاش مع الصخور "

_"خالتي، لا تتعبي نفسك" صاح خليل "سأرميه خارجا بعد قليل، إنه يوتّر أعصابي"

الفصل الثاني

"عزيزتي الواثقة بنفسها، التي لا تتنازل فترد جوابا لخليلها

لقد بعثت لك إلى حدّ الساعة عشر رسائل، قابلتها بالجفاء و التجاهل، وأشعر بالأسف حيال ذلك،أنا على يقين تام أنها قرأت من طرفك، بيد أنني لا أكاد أستوعب سبب انقطاعك المفاجىء عن مراسلتي ثم عدم الرد علي ،ما الذي طرأ عليك ،ما الذي تغير ؟ . أفترض أنّها ضحلة مملّة تفتقد عامل التشويق والمغامرات،مقارنة برسائلك الساحرة المبدعة. مردّ ذلك إلى اعتزالي الكتابة مدة طويلة، حيث تراجعت جودتها ،كنت مبدعة جدا و غاية في المهنية حتى أنك تفوقت علي ،أريد أن أخبرك أن العلامة الكاملة لا يسعها إنصاف جهودك العظيمة ،و لو أنني أعلم أن غايتك منها لم تكن نقل التقارير أو التجارب الميدانية،كانت مجرد حجة عذبة لتقتحمي حياتي الناعسة.

أخشى أنك ستستلمين المزيد من طرفي رغم عدم اهتمامك، لأن تجاهلك لا يسوقني إلى الحياد عن هدفي، فقد كنت دوما والحمد لله أفتقد إلى عامل التراجع في شخصيتي، لو أنك تعرفينني جيدا لاستنتجت أنني لن أحيد مطلقا. آمل قريبا استعادة موهبتي المدفونة وأحظى بمزية كتابة رسائل بجودة رسائلك و على الأرجح سأتفوّق عليك . أتطلع إلى التفاتة رقيقة منك، إنك تعلّقين أهمية على الجودة كما أحسب. لست مبدعا مثلك يا أثيل، بيد أن أنامل عقلي ستضاعف مجهودها في الأيام المقبلة لأحوز على إعجابك، وهكذا أظفر برسالة واحدة على الأقل منك أو ربما تمطرينني بعدد هائل كعهدك.

خليلك المجتهد "

"شجاعتي التي تصعد الجبال ثم تزلّ قدمها فتسقط و تنهض بسرعة، لأن لا شيء باستثناء القمة يرضيها

أنت مدينة لي بجواب عن أسئلتي التي طرحتها، لقد خالفت عادتي المتريثة ووضعتها في سلّة واحدة .حسنا، لم تُدقّ ساعة الأجوبة بعد و لكن بوسعي الانتظار إلى الأبد، لن تجعليني بتجاهلك أهجر إصراري الصبور، وإن ما كنت تختبرين صبري، فأنا أتقن فنّ الصبر مع الاستعانة بالمقادير المناسبة.

عاد صديقي عمر منذ قليل إلى بيتي و طرق الباب كمن يصفّي معه حسابا قديما لم يغلق بعد، و لولا أنني أخشى على باب المنزل من التحطّم، لما كان يضيرني أن يستمر واقفا لساعة أو ساعتين، لقد زارني صباح أمس وأنا لم أنعم برؤيته منذ تعرضّي لذاك الحادث المؤسف، دعوته إلى الغداء و أغريته بفكرة أن الأطباق التي تجهّز الآن في المطبخ ربما تحثّه على إعادة النظر في العودة إلى عمله بالخارج، وهكذا سيتحطّم مستقبله كليا. ثم جلست رفقته نتجاذب أطراف الحديث حول

بعض المسائل و خاصة الذكريات المشتركة بيننا، إنه أروع صديق حظيت به في الدنيا، وأحاول أن أقضي معه أطول فترة ممكنة، لأنه في صدد قضاء إجازة قصيرة في البلاد ثم يقفل عائدا إلى عمله، هو مملّ غالبا مثل نشرة الأخبار، لا يكبر أبدا ليكون جديا. يندر أن يكون فكرة جيّدة لتصيّد بعض المتعة، ليس بجودة صديقتك السيّدة المحترمة سميحة فلا أحد حتما يضاهي جودتها الفكاهية، إن الوقت برفقتها يمر في رمشة عين، و قضاء ساعة واحدة معها يُعدّ إنجازا عظيما ،فهي مسلية متهوّرة بإبداعات مضحكة و روح منطلقة صعبة الانقياد و لست أحبّ إلا هذا النوع من البشر، انقلي إليها تحياتي الحارّة إن كنت لا تنزعجين.

بالمناسبة أودّ أن أقترح عليك عرضا. إنه طلب أكثر منه اقتراح، هل تعيرينني إياها رفقة ابنتيها الجبانتين إن ما ترسّخت في عقلي فكرة الذهاب إلى الرّيف في الشّتاء القادم، لقد استلهمت الفكرة من رحلتك المشوقة المحفوفة بالمرح، أريد أن أستمتع بإحساس المغامرة المجنونة، لثقتي أنه لولا وجود السيّدة وذرّيّتها على رأس القائمة في الرحلة لما نعمت بذاك القدر من المتعة، وكذلك أنا،اااه أظن أن الأمر سيغضب صديقاتي وخاصة الغيورات، لست أقصدك بالطبع، فأنت لا تغارين أبدا، إنك فقط ترسلين الناس إلى القبور من شدة الغيرة أليس كذلك؟

ملاحظة: أستغني عن خدمات الفتاتين الجبانة، ولا أحسبك تتنزعين مني الحقّ في اصطحاب السيّدة سميحة، أنا اكتفي بها، وإن كنت تنوين الشجار لأجل هذه النقطة فأنا أرحّب به في أي وقت، فقط اكتبي و عبري عن غضبك بكل ديمقراطية

صديقك الوفيّ خليل "

"أثيل الصامتة

أكل هذا الصمت ،انتقام مني لعدم الرد عليك ؟هل سيطول هذا العقاب ؟.

زرت عمتي اليوم،شقيقة أبي الوحيدة ،هي مديرة مدرسة متقاعدة ،كانت لامعة في عملها محبوبة على قدر إبراز شخصيتها القوية الكاملة ،و أجبرتني على الإنصات لجدول توزيع السيئات و الحسنات و لفتت انتباهي الكافر في نظرها أن يوم الحساب قريب و أن عدم التزامي يفجعها و يمضها ،و جهزت لنار جهنم قائمة من صديقاتها و زوجها طبعا و أكاد أجزم أنني على رأس القائمة .لولا أنها تحرجت من القول .و للجنة أرسلت نفسها من الآن رفقة زمرة مستقيمة مختارة بعناية، وكالعادة ارتفعت حدة صوتها و هي تتناول الأزمات السياسية و الاقتصادية، وسألتني إن ما كنت أعتقد أن أزمة الهند و باكستان ستنتهي و إن ما كانتا ستصبران على تحرشات بعضهما ،فاضطررت إلى تحليل الوضع دون اقتناع بينما ركزت عينيها على وجهي، وتملكتني الحيرة، لما علي أن أدس أنفي في فطيرة الغير؟ ،بينما فطيرتي توشك على النفاذ بعد تقسيمها قطعا قطعا ،و عندما

أظهرت لي أن الأثرياء لا يخونون زوجاتهم ،أبديت عن استغرابي، و أن على الزوجة أن تخاف من رجل مفلس لا يملك ثمن سيجارة ،و لا تقلق من زوج يستحم بالمال و يفترشه، لست أعرف أي التجارب غذت ثقافتها بهذا الهراء ،بيد أنني على يقين أنها نظرية مسلم بها .لا تناقش و لا تجادل ،عندما أحتاج إلى مصدر للتسلية ،أطرق باب عمتي اللطيفة ،و بالخصوص ،عندما تجرد نفسها من ضرورة احترام أنني رجل و تنسى أنه لا ينبغي أن تسرد أمامي بعض الأمور المحرجة .التي تليق بآذان صديقاتها الذاهبات إلى جهنم

إلهي ،كم أحبها ."

"الفتاة المجهولة أثيل

تعرفين عني الكثير ، و ما تعرفينه شيءمشترك بينك و بين الكثيرين من أصدقائي و المتابعين لي ،و أعتقد أنك كنت تهتمين بي غاية الاهتمام و لأنني متأكد أنك لا تزالين تهتمين ،سأقدم لك ما لا يعرفه كل الناس عني ،ما لم أنشره في الجرائد و أكتبه مقالات ،حياتي ما وراء الستار ، كان أبي محاميا ناجحا ،كدح طويلا لبناء اسمه في هذا المجال و شأنه ككل الآباء الذين يعرفون مصلحة أبنائهم أكثر من أنفسهم ،أراد أن أرث مهنته و اسمه و مكتبه و كان أمرا محسوما بالنسبة إليه ،و من بين الصفات الموثقة في عائلتي ،أنهم يتعصبون لآرائهم. وعندما كان يقدمني إلى أصدقائه و زملائه كوريث شرعي لعمله ،كنت أتساهل مع رغبته و أسايرها و أحبذ أن لا أحرجه أو أحتج على قراره،و لكن ذلك يثقل علي و إذا كان لا يفهم ضيقي، فإن أمي كانت تفعل دون أن أتكلم أو أشتكي ،كنت منذ طفولتي أسرد عليها كيف سأكون صحفيا ناجحا و كيف سأجعلها تتباهى بي بين أهلنا ،و كيف أنني سأعبر عن رأيي بصراحة ،دون أن أخاف أحد ،فكانت تتفاعل بأن تلثم جبيني و تخبرني أنها فخورة جدا بي ،تفهم الأم دائما أبناءها، وعندما وقفت ذاك اليوم أمامه لأخيب أمله لأول مرة برغبتي أن أكون صحفيا لا محاميا ، رماني بنظرة ملؤها السخط ،و رأيت التجهم يطغى على الخيبة في وجهه ،و عندما قال أنه سيتظاهر بعدم سماعي و أنه يعرف مصلحتي ،انتحلت أمي دور الزوجة المتمردة لأول مرة ورفعت سقف تهديداتها بترك المنزل إلى الأبد .لطالما كانت القوة التي أتغذى منها و السند الذي أعتمد عليه ،و لم يجد أبي بدا من التنازل بعد أيام من الخصام و العناد الفولاذي ،و الدموع المتأثرة ،و الصمت المطبق .و قرر أن مكتبه سيخسر محاميا جيدا و لكن بيته لن يخسر امرأة رائعة كأمي .و هكذا كانت أمي دوما المرأة القوية .الحكيمة التي تدعمني و تحتضن رغباتي، وتؤيد اختياراتي .لم يفهمني أحد مثلها و قبل أن تبدئي بمراسلتي كنت أعتقد أنه لا أحد سيفعل، وسرعان ما اكتشفت أنك تفهمينني مثلها على طريقتك الخاصة ."

"الغالية أثيل

وقعت البارحة في حدود الساعة الحادية عشر إلا خمس دقائق قرارا مهمّا محشوا بالإثارة حللته خمس مرات ،وأودّ أن أشاركك فيه، لأنك معنية به أيضا، لقد اتّفق و أخبرتني أنك من مدينة س، ب.مدينة الأسطورة الخالدة، أسطورة المرأة التي جفّت دموعها و هي تبكي على ابنها الفقيد الذي لقي حتفه غرقا، فهاج البحر ذات يوم في موجة عاتية مخاطبا إياها بلهجة معاتبة أن الأوامر السماوية شاءت فصله عنها و لو أن لها خيرا في حياته لما سلب منها، و هكذا ركنت إلى السكينة وهدأ حزنها، إنّها أسطورة جميلة، أنا لم أتشرّف بزيارتها مسبقا وأحبّ رؤية المدينة البديعة التي تعيش تحت سمائها أنبل الفتيات قلوبا على الإطلاق، سآتي هذا السبت لرؤيتك وإنني عازم على ذلك.

أسمع أن هناك حديقة جميلة قريبة من البحر تسمّى حديقة القلعة، ستكون المقرّ الذي أنفّذ عليه خطّتي البطولية، هناك سأجلس لأنتظرك من انبلاج الصبح إلى غروب الشمس ، وسواء أأتيت أم لا، سآتي كل سبت وأنتظرك هناك، آمل أن لا تثبّطي همّتي وتتلكئي في اتّخاذ القرار وتأتي بأقرب الوقت فأيّام الخريف الباردة على الأبواب، وأخشى أن تمطر ذات يوم وأتبلّل فأصاب بالزكام، أنا مثلك أصاب بسرعة بالزكام وألزم الفراش أيضا. لا تتوهّمي أنني رجل يستسلم بسهولة. لن يثنيني عن مقابلتك أي شيء. إما أن أراك أو أراك، آمل أن لا تتّخذي موقفا وحشيّا بشأن مقابلتي كالذي تتّخذينه بحق رسائلي.

ملاحظة ،أرحّب بجلبك بعض الحلوى المحضرة في البيت . إنّه النوع الذي أفضّل،كما أنني لا أمانع أن تتأخّري قليلا، تعالي في الوقت الذي يناسبك.سأنتظرك هناك إلى ما لا نهاية

صاحب العينين الهادئتين و الابتسامة الجميلة، خليلك "

"ملاكي وبلسم جراحي

يملأني الشوق و الحنين إلى السيّدة رقية التي لا تطيق فراغ يديها من عمل ما، أتعرفين من تكون؟ إنّها والدتي رحمة الله عليها، أنا أفتقدها، أفتقد كرات الصوف المتدحرجة التي كانت تحيكها أوشحةً وجوارباً مناسبة لفتيات صغيرات، أفتقد نغمتها الحنونة الرقيقة وصوتها يناديني من الأسفل تستعجلني لأجل الالتحاق بعملي، أفتقد قلبها الدافئ ويديها ذواتا الملمس العطوف وهي تُمرّر على شعري كأنني طفلها الصغير، و إن ما كنت قد تجمّلت بالصبر فذلك عائد إلى وجودك بجانبي طيلة تلك الفترة، لقد غادرت الدنيا دون أن أودّعها ودون أن أشبع عينيّ بنظرة أخيرة من وجهها الرحيم .ااااه يا أثيل إنّ صورتها تقتحم عقلي كل ثانية فتتملّكني عاطفة كسيرة جامحة كسيل عارم.

هناك ملاك طاهر أخبرني أنّ الأعزاء يراقبوننا طوال الوقت، و أنا أؤمن بأي شيء يطلقه هذا الملاك من فمه الصغير. بالمناسبة أنت تعرفينه، ذكّريه بموعدنا هذا السبت و أخبريه أيضا أنني لن أيأس حتى أقابله، بوسعي الانتظار إلى أن أغدو شيخا هرما، تساقطت كل أسنانه وضعف بصره، آمل أن أحتفظ ببصر يكفي لرؤيتك بشكل واضح. لك أن تتخيّلي حالتي و أنا أتوكّأ على عصا ذات مقبضٍ جلدي، بظهر مقوّس وشعر شائب ويدين مرتعشتين، هذا إن حالفني الحظّ و تورّعت الأمراض عن غزو أعضائي. آمل بشيء من الثقة الساذجة أن لا ترفضيني حينها، لأن النساء يحتفظن دائما ببريق الجمال على الأقل، المصحوب بحرية الإبقاء على السرّ خلف ذلك في حلقة نسوية متكتمة،سبق و شمّرت ساعدي بحزم لأجل هذا التحدّي القرير، لقد أودع ذاك الملاك في حسابي رصيدا كافيا من الإصرار.علاوة على أن طبيعتي أصيلة في الثبات و التصميم.

ملاحظة يوم السبت قريب جدا، إنه بعد غد، أذكر أن السيّد المحترم إبراهيم قد دشّنه رسميا كيوم عطلة دائم.ما أشجع قلب هذا الرجل،كيف حصل و أن أعتق عقله المغلق هذا القرار المفضي إلى السكتة القلبية؟ ليحفظ الله قلبه، المصمم خليل، ليس مصمم البيوت لأني لست مهندس بل مصمّم القرارات الحاسمة "

" عزيزتي أثيل ذات الشعر الأسود و العينين الجميلتين

أنا أصرّ على كونهما جميلتين ساحرتين تماما كصاحبتهما

أفتقر القدرة على رسم صورة دقيقة لك لسوء حظي. وأكذب إن قلت أنني أصدّ إغراء المحاولة لأكوّن لك واحدة مفككة خلال الأيام الماضية، بوحي من خيالي المتفنّن سريع الانفعال وقد أعطيته تعليمات حازمة كيما يبدع في رسمك، و لكنني أقرّ صادقا بعجزي و إياه. لم أستطع منحه علامات جيدة، سيرسب حتما إن لم يحصل على صورة ملموسة كاملة.

إن صورتك الجسدية تتذبذب على نقيض صورتك الحسيّة. من المحتمل أن تكتمل الصورة بالغد على الساعة...؟ أجهل أي ساعة ستأتين، فأنت لا تتنازلين و تجزمي بخصوص أي شيء،لا بأس، لقد ألفت نفسي آمل خيرا، فأنت لن تتركي هذا الرجل اللطيف المتأنّق صاحب الابتسامة البديعة والعينين الهادئتين يجلس وحيدا في الحديقة بين مجموعات من العائلات والأطفال. طبعا بوسعي الحصول على رفقة ملائمة، فأنا محبوب و مرغوب كما هو مدرج لديك، ولكن الرفقة التي أتعشّم الحصول عليها هي حضرتك، لن تخيّبي أمل هذا الرجل المقاوم المخلص للقضية السرمدية النبيلة: قضية مقابلتك.

انظري إن الليلة هادئة جدا، والقمر الأبيض يشعّ كأنه مصباح وهّاج وسط نجوم متلألئة، لم أفتح النافذة لأراه، بل لأراك أنت، في هذه اللحظة ولجت خالتي رفيداء إلى غرفتي ووضعت كوبا من

القهوة، ليس صحيّا أن أرتشفها قبل النوم؟أجل، أعرف،إن ما كتبت لي رسالة خاصة لتدافعي عن واجبك المقدّس،ألا و هو الاهتمام بصحتي، سأتخلّى عن هذه العادة. نسيت أن أقدّم لك خالتي رفيداء، ألوم نفسي لإغفالي تقديمها في رسائلي الفارطة وإن ذلك لسوء تقدير لشخصها، هي التي تُجهد نفسها لأجلي ،وتعكّر صفو نومي الصباحي كل يوم دفاعا منها عن الغنيمة الروحية و العقائد التليدة . هي شقيقة أمي الوحيدة، تعيش معي و تعتني بأموري، وهي بمثابة الأمّ الثانية، طبعا إنني أمتلك أمّا ثالثة أيضا عمرها سبع و عشرون فقط. أتعرفين شخصا أكثر حظا مني؟أخبريني بالغد ،عزيزك خليل الذي يرجو أن لا تُخيّبي آماله بالغد "

"صباحي المشرق و شمس حياتي الذهبية أثيل

تشير الساعة إلى تمام الثالثة،آمل أن أصل إلى هناك قبل شروق الشمس. أنا مغادر فورا إلى مدينتك، لهذا يصعب علي الإطالة في محتوى الرسالة، أشعر بشعور غريب غير مألوف عندما يدقّ تفكيري أنني على بعد ساعات قليلة من مقابلتك.سأختم الرسالة عند هذه النقطة

المخلص خليل "

"عزيزتي العنيدة أثيل

وصلت لتوي إلى البيت، وها أنا أكتب لك عازما على وصفك بشديدة القسوة.إلهي ،ما أقساك، أشعر ببعض التعب، ليس طول الطريق ما أرهقني، لا ،ليس ذلك ذا أهمية مطلقا؛ بل لكونك اخترتِ عدم مقابلتي رغم توسلاتي لك بالمجيء، لم أفترض من قبل أنك ترفضين مقابلتي كما ترفضين الردّ على رسائلي، ما الذي يحدث، راسلتني قرابة السنة فما الذي تغيّر الآن؟ سبق وأخبرتك عن استحالة استسلامي، والسبت المقبل ستجدينني مغروسا هناك كشجرة الصنوبر الباسقة التي جلست تحت ظلالها أراقب مدخل الباب بحذر وانتباه.

لقد جعلتني أرسل بصري إلى الآنسات بمثل سنك، حتى ملن إلى الاعتقاد أنني أمارس حرفة الفراغ المشهورة في الأوساط ألا و هي المعاكسة، و عَزّزت الأحكام القائلة أنني شابّ لعوب طائش. الحمد لله،أنهن لم يميزن شخصي ،وشكرا لأنهن لم يمانعن نظراتي المتفحصة، أنا ببساطة كنت أفتّش عن فتاة بشعر أسود و عيون سوداء. حسنا يا ملاكي القاسي، إن كنت أنت عنيدة صلبة ،فأنا أصلب من حجر الصوان، و لنرى كم من الوقت ستستمرين في تجاهلي، لن ينفعك أن تصمدي في وجه رغبتي الشديدة الجامحة، إن الأمر أشبه بالنوم،قاومي ما طاب لك.و لكنه يتغلّب عليك في النهاية.

أتتلهفين لمعرفة الذي فعلته طيلة اليوم، حسنا ليكن لك ذلك؟قضيت طول الطريق أقنع نفسي أنه لا مجال لتبني فكرة سقيمة كعدم مجيئك رغم أن صوتا عنيدا مثلك كان يجادل بمكر

قائلا: إنك لن تأتي لمقابلتي، لقد فاز علي للأسف في المعركة الأولى، لكنه لن يكسب الحرب، تصبح هذه الأصوات ذا نفوذ واسع و يستحسن قمعها في الوقت المناسب رغم أنها تتفوّه بالحقيقة.

وصلت في حدود الساعة السادسة متحمّسا إلى مدينة س، ب، ثم سألت الشرطي عن الطريق المؤدّي إلى الحديقة. ترتّب عن إرشاده عديم الدقة تشرّد ملعون في الطرقات الضّيقة لبعض الوقت ،و ما عتمت أن عثرت على رجل عجوز أسدى إلي بمعرفة سليمة أدّت الغرض. وصلت بعد شروق الشمس إلى الحديقة متأمّلا بشيء من الطمع الواثق أن تكوني جالسة بانتظاري. كانت الحديقة كبيرة ،قليلة الأشجار ،محاطة بسياج من القضبان الحديدية المرتفعة ،تبيح لك إرسال بصرك للتطفل خلفها ، كانت خالية من أي حركة، وكان الحارس كريما لطيفا بإبداء فلسفته الراشدة ،فيما كانت عيناه تتألقان بنظرة فضول، وتعانق شفتيه ابتسامة لثوية لئيمة حتى بدت أسنانه الصفراء، علّق قائلا بلهجة ماكرة: سيّدي إن الوقت لا يزال مبكرا، لا أحد يزورنا في هذا الوقت الباكر إلا الرجال الفارّون من بيوتهم أو المطرودون من سعير جهنّم، إن أخاك في المعاناة قد أتى لتوه و هو يجلس هناك، تأمله يبدو كعائد من الأسر،أخاله لم ينعم بنوم هانئ و أخاله قد غرق في نوم عميق منذ أن وضع رأسه على الطاولة . أصبحت هذه الحديقة ملجأ لمن لا ملجأ لهم، تفضل، تفضل. هذه أول إهانة شنيعة وقحة تعرّضت إليها بسببك يا متجاهلتي القاسية.

مرورا بذاك الرجل النائم دون شعور بما يدور حوله توجّهت نحو مقعد حيث يسهل عليك رؤيتي.أصبحنا أنا و المقعد عدوّين من أول لقاء، إنه غير مريح البتة و يصدر صوتا يشبه صرير الأسنان المرعوبة، يبدو كمن لا يغفر لأحد الجلوس عليه، وأنا بصورة خاصة؛ لأنه تقاعد منذ فترة بسبب حالته الزريّة هو و أشقاؤه في الواجب الحدائقي.

مضت ساعة وأخرى، بدوت مثل من ينتظر ساعي البريد ليأتيه برسالة مهمّة ،بعيني المسلّطتين على المدخل، ولقد اهتم المقعد المكشّر بفرض جزية انزعاجه الناجم عن جلوسي غير القانوني عليه، لك أن تتصوّري يا عزيزتي أن الوقوف على قدم واحدة أفضل مليون مرة من محاولة إقناعه أنني لن أجلس عليه الى الأبد، وإنني بدوري لست مسرورا جدا بالإقامة عليه.

بدأت الحديقة تزدحم بالزوّار فيما رحت أرسل بصري بجميع الاتّجاهات، أراقب بنوايا الرجل المهووس، و أمنح الزوّار الأعزّاء صورة دقيقة عن الرجل غريب الأطوار . سبق وأن نعتتني فتاة مهذّبة بهذه الصفة، طفقت أصيخ السمع إلى الأمواج المتحطّمة فوق الصخور وفورا تعسّر علي إبقاء عقلي ساكنا، وومضت ذكرى على نحو شاسع، ذكرى فتاة تخاف من منظر البحر، اتّخذت قرارا تاريخيا باعتزال خوفها باعتماد كلّيّ على نفسها، أدعم فضولي الذوّاق في معرفة نسبة نجاحها في تخطي مخاوفها؛ فهي منذ أسّست منظّمة معاداة الجبن و شرعت في تخصيص بعد

ظهيرة الجمعة لأداء الطقوس الأولى، لم تتحمّس لتحريك يدي للتصفيق على شجاعتها، أتراها انسحبت من مشروع القرن؟ أو أن الشجاعة رفيعة المقام أهدتها إلى مكان آخر يناسبها. هل يبدو من غير اللائق سؤال الفتاة عن النتيجة، ما رأيك أنت؟.

كانت ستُحلّ نصف مشاكلي لو أنني أحضرت كتابا لأقتل به الوقت أو أوراقا لألعب بها دور الكاتب الحسّاس الملهم من وجوه العابرين بحيث أتجنّب توثيقهم للريبة في نفوسهم، حتى إتقاني لدور الرسّام البارع كان لائقا لو أن لي ورقة و قلما، مع أن الرسومات ستشهد ضدي من بشاعتها، فموهبتي لم تسعفني إلا لرسم شجرة بخطوط متفرعة ترمز إلى الأغصان نلت عليها عواصف من الصراخ من طرف المعلمة، كيف لم أنتبه لهذه النقطة وأجلب معي عقارا جيدا للملل، قامرت واثقا بكلّ طاقتي الروحية على رفقتك المرنة، اعتقدت لغروري أنك الكتاب الذي سأقرأه طوال اليوم.

ألم تسمح لها أمّها بالقدوم؟ وافتني تلك الفكرة في حدود الساعة الثانية، لو أنك أرسلت السيّدة سميحة في مَهمة سامية لتمهّد لك الطريق، أثق أنها الشخص النموذجيّ لتسرّح لك إذنا بالخروج، كلّها مزايا تلك السيّدة لو أنها تكرّس دماغها لوظيفته المناسبة.

في حدود الساعة الثالثة أقمت جنازة لائقة لفكرة مجيئك و تنكّرت بهيئة الرجل الصامد الصبور المسيطر على مشاعره، ومن الأساس كنت أرتدي السواد فانسجم الحدث مع الزيّ، فقط يعوزني نظارات سوداء تخفي شحوب العينين لتكتمل اللوحة الحزينة، لم يحضرها أحد سوى عقلي المغتم و قلبي المفؤود.

تلقّيت على إثرها مواساة بحجم القارات لم أتوقعها ،عندما جذبت مسحة الحداد على وجهي شيخا مسنّا ليجلس قبالتي قابضا برقّة على يد فتاة صغيرة بعمر الأربع سنوات، لقد أحبّتني الفتاة من أول نظرة وربما قرّرت بفطرتها البريئة أنني رجل وحيد يقف على عتبة الأحزان، فلقد دسّت يدها الصغيرة في يدي وقلّبتها. إنها ملاك صغير بريء بأرنبة أنف حمراء ورموش طويلة ووجنتين سمينتين محفّزتين للالتهام، ما أجمل ثوبها الأخضر بلون الطحلب، وما أجمل خفيها الفضّيين، انصهرت سريعا في لون عينيها البرّاقتين ثم سرعان ما همست بشيء قويّ في أذني، كان سرا صغيرا لا ينبغي إفشاؤه أمام أحد، جعلتني أعدها بعدم البوح به: لقد اشترينا كيس حلوى كبير، ونحن نخفيه في الخزانة عن شيماء المحتالة اللصّة، إنها تشكّ في أمر حيازتنا إياه لهذا هي تحتل عتبة المنزل، و لن تغادر دون جيب مملوء ، والله لن تحصل على شيء، إن شيماء المسكينة المتهمة بالجوسسة الخطيرة و اللصوصية المتطرّفة هي ابنة أحد جيران العائلة، أليست حلوة لطيفة هذه الطفلة؟

أردت أن ألتهمها، لقد أرسل الله إلي تلك الفتاة لتقمع ثورة الملل التي تملّكتني بسبب غيابك عن الحضور، وكذلك لمحت إلى أنها تستلطفني و أعربت عن نيّتها الجديّة في اللعب معي.

عندما همّت بارتكاب جرائم أخرى بحقّ قلبي المولع بها ،قرّر جدّها الانصراف على نحو مفاجئ، في الواقع لم يشاركنا الحديث إلا لتحذيرها من عادة قضم أظافرها التي أسبغت عليها طابعا طفوليّا بريئا.

تمنيت بينما كنت أضع قدما محبطة خارج الحديقة، وبينما كنت أحملق إلى الشمس المحمرّة الشاحبة التي تحسن التلويح الوداعي لو أنني السيد إبراهيم، ذاك المتعصّب صاحب الكلمة المسموعة الذي أصبح موضع حسد صامت من طرف المؤشرات الحيويّة لرجل الانتظار بالحدائق، إنه محظوظ كونك تراعين أوامره السليطة بقدر ما تراعين حالته الصحية، أما أنا، إنك لا تأبهين بي.

في المرة المقبلة يتوجّب علي استنفار همّتي للتصدّي لنظرات الحارس المارقة و بطريقة ما ينبغي تأمين منفذ آمن لتعزيز قناعته بأنني لست رجلا مطرودا من السعير، لأن هذا على ما يبدو سيحفظ وجهي أكثر مما يحفظ الآنية الخزفية مهشّمة الفوهة التي ورثها زوجته عن أمها. وأنت يا عزيزتي الآنسة أثيل، ألا تشعرين في هذه اللحظة بأيّ تأنيب ضمير أو خجل قرمزيّ من عدم التحاقك بالمقعد المزري المقابل لمقعدي، يعبث الصوت اللعين قائلا: لن تأتِ في وقت قريب، ستقيم المزيد من الجنائز.

أنا بحاجة إلى كتب كيلا أشعر بالملل، هل تودّين إسداء بعض النصائح لرجل الانتظار بهذا الخصوص؟ هل تقترحين عناوين كتب جيدة؟ ها تذكرت، أجاثا وقصص الجريمة، هي مناسبة لجوّ مكتظّ بالتّوتّر والانفعال كالجوّ الذي لقّني اليوم، أو ربما أكتب مقالات جيدة، إن مداخل الأبواب تجلب أفكارا مزدهرة حسب ما أعتقد.

عدت إلى البيت بمعنويات مترهّلة يا عزيزتي، مع أنني أرفض التسليم بالأمر ،و يومض تفكيري بلون أحمر عندما أبحث عن تفسير مقنع لانقطاعك عن مراسلتي ثم امتناعك الردّ على رسائلي وها أنت الآن تجازين رغبتي الجامحة بلقائك بالتجاهل الكلي. لا أفهمك، إن التحليل العميق يرهق جهازي العصبيّ و يطوّح بي في متاهات لا تنتهي و تفلت الأفكار من رأسي، كإفلات الطيور من قبضة مرتخية . ومع ذلك سيأتي يوم أقابلك فيه وتشرحين حينئذ موقفك.

سأخلد إلى النوم، لقد لفحت الشمس الحارّة رأسي، و إن ما أصبت بضربة الشمس فالذنب كله ذنبك،طابت ليلتك

تذكّري أنني سأنتظرك هناك السبت المقبل،خليل المثابر".

"فراشتي الجميلة

صباحك سعيد

استيقظت منذ برهة و صداع فتّاك ينهش رأسي ، ذلك كان التأثير المحتمل الناجم عن تعرّضه لشمس البارحة القويّة التي تركتني بين يديها طوال النهار بسبب....؟، أجهل السبب يا معذبتي، وسأعرفه في الوقت المناسب.

أول شيء فعلته هو تفقد الحاسوب طمعا في حصول تلك المعجزة ،غفرت لخيبة أملي أن تسخر من سذاجتي ،لم أجد شيئا .

أجري استعداداتي لأجل عملي الجديد، وأنا في مزاج طيّب نقيّ، أنا لم أطلعك إلى الآن أنني سألتحق بعمل جديد، حيث أنني انشغلت بالحديث عن أمور أقلّ أهمية، بجريدة تسمّى الكفاح، لا تتعبي نفسك و تفتّشي في قاموس عقلك الزهري؛ فهي ليست معروفة، و تتصدّر ذيل القائمة في عدد المبيعات، أتساءل دوما إن كانوا يبتزّون مالكها بواسطة فضيحة شائنة في حال ارتكب خطيئة كإغلاقها.

على أنها كانت الوحيدة التي خصّتني بعرض عمل رغم وضعيتي التعسة، في حين أن كل الجرائد رفيعة الشأن التي كانت تحلم بتوظيفي أدارت ظهرها، و ذهب بها المذهب إلى التشدّق من الحالة التي انتهيت إليها .

تختلف جريدة الكفاح التي تجبرني على وصفها بالكوخ عن التي اشتغلت بها سابقا، ولكنها تفي بالغرض، بالإضافة إلى ميلي الأصيل إلى العرفان بالجميل وشكر المعروف. أستطيع القول أنها تملك بعض المزايا المشرّفة، تتمتّع بخاصية تعتبر تدليلا بالنسبة إلي، إنها تعمل على منح الحرية المطلقة للصحفي لكتابة ما يشاء،علاوة على عدم تقييدك بأغلال التحذيرات المستمرة حول ما ينبغي كتابته، هل أنت سعيدة لأجلي؟إنك لا تهنئينني حتى يا صديقتي، يا لها من طريقة تستقبلين بها النبأ المثير، أنت تشبهين إلى حد بعيد المناسبات الاجتماعية المملّة،احرصي على مخاطبة يدك بلغة حازمة فالأيادي عندما تتمرّد يصعب قمعها، من دواعي سروري أن أوضّح لك أنني أحبّ يدك المتمرّدة من الآن، اليد التي تصمد أمام إغرائي الدائم. أتساءل يا أثيل هل ستكتبين لي أولا أو تقابليني أولا؟ كلاهما لطيفان يا عزيزتي.

تلقيت رسائل لا بأس بها من الأصدقاء و الصديقات باستثنائك أنت. بعضها في الواقع يفقدك الشهية لتناول الإفطار، لكنها خطوة على أية حال، أتمنى أن أستقبل منك رسالة عرجاء حتى و إن انحرفت أخلاقك الناعمة و شتمتني فيها.

أندّد كذلك بإعراضك عن منحي بعض الأفكار المفيدة لأجل تحفيزي على العمل، السيّدة سميحة تقدمّ نصائح مبهرة، بناءً على ما أوعزت به ، لقد نجحت في كسب تأييد مدمنات الكحول بذاك المركز و انتصرت بخطاب مرتجل في على عاداتهن المروّعة في تلك المناسبة السعيدة.

بالمناسبة ما هو عنوانه؟ أودّ التعرّف على السيّدة الفظّة صاحبة العينين الباردتين، صعبة المراس. ربما أتولى زمام الأمور؛فأنا لدي تأثير منقطع البراعة على النساء مهما بلغت حدة طباعهن، وهي صفة مورّثة في عائلتنا من الجدّ إلى الأب إلى الحفيد، و بالنتيجة سأمنح ورقة الانتساب لكما، وهكذا أنعم برؤيتك يوميا، تعتبر تلك هبة عظيمة أكثر مما أتمنى، بوسعي تحمّل ثرثرة السيّدتين وشجارهما الدائم إن ما نعمت فقط برؤية وجهك، أترين كم أنا يائس؟ أفعل أي شيء لأجلك، ولكنك قاسية جدا،لا تتحلين بأي رحمة في قلبك،و الآن انتظري دقيقة "

"يا للهول،لقد أحضرت خالتي القميص الذي سأرتديه، إنّه مجعّد بطريقة غير لائقة، بل يبدو مجعّدا عن ذي قبل، يتعيّن علي كيه بنفسي، أنا مضطرّ لقطع الرسالة و الانصراف على عجل، إنني متأخّر يا جوهرتي، سأكتب لك فور عودتي إلى المنزل، و أظنّك الآن تهيئين كذلك لتذهبي إلى عملك، اطلبي نيابة عني من السيد إبراهيم أن يكون لطيفا معك،فأنا لا أتحمّل أن يضايقك أحد بأسلوبه الخشن و لا أسمح حتى لنفسي بمعاملتك على تلك الصورة، يوم سعيد

المخلص الذي سينتظرك إلى الأبد خليل "

"طاب مساؤك يا حلوتي

من أين يتعيّن علي البدء؟!كان الطقس حارّا جدا، تم استنساخه عن منتصف يونيو بجميع مقاديره. بالكاد امتنعت الشمس عن جعلنا عيدان شواء، أنت تتشوّقين لمعرفة تفاصيل اليوم الأول في العمل، ليس بالإثارة التي تتخيلين، لا أستطيع أن أتحدث عليه دون أن تنتابني نوبة الفزع من العودة إليه بالغد.

مكان بليد ضّيق يكتنفه الإحباط و البؤس و زمرة من الموظّفين الخمولين بطيئي الحركة، سريعي التهيج، تعلو دمدماتهم على السكون المجحف، وجودهم يتساوى مع غيابهم مع فارق أنهم ينالون رواتب على أجسادهم المثبّتة عن المقاعد لكنني سأعمل تدريجيا على جعله حيويا نشيطا. بعد أسابيع قليلة ستغدو الجريدة رقم واحد إن استطعت إيجاد طريق سالك لنفخ تلك الجلود الخاملة، يستحسن أن أقرأ كتابا عن الطاقات البشرية الكامنة،مع أن غريزتي تنبئني أنهم مصابيح معطّلة لا أمل فيها.

هناك السيّد العجوز مالك ،وهو صاحب الجريدة و رئيس تحريرها ،الذي تجاوز الستين من عمره، وجهه عديم الذقن ووجنتاه منتفختان منزّلتا الرتبة من طرف الزمن، أستطيع أن أفترض أنه

يدّخر المؤن هناك لوقت الحاجة و يخيل إلي على وجه الدقّة أنه يميل إلى المسرحيات الهزلية؛ فهو لا ينفك يتملّص من نوبة هستيريا الضحك ليشرع في أخرى . بالإضافة إلى شاب هزيل لم يتجاوز الثامنة والعشرين ، يسلخ نهاره بالخربشة على الأوراق و الرسم عليها ، نتيجة عدم وجود عمل مناسب يؤديه، أما الفتيات الثلاث ؛فإنهن وللأمانة الذكورية جميلات جدا، خاصة صاحبة الشعر الأشقر و العيون الخضراء، أخشى أنني لا أستطيع تحديد الفترة الزمنية التي ستنجح فيها الفتاة في اقتناصي .أراهن أنها لن تأخذ معي أكثر من أسبوعين إن دفنت عادتها القبيحة في مضغ العلكة ،و حمل المرآة بشكل دائم، لا أنجذب إلى النساء الملازمات للمرايا.

إن أصواتهنّ متملّقة كصوت مواء القطط، وكنّ أكثر المبتهجات بانضمامي إلى الطاقم الخمول، معتقدات أنني مصدر جيد للتسلية و قتل الوقت، لمعت أعينهن عندما أعربن باندفاع مضطرم عن فرحتهن بوجودي بينهم، لطالما كنت رجلا محبوبا وموهوبا ومصدرا للتشريف. وليس القفز المتكرّر و الابتسامات العريضة إلا وسيلة للتعبير عن الإعجاب الكبير. لا تقلقي، في الوقت المناسب، سيسعني تبخير آمالهن، عندما أجد وقتا لإبداء عصبيتي ووجهي الآخر، وهناك شاب أرعن طائش يشبه المراهقين من ناحية التصرّفات الطائشة، أوراقه محترقة من الآن، يصنع طائرات ورقية ويقذف بها إلى الهواء ثم يراقب نتيجة سخافته بمتعة طفل صغير متفوّقا على الجميع بغبائه.حتى على السيّد مالك.

عندما خطوت إلى الداخل عند الساعة الثامنة والنصف، و رأيت هذه الفوضى العارمة، عقدت اجتماعا طارئا في رأسي ثم صوّتت معظم الخلايا الدماغية على الفرار. وطالبني عقلي العصبيّ بتوجيه بعض الشتائم الصباحية لهم جميعا كنوع من الثأر الناعق لكرامة الصحافة ثم لعنهم بأقبح العبارات الصدّاحة . على أن نصيحة قادمة من بعيد حملها قانون الجذب على جناح السرعة منحت قدميّ طاقة للتقدّم. إنّها أنت أليس كذلك؟ تقول النصيحة: هناك تحت الرماد جذوة متقدة ، بوسعك أن تشعل منها نّارا لو أردت، فقط انفخ بقدر ما تستطيع.

أجل، قررت أن أنفخ بناءً على نصيحتك الحكيمة، رغم أن الأمر يتطلّب مليون رئة، إن كنت لا تجدين طلبي تجاوزا للحد، فأعيريني رئتيك يا عزيزتي، إنّهما فعالتان تماما كعقلك.

لولا أنني لم أضع بعض الخطط السريعة لتغيير الأوضاع، لكنت قدمت استقالتي عند عتبة الباب، فهذا العمل حتما لا يتناغم وسياستي المهنية في العمل. كل ما يحتاجه هذا الطاقم الذي نفرت منه الحياة هو يد حازمة و تحفيز جديّ. قرأت ذلك في عيونهم، انطلاقا من الغد سأبدأ بطحن عللهم واحدا واحدا، خاصة الفتاة الشقراء، في استطاعتي أن أخلص إلى نتيجة جيّدة، وهي

الاستثمار في عقولهم التي تبدو مثمرة لولا إشراف السيد مالك شخصيا على قمعها وتبديد فائدتها.يا إلهي ،يا إلهي .

ملاحظة أثناء عودتي إلى المنزل اشتريت كتابا جيدا، سيكون الأداة التي أشغل بها نفسي السبت المقبل، فأنا على يقين تامّ أنك لن تأتي هذا السبت أيضا، يا له من حدس خسيس.

خليلك الوفيّ،و لا مليون فتاة شقراء أو حمراء يسعها تحويل اهتمامي عن شخصك الرفيع"

"قمري المتلألئ الذي يرفض أن ينزل إلي

إنني أراقب القمر من نافذة غرفة نومي، أصيخ السمع إلى دمدمات خالتي و هي تعبر الممرّ إلى الغرفة المجاورة، أخالها تتذمّر نتيجة ارتكابي مخالفة ضد النظام المنزلي، تناولت الطعام بالخارج. لن تتوقّف عن الدمدمة قبل نهاية الأسبوع على أقل تقدير. هي امرأة متزمّتة بخصوص النظام الداخلي للمنزل، وفيّة لبرامج النظام الغذائي الصحّي، يسرها أن تعرض عليك مساوئ العودة متأخّرا إلى البيت وتناول الطعام خارجا الذي يفرز عددا لا حصر له من الأمراض، تجعلك خالتي تندمين على مخالفة أي بند ليس مدرجا ضمن قوانينها، وحيث أنّها متيّمة بحب النظافة فإن استجابتها للفكرة تكاد تكون مستحيلة، بالإضافة إلى ضرورة عدم السهر لأنه يجلب الإعياء. تلك قوانين جيدة لولا أنني أعجز عن الالتزام بها، سأحاول تجنّب مضايقتها، لأنها مثلك جوهرة ينبغي تقديرها، فكّرت مليا ثم قرّرت عدم الخروج الليلة رفقة عمر لوجوب تجهيز حصة الغد من العمل خاصّة بوجود جنود فاشلين مثيرين للشلل كالذين مُنيت بهم اليوم. يشعر المرء بينهم كأنه في روضة الأطفال،ماذا تقترحين كفكرة لمقالة العدد القادم، يدور بخلدي المنفتح أن أوجّه لك رسالة شخصية، وأدوّن اسمك بحروف عريضة ولكن ذلك سيجعلني محلّ شبهة، سينتبه الجميع إلى كونك إنسانا مميّزا في حياتي، وحيث إننا لسنا بشعب فضوليّ طفيلي، لن يسألني أحد أي سؤال عنك، لذلك صرفتها، لا تبتسمي، تصبحين أجمل عن ذي قبل.

إنّك سرّ شخصيّ أمتنع عن تقاسمه مع أحد، و الآن إنني أفكّر في تقمّص دورك،دور المرشدة التي لا تصرّح بوظيفتها: أنا مهتم بتشجيع المحبطين، وحثّهم على إعادة النظر في مسألة الاستسلام ليأسهم، ما رأيك أنت، لن أملي عليك الذي سأكتبه بالغد، سأنقله إليك بعد عودتي مساءً

طابت ليلتك يا ملاكي، استمتعي بقراءة رسائلي كما كنت أفعل أنا دائما حتى لو كانت جودتها نسبية ،أعرف أنك تقرئينها "

"عزيزتي أثيل

صباحك مشرق، ذهبت هذا الصباح إلى الغابة من أجل المشي ولغاية استنشاق هواء الصباح العليل، بعد أن فقدت لياقتي البدنية بات صعبا علي استرجاعها، ليس من العسير ذلك كما ليس

سهلا أيضا. لم أبلي حسنا كما كنت آمل و استسلامي أمام الأمور الصعبة العنيدة ميزة غير واردة في قاموسي .أنا لا أخفق مطلقا في أي شيء أضع يدي عليه حتى أنت، لست متفائلا لأوان ساعة التوجّه إلى ذاك المكان الكئيب المسمّى جريدة الكفاح. أفحص بتحليل تلّفه خيوط الثقة بالنفس ،طرح الاقتراح المبجّل على صاحب السعادة، السيّد مالك منحي ،منصبه الفخم، ليس بتلك الصفة، سأنصحه وأنا أثني على مزاياه الفاتنة أن يجدّد تعاونه مع مزيد من الألعاب الإلكترونية و يختنق من الضحك في مكتبه الأخضر و يعلنني نائبا مطلقا مع جميع صلاحيات التصرّف كيفما أشاء،حتى يتسنّى لي فرض كلمتي على زمرة الفاشلين تلك.

كانت الجريدة التي تخلّت عن خدماتي بعد الحادث تحت قيادة سيّد صارم وملتزم. أنت تراهنين أن السيّد مالك لن يوافق؟ لا، يا عزيزتي ليس عندما أجلس أمامه و أعده أنني سأحوّل وكر الفشل ذاك إلى مكان محترم لائق، نسيت إخبارك أن بين المجموعة رجل غريب الأطوار، يعزل نفسه عن القطيع. يبدو مفيدا كذلك إن ما كسبت تأييده .

إن حدث و رفض السيّد مالك منحي القيادة، فأفترض أنني سأفشل في الصمود إلى نهاية الشهر. ربما أتأخّر مساءً في الكتابة لك، سأرافق عمر لزيارة مسقط رأسه، يبدو هذا الرجل متناقضا عندما تنخرط عاطفته الوفيّة في عشق الأماكن، و تبدو تلك العاطفة أطول من خطوط العرض، ربما ستوافيك رسالتي و أنت نائمة، ألن تنامي قبل قراءتها؟

خليل القائد الفذّ "

"نجمتي اللامعة في وسط السماء

مساؤك سعيد

هل جعلتك تنتظرين؟ أنت تغفرين تلقائيا أي هفوة يرتكبها هذا الرجل المخطّط المكافح .أستهل رسالتي أولا بالحديث عن وكر الفشل. كان أول ما فعلته أن قصدت مكتب السيّد مالك الوقور، و أنا كلّي ثقة و اعتداد بنفسي، و رأسي شامخ بمعنويات مرتفعة تصل إلى مدى المريخ، وجدته جالسا جلسة غريبة يمارس وفاءه الحصين للألعاب الإلكترونية التافهة على الحاسوب ثم يضحك من انتصاراته السقيمة كأنه طفل صغير، لا عجب أن تلك الجريدة تملك الكثير من الذنوب ،و مليون طواف حول الكعبة لا يغسلها. تعدّ من أفشل الجرائد على الإطلاق.

في الماضي لو أنهم عرضوا علي هذا العمل و لو للمزحة لقتلت صاحب العرض أولا قبل أن أشرح له أن عرضه يسيء إلى كرامتي، عناوين غبيّة من صنف العصر الحجريّ و مقالات مهلهلة تجيد استفزاز عاطفة الرضّع، لا أدرك سبب بقائها تعمل إلى الآن؟ إنها نوع من أنواع الاستثمار

الجالب للخسائر، هل سمعت عن إنسان يستثمر أمواله ليخسرها عامدا متعمدا،حتى السيدة سميحة لم تفعلها

كانوا يضعون جهودهم تحت تصرّف أحداث تافهة كقطّة تحاول الانتحار من نافذة ،وحريق مهوّل في بيت مهجور وحكاية حليب التيس الشافي من السرطان ثم حيوان ناطق يتكلّم الى البشر، لأكون منصفا، لقد مارسوا الغباء بكل احترافية ، وإن ما تطرقنا إلى سبر الآراء فإنه مريع بدرجة كارثة إنسانية، تصوّري أن يسألوا رجلا شارف على القبر إن ما ندم على الزواج أو لا، أو عجوزا بنصف ذاكرة إن كانت تحبّذ رجلا وسيما أو ذكيا .

صارحته بعرضي فافترّ فمه مثل سمكة خارج الماء من وقع المفاجأة، ثم أطرق رأسه مفكرا مغمغما ، دون أن يتفوّه ببنت شفة، بينما وجدت ضالّتي أنا في صمته فاستثمرت فيه كلاما متدفّقا لأشرح له ضرورة ضبط سلوك هؤلاء التعساء في الخارج، صحيح أن في ذلك تلميح صريح و تقريبا وقح لعدم كفاءته في إدارة العمل،لكن ليس باليد حيلة، هي الحقيقة التي لا تخفى على أحد 'هو مسؤول فاشل'،و المسؤول الفاشل يصنع قطيعا من العمّال الفاشلين المهملين.

حسنا رفع رأسه بعد أن أنهيت كلامي ممعنا النظر في وجهي، تُطبق على سحنته تعابير غامضة متفاعلة بحيرة مع اقتراح لم يتوّقعه، ثم قال بصوت مطمئن يخالطه الحماس: حسنا يا خليل، إنني أثق في مقدرتك على تهذيبهم، افعل ما تراه مناسبا و إن شئت يمكنك تسريح من لا تجده ذا نفع، فأجبته متنكّرا لقضية الطرد: لن نطرد أحدا، هم جيّدون جميعا، فقط تعوزهم الصرامة و بعض التوجيه،ألم أخبرك أن بوسعي إقناع أي إنسان، أنا مقنع يا عزيزتي، لا تنسي هذا أبدا.

تبعته بخطى واثقة إلى القاعة المضاءة، ووقف منتصبا مقدّما لهم المسؤول الجديد ،محذّرا إياهم من مخالفة الأوامر أو التمرّد لأن الباب مشرّع من الآن لأي نيّة تذمّر.

كان على وجوههم اقتناع طافح و استحسان جلي بعث في نفسه بعض الغيرة المستورة، طالعت وجهه المتشنّج؛ فأدركت أنه مستاءٌ من ردّة فعلهم، كان كم يتوقّع استهجانهم للقرار الجديد دفاعا منهم عن حبّهم الشديد له.

أكثر المستحسنين هنّ الفتيات الثلاث ،و أقلّهم ذاك الرجل المنعزل المسمّى فريد،و حيث لا يسع المرء تحليل تعابير وجهه؛ فقد توقّعت عدم ترحيبه بفكرة زعامتي.

هكذا يا أثيل تُوّجت اليوم ملك الفاشلين و الفاشلات في وكر الإخفاق بتاج من الفوضى. وحيث أنني مررت بتجارب سابقة أسدت إلي بثمارها فقد انتهجت سياسة اللين و المرونة مع استفزاز بسيط لمشاعر الإخلاص فيهم، أجل إنهم فاشلون غير أنه ليس من الصعب تلمّسه في

هيئتهم الخامدة كالرماد و رفست همّتهم المثبّطة بقدم حريصة واستنهضت عزائمهم الشبيهة بعزيمة أرملة مفجوعة في أيام الحداد الأولى. و فجأة عادت بي الذاكرة إلى خطاب جارتك مانديلا الثائر عندما جرّتك إلى ذاك المركز مقتبسا بعض الفائدة: حسنا أيها الجنود،إننا كما ترون نستحق لقب أفشل منظّمة على وجه الأرض، هذا إن لم نكن الفشل بمعناه الحرفي، كما أننا غير مصنّفين أبدا ضمن قائمة الجرائد. لسنا أكثر من أوراق بيضاء مملوءة بخرابيش لا تجذب حتى الدجاج، هل تشاركونني الرأي في ضرورة الانتقال خطوة إلى الأمام، و إلا غدونا ماضيا منسيا، وما هي إلا دقائق حتى دبّ الحماس إلى قلوبهم، فعلا ضجيج موافقتهم في لغط هائل وأردفت: حسنا لنبدأ بالمكاتب تبدو كالمقابر، ولا ينقصها إلا شواهد و أزلام بأسمائنا، فراس كفّ عن صنع الطائرات إنك توترني، وأنت يا آنسة ليس وقت مشاهدة وجهك في المرآة، سيّد فريد هلا تعيرني انتباهك، وأنتِ ما اسمك، آنسة ملك أرجوك أن تشرفي على تنسيق الواجهة، إنها تشبه واجهة البيوت المهجورة، التي تسكنها الأرواح، و قررت مشاركتهم في تحضير العدد الأسبوعي.

هذا باختصار أحداث اليوم،يوم مليء بالعمل، أصّر على بلوغ القمّة ولا شيء يرضيني إلا القمّة، أنقطع عند هذه النقطة لأنني بحاجة إلى النوم، بوسعك اقتراح أي فكرة تودّين، أنت فخورة بي أليس كذلك؟أعدك أن فخرك سيزدهر في الأسابيع القادمة، تصبحين على خير .

خليل "

" عزيزتي أثيل

أودعت صديقي عمر المطار ليلة أمس ،و كلي أسف لفراقه، ثم عدت فورا إلى البيت، لم يطل مكوثه معنا بسبب التزامه بالعودة إلى عمله، كانت فترة وجوده معنا وجيزة مرت بسرعة البرق،هناك أمور أتمنى لو أستطيع أن أحدثك عنها و لكنها تقلب مواجعي من ضمنها سنتي المعزولة و عمليتي الصعبة ،ربما ذات يوم ،عندما أقابلك ،تحتاج هذه الأشياء الحساسة إلى أن تقال و تسمع ،لا لأن تكتب و تقرأ ،لأن الكتابة لا تعبر كفاية.

لأضع في علمك عدم مقدرتي على النوم جيدا الليلة الفارطة، استيقظت مضطربا عند الثانية صباحا ومنذ تلك الساعة لم أتذوّق طعم النوم، هناك شيء ما يقلقني مع عجزي عن تحديده، و كنت على وشك أن أكتب إليك جريدة من الشكوى القاتمة لكنني غيّرت رأيي، أكاد أجزم أن السبب هو أنت، لو أنك تبادلينني الرسائل لكنت لفظت هذا الكدر الذي يغلّف عقلي، على أنك لا تزيدين عن احتراف الصمت. أنا لاأستشفّ منك إلا التجاهل،ليس لدي خيارات كثيرة إلا الصبر ،و لما كان لدي خيار واحد فأنا أتقبله على مضض ، هل كنت تعرفين من قبل عن عدم استحساني لكتابة الرسائل، وها أنت ببرودتك تجبرينني على كتابة أكبر عدد ممكن منها، وكلّما تأخّرت في

القدوم إلى رؤيتي سأُجبر على كتابة المزيد، أشعر كما لو أنني تلميذ معاقب بكتابة الكلمة ذاتها ألف مرة لأنه أخطأ في نطقها، ليسقط التجاهل. ليسقط التجاهل مليون مرّة.

أجيبي على سؤالي كي أستعدّ نفسيا، هل سأكتب الرسائل إلى الأبد؟ ذات يوم عندما ينفذ صبري وتُسدّ كل المنافذ في وجهي، سأطرق كل الأبواب بحثا عنك، عندها سأخبرهم أي الرائعات المميزات أنت، و إنني مجنون لأعثر عليك .يتم حينئذ تصنيفي كمجنون خطير طليق على الأمن العام، و كذلك سيتم طردي من أمام بيوتهم بزمجرة متجهّمة . أترين كم أتحرّق شوقا للقائك !! أرجوك لا تخذلي خليلك اليائس هذا السبت، و تعالي لمقابلته، حسنا سأنصرف مبكرا إلى العمل، أودعت أوامر صارمة لطاقم الخذلان ذاك بضرورة الاجتماع والجدال قبل البدء بالعمل، يتعيّن علي أن أغرس فيهم بعض المسؤولية، إن استئصال عاداتهم السيئة من رؤوسهم أشبه باستئصال ورم من مكان حسّاس في الرأس

خليلك المثابر دوما

ملاحظة،منذ قليل وردني نبأ وفاة رجل الأعمال الشهير سامي، لقد كان رأسماليا جشعا ولصا مقيتا لهذا يتعذّر علي التظاهر ببعض الحزن كلما تذكّرت أعماله الشنيعة في حقّ العمال، أتفكّرين بما أفكّر؟ أتمنى أن لا تكون جنازته مهيبة كجنازة الاستغلالي رجل الأعمال فرحات. إن هؤلاء العمال العاطفيين يصبحون أغبياء، عندما تطفو عواطفهم الساذجة إلى السطح.

" عزيزتي أثيل

لست أشعر إلا بالعصبيّة ،وأواجه مشكلة عويصة في كتم غضبي،و لأني استطعت خنق ضحكتي مرة ،فلم أعد أقدر على ذلك ،في وقت ما وددت كسر بعض الأغراض العزيزة على قلب خالتي للتهدئة من روعي. ألم تتحقّق توقعاتي؟، إن تغيير رؤوس الأغبياء أصعب من إقناع الأسد بأكل العشب، ماذا يشبه هذا هوسا دينيا أو عواطف خرقاء؟ هو أسوأ باعتقادي. أحسبني الآن، سأقضم جلد يدي من هول الغضب.

عدد الحضور في جنازتك لا يفسّر أنك كنت إنسانا نبيلا،فحتى الأوغاد يبكيهم الأغبياء عندما يرحلون بالآلاف، في الواقع إن الأغبياء يبكون على أي أحد لا يستحق بتأثير ضالّ من عواطفهم. لقد كان رجلا منحطّا سافلا وانظري إلى الحشد الذي ركض في الجنازة و بكى حتى تورّمت العيون، هؤلاء العمال الذين استغلهم وأهانهم والذين قاموا بإضرابات من أجل تحصيل حقوقهم المغتصبة. أليس مضحكا أن تبكي الضحيّة جلّادها باسم الموت؟ أليس غباءً عاطفيا منحرفا، ثم تطالب أصوات صفيقة بذكر محاسنه، لم أعرف له حسنة واحدة، كلها سيئات وبوسعي عدّها إلى ما نهاية الدنيا دون أن أنتهي من إلقاء نصفها فقط.

لقد عرض صانع الطائرات الورقية الأخرق، ووجهه متقلّص من الألم أن ندوّن تعزية بمناسبة وفاته في الصفحة الثانية شاخرا بصوته: لقد مات وهو بين يدي الله الآن، لنحذوا حذو باقي الجرائد ونقدّم تعزية على الأقل. كدت أخنقه، وافترضت تجنبا لذلك أنه غبي شأنه كعمّال الرجل السيء، لن أسمح بذلك، فأنا لست حزينا بكل صراحة،و لم أعتد أسلوب النفاق ذاك ،ثم لماذا تُقام له جنازة كبيرة مثل تلك،كأنه شهيد مات في سبيل قضيّة وطنيّة. اعذريني يا عزيزتي لأنني أُزعجك بهذه المسائل، فما من أحد أشاركه ضيقي، أنا في منتهى الامتعاض. إن ما سألتك بالمقابل كيف كان يومك فلن تحلّ علي البركات و أتلقّى منك جوابا،و لهذا سأقوم الصيغة إلى: أتمنى أنك نعمت بيوم طيّب.

كان الطقس معتدل الحرارة، و الشمس تحظى بدلال ناعم و يبدو كما لو أن الصيف يغزو أراضي الخريف،أفترض أن ذلك كله يرضي نزعتك الوقورة لمقت هذا المسكين.

أما إن كان يهمك أن تستوضحي عن يومي، ليس أحسن من سابقه. تفكير تلك الزمرة عقبة كؤود في وجه كسر بعض الإخفاق، لازالت رايته مرفوعة مرفرفة كعلم الاستسلام،سأكرّس المزيد من المجهودات،و يصدر العدد هذا الخميس و كلي أمل في نيل استحسانك له . أنا مجبر على الخروج بعد قليل للمزيد من الاجتماعات البليدة مع الوقور مالك وحفنته العاطلة، آمل أن لا يزعجك ذلك؟!، لن تنضّم إلينا الفتيات،ليس من الصواب أن تنضّم فتاة إلى اجتماع ينتهي مع منتصف الليل، اسمحي لي أن استعّد

خليل"

ملاحظة أشعر بالإرهاق خاصة أنني لم أتمكّن من النوم ليلة أمس، أتكتبين لي رسالة تمنّ علي ببعض الطاقة؟، أنت موهوبة ذكيّة في رفع المعنويات،هل تهجرين تجاهلي لنصف ساعة فقط يا آنستي؟لن ينتهي العالم ، أبتسم مثل أحمق عندما أفكّر أنني سأتلقّى رسالة عند عودتي

" أميرتي الجميلة أثيل

التي تجعلني أشتاق إليها،و أتعلّق بها أكثر يوما بعد يوما

إن مشهد غروب الشمس بديع ساحر، ما أجمل حمرة الغسق وهي تغلّف الأفق البعيد؟ كانت رائحة البحر تغازل منخري و تريحني وأنا أراقبه برفقة السيّد فريد،ساورني الشعور بالإثم لعلمي أنك و البحر أعداء قدامى، وأعتقد كذلك أنك رفعت العقوبات المستحّقة عنه بعد أن عقدت صفقة للانخراط في صفوف المكافحين ضد الخوف.

إننا نشكل أنا و الرجل المنعزل ثنائيا واعدا في العمل، و ما ألبث أن أضع كل أفكاري في مكان بعيد عن متناول يده، يحبّ تقليد النقاد السلبيين على نحو مثبط للعزيمة .جلسنا نتعاطى حديثا

شيّقا عن العدد الذي صدر اليوم، آمل أنك ابتعت واحدا و قرأته، هو إنجاز جماعيّ وضعنا فيه كل مواهبنا المحمودة، مع الاستغناء عن مواهب السيّد المرموق مالك، فهو الوحيد الذي لا يشاركنا العمل بفتور صريح . أعتقد أن العدد قد نال استحسان الكثيرين، أجد صعوبة في تصديق هذا النجاح من أول عدد، تبادلت بعض الرسائل أيضا مع جماعتي المبتهجة، و نلت الحصة الأوفر من الإطراء لكوني القائد المغوار، تقبلت الأمر بفرحة غير مكتملة فأنت لم تهنئيني بهذا الإنجاز، هل قرأت مقالتي؟ يعني لي الكثير إن عرفت أنك قرأتها أنت بالذات

سأرسلها في رسالة منفصلة لتقرئيها ، إن لم تواتك الفرصة لقراءتها، لقد فقدت كل أمل في تلقّي أي تهنئة من طرفك و لذلك سأغضّ الطرف عن طريقتك المنهجية في جعل قلبي يختنق ألما، إنها ليلة الخميس وغدا هو الجمعة،اليوم الطويل،فالساعة الواحدة بها ستّون يوما، وبعده سيأتي دور السبت، أجل سأتردّد على تلك الحديقة للمرة الثانية، أمامي مشوار طويل للانتظار، ربما طوال حياتي،هل تؤكّدين؟

خليلك الحزين جدا لأنك لا تعيرينه أي رعاية إنسانية"

"عزيزتي أثيل

سيزعجني جدا. أن أنقل إليك تدهور نظام ذاكرتي، إنني أنسى هذه الأيام بصفة متكرّرة تبعث على القلق، فمثلا هذا الصباح كنت أبحث عن أوراق خاصة بالعمل، لقد قلبت أنا وخالتي البيت وفتّشنا كل زاوية و خزانة، أجل من المؤسف أن أقول أنني قضيت كل الصباح في عملية تنقيب عن غرض ضائع. كُللت جهودنا بالإخفاق، وهكذا تّوتّرت أعصابي واستعر الغضب في رأسي، فأنا أغضب بسرعة لأي سبب تافه، و جهّزت اتّهامات ضمنية مرحة للسيّدة التي تعيش رفقتي، اتّهمتها أنها من أضاعت الأوراق فهي بالطبع تتفوّق علي في السن، كما أنها معنية أكثر بمسألة ضياع الذاكرة هذه. لك أن تتخيّلي وجهها عندما تَذكَّرْتُ على حين غرة أنني تركت الأوراق بعهدة الآنسة ملك لتراجع الأخطاء، لقد عقدت ذراعيها إلى صدرها زاوية ما بين عينيها متجهّمة الوجه: و الآن يا خليل من يعاني من خلل في الذاكرة أنا أو أنت، وعندئذ عبثت بوجهي قليلا متأسّفا لأن الأعمال انهالت على كاهلي، ليس ذلك بالعذر المقنع، أفترض أن ذاكرتي تشارك في تسريع تقدّمي في السنّ ،بينما لا أزال شابا يافعا. و إنها إحدى علامات الشيخوخة المبكّرة وما لبث أن احتلّني شعور مرعب، ماذا إن اختلّ ميزان الذاكرة قبل أن أراك. إن ذلك أقسى ما قد أتعرّض له . لا يهمني نسيان أي أحد حتى نفسي، ولكن نسيانك أنت فذلك ما يقذف بي في أهوال الحزن، هيا يا أثيل إنك تبالغين يا عزيزتي، تعالي بالغد، قلّة من الناس يصمدون أمام هذا التصميم،هل أطمع في حضورك غدا، أتمنى ذلك؟

المخلص خليل "

"عصفورتي المرفرفة

صباحك أجمل من الياسمين و أطرب من الأهازيج، أتوجّه الآن إلى مدينتك و سأجلس بتلك الحديقة، يملأني قانون الجذب أملا بحضورك لرؤيتي، لقد اتّفق وحرّرت قرارا يبيح الاعتماد عليه، وردتني رسالة ذهنية منك، تؤكّد لي قدومك، سأكون متلهّفا لمقابلتك

أبعث لك بأجمل التحيات ".

"عزيزتي أثيل

مرة أخرى رجعت أجرّ أذيال الخيبة،اه كم تأمّلت يا أثيل، و ترقّبت كما هو شأني، ترقّبت أن تقفي أمامي بثوب أزرق طويل و شعر أسود متموّج وعينين سوداوين تشعّان بحماسك المعهود، ثم تقدّمين نفسك (أنا أثيل)، لكم تأثّرت و دبّ الألم إلى أوصالي، ثم غار جذلي في موجة من الكآبة، ليس من شيء أصعب من الانتظار، أتراك تنتقمين لانتظارك الطويل، لم أكن أجيبك أنا أيضا رغم أنني قرأت كل حرف كتبته، و أعي أنك تقرئين كل حرف أكتبه أنا. أما لماذا لا تردّين جوابا، فأنا عاجز عن الفهم.

عندما حلّت الساعة الثانية ، انقطع حبل آمالي و تبيّنت أن قدومك أمر مستحيل، على أنني عاهدت نفسي على انتظارك كما سبق و فعلت أنت، أنتظرك إلى الأبد يا أثيل، لم أبرح المكان إلى أن غابت الشمس، لماذا تفعلين هذا بي؟ألست تهتمّين لأمري؟على الأقل اكتبي لي رسالة طالما لا يسعك المجيء، أرفض تماما تصديق أنك تستلذّين منظري وأنا أنتظرك بشوق، أنت تؤلمينني يا فتاتي القاسية، إلهي كم تفعلين ،يبدو لي أنه ينبغي علي التسليم بالأمر الواقع، الانتظار في ذاك المكان دون رجاء، أجل هذا ما أنوي فعله، سأعتنق الفكرة و أرتاح .

لم يحدث شيء ذو أهمية،جلست أقرأ كتابا و من حين لآخر أرفع رأسي لأتفحّص الوجوه، كما أن ذلك الحارس الفظّ لا يتورع عن إبداء ذات الملاحظات القميئة والإغراق في ضحك طويل،ذات سبت ستتقاذفه الظنون ويشتبه في كوني إرهابيا يسعى لتفجير الحديقة، مما يعني أن سلامته في خطر، لقد قرأت وجهه عندما هممت بالمغادرة، و تبليغ السلطات أمر مفروغ منه، أثيل لقد عقدت العزم على عدم الضغط عليك، سأنتظرك فقط في الحديقة إلى الأبد؛ كي لا تنسي، هذه المرة الأخيرة التي أذكّرك فيها بالأمر

خليل خائب الأمل "

" زهرتي الجميلة أثيل

لقد تساقطت الأمطار بغزارة كما هو متوقّع، مفاجأة سارّة في أول يوم من تشرين الأول، كان أيلول حارّا خانقا كأيام أغسطس، إنها نعمة عظيمة ينبغي أن تُقابل بالشكر الجزيل لعطاء الله غير المحدود، يرسل الشتاء رسائل باردة، يبلّغنا عزمه على أنه سيكون قارسا عنيفا هذه السنة، وعلى الأرجح ستدلّل الثلوج البيضاء الأرض العطشى، لن تدأب شمسك على الشروق كما هو معتاد، ستتوارى الآن خجلة وراء غيوم قاتمة، أدرك شعورك ببعض الكآبة؛ لأن شمسك لن تسطع في كبد السماء كما هي العادة، لا تشعري بالحزن يا حلوتي، فأنت في حدّ ذاتك شمس مشرقة.

كما اتّفق و أعلمتك، أنا لوحدي هذه الأيام، فخالتي رفيداء ذهبت لزيارة أحد أقاربها المرضى بالجنوب ولن تعود قبل أسبوع، لست أفتقدها فحسب، فحتى حياتي غدت أقلّ انتظاما و أكثر فوضوية منذ مغادرتها البيت، لا أعتزم إرسال أي رسالة أستفزّ من خلالها عاطفتها الحنونة وأحثّها على العودة بوقت مبكّر، فتلك أنانية بغيضة من طرفي، يحقّ لها التجوّل بين أقربائها، و تمضية بعض الوقت السارّ برفقتهم، منذ انتقالها للعيش معي انخفض معدّل زياراتها، بل أكاد أقول أنه تلاشى تماما، لو أنني لم أبذل مجهودا جبارا في سبيل إقناعها بالذهاب لكانت الآن تعاتبني لنسياني النافذة مفتوحة بالليلة الفائتة، و لأشارت بضيق إلى الأورق المبعثرة بكل الغرفة، ها، أُمسي مهملا عندما أترك بدون رقابة شأني كفريق العمل، فكلّما غبت عنهم قليلا شرعوا في أعمالهم الصبيانية وإهمالهم المقصود . أجل، أنا مستاءٌ بعض الشيء و أشعر بالوحدة، يغدو البيت موحشا بدون أهله، لكن وجودك يمنحني قوّة وعزاءً، أنت يا شمس حياتي التي لا تغرب، أنت تشرقين بداخلي، والحمد لله إن تلك الجريدة تبدي بعض التطوّر والازدهار وإلا لشعرت بفراغ قاتل، ذهب عن بالي إخبارك باستقالة أحد موظّفينا الأعزّاء منذ أسبوع، مبديا موقفا قانعا عن تخصيصي جلّ الصفحات لانتقاد قرارات الحكومة الطائشة بخصوص رفع الأسعار مجددا، يصعب علي الاحتفاظ بأعصابي باردة و أنا ألاحظ الطريقة المستهترة التي تتلاعب بها بمستقبلنا جميعا، سيلتحق رفيقنا المستقيل بعمل مناسب خارج البلاد، وظّفنا بدله فتاة تدعى أسيل، على نفس وزن اسمك، فتاة كثيرة الحركة و الثرثرة، لكنها حيوية و نشيطة و تنفّذ الأعمال بخفّة، أكثر ممّا هو متوقّع من فتاة مثلها .

السيّد مالك يخطّط للذهاب في رحلة لمدة سبعة أيام، لن نستشعر غيابه فنحن بالكاد نشعر بوجوده، بينما أنا أسعى بكل ما أستطيع لرفع مستوى تلك الجريدة، يحاول فريد أن يدعمني كذلك، يعتبر عمليّا الشخص الوحيد الذي ألقي بالأعمال عليه دون أن يتجاوب بسحنة متذمّرة، يا له من رجل شجاع مسؤول ملتزم، مع أن أفراد الفريق يُبقون استياءهم بعيدا عن متناول مزاجي المعكّر هذه الأيام.

حسنا يا أميرتي، سأقصد المحلّ القريب لابتياع بعض الأغراض الضرورية، أفكّر في تحضير عشاء سريع بمواهب مفجعة في الطبخ، أعترف بأن البيت بدون نساء بيت فاشل محكوم عليه بالفوضى والجوع والضجر. إن الأطباق التي أعدّها تليق وجبة راقية للكلاب وليس البشر، نسيت وضع الملح في البطاطا،كما حطّمت عددا لا بأس به من الأطباق الزجاجية، بدلا عن السكر وضعت الملح في القهوة، المطبخ ينضح برائحة مطحون القرفة المبعثرة على الأرض، والتي عجزت عن تنظيفها، أؤجل الأمر إلى الغد. الصحون مكوّمة في الحوض، ستغسل في السنة القادمة، الغبار في طبقات سميكة على كل الأثاث حتى العناكب شاركتني الإقامة ،و نسجت بيوتا في كل الزوايا ،وتهدّد يداي العصبيّتان بتسجيل مزيد من الحوادث التخريبية قبل أن تفكر خالتي في العودة. أضحيت وفيا لشعار: كيف تخرّب العشّ المنزلي الآمن في عشرة أيام، أبدعت في جعل المطبخ مكانا منفرا بكل المقاييس وأخشى أن علامة الصفر لن تفيد كثيرا في التعبير عن الوضع الكارثي، أعترف بفشلي في إدارة شؤون المنزل، كل الرجال مخلوقات فاشلة في إدارة شؤون البيت؛ فلا داعي للسخرية مني

خليل مثير الفوضى ".

" فراشتي الملونة أثيل

اليوم هو العاشر من تشرين الأول، سأذكر هذا التاريخ ما حييت و أحيي ذكراه كل سنة، اكتشفت على سبيل الصدفة أن لي عمّا يعيش خارج البلاد، لم أعلم بوجوده مسبقا، وضّحت لك منذ يومين أن خالتي رفيداء تخفي عني أمرا، لكنني ملحّ جدا عندما أقرّر نيل شيء أو استدراج لسان خارج فمه، لك أن تتخيّلي هول المفاجأة، لا يوجد سر يبقى مخبأ إلى الأبد، كان عمي هذا على خلاف عميق مع جدي بسبب مسألة تتعلق بتصرفاته، نشب بينهما شجار ثم انفصلا نهائيا وأحسبه منبوذ العائلة بسبب شذوذ أفعاله، لم يسبق أن حدّثني والدي أو عمتي بخصوصه، سأجري تحرياتي مثل مفوضي الشرطة المحترفين ،فأمام تلك الكتومة لا يجدي إلا التلوّي في الأساليب مع توظيف بعض المجاملات الاجتماعية الممتازة،و إبداء إعجابي بتحليلاتها السياسية العبقرية سيكون تمهيدا لذلك ، إني دمث سلس ذكي ،وتعوزني فضيلة إبقاء أنفي في مكانه، دائما تؤتي أساليب خليل أكلها، ضعي هذا حلقة في أذنك يا أثيل، أجزم أن أمي لم تكن تعرف بوجوده كذلك، مالذي أنوي فعله؟ إني أشتمّ مثل كلاب الصيد لأظفر ببعض المعلومات.و لا توجد إلا عمتي الناعمة لتخلق لي طريقا إليه، أحبّ التمرّد على قوانين العائلة المتزمتة، لا شك أن جدي كان رجلا صارما حازما ذا عينين نفاذتين مخيفتين ولحية طويلة متدلية إلى صدره، و عصا ثخينة يلقي بها الأوامر صامتا، أليس هذا مثيرا؟زيارة مفاجئة بعد ظهر الغد لبئر الأسرار الصامتة ، تفضي إلى

حوارات من النوع التي أحب، يلي ذلك إقحام صادم لحقيقة ميتة وكنتيجة حتمية استنطاق ماهر، و ذهول من طرفها، وقبل أن تحاول الإنكار ستجد نفسها في جوف رزم صغيرة مغلّفة من الأدلّة والبراهين. لو لم أكن صحفيا، من المؤكّد أن محققي الجرائم كانوا سيسعدون بعضويتي معهم

المحقق الماهر خليل "

"حسنائي العذبة أثيل

اتّضح أن الخالة العزيزة متأثرة غاية التأثّر ببعض الأفلام العاطفية أكثر مما يحتمل أن أخمن، كما اتّضح أن عقلها بدأ بفقدان خلاياه السليمة، لقد أوقعتني في فخ سخيف و صنعت مني نكتة أغرقت عمتي في زوبعة من الضحك، لم يكن منبوذ العائلة عمي؛ بل ابن عم والدي، و لأن عمتي تعتبرها قصة قليلة الأهمية، لم تكلّف نفسها مشقّة طرح التفاصيل، كان ابن عم الوالد إنسانا طائشا بارعا في خلق المشاكل ومصائبه اللاأخلاقية زادت من حظوظه في النفي، فقرّر جدي صاحب الكلمة العليا و القرارات النافذة سلخ اسمه من الدفتر. وأشارت عمتي أنه يعيش في بلاد أخرى بقارة أخرى ، إلا أنها لا تعرف عنه أي شيء تضيفه إلى رصيدي الفضولي، أنا مهتم بالتواصل معه، سأحاول قدر المستطاع إيجاد طرق تؤدي إليه،فهو قريبي على أية حال، ونحمل نفس الدم.

ثم دعتني بلطف متزلف لتناول العشاء برفقة عائلتها ،ولأنني حاولت التخلّص من هذه الورطة أقصد الدعوة ؛بدوت فظا نزق الطباع، لقد بقيت وعدت الآن بوقت متأخّر، على الأقل أبعدتني تلك الزيارة عن جو العمل المضجر ساعة ،و عند عتبة الباب ، زجّت خالتي الطريفة بعض الملاحظات حول النوافذ المفتوحة ليلا و عدم الانتظام في وجبات صحيّة محدّدة و إرهاق النفس في العمل دون مراعاة للترفيه أو التسلية، ليس بوسعها الصمود أمام إلهامها النظامي لوقت طويل . إن العمل يقضي على كل فرصة لي أمام المثابرة على الوجبات أو الانتظام في العودة إلى البيت، أحيانا يمرّ الوقت دون أن أنتبه، وما إن أتفقّد الساعة حتى أجد أن ضوء الفجر سينسل قريبا إلى الحجرة.

لو أنك تعتنين بي قليلا يا عزيزتي؛ لما أهملت نفسي إلى هذا الحد، أتساءل دائما ماذا تفعل أثيل في هذا الوقت؟ كيف كان يومها؟ كيف تشعر الآن؟هل تفكّر بي مثلما أفكّر بها أنا، هل تطلقين علي صفة المغرور إذا ما أجبت، بنعم؟ وفي بعض فسحات الفراغ، تغمرني الحيرة ويبرز الشطر الثاني من النص الفلسفي، لو أنها تهتم لأمري، أكانت تتركني في هذا الوضع الذي لا أحسد عليه!!، لو أنها تبالي بمصلحتي أتتركني لمطر السبت المنهمر حتى أصبت بالزكام و توعّكت صحتي أو تحت الحرّ القائظ حتى يتصدّع رأسي!! لو أنها تكنّ لي عاطفة من النوع الذي أظنّ، أكانت تقذف بي في دهاليز الحيرة و الضياع؟(لو أن)هذه ليس لها أجوبة ظاهرة تنهي ضياعي، ولهذا أنا لا أنفك

أغادر نفق الحيرة والخوف، إنني أخاف يا أثيل من أشياء لا أستطيع تفسيرها، كونك لا ترسلين أي إشارة، إنك لا تفعلين أي شيء من شأنه إسكات الأصوات التي تصخب وتضجّ، على أنني لن أستسلم أبدا، و إن كان عذابي هذا يرضيك فأنا راض به أيضا، ليلتك طيّبة يا نوري الساطع

خليل "

"عزيزتي أثيل

كانت زيارة اليوم إلى مدينتك مثيرة نوعا ما، تختلف عن سابقاتها، لقد فتحوا مركزا تجاريا جديدا قريبا من الحديقة، مكانا ضخما ذا واجهات زجاجية، لم أتحرّك خطوة واحدة خشية أن تأتي فلا تعثري علي في مكاني، مرابط كجندي ملتزم، غير أنني أدّيت حقّ متعة بديلة، راقبت الجمهور المتدافع بحماس، معظمه سيّدات أنيقات مماحكات يقبضن بعنف على أياد صغيرة، حتى إن ثلاث أياد صغيرة تتشارك يدا كبيرة ناعمة واحدة، وحتى إن جسدا صغيرا يمكن حشره بين ساق وأخرى لضمان سلامته. إلهي ،ما أعظم النساء، متعددات الوظائف،ذكيات في إيجاد الحلول التي تناسب العقلية التسوقية، أشكّ أن المرأة يمكن أن تمرّر خبر فتح محلّ دون أن تؤدي دورا فعالًا في تدشينه، ثم التفاخر بين صديقاتها أنّها حضرت المناسبة السعيدة لطرح الحارس الهزيل أرضا إثر اندفاع نسويّ فاضح لاقتناء الأغراض العزيزة على قلوبهن، و ما هذه الأغراض !!أوان ، يمتلكن منها جبالا في البيوت لم تعد تجد متسعا، و أصبح كسرها لخفض عددها ضرورة ملحّة أو قضية مصيرية، قطعا للزينة انتهى مفعول سحر شقيقاتها في المذهب عندما شخصت عين مذهولة تتعلّق بأي غرض تقع عليه إلى غرض معروض في الواجهة اللامعة، يا لحظ الرجل التعس!! أتساءل دائما لماذا تحبّ النساء التسوّق أكثر من حبّهن لأي مسألة أخرى؟ إنهن ينفقن بضمير نائم راتب المسكين المغلوب على أمره لأجل فستان بنفسجي فاتح مطرّز الكمين ثم تملّ منه أسرع مما يحتمله قلبه المخرّم، و سرعان ما توجّه نظرها إلى فستان أحمر ينتظره نفس الدور من تقمص الملل، كما تعرفين يا عزيزتي الصامتة، إنّ تحديث الخزانة يتوقّف عليه مصير جيلين أو ثلاث، أقصد شتات الأسرة المتماسكة.

بلغ مسامعي أن الافتتاح كان من المفروض أن يكون في الأول من تشرين الثاني، ونظرا لبعض العقبات المتعارف عليها كمزاج العمدة المتذبذب ، أو تعصّبه من تصرّف ابنه الصغير الحاصل على علامة رديئة، أو ربما انشغاله بقضية خاصة تصنف مقاما أولا، قرّروا التأجيل إلى اليوم أي الحادي عشر من الشهر، كل شيء يبقى قيد الاعتقال إلى أن يقرّر المسؤول تحريره. استمرت الحشود القادمة في نجدة المركز من خطر تركه وحيدا ،تتوافد تباعا، بعض النساء اللاتي يرتدين فساتين مبهرجة ملفتة لم يغادرن إلا عند غروب الشمس، ليس لأن الواجب الأسري يحتّم عليها

الانصراف، فاليوم لم يكف حتى لاكتشاف المدخل. لا، بل لأن المركز سيغلق عند الساعة الخامسة في يومه الأول، كل واحدة منهن مثقلة يداها بأكياس تقضي على أزمة اللباس في الهند، تلتفت يمينا و يسار لتحسب جراءها المتعثّرين ثم تصيح بصوت فظّ جهوري: أيها الأحمق الصغير تكاد تسقطني، تنام عندما نصل إلى البيت، إن ما استرسلت في الشكوى فأقسم أني سأصفعك حتى تتساقط أسنانك، كفّ عن البكاء لقد أكلت منذ قليل، أتراك تعاني من السكري؟ انتبهي لخطواتك العرضية أيتها الخنفساء، أنت تضعين قدمك على طرف فستاني،لا تظنّي أنني نسيت الطريقة التي أحرجتني بها أمام السيّدة تالا،ماذا ستقول عني لم أحسن تأديبك، أين شقيقك الصغير.لقد ضيعناه.

إذا لم تتطوّع الأمّ الغالية لنعتك بتلك الصفات الشاذة فمن تراه يقوم بالواجب الوطني.تذكرت أمي يا عزيزتي و شعرت بالحنين لها .

لم أكن لأميل لك على هذا النحو المشبوب، إلا لعلمي بفطرتي الناضجة أنك مختلفة عن تلك العصابة الخطيرة.

في طريقي إلى المنزل و بينما شرعت الأمطار في الهطول منيت بظرف غير مسبوق بل غير مناسب، لقد تعطّل إطار عجلة سيارة الأجرة ، ساعدنا بعض الرجال الطيبين، يبدو أن حياتي ستستمر تحت تصرّف زخات المطر، بالكاد أخلص نفسي من الاستجواب الذي يحلّ علي كل سبت: أين تذهب كل سبت يا خليل، إنك تعود مبللا، ألا تتحلّى ببعض المسؤولية؟،لا، لم تدعني خنفساء،ولم أتعرّض للتهديد بالضرب و الصفع، الحمد لله شأني كهؤلاء التعساء الصغار ضحايا العشق النسوي للثياب، سآوي الآن إلى فراشي، أأفشي لك سرا؟ أشتاق لك ،رغم أنك لا تبارحين خيالي مطلقا تصبحين على خير خليل "

"عزيزتي أثيل

ذلك الشيء الذي تمتنع تجريبه،من الممكن أن يكون أفضل بكثير من الشيء الذي تلتصق به كأنك غراء، جرّب دائما أمورا جديدة، أقول أشياء، لا أشخاص كيلا يتحمّس بعض الرجال لتغيير زوجاتهم، أحاول تجميل هذه الجملة لأصنع منها مقالة ابداعية استثنائية المحتوى مع وضع لمسات مقنعة لعدد العشرين من الشهر، سيصدر بعد يومين، لطالما أطريت موهبتك في الإنشاء، وطالما اعتبرت أن عالم الكتابة والتأليف يخسر موهبة عظيمة لعدم انخراطك فيه كما كانت الصحافة قد خسرت انضمامك إليها . أنت محاطة بالكتب طيلة الوقت؛ ولهذا يسهل دمجك في المجال، وإن ما أذنت لي، أقدّم لك هذه الفرصة، أرسلي إلى عنوان الجريدة أي مقطع كتابي تودّين نشره، سيسرني أن أفتح لك الطريق نحو النجاح عن طريق تجنيدك للعمل ضمن فريقي المتواضع

فتفتحين لي المجال لاختلاس النظر إليك كل دقيقة، ستصنعين من حياة هذا الرجل الرتيبة المكتظّة بالعمل الخالية من الترفيه والمتعة حياة مفعمة بالفرح والنشاط، خاصة إذا دأبت السيّدة المحترمة سميحة على زيارتك.

قبل أن تقرّي رأيك، ضعي الفكرة قيد التفكير ضمن السرب الذي يحلق حول رأسك، أراهن أنك لا تنقطعين عنه، أعطها مساحة واسعة، بوسعي الانتظار،عندما حان أوان الانصراف إلى البيوت، همّت الحسناء الشقراء بمغازلتي، فهمت ذلك من البريق المشع في عينيها، أفشل صانع الطائرات مخططها قبل أن يعرف النور، أتعرفين ماذا اقترح العبقريّ الموهوب، أن أدوّن كل همومي و آلامي و كذلك أحلامي على ورقة ثم أصنع طائرة و أرمي بها إلى البحر،و ستتحقّق أمنياتي و ينقشع ألمي، تمالكت نفسي كيلا أرسله هو على متنها، ذات يوم سأفعلها بسرور حقيقي

خليلك المخلص "

"أثيلي التي لا تقدر بثمن.... لو سألتني عن أكثر صفة أكرهها في البشر؛ فهي الكذب، أنا أمقت الكذب من كل قلبي، إنه أسوأ من الخيانة والسرقة، بل هو منبعهما و نقطة بدايتهما، أفضّل أن يخسرني الناس بالحقيقة على أن يكسبوني بالكذب، لن أنقل إليك أحداث الموقف الذي حرّضني على تحرير الرسالة فبالاعتماد على بعض المبررات السقيمة الجافّة أصبح امتهان الكذب حرفة مقبولة إذا ما آلت الحاجة إلى اضطرار نابع من الظروف. لا توجد ظروف تبيح الكذب، هناك ظروف تبيح الأفعال فقط، وحيث أنني رجل متفهّم فبوسعي وضع هذه الأفعال تحت المجهر ثم أقرر إن كانت الدوافع مقنعة أو لا،,لكن ليس الكذب من أجلها.

أحاول أن أتنفّس الصعداء بعد هذا الشوط الطويل من العمل الجدي. إن ما خطرت لي أخذ إجازة فلا شك أن طاقم العمل سيفلت من قبضة الانضباط عند أول فرصة تحثّهم على التسرّب المهني، كما أن احتمال تذمّرهم الأبكم أكثر من وارد رغم أنني نائب المدير .

ثمة قاعدة جيدة خصصت لأجل القائد، يتعين أن يضرب مثلا جيدا للجنود، وجنودي الأعزاء لا يتورعون عن تنفيذ الأوامر في حالة واحدة، ألا وهي مراقبتي لهم كل ثانية، إنهم يقترحون أن نجري احتفالا بمناسبة تحقيقنا هذا النجاح، ألم أعدك يا أثيل؟ لقد صنعت منها جريدة محترمة محبوبة، لم تعتلِ الصدارة بعد، على أن ذلك مرتبط فقط بالوقت، سأوصلها إلى القمّة، لم تكوني المحفّز الأفضل لي فحسب؛ بل أنت من تصنعين كل نجاحاتي،أخطّط غدا لشراء هدية من ذاك المركز الذي افتتح بمدينتك بغية مفاجأة خالتي الكريمة، لم تخفّ الحركة به إلى الآن. إن السيّدات اللبقات يتركن في ذهني انطباعا حسنا عن السلع المعروضة هناك، أبلّغك بهذا خشية أن تأتي فلا تجديني، لن أتأخّر في ابتياع الغرض، خمس دقائق على الأكثر، لست أم الخنفساء التي لا

يخرجها من المركز إلا غروب الشمس أو حريق مهول، كما أن ميول العصابات لا تثير اهتمامي
خليل المخلص لك إلى الأبد "

"جوهرتي الثمينة أثيل.. أشاهد من نافذتي الآن ندف الثلج تتساقط،كم أحبّ الثلج، و كم أحبّ فصل الشّتاء، لم يكد يمرّ يومان فقط على حلوله حتى فاجأنا بهذا المشهد الرائع، كل ما يكدّرني هو هؤلاء النائمون على الأرصفة و الطرقات دون مأوى يدفئهم أو سقف يدفع عنهم البرد والفاقة، وأمثال السيّدة عربسة وابنتها، نسيت ما كان اسمها أيضا، هؤلاء الذين يعيشون في الأرياف بمواقد تقليدية وظروف صعبة وانقطاع مباغت دائم للكهرباء. إن أوضاعهم مدعاة لرثاء جنائزي، وإحساس بعجز مقيت. أنت أيضا تنغمسين في التفكير بخصوصهم، أنا أبحث في نفسك حتى دون أن أراك، فلا أجد إلا كائنا طيبا لا يفوته القلق و التفكير بخصوص كل إنسان حتى و لو كانت نملة. سأجري استعدادات متأهبة لزيارتي القادمة، و أتدثّر بطبقة سميكة من الثياب، لا يبدو أن الطقس ينوي التحسّن،آمل أن لا تسدّ الثلوج الطرقات فأرغم على التغيّب أو التأخّر عن الموعد.

عزيزتي في هذه اللحظة تضطرم في عقلي ذكريات ماضية رفقة أمي، في مثل هذا الطقس كانت تحيطني برعاية خاصة، و نجلس سويا في غرفتها لنحتسي أكواب الشاي، نشاهد تساقط الثلوج من خلال النافذة، لا تنفك تراودني كل ثانية من الوقت البديع الذي قضيناه سوية، أما اليوم؛ فلا أملك سواك، وخالتي الطيبة رفيداء و عمتي .

نتشارك أنا و أنت خسارة عزيز علينا فأنت كذلك فقدت والدك، وحدثتني كيف أنك تفتقدين وجوده بجانبك، لا شك أنه يهبّ إلى خيالك دائما، أنا أشعر نفس شعورك،,و أستطيع أن أتعاطف مع ألمك، و أخالك أقوى مني و أصلب في تحمل أي ظرف، سأنزل إلى العشاء قبل أن تصعد خالتي إلى غرفتي، سأكتب رسائل أخرى بعد العشاء، هناك الكثير الذي أودّ الحديث بخصوصه ما عدا شؤون العمل، أصبح ذلك يثير أعصابي، و لا سيما أن الفريق المتكامل يرتكب الأخطاء بغباء و استمرار كأنهم يتعمّدون ذلك، سأحدثك عن أمي فقط؛ لأنني أشعر بشوق عنيف لها هذه الليلة، هل تسمعينني؟

صديقك خليل "

"نافذة حياتي أثيل

أضحكتني إحدى فتيات الفريق عندما خاطبتني بلهجة متضرعة مبتهلة ووجهها شاحب من الفزع متوعّدة باستقالتها إن ما جرؤت على إهانة أخرى في حق الوزير مرزوق ،واصفة الخطوة بالخطيرة قائلة أن سعادته لن يصمت، لكونها فردا من القبيلة، سيشملها العقاب المترتّب، وإن ما

ذهبت إلى السجن سأكون الملام الوحيد على إرسال صبية ضعيفة لطيفة بأحاسيس مرهفة مثل أحاسيس الطيور إلى سجن يستقبل مرتكبات جرائم القتل من الدرجة المتوحّشة، السرقة، ارتكاب الرذيلة، تاجرات مخدرات، لقد انفجرت بالبكاء عندما دسّت هذا المصير القاتم في رأسها، فطمأنتها قائلا إنني لن أكتفي بكتابة اسمي مع الإمضاء مرتين أو ثلاثة لأؤكّد أنني وحدي المسؤول، بل سأدوّن بخط واضح مقروء اسمها مؤكّدا أنها لا تملك أي صلة بالجرأة الهرطوقية التي أقدمت عليها، كما سأضع في علم الجمهور الكريم أنها بكت بحرقة، وهي تنهرني عن إتيان هذا الفعل في حقّ معالي الوزير،فرحّبت العزيزة بخاطرتي ثم شكرتني وانصرفت، لست ألومها فالنساء مثلها لا ينفع أن يُزجّ بهن في السجون، بل في قصور مشيّدة من الشوكولا و الحلوى، ماذا نفعل طبيعة حساسة مرهفة؟! إن ما دُسّت ذات الفكرة في رأسك فأرجوك أن تصرفها، بوسعي احتمال زميلة عمل جبانة مثل فأر لكن لست على استعداد لتقبل أثيلي الشجاعة تحتجّ و تجبن، أشك في إقدامك على ذلك.

لقد أشرقت الشمس هذا الصباح ولكنها تبدو كمراوغ يفتش عنه لأجل إيفاء ديون متراكمة، إنها تختفي خلف السحاب القاتم المتجمّع ثم تظهر لدقيقة او اثنتين، لسوء حظك يا طفلتي فأنت لا تحبين سواها، أثيل هل أقول شيء،دون أن أحلّل، الاستسلام كلمة غير مدرجة في قاموسي، سآتي السبت القادم و السبت الذي يليه، و إن ما تغيّبت فاعلمي أنني أقضي وقتا عصيبا بين جدران السجن، و رغم ذلك سأراك من خلال النافذة الضيقة، سأراك عندما تشرق الشمس، وعندما يغمر الحجرة فاسدة الهواء ضوء القمر. خليلك إلى الأبد،إلى الأبد يا صديقتي أثيل"

الفصل الثالث

التقطت أثيلُ المشطَ الأصفر ذا الأسنان الخشنة بوهن مفرط بعد ظهر يوم الجمعة من درج الخزانة القديمة المخلّع بغية تمشيط شعرها، متخلّيةً عن قناعها المشرق الذي وضعته أمام أفراد العائلة كمن يتخلّى عن واجب مقيت ثقيل.

كانت قد اتّخذت مكانها المعتاد إلى طاولة الغداء رفقة أمها الصارمة المخلدة إلى الصمت وشقيقتيها: ياسمين ذات القسمات المضاءة وميرنا ذات القسمات المظلمة التي يشوب نظرة عينيها سخط و تذمّر على الأوضاع الزرية، وقد دأبت على التأفّف أكثر من مرة مبدية استياءً أخرس بفعل خوفها من ردود أمّها اللاسعة، و مردّ ذلك تكرار إعداد مرق العدس واحتلاله مكانة الشرف في صدر الطاولة خلال الأسبوع الفارط مرتين، وهذا الأسبوع ثلاث مرات، وتحوّله إلى طبق يومي يظل ممكنا وهذا ما تخشاه .

ولولا أنها تمقت ذلك الجواب القنوع الصادر عن أمها: هناك أناس أغلى أمنياتهم طبق العدس، وأنت تكفرين بالنعمة، لسارعت إلى اقتراح بعض البدائل المغذّية و الصحية التي تنقذ أجسادهن من الشحوب والهزال و أمراض تكاد تجد أكثر من سبب لتحتلّهن لولا أنها تكتفي مشفقة بمراقبة فقرهن، بدائل كالدجاج المحمرّ و اللحم المشوي، كما أن السمك غني بفوائد جمّة وسيفيد عقل ياسمين الصغيرة و عقل المرأة المرهقة و كذلك عقل شابة تفتقر إلى طاقة و صحّة من أجل قبولها في عمل محترم قضت سنة بأسرها تفتش عنه دون أن يرحّب بها أحد،هناك أنواع متعددة من الأسماك غير أن العائلة لا تتطلع إلى أحسن من اسم السردين مرة في الشهر بسبب أسعاره الباهظة ، ليس أفضل من الصمت يُبقي أذنيها طاهرتين من سماع تلك الأسطوانة المضجرة، ألا فلتتحمل العدس أفضل من تحمل خطابات الزهد النسوي.

ليس عدم حيازتها على عمل مناسب فقط ما كان يعكّر صفوها ويجعل أعصابها تثور مع أنها تجتهد لإرضاء نزعة أمها الرصينة وكسب إعجاب الجيران، فتطلّب قرارها مجموعة من الإجراءات المتكلّفة كتصنّع الوداعة وإطاعة الأوامر دون نقاش ومحاولة تقليد أثيل تقليدا دقيقا . فعلاوة على رفضها المتكرّر في أي وظيفة ، فإن تاريخ آخر عرض للزواج منها كان منذ سنة، ولم يكلّل الموضوع إلا بالفشل، فالشابّ أحول العينين الشبيه بالضفدع و الذي وجدته وصفا مناسبا ،والذي يتأتىء كلما أمسك دفّة الحديث، والملتصق بجسد أمه كأنه طفل صغير خجول، والذي وجدت جهودها وميولها لإقناع نفسها أنه رجل و الرجل لا يعيبه شيء ،صعوبة في تقبّله ونفرت منه منذ رأته من النافذة يترجّل من السيارة متعثّرا، لم تنل إلا رفضه رغم أنها رضيت به على مضض منها، و رغم أن أثيل استنكفت الظهور أمام والدته المنتمية زورا إلى الطبقة الأرستقراطية. وتعليل ذلك إيمانه

المكين و تفاعله المتحمّس مع نظرية تحسين النسل، فتزاوج مخلوقين غير جميلين يندر أن يضمن الحصول على أطفال جميلي المظهر، و لولا أن اللباقة المزيّفة كبحتها لأحاطته علما أنه أقبح مخلوق رأته في حياتها، و ليست شخصيته المهزوزة إلا دافعا صريحا إلى نتف الشعر و ندب الوجه، وظلت فكرة العنوسة المخيفة تلازمها كظلّها حيث أن الرجال يميلون ميلا جنونيا إلى الزواج من فتيات أقلّ سنا لم تتجاوز أعمارهن الثانية والعشرين.

وتخلص إلى نتيجة أن أثيل هي السبب، كلّما عجزت عن تقبّل الوضع العام، وكلّما وافتها خاطرة أنها ضحية في عالم ظالم بائس، أما لماذا هي السبب؟ فهي لم تلق بالا للجواب عليه، إنها السبب وكفى، ربما لأنها مرغوبة من الجميع، و أن الرجال يتهافتون لطلب يدها رغم أن متلازمة التقدّم في العمر تشملها أيضا، و ربما لأنها ملوّثة خسيسة باعت شرفها الغالي الثمين رغم أنها تستطيع ببساطة مطلقة تبنّي أعذار لشقيقتها دونما تحليل عميق، ثمّة في الحقيقة دوافع غير منطقية تؤول إلى كراهية مقبولة الأعذار بضمير مرتاح، و كلما تقدّم بها العمر يوما آخر دون زواج ودون عمل كان يسعدها أن تضيف علامة سوداء أخرى في سجلّ أثيل، ويتضاعف حقدها المتطرّف، وكان يصعب عليها أن تتنكّر لتلك الكراهية الهوجاء و تستصعب إخفاء شعورها الناقم كلما تقابلتا على طاولة الوجبات أو أعمال المطبخ المقسّمة على كل واحدة حتى لياسمين نصيبها أو تلك الصدف التي تحدث كلها خارج غرف النوم، لأنهما تتبادلان الرغبة ذاتها في تحاشي بعضهما البعض، فترسل ميرنا بصرها البارد المتعالي لينقضّ على الوجه الحسن الوديع ثم يفترشه مبغضا لبرهة ليست بالقصيرة، و قبل إبلاغ رسالة التذكير بالإثم المقرّح لم يكن يثنيها إلا نظرة مستفهمة من أمها، وقلّما فشلت الرسالة في الوصول إلى عقل أثيل التي تطرق طرفها متحاشية النظر إلى العيون الناطقة شزرا والوجه المتوهّج بنار العتاب لا بلهيب الحقد كما كانت تعتقد.

خلال الأعياد كانت تضطرّ كارهة إلى تهنئتها ثم تقبيلها قبلتين متكلفتين باردتين كالجليد على وجنتيها كمجاملة مُرضية لمشاعر أمها، وذات مرة عندما فرغت من المراسم المتكلّفة وبينما هرعت الأم إلى الحليب المنسي على الموقد همست لها بصوت خافت "لا تعتقدي أنني نسيت ما فعلته، لولا أنني أهتمّ لمشاعر أمي لسرّني كثيرا عدم رؤية وجهك".

ولم تعترف ميرنا حتى لنفسها في أكثر النقاشات الذاتية احتدادا أن الذي يحدوها للحقد على أختها ليس ذاك العار الوضيع الذي جلبته إلى عتبة المنزل الطاهرة، لا إن تلك القضية تعيش جنبا لجنب تبريرات مقنعة بل إنها إنسانية أيضا،بل لدوافع أخرى تمتنع زجّها على طاولة حوار ذاتي عقلاني،و كان من المستحيل أن لا تطوّر من سياستها الحربية في تعذيبها و محاسبتها .

ولهذا ،كلما عادت أثيل إلى المنزل منهكة مرهقة من العمل أو من زيارة مقتضبة إلى منزل سميحة وألفت وجه أمها منقبضا أو متغضّنا أو استقبلتها بنظرات مأتمية ، غامضة تنهال عليها كالسياط، كان وجهها يشحب ويصفرّ و يخضر أحيانا ،متفاعلة بإيقاع متسارع لدقات قلبها حتى يوشك على الانفجار من الخوف، وكانت ركبتاها ترتجفان رجفانا لا سبيل إلى السيطرة عليه وأنفاسها تحتبس لفرط خوفها أن يكون هذا الاستقبال الأخير في عمرها "لقد عرفت"، وسرعان ما تمرّ ميرنا من خلف أمها شامخة الرأس متعالية، ترمقها من فوق كتفها شامتة مسرورة ترفرف ابتسامة التلذذ على شفتيها ،مستمتعة متعة المريض النفسي بفصل هلع الضحية المستفيض، تلعب بأعصابها كما يلعب قط بطائر جريح .

"أثيل، إنني أنزعج من الطريقة التي تقتحم بها السيّدة سميحة المنزل، و كذلك أرفض أسلوبها الوقح في امتلاكك كأنك ابنتها".

"أجل إن سميحة امرأة سيئة الأخلاق، عديمة التربية، لا تمتلك ذوقا لائقا، امرأة بنصف عقل، طائشة كريهة متهوّرة"، هكذا راحت ذات مناسبة مذعورة بعد أن تنفّست الصعداء وسكن خوفها ،تكبر مساهمة سميحة العظيمة في دفع أمها لتغتاظ.

"حسنا، انقلي إليها بكيفية لبقة أنني أحتجّ على أساليبها "فتجيب أثيل بعد أن يتلاشى هلعها تدريجيا و يروي الدم الأحمر وجنتيها، عائدا من رحلة المغاض" سأفعل أي شيء تأمرين به يا أمي، أعدك بعدم تكرار ذاك التصرّف اللامسؤول من طرفها".

وحيث أنها تعجز عن سبر أغوار أختها، فقد استمر المشهد الحاقد يتكرّر بصور عشوائية كيّدة كأنه ابتزاز حقير، والواقع أن أثيل لو كانت تملك نظرة خالية من العاطفة و تتحرّى الشرّ أينما كان، لاتّضح لها أن ميرنا تبتزها حقا وتدبّر لها المكائد عن طريق إثارة أعصاب أمها وتكدير صفوها قبل عودتها بلحظات لجعل هذه تعتقد أنها قد فضحت سرّها، و تكرر الأمر حتى أصبح روتينيا تقريبا :تفتح الباب فتجد أمها ثائرة الأعصاب محتدّة ، وسط جو مثقل بالتوتر والانفعال، وميرنا في مدى بصرها، ومن الواضح أنهما كانتا تتعاطيان حديثا يحرّض مزاج الأم على التعكّر أو تستفز الغريزة الأكثر تضلّعا فيها ألا و هي القلق.

وأرغمت أثيل المنجرفة في تيار التآزر العائلي والحفاظ على روابط الأسرة الواحدة إلى الاعتراف أن أختها تتمادى في جعلها طرفا مغلوبا على أمره في مؤامرة خسيسة بفعل الكراهية العمياء التي تولّدت في الوقت ذاته مع اطّلاعها على واقع شقيقتها الكبرى التي شانتهم عارا حتى ظهرت كأنها تعاقبها على ذنب آخر باستغلال قضية الشرف تلك ، لكن ليس بيدها شيئا تفعله ضد أسلحتها الزئبقية، وهكذا عاشت في دوّامة مدوّخة من التوتّر و الخوف،خوف من تهوّر ميرنا،خوف من

أعصابها المتقلبة، كانت هذه تعرف نقطة ضعفها، وهاهي تستثمر فيها فترفسها وتخلع راحتها كلما وجدت الفرصة لذلك.

وكان هذا الكابوس يرمض أثيل و يضعها في كفّة متساوية مع أسرى الحرب القلقين من مصيرهم المجهول، في كل مرة كانت تتأكد من أنها قاب قوسين أو أدنى من إفشاء سرّها، و في كل مرة ينتابها شعور شبيه بالمرض. و بمجرد أن توضح الأم كنه غيظها،تنتعش معنوياتها و يعود قلبها إلى مكانه، و تسترخي ملامح وجهها المتقلّصة.

ورغم ذلك ،حرصت على عدم الاصطدام بها في أي محادثة مستفزة لأعصابها، بل لم يعنِ لها أبدا أن تتبادل معها حتى التحية ، و لولا أن عادة التحلّق حول الطاولة لم يكن واجبا قسريا، لما نزلت مطلقا و لحبست نفسها في غرفتها، ربما إن هي ظلت بعيدة عن ناظريّ ميرنا و ظلّت بعيدة عن عقلها لن تهيّج قروح الشرف المثلوم، و لكن ماذا عساها تفعل؟ إن أخلّت بهذا النظام الجليل فلن تسلم من الرسائل السليطة التي ترسلها عيون أمّها النفاذة، النظام بالنسبة إلى والدتها هو النظام ولا ينبغي أن يخلّ به تحت أي ظرف.

لم يكن هذا كل شيء ،فإلى جانب ما ذكر ،كانت ميرنا أحيانا تشنّ غارات كلامية مفاجئة على شكل تلميحات خبيثة، غارات تفوق درجة احتمال أثيل وقدرتها الدفاعية، فتقذف بها إلى درك الاكتئاب النهّاش ممزّقة إياها كخرقة بالية، فتتلو على مسامعهنّ بتفنّن مدروس خلال الحلقات العائلية قصصا عن فتيات حقيرات تمزّق شرفهنّ في غمار الرذيلة، مزيفات، مدعيات للطهارة، وكانت أثيل تقابل التلميحات بقلب مرتجف ووجه غار منه الدم، ويدين مرتبكتين مطمورتين في حجرها، فلا تتفاعل الأم إلا بتعقيب ناهر محذّر، بوجه متميّز غيظا عن الخوض في مثل هذه القصص المشينة للحفاظ على الاحترام المتبادل بين الوالدة و بناتها.

رغم الارتباك والخوف اللذين قبعت تحت ضغطهما والشعور بالخطر الذي لا يتعطّل، ورغم وقوعها تحت رحمة كائن حانق مكتظّ بالكراهية الحقودة ينهش روحها بحيله الوضيعة، إلا أن مواجهة أختها بشكوكها حول تماديها في إغراقها في هذا النهر الجارف كانت أكثر فكرة غير مستحبة راودتها، فكرة فوق التنفيذ، فكرة تشبه بمخاطرها إثارة تنين ثائر تبقى آمنا إذا لم تظهر في مدى بصره.

واطمأنت بمرور الزمن، بعد أن فهمت قوانين اللعبة، وسرعان ما اهتدت إلى عنونتها بالعنوان الصحيح، مجرّد حركات لتذكيرها بإثمها ومعاقبتها على ذنبها، ووضعت قدميها في الماء البارد،إن شقيقتها لن تجرؤ على إخبار أمها، لأنهما ستتشاركان نفس الخسارة المهولة، مما لا شكّ فيه أن أمهما ستفقد عقلها، أو حياتها إن ما أحيطت علما بالموضوع المعيب وبالدرك الفاضح الذي نزل

إليه شرف أحبّ فتياتها إلى قلبها، و كنتيجة لهذا التفكير الجديد انكمش بعض رعبها و نزل قلقها إلى رتبة أخفض، بيد أن خاطرة سوداء ظلّت تقفز أمامها، ماذا لو فقدت أختها السيطرة على أعصابها ذات يوم، ماذا لو أن تقزّزها كان أكبر من عاطفة الحبّ لأمها؟، ذلك ما كان يخطف النوم من عينيها و يجعلها تستفيق فزعة ملتاعة في ساعات متأخّرة من الليل، إنها مشتّتة لا تعرف بماذا تفكّر،أحيانا تثق ثقة عمياء أن أمها لن تعلم و رغم ذلك يظلّ الخوف ملازما لها كملازمة القرين لابن آدم.

بعد مرور الأمور بسلام، و تسلّم أثيل شعلة الاطمئنان وبعد أن يسكن روعها المجنون كانت تنسلّ على رؤوس أصابعها خارج غرفتها بمجرّد أن يخلد كل فرد إلى غرفته قاصدة غرفة نوم أمها فتستلقي متوسّدة حجرها، وفورا تشرع هذه في تمرير يدها بين خصلات شعرها الأسود الناعم، فيتبع ذلك استشعار أثيل للحنان و الرحمة التي تزخر بهما هاتان اليدان القويتان الصلبتان وتجد كلمات محدّدة طريقها إلى شفتيها "أمّي، إنني أحبك و أفعل أي شيء لأجلك، وكل ما أخافه أن أخسرك ولا أريد مطلقا أن أخذلك ".

"أعلم يا طفلتي أعلم، أخالك مستاءة من أجل صديقتك السيّدة سميحة، أعي كم تحبينها، أنا أيضا أحبها على أنها تتصرّف بقلّة وعي، قلّما يستطيع المرء الاعتماد على عقلها "

أو "أثيل، لقد بالغت في غضبي، كل ذلك نتيجة قلقي عليك، لقد تأخّرت، ااه ليتني لم أستقبلك ذلك الاستقبال الجافّ، أحسب أنني أفزعتك حتى الموت حتى شَحُب لونك، وامتقعت شفتاك. ذات يوم سأتسبّب في توقّف قلبك، ليتني أتحلّى ببعض الصبر و الحكمة".

أو "ااه يا حبيبتي، عندما علمت بنبأ موته أصبت بصدمة، كان شابا قويا يافعا، ولهذا انفجرت في البكاء، لم أتمالك نفسي، وعندما رأيتني على تلك الصورة أصابك الشلل، واستحلت صنما ".

وكل تلك المبررات كانت تقابل بجواب هادئ مفعم بنغمة حزينة تطفح باللوعة "إنني أحبك أكثر من أي إنسان في الدنيا حتى أكثر من نفسي،لا أريدك أن تقلقي أبدا ".

على المكتب عدّلت أثيل وضعية المرآة المستطيلة ذات الإطار الأرجواني، ثم جلست بهدوء لتمشّط شعرها شاردة ساهمة واجمة، كانت تتخبّط مثل دجاجة ذبيحة في بركة من الأفكار تنتقل من واحدة إلى أخرى دون أن تحكم قبضتها على واحدة، هذا هو الحال دائما عندما تنفرد بنفسها، و غرزت أسنان المشط في شعرها تنزل من جلدة الرأس إلى الأطراف السفلية بحركة آلية متكرّرة دون أن تشارك فيها بوعيها التامّ، بينما كانت عيناها مجفلتين شاخصتين في المرآة، لم تكن في

حياتها أكثر تعاسة منها اليوم، و إذا ما أخذنا بالأسباب فإنه يتعيّن عليها أن تحلّق من السعادة و أن تقفز فرحا.

عندما استفاقت من رحلة الشرود الطويلة وجدت أنها تكرّر تسريح نفس الجهة من الرأس. وبدل أن تتابع، قذفت بحركة عصبيّة المشط بعيدا منتفضة من كرسيها، و توجّهت بخطى خفيفة إلى النافذة ثم أحدثت شقّا ضيّقا لتختلس النظر إلى باب سميحة مجفلة متّوتّرة "لماذا لم تعد بعد"، وكل ما التقطه سمعها ضوضاء صاخبة و اهتزاز مزعج أحدثته ابنتاها سالي وريحان، وضجيج عال تغرق فيه غرفة نومهما يزعزع أركان البيت. إن كرة القدم هذه قد أفسدت عقليهما كما سبق و أن ذكرت أمهما مستهجنة ساخطة، وكدليل على عدم عودتها إلى البيت هذه الفوضى اللا نظامية التي تحدثانها، ستبدأ مباراة الفريق الوطني بعد قليل و كل بيت في البلد طروب مبتهج باستثنائها هي و شقيقتيها اللاتي تمرّ عليهن هذه المناسبة دون أن تحرّك أي وتر حسّاس.

ليست سميحة خيارا موفّقا للفرار من حالة التّوتّر و الاضطراب التي تنتابها منذ بدأ خليل بمراسلتها، فمحادثاتها عن الأعمال و المشاريع والقروض مضجرة، وعندما تشرّع لسانها لتقطع جسد صبري و زوجته كأنّها جزّار، أو أي إنسان تسبّب في تكدّرها و تعكير مزاجها تغدو مثبّطة للهمّة ومصدرا لضيق خانق، و مسبّبة لآلام حادّة في الرأس. ولم تكن اشتباكاتها في الشوارع والمرافق العامة لتغيب عن الأحداث الرائجة، فوصف أحد الأشخاص بالوغد، ونعت موظف بالصفيق، وذكر أوجه الشبه بين المجرمين والشرطة ثم لعنهم جميعا مرة واحدة تخفّف عنها بعض الغضب،و تسكّن عصبيتها.

ولأنها تبتدع كل أسبوع فكرة جديدة لقتل الوقت والقضاء على الفراغ ، عن طريق التطوّع في الأعمال الخيرية والانخراط في قضايا الساعة، كالتضامن الدخيل مع المحتجين على توزيع السكنات، أو المطالبين بتنحية مسؤول فاشل حتى إن كانت لا تعرف عن اخفاقاته إلا ما تتصيّده صدفة جاذبة، فالمرء يجد نفسه محتبس النفس من عزيمتها الفولاذية مذهولا بفعل بدعها،و بالمقابل لا يجد صعوبة أبدا في تجنّب الضحك والمرح والاستمتاع بالوقت رفقتها و الإعجاب بها ، فإرادتها قلّ مثيلها ،و ليس هناك ما أسهل عليها من اقتحام بيت أثيل، ثم الظفر بموافقة أمها، هذه التي لا تدرك أنها أبدت موافقتها إلا بعد أن تخرج ابنتها من باب المنزل، وتشردها في أماكن شتى: مراكز لعلاج الإدمان، جمعيات تجمع متطوّعين لأعمال خيرية،دور للعجزة،قوافل لأجل إعانة المناطق النائية.

وصلت أثيل إلى مرحلة تستطيع فيها توقّع أي بدعة فكرية شاذة من عقل سميحة،حتى السفر عبر الزمن بواسطة حافلة قديمة، كان نطاق إبداعاتها يتوسّع يوما بعد يوم و ينتظر أن تصبح

صاحبة تاريخ حافل بالمصائب و الشجارات، و الإنجازات الغريبة، و فرضت بعض النتائج على أثيل أن تقرّ أن السيدة امرأة غاية في الحذق و الحمق في آن واحد، مقدامة، شجاعة تطلق الرصاصة دون أن تفكر في الأمر مرتين، بيد أن عاطفتها نحوها مطلقا لا تتحوّل إلى استنكار أو ازدراء،إنها تحبها بكل حالاتها و تحترمها و تقدرها،و تستطيب رفقتها في مغامراتها الغامضة،و لا تفترض أن الحياة كانت لتكون قاحلة بدونها .

رغم أنها لم تكن خيارا موفقا، إلا أنها في هذه اللحظة بالذات تبقى أحسن من ترك نفسها وحيدة مع زمرة من الأفكار المارقة المتمردة، إنه يوم الجمعة، وليس هناك مكان تذهب إليه، لا مكان يطحن مذهب الانغماس في التفكير، كان بوسعها ملء يوم السبت بما تقترحه سميحة من أعمال تزوّد رصيدها بأجر عظيم، و لا ينطبق ذات المبدأ على يوم الجمعة،فهو يوم تغلق فيه كل الأماكن العامة،و لا تقام فيه أي فعاليات من شأنها إشغالها أو الترويح عنها و جعلها تنسى، مع أن الله وحده يعلم أنها تتحوّل من التفكير به من وحيدة في غرفة ساكنة كئيبة إلى التفكير به ، في مكان مزدحم بالناس مع فارق بسيط عدم توفّر حاسوب يستقبل رسائل منه .حسنا، كل الخيارات المتاحة الآن تنحصر في حوارات مع أمها أو شقيقتها ياسمين أو سميحة.

لا تعتبر أمّها خيارًا موفّقا،و هي تفضّل هذيان سميحة المضجر على حوارات أمها، حيث أن هذه تتطرق بعمق مفرط إلى الأيام الماضية ثم إلى ضرورة إخضاع البيت للإصلاحات، ومواضيع أخرى تهزّ ضميرها و تشعرها بالإثم كطفلة صغيرة، ثم تقودها إلى الرغبة في البكاء، ولا تتخلّى أبدا عن حقها في فتح تحقيق حول الأسباب التي تأخذها في دوّامة الشرود، معتلة النفس حزينة مغتمة، ولا تعود إلى دنيا الواقع إلا عندما يتكرّر النداء باسمها، أجل إنها تفضّل أن تتفقّد عودة سميحة على الانضمام إلى أمها.

وكانت ياسمين قد شطبت تلقائيا من القائمة، رغم كونها فتاة حلوة مهذّبة ورغم أنها كانت مصدرا مسليا جيدا في الأيام الماضية عندما ساعدتها في حلّ بعض المسائل وقضت على الصعوبات المترتّبة عن عدم فهم معظم المرادفات الأجنبية،على أنهما الآن تتقاسمان النكبة ذاتها على ما يبدو،فالعينان الشاردتان الحالمتان تقودان إلى نتيجة وقوع صغيرة البيت في هيام أحد زملائها. حيث أنها الآن لا تفطن إلى دنيا الواقع إلا على صيحات أمها القاصفة، وأمست تميل إلى العزلة والانفراد بنفسها هي الأخرى، و لم تكن ملامح الغرام لتخفى من الوجه البريء، ولهذا لم تعد تحس برغبة جامحة في تبادل أحاديث تقطع عليها موجات التفكير والخيال ،أما ميرنا، فمجرّد التفكير فيها جناية تدعو إلى التوبة.

وجلست على حافة السرير حزينة معتمة النفس تتجوّل في رأسها ، منقّبة عن فكرة ناجعة تُسلّي بها نفسها، ولأن عقلها تراخى عن أداء المَهمة الواعية، استثمر قلبها باستعراض وجهة نظره العاطفية، كان يغزوها بالأماني الحالمة و راح يرسم لها في الألواح السوداء زهرا و ينقش لها في الصخور الصلبة ترخيصا يؤمن لها فعل ما تشاء .

"افتحي الحاسوب و اقرئي رسالته، لا شكّ أنه سيأتي يوم غد أيضا، ألست حزينة لأجله؟، إنني أتمزّق ألما، لماذا تفعلين هذا بنفسك؟منذ يومين لم تفتحي رسائله إلى متى ستصمدين" وعلى غرار الصراع القديم القائم منذ وجود الإنسان ،أبى العقل إلا أن يتدخّل في مضمار سباق إسداء النصائح الحكيمة وإبداء مواقفه الحازمة "لا تصدّقي نصائحه، ألم يخدعك المرة الفارطة؟ ألم أسمعه يشجّعك؟،لقد انقطعتِ عن القراءة لمدة ثلاث أيام، ثم ماذا حصل، لم تصمدي أكثر تحت تأثير عاطفته المعسولة الغبية. إن ما تجاهلته الآن، سيستسلم عاجلا أم آجلا، أما إذا قرّرت تنفيذ كل طلباته بمجرد أن يستعطفك قليلا فلك أن تعرفي أنك تعودين إلى نقطة البداية في كل مرة".

أجل، هذا بالفعل ما كان يحدث في كل مرة، إنها تعود إلى نقطة البداية، إنه نفس اللحن يعزف على ذات الوتيرة المتراجعة،رغم أنها تعد نفسها وعدا قاطعا بالانقطاع عن قراءة الرسائل، كعربون اتّفاق مع عقلها الحصيف لكبح عاطفتها بالذهاب، كانت الأفكار تحتدم في رأسها نتيجة معارضة مفحمة و كان قلبها الثائر يقنعها بأسلوب مراوغ مخادع بنكث وعدها كل مرة، وسرعان ما تتراجع فتقرأ الرسائل المتراكمة دفعة واحدة، تقرأها وقلبها يرتجف و الدموع تبلّل وجنتيها.

وكما هو الحال كلما تترك لوحدها أو عندما تخلد إلى فراشها أين تستمر عيناها مفتوحتين متيقظتين، يصعب عليها قمع ثورة عاطفتها المتأجّجة، و يسهل استسلامها لصوت قلبها القارع كصوت البوق ، كان صعب الانقياد، و بالاندفاع ذاته يشتغل عقلها و يسدي إليها نصائح عقلانية منطقية على أنها تضاعف حزنها،إذ طالما كانت نصائح العقل تجلب الأحزان عندما تتعارض وأمنيات القلب.

عندما قرأت اسمه على أول رسالة تلقتها منه مطلعها "العزيزة أثيل " ،ظنت أنها تحلم ،و اجتمعت في جوفها كل انفعالات الدنيا،أعادت قراءة الاسم لتتأكد من أنها لا تحلم ،لم يكن هناك شك ،إنه هو ،فعلت بها هذه المعجزة ما لم تفعله كل بها كل امتحانات الحياة بشرّها و خيرها منذ أن خرجت من بطن أمها ،و خلال ثوان ،وجدت نفسها متشنجة بين الخزانة و الحائط كأنها تختبىء من خطر بشري ،لم تشعر بقدميها و هما تحملانها إلى هناك ،لكنها شعرت بأحشائها تذوب متحولة إلى سائل ثقيل و بثقوب أوزونية في أعضائها الباطنية ،و قلبها،قلبها ،يا الله ،إنه يتضخم إلى ثلاث أضعاف حجمه ،و كان لا بد أن تنقضي مدة لتستطيع السيطرة على المشهد المذهول ،و

ما إن بدأت في قراءة الرسالة حتى شرعت سماء عينيها في الإمطار ،مبللة ابتسامتها الجذلة الشبيهة بابتسامة الأمهات المتأثرات برؤية أولادهن بعد طول غياب ،قرأتها بتأن لم تقرأ به رسالة من قبل ،مرة و اثنتين ،معتقدة أنها واحدة من رسائل الشكر التي أرسلها لجميع من وقف معه في محنته ،كانت رسالة بسيطة مؤلفة من خمس سطور ،لم يعرف فيها كيف يشكرها على لطفها دون أن يخاف من توظيف كلمات لا تفيها حقها ،لكن اعتقادها خمد عندما استيقظت عند الساعة الواحدة لتقرأها للمرة العاشرة دون أن تفقد بريقها الأول ،و اكتشفت وجود المزيد من الرسائل ،لكنها ليست رسائل إبداء المزيد من العرفان ،بل تعبيرا شاعريا و حريريا عن التعلق بها ،ثم أصبح عدد الرسائل ضعف ما توقعت ،و سرعان ما أدركت أن حياتها قد تبدلت بشكل محسوم و أنها لن تنعم بلحظة سلام واحدة ما لم تتعامل مع نفسها بجبروت ديكتاتوري،لكن هيهات ،هيهات .

إنها تستمر في طلب أمنيتين متناقضتين في الوقت ذاته، أن يكتب إليها رسائل دون انقطاع و أيضا أن يتوقّف عن كتابتها. و بعد أن تتضارب الأفكار ويشتّد الصراع، تتوصّل إلى تسوية واحدة للحد من ألمها ألا و هي البكاء، كانت تخفي وجهها بين كفيها ثم تبكي بحرقة حتى تنتفخ عيناها، ذلك أحسن ما تستطيع أن تفعله أمام عجزها عن نسيانه، وإخراجه من قلبها، تبكي قصّتها التي ينبغي عليها أن تنتهي حتى قبل البداية، تبكي الرجل الذي تحبّه أكثر من أي إنسان باستثناء أمها، تبكي جحيمها الذي يُصنع بإلحاحه ، تبكي شعورها بالعجز و إحساسها بالمرارة، و ما أكثر ما كانت تبكي.

إن عقلها بلا شك يستقطب آلاف العقائد الحازمة الواقعية وسلطة الحذر تتبرّأ من كل عقيدة يطرحها قلبها، و لو اتّفق أن انتعشت بمنفذ معقول، جرّتها قدرة الخوف بعيدا عن مضماره، مطوّحة بها في هوة الحيرة التي قلما كانت تبارحها.

أي مجهود لم تبذله لتتخلّص من وطأة التفكير فيه، لم تكن تتوقّع أن رسائلها الساذجة العفوية التي كانت تلوم نفسها لمضمونها الأخرق و التي كثيرا ما افترضت استحالة قراءتها من طرفه، ستوصلها إليه و تعيده إلى عهده السابق ثم تشدّه إليها إلى درجة البحث عنها، هي تفعل كل شيء : تنخرط في الأحاديث الغثة و الجدية، و تتطوّع في الأعمال التي تقترحها سميحة لتشغل نفسها أيام السبت أملا في إزالته و أثناء العمل تقرأ بشغف إذا لم تجد زبونا تهتمّ بطلباته، كما أنها تقحم الفتاتين في أحاديث لا طائل منها كيما تنسى، على أن ذلك لا يبدو ذا وزن ثقيل بالنسبة إلى قلبها المتعطّش لإرباكها وإقناعها بوجهات نظره ثم الزجّ بها في عاصفة من الاستسلام و التراجع.و تعود فتسمع تلك الأصوات الهادرة القادمة منه، تقاوم لتطفو على السطح ، تعلو على ضجيج عقلها،أصوات نفاذة مسموعة مسيطرة.

"لا أفهم أسبابك، لربما أرادك صديقة فقط، أو أراد أن يشكرك على صنيعك النبيل معه، أنت تستقدمين الأحداث قبل حدوثها، ألا تشفقين عليه؟ إنه يجلس كل سبت بتلك الحديقة من أول النهار إلى آخره،و أصيب بالزكام أكثر من مرة،كما أنه معرّض للإصابة بنزلة صدرية في الأيام القارسة القادمة،غدا ستنخفض درجة الحرارة،وضعه صعب "

فيصيح عقلها مستهجنا منذرا باحتجاج عاصف "لا تصدقيه،لقد عدت للكذب عليها، إنك تبيع الوهم لها، ليس أصعب عليه من معرفته لوضعها، يريدها كصديقة!! أيها المراوغ البائس،لا يوجد رجل يقطع كل تلك المسافة من أجل إبداء الشكر أو صنع صداقات جديدة .هب أنه عرف، هب أنه عرف، كيف تواجهه، سيشعر بالاشمئزاز منها ،ثم لن تراه مرة أخرى، عاجلا او آجلا سيصيبه الملل ثم يتوقّف عن المجيء،خذي بنصيحتي أنا يا أثيل"

"من أين لك بمعرفة الرجال، أنت من تخدعها و تفوّت الفرص الثمينة عليها، لطالما كنت متزّمتا مدعيا للمعرفة، ألم يعد بأنه سيستمر في المجيء إلى أن يغدو شيخا مسنا؟،ليس من النوع الذي يستسلم بسهولة "اختال القلب مزهوا و ابتسمت أثيل، و عندما شنّ عقلها حملة الانتقاد تلاشت ابتسامتها :

"مجرّد هراء منمّق يقوله الرجال في البداية،من المستحيل أن يصمد إلى الأبد، لا تسمحي لنفسك بمجاراته، أنت فتاة متزنة و لك واسع النظر، لقد انهارت حضارات وتشمّع مستقبل أجيال بسبب مواعظ القلب العاطفية الغبية، صحيح أنها تمنح سعادة وفرحا ،ولكنها ظرفية وسرعان ما تخلف آلاما و شقاء ".

واستمر الصراع في كرّ و فرّ اليوم أيضا ،و خيل إليها أنها تهذي كمصاب بالحمى الشديدة، فضغطت يديها على أذنيها مغمضة عينيها، زافرة زفرات متتالية واعتراها ضيق شديد فأجهشت بالبكاء غير أن الدموع لم تسعفها، لماذا لا يتركها و شأنها؟لماذا يتعيّن عليه أن يجلس في تلك الحديقة كل يوم سبت، لو كان الأمر بيدها لذهبت ركضا إليه،ليته يستنكف عن استفزاز رغبتها، و التحرّش بضعف عواطفها، ليته لا يعرّض نفسه لحرارة الشمس و زخات الأمطار و ندف الثلوج،وفجأة شعرت بوخز الضمير لأنها ورطته في هذه الظروف الجوية المتقلبة،و سمعت قلبها يئن و يئن كحيوان يحتضر.

"أين هي السيّدة سميحة، لقد تأخّرت "ينبغي عليها مغادرة الغرفة فورا،لتنزل إلى المطبخ ولتلمّع الأواني، أو لتقم بعملية تنظيف واسعة للبيت، إنه نظيف على أية حال و لكن جولة أخرى من هوس النظافة لن تحطّم السقف، وأسرعت تغادر الغرفة و بمجرد أن وضعت يدها على مقبض الباب سمعت طرقا عنيفا قادما من الشارع على باب منزل سميحة مصحوبا بصوتها النائح

يكيل الشتائم لابنتيها، لقد عادت محبوبتها إلى البيت، الحمد لله، فعادت أثيل أدراجها منتشية مغتبطة، وفتحت النافذة مطلّة برأسها، ملوّحة لها بيدها كيما تراها والسرور يغمر وجهها،خاطبتها بلهجة رقيقة .

"سيّدة سميحة،مساء الخير، إنهما لا تسمعانك، أليس لديك مفتاح؟".

فالتفتت سميحة إلى مصدر الصوت و رفعت رأسها ،كان وجهها غائما، تحمل بيدها كيسا وباليد الأخرى تابعت طرق الباب.

"عزيزتي طاب مساؤك، نسيت أخذه معي، كيف تسمعان؟!،لا شك أن البغلتين منشغلتان بالمباراة، لو أنهما تكرّسان هذا الوقت لشيء مفيد لكانت حياتي أفضل.."و قبل أن تتمّ عبارتها انفتح الباب، كانت سالي الصغيرة تقفز فرحا قفزة تشبه رقصة إفريقية و تهتف

"أمي لقد أحرزوا هدفا منذ خمس دقائق،نحن متقدّمون على الفريق الخصم بفارق واحد لصفر".

"سرور عظيم،هل أرقص شاكو شاكو؟"و أدّت حركات بهلوانية أجبرت أثيل على الضحك ثم تابعت" لقد انتهت كل مشاكلنا،انخفضت الأسعار و سقطت علينا الأموال من السماء،و يمكنك من الغد أن تحصلي على منحة مجانية "

واعتدلت سالي في وقفتها و تلاشى الحماس من وجهها ثم قالت"أمي، إنك لست وطنية، مطلقا لست كذلك ".

"سأصفعك ذات يوم لوقاحتك، و طعنك في وطنيتي، سأصطحبك معي إلى السوق" دفعت إليها مكشّرة بكيس ممتلئ، سقطت منه حبات الثوم فنزلت لتلتقطها و دسّتها في الكيس" وسترين الوطنية على أصولها هناك، أي وطنية؟ لقد قصمت الأسعار ظهري،ضعي الكيس في المطبخ، لا تقذفي به "أمرتها "إياك أن تتبعثر على الأرض "ثم التفتت مجددا إلى أثيل وحشدت صوتها بكل ما تستطيع من ودّ "حبيبتي هل تنضمين إلي ؟".

"بكل سرور "وافقت أثيل ، ثم أغلقت النافذة، وعندما استدارت بحثت عيناها في أرجاء الغرفة عن المعطف الأزرق وما إن التقطته معلّقا على المشجب حتى مشت نحوه وارتدته بحركات خفيفة، إنّها متحمّسة جدا كأنّها ترى السيّدة بعد سنوات من الانقطاع، ثم نزلت الدرجات العريضة بخطوات مسموعة و عندما بلغت نهاية السلّم، وقفت تعقد أزرار المعطف قائلة بصوت خافت الرنّة، موجّهة بصرها نحو المطبخ "أمي، سأنضم إلى السيدة سميحة "وجاءها الجواب على الفور "حسنا عودي قبل العشاء".

حمل إليها الهواء دمدمة استهجان متفسخة "السيّدة سميحة مجددا، بالكاد تفترقان عن بعضهما,, أتساءل ما هي تلك الأسرار الخطيرة التي تفشيانها لبعضهما ".

كانت ميرنا تمارس هوايتها المفضلة، وتشنّ حملة تحريض رخيصة ضد أثيل، ما إن أنهت عبارتها المسمومة حتى نطق صوت عاطفي رقيق ليدافع عنها "أليست السيّدة سميحة لطيفة؟ إنها و شقيقتي تتوافقان توافقا تاما، كأنهما بالسن ذاته، و هما تحبان بعضهما، أليس كذلك يا أمي؟ "لم تستطع أثيل رؤية وجه ميرنا لكنها الآن حتما تغلي من الغضب وعلى الأرجح هي في هذه الثانية تحدج ياسمين بنظرات تحمل شرّا مستطير، ليس لدرايتها بعدم احتلالها أي مكانة في قلبها فحسب، بل لأنها تبغض أي أحد يكنّ الحب لشقيقتها عدا أمها.

كان مطبخ سميحة غارقا في فوضى عارمة، وكانت الصحون المتسخّة العالقة بها بقايا الطعام مكدّسة فوق بعضها البعض في الحوض، و مجموعة من الدلاء الفارغة مجمّعة في الزاوية، والطاولة التي رفعت عنها الصحون غير نظيفة مسكوب عليها بعض الحساء وعليها فتات الخبز، لقد انشغلت الفتاتان بالمباراة و نسيتا ترتيبه على النحو المطلوب، مهملتين أوامر أمهما التي توجب تنظيفه و تلميعه قبل عودتها من السوق.

دخلت أثيل من الباب الذي تُرك مفتوحا لأجلها فسمعت همهمات انزعاج غير واضحة قادمة من المطبخ، و عندما وقفت عند بابه رأت السيدة تطوف في أرجائه و قد لفّت خصرها بزنار بني يرفع ثوبها عن الأرض، وهاهي ترتّب ما استطاعت و لسانها لا ينقطع عن الشتائم المبتذلة، ومن وقت لآخر كانت تتوقف لتبحث عن أسوأ كلمة يجوز أن تصف بها ابنتيها على خمولهما و إهدار الوقت في مباراة كرة قدم لا يجنى منها أي نفع "الحيوانان، الفأرتان، القذرتان" و جالت أثيل بعينيها في زوايا المطبخ، لم يتّفق لها رؤيته على هذه الحالة الفوضوية من قبل، بينما كان هتافهما المجلجل و وقع أقدامهما على الأرضية يهزّان أركان البيت. خطت أثيل خطوات أثيل بطيئة متحاشية، تبرّ بالنقاط النظيفة وهي متجّهة للجلوس

"سأكسر عظامهما، انظري إلى هذه الحالة يا أثيل،تعالي اجلسي،لدي أخبار دسمة لا يهمك معرفتها، ولكنني سأموت قهرا إن لم أتمكن من البوح بها " و أضاء وجهها مشرقا في جو من الفوضى وهي تنحني لتعدّل وضعية دلو منبطح

_"هل وصلك الخبر، لقد عادت ابنة الحرباء جميلة منذ يومين. اجلسي"إذا ذلك ما أنقذ سالي و ريحان من اللسان الحاد و اليدين المرتعشتين غضبا.

_"دعيني أساعدك لترتيب الأشياء أولا يا سيدة سميحة" اقترحت أثيل بلباقة.

_"لن تلمسي شيء "نهرتها عندما باشرت بخلع معطفها "قلت اجلسي، سأتولّى الأمور بنفسي" وعادت إلى طوافها مجددا دون أن تنظر إلى أثيل، تضع الخضار في مكانها، تسحب الصحون من الحوض، تستعمل قماشة لتجميع الفتات المتناثر، و تتكلّم أيضا بأسلوب حاقد سريع "تلك الحقيرة بدل أن تهتمّ بابنتها و تقدّم لها المواعظ التي تفيدها، تسرح هنا و هنالك بين المعتدّات مثيلاتها، ماذا تسميهن؟" أطلقت ضحكة تهكمية مصحوبة بحركات تخدم الغاية "سيّدات المجتمع الراقي، إنهن متسولات مثلها، لا يجوز تهنئتهن في عيد المرأة، لأنهن لسن نساء، لسن نساء أبدا، ابنتها المصونة لم تمنح زوجها حقوقه الزوجية، الفتاة جاهلة، مع أن فتيات هذا الجيل لا تخفى عنهن خافية، إنها تكتم الأمر عن الناس خوفا من الفضيحة و لكن، لا،كل الشارع قد علم بعارها، أليس هذا مخزيا؟عادت بعد أسبوعين،لقد تمّت دعوتكن إلى حفل الزفاف أما أنا فلا، حتى إن الوقحة استوقفت ريحان في الطريق بكل صفاقة خلق ودعتها هي وسالي، أما أنا،،، ما أعدل الدنيا، سأتكفّل شخصيا بتذكيرها بآثامها في أول فرصة تجمعني بها وأبرهن لها أن دعواتي عليها لم تذهب هباءً،و ذاك الوقح زوجها تجرأ على مخاطبتي بصوت وديع مؤنس "

قلّدت صوته مستعينة بحركات، نشيطة ،منسجمة بينما كانت يداها منهمكتين في غسل الصحون المتجمّعة "إننا نجمع التبرعات لأجل الأيتام يا سيدة سميحة، أنت صاحبة قلب طيب، ولن يضيع أجرك إن شاء الله،الوغد عندما يخسر الانتخابات يتحوّل إلى جمع التبرعات، إن لم يسرق من هناك سرق من هنا،ليلعنه الله، هل يحسبني حمقاء، وصلتني أخبار أنه يتكلم عني من خلفي واصفا إياي بالمهزلة،و المجنونة،أنا مجنونة؟".

غريب أن أثيل لا تؤنّبها اليوم لخوضها في أعراض الناس، إنها لا توجه لها أي تنبيه زاجر كعادتها قائلة "أرجوك يا سيّدة سميحة،لا تتكلمي على هذا النحو المبتذل،ليس صوابا أن تأتي على ذكر عرض الفتاة، أنت كذلك لديك بنات "و ما إن دقّ الاستغراب رأسها حتى سكتت عن الكلام و التفت إليها فقبضت عليها شاردة مسندة رأسها بكفّ يديها و عقلها يتجوّل في عوالم أخرى بينما عيناها تشوبهما نظرة حزينة، ووجهها مغموم،و لم تنفذ كلمة واحدة إلى أذنيها، فرمقتها سميحة بنظرة متشككة ، مستفهمة زاوية ما بين عينيها، ملوية فمها في الاتّجاهين، و أيّدت المواقف السابقة نظريتها في كون الوضع ليس مستجدا، إنها تشرد أينما ذهبت ومنذ شهرين تقريبا تأزّمت حالتها، الآن ستسلب منها اعترافات وستحصل على توضيح مقنع ولن تسمح لها أن تخطو خطوة واحدة خارج منزلها من دون أن تشرح علّتها

وسحبت كرسيا و جلست ثم ضربت الطاولة بقبضة يدها ضربات متكرّرة

_"كنت أحدّث نفسي على ما يبدو،ما خطبك يا فتاة،لا تتظاهري أنك كنت تسمعين. أقسم أنك لم تلتقطي حرفا واحدا،أرأيت!! لم تسمعي كلمة، لن تخرجي من ذاك الباب دون أن تخبريني عن الذي ألمّ بك، أراقبك منذ مدة و لاحظت أنك تعانين من مشكلة ما، على أنني التزمت الصمت لاعتقادي أن القضية عابرة، ما القضية يا أثيل؟ تينك الغبيتين ستنزلان السقف على رأسي"ورفعت رأسها إلى أعلى " لكنني لا آبه، فإن ما ذهبت لتحطيم تلك الشاشة، على الأرجح لن أجدك هنا عندما أعود ككل مرة، فعلتها ثلاث مرات من قبل، لن تفلتي من قبضتي، هل هو ذاك الشاب المدعو خليل، هل هو من تفكرين فيه؟ ألا زلت تحبينه؟ أو ربما وقعت في حب مصيبة أخرى "

_"لا،لا "نفت أثيل مرتبكة "ماذا كنت تخبرينني؟ أعتذر إليك لقد شردت قليلا ".

_" أنت مهتمة الآن بما كنت أقوله؟ كنت أشرح لك فوائد اللوز للقردة "كشّرت سميحة فاتحة ذراعيها "لن تخدعيني بدماثة السلوك هذه، أراهن أنك قد عدت لسخافاتك القديمة، من المؤكّد أن رؤيته يعود على قدميه قد شرّدت عقلك، عاد يتحرّك و تحرّكت مشاعر قلبك معه، أحذّرك من الإنكار يا أثيل، فوجهك كتاب مفتوح و بوسعي قراءته حرفا حرفا"

_"أجل "اعترفت أثيل بصوت ضعيف ، فقد أطبقت السيّدة الحصار عليها ولن يجديها الإنكار، وعلاوة على هذا كانت تفتقد السلام الداخلي ومما هو في صالحها أن تشارك إنسانا ما سرّها المكدّر، سئمت من الصراع الذي يفترسها "إنه هو ".

_"لازلت هائمة بحبه "زمجرت "لقد نسيت أمره لفترة معتبرة، و الآن تعودين لهرائك."

أشاحت أثيل بوجهها و اتّجهت عيناها نحو النافذة و تبعتهما عينا سميحة، كان الجو غائما يمهد لهطول الأمطار والرياح تعوي بلحن حزين متناغم مع اللحن الذي يعزفه قلبها، وقالت بنبرة هادئة

_"لم أنسه يوما،و لا لثانية واحدة "

_"حقا، انظري إلي "عادت أثيل بحركة بطيئة إلى وجه سميحة فتبادلتا نظرة قصيرة ،كانت نظرة مأتمية تحمل في فحواها شيء من الغموض "في السنة الفائتة لم تأت على ذكره مطلقا، كنت سعيدة ومفعمة بالنشاط والحيوية، تذهبين بشكل معتاد إلى العمل مبتهجة متحمسة، ثم تعودين مساءً و كأنك قادمة من قصر فخم لا من صندوق الكتب العتيق ذاك، وأذكر تفاصيل رحلة الشتاء الماضي إلى منزل قريبة زوجي، السيدة عربسة وابنتها، استمتعت كثيرا وضحكت حتى سالت الدموع من عينيك، أتدرين كنه ذلك؟ لأنك نسيته وأخرجته من قلبك عندما اختفى عن

الأنظار ،و لم يعد ممكنا له العمل في الجرائد و الإبداع في الكتابة ونشر المقالات، أما و قد ظهر إلى الواجهة بكامل صحته وعافيته، وطبعا وسامته التي لا تقاوم،فقد عاودتك أحلام النهار ".

_"لقد تغير الوضع " صرّحت أثيل و الارتباك يستبيح محيّاها

_"أفصحي" أجابت سميحة مرتابة و بدأت أفكارها تتجمّع في نقطة واحدة، سخّرت لها كل تركيزها، تُستفز حواس سميحة عندما يتعلق الأمر بالأسرار "لا أحبّ الألغاز،ماذا تقصدين بتغيّر الوضع .فهمت الآن، لقد فعلت شيئا خلف ظهري، كان ينبغي أن أعرف،حسب ما أعلم لم تذهبي إلى أي مكان دون درايتي، إن أمك لا تسمح لك،و كذلك المتوحّش إبراهيم، أفصحي يا أثيل، هل أقدمت على عمل ما؟ يا الله،ظننتك تخليت عن ذاك الهذيان كله ".

وتردّدت أثيل بادئ الأمر و تصارعت الأفكار في عقلها بين تأييد واعتراض على الإفشاء، لكن سرعان ما وجدت الكلمات طريقا آمنا إلى لسانها و تلت على مسامعها الرواية بتفاصيلها فافترّ فم السيدة و أضحت الفتحة تتسع شيئا فشيئا جرّاء الدهشة و راح جفناها يختلجان، وكان حاجباها الرفيعان يرتفعان ويقطبان حتى تتعمّق خطوط جبينها ، ووجهها النحيل يتقلّص ويتمدّد، وعيناها الصغيرتان تضيقان وتجحظان بينما هما متعلّقتان بالشفاه الحمراء المتحرّكة، ويداها تتكوّران على بعضهما تحت الطاولة وأحيانا تنفتحان و تفركان وجهها، ثم تململت في كرسيها لتحافظ على أعصابها وعندما ختمت أثيل سرد قصتها، علق في رأسها المبهوت عبارة واحدة (ينتظرني كل سبت بحديقة القلعة) على أنّها امتنعت عن توجيه أي سؤال رغم أن فيضا منها يتدافع ليقف في الدور، هذا يحاول أخذ مكان هذا، فدفعت كرسيها وانتصبت واقفة ثم راحت تذرع أرض المطبخ جيئة و ذهابا تتنهّد و تزفر و تعثّرت قدمها بدلو أصفر فركلته بعيدا، ولعنته واستمرت على تلك الهيئة تغمغم بكلام متقطّع و أثيل تلاحقها بعينيها، و لم يعن لها أن تستوضح منها السبب خلف ذرعها أرض المطبخ و على نحو مربك توقّفت وطرحت سؤالا مثبّتة عينيها على الوجه الحائر محرّكة سبابة يدها

_"هل قلت أنه ينتظر كل يوم سبت بحديقة القلعة، و منذ ثلاث شهور؟ "استفسرت بشيء من الشكّ و الاتّهام الذاتي، كأنها تطعن في سلامة أذنيها أو ترتاب أن عقلها قليل الاستيعاب، فهزّت أثيل رأسها في إيماءة موافقة.

_ "إذا أذناي سليمتان و عقلي لم يتلف بعد، لا داعي لعرضه على طبيب "سخرت محتفظة بالنبرة الثابتة في صوتها مع أنها كانت تودّ أن تصرخ في وجهها ،و حفّز الجواب دهشتها، إنها تومىء برأسها أن نعم كما لو أن الأمر طبيعي، ثم استأنفت المشي ممسّدة جبينها بقوة، و عقلها يدور في

دوامة من قلّة الفهم و سرعان ما خطر لها سؤال سعيد من بين مليون فعزمت على طرحه قبل أن يضيع وسط الجمهور فتوقّفت و حملقت إليها

_"ألست تحبينه؟ " ومرة ثانية أومأت الفتاة برأسها أن نعم، كان المشهد يشبه في مجمله تحقيقا بوليسيا يقصد منه جرّ المتهم المراوغ المنكر للاتّهامات إلى الإقرار بجرمه، و ليس للمحقق إلا التحلّي بالصبر والمرونة لأجل سحب الاعتراف و إيقاع المتهم في الفخ، و رغم أن أثيل سردت عليها القصة كاملة بجدية واثقة إلا أن سميحة أحسّت أنها تسخر منها: طالما هي تحبه إلى ذاك الحد إذا ماذا يمنعها من لقائه؟"و لم تستطع توجيه استفسار مباشر لأن أثيل لو كانت تريد لصرحت مباشرة

_" خ ل ي ل"نطقت الاسم بتهدّج و بطء "نقطة فوق الخاء و نقطتين تحت الياء.أصبح صيد الرجال أسهل من صيد الفئران " و ضحكت ضحكة بلهاء "إذا فأنت الفتاة الرائعة التي أعادته إلى مضمار الحياة بعد أن زهد فيها، لقد قضيت السنة تكتبين الرسائل إلى جندي الحرب مشلول القدمين لأجل تشجيعه، إنك تحرزين تقدّما ملحوظا يا فتاتي الخجولة،لم أعرف من قبل أن لك هذه المواهب، تبين أنك جريئة .رائع، رائع، رائع " ردّدت الكلمة ثلاث مرات و هي تصفّق، و لم تتمكن أثيل من قراءة وجهها،ما الذي يزعجها على وجه التحديد،ألأنها لم تطلعها من قبل؟

"سؤال آخر إذا سمحتي لي يا أثيل،هل تأذنين بطرح السؤال "قالت باستهتار و قد اشتعلت عيناها بالامتعاض، و أسرعت أثيل تحرّك رأسها أن تفضلي

_"أشكرك،ألم تقولي أن التعس يجلس في الحديقة كل سبت ليقابلك ؟".

_"أجل "أجابت أثيل بنبرة متأسفة، زادت من حنق سميحة، و غصّت بفضولها فأحسّت أنها ستنهال عليها بالضرب

_" ألا تريدين إنهاء فترة انتظاره، أقصد ألا تريدين مقابلته؟ ".

_"لا "و مرة أخرى هزّت رأسها معترضة و لكن سحنتها كانت حزينة .

_"لا تريدين،ها "صاحت سميحة متشدّقة ثائرة ثورة مكبوحة بلهجة مطاطية، مستندة بكلتا يديها على ظهر الكرسي متصنّعة الرتابة "لا تريدين !؟،لقد شرّدتني في المستشفيات و الحافلات، وأذكر أن الشمس شوت رأسي، و لست أنسى كيف التصقت ثيابي بجسدي من العرق و الدبق، وتحوّل وجهي فغدا كوجوه الهنود الحمر. لو أن قدميّ تنطقان لرجمتاك بسيل من اللعنات، والآن أنت تتكبّرين عليه "

وأرسلت شفتها السفلى في رحلة تهكّم هازّة رأسها هزات الهزء" كنت أجهل أنك بهذا اللطف المستحكم، تتركين الرجل ينتظر في الحدائق، هل تمارسين عليه حيلة نسوية أو هي أساليب

جديدة لصيد الرجال، أو على الأرجح أنت تطبقين عليه إحدى النظريات الفعّالة: كلما انتظرك أكثر كلما تعلّق بك أكثر،تلك طرق ممتازة لإبقائه معلقا إن كنت تحتاجين رأيي ".

على نحو سريع انقلبت النبرة في صوتها من هادئة ساخرة إلى حازمة حادة وتخلّت عن لامبالاتها المتصنّعة بفعل الصمت المطبق، فأثيل لم تحر جوابا و ما عتمت أن جلست على كرسيها

"أثيل،هل تسخرين من عقلي الآن، لا تودين لقاءه، ماذا دهاك؟ لست من يتبنّى حيلا رخيصة كتلك،أحفظك عن ظهر القلب، ولكن رأسي يكاد يتخدّر، أجيبي بسرعة،ما الذي يمنعك من مقابلته؟"

طأطأت أثيل رأسها و من خلال الوجه المتّشح بالألم قالت

"لا أريد و كفى، لن يستمر في تصميمه،سرعان ما سيملّ و يتوقّف "

_" ألست تحبينه؟ "عاودت طرح السؤال منفعلة بفعل الحيرة ومرة أخرى لم تتلق جوابا "ارفعي رأسك،و انظري في عيني،ذات مرة قلت أنك ستموتين إن ما أصابه مكروه ،فما الذي حصل الآن!! تودين أن لا يأتي ... أثيل "

ران السكون للحظة، التقطت سميحة أنفاسها المتقطعة ثم مضت تقول وقد أمالت رأسها إلى الأمام

"هل تخجلين بعائلتك؟، أيكون عمل أمك السابق هو السبب الحقيقي خلف رفضك؟"

تخلّل صوتها شيء من الازدراء و أردفت "لا يوجد تفسير منطقي إلا هذا،على أنني لا أصدق أنك أنت من تفكرين على هذا النحو "

كان الشعور بالمرارة يعتمل في قلب أثيل و عيناها توشكان على ذرف الدموع إلا أنها تمالكت نفسها،ما أشقاها وما أتعس حظها. وبالكاد همهمت بين أسنانها همهمة قصيرة وعيناها تعتكفان النظر إلى أسفل "ليس الأمر كذلك"

"إذا؟"سألت سميحة باقتضاب

_"ليس لدي ما أقوله يا سيّدة سميحة " رفعت لها عينين تشيان بألم وبؤس لم يسبق لسميحة أن قرأته فيهما ، فغمرها شعور بالشفقة و رقّقت لهجتها و قالت بلطف

_"لا تنزعجي يا أثيل، لا أريد إلا مصلحتك، لست أفهمك يا حلوتي، و إن ما شرحت لي فبوسعي تفهّمك،لا تكوني غبية فتضيعي الفرصة "

_"هل نغير الموضوع يا سيّدة سميحة، ليس لي رغبة في التعمّق أكثر،كنت ضد الفكرة من أساسها "صاحت أثيل برمة وأحسّت بالندم، لأنها تهوّرت و أحاطتها علما بسرّها، و أملت أن تراعي سميحة رغبتها

_"كنت ضدها قبل أن يجلس في الحديقة يراقب الذاهب و العائد و يحسب عدد أغصان الشجر،أعرف السبب الحقيقي "قالت سميحة متجاهلة ملاحظة أثيل عن تغيير الموضوع على أن جملتها هذه أثارت بعض الخوف في قلب أثيل وجعلت وجهها يتغيّر لونه،و معدتها تضطرب، هل فعلتها ميرنا وأفشت للسيّدة سميحة بدل أمها وأجابت نفسها بالطبع لا،و إلا كيف تستقبلها وتستمر بصداقتها إذا ما الذي يدور بخلدها ؟

_ "لا تكوني غبية، لا تحرمي نفسك من السعادة لأجل أحد، لقد أعطيتهن ما يكفي و سلخت حياتك لأجلهن، يا بغلة ،ستكبر ياسي و تتزّوج و كذلك تلك البومة ميرنا، أعتذر لم أقصد وصفها بذلك " وأطبقت يديها معتذرة

_" بينما تذهب أيّامك سدى، أصغي إلي يا أثيل لا تعقّدي الأمور، اشرحي له أنك مسؤولة عن عائلة، وأنهن مسؤولية واجبة، وعليه تقبلّهن، و كذلك عليك أن تستمري في العمل لأجلهن والإنفاق عليهن إلى حين تزّوج شقيقتيك".

مرة ثانية أحسّت أثيل برغبة في البكاء و استبد بها شعور بالعجز الفائق و المرارة الناهدة ،ليت عقد الحياة تكون بهذه البساطة، ليتها اقتصرت على مسؤولية معلّقة في رقبتها، لما كانت لتنتظر مواعظ من أحد، و لركضت إليه منذ أول رسالة منه يستدعيها للقائه، و قبضت على طرفي فستانها وكتلة من الغم تثقل صدرها فتنهدت، و لكنها التزمت الصمت و لم تقل شيء، ماذا عساها تقول، ولم تعلم سميحة أنها قد أوجدت عذرا جيدا تستعمله أثيل للتنصّل من إلحاحها، و هكذا أطالت السكوت و نتيجة عدم تلقيها جواب أردفت

"لماذا تستخلصين النتائج قبل أوانها، و تحكمين على نفسك بالإخفاق دون أن تجرّبي .لا تقرّري بدلا عنه .على الأرجح أن تلك الحواجز التي تبنينها لا يعترف هو بوجودها، و من الممكن أن هناك شيئا جميلا بانتظارك بينما أنت تجلسين هنا و تشيّدين سياجا من الخدع الفكرية،إن عقلك يخدعك يا حبيبتي "و سمعت قلبها يدوّي و يهتف "أرأيت؟ حتى السيدة سميحة شهدت ضده،ملعونة نصائحه، متزمت ككاهن".

استطردت سميحة

_"إن الرجل مهتم بك، وإلا لماذا يقطع كل تلك المسافة؟ ليس ليجلس تحت المطر والثلوج و تلفحه الشمس والرياح، فبوسعه الجلوس في حديقة منزله إذا أراد ذلك، و إن ما رآك يا أثيل، إن ما رآك "كرّرت بلهجة غنائية و تألقت عيناها ببريق الإطراء " سيفقد عقله. أجل،لا تنظري إلي بتلك الطريقة كأنك لا تعرفين أنك تخلبين عقل أي رجل يراك، و لن يكون السيّد خليل هذا استثناءً، سيقع أسير سحرك من النظرة الأولى،حتى مع أثوابك البسيطة"و ابتسمت ابتسامة سرور

"أتذكرين مهضوم الحقوق ذاك؟، لقد ظننت أنه سيخطفك لكثرة ما نظر إليك، وكنتيجة لنظراته الملتهمة لم تستحسن الحقيرة حسناء وجودك ليلعنها الله، و ليس بوسعي عدّ المندفعين للزواج منك،إنهم بلا حدّ.كلما ذهبنا إلى مركز نعود بعرضي زواج أو ثلاثة،و تذكرين يا أثيل عندما ذهبنا إلى الريف، تقسم السيّدة بارق أنها لم تر أجمل من وجهك، بالمناسبة إنها تلحّ على اصطحابك معي مجددا،من الواضح أنها لم تحب بغلتي، فهي لم تأت على ذكرهما ، إنهما مثبطتان للهمّة باعثتان على الغثيان،أليستا كذلك؟ و جميع أهل الريف الذين قابلناهم أطروا جمالك. لا أحد بوسعه حجب الشمس،أنت جميلة، فتانة يا حبيبتي، إن جمالك يغطّي كل نفقات فقرك و مسؤولياتك، ولو كنت محامية يا أثيل لحُلّت كل مشاكلي القضائية،مع خلع بعض ثيابك عنك، ستخدّرين عقل القاضي اللعين وهكذا كان سيحكم لصالحي".

دهمت أثيل عاصفة من الاقتناع غير مبالية بالخسّة الأخيرة، ثم انشرح وجهها قليلا كأنها كانت تبحث عمن يشجّعها، وأخذت العبارات تتردد في عقلها تبغي أن تستوطن ولكنه نبذها بسرعة،إن ذنبها كبير و لا يغتفر و مصيبتها عظيمة، على أنّ الألم الناجم عن صدّه يجعل الحياة بلا لون و بلا ضوء،ألم شبيه بالجحيم،هناك قوة أكبر منها تحثّها على الذهاب إليه "سيحبك يا أثيل، بل سيهيم حبا بك، ليس لجمال وجهك فحسب ،بل إنه بعد أن يكتشف كم هو نبيل قلبك ومترفعة طباعك وكم أنك فتاة مصقولة طيبة ،سيرضى أن يعيل حتى سكان الشارع الذي تقطنين فيه وليس عائلتك فحسب،الحب يا أثيل، الحب يفعل العجائب و يحطم كل العقبات و يصنع المعجزات،حتى إنني أسمع قصصا عن رجال تزّوجوا فتيات غير صالحات، بوسعك الفهم طبعا،أقصد بائعات الهوى" انفعل وجه أثيل و أربدت شفتاها ، بينما خفق قلبها خفقة مدوّية و أرسلت نظرة غريبة إلى سميحة

_"لا تتفاجئي على هذا النحو،لم يكن ينبغي أن اتّخذ من تلك الفئة مثالا، و لكن أجل إنني أسمع هكذا قصص،يتزّوجها لأنه يحبّها مهما كان وضعها،ألم أخبرك أن الحب كالسحر يبدّد كل الحواجز،و يضيئ أي طريق معتم،إنه قوة عظيمة،منذ الأزل كان الحب ينهك غرور أي رجل، وينزل كبرياءه إلى مستوى حذائه،و أنت أيتها الغبية "كانت لهجتها رقيقة ناعمة، كأم تحدّث ابنتها المدللة العزيزة على قلبها "تعتقدين أن مسؤولية عائلتك ستكون عائقا في طريقكما".

سمعت قلبها يهتز خافقا طروبا متجاوبا بسرور ، كأنه يرقص ويغني وسبحت كلمات التشجيع في بحر من الاستحسان و القبول و الشغف ،و بسرعة اتجهت رغباتها نحو قرار جديد وانفتح لها أفق مشع بالآمال اللامعة، وبالسرعة ذاتها استرجعت حوارا دار بينها و بين العجوز راضية، إنه يطابق ما تتلوه سميحة،فابن شقيقتها تزّوج فتاة من ذاك النوع لأنه أحبها حبا صادقا فتجاهل آراء

المجتمع وتحدّى العائلة المحترمة في سبيلها،ثم اتّخذها زوجة لا عشيقة،و في ركن ما من ذاكرتها استعادت على نحو ضبابي أقوالا صرّحت بها العجوز صفية ، ليست تذكرها على وجه التحديد و لكنها قالت أشياء عن استحالة نكران الرجل لدعم المرأة.

أجل إن الحب يصنع المعجزات، أجل، ربما تشملها هذه النظريّة أيضا، و سلمت بها كأنها تعتنقها منذ صغرها،و ثانية شردت بعيدا،هي فقط كانت تبحث عن من يجدّف بها إلى هذا الشاطىء،من الممكن إن هي شرحت له دوافعها وأن أمها كانت على شفير الموت، وأن البيت كان يحتاج تضحية كتلك،و أن شقيقتيها كانتا ستضيعان ،و أن جبروت الفقر تكسر حتى ظهور الرجال، وأن الأجساد لم تبع لهوانها وقلّه شرفها، بل لتدفع بها شبح الفاقة والموت. إن الحب يصنع العجائب إن كان صادقا حقيقيا نابعا من قلب صاف كسماء الصيف الزرقاء،و الغرور الذي لم يكن صفة شمسية عند أثيل انتفض فجأة،إنها جميلة،فتانة،و قلما نجحت أعين الرجال في مقاومة جمالها و بوسعه مساعدة خليلها على تقبل آثامها ،و لما كان يحب أمه المتوفاة حبا عظيما و يعرف أكثر من غيره مرارة خسارة الأم ،فإنه يستطيع أن يجد في دوافعها الإنسانية، المتعلقة بأمها ذرائع كافية ليفهمها ، و تخمّرت الفكرة في عقلها و سرى في عروقها تيار دافق من الأمل الرحيم، و استسلمت للمواعظ المشرقة، وأحسّت بالجليد المحيط بقلبها يتكسر و يذوب رويدا رويدا، و دون أن تحذر أو تهتم ابتسمت.

كان كل ما قالته سميحة مرضيا مقنعا لذيذا موازيا لرغبات قلبها وما عتمت تريد تصديقه بقوة (ربما ينتظرك شيء جميل بينما أنت هنا تبنين الحواجز)و استخذى عنادها،و احتلّت وجهها بشائر الأمل فأشرق بشعاع مبهت للعقول وهكذا اندمجت العوامل التي تبيح لها التسرية عن نفسها .فقد بعثت بوجه الخطيئة البشع إلى المجهول،و خطفت من كلمات سميحة عبير الجرأة،و من رسائل خليلها المصمم التأييد المطلق المتناغم مع رغبتها الشهية،و من قصة ابن شقيقة راضية استمدت النظرية التي تغلب المنطق. لطالما أيدت أثيل مقولة أن الندم على السكوت خير من الندم على الكلام و لكن لا، كانت ستتلوّى ندما طوال حياتها لو أنها سكتت،من الرائع كثيرا أنها أفضت وتكلمت وانتبهت سميحة إلى انشراح السحنة العابسة وتمدّد الجلد المتقلص،وفهمت أن أفكارها المصبوبة في عقل الفتاة تضحك وترقص و تحلق فاستمرت مشجعة

_"إذا يا أثيل، هل اقتنعت أن ما ينتجه عقلك مجرد هراء، قابليه يا عزيزتي" وربّتت على يدها بحنان، غير أن أثيل أخلدت إلى الصمت ، إذ أخذت رغبتها الناضجة ترتفع إلى عقلها العنيد أعلى و أعلى و نضبت مقاومته ،فحالت دون اعتناق ما يصنف في منطقه جنونا بحتا

ولم يعد وجهها ينقبض في تمنّع واعتراض، وبدا لسميحة أنها أقنعتها أخيرا،فالسكوت علامة الموافقة والوجه البشوش المضاء بابتسامة رضية يؤيد ذلك ،و لهذا حان وقت إسداء النصائح للفتيات الساذجات أمثالها

_"و الآن يا أثيل سنسلّط الضوء على زاوية أخرى "قالت عبارتها مسندة ظهرها إلى ظهر الكرسي، مشدودة الصدر بغرور المرأة المحيطة بشؤون الحياة و تقلباتها، المرأة الحذرة الحكيمة الصارمة كأنها مديرة مدرسة، وهكذا استيقظت الفيلسوفة النائمة

_" يتعين علينا تقليب جميع الاحتمالات على وجوهها حتى لا يخدعنا أحد، كما أن الحب قد يودي أحيانا بالمرء إلى تكبّد بعض الخسائر إن لم يرافقه وعي و فطنة " فتغضّن جبين أثيل بفعل المفاجأة وقلة الفهم، منذ قليل قالت إنه يصنع المعجزات فما باله الآن يكبّد الخسائر، أي فلسفة متناطحة هذه. فعلا إنها متقلبة المزاج، و رغم ذلك استنفرت حواسها خاشعة في طيات الفلسفة الواعدة

_"ماذا نعرف عن الرجل؟ "سألت و قبل أن تجيبها أثيل أجابت نفسها.

_"نعرف صفاته الجسدية، وسيم جدا، شعره أسود فاحم، وعيناه بنيتان فاتحتان "

على الأرجح أن سميحة معجبة به أيضا قالت أثيل في نفسها "ااه، هناك صفة تعجبني، إنه عدو لدود للحكومة البائسة، يذكّرها بحسناتها في كل مرة" وضحكت ضحكة صفراء "ولكن، ولكن" ورفعت حاجبها وزمّت شفتها لكونها حاذقة نبيهة، وتابعت أثيل حركة فمها، محملقة بلهفة

_"لا نعرف سلوكه مع النساء يا حمقائي، و إلى أن يثبت لنا أنه رجل مؤدب مع النساء، عليك اتّباع التعليمات تحسبا لأي تصرّف حقير من طرفه، سأشرح لك، لا تفتحي فمك مثل سمكة، فأنا لا أتّهم فتاك الشجاع بأي نذالة إلى الآن، إنني فقط أخمن، ألم تكتبي له عددا كبيرا من الرسائل؟ والله وحده يعلم ما يدور برأسه الآن؟ "

فأومأت أثيل برأسها تستعجل النتيجة، وغلبت الدهشة على ملامح وجهها بينما الحيرة تختبىء وتبرز "لربما اعتقد عديم الخير أنك فتاة متاحة، سهلة المنال وأنك تركضين خلفه، ولم يكن حضوره إلى الحديقة كل سبت إلا استجابة ذكورية خبيثة لدعوة أنثى ساذجة خرقاء، ربما يفكر على ذاك النحو ويودّ استغلالك "و غمزت "تفهمين قصدي "

لا، إن خليلها لا ينتمي إلى ذاك الصنف الرديء من الرجال، إنه مهذّب محترم،و لقد حرصت والدته على تنشئته تنشئة صالحة، و لهذا كشّرت محتجّة

_"إن ما رأيتك تكشّرين مرة أخرى، سيسعدني أن أسكب سطل ماء بارد على رأسك" زمجرت مهدّدة "إنه مجرد احتمال، و يتعين إدراجه و دراسته أيضا على نحو جدي، لست أرمي إلى إلصاق

تهمة الاستغلال به، ربما يبيّت لك هذه النيّة و يستدرجك إلى شقة معزولة بحجة ما، أو بفعل تأثير كلامه المعسول، الرجال مصنع ذائع الصيت في إنتاج ذاك النوع من الكلام المعسول. و بمجرد أن ينفرد بك يوجّه لك الضربة القاضية و يقضي عليك"و فرقعت أصابعها

يا للإبداع النسوي النائح، يا للتفكير الفلسفي الغريب .

"لا تدافعي عنه، نادر و مميز ومختلف عن غيره، الذئب لا يتوه عن القطيع،قد يشارك الرجال في أشرف المواقف وأكثرها نزاهة بضمير حي صادق، و يبدون بأسا و شجاعة وأدبا قلّ مثيله ويشاد بخصالهم الحميدة، و لكن هذا أبدا لا يمنعهم من استغلال النساء،إنهم شياطين في ذلك، ماذا نفعل إنها غريزة الرجل يا حبيبتي، لا تستثني إلا العجائز و الفتيات الصغيرات، حتى القبيحة لا تسلم، عندها يرسلون ضمائرهم إلى غرف النوم. علاوة على ذاك، إنك فاتنة وقد يفقد الرجل عقله إذا رآك،ألا تذكرين رحلة القطار،كيف وافق ذينك الغبيين على التحاور معي لأجل عيونك السوداء. إن أحسنهم قد يصمد في وجه سحرك نصف ساعة على أكثر تقدير حتى تثور عواطفه المفتونة، و على هذا الأساس ينبغي أن نجهز لإجراءات تحفظك من الاستغلال"

_"و لكن خليل..." غمغمت أثيل ثم سكتت فأدنت سميحة أذنها قليلا وقد تحفّز الشر في عينيها "ماذا قلت،هل تحاولين الدفاع عنه؟ "

_"إنه ليس خسيس، إنني أعرفه من رسائله، لقد قرأتها جميعها ".

_"لا تصدّقي ما يقوله الرجال،إنهم يكذبون في الدقيقة ستين مرة، أرى أنك ستستسلمين بسهولة و تذهبين معه إلى جهنم إن طلب منك ذلك ".

_"لن يطلب "أبدت أثيل دفاعا قويا .

_"و كيف عرفتِ، أقلبك من يدر عليك بهذه الثقة؟ لن نتناقش بهذا، إنني أضع قرطا في أذنيك حتى يذكرك إن ما أبدع فتاك حقارة و نذاله، ولهذا،إن حاول الاقتراب منك أو عرض عرضا سافلا فأريه ".

_"أريه؟ كيف ذلك؟ "استفهمت أثيل مشدوهة

_"اصفعيه،هكذا "و رفعت يدها في الهواء ثم هوت على حافة الطاولة "أثبتي له أنك فتاة محترمة شريفة و أنك لا تسمحين أن يداس على كبريائك،لأنها خط أحمر".

و انفتحت مقلتا أثيل من الدهشة حتى بدت عيناها مفرطتي الاتّساع و أقنعت نفسها أن لا داعي للضحك، ما أوسع خيال سميحة، وانتصبت بين عينيها صورة خليل بوجهه المصفوع ،فابتسمت و هي تراقب جدية الوجه النحيل الساذج و استرساله في الأمر كأنه قضية محسومة "أصفعه؟ لكن، لكن"

_"إن لم يعجبك اقتراحي فقدمي له وجنتيك المورّدتين ليقبلهما أو ربما..."و زحفت عيناها قليلا مبتعدتين عن وجنتيها ،على أنها لم تتمّ العبارة خوفا على طهارة أذني الفتاة " أما إن عرض الذهاب إلى شقة مرة واحدة، فينبغي أن تتصرّفي بشكل آخر ".

_"كيف؟ "سألت أثيل بصوت يتصنّع الاكثرات ليس لأنها تصدق تنبؤات السيّدة، فهي أبدا تؤمن بشهامته و نبل أخلاقه، و لكن سميحة تقحمها دائما في حوارات من هذا النوع فتضطرّ كارهة إلى التفاعل بل والتجاوب.

_"سؤال جيد،ستفعلين التالي، أولا هناك مجموعة من الشتائم التي تقتضي منك حفظها، اختاري اثنتين أو ثلاثة و اقذفيها في وجهه وغد، حقير، سافل،نذل،وضيع،قذر،منحط. مرفقة بانتفاضة من جسدك. ثم بنبرة من بوغت بعرض دنيء كهذا، تصنّعي الغضب وأظهري تجهّما، صائحة في وجهه :ألأنني حاولت مساعدتك؟، حاولت تشجعيك لإخراجك من حالة الحزن والألم التي كنت تتردّى فيها؟!اه ما أقذر تفكيرك!،ماذا تظنني! فتاة رخيصة؟ لست أبدا من ذاك الصنف."

هنا سيستدرك خطأه و يحاول استرجاع ثقتك فيقف متوسلا: أرجوك يا أثيل كنت فقط أريد أن نبقى لوحدنا بعيدا عن الضجيج و التطفّل، لست قذرا" وظهرت كممثل بارع في مسرحية وذابت في الدور: بل إنها راحت تلعب كل الأدوار تسأل و تجيب، توجد العقدة و تفكّها، تقترح وتتوسّل، تتجهّم و تنشرح، تنتقل من فعل وردة فعله بلمح البصر" إياك أن ترضي بالبقاء،ادفعي المقعد بقوة، لا، نسيت إنه مثبت في الأرض ولا تستطيعين دفعه، انسحبي منه بعنف وجسدك يرتجف من الضيق "كيف وصلت سميحة إلى هنا، ما هذه السخافات! "للدلالة على حالتك العصبية،عندها سيحاول استعطافك بالحالة التي كان عليها، كما أنه سيقحم أمه في عباراته ليستدرّ بعض الشفقة، كلهم أوغاد يستثمرون في أمهاتهم وقت الحاجة، ولن يعتذر لأنه يشعر بالذنب، بل ليخفّف من حدة حنقك و يحاول التهدئة من روعك، لا تبقي حتى لو شيدت توسلاته أبراجا عاجية. اقبضي على حقيبتك و انصرفي، وسوف لن يلحق بك، لأن الأعين ستكون عليكما، وحيث أنك قد نلت احترامه، و جذبت انتباهه،و تحقّق أنك فتاة شريفة سيفعل المحال لأجل كسب رضاك، سيبعث رسائل و رسائل، لن تجيبي بادئ الأمر كي تظهري أنك مستاءة مع أن قلبك لن يطاوعك، فيما بعد من الممكن أن تعفي عنه شريطة عدم تكرار تلك الدناءة. بهذه الحكمة تخضعينه لك ".

_"إن خيالك واسع يا سيّدة سميحة "قالت أثيل بفتور و عندما لمحت أنفها يتجعّد أسرعت تصحّح "لكن معك حق، على المرء أن يحتاط".

_"هذا يعني أنك ستذهبين "علقت سميحة و قبل أن تجيبها أثيل، وقفت ابنتاها على عتبة باب المطبخ تنشجان نشيجا متقطعا، تسند كل واحدة رأس الأخرى، لا تتوافقان إلا عندما تشرعان في شتم الحكام المشرفين "أمي لقد خسرنا ،سجّلوا علينا هدفين، مال الحكم إلى الفريق الآخر.لقد اشتروا نزاهته."

بسرعة نقلت سميحة بصرها بين أغراض المطبخ، السكين الحاد، الدلو الأحمر الفاقع، ملعقة كبيرة حتى استقرتا على كوب معدني فقذفتهما به، ولحسن الحظ اختفيتا قبل الاصطدام، فارتطم على الحائط المقابل وسقط على الأرض محدثا قرقعة مزعجة " سأعرضكما للبيع".

الفصل الرابع

أشرقت الشمس، بعد أن أمطرت طوال الليل مصحوبة بريّاح عاتية هزّت النوافذ و الأبواب مصدرة صوتا كئيبا باعثا على الكدر و امتدّت طوال النهار، و أضحت الأرض رطبة ، على أنّها كانت شمسا باهتة شحيحة الدفء، تظهر من وقت لآخر بين السحب الرمادية.

قاربت الساعة العاشرة عندما كان خليل كالمعتاد كل يوم سبت يجلس وحيدا إلى أحد الطاولات منكّبا على قراءة كتاب.لو أن أي شخص في مكانه كان سيفقد كل أمل في مجيء من ينتظرها لمقابلته، و رغم أنها كانت حقيقة واضحة ومسألة جلية إلا أنه رفض التسليم بها،و لم يؤمن إلا بما يمليه قلبه:ستأتي ذات يوم،ربما ليس اليوم أو غدا، ربما ليس الشهر القادم أو الذي يليه،و كذلك ليس السنة القادمة، لكنها ذات يوم ستأتي، وينبغي عليه أن يكون حاضرا هنا موجودا عندما تأتي، كان هذا إيمانا راسخا تماما كالإيمان بوجوده هو.

كانت بعض الهواجس قد أرهقت عقله وأرهبته وأفزعته، هواجس تقول بلسان ساخر: ربما ليست حقيقية،أو أنها وهم من صنع خياله، أو من الممكن أن تكون أحد المقرّبين منه،قد تكون ابنة عمته في محاولة منها لاستدراجه خارج عزلته الكسيحة، فخلقت تلك الشخصية الوهمية والتزمت الصمت فيما بعد تحاشيا لصراخه في وجهها وتوبيخها على الاستهتار بمشاعره، أو ربما يجعل من نفسه أضحوكة لخطّة منتقمة مرتّبة بتخطيط دقيق من طرف بعض الحقودين كما أوعز له عمر.ربما يجازف بسمعته و كرامته من أجل لا شيء ،و بينما يجلس هنا كالأحمق ،تراقبه عيون ساخرة من مكان خفي لا يراه فيها ،بعد أن تكون قد قرأت كل تلك الرسائل التي كان فيها سخيا جدا بعرض حياته و مشاعره الممتنة.

وحيث أن شهورا مرت دون أن ترسل حتى رسالة أسفر ذلك عن غارات من الشكّ، الشكّ الذي صدّه بثقة صامدة وتجاهل ماهر، ليست أحد المقرّبين و لا أحد الأصدقاء،لا يستطيع أن يصدق ،إن قلبه مثل الخريطة يطمئنه أنه على المسار الصحيح و أنها موجودة حقا، مصنوعة من لحم و دم اسمها كما ذكرته وسنها كما دونته، وكل الأماكن والأشخاص و الروايات التي استعلمت بعناية لغرض تشجيعه وتقوية إرادته حقيقة لا تنسب لأحد سواها، هي تعيش تحت سقف إحدى هذه البيوت، ربما قريبا من هنا أو بعيدا، ربما في قرية من القرى الواقعة على حافة الطريق أو على أميال منها، وإن كان لا يراها ككائن حيّ نابض القلب، فإنها تسكن قلبه المشوّش المتعطش لرؤيتها.

أول شيء تفعله ابنة عمته عندما تنهي كتابة رسالة تبلغ من الاقتضاب حدا يسوق متلقيها لتشبيهها بالرسائل الإدارية الرسمية هو التنهد العميق كأنها خلصت كاهلها من عبء ثقيل ،فهي لا تكره شيئا ككتابة الرسائل و كان هذا معروفا لدى خليل ،و رغم ذلك فقد رغب في إسعاد نفسه

بإزاحتها من قائمة المشكوك بهم التي فرضت نفسها عليه ،لم يسألها مباشرة ،فقد كان يملك من الوعي ما يكفي ليدرك أنها ستصنف ما يفعله،مراهقة متأخرة و طيشا صبيانيا ،و إنما اعتمد على علامات تورطها في عملية ما و التي لم تكن لها القدرة على إخفائها منذ طفولتهما :ارتباك قرمزي واختفاء من أمامه و تلعثم في الكلام ،و لم تتسلط عليها أي من تلك العلامات عندما حام حول قضيته بحذر و دون أن يثير شكوكها،و بينما هو يخرج من بيت عمته ،أيقن سخافة تلك الشكوك، و ندم عليها ،لقد كانت تحبه كثيرا كشقيق لها و تهتم لمصلحته لكن ليس إلى درجة كتابة رسائل كتلك ،لقد كان واضحا أنها من فتاة أخرى ،و فتاة معجبة به كثيرا ،و مستعدة لفعل أي شيء لأجله.

و لما كان عمر صريحا لا يتردّد في وصفه بالأحمق و المتوهّم،و سؤاله هازئا إن ما كان الشبح المجهول قد تنازل متكرّما لمقابلته، فقد انفجر غاضبا السبت الماضي عندما عاد بخيبة مفحمة وأماني مشوّهة، و لم يكن غضبه كنتيجة للنعوت التي مُنِيَ بها، لا، لقد تسرّب خوف متمكّن إلى قلبه، خوف من عدم وجودها كإنسان ملموس،خوف تبرّأ منه بسرعة لارتباطه بانهيار عالم بأكمله، وسرعان ما هدّأ من روعه و هجر انفعاله ثم راسله معتذرا موضحا أن غضبه كان نتيجة إحاطته بزمرة من الكادحين الخمولين،و حيث أن عمر يجد المسألة مجرّد فخٍّ لجعل صديقه المقرب مهزلة مضحكة أو ربما إيقاعه في شرك خبيث، نصّب نفسه ناصحا متخفيا صبورا تجنبا لإثارة عصبيّة خليل التي لا تخفى نتائجها على أحد.

إن وضع الجريدة في الواقع لم يكن يتحسن إلى الدرجة التي كان يذكرها خليل لأثيل في الرسائل،فلقد تعمد تجميل الكثير من الوقائع المحبطة كيما يبدو راضيا عن عمله المخالف لطبيعة تفكيره و طموحه و السبب كبرياؤه التي تأبى إظهار العجز،لقد كانت في الواقع مجرد روضة أطفال ،و رغم أنه كان يتصور من البداية بيقين فلكي عدم تناسبها مع معاييره العالية إلا أنه لم يتوقع أن تكون بهذا الهزال،على أن ذلك لم يكدره بقدر ما كدره غموض فتاة تعيش في مدينة س.ب ،مدينة كبيرة جدا ،قد يعثر فيها على إبرة ،لكنه لن يعثر على مكتبة تبيع الكتب لرجل لا يعرف كنيته ،لقد خطرت له الفكرة و ما لبث أن طردها و لم يعد يستقبلها في عقله.

وساوره إحساس بالألم مرة على مرة، وكانت المرارة تنقضّ عليه عندما يخلد إلى الفراش فيبقى يقظا متفطّنا ،محدّقا بعينين مفتوحتين إلى سقف الغرفة، باحثا عن تفسير يمكن أن يعلّل امتناعها مقابلته، فلم يجلب لرأسه إلا صداعا، بيد أنه لم يوجّه لها أي لائمة، ولم يحدث أن كتب في رسائله عتابا أو توبيخا أو خانه ضيقه في ردع الوداعة من الظهور، رغم ما يتكبّده من أحزان و يشعر به من إرهاق نفسي وخيبة مريرة ،حرص حرصا أريبا على التزام الهدوء في رسائله تحاشيا

لتكديرها أو إخافتها، وحرص كذلك على إخراس نوبات الغضب من تجاهلها، ولم يتحاش عقله تنبيهه إلى حجم الإهانات التي يتعرّض لها، على أن شعوره الرقيق نحوها شعوره بالشكر الخالص والامتنان الباسل و شعور آخر كان يصعب تحديده، كانوا يسدّون كل ثغرة يوجدها عقله أو يحدّدها عمر صديقه.

كان الوضع مخيبا للآمال أكثر مما رغب في الاعتراف، وكلّما يأتي السبت تصطدم الشجون بالمخاوف، لتنغّص عليه عيشه، عازفة على أوتار عقله نغمة عدم قدومها، إنها مجرّد بدعة لعدم مقدرة قلبه على تصديقها، و كل ما لا يؤمن به لا يسجّل في ذهنه إلا بدعة .

وكان بوسع اليوم هذا أن يستثمر في عمل مفيد باعتباره يوم العطلة الوحيد بالإضافة إلى الجمعة، كإعادة طلاء غرفة الضيوف، أو الاعتناء بحديقة أمّه الراحلة التي خنقت الأعشاب الضارّة نباتاتها الزاهية و استوجبت تغيير أحواض الزهور، وليس وضع الجريدة بالمشرق أو الباعث على الارتياح ، حيث لا يحتاج إلى تكثيف الجهود وإعادة تهيئة،و زيارة الأقارب ، غير أنه مرهون لشخص عزيز،شخص مبهم محيّر، شخص موجود و لكنه يختبىء منه لأسباب مجهولة.

ولولا أن عادة الكذب غير مستحبة في قاموسه لهيّأ بعض الأكاذيب التي من شأنها إثارة الرعب في قلبها و استدراجها من خندقها، ماذا عن كذبة أنه طريح فراش، يعاني من وعكة غامضة التفاصيل؟ أو كذبة إصابته في كتفه برصاصة طائشة من أحد الحقودين عليه و ما أكثرهم هذه الأيام؟، أو تدهور حالته النفسية من جديد، بعد انهيار أعصابه على نحو غير مسبوق لسبب غير معروف. ولكن لا،ليست تلك بأخلاق رجل شهم محترم، وليس اختلاق الكذب لأجل تحقيق الغايات بطباع حميدة، إنه يكره الكذب. و طالما لم يكسبها بالحقيقة فلن يرضى أن يكسبها بكذبة.

لقد خابت توقعاته و تقوّضت كل فرضياته، تلك القائمة على نقطة محدّدة، حيث أنه توقّع قدومها خلال الشهر الأول، لو أنها لم تكنّ له أي مشاعر خاصة، لماذا خصّته بتلك الرعاية الجيدة و الاهتمام الحريص؟! لماذا كرّست وقتها لتبعث له بذاك الكمّ من الرسائل؟! فباستثناء اليومين اللذين قضتهما في الريف و الأسبوع الذي أدخلت فيه إلى المشفى، لم تكن تخلّ بعادة الرسائل تلك. لا أقلّ من ثلاث رسائل في اليوم و وصل العدد ذات يوم ربيعي مشمس دافئ إلى ستة.

وافته خاطرة لئيمة ذات ليلة، فأحسّ بالاختناق إلى الحد الذي أراد فيه ضرب جبينه بالحائط: على الأرجح هي من تلك النوعية التي ترسل الرسائل لأي وحيد حزين مكتئب،هذا يعني أنها لم تعتنِ به بصفة خاصة كما كان يتوهّم، فقد سمع مرة أن رجلا افريقيا أصيب بالسرطان، وبعد معاناة وتعب، تعافى تدريجيا فكرّس حياته لأجل المصابين بذاك المرض الخبيث، وهكذا بدأ بمنح كل أيامه التي لم يطمع في عيشها لأجلهم، يتجوّل بين المستشفيات ومراكز العلاج يخفّف من

وطأة العبء ويواسي الجراح والآلام ويجفّف الدموع المتساتلة من العيون الحزينة،و يقدّم الدعم والنصائح ويرفع المعنويات ويشجّع إدراكا منه أن الأحزان إنما تهيّج همّة المرض، وترفع هامته، وعندئذ جزع قلبه و التهب ذعره، هل تعلّق بفتاة تواسي الجميع؟، ماذا لو أنها طبيبة نفسية وقد كذبت عليه بشأن وظيفتها؟ فلو أنها أحبته كما أراد أن يصدق لجاءته ركضا، وما لبث أن ركل الخاطرة المقيتة من ذهنه .كان يبدو في الرسائل أنها واقعة في غرامه، كان خليلها و عزيزها و ملاكها وكنزها،فما بالها لا تأتي اذا !!.

"هل تعرّضت لحادث أودى بجسدها إلى كرسي متحرك كما حدث معه "دار بخلده في الليلة التالية، والشكّ يغالبه و ينازله و يستبدّ به كهاجس شرس "و انتهى نشاطها و حيوتها إلى كآبة بين جدران أربعة،فرهنت أيامها لمواساة أحزان غيرها، هل اختلقت كل تلك القصص بوحي من خيالها الخصب،فقط لجرّه خارج المأساة بينما لا تزال هي،,,"و تخدّر تفكيره لكنه تابع النقاش" تجلس على كرسي متحرك، وما إن بلغها خبر تعافيه حتى انتقلت إلى حالة أخرى".

أثيل على كرسي متحرك! وترقرقت الدموع في عينيه، و غزته الحيرة ثم أحسّ بأنه تائه في صحراء أو غابة شاسعة، تائه دون مخرج أو أنه حبيس في قفص من الهواجس النامية؟،كيف وصل إلى هذا القفص !و ماذا إن كانت مقعدة؟بوسعها الحضور، و بوسعه أن يتفهّم، وسرعان ما ضاع في سراديب أخرى، و رغم هذا وذاك احتفظ بخوفه لنفسه.

في الوقت الذي قلب الصفحة المئة من الكتاب، مرّ إزاءه شيخ قصير طاعن في السن يضع عمامة بيضاء فوق رأسه، و يلفّ نفسه بزيّ تقليدي يقيه من البرد،و كان البرد شديدا رغم بزوغ الشمس، وكانت الرياح بهزيزها تولول قوية عاوية. و يتوقع أن ينقلب الجو إلى راعد ممطر كالليلة الفارطة ويتوقع أن تثلج الأسبوع المقبل، اقترب العجوز منه مصوّبا نحوه نظرة مستفهمة عابسة ويداه ترتعشان: اسمع يا عادل، إن ما جاءت أمّك فدلّها على مكاني،أنا في المقعد الأخير هناك في الزاوية،سأنتظرها حتى تأتي و لن أتحرّك من هناك،

_"مسكين هذا الرجل "هجس خليل متأثّرا "ليس من السهل إقناعه أنه ليس ابنه، و أن زوجته لن تأتي مطلقا، حيث أنها ماتت منذ ثلاث سنوات " هكذا وضّح ابنه عادل المسألة الشائكة عندما قدم لأخذه، ينتفض من الخوف فوجدهما معا يتبادلان حديثا.

وشعر خليل بالخجل من نفسه لإحساسه هذا الصباح بقليل من الملل والإرهاق، و كذلك خالجه شعور بالنذالة، ماذا فعل لأجلها؟،لاشيء ،غير الجلوس كل سبت فلما التذمّر، أما هذا العجوز فرغم أن ذاكرته قد تلفت و رغم أنه قد نسي حتى أبناءه إلا أنه لم ينسها،ما أعظم وفاءه

حتى بذاكرة تالفة،إن الحب الصادق أبدا لا ينسَى،ما أشدّ ما أُعجب بهذا الهرم الخرف وما أشدّ ما أحسّ بالعار، لأنه تقاعس عن إيفاء جميلها هذا الصباح.

_"لقد أتت السبت الفائت،هل رأيتها؟ "فأطرق خليل رأسه موافقا "إن أمّك امرأة دقيقة المواعيد،لا تشغلها بالأحاديث الفارغة يا عادل ثم لا تكدّرها بمشاكلك، تعرف كم هي حساسة سريعة التأثّر،دلّها على مكاني فورا، لا لست عازما على الجلوس هنا فلدي أنا وأمك حديثا خاصا".

_"حسنا لن أشغلها " وافق خليل مبتسما و استأنف العجوز خطواته المتثاقلة،يتوكأ على العصا ثم أرسل نظره إلى الباب،و ارتدّ نظره خائبا، ونظر حوله، كانت الحديقة ساكنة كسكون القبور، ليس إلا الحارس الناعس والشيخ الوقور يحتلّ كل واحد مكان،و سرعان ما أحنى رأسه ليستأنف القراءة بفواصل من الشرود،و لم يرفعه لنصف الساعة.

فيما هو يقرأ، اجتاحت عظامة حزمة من الرياح الباردة، فقبض على طرفيّ ياقة معطفه بيده و ثبّت اليد الأخرى على الصفحة كيلا تضيع، وبنظرة جانبية تبيّن أن شخصا ما يقف على بعد بضع خطوات من الطاولة، فرفع بصره عن الكتاب و رأى طرف ثوب أسود يخفق بفعل الريّاح كعلم مرفرف ، ويدا قابضة عليه ، و زحفت عيناه ببطء صعودا إلى المعطف القصير الأسود المزرّر الذي يبرز قواما أهيفا ، واستقرتا هناك قليلا ، ثم استأنفتا الرحلة متسلقتين إلى الوجه الأبيض كالثلج وانطبع في عقله أنه جميل ساحر، تزيّنه عينان سوداوان بديعتان مغريتان ، يعلوهما حاجبان أسودان متناسقان وأنف صغير، ووجنتان مورّدتان، وفم أحمر بلون الكرز ،و ذقن مدبب أضفى على الوجه جاذبية مضاعفة. واستمرّ يحدّق بها بعيون مستوضحة لوهلة طويلة تكتنفه الحيرة، فيما بادلته الفتاة التحديق محرجة مضطربة، وقبل أن يوّجه لها سؤالا عن الذي تريده و عن سبب وقوفها أمامه، وما قضيتها ،اتّسعت مقلتاه من هول المفاجأة، و تيبّس لسانه في حلقة، و تقهقر السؤال دون أن يلفظ، بينما نبضاته ما تنفك تتسارع و تتسارع، و لم يعرف بماذا ينبغي له أن يفكر أو بماذا يجب عليه أن يشعر.

كان كل شيء خليطا مربكا في قلبه و عقله، طبقات من المشاعر المتباينة تباينا طفيفا، ولكنه نهض عن كرسيه كأنه منوّم مشدودا بحبل غير مرئي لا يراه كلاهما، حبل ينتهي إليها ودار حول الطاولة تاركا الكتاب مفتوحا و الرياح تهز صفحاته ، ثم خطا نحوها مصدوما كأنّه قد عرفها، غير أن التصديق بعيد عن متناوله، كان قد انتظر طويلا إلى أن استحوذ عليه اليأس، ولم يستطع أن يعترف أنه فقد الأمل من مجيئها إلا في هذه اللحظة هذه التي وقفت فيها أمامه.

وقفا متقابلين يعلوها بقامته، يحملقان إلى بعضهما كأنّهما تمثالان جامدان من الرخام أو ممثلان في مسرحية مأساوية يمثلان لقاءً أولا أو وداعا أخيرا ،بحيث تصبح هذه النظرة أثمن ما لديهما،يمثلان دون جمهور أو تصفيق أو مشاهدة.

كما لو أن الزمن قد توقّف،كما لو أنه ليس على الأرض سواهما، كما لو أنه يراها لأول مرة، كما لو أنه يعرفها منذ سنين،كما لو أن مجيئها أمر بديهي مسلّم به،كما لو أن صدمة شلت كل كيانه. هل هي حقيقية؟! أو أن عينيه تخدعانه و ترسمان له فتاة حسناء جميلة لم ير لوجهها الفتان مثيلا، ترسمانها بإتقان ماهر و موهبة خارقة، ما بال عينيها سرقت من الليل كحله، ما بال وجنتيها خطفت من الزهر لونه،ما بال وجهها اقتبس من القمر ضياءه،ما بال خجلها يزلزل كيانه.

وغرق في أعماق عينيها دون أن يستجدي نجاة ،بل إن الغرق فيهما يهبه غبطة لم يتّفق له أن ظفر بمثلها، سوف لن ينسى هذه اللحظة إلى آخر العمر، وسوف يدسّها في عقله آمنة سالمة، وسوف ينظر إليها أبدا كما ينظر إليها الآن مشدوها مأخوذا ببريق عينيها، ضائعا في لونهما الحالك.

كان صوت الرياح أشدّ من أن يهمل، على أن الصوت الوحيد الذي يعانق أذنيه هو صوت دقات قلبه المتسارعة وكافح كي يبعد ناظريه عن وجهها ، و لكنه لم يستطع كأنّ قوة تشدّه إليه، لكأنه سيضيع إذا ما خرج من تقاطيعه كأنه وطنه منذ الأزل وإلى الأبد،و قرأ فيه كل كلمة أرسلتها عندما كان منهوكا مهزوما معزولا وحيدا تتقاذفه الأحزان ككرة مستديرة، ليست ضبابا،و ليست وهما و إنما هي الحقيقة و الحقيقة فقط.

وأحسّ بعاطفة هوجاء متفجّرة مفعمة بالامتنان ليس لما أبدته من دعم و مواساة فيما مضى.لا، بل لأنها قد أتت،من أجل ماذا قضى كل تلك الأشهر ينتظرها؟ ألأجل أن يشكرها؟لا، بل من أجل أن يرعاها و يحبها ويخبرها كم أنه يحتاجها، و أنها قوته و أمانه،سنده و سلامه، وأنها رابطه الوحيد مع الحياة،و راودته فكرة عمياء، ليت بوسعه اختطافها إلى حيث لا يراها أحد،إلى حيث يسعه التصديق أنها حقيقة.

استمر الجو تحت وطأة الصمت الساحر، و مضى ينظر إليها دون أن يعبأ،كان صامتا لكن عينيه قالتا كل شيء و كان بوسعه أن يرهف السمع إلى خفقات قلبها، فهزمه غروره هاتفا: لا يخفق قلب الفتاة على هذه الصورة إلا لأجل رجل تهواه و تحبه و لا تتورّد وجنتاها إلا عندما ينظر إليها رجل أسر قلبها.

ليس عازما على توجيه أي سؤال عن الذي أعاقها عن المجيء بوقت أسبق،عن الذي ساقها لتغيير رأيها، كان قد طرح تفسيرا آخر مفاده أنها ليست فتاة جميلة،و حيث أن الرجال يعلقون أهمية على هذه النقطة وحيث أن النساء لا يجهلن هذه الحقيقة،فقد لمح بين السطور أنه لا يبالي،

وأن قضية الجمال تلك ثانوية ،و توضّح الآن أن الفتاة حسناء بشكل يخطف الأنفاس ويبهر الأبصار و يجعل الرجل يحسد نفسه لأن هذه الفتاة خصّته باهتمامها ومنحته وقتها، لقد أتت و هذا كل ما يهمه.

كانت عيناه لحوتتين مضطرمتين بحمى غامضة وهما تحدقان إليها، فاختلّ ميزانها وارتعشت فرائصها و اختلجت أهدابها السوداء و سرت فيها رعشة مجنونة لم تستطع كبحها، وكانت نظرته دافئة حنونة تنطوي على عاطفة غريبة رقيقة لم تألفها، تختلف عن نظرة رجال عرفتهم و نفرت منهم ، نظرة أبوية رحيمة، نظرة من يريد أن يهب لها الدنيا، نظرة لا تشوبها شهوة ذكورية قذرة، لا تتضمن رغبة مرضية، نظرة مسحت كل شقائها من عقلها.

واستدقّ ضيق خليل من هواجس الشهور الثلاث، و غابت نكبات الأيام الماضية، تجرّ معها الشكوك والحيرة والخوف والغضب، وأحس أن السعادة كلمة لا يسعها وصف شعوره،فهي شعور عابر، أما الإحساس الذي يجري في جسده، فأكبر من السعادة،أقوى من التفاؤل،شعور غريب غامض، كل ما تَزوّد به أنه يسوقه إلى الراحة و الرضا بكل شيء.

ولم يدر بخلده أن يطرح عليها السؤال المتوقع(هل أنت أثيل)، إن قلبه لا يخطىء و قد سارع ينبئه أنّها هي أثيل، الفتاة التي ينتظرها واعترف لنفسه أنها كانت تستحق أكثر من مجرّد انتظارها، لقد تحمّل حرّ الشمس و برودة الرياح وزخات المطر، ورغم ذلك لا تعتبر تضحيات ذات قيمة، لن يسألها إن ما كانت هي، بل يتعين عليه قول أشياء أخرى، و لم يسبق له أن فكّر في أمور يقولها و ازدحمت الخواطر في عقله تنافس بعضها بعضا.

وأحسّت أثيل أن كل شيء جامد راكد من حولها، كانت تنظر إليه و لا تصدّق أنها تراه،اذ كانت رؤيته جزءا من أحلامها فقط، ترى عينيه ، حقيقيتين، ليستا جزءا من صورة صامتة في ورقة جريدة جامدة، إن الصور اختلست من جمالهما الكثير،و وجهه يبدو أنحف و أكثر طولا وأنفه أصغر، السمة الوحيدة المطابقة هي ابتسامته الساحرة. هي سعيدة إلى درجة الخوف،إلى درجة الضياع،إلى درجة الرغبة في الهروب.

كانت عيناها تشيان بها كعميل متنكّر مقبوض عليه، وحيث أن التأثّر طفا إلى السطح، ساورتها رغبة في البكاء وشعرت بالاستياء من نفسها لشعورها هذا الشعور، هاهو بصحة وعافية واقف على قدميه، وعندما نظرت إلى الوراء شعرت بالفخر به و الرضا على أدائها الذي طالما وجدته ساذجا .

لم يكن يراودها حلم ممتع سخيّ كهذا الحلم، ولم تكن قد عرفت رجلا يملك تينك العينين الحنونتين إلا والدها المتوفّى، هاتان العينان اللتان أوقعتاها في الحيرة من أول مرة قابلتهما ثم

خطفتا قلبها وانطبعتا في عقلها ثم أضحيتا تلاحقانها و تطاردانها أينما حلّت أو ذهبت،هاتان العينان اللتان أحبتهما من النظرة الأولى والتي لا تستطيع أن تصدق أنهما ينظران إليها، هما ملجؤها بعد أن عاشت ردحا بلا ملجأ، و سدّت أذنيها عن ما سوى أنفاسه واضطراب قلبه. وما عتم أن تناوب الارتباك و الانفعال على وجهها مصبغانه بحمرة الدم. لم تشعر أنها في قلب الشتاء رغم أن يديها باردتان متخشبتان قرمزيتان ،بل إنها في أحضان مساء صيفي دافئ.

هل أصيبت بالكسح؟نعم ،إنه ذاته الرجل الذي أحبته، دونما أسباب دونما أهداف، عندما عادت ذات مساء خريفي مكتئبة محزونة من بحث عقيم عن عمل آخر غير مكتبة ابراهيم الفظ نتيجة مبالغته في الصراخ عليها ذاك اليوم،ثم خطر لها شراء جريدة،فالجرائد وسيلة جيدة لإيجاد وظيفة،و عوضا عن عروض العمل عثرت عليه، عندما عانقت صورته عينيها و داعبت كلمات مقالته قلبها، تذكر يومها أنه خصّص المقالة من أجل الإحباط و اليأس ويومها تصورت أن المقالة كتبت من أجلها، وتذكر أن حزنها تبدّد وأعباءها نزلت عن كاهلها و بدأ الشعور بالإحباط يزول تدريجيا .كانت تحيط به هالة غامضة من المواساة و قوة الإقناع و الشعور بآلام الآخرين ، كأنه سلّم لها مفتاح باب مغلق عليها، لم تستوعب كنه انجذابها إليه بيد أنه حصل في الوقت المناسب.

واستطاب الشاب النظر إلى وجهها فأربكها الخجل وغضّت طرفها قليلا

_"إلهي ،ما أجملها "هجس ثم رفع صوته و عيناه تبرقان سرورا "كنت أعتقد أنك لن تأتِ أبدا لأنك غير موجودة، مجرّد شبح من عالم آخر يكتب الرسائل،و لكنك حقيقة و حقيقة جميلة أيضا" وازدادت حدة خجلها وتفاجأت بيده ممدودة لمصافحتها ، فترددت ثم مدّت له يدا مرتجفة ،مدّتها بجهد و تثاقل كأنها تخشى أن تفضح ارتباكها و عندما لامست يده يدها أحسّت بقشعريرة دافئة .

_"خليل،أنا خليل،و أنت بالطبع فتاة الرسائل أثيل ألست مصيبا؟ "وظهرت أسنانه البيضاء من وراء ابتسامته المشرقة .

غير أنها لم تنبس بكلمة ثم هزّت رأسها إيجابا متحاشية النظر إلى وجهه، كانت مذهولة تقريبا.

_"أنجلس؟ "قال و انحنى قليلا، و سحبت يدها ثم مشت نحو الكرسي محرجة المحيا،و ساد صمت طويل بينهما، و كأن دهرا قد مرّ منذ أن اتّخذت مكانها على ذاك الكرسي الذي تبيّن أنه فعلا يصدر صوتا مزعجا كصرير الأسنان،و حاولت السيطرة على أعصابها و رجفانها و نالت نصيبا من النجاح عندما شعرت بطرفه يرفع عنها ونظر إلى نقاط أخرى، عندئذ كانت تختلس النظر إليه خفية

_"أليس الجو باردا جدا؟"إنه يعدّ سؤالا استهلاكيا للتخلص من الجو المثقل بالصمت والتوتر، كما يعدّ حلا سريعا لمسألة عدم إيجاد شيء ليقال، وكذلك نوع من المقدمات لأحاديث يستحسن تأجيل الخوض المباشر فيها وحيث أن الفتاة الجريئة الشجاعة قد اختفت، الفتاة التي كانت تعامله كأنها صديقته منذ أيام الطفولة، و لم يبق منها إلا عينان مطرقتان ووجنتان محمرّتان و يدان مطمورتان في حجرها. فمن المستحيل مفاتحتها بأي موضوع يرغب في فتحه بأسلوب مباشر، يتعين عليه أن يبحث عن نقاط يعبر بها إلى ذلك.

_"أشرقت الشمس صباحا،و هاهي الآن تغيم من جديد " ثم رفع رأسه و نظر إلى السماء

كانت أثيل قد خططت بالليلة الماضية لأمور ينبغي أن تقولها و أخرى تتجنب قولها و حركات وأفعال لا ينبغي الإتيان بها،و التدرب أمام المرآة مثل طفلة صغيرة تحضر لمسرحية مدرسية أهم و أسخف ما قامت به ،و هو أقل أهمية من طريقة اختيارها للفستان الذي تمنت لو أنها تملك أفضل منه ليتناسب مع تسريحة شعرها ،لقد كانت تخشى أنه يبدو قديما جدا ،و عندما غادرت المنزل هذا الصباح ،كانت لا تزال تظن أنها تحتفظ بقائمة السلوكيات الضرورية للقاء أول لا يجب أن تظهر فيه فتاة الرسائل السخيفة ،بل تُظهر فيه حقيقتها المتزنة ،الرصينة المجهولة لديه على الأرجح ، ولكنها الآن ضيعت كل شيء، كأن كل ما خططت له أضحى لغزا محيرا، إن التخطيط و التنفيذ أمران مختلفان، وحيث أنه اعتزم عدم توجيه أي أسئِلة من شأنها إرباكها فقد وجّه لها سؤالا عاديا

_"غريب كيف لم ترافقك السيّدة سميحة، إنكما لا تفترقان حسب ما أعرف،ألم تصرّ على مرافقتك؟" قال ذلك وابتسم، مثل صديقين قديمين متناغمين يتشاركان الأصدقاء والمواقف والذكريات، لقد صنعت الرسائل رابطا متينا لم يعتقد كلاهما بوجوده،و عندما ذكر الاسم المتّصل بالمشاكل والفكاهة، ابتسمت بدورها و بفعل الابتسامة برز على الجانبين غمازتين جذّابتين، و بصوت خافت هادئ أجابت

_ "رافقتني إلى المحطة ثم انصرفت ".

_" هل لها يد في قرار مجيئك؟،هل هي من أقنعتك بمقابلتي "و فجأة أحسّ أنه ارتكب خطأً عندما استعجل طرح هذا الاستفسار و قبل أن تجيب،تكلّم ثانية

_"أتساءل عن وجهة السيّدة سميحة، كان الله في عون من ستنضمّ إليهم الآن، هل تعرفين إلى أين ذهبت؟ ".

لقد كان سؤالا مضحكا على أية حال واستوعبت المغزى، فمعظم الرسائل تضمنت في فحواها مغامرات طريفة لسميحة،و لهذا من الصعب عليها خنق ضحكتها

_"قالت أنّها ستصطحب إحدى السيّدات إلى مكتب أحد المحامين ثم تعود لتنتظرني".

_"تقصدين محام طلاق جيد،على الأرجح أن السيّدة سميحة تعرف زمرة منهم، فقد اتّفق وعرضت هذه الخدمة على زوج السيّدة...ما كان اسمها؟ " .

_"السيّدة حسناء" و تخلّت عن حالة التوتر العام ،بعد أن تحاشت النظر إليه لفترة من الزمن،أصبح بمقدورها الجلوس بارتياح،و رفع رأسها.

_" أجل، أجل،ذاك هو،مديرة مركز علاج الإدمان، كانت تودّ أن تسدي لزوجها تلك الخدمة، أخبريني هل من مغامرات أخرى، أقصد هل اصطحبتك إلى أي مكان آخر؟، أفكر دائما أن الأماكن التي تقصدها السيّدة المحترمة غريبة بالنسبة إلى كونها امرأة ،إلهي ،ما أغربها " فابتسمت ، لم يكن مهتمّا إلى ذاك الحد بمعرفة هذه التفاصيل، أو أن يتعاطى حوارا تكون سميحة مداره أو طرفا فيه، و لكن الحاجة ألجأته إليها .

_" ذهبنا آخر مرة إلى مركز المسنين "

_"و أحدثت شجارا مهولا مع مدير أو مديرة المركز "تكهّن بالنهاية منتبها إلى أن اضطرابها الأول أخذ بالتلاشي تدريجيا، و اندفعت في موجة من الضحك متآلفة غير مكترثة

_"أجل، أجل تشاجرت ووصفته بالغوريلا "

_"أحقا،لماذا انتقت له هذا الوصف؟".

_" كان ضخما جدا،كما أنه تسبّب في إغضابها عندما أبدى ندمه لاستدعائها،قال أنها سيّدة طائشة،و طبعا لا توافق السيدة على مثل هذه النعوت" كان يراقبها دون أن يفضح تعبير وجهه شيء من العاطفة المختلجة في صدره .

_"كما جعلتني أشارك في احتجاجات لإقالة رئيس البلدية من منصبه طبعا، وضّحت لي الوجهة عندما تغلغلنا في وسط الحشد، هناك شرحت لي في آن واحد الوجهة و الظروف المتعلقة بالاحتجاج" تابعت بتلقائية و بطء

_" لا شك أن الشرطة تدخّلت و حاولت فضّ الاحتجاج "قال متصنعا الاهتمام .

_" هذا ما حدث بالضبط،لقد تدخّلت الشرطة سلميا وعندما ابتعدنا كانت قد شرعت في استعمال العصي والقوة " لقد سلك المسار السليم عندما افتتح الجلسة بمسائل تتعلّق بهذه المرأة،فلقد برقت عينا أثيل ببريق عاطفة خالصة،عاطفة حب و احترام.

_"لم يقبض عليكما على الأقل، كنتما ستذهبان إلى السجن بتهمة إحداث الفوضى والتجمهر غير المرخّص" وعند ذكر كلمة السجن تأرجحت تعابير وجهها ما بين الخوف الضنين والدهشة الواهنة .

_"هل تخافين من السجن؟ " سأل بخليط من الجد و الهزل .

_"إنه مكان مخيف و معتم "عبّرت بسذاجة "إنه يقع تحت الأرض، ويشاع أن المعاملة رديئة وهو بارد جدا في الشتاء،و الطعام سيء والرعاية الصحية متردية،و الهواء فاسد،كما أنني قرأت أمورا مفزعة "وصمتت لشعورها بأنها تكلّمت أكثر مما هو مطلوب.

_" و فيه جرذان من الصنف التي تلتهم البشر أثناء النوم "عقّب بصوت قريب إلى الهمس مميلا جسده إلى الأمام، رافعا حاجبيه في تعبير فكاهي "وصراصير ليست مسالمة، ذات حجم كبير يقال أنها تميل إلى مهاجمة العيون، وأرواح شريرة لأشخاص وافتهم المنية قبل انقضاء العقوبة، إنهم ينتقمون من السجناء الذين يحتلّون أماكنهم،لهذا يصدرون ضجة،و يعملون على إفزاعهم "و عندما قرأ نظرة الاستغراب في وجهها أطلق ضحكة قصيرة .

_"إنني أمزح معك فقط مثلما تمزحين أنت ، يدور بخلدي أن أستوضح كيف تسمح والدتك العظيمة للسيّدة باصطحابك إلى هذه الأماكن التي من شأنها تعريضك للخطر، لست واثقا من استحسانها هذه المغامرات ".

_"إنها لا تدرِ، فالسيّدة سميحة تسمي كل عمل بالمَهمة السامية، والأعمال الخيرية".

_"أنا متأكد أنها تسألك عن ماهية المهام السامية بعد عودتك، الأمهات أبدا يعشقن الشرح الدقيق و التفاصيل الصغيرة،أشك أنها تنتظرك لتلتقطي أنفاسك، و تبدأ التحقيق معك بمجرد دخولك من باب البيت ".

_"أجل، إنها تحقّق"أجابت و مسحة من تأنيب الضمير تطغى على صوتها "غير أنني لا أخبرها الحقيقة، لأنها لن تسمح لي برؤية السيدة سميحة مرة أخرى، في الواقع، أنا أوضّح لها أننا كنا نؤدي عملا جيدا يصبّ في صالح بعض الناس المساكين، و بهذا أتجنّب الكذب عليها، وهذا صحيح بنسبة معينة، إن أمي تقلق باستمرار أكثر من أي أمّ أخرى .كما أنني مقتنعة أن السيّدة سميحة لن تعرض حياتي لأي خطر،إنها تحبني كثيرا مثل ابنتها و تفعل أي شيء لأجلي"

_"وهي مكمن الأسرار "عقّب بنبرة ماكرة

_"ليس لدي أي أسرار "

_"ألست سرا؟،هل تعرف والدتك بوجودي؟ و شقيقتاك هل تعلمان؟" .

_"لا أستطيع إخبارها،ولكن السيدة سميحة تعلم" وابتلعت ريقها بصعوبة،بينما اصطبغت وجنتاها بلون الاضطراب الوردي الطفيف.

_"إذا فلديك أسرار تخفينها، لم تنل شرف معرفتها إلا السيّدة سميحة "و على نحو غير مخطّط له، تذكّرت سرها الخطير المقزّز و أغمّتها الذكرى فشحب وجهها قليلا و تغيرت سحنتها وأربدت شفتاها وحملقت إليه نظرة تشي بتأنيب الضمير .

_"هل أزعجتك؟ استفسر بلهجة معتذرة "إنني أعتذر إن كنت قد فعلت"

_"لا،لم تزعجني"وصدر عنها صوت واهن تعب، لقد توصّل إلى بعض النتائج المحيرة، وكنتيجة أولى استنتج أن في أعماق عينيها يكمن حزن جلي على أنه لم يكنه سر هذا الحزن.

_" لست مضطرّة إلى التنازل عن صداقة السيّدة سميحة، فرغم تهوّرها أحسبها امرأة لطيفة طيبة، ولا يعدّ كذبا إن ما أخفيت بعض الحقائق كيلا تثيري قلق والدتك،هناك أمور ينبغي أن نحتفظ بها مطمورة،ليس لأننا كاذبون، بل لحرصنا الشديد على مشاعر من نحبهم، أحسّ أنك تشعرين بوخز الضمير جراء اعتقادك أنك تسيئين إلى والدتك. لا لست كذلك،لا تخبري أمك أبدا بما يجرحها ويجعلها تخاف، فأنت لن تكسبي إلا مزيدا من قلقها عليك".

لقد كان مصيبا ،فهي تشعر بوخز الضمير ليس بسبب إخفائها مغامراتها الخفية عن أمها، بل بسبب إخفائها أهوالا أخرى، و عنه هو بالذات، وخالجها شعور بالارتياح بفعل كلماته، فاسترخت تقاطيع وجهها

_" سأفشي لك سرا صغيرا، سرا أخفيته عن والدتي، ليس لرغبتي في الكذب عليها، بل تفاديا لجرح قلبها " نظر بعيدا ثم تابع "كان لي شقيقة صغيرة "

_" كيف؟ ليس لديك أي أشقاء يا سيّد خليل "قاطعته بسرعة، ولم يجفله إلا لفظ السيد المباغت فقوّس حاجبيه في امتعاض صريح و إن كان قد انزعج فلم يعمد إلى إظهاره .

_"سيّد؟ عزيز من كنت إذا ! كنت أعتقد أنني خليلك و عزيزك "و تحوّل وجهها إلى كتلة قرمزية مجددا،ماذا قالت أيضا في غمرة الاندفاع عندما كانت تكتب أي شيء غبي يخطر على رأسها كأنها كانت تحاور نفسها ؟،و نقّبت في مواطن ذاكرتها السحيقة و أسفر البحث عن بعض الارتياح: الحمد لله أنها لم تقل حبيبي.

_"سأتظاهر بعدم سماعك يا عزيزتي الرقيقة الآنسة أثيل " علق بهزل وعاد مسرعا إلى موضوع شقيقته"ليس لدي أشقاء هذا صحيح،لكن منذ سنوات خلت كان لدي شقيقة،توفيت عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، كانت تصغرني بخمس سنوات، وإلى الآن محفورة بذاكرتي ملامح وجهها، أتذكّر عينيها الخضراوين بلون العشب، وشعرها الكستنائي القصير،الذي كانت تبكي عندما تقصّه أمي، أتذكّر أنفها الذي كنت أجده كبيرا بحيث أطلق حملة تحرّش واسعة بأعصابها الحساسة جدا،لم أكن أتركها إلا باكية شاهقة ".

_"كيف ماتت؟ ".

_"عندما كنا عائدين من المدرسة رفقة أبي،حدث أن شعر بالملل أو ربما كان سعيدا جدا،لا أعرف مالذي أصابه يومها فتحدّاها قطع الطريق بدوننا، و إن ما فازت سيشتري لها فستانا أصفر مطرزا، كانت فورتها قد ألحّت على شرائه،طبعا اندفعت دون تفكير لتثبت له أنها جديرة بالجائزة. وكانت تلك آخر أمنية في حياتها.دهستها سيارة مسرعة و ماتت فورا.لو أن أمي علمت برهان أبي لما سامحته أبدا، لقد أخبرتها كذبة صغيرة عندما قلت أن أختي البريئة قطعت الطريق لتنقذ هرّة صغيرة من العجلات ".

وارتعشت دمعة على الأهداب السوداء و تغلغل الألم إلى صدرها، لو أن شخصا آخر روى لها هذه القصة الحزينة لبكت فورا،على أنها كبحت عواطفها وهدّأت من نزعة البكاء التي ما انفكت سميحة تؤنّبها لأجلها: إنك تبكين أكثر من الأطفال الرضع يا أثيل،تبكين أي قصة وأي موقف مؤثّر، تخلصي من هذه العادة البغيضة.حسنا،إنها لن تذرف دمعة واحدة .

_" لا شك أن والدتك حزنت لفراقها " علقت بنبرة متأثّرة

_"لم تتمكّن من نسيانها،و ما عتمت تقحمها في أي حديث، قبل وفاتها بأيام،قالت لي إنني أشتاق لأختك يا خليل،و إنها تتردّد على أحلامها في الآونة الأخيرة، لم أعلم أنها ستلحق بها "وأطلق تنهيدة فيها شيء من المرارة ثم تبادلا نظرة صامتة حزينة .

_" حافظي على أمك يا أثيل، اعتني بها جيدا فعندما تذهب الأم يتحطّم جزء كبير من حياة الإنسان، ويغدو العالم جافا خاليا من أي عاطفة حقيقية، لن تعرفي شعور مجوّفا أسوأ من ذاك".

_"إنني أحبها و أفعل أي شيء لأجلها،لقد تولت رعايتنا بعد وفاة والدي و لم تنقطع عن ذاك العمل إلا عندما ألمّ بها المرض و أجرت عملية جراحية، أعاقتها عن العودة لأي نشاط من شأنه إرهاقها ".

_"متى كان ذلك؟ "

_"منذ سبع سنوات تقريبا "

_ "و من تولّى المسؤولية بدلا عنها،هل لديك أقرباء؟ "

_"لا، ليس لدينا أحد، لقد توليت أنا مسؤولية المنزل "وفكر قليلا ثم قال بحيرة

_"يفترض أنك كنت تدرسين،كيف استطعت أن تأخذي على عاتقك كل ذاك العبء؟".

هذا السؤال جيد، لو كانت علاقتهما متوطّدة لكن الوقت مبكّر جدا لإعطائه جوابا صادقا

_"انقطعت عن الدراسة، و أمّنت لي إحدى صديقاتي عملا "

_"أي نوع من الأعمال؟ ".

صدرت عنها شهقة مكتومة و انكفأ لون وجهها، ليس هذا ما تريد الحديث عنه "إنني أسأل كثيرا على ما أعتقد، ولكنني مهتمّ بمعرفة أكبر قدر ممكن من الأشياء عنك" وتحفّز انفعالها وكأن حبلا يلفّ عنقها و أحسّت أنها تجلب الكلمات من بئر سحيقة ،ستضطرّ للبدء بالكذب بوقت مبكر وهو رجل يكره الكذب، غير أن خطابه الأخير عن إخفاء بعض الأمور من أجل الحاجة شجّعها على تلفيق كذبة مناسبة وعندما شرعت بإلقائها،أبعدت عينيها عن وجهه لشعورها بالإثم ونظرت إلى شجرة الصنوبر خلفه .

_"عملت ذات مرة بمطعم ،في الواقع "ابتسمت ابتسامة حزينة" اشتغلت في مهن عدة،كنت أتنقّل من واحدة لأخرى إلى أن وجدت عملا ثابتا في المكتبة ، كان الوضع صعبا،كما أن أمي كانت بحاجة إلى أدوية بعد إجراء العملية،ساعدتني صديقتي على تأمينها ".

_"و ماذا عن مصاريف العملية،من أين وفرت المال؟ "ليته يكفّ عن طرح الأسئلة الصعبة كي لا تضطرّ للكذب عليه أكثر

_"أجرتها في مشفى حكومي "كانت الكذبة جاهزة على رأس لسانها لذلك قالت العبارة بسرعة .

فردّ ساخرا " لم أعرف أنهم يجرون عمليات مجانية كتلك في المشافي الحكومية، هل نعيش في بلدين مختلفين "و تابع فيما غمره شعور بالشفقة

_" لقد تحمّلت مسؤولية كبيرة جدا،بوسعي الشعور بما عانيته".

و فجأة عنّ لها إخباره الحقيقة كما هي،لولا أن قلبها حذّرها أن الوقت غير مناسب، ستخبره ذات يوم عندما تتحقّق أنه يحبها حقا إلى الحد الذي يستطيع فيه ابتلاعها و إلى ذاك الوقت يتعيّن عليها التزام الصمت و ابتداع بعض الأكاذيب البيضاء . أجل انها أكاذيب صغيرة، لأنها تطمح إلى عدم جرح قلبه تنسجم و الذي كان يقوله .

_"إنك مدعاة للفخر "قال مطريا فخورا،فيما أشاحت بوجهها ،عندما ومض في عينيها بريق حزين غامض، على أنه قرأه قبل أن يمكنها إخفاؤه "لا تحزني، لقد مضت تلك الأيام، وها قد نعمت بوظيفة محترمة،،لم يكن بوسعك الاختيار،كنت مجبرة على امتهان تلك الأعمال، ثم إنها ليست مدعاة للخجل. دعي رأسك دائما شامخا، إنني سعيد بالتعرّف عليك،و أراهن أن أمك وشقيقتيك فخورات بك".

وقفزت إلى عقلها صورة شقيقتها ميرنا بنظراتها المشمئزة المدجّجة بالكراهية، بكلمات حاقدة تنبعث من بين شفتيها،بحركات متوعّدة وقحة نكدة تهدّد سلامها،و حيث أنها لن تعترف حتى لنفسها بتلك المشاعر الراكدة أجابت باطمئنان أن نعم، إنهن يفتخرن بها ثلاثتهن، يحرصن على

عدم إزعاجها، وكنّ على الدوام يقدرنّ ما فعلته لأجلهن، و يكبرن تضحياتها، وخاصة شقيقتها الوسطى .كانت هذه الكذبة ثقيلة على كاهلها، ووجدت نفسها محاطة بصورها في جميع حالاتها الثائرة، المتقززة، المستشيطة غضبا، الحاقدة،و كلما حاول المرء إخفاء ألم ما، ارتفع صراخه المكتوم أكثر فينعكس على العينين واضحا.

_" يبدو أنني أثرت جراحا صامتة،هل كانت بذاك السوء؟ "

_" نوعا ما " قالتها بصوت خافت متألم كشخص ينزف " كانت واجبا وليس خيارا،هناك أمور لا تختارها بل هي من تختارك، وهناك أبواب تتمنى لو أنها فتحت في وجهك بينما لا ينالك إلا الأبواب التي طالما فكرت أنها الجحيم بحد ذاته و أنك لن تقابلها أبدا في لقاء حتمي ".

_"حدثيني عنها يا أثيل" قال و وجهه ينمّ عن حرارة المواساة "أودّ مشاركتك كل اللحظات الماضية الصعبة التي لم أكن جزءا منها وأشاركك أيامك القادمة وكل ثانية من حياتك،،شاركيني متاعبك، حدثيني عن أي شيء يجثم على قلبك و يؤرق راحتك، أذكر أنك حدثتني في رسالة مقتضبة عن ذلك، و لكنك لم تسترسلي،دعنا نتذكّرها الآن للمرة الأخيرة ثم امنحيها النسيان الى الأبد، ستخفّف عنك هذه الطريقة،أفضي إلي يا أثيل "و بفعل تعاطفه الداعم تتوّجت أثيل بتاج من العزاء و ظفر قلبها بشعور سار.و أدركت لأول مرة بعد وفاة والدها معنى ما قالته السيّدة صفية، معنى أن يكون رجل شجاع بجانبك رجل يواسيك و لو بالكلمات و يرفع من معنوياتك ويسندك و يؤازرك دافعا تقلبات الحياة،لأنه خلق قويا من أجل صدّها،و يحاول أن يخفف من وطأة الأحمال، وأن يمحو كل ذكرى سيئة تشبثت بعقلك، و يقذف بها إلى جحر غائر ثم يغلقه بإحكام، رجلا تستطيعين الاعتماد عليه و هي التي لم تذق طعم وجود رجل منذ أن قضى والدها، ويسوقك إلى بر الأمان حيث لا يتهدّدك شر و لا فاقة و لا جوع و لا تطمع فيك عيون جائعة ولا تجرّك أياد قاسية إلى سرير الخطيئة، و لا تشتهيك النفوس الفاسقة،رجل تقفين خلفه دون أن ينتابك خوف و هلع من الغد ومن المستقبل الغامض ، يرعاك و يربّت على ذراعك و يطمئنك أن الدنيا بخير و أن أحضانه هي الوطن و بيته هو الملجأ ،صادق لا يقول فحسب، بل ينفّذ أيضا،و أحست بدافق من الارتياح و نوع غريب من الشعور الرضي

_"لا أودّ إزعاجك،لديك ما يكفيك ".

_"لا تكوني حمقاء يا أثيل، ليس لدي شيء، لن ينفعك التهرّب، ستسردين علي" وخلا وجهه من هالة المزاح التي ظهرت عليه عندما بدأ الحديث وحلّت محلها صرامة و اهتمام .

_"حسنا،كان أبي عامل بناء بسيط،و نتيجة استهتار ربّ العمل و نتيجة أن وسائله كانت بدائية غير آمنة تعرّض لحادث أثناء العمل،و لفظ روحه قبل أن يبلغ المستشفى و تتدخل أيادي

الأطباء في محاولة لإنقاذه،فضلا عن أن المكان كان نائيا يقع خارج المدينة. و لم يخلّف لنا إلا البيت القديم، وكانت حالته مدعاة للشفقة، و حيث أننا لم نملك أقارب ازداد الوضع سوءا. فاضطرّت أمي للعمل، لم يكن سهلا عليها أن تجده، تمسّكت به رغم الظروف المغالية في السوء"و تنهّدت عندما أمضّتها ذكريات أمها،و استرعى انتباهه التهشّم في صوتها

_ "أكملي يا أثيل ".

_"وما لبثت أن مرضت هي الأخرى "استطردت "و كان وضعها معقدا بحيث احتاجت إلى إجراء عملية مستعجلة و إلا خسرناها،و هكذا فقدت وظيفتها و ألزمها المرض الفراش، وفي سبيل أن يصبح الوضع أسوأ انهالت علينا بعض المشاكل التي اختارت وقتا سيئا جدا لتحضر، فعمدت إلى البحث عن عمل من أجل توفير الدواء لها،و الطعام لشقيقتي، وحاجيات المنزل التي لا تنتهي" واحتشدت الذكريات المريرة مصفوفة كأجمة الأشجار "وجدت عملا،حسنا "و سرعان ما تهدّجت نبرتها "عملا،،،، محترما "و بلعت ريقها بصعوبة مطرقة رأسها، عاصرة عينيها، إن الكذبة التي أطلقتها منذ قليل علقت في حلقها فأحسّت بمرارة كمرارة العلقم تجتاح خيالها، وفي سبيل أن يتصلّب وجهها عادت إليها صورة الرجل ذي العينين المخيفتين الشريرتين والوجه النحيل المبهم، وأحسّت أنها مبعثرة،أنها كتلة ضخمة من الخجل والخوف و الرجفان، وأنّها في تلك الشقة قليلة الأثاث ثانية تتلوّى ذعرا، تترنّح كغصن عار أمام ريح عاتية و تذكّرت رائحة أنفاسه الرديئة و يديه عليها كيديّ كافر سامد، ونظرته الفاسقة وسلوكه المبتذل و كيف حطّم عفّتها، لقد اشتهاها وحصل عليها، بينما كانت تتلوّى لتفلت جسدها من ذراعيه المطبقتين المصممتين على نيلها وإخضاعها، والرجال الذين أتوا من بعده ليسوا أوفر منه شهامة، كانوا جميعا يتقاسمون الأوصاف ذاتها، سلوك حقير و نظرات قذرة ،طريقة عدائية همجية في المعاملة .

_"ساعدتني إحدى صديقاتي في العثور على عمل سبق و أخبرتك بطبيعته، كنت أتحمّل ما استطعت"

_"هل أساءوا معاملتك" قاطعها مغتمّا محملقا إلى وجهها

_"أحيانا، لكنني أستطيع التحمل"صرحت ببؤس وأضحت لهجتها خاسفة واهنة" طالما هناك ما ينتظرني ويتوقّع مني، كانت صور أمي وشقيقتي تدفعني إلى تحمّل أي مهانة أو إذلال أو أي معاملة من أي نوع، ذلك لم يكن مهمّا، لقد تحمّلت ما كان يجب أن أتحمله وفعلت ما كان يتعين علي فعله والحمد لله أننا تجاوزنا الأزمة، و انتهى عهد تلك الأيام" وفي فترة من السكون تأمّلها بعناية معتلّ النفس، مشفقا، وفكر أن قصائد الغزل العفيف والأغاني الشاعرية وأبيات الشعر البارعة إنما استوحت كلماتها بإلهام من وجهها الحزين الحسن.

إن هذه الصبية الفاتنة الرقيقة اللطيفة خلقت لتكون أميرة، لتعامل بعذوبة كأنها نسمة هواء عليلة، لتخاطب برفق وحذر لئلا تخدش مشاعرها و تُقبّل أياديها كلما أتت عملا أو منحت شيئا، ويغالى في تدليلها و تصطحب إلى النزه و الجولات و تجوب العالم لتعانق عيناها جمالا ناصعا مثل جمالها، وترتدي أفخم الحلل العصرية،و الثياب المنسقة ذات الألوان الفاتحة التي تنسجم وبشرتها البيضاء كالقطن ،متلائمة مع قوامها الأهيف ،و تُلبّى طلباتها دون نقاش،و يحنى عليها كما يحنى على طفل صغير مدلّل مرهف الإحساس،و ليُبشّ في وجهها، وممنوع الصراخ عليها أو جرح قلبها النبيل الرحيم الصادق.

إن هذه الصبية خلقت لتمنح الحب و تكرّم كالملكات و يُضحّى في سبيلها بالوقت والمال وحتى النفس إذا اقتضت الضرورة،خلقت لتضحك وتبتسم، لا لتحزن وتكتئب، إن لها شفتين جميلتين يستصعب المرء أن يلمحهما تعبسان، وعينين رائعتين لا ينبغي أن تسفحا دمعة واحدة، هذه التي تنعم بأكبر قدر من الكبرياء و مهابة الروح، الشجاعة التي تصدّت لنكبات الدنيا و سلخت صباها في أعمال لا تليق بيدين كيديها، فقط لتحفظ أهلها من الموت و الفاقة والجوع،فتاة يتجاوز عقلها الخمسين بينما سنها لم يبلغ الثامنة و العشرين و هذا ما يرفع مقامها في قلبه.

لقد عانت من فقر لم يعرفه و من جوع لم يَخبُره.و بينما كانت حياته تتلوّن بألوان زاهية مبهرجة بين أحضان والدين مقتدرين ميسوري الحال، ثرين تقريبا إذا ما قيس بفقرها.كانت حياتها قاتمة مملوءة بالأعباء، تنوء كتفاها بالأحمال الثقيلة،و بدا له جليا أن عينيها سكبتا دموعا لا حصر لها، وأنها سهرت ليال كسيرة القلب كليمة الروح مثخنة بالجراح التي تحرص على مداراتها و لا بد أنها تألمت ألما شديدا لاضطرارها التخلي عن دراستها. وانتصب بين عينيه مشهد الفتاة المكافحة التي تستيقظ كل صباح لكسب القوت، وتبعد شبح المرض والجوع الطارقين بعنف على الباب وتحارب بيدين ضعيفتين واهنتين مفتقرتين إلى القوة والمقدرة. تصارعان في دنيا شرسة.

إنها كائن هادئ رزين يستدعي الجرأة و الشجاعة فقط من أجل الآخرين العاجزين، وصفات أخرى لا تمت لطبيعتها بأي صلة، فتتغيّر لأجلهم و تضفي على نفسها مظاهر البأس و الشدة بينما هي هشّة ضعيفة، تماما كما فعلت معه، يوم احتضنته جدران الغرفة الموحشة القاتمة بستائرها المسدلة وضوئها المنطفىء، هذا فضلا عن كونها خجولة حيية مطرقة الرأس، محمرّة الخدين، تبلّل شفتيها اليابستين من حين لآخر وتتنفّس تنفسا شاقا و يكاد جسدها ينتفض من فرط الارتباك.

كانت تتكلم بهدوء مفرط و صوت بطيء مع مدد من الصمت واختفاء تامّ ليديها، إنه لم يرهما بعد تلك المصافحة الحارّة، تجيب على الأسئلة بالحد الأدنى من الكلمات، كما أنها لا تتكلم دون أن

توجّه إليها الأسئلة، و لو أنه عرف أنها تشعر بسعادة عظيمة لوجودها معه وأنها في جوف حلم سار بهيج زاه، لكان من دواعي ابتهاجه ،ولكنه لا يعلم عن حجمها إلا شيئا يسيرا.

وما حزّ الألم في نفسه و كدّر متعته بلقائها و أشعره بالأسف المنغص أنها حرمت من متعة الصبا واللهو و الضحك كقريناتها عندما فرضت عليها سلطة أكثر نفوذا منها، وعوضا أن تمدّ يديها لتستقبل مالا وهدايا، كانت هي من تمنحهم راضية قانعة، وأنه بدل أن يُشتغل لأجلها، اشتغلت هي لأجل غيرها، وهي لا تزال فتاة فتية غريرة.

وبدا جليا أنها فتاة متحفظة قليلة الشكوى منكرة لذاتها تترفع بميزة الإيثار، تقنع بكتم أتعابها وطمر آلامها دون حاجة إلى التخفيف أو البوح بها، حتى سميحة هو واثق من عدم علمها بهذه القصص إلا بالقدر الذي حصلت عليه بالتحايل المثابر، والإلحاح المتواصل و الإصرار الفعّال، أما أفراد العائلة و شأنها كالبؤساء جميعا، فقد حجبت عنهم همومها لئلا تهزّ طمأنينتهم و تثير قلقهم ،والله وحده يعلم كم تظاهرت أنها بخير بينما لم تكن كذلك، تقابلهم بابتسامة عريضة تسوقهم إلى الاعتقاد أنها على ما يرام، و أنها سعيدة بالأحمال و الأعباء فيما هي متيبسة من التعب، خائرة القوى، عليلة الجسد، مخلعة القلب، سحقت نفسها كلمات نابية ومسبات وشتائم وسوء معاملة تتخلّص من تأثيرها عند عتبة الباب.

وما قصة سوء المعاملة تلك؟ من غير المجدي أن يتنكّر للحوادث التي تدار حول استخدام العمال، لقد تعرضّت للزجر و التأنيب و التوبيخ، كما تعرضت للتهكّم و الصراخ المتواصل في وجهها و الإذلال و الإهانات والمعاملة الجافة وإلقاء الأوامر بعجرفة و غطرسة، ليته عرفها قبل الآن بوقت طويل، عندما كانت بحاجة إلى كتف تسند عليه رأسها و إنسان تبوح له بما يختلج في صدرها ويؤلم روحها، عندما كانت الدنيا وصعابها تتكالب عليها بأصدأ أنواع النكبات و استحوذ عليه شعور بالضيق و تجعّدت تعابير وجهه و طفر من عينيه حزن ضار و لوعة شارخة، حيث برز لها عدم الاسترسال بغية تجنيب نفسها و إياه إحياءً للمعاناة القديمة؛ لأن ما يؤلمه، يؤلمها أضعافا.

وودّ بقوة أن يفتح لها قلبه و يثني على جمالها و يصارحها أنه معجب بها، معجب بعينيها الساحرتين ووجهها صاخب الجمال، وشفتيها المغريتين، على أن في مسحة وجهها الخجول ما يمنعه من الإفصاح،و ودّ أن يخبرها كم هو عظيم شأنها، كم رحيم هو قلبها، كم ناعمة هي رسائلها و أنه تصوّر أن أمه هي السيدة العظيمة الوحيدة إلى أن قابلها فعرف أنها تضاهيها قدرا.

وبفكرة خاطفة رسم خططا للمسار الذي سيسيران عليه، سيصرّ عليها لتبادله كتابة الرسائل ،ومقابلته كل أيام السبت من الآن فصاعدا، ويتحدثا عن كل وقائع الماضي لاهتمامه بمعرفتها جملة و تفصيلا، مهتم بمعرفة الأمور التي تحبها و أماني قلبها وأحلامها، يريد أن يستمع إلى

مشاكلها و يبادر إلى حلّها و مشاركتها عن طيب خاطر في حمل المسؤوليات، ويقتسم معها مسائل حياته الرئيسية دون أن يقلقها بمشاكله و يستشيرها ويعطيها الأولوية والمكانة الأولى ويبوح لها بأسراره ويسوقها إلى التعافي من جروح الماضي، من الذكريات السقيمة التي تدور في رأسها كما تدور عقارب الساعة، لأنها غالية عليه، يؤلمه أن يراها تتألم و يزعجه ضيقها.

وسأل نفسه للحظة إن ما كان يحبها؟ لم يتّفق له أن تحمّل عناء طرح هذا السؤال، لأنه كان متلهفا للقائها فقط وحيث أنه انشغل بالخاطرة غفل عن ما سواها، هل أحبّها؟ سأل نفسه، وأجاب أنه لا يعرف على وجه التحديد ما يسمى شعوره نحوها، وإن الوقت لا يزال مبكرا لإعطاء جواب محدد، لكن الآن لكونها موجودة، بحسن أخّاذ و حياء مرن و براعة خلقية تتغذى من منبع أخلاقي رفيع و تتحمل الصعاب و تأخذ الواجبات دونما تذمّر، و إنها جوهرة نفيسة بأدب جم و عزة نفس و كبرياء و رجاحة عقل تماما كالنوع الذي يفضّله من النساء، فإنه واثق من قرار واحد لن يتنازل عنها مطلقا مهما حصل.

سيبدأ من هنا من هذه النقطة سيثبت لها بالدليل الملموس أنه جدير بثقتها وكما آزرته في محنته سيؤازرها بدوره

_" لقد ولّت تلك الأيام، و بوسعك من الآن فصاعدا الاعتماد علي "قال بعطف و رقة واثقة، مرنا ، بعد فترة من الصمت"هل تصغين أنا موجود،ليس عليك أن تتحمّلي لوحدك "

_"أشكرك "قالت باقتضاب.

_"أنا من ينبغي عليه شكرك "قال بامتنان "لقد فعلت الكثير لأجلي، يعلم الله أنه لولا مبادرتك ،ربما لا أزال رهين تلك الحالة الصعبة، لقد دعمتني عندما تخلّى عني الكثيرون ممن اعتقدت أنهم أصدقاء مخلصون وإخوة أوفياء، ووهبتني وقتك وجهدك، و اهتمامك و طاقتك، و طردت عني شبح العزلة وعمدت بروحك الطيبة و قلبك النبيل إلى تقديم يد المواساة، انظري إلي يا أثيل "فرفعت طرفها وقابلت عيناه عينيها، عينان سوداوان منفعلتان و عينان بنيتان فاتحتان مطمئنتان " كنت أعتقد أنها النهاية، نهاية الطريق، ويا لها من نهاية موحشة غير منصفة،إلهي ،كم كانت قاسية، وعندما كنت أتفقّد أثاث غرفتي، كنت أتساءل إن ما كان مصيري أن أراه ما بقي من عمري و أنظر إلى ذاك الكرسي "وواصل بغصّة "لو أنني أرهن حياتي بطولها لأجلك لما استطعت إيفاءك دينك، وأتساءل دائما أي عمل صالح ذاك الذي أتيه حتى جاءني الجزاء على هذه الصورة !؟و أتساءل أحيانا بماذا كانت تفكر هذه الفتاة عندما أقدمت على هذه الخطوة؟ ماذا أكون بالنسبة لها لتمنحني كل هذا الاهتمام ".

وتردّدت قبل أن تجيب، ولم يكن في نيتها التصريح بمشاعرها، فقالت بسرعة لأنها إن تكلمت ببطء سيفضح حقيقة شعورها .

_"لا شيء،كنت فقط أريد مساعدتك، إنك تستحق كما أن الجميع يحبك، كل الناس يحبونك ، أنت أيضا قدمت يد العون للكثيرين دون غاية ".

_"الجميع! "قال بخيبة أمل، إنه لا يعبأ بالجميع و ليس هذا هو الردّ المتوقع "كل الناس يحبونني؟،و ماذا عنك؟"

_"أنا أيضا أقدّرك كثيرا" اضطربت معالم وجهها و قلّبت يديها تحت الطاولة، بينما فرّت عيناها من مواجهة نظرته، و رغبة منها في إضفاء المصداقية أضافت "كذلك السيّدة سميحة إنها تحبك و دعت الله لأجلك ".

_"حسنا السّيدة سميحة تحبني"قال بلؤم حميد " سرور عظيم أن تحبني سيّدة مثلها، ينبغي على المرء أن يحتفل لمعرفته أن تلك المرأة تحبه " وحرّك لسانه في فمه "و أنت تقدرينني كذلك، منذ متى تعرفينني؟"

_"منذ أربع سنوات "سأل برقة

_"كيف ذلك ".

_"قرأت لك مقالًا في الجريدة ".

_"عن ماذا، أقصد ما كان موضوعها؟ " سأل

_" عن الإحباط " أجابت فورا دون تفكير

_"إنك تذكرين الموضوع جيدا، ذاك جزء من تقديرك لي ،أليس كذلك؟إلهي ،كم تقدرينني " وانفرج فمه عن ابتسامة مداهنة رافعا حاجبيه .

و فهمت أنه يستدرجها وأنه يلمّح إلى مسألة معينة، فالتهبت وجنتاها بحمى فضح مشاعرها، ما أغباها إذ صرحت و إذ أجابت دون تفكير، كان ينبغي أن تتظاهر بعدم التذكّر.

_"و أذكر أنك تعرفين عيد ميلادي، لقد هنأتني؟ ااه، حسنا الجميع يعرفه، حتى السيدة سميحة أشكّ أنها تجهله، إنها تعرف عني الكثير"

ولم تقل شيء، بل صوّبت نظرها نحو الغصن الذي تنشبه الرياح ثم عاد إلى وجهه المترقب، كان يترقب أن تنطق لكنها لم تفعل، الأمر الذي فرض عليه تغيير الموضوع ،كان يعي أن أدبها و احترامها لنفسها يمنعها من الإفصاح بمشاعرها لرجل قبل أن يفعل هو، و هو أمر سرّه كثيرا في الحقيقة وضاعف من إعجابه بها .

من التجاج الأمواج المضطربة استلهم سؤاله القادم

"حسنا يا شجاعتي،ماذا عن البحر،هل استطعت الانتصار على مخاوفك؟ "

ابتسمت أثيل نصف ابتسامة

_"لا،ليس بعد، إنه الأمر الذي لم يرضخ لإرادتي، لازلت أجري المفاوضات،قصدته أربع مرات رفقة السيّدة سميحة، أنا لا أقترب منه حتى، و لكنني مصممة ".

_"عزيزتي أثيل. أنا واثق أنك ستبلين حسنا، أنت التي لا تعترفين بالهزيمة، إن إرادتك فولاذية،و لأكون صريحا إنها تعجبني كثيرا، فقط واظبي على مشروعك و ستنجحين ".

_"ذات يوم" امتدّ نظرها الى البعيد "دون مقدمات، دون تمهيد، سأفعلها دفعة واحدة، رغم أن الله وحده يعلم كيف سأفعلها !؟ لأن هذه الأمور تحصل نتيجة قرار فوري حاسم، عندما تخاف جدا،أو تفقد الشعور بالخوف تماما. أما التخلّي عن الخوف تدريجيا فذلك لا ينفع معي على ما يبدو، إنه يثمر مع أناس آخرين غيري".

_"كلام بديع يا أثيل،سأنتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر،و كذلك أشعر بمتعة عظيمة وأنا أسمعك تتحدثين عنها، و ربما أراك تنفذينها بأم عيني، أتساءل إن كنت سأكون جزءا من تلك اللحظة الثمينة؟" .

ابتسمت أثيل مستمدة شجاعة و رباطة جأش من تعليقه اهتماما على شؤونها

_"هل تعملين بالغد؟ "سأل عشوائيا

_"أجل "أجابت باختصار كما هو عهدها

_"ذاك العجوز إبراهيم لا يسمح بالإجازات "كانت ذاكرته قوية فيما يتعلق بالرسائل الأمر الذي أدهشها، رغم أنها من كتبتها فقد غاب عن عقلها مضمون معظمها، مما يعني أنها ستراوغ بالمزيد ما لم يراع خجلها بالطبع " ألا يزعجك نظامه المتزّمت؟".

_"لا، إنه رجل طيب"كذبت " رغم كل عيوبه ،حسنا ،أحيانا يبالغ في تزمته و يغدو بغيضا جدا ،بيد أنني لسبب ما أنسى ما يقوله و يفعله بسرعة ".

_"إنك ملاك يا أثيل "قال مطريا "لا تذكرين أي إنسان بسوء، كل الناس طيبون و رائعون، أعتقد أن السيد إبراهيم رجل قاس و متشدد "

_"أعتقد أنه تعرض للخيانة من طرف بعض الأصدقاء الذين وثق بهم،أو ربما تم التخلي عنه وقت الحاجة " كانت أثيل تجيد موهبة اختلاق الأعذار لأي سلوك صادر عن الآخرين.

_"هل سرد على مسامعك قصص الخيانات التي تعرض عليها ".

_"لا،أعرف أنه تأثر للغاية بموت زوجته، أضحى رجلا تعسا بعد موتها، فهو لا ينفك يتذكرها، ليس شريرا أبدا يا خليل، إن قلبه رقيق رغم تشدده، يكره العطل، ماذا نفعل؟"

إلهي ،ما أجمل شفتيها وهما تنطقان اسمه دون لفظ السيّد ، وابتسم مسرورا .

_"أجيبيني،أحقا سيقدم على طردك ،إن ما تغيبت عن العمل ؟أجد ذلك غير منطقي"

_"أجل "أجابت آسفة "فعلها ثلاث مرات ".

تجاوز عن هذه النقطة

_"أثيل،ستأتين السبت المقبل "قال بلهجة آمرة "لا أريد أعذارا، لقد قررت أن تأتي و كفى "

_"لست واثقة من ذلك،لا أستطيع أن أجزم فربما لا تسنح لي الظروف، و كنت سأطلب إليك أن لا تأتي أيضا، إن الجو بارد جدا ومتقلب على نحو مفاجئ، وأخشى أن تصاب بالزكام، أو تصاب بوعكة برد طارئة "

_"هل تهتمين إن ما توعّكت صحتي؟ "

علقت عيناه بشفتيها يترقّب جوابها، و لكنها ارتعشت قليلا

_"ستقسر على المكوث بالبيت، وذكرت أن الجريدة بحاجتك ثم إن الزكام يتعب الجسد" ورفع حاجبيه مستنكرا ،و طفق يطرق بأصابعه على الطاولة بنفاذ صبر

_"سأذهب في رحلة الى الريف وأتسلّق الجبال مثلما فعلت أنت، ولا بأس بإصابتي بالزكام فأنا ليس لدي من يقلق بشأني مثل والدتك وشقيقتيك والسيدة سميحة، ها أحتاج إلى استعارتها وابنتيها، هل أستطيع؟ خالتي رفيداء لا تجلب أي متعة، فهي جدية ،صارمة كقائد عسكري، مغرمة بالنظام ووضع الأمور في نصابها و لهذا أفترض عدم ملاءمتها، كما أنك لست أفضل منها فأنت بالكاد تتكلمين" وأبعد عينيه عن وجهها الساكن و طرفها الساجي "أفضّل سالي الصغيرة أو البنت الكبرى، أضيع اسمها على الدوام، فهما تثرثران على ما أعتقد إلى درجة إحداث صداع رهيب في الرأس، كما أن أمهما ستتولّى مَهمة إثارة المتاعب و المشاكل مما يعني عروضا هزلية و عواصف من الضحك، و الآن سأعلمك بقراري سواء أأتيت أم لا، سأحضر كل سبت كما هي العادة وأنتظرك من شروق الشمس إلى غروبها "وهمّت بالاحتجاج ولكنه أوقفها بحركة من يده بنبرة لطيفة .

_"أما الرسائل فليس لك عذر، ستكتبين لي كما كنت تفعلين، و سأكتب لك بدوري، لا سيما و أنا أعلم الآن إلى أي درجة تقدرينني، أفترض أن أمك تمانع خروجك يوم السبت لكنها لن تمانع كتابتك الرسائل، فهي تجهل أنك تكتبينها،،ألست مصيبا؟"فأطرقت رأسها موافقة .

_"ممتاز،نحن متفقان على هاتين النقطتين "ومال بكتفيه نحوها ثم أخفض صوته"تصبحين أجمل عندما تقولين نعم،إلهي،كم تبدين"ثم اتّجهت عيناها المتألقتان ببريق السعادة نحو ساعته، إنها الواحدة و ربع، لقد مرّ الوقت سريعا ولم تشعر وهي في غمرة الحديث بمروره، ما أسرع ما يمرّ وقت العشاق و كانت سميحة قد شددت عليها بعدم التأخّر بسبب معاناتها من التهاب في المفاصل

منذ بعض الوقت، وقدماها تتجمّدان بسرعة البرق، لا شك أنها حانقة ترتجف من الغضب والبرد، و لولا أن دمدماتها المرتفعة المعبّرة تخفف جزءا من غضبها لوجدتها عند رأسها الآن توبّخ و تصرخ، وإن لم تسرع بالانصراف و تنطلق مثل السهم لتنبت أمامها فلن تسلم من لسانها اذا.

_"سأذهب الآن "

سحبت يديها من تحت الطاولة ثم التقطت الحقيبة، ووقفت على قدميها ونهض هو أيضا مندهشا

_" لماذا؟ لا يزال الوقت مبكرا، لم نتحدث بعد "

_"إن السيدة سميحة تنتظرني في المحطة، اتّفقنا أن أوافيها عند الساعة الواحدة، أراهن أن وجهها قاتم من الغضب "

_" لن أصرّ عليك" وظهر في وجهه تعبير انزعاجه من الافتراق عنها"حاولي أن تأتي السبت القادم".

_"سأحاول "استدارت على عقبيها ثم أغمضت عينيها، وشعرت أنها تركت قلبها الخائر في مكانها و ما إن خطت خطوات قليلة حتى سمعت صوته يناديها .

_"أثيل، شكرا لأنك أتيت "قال هذا بصوت يقطر حنوا، ووجه منقبض يستصعب فراقها.

الفصل الخامس

"عزيزتي الجميلة أثيل

كان يوما رائعا،إلهي كم كان رائعا ، إن كلمة رائع لا تكفي للتعبير عن شعوري، و أكاد أجزم أنه من أروع الأيام التي مرّت علي، لأنني تمكنت أخيرا من مقابلتك، و قد أبدت خالتي ملاحظة حول ذلك، وقالت أنني أبدو أسعد مخلوق على وجه الأرض و تحفّزت ظنونها أنني ربما استقبلت خبرا جيدا أو حصلت على ترقية في العمل، و لم تشعر بالغرور أبدا وهي تفترض شرائي الجريدة من السيد مالك.

قلّما استطعت ردع معالم خيبة أملي من الظهور، بينما أنا عائد إلى البيت كل يوم سبت، وقلّما فشلت خالتي في ملاحظة حزني الذي أحاول كتمه، على أن عيني المسرورتين برؤيتك باحتا بالكثير، وفجأة أصبح لون ستائر البيت الزيتي يعجبني ،و فستانها الأزرق الجديد يروق لي ومدحت ذوقها العذب، فضحكت قائلة أنها ارتدته ثلاث مرات في الشهر و مرتين في الشهر الماضي وأنني نظرت من خلال النافذة أكثر من مناسبة و رغم ذلك لم ألاحظ أن الستائر كانت منسدلة منذ أسبوعين، لأكون صريحا لم أكن أعبأ بما يدور حولي.

لطالما أخافتني خاطرة عدم مقابلتك. فخلال الليالي الأخيرة وعند منتصف الليل لأكون دقيقا،كانت توافيني أفكار كافرة خائنة تقول بلسان رسمي وقح أنك ربما أحد أقربائي، أو على الأرجح أنت تكيلين الدعم لجميع المعزولين المهزومين الذين أوجدتهم الحوادث السيئة، و رغم أنها فكرة طيبة مفعمة بالعطاء و الخير ،إلا أنها أزعجتني حيث أنني إنسان متملّك، أريد الانفراد باهتمامك دون غيري، ولا أنكر أن كونك فتاة مقعدة لم تمرّ على ذهني المشتّت.إلهي كم كنت سخيفا ، وحيث أنك تأخّرت في القدوم، أفسحت المجال لعدد من الخواطر الخبيثة، وها قد نبذت جميعها و تقهقرت مخذولة بمجرد أن رأيتك أمامي كإنسان حقيقي من لحم و دم،و لقد تعرّفت عليك مباشرة وأنا أجهل السبب، و لولا خجلك و استمرار احمرار وجنتيك حتى تغدو مثل زهرة شقائق النعمان لأسرّني الاعتراف لك أنك فتاة غاية في الجمال، لم أتصور أنك على هذه الصورة الفاتنة، إن لك عينين سوداوين بريئتين تخبلان عقل الإنسان،إلهي ما أجملهما ولك وجه أبيض يأسر عينيه، فلا يسعه رفعهما عنه. أجل إنك فاتنة يا أثيل وجمالك يحبس الأنفاس، كل شيء فيك من حرير: بشرتك،صوتك، نظرتك، تحميك طبيعتك الملساء الخجولة جدا من إطرائك، على أن ذاك البريق الحزين الذي يغشي عينيك الجميلتين لا يزال يراود عقلي فأتساءل حائرا: أكانت معاناة الأيام السالفة فقط من تكدّرها، إنني أشعر أن ذاك الحزن نابع من موطن لم ترفعي الستار عنه، ولم تميطي اللثام عن جزء تخفينه، جزء أميل إلى الاعتقاد أنه يؤرقك و يخطف الراحة

والهناء من حياتك، طوال الطريق و أنا أفكّر بخصوصك. أرجوك يا أثيل بوسعك الوثوق بي و نقل أعبائك إلي، و إخباري دونما تردّد عن الذي يحزنك، أرجو أن أتلقّى رسالة في غضون ساعة واحدة، لأنني لن أتحرّك من مكاني حتى أقرأها، إنك لا تمانعين جعلي أنتظرك، و لكنك لا تفضّلين ذلك الآن حسب المعطيات الجديد

السعيد جدا خليل "

" عزيزي خليل

يسرّني أنك قد وصلت سالما إلى المنزل، ويسرني أكثر أنك سعيد بمقابلتي. في الواقع، إن سرورك يعادل سروري، لقد تأخرت قليلا عن الالتحاق بالسيدة سميحة والحمد لله أنها نعمت برفقة طيّبة دفعت إلى إلهائها عن تجاوزي للوقت المتّفق عليه، وأخالها لن تبالي إن اتّفق ولاحظت. فإخلاصها المسعور للمشاريع و تفانيها في حبها يخدّر عقلها ويحملها بعيدا عن دنيا الواقع ، هذا هو طبق السيدة سميحة المفضّل، كانت المرأة ذات الضفيرتين الثخينتين تقترح عليها فتح متجر لبيع الأعشاب الطبية واصفة المشروع بالصفقة المربحة، وقد أجرى عقل جارتي الحالم عمليات حسابية سريعة خلصت إلى نتائج خاطئة تؤمّن لها ثروة بأصفار مضافة وراء الواحد والاثنين مما أثار زوبعة من السعادة، وقبل أن تنتقل إلى دنيا الأغنياء والمشاهير والطبقة المخملية، سددت عليها الطريق بعرض المشاكل المرافقة لذاك الصنف من التجارة فانكمش حماسها وتلاشى بريق الدولارات والدراهم من عينيها و عادتا باهتتين بفعل خيبة الأمل ،وسرعان ما انتقدت تأخري المُخْلف مقسمة أن رجليها متخشبتان من البرد، طبعا لم تكونا كذلك عندما سافرت إلى عالم المال والثروة، أما وقد ضاع حلمها قبل إكماله نصف دورة، فلن يخفى عليك أنها ستستجلب التهم من مثلث برمودا بما يحفّ ذلك من مخاطر، لم أستطع إخبارك هذا الصباح حجم سعادتي، لأنك تعافيت وعادت إليك صحتك، و انتابني الفرح لأن معنوياتك ارتفعت من جديد

أثيل ".

"فاتنتي المراوغة أثيل

إن السيدة سميحة امرأة مجنونة ليس لدي شكّ في ذلك، فضلا على أن نزواتها العابرة بخصوص المشاريع تحير عقلي أحيانا ،و تجعلني أتمرّغ من الضحك، و لكن يا عزيزتي لقد وجّهت إليك سؤالا مختلفا و لم أتلق جوابا عليه بينما منحتني أجوبة على أسئِلة لم أطرحها. مما يعزّز ثقتي بصدق ما أفكر فيه، و لست ألومك فربما تعتقدين أنني لست أهلا لثقتك أو أننا في بداية الطريق، وعندما نتقدم بضع خطوات ستبوحين لي بما يختلج في قلبك وإلى ذاك الوقت سألتزم بالتريّث، كما أنني أمتنع عن الضغط عليك طالما لست مستعدة لإطلاعي على أسرارك الخاصة. أما

أنا يا عزيزتي سأزعجك بكل التفاصيل التي تتعلق بي ولنرى إن كنت ستحتجين بحكم الصداقة التي بيننا و نظرا لأنك تقدرينني كثيرا، أجل تقدرينني رغم أن الله يعلم أنني لن أبتلع تلك الكلمة مع صهريج من الماء. سيكون من واجبك الاستماع دون تذمر والآن اذهبي الى النوم فقد تأخّر الوقت و غدا لديك عمل، اكتبي لي رسالة في الصباح،لا بأس إن كانت مؤلفة من خمسين سطر.

خليل ".

"عزيزي خليل

صباحك سعيد أيضا ،و شكرا على الورود رغم أنها في صورة صمّاء و لا أستطيع شمّ عطرها، لقد استيقظت متأخّرة، و أراهن أنني سأصل إلى المكتبة بعد أن يتجاوز العقرب الكبير الثامنة بخمس دقائق، عندها ربما تنفجر حواس السيد إبراهيم، لذلك سأختصر قدر المستطاع، إنها تمطر والجو بارد في الخارج، وأشكر الله لأنها لم تمطر بالأمس، أتمنى لك يوما موفقا في العمل، لن يسعني قراءة ردك على رسالتي، لأنني سأطير الى العمل

أثيل المتأخّرة "

" زهرتي الجميلة أثيل

أقرأ رسالتك على الساعة الثانية و نصف زوالا ، عدت إلى البيت لأخذ أوراق نسيتها، وبسبب أن اجتماعا طارئا قد عُقد عند الساعة السادسة ونصف من أجل تحسين جودة العدد القادم وإثرائه بالمفيد، خرجت قبل ذلك بربع ساعة، و بدوري ينبغي أن أعود إلى مقر الجريدة فورا، أعتقد أن عقرب الساعة الكبير قد وضعك في موقف محرج كما أنه أضرّ بسلامة السيد العجوز. أتمنى أن الحظ حالفك فتوقّف المعتوه عن الدوران.

المُقدّر خليل "

" ملاكي الهادئ أثيل

منذ صغري هيأت نفسي لإعلان الكراهية على يوم الأربعاء، ولست أستطيع تهذيب هذه الكراهية مهما فعلت، مع أن معظم الناس اعتادوا بفعل العادة والعدوى على كراهية يوم الأحد، لأنه بداية الأسبوع ويوم العودة إلى العمل أو الدراسة، أما أنا ،فأشكّل اختلافا شاذا عن باقي البشر الطبيعيين، وها قد حلّ هذا اليوم المنبوذ من قبلي، أتعرفين السبب؟ لقد رحلت جدتي التي أحبها بهذا اليوم، و أقيمت لها جنازة كئيبة، وكذلك وقعت فتمزّق جلد صدغي الأيمن تمزقا عميقا ،مما جعلهم يعقدون سبع عقد هناك، لقد لاحظت الندبة العريضة فيه؟و ما لم أكن مقيّدا بواسطة يدي والدي الحازمتين، فلم أكن لأرضى بكل ذاك العذاب. مؤلم أن تقسر على شيء ليس بمقدورك تحمّله، حتى و لو كان في صالحك، و لأنه يعرف أنني متيّم بحبه جاءني اليوم بكل فخامة مآزقه،

فقد تغيبت الفتيات الثلاث دفعة واحدة كأنهن اتّفقن على ذلك، ولست أصدّق روايات أي امرأة باستثنائك ،فأنت لا تكذبين، تعذّرت إحداهن بالمرض والثانية بمرافقة أمّها إلى طبيب العيون والثالثة بمرافقة والدها إلى طبيب الأذن والحنجرة، أفترض أن لهن طبيبا مشتركا و هو أحد المراكز التجارية، هناك يتم شفاؤهن و هن الآن يتسكعن في أحد المحلات يتبادلن عبارات الإطراء بين بعضهن، ألست مصيبا؟،كما أن أجهزة الطباعة قد تعطّلت فجأة دون سابق إنذار، ربما لن أتمكّن من إتمام العمل وتجهيز العدد ليوم غد، رغم أن فريد والشابين و الفتاة الرابعة بذلوا مجهودا فائقا يعوض غياب اللئيمات الثلاث. على الأرجح ،لن يصدر عدد الغد، يحدث هذا لأول مرة. بالمناسبة أشكر لك رسالة الأمس المشحونة بعبارات التشجيع، جاءت في الوقت المناسب، لأنني كنت محبطا تقريبا، ليس كثيرا،و مرة أخرى أشكر لك جواب يوم الإثنين عند الساعة السابعة و الربع مساءً عندما أكّدت للمرة الثانية أنك تقدرينني، لا أعرف لماذا أعلّق اهتماما على جواب ذاك السؤال أيضا؟ ولست واثقا أنك ستغيرين كلمة التقدير تلك، إن ما كنت مصرّة عليها، فأرجوك أبلغيني بالمدة التي سأقسر فيها على تحمّل سماعها، و إن استطعت أن تعيدي النظر سيكون أفضل بكثير، فلا تبالغي في تقديري يا فاتنتي، بوسعك الشعور بأشياء أخرى فهناك عدد لا حصر له من المشاعر التي تفي بالغرض دون أن تقدريني، فأنا عندما أسمعك تقولينها لفظا أو تكتبينها كلمة تتحفّز لدي أعراض الشيخوخة، أجل يا عزيزتي أشعر أنني عجوز تجاوز الثمانين برتبة مُقدّر ،و آمل أن نصيحتي برسالة الأمس قد أفادتك ،و أعترف أن الكتاب الذي اقترحته مفيد حقا رغم أن غلافه ينقص من قيمته ،صدق من قال لا تحكم على الأمور من مظاهرها ،و ضحكت من الدعابات الموجودة فيه ،سعيد لحصولي على دليل بارع لاختيار الكتب .

المحكوم عليه بالتقدير خليل "

"عزيزي خليل

ردا على سؤالك الصباحي سأبذل جهدي لآتي بالغد، غير أنني لا أستطيع الجزم، فالسيدة سميحة أصيبت بوعكة صحية مباغتة رغم أنها بالأمس مساءً عادت متأخّرة من حفل زفاف ابنة إحدى صديقاتها بكامل أبهتها و حيوتها و نشاطها ،سادة أذنيها عن كل ما يعكّر صفوها، وأثناء تقطيع الكعكة الكبيرة التي تعادلها طولا اتّخذت مكانا بجانبها بكل كياسة ثم حظيت بتناول أول قطعة على مسرة منها، و في سبيل أن تهجر غريزتها المشتهية للمشاكل و تدفعنا للانبهار، تصرّفت كامرأة مسؤولة عاقلة و رزينة. أجل، لم تثر أي مشكلة،هل كان ذلك علامة مباشرة لبداية أعراض المرض؟ لست متأكّدة من الجواب.خليل، لقد أكدت على حضوري خمس مرات إلى الآن في خمس رسائل منفصلة متتالية منذ الصباح، كيف يخطر لك أنني لا أريد رؤيتك؟بماذا كنت تفكّر عندما

أقحمت هذه الجملة البغيضة في المحتوى، قطعت الرسالة عند هذه النقطة للاستفسار عن صحة السيّدة العليلة، وأخبرتني ابنتها الصغرى سالي أنها مضطجعة تعاني من آلام حادة في معدتها، هل وضعوا مكونات سيئة في تلك الكعكة الضخمة بحيث أساءوا إلى صحة جارتي الغالية؟ لست أدري، أنبأتني سالي بضحكة مخنوقة أن أمها ترتاب أن هذا مفعول حسد متأخّر وقع عليها، ليحفظنا الله،أنا متيقنة من إرسالك رسالة بعد خمس دقائق تسألني تأكيد اللقاء،سأرد عليها مسبقا،كل شيء يعتمد على صحة السيدة سميحة، وسأرد على سؤال أراهن أنه يجول في رأسك في هذه اللحظة،أليس بمقدورك الخروج دون السيدة سميحة؟ لا أقدر، لأن أمي العظيمة ستصرّ على مرافقتي إلى أي مكان وإن ما كانت يداها غارقتين في إحدى الأعمال المنزلية ستنادي بأعلى صوتها: ياسي رافقي أختك ولا تتأخّرا، ألا زلت ترغب في التخلي عن خدمات جارتي الحبيبة؟

أثيل التي لا تملك ردا "

" أميرتي الأخّاذة أثيل

سارت الأمور على النحو الذي أشتهي، ففي اللحظة التي فاجأتني وجلست أمامي تعتذرين عن التأخّر أزهرت معنوياتي ،وعادلت سعادتي خيبة أملي قبل أن أراك، لم أستطع إلا أن ألاحظ اختلافا جذريا عن المرة السابقة، يبدو واضحا أنك بدأت بالتعوّد علي. تعجبني دعابات جارتك الطريفة التي تبلّ من المرض دون أدوية أو طبيب، أكانت بكامل قواها العقلية عندما أخذتك في جولة بما أسمته تذوّق الفن؟ إلى الآن أهتزّ من الضحك عندما أتذكّرها، تلك الساعة التي بدأت عند التاسعة و انتهت عند العاشرة تحت ذريعة أن معرض الألواح الفنية يغلق باكرا كانت من حقي أنا، و يا ليتها تذوّقت الفن كما أوعزت، لقد كفّنته بكفن استخفافها، تشاجرت مع الفنانين الذين أفنوا وقتهم و جهدهم في إخراج اللوحة على أحسن وجه لتأتي الناقدة الموهوبة فتصفها بخرابيش الأطفال أو هل هذه لوحة مقلوبة؟،عدّل وضعيتها حتى أفهمها، تبدو مثل جدار حيّنا الذي خرّب واجهته يزن المخبول يروح بخط و يرجع بآخر بواسطة الطباشير الملوّن ،اااه لو بوسعي الإمساك به متلبسا و هو يخرب جدار منزلي،لن يسلم من تلوين وجهه بالكدمات ، أستطيع تخيّل وجه الفنّان الأحمر المنتفخ مثل حبة الطماطم و هو يستعر غضبا من وقاحتها، و الأسوأ أنكما طردتما كلاكما،اااه يا طفلتي الهادئة الساكنة كيف تدفعين ثمن نزعتها المائلة إلى إثارة المشاكل ؟على أنني أحبّها و أود التعرف عليها ذات يوم رغم تصنيفها الرديء في قوائم المنبوذين والمطرودين من كل مكان تحل به."

"عزيزتي ذاك الفستان الأخضر المنقّط بالأسود، لقد لاءمك و بدوت غاية في الجمال، لم أستطع إبعاد عيني عن وجهك، وتينك الغمازتين المرافقتين لابتسامتك، أقسم أنهما تطلقان

الرصاص علي، لست أمانع، سأموت شهيد جمالك الفتان، لسوء الحظ قطع علينا المطر حديثنا الممتع حتى قبل أن أنبئك بكل الأمور المستجدة في ليلة الجمعة الفارطة،و هكذا اضطررنا للافتراق باكرا، كم أكره لحظة الفراق تلك،أمقت تلك الكلمة المسماة وداعا.

ولكن يا أثيل إن تلك اللمعة الحزينة لا تفارق عينيك أبدا، و رغم وعدي بعدم التطرّق إلى الأمر إلا أن الفضول يزهر في عقلي كأزهار الربيع كلما رأيتها فيهما، لست أستوعب ماهية ذاك الألم، هل هو سرّ يتعبك أو ألم هائل عالق في أعماق روحك أو شعور بالإثم و تقريع الضمير من قضية أجهلها، أنا أدفن الاحتمال الثاني فأنت لست من النوع الذي يرتكب آثاما، ولست كذلك من النوع المؤذي للناس، أود أن أعتقله ثم ألفق له أبشع التهم ،حيث يترتّب عن ذلك عقاب قاس كالحكم بالإعدام رميا برصاص الاحتواء، يستحق أن يموت و تستحقين أن تعيشي حياة سعيدة ،سأزيله من عقلك ذات يوم ،أنا أعدك وعد رجل، سأمحيه من الوجود بحيث لن يتسبّب في قهرك أبدا،أعلنه عدوا ثالثا بعد الكرسي و الأربعاء

خليلك العدو اللدود للبريق الحزين"

ملاحظة، طريقتك في سرد الوقائع مذهلة، ينتظرك مستقبل مشرق في الكتابة و التأليف، وأنت أيضا تعجبينني كثيرا،لا أقدر على منع نفسي من التصريح بذلك ".

"عزيزي خليل

كتبت الرسالة ومحوتها مرتين كذلك، لقد تردّدت في كتابتها، أود أن أوجّه لك سؤالا وأرجو أن لا تسيء فهمي فأنا لا أدشّن نية التدخّل في حياتك، و لكن هل تعجبك تلك الفتاة الشقراء؟ استنتجت من المدد والمساحات من الأحاديث التي تخصصها لها، لقد تكلمت عنها مطولا يوم السبت بل إنك بالكاد انحرفت عن موضوعها، وذكرت اسمها مرتين في الموضوع الآخر،و في الرسائل أنت تخصّها باهتمام هائل، تبدو كما لو أنك منجذب إليها فهي لا تبارح لسانك ويدك، أؤكّد لك أنني لا أضمر نيّة حشر نفسي في أمورك الخاصة، كنت سأمسح الرسالة وأعدل عن إرسالها، ولكن فكرة مباغتة احتلّت رأسي تسدي لي نصيحة إرسالها. لا تفهمني خطأ، مجرّد فضول ،فمع أننا أصدقاء لا أظن أن لي الحق في سؤالك عن مثل هذه المسائل، أنت رجل حر،لست مضطرا لتقديم أي تبرير لتصرفاتك

أثيل الفضولية ".

ملاحظة، أؤكّد لك للمرة الخامسة أنه مجرد سؤال صديقة فضولية لا أكثر و لا أقل،وإن كان لا يعجبك فتجاهله و حسب وسأستنتج أنني كنت فظّة متطفلة .

"صديقتي الفضولية أثيل

عندما وصلتني رسالتك كنت أستعد لزيارة حديقة أمي الراحلة، فأنا لا أجد إلا يوم الجمعة لأراعي مشاعرها،ستحلّ علي لعنتها لإهمالي لها، كررت ملاحظتك الرنّانة عن عدم تدخلك في حياتي أكثر من عدد كتابتك للرسالة و محوك لها، هل ذلك سؤال بريء أو علامة من علامات الغيرة الأنثوية؟ااه، لا، فأنت صديقتي فقط، اسمحي لي أن أشدّد على كلمة صديقتي التي تقدرني، لا أمانع الإجابة عليه. إن كنت تسألين بدافع الفضول كما ذكرت فأقسم أنها لا تطاق،إنها من أسخف العقول النسوية التي قابلتها، توتر أعصابي و تهدّد طمأنينتي النفسية كلما تشنّ حملة النحيب تلك خشية اقتيادها الظالم إلى السجن بسبب مقالة أو اثنتين عن وزير فاشل أو مسؤول لص، ليست سوى مصدر إزعاج كالأطفال الصغار،تنوح خوفا من العقاب المترتّب، وجدت تشبيها مناسبا لها تشبه ضرس العقل لا فائدة ترجى منه يظهر متأخر ثم يتسوّس بسرعة، و يسبب ألما فتّاكا تقريبا كفاجعة مختارة لليلة مفتوحة العينين يشقّ سكونها الصراخ و الأنين، كما أنها ليست أفضل عندما توكل إليها عملا محددا، إنها تحطّ من عزيمتي و لماما ما أنجزت المهام على الشاكلة المطلوبة، أنا أشك في كفاءتها طول السنة، أما إن كنت تسألين لأن شعور الغيرة تحرّك في قلبك،فلا بأس أن أصرّح ببعض ميزاتها، إن عيونها اللوزية الخضراء بلون الفاصولياء و بأهدابها الصفراء الطويلة تدعوك بصراحة إلى تأمّلها كأنها عالم آخر يستحق الغوص فيه،إلهي ما أجمل لونهما ، وشعرها الذهبي الطويل الأسيل المتموج كأنه حقول القمح الصفراء الناضجة ،ااه يا أثيل يجعلك تتلهّف لتمرّر يديك بين خصلاته،و قوامها منحوت مثل حورية البحر،إلهي ما أهيف قوامها، أسمع دمدمات من بعيد،من غرفتك،و بمقدوري رؤية دموع رقيقة تهادى بين أهدابك السوداء و أرى حاجبيك يتغضّنان من الغضب. لا تغضبي، إن هذه الصورة لا تغريني يا فتاتي، هذا وصف فريد الكتوم المولع بالشقراوات وليس اجتهادي الخاص، فأنا لم يعد لي عقل أميّز به لا الشقراوات ولا الحمراوات، لقد رهنته بكامل إرادتي لعيون سوداء مغرية،ووجه وضّاء كالقمر، إن كنت تعرفين الفتاة فأخبريها أن ترأف بي و تعيده إلي خليل "

ملاحظة، أميل إلى الرأي الثاني يا صديقتي الغيورة

"عزيزي خليل

من فضلك، توقّف عن التحرّش بذاك الوزير المدعو مرزوق ، إن صمته المتجاهل عن المقالات التي تطلقها بشأنه يخيفني أكثر من إقدامه على إبداء ملاحظات أو تحذيرات علنية، إنك لا تكتفي بالتلميح إلى أعماله، بل تذكرها مع ذكر اسمه، ينتابني الفزع عندما أفكّر بنفوذه الواسع، ربما استغلّه من أجل إلحاق الأذى بك أو إرسالك إلى السجن. أستلقي في سريري كل ليلة مفتوحة العينين من شدة قلقي عليك، كن عقلانيا يا خليل، وقبل أن تخلق وجه شبة بيني و بين فتاتك

الشقراء تلك، فكّر أنني خائفة على مصلحتك، وقبل أن تنتقدني لكوني أتدخّل في مهنتك، حاول أن تتفهّم وجهة نظري، لست أتنكّر لشجاعتك في عرض الحقائق وتنبيه الناس عن التجاوزات التي يرتكبها و السرقات غير المشروعة التي يقوم بها وصفقاته المشبوهة، ولكن يا خليل،لو أن غيرك من الصحفيين يحذون حذوك وينتقدون أسلوبه المستهتر في استغلال قطاعه ونفوذه لمصلحته الشخصية لما وجدت سببا لأقلق، فلن يمكنه محاسبتهم كلهم على كشف حقيقته، على أنك وحدك من تكتب و تكشف وتنزع الأقنعة وهكذا سيجد نفسه مضطرا لحماية نفسه منك. قد يلفّق لك تهمة، ليس بوسعي التنبؤ بما سيفعله لك، أرجوك يا خليل تخلّى عن هذا العناد، منذ أشهر و أنت تحوم حوله،و مرة أخرى أؤكّد أن صمته مخيف ويجلب الرعب إلى نفسي.

أثيل "

" جميلتي المذعورة

إنه سرور عظيم أن تقلقي بشأني، ولست في صدد توجيه أي تهمة لك، فأنت لست بمنزلة الفتاة الشقراء أو غيرها . أنت لك الحق في إبداء النصائح و الأوامر إن شئت، وأنا رهن طاعتك وإشارتك، على أنني لا أستطيع التوقّف بعدما بلغت هذا المبلغ، ينبغي أن أعمل عملي بإخلاص،مكانه هو السجن و ليس منصبه الحالي، منذ أن تولّى و هو يختلس و يستولي على الأراضي بغير حق،و فضلا عن هذا أجد خطاباته المدعية للنزاهة و الشرف سببا للجنون ،إنه لا يخجل،حتى لو استعمل نفوذه من أجل إرسالي إلى السجن فلن أتوقف، سأواصل، أتعلمين لماذا؟ لأن هناك أناسا يتوسلون إليك أن لا تستسلم، حيث أن حياتهم ومستقبلهم مرهون باستمرارك في الكفاح، وليس السجن ما يخيفني، أنا فقط قطعت وعدا على نفسي من أجلك أنت، و أخشى أن لا أستطيع البر به، لست بحاجة إلى أن تقلقي علي،فلن يتجاوز نفوذه إرادة الله، فنحن كلنا بشر نعيش تحت سمائه، ماضون في رحمته الواسعة،لن يستطيع فعل شيء لي،حتى لو أراد ذلك ، إن صمتنا جميعا وخوفنا منهم إنما هو انتصار لهم، وشحن لطغيانهم، فضعفنا يغذّيهم، وسكوتنا على ظلمهم يزيد من احتقارهم لنا ،واستهتارهم بمستقبلنا كأننا فئران.

المخلص خليل "

" جوهرتي الثمينة أثيل

طوال الطريق وأنا ألوم نفسي، لأنني جرحت مشاعرك، إن لقب الوغد جدير بي، لم يفتني ملاحظة تغيّر ملامح وجهك، لا أستحق معرفتك ولا صداقتك و لا عطفك علي، أول شيء فعلته بعد أن ولجت إلى الغرفة هو كتابة هذه الرسالة لأجل الاعتذار إليك، كنت ستبكين يا ملاكي، كيف تجرأت على قهرك على تلك الصورة الحقيرة، لست سوى حقير عديم الرحمة تعوزه دماثة الأخلاق،

أحيانا تفلت الكلمات من فمي، ذاك التعبير المتألّم في وجهك يتنافى و تفاعلك البارد بعدم الاكتراث، ولم تخدعني تلك الابتسامة الباهتة، قد تخدعين بها أي إنسان سواي أنا، أنا الذي يعرفك ويشعر بألمك، أنا الذي ينخلع قلبه عندما تحزنين، وأنا بلساني سببّت لك كمّا هائلا منه، أرجوك يا أثيل لا تتظاهري بعدم الاكتراث و أن عبارتي تلك لم تغرس في قلبك مثل سكّين حادّ . فأهون علي أن تقولي الحقيقة على أن تتظاهري بالتماسك و البرود، لأن التظاهر بعدم حدوث شيء يقتضي مجهودا جبّارا لا أريدك أن تبذليه، وبوسعك نعتي بما تشائين، لن أحاول الدفاع عن نفسي، لقد تفوّهت بعبارة جارحة أستحقّ عليها الإعدام

خليل النادم "

ملاحظة إن لم يصلني أي رد على رسالتي سأفهم أنك غاضبة مني و هو ردّ فعل متوقّع، لكن إن صفحت عن جريمتي اللفظية، سأعرف أن مكانتي في قلبك تتجاوز التقدير

"عزيزي خليل

كن على يقين تامّ أنني لست غاضبة منك، و ليس هناك داع لإبداء اعتذار آخر بالإضافة إلى أنني أبرّئك من تهمة تذكيري بأمور تؤلمني، أنت لست مسؤولا عن شيء، أنت إنسان رائع ذو قلب كبير يا خليل، تتّصف بجميع الصفات النبيلة التي أحبها و تبدو مذهلا بكل حالاتك باستثناء حالة الغضب و العصبية، فأنت عندما تغضب تغدو مخيفا وباعثا على الهلع منك، كأنك لست خليل الذي أعرفه.

سريعو الغضب مخطئون في أعين الناس، وإن كانوا على حق،اه يا خليل لقد كدت تتورّط في شجار مع ذاك الرجل لولا أنك راعيت وجودي، وعندما تغضب يا خليل تتفوّه بأمور غريبة لا تعتبر حكرا على شخصيتك وتتحوّل إلى رجل مختلف غير الذي أعرفه، لا أعمد إلى انتقادك بالطبع. طابت ليلتك الوفية لك بكل حالاتك أثيل"

"قصيدتي الجميلة أثيل

انظري إننا في منتصف كانون الثاني، شهر مناسب لرحلة إلى الريف، أشكّ في كون والدتك قد غيّرت رأيها بخصوص السماح لك بزيارة تدوم يومين إلى منزل قريبة السيدة سميحة؟ لا شكّ أن منظر المروج المكسوة بالبياض والتربة الرطبة البليلة ، وصفير القطار يحرّك فيك إغراءً و حنينا يصعب مقاومتهما، ربما عندما تتخلصين من سلطتها، و تنتقل مسؤوليتك إلى رجل جيد يمحنك الحرية المطلقة لفعل أي شيء يخطر ببالك دون تعريض نفسك للخطر، ربما تتمكنين حينها من زيارة أي مكان تشتهين . فأنا مثلا ،لو حظيت بشرف الزواج بفتاة جميلة مثلك سآخذها إلى الريف بكل سرور فقط لأطالع شعاع السعادة ينبثق من عينيها، و كوني واثقة باستحالة السماح لها

بتسلّق الجبال مع زمرة من الأطفال الصغار الذين لا يجيدون حتى الدفاع عن أنفسهم في حال تعرّضهم لخطر مفحم كهجوم إنسان أو حيوان بري متوحّش، مطلقا لن أسمح بذلك.

علاوة على أن احتمال إصابتها بالزكام و إشرافها على الموت فكرة مريعة لا تتناسب و ميولي القلقة، أنا وأمك متوافقان في هذه النقطة الحساسة جدا، وسآخذها في رحلة الى البلد الذي تودّ زيارته، أنت مثلا أمنيتك أن تصبحي غنية، كيما تتمكني من زيارة سنغافورة، سأحقّق أمنية زوجتي أيا كانت وسأقتل نفسي في سبيل توفير المال لأخذها إلى حيث تشاء، أتكهّن أنك تحسدينها من الآن لنيلها إياي كزوج. سأذكر لك أمورا كثيرة تجعلك تغارين منها وتنتابك أمنية أن تكوني بدلها: أنا أجيد الطبخ، أقصد عندما أقلّد الوصفة بحذافيرها و عندما ترفق خالتي علبة التوابل باسمها المناسب وأرتّب أغراضي بنفسي، و أمقت الفوضى التي تمقتها النساء فهن يعشقن الترتيب والنظام، فضلا على أنني لطيف ونجيب ومهذّب وأعامل السيدات بلباقة وأصبر على هفواتهن، ولست رجلا منغلقا و لا متشدّد، وأسمح لها بالخروج مع صديقاتها للتسوّق و شرب القهوة و اللغو عديم الفائدة الذي تجترّه على مسامعي بتفاصيله الدقيقة عندما نتحلّق على طاولة العشاء،لا أدخن ،لا أشرب الكحول ،لا تغريني العلاقات النسائية المتعددة كباقي الرجال ،سمة الوفاء تمانع الخيانة ، كما أسمح لها بإنجاب خمسة أطفال فقط حتى لا يفسد خصرها النحيل، وليس يخفى عليك أنني صحفي وسيم بهي الطلعة،ذكي، وأيضا طولي مناسب وعيناي هادئتان رائعتان ،صفات تفضي إلى إنجاب أطفال رائعين مثلي .

خليل ذو المزايا المغرية "

ملاحظة هل ترشّحين لي عروسا مناسبة، أشعر أنني سأظلّ أعزبا إلى الأبد، إن لم تتدخّل حكمتك و تنقذني من براثن العزوف عن الزواج، أحب صاحبات الشعر الأسود، والبشرة البيضاء، وأريد فتاة هادئة لا تثرثر، كما أنني أحب فتاة يتجاوز طولها المتر وخمس و ستين،لا بأس إن كان طولها أقل، إن ما كانت أوصافها تطابق أوصافك،مع أنني أستبعد أن لك شبيهة. فأنت لا شك قادمة من كوكب مختلف حيث النساء جميلات لا يثرثرن لطيفات ناعمات أصواتهن خفيضة إلى حد الهمس،و قلوبهن مفعمة بالرحمة و الحب، مكافحات ضد مآزق الدنيا

"صديقي الذي أقدّره أكثر من أي وقت مضى خليل

يؤسفني أن أمتنع عن قبول التماسك، و أرى أن توكل مهمة إيجاد عروس مناسبة إلى خالتك الغالية بدل أن تعتمد على ذوق فتاة غريرة مثلي، لا أستطيع تنفيذ المَهمة دون توريطك في زواج فاشل مع فتاة لا تحثّك إلا على الندم كل ثانية، لم أعرف من قبل أنك تنعم بكل تلك المزايا كما سبق و زعمت،فعلى حد علمي أنت لا تجيد حتى تقشير حبة البطاطا، وأذكر على قدر ما تسعفني الذاكرة أن غياب خالتك عن البيت قد جرّه إلى حالة مزرية من الفوضى وقلة الرعاية، و إن كنت في عجلة من أمرك، فقد يفيدك أن تختار فتاة من المكان الذي تقطن فيه،أو ربما تحل فتاتك الشقراء ذات الشعر الذهبي مثل حقول القمح الناضج و العيون الخضراء بلون الفاصولياء، أزمة عزوبيتك المعقدة، إلهي، ما أجمل لون عينيها.

صديقتك المقدرة أثيل ".

ملاحظة تستطيع وضع بحث في جريدتك عن عروس مناسبة ،وأرفقها بالمواصفات التي تريدها دون ذكر أن البحث لأجل حضرتك

"مفضّلتي العزيزة أثيل

أقرأ رسالتك على الساعة الخامسة صباحا وأنا أهتزّ من الضحك. وأتساءل إن كنت نفسك والفتاة التي أقابلها كل سبت بالحديقة، فتلك المخلوقة لا ترفع عينيها عن الأرض إلى درجة أود فيها أن أكون النقطة التي تنظر إليها و لا تتجرأ علي كما تفعلين أنت، لا تجيب دون سؤال،و لا تطلق العنان للسانها إلا إذا ابتعدنا في الحديث عن وصف وجهها و عينيها، وإن أنا أشحت ببصري عنها طبعا. إذا فأنت تعتذرين عن تنفيذ التماسي بالبحث عن عروس وترشّحين خالتي بدلا عنك. حسنا يا من تقدرينني أكثر من أي وقت مضى، سأختار فتاة جميلة جدا، تقضي على فرصك في حيازة المرتبة الأولى في قلبي ،و تنافسك في وقتي و اهتمامي، فتاة هادئة مطيعة، لست تمانعين مرافقتي إلى منزلها من أجل طلب يدها، أليس كذلك؟،اجلبي معك السيّدة سميحة من أجل إفساد حياتي من أول يوم، فهي تملك طاقة تكفي لتدمير العالم بأسره بشجار واحد

خليل

ملاحظة.لم أعد خليلك من الآن فصاعدا، فأنا سأكون خليل امرأة أخرى، لن تحبّ زوجتي أن يناديني أحد بذاك الاسم سواها.

"فراشتي المزركشة أثيل

إنك تستغربين لماذا أرسلت لك ذاك البريد الإلكتروني و من يكون صاحبه، ستبدد رسالتي هذه كل الغموض الدائر في رأسك، فقط تحلي ببعض الصبر

عند الساعة التاسعة و بينما أنا غارق في حوار ملبّد مع فتياني و فتياتي الكادحين المثابرين في سبيل صعود الدم إلى رأسي، فاجأتني ابنة عمتي سمراء بزيارة منعشة سارّة تحمل في إحدى يديها هدية متواضعة متأخّرة لتهنئتي بعملي الجديد الذي استلمته منذ أشهر خلت، إنّ لأفراد عائلتي طباع غريبة، عندئذ أعلنت عن نهاية الجدال و صرفتهم كل إلى عمله، وبينما كانت ترتشف قهوتها المفضّلة بثلاث قطع من السكر حدثتها عنك، يبدو أن عيني لمعتا ببريق غامض مما أثار ريبتها، وساقها إلى إقحام بعض التلميحات المثلجة،و التي تفاعلت معها بالتنديد، شارحا أنه لا شيء بيننا غير التقدير الذي تكنينه لي و دورك المستقبلي في إيجاد عروس ملائمة، والصداقة التي وثّقتها من طرفي. طبعا لم يكن اقتناعها أكثر من شكليات رسمية. لم أنبئها الكثير، فقط بعض الأمور السطحية التي يراها الجميع و يعرفونها عنك، فتاة جميلة بأخلاق طيبة و جارة مجنونة تشرّدك في الأماكن الخطرة، ومدير عمل يقيّد حريتك و يهدد بطردك، وأمّ قلقة و شقيقات فخورات، بالإضافة إلى بعض الهوايات التي تمارسينها كالقراءة، وفورا جمعت عنك انطباعا عاما وصرحت على نحو مريح أنها أحبتك قبل أن تتعرّف عليك، وقد أسعدني ذلك بحيث ابتسمت ابتسامة ربيعية ، عزّزت ظنونها تلك التي تقول بأننا نعيش قصة حب عظيمة، ومرة أخرى قاطعت يدي في حركة حازمة ،موّضحا أن لا شيء بيننا من ذاك القبيل، وبفعل مراوغتها، تظاهرت بتصديقي كي تتحاشى جدالا عقيما لا يفضي إلا لتبديد وقتها الثمين، وهكذا أوصيتها بك، وأردفت أنني أريد جمعكما ذات يوم في تعارف مخطّط له، ستذهل عندما تراك، حسنا يا قطتي الهادئة، ينبغي أن تأتي في زيارة إلى مقر عملي أنت أيضا رفقة جارتك المماحكة، فلدي لها ثلاث رؤوس ملوّنة لتتشاجر معهن، و أستدعي بدوري ابنة عمتي لتتعارفا، وقد أرسلت لك بريدها الخاص لتتواصلي معها في حال تشاجرنا و أردت شخصا من عائلتي تشوهين صورتي أمامه، أو في حال كنت بحاجة إلى دعم نسوي، إن سمراء من تلك الفئة التي تدعم القضايا النسوية، وهي أعجوبة في الخطابات الرنانة حول حقوق المرأة، وإن كنت تبحثين عن رفيقة جيدة تجيد انتقاء الثياب أو تبحثين عن مواعظ

جيدة لتعاقبي رجلا أزعجك، فهي اختيار موفق كذلك، احتفظي به وإياكِ أن تضيعيه، فلا أعرف متى ستحتاجين إليه، سجّليه في دفتر خاص

خليلك العزيز إلى الأبد ".

_"عزيزي العصبي الغامض خليل

لقد تم الاحتفاظ به كما طلبت، خامرني شعور غير مريح بينما أنا أفعل ذلك، هل تسعى لإخفاء بعض الأمور عني، أو أنك تغلّفها بتلك الدعابات خفيفة الروح، أنت لن تتعرّض لأي سوء، وعندما أرغب في شكايتك إلى أحد سأشتكيك لنفسك، لأنك صديقي الوحيد،ما هذه السياسة الملتوية الجديدة في التعامل مع أعصابي؟ لن أجادل طويلا فأنت عندما تقرّر أن تكون إنسانا غامضا تجمع كل مواهب العالم و تكرسها لغايتك.

هناك ما ينبغي أن تعرفه، ليس بالأمر الجلل،لم أكن لأطلعك، لولا أنك ستراني هذا السبت أعرج قليلا وعلى وجهي بعض الكدمات البسيطة، أركّز على كلمة بسيطة فتوظيفها نموذجي. أجل بالكاد تستطيع رؤية اختلاف طفيف على وجهي، لقد تعثّرت قدماي بينما أنا أنزل الدرج و سقطت، وأصبت ببعض الجروح الخفيفة على مستوى الوجه والركبتين واليدين، وإن امتنعت عن تدقيق النظر في وجهي لن تراها إلا كبقع صغيرة عديمة الأهمية،أما عن السبب ، فقد كنت متوجهة إلى بيت جارتي العزيزة ناهبة الممر نهبا ، لمساعدة ابنتها سالي في حل مسألة الكيمياء الصعبة،تكره الفتاة هذه المادة ، و بدل أن أصل إليها عند الساعة السابعة و خمس دقائق، وافيتها عند الثامنة ونصف، ليس بسبب أني متألّمة أو عاجزة عن المشي. لا، لكن أمي ألقت خطابا مرتجلا بهذه المناسبة المتعثّرة، رغم ما أبديته من شكر و حمد حول سلامة ذراعي و ساقي من وضع جبيرة بيضاء مقيدة للحركة.و بقدر ما كانت دعاباتي مضحكة لياسي الصغيرة، بقدر ما ألهبت نار الامتعاض في العينين القلقتين. أسبق لقاءنا بإعلامك حتى لا تدهش عندما تراني، فكرت بإلغاء الموعد المعتاد، وقبل أن أصوّت لصالح خطتي المتفادية لمقابلتك، نبذتها فأنت ستحتفظ بحقك في المجيء. ولست راغبة في أن تقضي اليوم لوحدك، وكنت سأصف بقاءك في الحديقة بعد انصرافي بالمؤلم لي، لا جدوى من تعريض نفسك للبرد و الشمس، والأمطار الغزيرة. فأنت مدين لجسدك بالعناية، ومدين لي أنا بتكريس الرعاية له،إنه واجب الصداقة بيننا الذي يحتم علي تنبيهك.

المهتمة إلى الأبد أثيل "

ملاحظة سيكون قلقك كقطرات مطر على زجاج لأن الكدمات طفيفة جدا .

" غنيمتي النموذجية أثيل

إنك دُرّة خرافية في تهوين الأضرار، ولست مسرفا في إطراء تواضعك الملطّف للحقائق، كدمات بسيطة في السادس من فبراير على الساعة السابعة و دقيقتين بينما كنت تتنزّهين في السلم، أليس كذلك؟،لقد أحدثت كدماتك البسيطة ارتجاجا في وظائفي الدماغية إن كان يهمك أن تعرفي، كما أن الهيستيريا التي أظهرتها لم تكن ذات قيمة إذا ما قيست بالغليان داخل جوفي، وإلى هذه اللحظة لازالت يداي ترتجفان من خطواتك المتعثّرة، أيتها الموظفة النموذجية، لقد وظفت كلمة لا تنسجم وطنيا وحالة وجهك الكارثية المملوء بجزر متقاربة قرمزية وبنفسجية وزرقاء فاتحة، لولا أنك تمتعت ببعض الحذر ، لكانت أسنانك حطاما و لكشفت ابتسامتك المستخفة عن مغارة علي بابا. أتساءل أين توظفين كلمة كارثية، في رسالة من القبر أو من مصلحة الإنعاش وأنت في غيبوبة مريحة على شراشف الموت. أعيد فأقول إنك لدُرّة خالصة يا طفلتي، لم أشعر أنني تخلصت من كل العتاب و اللوم تعليقا على طيشك المستفز، لم يشف غليلي بعد، هل تعاني قدماك من متلازمة السقوط؟ أرى أن تعريضهما على طبيب ماهر في المهنة ينعم ببعض الخبرة الحصيفة، تسقطين في الجبال ومن أعلى السلالم، ثم تواجهينني قائلة بوجه منقّط بالتورّمات: نحمد الله أن الأسوأ لم يحدث، أستوضح منك يا آنستي ما الأسوأ في نظرك؟ كان عقلك المصون شاردا في عوالم أخرى، ربما سبقك إلى كتاب الكيمياء الخاص بالفتاة المدلّلة سالي فأنت مولعة بأمها رغم مثالبها المتفوقة على عدد سكان الهند، تخلي عن تهوّرك في المشي فلست مستعدا لسماعك تروين لي بسرورك المثير للأعصاب قصة عن شاحنة دهستك، بينما أنت ملفوفة بلفائف بيضاء على سرير أبيض ثم تجسين نبض حنقي بقولك كدمات بسيطة يا خليل

خليل المستاء"

ملاحظة ،أنا لا أمطر على الزجاج يا حلوتي، أنا أمطر على رأسك المتفوق في البساطة، ما هذه الكلمة المثلجة!"

"المستاء مني خليل

يبدو أن تمهيدي المراوغ، لم يلق ترحيبا من طرفك شأنك كوالدتي، فلقد جأرت غاضبا بمجرد أن وقعت عيناك على وجهي، و ليس لي الحق في الانزعاج من لهجتك الحادة، لكونك تقلق علي، أعدك أنني سأراعي موضع قدمي في المرة القادمة، وأكون حذرة و متريّثة بصورة توافق رغبتك. أتساءل إن ما كان منظر وجهي القبيح قد أزعجك، فلقد كنت تتأمّلني بطريقة لم أكنه معناها،هل ستسرّك صداقتي إن ما تشوّهت تعابير وجهي ولم أعد الفتاة الجميلة التي يسعدك النظر إليها؟ أو حسنا لو أنك تعرف عني أمورا مخيبة ؟ لا نستطيع عرقلة بعض الوقائع من الحدوث، أتساءل

بفضول بينما أستمع إلى صوت الأطفال الصاخب يلعبون في الشارع ويفعّلون عبارة (مرر لي الكرة) بينهم

أثيل الممتنة لقلقك عليها "

"حمقائي الغريرة أثيل

أعتذر فلم أجد وصفا يلائم تفكيرك غير هذا، كم يؤسفني أن تكوّني عني انطباعا ضنينا سيئا، كذاك الذي ملأت به سطور رسالتك، هل تتحزّب سخافاتك لأجل إثارة حنقي؟كنت أشعر كما لو أن تلك الكدمات المؤلمة احتلّت وجهي أنا، و بينما كنت تتظاهرين بأنك لا تشتكين من أي ألم، كنت ألاحظ حركة قدمك اليسرى، كان وجهك ينكمش حينما تجبرين نفسك على الوقوف عليها كأن شيئا لم يحدث، ولم أشأ خصّها بملاحظاتي كيلا تقتلي نفسك في إثبات النقيض لي، فتفعّلي تظاهرك المثابر لتسيئي إليها أكثر من ذلك، هل قمت بزيارة طبيب لأجلها؟ ثم هلا تتفضلين وتحافظين على نفسك قليلا، فأنا لست متحمّسا لخسارتك؟أما بخصوص وجهك، فهو يبهرني حتى مع خريطة متكاملة من الحبوب و البقع الحمراء أو الداكنة أو البثور، إنني أعشق روحك و ليس وجهك الذي لو حدث و اكتشفت أنه ليس جميلا منذ النظرة الأولى لما تطرّف موقفي عن سابقه، و بدل عيوب كان يتعيّن عليك توظيف كلمة أسرار. أدرك أنك تطمرين سرا في مؤخرة عقلك بحيث تجرّينني إلى عدم ملاحظته، لكن لا يا ذكيتي الجميلة لن تنطلي علي حيلتك

خليلك الذي لن يتخلّى عنك حتى مع عيوب تفوق سكان الصين ".

"عزيزي خليل

اليوم هو الجمعة السادس عشر من فبراير و غدا هو السابع عشر، عيد ميلاد سعيد يا خليل، هل من خطط جاهزة للاحتفال؟ لا أستطيع إقناع نفسي أنك ستحيط نفسك بأوراق العمل وتنغمس بالتفكير في طاقمك الكادح، ربما هم في هذه اللحظة جزء من حفلة مبهجة ممتعة لعيد ميلاد قائدهم اللامع، و تحتلّ أسماؤهم المراتب الأولى في لائحة طويلة، لن يُسمح لي بحضورها حتى لو كان بيتك ملتصقا ببيتنا، فأمي مع تفكيرها العصري ،بل العصري جدا ، لن تسمح لابنتها بحضور حفلة شاب أعزب و لو كانت خالته تحتل الغرفة المجاورة لغرفته، أتمنى لك عيد ميلاد سعيد مليون مرة يا عزيزي

أثيل المهنئة "

_" خطّتي الوحيدة أثيل

قبل أن أفتح لك أبواب خططي لعيد ميلادي، يسعدني أن أمك العصرية لا تسمح لابنتها الفاتنة جدا بحضور حفلة ميلاد شاب أعزب يعيش رفقة خالته، إنني متيّم بحب هذا النوع من

الأمهات التقليديات الحريصات، سأضع في رصيدك المعرفي أن عيد ميلادي يمرّ كسائر الأيام في حياتي، حيث أن أمي رحمها الله تضع الاحتفال به في رف البدع من وجهة نظرها ، ولست أخرج عن حدود تفكيرها ،كانت تكتفي بالتهنئة فحسب، ولهذا سأجيب فضولك أنه لا خطط جاهزة أو غير ذلك للاحتفال به، ماذا عن خططك أنت بشأنه. فرفض الهدايا من الأشخاص المقربين الأعزاء على قلبي مفقود من شخصيتي، لا تخبريني أن مليون المرة تلك لعيد ميلاد سعيد هي ما تغلفينه كهدية الآن، لن أقبل بها على أية حال، أقول هذا لأوفر عليك عناء الاكتفاء بها،لم أنل منك السنة الفائتة إلا دعابات عن صديقاتي ،كأنك كنت تقولين ،علي أن أزهد و أصمد في وجه المغازلة و أتصرّف كرجل متزوج وفيّ لزوجة غير موجودة ، و أظهر بمظهر السافل بتجاهلهن و عدم الاكتراث لهن. إنك تصنعين مني أعزبا جبانا مشكوكا في ذكوريته، أشكر الله أن عيد ميلادي سيكون غدا يوم السبت الموافق للقائك، وبما أنك تحرمينني من الاستمتاع بفتح المجال لصديقاتي، فأنت بالتأكيد تحضّرين البديل .أجل يا مهددتي يستحسن أن تجهّزي هدية جميلة لصديقك الغالي على قلبك الذي تقدّرينه تقدير العجزة المشرفين على القبر، و إلا حرّكتني ريّاح المعجبات بعيدا عنك،فأذناي المرهفتان ستنعمان بكلمات سارّة تثلج معنوياتي المنخفضة، لن أدسّ أي اقتراح في رأسك، تولّي المَهمة كاملة ، سأرضى بأي هدية شريطة أن لا تشتريها من محلّ و تدفعي مقابلها نقودا، لنقل أن كلمة معينة من ذاك الصنف الذي يهزّ العواطف كفيلة بإرضائي، ليست من فئة التقدير و الاحترام، فلم أفقد بصري بعد يا طفلتي كي تقدريني، أو في سبيل أن تثيري دهشتي، اقترحي أن نقضي اليوم بطوله سويا، أو نتجوّل في أنحاء المدينة إن كان رجائي لا يشين سمعتك. كما أن فكرة جلب باقة من الزهور الحمراء لخليلك ليست بالفكرة الهيّنة، أما إن كنت تتراشقين الأفكار بينك و بين جارتك المجنونة الآن، فذلك أمر آخر لا يعنيني، ربما تقترح هدية تجعل عيني تتّسعان من الذهول، فهي أعجوبة في تعكير مزاج الدماغ البشري. المحب للهدايا البسيطة،أوظّف كلمة بسيطة خليل "

ملاحظة: عقلي الآن مثل سوق الأسهم ترتفع فيه التوقّعات وتنخفض، هلا تسعدينني بهدية جيدة "

"كتابي المفتوح أثيل

أخشى إن قلت أنه ينبغي أن تختاري بين صداقتي و بين كتبك الكريمة، أن تخدمك عبارة أجاثا كريستي الشهيرة القائلة: قال لي ذات مرة،إما أنا أو الكتب، لازلت أتذكّره عندما أقوم بشراء كتب جديدة.

وهكذا أكون صفحة مطوية انتهت صلاحيتها في حياتك، لنقل أن هديتك أعجبتني و عنوان الكتاب يبدو مثيرا، وأنا متشوّق لمعرفة القاتل التعيس، ولكن ألا تشعرين أنه ينبغي تهذيب حسّك الأنثوي قليلا؟، هل تجهّزين لارتكاب جريمة يا أثيل، إنك تبالغين في حب كتب هذه المرأة، ومضت فكرة وثنية في رأسي منذ قليل، فهرولت لأقسم لك أنه ليس لي صديقات، و أنني مسرور بقضبان قفصك الصلدة، فلا تفكّري في قتلي عن طريق وضع الزرنيخ في كوب القهوة، بينما أنا أراقب وفود المركز التجاري أو أغيب لبعض الوقت. فأنا لن أقبل ذهابك إلى السجن حتى لو كانت صفتي الضحية، حبّذا لو وقع اختيارك على هدية أخرى كمنديل أبيض مطرّز عليه اسمينا بلون زهري فاتح،و هكذا يثمر حسّك الأنثوي

خليلك المسرور بكتاب المجرمين والقتلة

ملاحظة:أحضري كتابا عن طريقة معاملة النساء في السنة القادمة ،وإن كنت واثقا أنه مكونا من مليون صفحة،على الأقل سيفيدني في التعامل مع زوجتي المستقبلية

"عزيزتي اثيل

أليست الذكريات الفائز دوما في حربنا ضد النسيان، إنها ترشق بصرها في كل مكان مألوف نذهب إليه أو نمرّ بجانبه و خاصة تلك المقيتة التي تصرّ على الالتصاق برؤوسنا، ما أشقى أصحاب الذاكرة القوية النشيطة، فمن بين جميع أنواع الناس ، لست أشفق إلا عليهم، هل لديك ذكرى كئيبة تسبب لك ذاك الوميض الحزين الذي يعض عينيك؟ إنه لا يزول يا فراشتي رغم أن بريقه قد خفّ على نحو ملحوظ، لمعرفة الحل ينبغي التعرّف على المشكل في لقاء صريح واضح، هل تتكرّمين فتوضّحين؟ عزيزتي ألست تثقين بي؟، سأتفهّم أي شيء، أعدك أنني سأدعمك و أؤازرك و آخذ بيدك إلى شاطئ النسيان، أخضعيني للتجربة و ستبهرك النتيجة

خليلك إلى الأبد مهما حصل "

" عزيزي خليل

ذهبت إلى الحديقة فلم أجدك هناك، إنها المرة الأولى التي تتغيّب فيها عن الموعد دون أن تعلمني بذلك ، هل حصل شيء؟ كما أنني لم أتلق منك رسالة هذه الصباح،هل أنت مريض؟هل أصابك مكروه؟ إنني أرتجف من الخوف يا خليل، أخشى أن تفد إلي أخبار سيئة،عندما عدت إلى البيت أول شيء فعلته هو كتابة هذه الرسالة، أرجوك أرسل لي و لو كلمة واحدة تطمئنني على صحتك

أثيل ".

"خليل

إن الساعة تقارب السابعة، هل تلعب معي لعبة قائمة على فحوى رسالة الخميس الأخيرة، حيث قلت أنك حرّ في فعل ما تشاء حتى الغياب، كانت تلك مجرد حماقة تفوّهت بها ، إن ما عقدت العزم على إفزاعي فلن تنال مني المصالحة إلا على إلحاح منك، و قد تستمر مخاصمتي لك أياما ،لست أمزح يا خليل "

"خليل..

لا تستهن أبدا بفتاة هادئة مثلي عندما تفقد أعصابها ،و قد أوصلتني إلى نقطة أكاد أنفجر فيها من القلق، فمنذ أيام لم أتلق منك أي رسالة، حسنا لا تفعل ما تشاء لست حر كما أنني لست حرة أيضا ، أليست تلك العبارة التي قضيت أسبوعا تريد فرضها؟ لنقل أنني أقبلها، كل ذلك بسبب حديث عابر مع رجل من معارف السيّدة سميحة، لا تجمعني به أي معرفة يا خليل، إن لم تفد إلي رسالة خلال ساعتين سأضطرّ إلى التواصل مع قريبتك وأخبرها أي الأنانيين القساة هو أنت،لست أمزح يا خليل "

"آنسة سمراء....

إنني أعتذر لتطفلي عليك بهذا الوقت المتأخّر من الليل، أنا أثيل، لقد سبق و حدّثك خليل بخصوصي، كنت أتمنى لو أن لقاء مناسبا جمعنا قبل أن تفد إليك رسالة من قبل فتاة غامضة لا تعرفينها، على أنني وجدت نفسي مضطرّة إلى ذلك، إنني لا أستقبل أي رد من خليل على رسائلي وانتابني القلق عليه، أخشى أنه لم يكن حريصا على نفسه، فتوعّكت صحته نتيجة إجهاد نفسه في العمل، هل أطمع أن تطمئنيني عليه و أكون شاكرة لك

أثيل "

"عزيزتي أثيل ... أعتذر لأنني أرّد عليك بعد يوم من ورود رسالتك إلي.لدي أخبار سيئة لا أعرف كيف أنقلها إليك، و باعتبار أن خليل قد وضع في حسابه بعض الفرضيات ،أوكل إلي مَهمة الاعتناء بك في حال تحقق إحداها ، يؤسفني إبلاغك أنه تم اعتقاله ، يوم الجمعة العاشر من آذار عند الساعة العاشرة صباحا ".

الفصل السادس

"تم اعتقاله "عجزت أثيل عن إشاحة عينيها عن العبارة المؤلفة من لفظين، كانت قبرا ضيّقا دفنت فيه نظرها، وقبل أن يستبيح الإدراك السخين عقلها و يجتازه الفهم الرهيب، دبّت فيها قشعريرة ناجمة عن صدمة عنيفة "تم اعتقاله ،تم اعتقاله" دوّى الصدى المتكرّر المفزع في رأسها، من الذي اعتقله و لأي سبب؟، وقع عليها النبأ كالصاعقة المزلزلة، كان قلبها مصدوما جامدا كأنّ قناعا من الجليد التفّ حوله في ظرف الثانية، ووجهها صلب كالجرانيت،و يداها ضاغطتين بحركة لا شعورية على سروالها المنزلي في منطقة الركبتين،و على الأرض بجانبها علبة نحاسية مربّعة مقلوبة انفلتت من حجرها فتناثر محتواها، كرات من الخيوط الملوّنة، وإبر الخياطة ودبابيس ذات لون فضي و أزرار ملوّنة بأحجام كبيرة وصغيرة، مقص صغير ، التي كانت تختار من بينها زرّا مناسبا يعوّض الزرّ المفقود المستدير من كمّ الفستان، و تدلّى إلى الأرض الفستان الأزرق الداكن المتملّص المزيّن بأزهار صغيرة بلون الخردل، فسقط في طيات قريبا من العلبة النحاسية .

لم يسبق لها أن تخيلت أنه سيتم اعتقاله، لأي سبب تم اعتقاله ؟،سألت مرة تلو الأخرى، إنه إنسان مسالم محبوب رغم عصبيته الثائرة أحيانا التي قلّما اهتمّ بتهذيبها و تهوينها، و تابعت شاخصة ببصرها إلى شاشة الحاسوب فترة غير محدودة فاترة الروح و الهمة، تثقل صدرها غمامة من الجزع الكاسح، تنتقل عيناها في حيّز ضيّق مثل حفرة، (من اعتقاله إلى تم) ثم تعود عكسيا من(تم إلى اعتقاله) تنظر إليها و كأنها لا تراها أمامها؛ بل إنها كانت شاردة الذهن ضائعة الطريق و قد غُمس فؤادها في هول مصيبة هائلة.

كانت الأفكار تارة مثل أمواج البحر العاتية تتخاذل في حركة إيقاعية منخفضة بعد أن تصطدم بعقلها "ما الخطب،لماذا تم اعتقاله "، وتارة أخرى كانت مثل الجمر الأحمر يتّقد بخوف لاهب،وحارت أثيل ماذا تفعل؟ إن ما استمرت تتساءل عن الأسباب بين عظام رأسها فلن تحظى بجواب واحد، ينبغي عليها أن تطرحه ضمن زمرة من الأسئلة الأخرى في رسالة مستفسرة توجهها إلى ابنة العمة فوحدها من تملك جوابا، لكنها بطيئة كسلحفاة و إن ما تلقت الرسالة الآن فلن ترد عليها إلا بعد يومين أو ثلاث، فماذا هي فاعلة إذا؟و رفعت نظرتها الشاخصة عن الحاسوب ثم حرّكت عينيها آليا بشكل مقوّس في جميع الاتّجاهات انطلاقا من زاوية الغرفة مرورا بشقوق الحائط و النافذة وصولا إلى الزاوية الأخرى ومع كل حركة كانت تصطدم بفكرة مروعة، وقطع حبل الأفكار المشوّشة نصيحة أريبة من عقلها الملطّخ ببقع الاضطراب: ابعثي رسالة فورا ليس واحدة فقط؛ بل واحدة و اثنتين و ثلاثا و عشرة بإصرار لا يذوي، واطلبي رقم هاتف بيتها ثم اخرجي في هذا الوقت المتأخّر من النهار بينما الشمس الناعسة تنهي دوامها وتودّع السماء، رغم

اعتراضات أمك المحتجّة واقصدي كشك الهاتف العمومي في نهاية الطريق العام وإن حالفك الحظ و لم يكن معطّلا ستستوضحين منها سبب اعتقاله بتفاصيل دقيقة و بصوت مفسّر،فهذه الآنسة على ما يبدو تكره كتابة الرسائل كابن خالها. ولذلك جاءت رسالتها ضنينة التفاصيل، مبهمة المحتوى.

وبينما هي تحرّر الرسالة الأولى بيدين متعثّرتين كقدمين ضمن زوج من الأحذية متصليّ الخيوط، معيدة كتابة الكلمة الواحدة مرة و مرتين لاحتوائها أخطاءً تحرّف معناها وقلبها يقرع كطبل بينما غلّفها الذعر من أعلى رأسها إلى قدمها، وعلى نحو مباغت، لدغت ذاكرتها خاطرة مُرّة "الوزير مرزوق "، لقد نسيت أمره، لأنهما لم يتطرّقا إليه منذ مدة ليست بالقصيرة، فخليل ما انفك يحوم حول فساده، وما عتم يحرّض الرأي العام عليه و يميط اللثام عن تجاوزاته ولصوصيته، فتيبست يدها مثل خرسانة متماسكة وترّملت حيرتها بين سواد الإدراك و راحت الكلمات التي كتبتها تتراقص أمام عينيها، ثم توقّفت عند كلمة لماذا؟ لا داعي لها الآن،ليس من شك أن الوزير مرزوق هو من كان خلف واقعة اعتقاله وسرعان ما ضغطت يديها على صدغيها داعمة مرفقيها بحافة المكتب متنهّدة تنهيدة الرعب، وعيناها توزّعان النظرات على الحروف كأنها جالسة على كومة من الحطب المتوقّد تحترق في صمت: لماذا ورطت نفسك في هذا المأزق المهلك يا حبيبي؟.

وتصدّت خاطرة أخرى بضراوة لسابقتها، لأن هذه مرعبة و رعبها أكثر من أن تحتمله أعصابها: شجار عنيف، شكوى من أحد الحاقدين الحاسدين، اتّهامات باطلة، سوء فهم،أجل سوء فهم وسرعان ما سيُحلّ ويعود إلى البيت ثم يكتب لها رسالة مُطمئِنة تسكّن فزعها وتطفئ نار قلقها، مقوّضة جدار خوفها. فأقسمت أنها ستخبره أنها تحبه، و أن الحياة دونه جحيم، وأنها مستعدة لفعل أي شيء في سبيل أن يهنأ، تحبه بعصبيته وهفواته و كلماته القارصة الناقمة على طاقم عمله، تحبه بندبته الواضحة على صدغه الأيمن الناجمة عن سقوطه، تحبه بمساوئه ومزاياه ،واستهتاره ولؤمه ووداعته ودماثة خلقه، تحبه حتى عندما كان مقعدا على كرسي متحرك، ولو عُرض عليها أن تقضي ما تبقّى من عمرها تدفع كرسيه لما وجدت في ذلك إلا تشريفا لها وغبطة فارّة من المنطق، تحب كل ما فيه من شعره الأسود الكثيف إلى قدميه، من ابتسامته العذبة إلى عبوسه المستطرد، من عناده المتصلّب إلى ليونته المرنة، تحبه منذ أربع سنوات خلت، وكل يوم كان حبّه يتضاعف في قلبها حتى غدا لا يسعه قلب واحد.

ليته فقط يعود إلى البيت، و ستخبره بكل شيء، نعم ستكاشفه بكل شيء، بعارها وجسدها المدنس، وماضيها المخزي، و ستجثو على ركبتيها باكية ناشجة معترفة متوسّدة الأسباب، مستندة إلى الظروف الحالكة، تتوسل إليه مسامحتها وأن يرضى بها على حالها، لأنه وطنها و ليس لها من

وطن غيره، و طيلة تلك السنوات كانت تعيش في منفى صدئ شاقّ قصيم لحيظ بالموت، أسوأ من الجحيم بلهيبه المستعر، ليته فقط يعود، ليته يساهم الآن برسالته في فكّ نسيج هواجس ملعونة سيطرت عليها كشيطان، و رفعت عينيها إلى السماء: يا الله أنقذه، امنحه رعايتك،اجعله لا يقضي ليلة أخرى في السجن، سأبرّ بأي وعد أقطعه الآن، فقط أخرجه من ذاك المكان المعتم المغلق البغيض فاسد الهواء، يا الله.

وطفقت تردّد الدعوات، وجاهدت كي لا تبكي، ليس وقتا مناسبا للبكاء، كما أنه ليس مرتعا ملائما للإغماء، ينبغي أن تتماسك و تضبط أعصابها في وجه العاصفة، و إن لم تتحلَّ بالصبر، ستجنّ.

لكن الخوف رفع هامته شامخا ساخرا بهدوء عقلها ينسج لها توقعات مخيفة فتشنّجت يداها ونزف صبرها ، فتابعت من حيث توقّفت عن ما يهوّن فاجعتها

"لماذا تم اعتقاله؟ ،إنك لم توضّحي السبب في رسالتك، هل تشاجر مع أحد "إن اقتراح الفرضيات المرنة للآخرين، ربما لا يحدوهم إلى إدراج ذاك السبب الرهيب المخيف، شبيه بفكرة: عدم التنبؤ بالشر يبعده، واعتقدت لغبائها أن حيل الطفولة قد تنطلي على الواقع فتغيّره.

"هل تورّط في مشكلة مع أحد، هل هو سوء فهم، أجل ربما هو سوء فهم"

وأثناء دقيقة الانتظار تلك، فقدت رباطة جأشها المتصنّعة فعقبت برسالة وجيزة أخرى،غير عابئة بما قد تظنه بها، ربما تفهم من خلال منظار اللهفة أنها تحبه، فلتجزم،لن تعبأ ولن تبالي

_"أرجوك يا آنسة سمراء أن تطمئنيني عليه، فأنا في حيرة هائلة منذ وردتني رسالتك، لا أعثر على تفسير مقنع، مهما بذلت من جهد، إنه أحد الأسباب التي ذكرتها في رسالتي الأولى، أليس كذلك؟ "

ونتيجة عدم حصولها على جواب قاطع، وطّدت العزم على غايتها، فتجلجلت يداها نحو تحرير رسالة ثالثة لاعنة بطء سمراء الممرض في الرد

_"انسة سمراء

هل أنت خارج البيت،أحاول تسكين روعي لكن من دون جدوى،أرجوك

وكفت عن متابعة الكتابة؛ فلقد جاءها الرد منها بعد دقيقة

_"عزيزتي أثيل

ليس أيا من تلك الأسباب التي ذكرتها هي من كانت وراء اعتقاله، لقد حاولت أنا ووالدتي إثناءه عن ذاك الطريق على أنه لم يزد على تجاهلنا و القول أنه يعرف ما يفعل، لقد ألقي عليه القبض بسبب إهانته الوزير مرزوق عدة مرات في مقالات جريئة مع ذكر اسمه وأعماله الفاسدة علانية

دون الاكتفاء بالتلميح كأنه لا يعرف أن تلك مجازفة بتّارة، ولقد قمنا هذا الصباح بوضع محام جيد تحت تصرفه، وأشك أن ذلك سيفيده يا عزيزتي، يؤسفني أن أصف لك الوضع بالخطير، قد لا يخرج من السجن في هذه الفترة الراهنة، على الأقل هذا الشهر، كما أنه لم يُسمح لنا بزيارته هذا الصباح. أجل، لم نتمكن من مقابلته، سأوافيك بالأخبار الجديدة عندما توجد سمراء"

وضغط خوف مميت على عقلها، و نهشها الألم كمخالب نسر جائع، لم ينفعها عزل الوزير مرزوق من الفرضيات وراء اعتقاله، و لن ينفعها أن تخفّف من العواقب الناتجة عن تصرفه الأرعن إن ما هي أقدمت بتفاؤل على ذلك، سيدفع الثمن غاليا إذا،دائما ما كان هناك ثمن غال بانتظار الحمقى الذين يقولون الحقيقة في وجه الفاسدين واللصوص. فالفاسدون لا يعاقبون على شيء بقسوة كما يعاقبون على قول الحقيقة، وسيطبّق عليه الوزير أسوأ العقوبات بعد أن لاذ بالصمت الكاره المرعد زمنا محدودا. أو لو لم يكن له نفوذ واسع أوسع من مدينتها مئة مرة؟ أكان ليستمر في فساده دون أن يحاسب أو يقال من منصبه؟،نفسه ذاك النفوذ سيمرّغ رأس خليل في السعير والويلات، نفسه من سيقضي على مستقبله وحياته، نفسه من سيبتر حريته ربما إلى الأبد، الى الأبد، حيث لن تتمكن من رؤيته مرة أخرى.ربما سيؤجلون المحاكمة سنة أو اثنتين،حينها سينسى الناس أنه كان موجودا، و يسلموا بأبدية حكمه، مؤبد اذا !حكم مؤبد.و في هذه اللحظة لا يعلم الحكم إلا الوزير و زوجته و بعض من أصدقائه المتملقين، المتحلقين حوله في حفلة سخية متباهية ظافرة. من المؤكد أنه جهّز من أجله رزما من التهم الملفقة، تعاون مع أعداء الخارج، جاسوس لصالح دولة معادية، خطر على الأمن العام،العمالة والخيانة و التشهير دون دليل و بيع الضمير و الوطن، بينما لا يعني الوطن للوزير إلا ثروة تغذّي مصارفه و تحسن جودة حياته. أما القاضي فإن علمه بالحكم كجهلها هي بالذات حيث أنه غارق في حوار حالم رفقة زوجته عن الأماكن التي ستتم زيارتها والتي يتحمل تكاليفها الوزير الحاقد، و أرسلت هذه الضربة غصّة إلى قلبها و عزفت أوتار ألمها لحنا كئيبا حزينا.

وراحت المخاوف تترنّح يمينا وشمالا، بينما كانت تطأ أرضية الغرفة بقدمين مضطربتين مرتجفتين فاركة يديها بقوة، لقد حاولت أن تثنيه أيضا، وتوسلت إليه أن يعدل عن هجوماته الصريحة، وقابلها بالبرود الذي قابل به قريبتيه. وتمثلته بين عينيها معزولا مهزوما متورّما في سجن انفرادي يقود إلى الجنون أو مع جماعة مختارة بعناية من القتلة والمجرمين والمغتصبين المتوحّشين، جماعة حقيرة قذرة مجهزة بمباركة الوزير لدفعه إلى الرضوخ و طحن كبريائه وتمريغ كرامته، زمرة من صنف آل كابوني، جوزيف مينجل،و فريتز هارمان و آيد جين و غيرهم.

رجال ضخام الجثة قساة التعابير، بطباع حادة،وجوههم شريرة، رجال لا يتورعون عن كسر ضلع أو ضلعين، ساق أو ساقين للتخلّص من الضجر و الحصول على بعض التسلية، لم يتم إرسالهم إلى السجن إلا لارتكابهم أفظع الجرائم.

"اااه "تأوهت،لقد دار حوار بينها و بين رفيقتها في العمل، و روت لها تلك الفتاة عن وسائل مريعة لتعذيب ذاك الصنف من المساجين السياسيين "الذي يقولون الحقيقة "،سواءً الجسدي أو النفسي، سردها شقيقها الذي دفعت به شجاعته الحمقاء إلى براثن السجن،ألم تسمعها وهي مرتعدة ملتاعة عن الطرق التي يعاملون بها!!!. سجن انفرادي، تعذيب متواصل، صعقات كهربائية،و نوم بدون ثياب في غرفة متجمّدة بالساعات، ضرب على القفا،حرمان من الوجبات، إذلال وإهانات، ومعاملة كمعاملة الحيوانات، ثم أحكام ظالمة عشوائية لا تقدر قيمة الإنسان أكثر من قيمة البهائم، ربما سبع أو عشر سنوات، أو عشرون .ليس من فرق، إن كان عليها ستنتظره إلى الأبد،و إن سُمح لها بالانتقال للعيش معه في السجن فليس لها إلا أن تشكرهم ممتنة لكرمهم. و لكن ماذا عنه؟،ستبطش به عنجهية الوزير، ستحطمه بحيث لن يعرف وجهه إذا رآه في المرآة، ولن يعرف نفسه إذا قابلها في الطريق،و فحّت الهواجس في روحها كفحيح أفعى سامّة و فزعت فزعا لم تعرف له مثيل أكبر من فزعها ذلك اليوم عندما تلقت نبأ حادثه.

والله لن تسمح لهم بإلحاق الأذية به، ستحميه منهم، تستطيع حمايته إن ما تكالبوا عليه مثل الوحوش الضارية النهّاشة، و برز عزم و تصميم في عينيها الهائمتين. وعلى نحو واقعي سخرت من نفسها سخرية لاذعة: أحقا، كيف تحمينه؟،و لم تستطيعي حتى حماية جسدك من التدنيس في ما مضى، إنها لا تستطيع إنقاذه ، من أين لها بقوة تتحدّى بها قوة الوزير بنفوذه وأمواله وسلطته وجبروته، سخيفة هي وحمقاء، المشهد مضحك بدجاجة ضائعة تصارع الضباع في غابة موحشة، أتصارعهم بجناحيها الخاملين؟ و وقفت بمحاذاة النافذة بذراعين متصالبتين تحت صدرها و قلب مهزوم عاجز ؛ حبيبي خليل، يا حبيبي الغالي، يا قطعة من روحي، يا أجمل حلم، أول رجل أحببته و آخر رجل سأحبه، يا كل شيء جميل بحياتي، أنا من دونك لا شيء، أنا رماد متطاير، أنا ورقة يابسة تلعب بها الريّاح و تنقلها من مكان إلى آخر، أنت وطني وأنفاسي وملجئي، لماذا تُنتزع مني في الوقت الذي تسير فيه الأمور بيننا عل ما يرام !!

وزفرت عندما غُرز دبوس حاد في قدمها الحافي رافقه جريان الدموع، وتدحرجت بخفة على الوجنتين الشاحبتين، وما لبثت أن رفعت قدمها بيديها ثم قلبتها؛ فظهرت نقطة حمراء عصرتها، ثم تحرّكت نحو الخزانة تخطو خطوات حذرة و سحبت منديلا و سرعان ما مسحته عاصرة

عينيها تهجس بغلّ، كازة على أسنانها: ليتك تموت أيها الفاسد، ليتك تختنق ولا تستيقظ أبدا، قبل أن تطاله يدك الخبيثة.

ونجحت في كبح مجرى دموعها، دموع سخينة رقراقة، عاجزة، و بينما كان عجزها يتأرجح في أرجوحة الخواء سمعت نداء أمها تلاه فترة من السكون فأسرعت تجمع الأغراض المبعثرة، ثم فتحت الباب وعبرت الممر حافية القدمين، وأطلّت من فوق الدرابزين فرأت الوجه النحيل النيّر،الوجه الذي تحتاجه الآن لتقابله في حوار يحرّرها من ثقل المصيبة، رأت سميحة بجانب أمها وخلفهما و ميرنا متصلّبة كأفعى متدلية الشدقين تراقب وتصيت، رافعة ذقنها مرسلة نظرات حاقدة، هي أيضا لا تكترث لها فلديها ما يكفيها

_"سيّدة سميحة "هتفت أثيل مسندة يديها على الدرابزين و شيء من الارتياح يلمع من عينيها كأنّها الإنسان الذي كانت تبحث عنه و بإشارة من يدها دعتها للصعود .

_"لا شيء يدفعك إلى هذا الكمّ من الحماس سوى السيدة سميحة "قالت مليكة مبتسمة ابتسامة متكلفة و شعورها بالغيرة ينتفض "تفضلي يا سيدة سميحة، تفضلي، اصعدي و تبادلا الأسرار" كانت هذه نتيجة متوقعة لتحريض ميرنا المتواصل.

_"ليس لدينا أسرار سوى الشكوى من قطتيّ المواءتين "أجابت ساخرة " تعرفن أنهما تثيران أعصابي و تليقان موضوعا ثريا ، ميرنا هلا تجلبين لي كوب ماء؟ "

_"حسنا "قالت بتلكؤ واستياؤها مسطّر على وجهها، فهمهمت سميحة بصوت ساخط "ليقطع الله نسلك،بومة "

وبعد أن تجرّعت الماء، غصّت ضاحكة "ميرنا ألم تسامحيني في جرعة الماء هذه، أكاد أموت، قادمة يا حبيبتي أثيل، أليس الجو خانقا اليوم يا سيّدة مليكة !؟ أكاد أشعر أننا في آخر ليلة من الخريف "ثم أدارت رأسها "أثيل هل جلبت لي الوصفة التي طلبتها "و غمزتها و نجحت في حجب غمزتها عن الأم ولكن عيني ميرنا المراقبتين تصيّدتاها "شعري يا سيدة مليكة، يفقد لمعانه كل يوم، انظري" وأمسكت خصلة باهتة من شعرها المصبوغ "كأن حفلة شواء قد أقيمت عليه، مع أنني أحافظ عليه قدر ما أستطيع"

_" ارحميه من استعمال صبغة الشعر، إنه يستنجد برحمة الله، دعيه يتنفس، يبدو كأنه سيختنق "قالت الأم ذلك بسعادة مكبوحة واستدارت على عقبيها إلى مركز أعمالها: المطبخ بينما شمخت سميحة برأسها زافرة كثور ثم صعدت الدرج و في إثرها ميرنا التي اصطدمت بها

_"ميرنا،على مهلك أكاد أقع "

_"اعذريني يا سيدة سميحة، ولكن تذكرت عملا مهما "قالت وهي تصعد الدرج مستعجلة وعندما اقتربت من أثيل رمقتها بنظرة مقتضبة مألوفة زاجرة.

" أثيل،هل من أخبار؟ "استفسرت سميحة و هي تغلق الباب خلفهما بينما كانت أثيل تتهالك على حافة السرير، مطلقة زفرة أسى و حسرة "هل من جديد؟ ألم يظهر فتاك الشهم بعد؟"

بلى، لقد ظهر أخيرا، بعد أيام من الانقطاع، حامت غربان الشؤم حول الجثة المفقودة، لقد ظهر و لكنه للأسف مقبوض عليه بتهمة ثقيلة، إهانة وزير مغلّفة بغلاف ارتكابه خيانة عظمى أو جوسسة لصالح دولة معادية، أو ربما نشره الأكاذيب وتمويه الحقيقة. لقد ظهر و بظهوره تقلّبت معدتها خوفا، وامتلأ صدرها بفزع متقيّح. و ليس إلا ظهوره جثة هامدة ينافس على المركز الأول ظهوره سجينا بتهمة ثقيلة تفضي إلى أحكام قاسية، لقد نكبت بظهوره أكثر مما سعدت، لقد ظهر مكبّلا بسلاسل من حديد مقتادا كمجرم خطير.

"إذا فرجلك الشهم في السجن؟ " ووضعت يدها على صدرها متنفّسة الصعداء،متنهّدة تنهيدة الارتياح، تحوم حول فمها ابتسامة طمأنينة منعشة، و لولا أن أثيل تدرك بفطنتها ومعرفتها عظم حب سميحة لخليل و تقديرها له لاعتقدت أنها من أنصار الوزير مرزوق، ولكن الدهشة سبقت الاستيعاب في مسابقة محيّرة، وخانتها المرادفات فحملقت إليها مشدوهة

_"ماذا؟ "صاحت سميحة في وجهها و تلاشت ابتسامتها "هل كنت تفضّلين أن يتخلّى عنك بعد أن تسكعتما طيلة الشتاء في الحديقة، أفضّل أن يكون في السجن على أن يكون ضمن حلقة من أصدقائه الساخرين يروي متفاخرا كيف أنه تجوّل معك في الحدائق، مبديا أسفه لأنك لا تزالين عذراء".

وكان الجواب الساذج، الجاهز قد تسلّق إلى لسان أثيل .

_"نعم أفضّل ذلك".

فزفرت سميحة بلهجة هازئة

_" صدق من قال إن الحبّ جريمة بدون سلاح، معروف القاتل و معروف المقتول المغفّل، إن المرأة الساذجة تفعل أي شيء للتمسك بالرجل الذي تحب، إنه يتهدد سلامة عقلها، وسيطرتها عل نفسها و اتّزانها، ما أحمق النساء حينما يقعن في الحب، ااه ليرحم الله أيام اتّزانك، عندما تحبين يسقط كل شيء من عينيك إلا الرجل الذي تحبين وأولهم المنطق، وانظري إلى نفسك، فخورة أنت بجوابك، أفضّل ذلك "وردّدت عبارتها، مجعّدة وجهها ومكومّة فمها بغية تقليدها، ثم وجهت الحوار إلى نقطة أخرى قابضة بلطف على اليدين المنقبضتين

_"كيف عرفت"

_"أنبأتني ابنة عمته"

_" لقد حدثتني عنها،متى عرفت؟ "

_" ساعة قبل أن تأتي" وبدا صوتها محطّما، وأجهشت بالبكاء "أخشى أن تطول مدة حبسه، بل أخشى أن لا يخرج من السجن أبدا، لقد حذّرته يا سيّدة سميحة، على أنه تجاهل نصائحي، والآن ماذا سيحلّ به؟ماذا سيكون مصيره؟"و تعلّقت بسميحة متوسّلة

_"لا تكوني متشائمة يا أثيل، تحلي بالإيمان،هل أضافت قريبته شيء آخر؟ "

_" ليس شيء ذا فائدة باستثناء أنها أرعبتني أكثر، لقد وصفت الوضع بالخطير وذكرت أنهم وكلوا له محاميا جيدا وقبل أن أتفاءل بالخطوة سحقتها بقولها: إنه لن يستطيع فعل شيء، وإنهما قد حذرتاه كذلك "لم تتزحزح النغمة المرتعبة في صوتها، بدا صوت إنسان يحتضر ثم انفجرت بالبكاء ووضعت رأسها على الكتف المرتخية "إنني خائفة عليه، أجل لقد زادت من مخاوفي عندما واجهتني بالحقائق، كانت واضحة معي، ماذا لو حكم عليه عشر سنوات؟ أو أكثر،أسمع أنهم يشدّدون العقوبات على هذا النوع من المساجين "

وعندما رأت سميحة النظرة اليائسة، خطّت بسياستها الرشيدة المواسية ترانيم من تخفيف المصاب و تزحلقت لهجتها الملطّفة بمهارة

_"أشكّ في ذلك، أراهن أن الوزير الفاسد يحاول تلقينه درسا فقط، إنه يودّ أن يرعبه كيما يتوقف عن التحرّش به "وفجأة سمعت صوتا عند الباب

_"ما هذا " فهزّت أثيل رأسها متسائلة و صوت بكائها يتردّد في صدرها "ألا تسمعين !؟هناك صوت عند الباب "

_"ربما هي قطة ياسي" أجابت أثيل، ونهضت سميحة ثم فتحت الباب، وبينما هي تتوقّع جاسوسا متلصّصا، عثرت على القطة البيضاء المرقطة بالأسود تحتكّ على الباب.

_"قطة جميلة، كيف سمحت أمك لياسي بالاحتفاظ بها؟ إنها لا تحب الحيوانات" وانحنت تناغي القطة "ما أجملك،هل تريدين حليبا؟ أثيل أفّضل رفقة هذه القطة الأليفة على رفقة بغلتي، لا يرحّب بهما حتى في حديقة الحيوانات، بماذا سيفيد عرضهما على الجمهور؟ "في محاولة لإبهاج الوجه المهموم، و في غمرة النواح و الدموع الباردة المتساقطة ابتسمت أثيل.

_" إن لم ترض أمك بوجودها، أعلمي ياسي أنني جاهزة لاستقبالها، و أنه مرحّب بها أي وقت لتراها،ما أجملك!! لن تطول إقامتك هنا يا حلوة، ثم ستنتقلين للعيش معي" وعندئذ رفعت ياسمين القطة بيديها إلى صدرها "أنت هنا إذا ،بينما أنا أبحث عنك في الخارج ".

وتناولت من الأرض دبّوس شعر برتقالي اللون"إنه لميرنا، سأقضي حياتي أجمع أغراضها، منذ قليل فقط التقطت واحدا من أمام غرفتي، هل أحببت قطتي يا سيّدة سميحة؟ اسمها ثيلا "

_"أحببتها" ومرّرت يدها على شعر القطة"إنها لطيفة مثلك، ثيلا مشتق من أثيل لتعلقك بشقيقتك، كنت أنقل إلى أثيل رغبتي في استقبالها إن ما ندّدت أمك بوجودها"

_"أثيل "صاح الصوت الناعم "لن تسمحي بذلك، أليس صحيح؟"

_"لن أسمح "قالت أثيل باقتضاب مولية ظهرها لياسمين التي لو حدث ورأت عينها المحمرتين لهرعت إلى أمها تغرقها في آفاق من القلق.

_"حسنا يا ياسي، اعتني بها جيدا، و أحضريها من حين لآخر إلى زيارتي".

_"حسنا،ثيلا قولي وداعا للسيّدة سميحة "و رفعت إحدى القائمتين الأماميتين للقطة لتقول وداعا، وعندئذ قفلت سميحة عائدة مغلقة الباب،وعندما أصبحت بجانب أثيل خاطبتها مشجّعة

_"حسبك ما بكيت يا أثيل، كما سبق وقلت، لن يحدث له شيء، أطعن في وجهة نظرك، أتوقّع أن تكون العقوبة ستة أشهر على الأكثر، أجل، كفكفي دموعك، هكذا تماما، وعندما يعلنون الحكم النهائي سنذهب لزيارته "واسترعت العبارة الأخيرة انتباه أثيل و جمعت شتاتها، ممتصة منها كل اللوعة و الألم اللذين كانت تتخبط فيهما. لقد طرقت الفكرة رأسها و كانت ستتحين الوقت المناسب لتقترحها على سميحة، و هاهي تسبقها مخلّصة إياها من عناء الطلب و تلعثم اللسان، لقد ذهبت إلى المشفى عندما لم يكن يعلم بوجودها حتى، أو لا تذهب إلى السجن و هو يحبها؟

ليست واثقة من رواية الحب هذه، فلم يحدث أن كاشفها بحبه، حتى وهو ينظر إليها نظرات ممهدة للإعلان، ولكن عينيه الودودتين قالتا صامتتين كل شيء، و لم تكن تصرّفاته الحنونة و سلوكه الدمث وغيرته المجنونة و قلقة المرابي إلا اعترافا صامتا بالحب، إن لسانه لم ينطق ولكن مواقفه كانت تصرخ معترفة ، ألم يستشط غضبا لأن أحد معارف سميحة أطراها قائلا أنها تزداد جمالا يوما بعد يوم عندما بلغ الثناء مسامعه؟ ألم يصمد في الحديقة أشهر دون انقطاع فقط ليراها؟ ألا يشاركها كل تفاصيل حياته اليومية؟ ألم يستشرها بكل كبيرة وصغيرة، ألا يستولي عليه الخوف بطريقة هستيرية إذا ظنّ أن مكروها أصابها؟.

"أجل، سنتسكع حول السجون الآن "أضافت سميحة مسرورة" بعدما تسكعنا حول المشافي والحدائق، أحفظ ما يدور بعقلك قبل أن تفكري به، فخواطرك الكلاسيكية التاريخية تليق بمتحف مرموق لحفظها من الزوال، أو يُؤلف منها كتاب بألفي صفحة بعنوان: كيف تصبحين غبية في الحب، أو الطريق إلى السذاجة،أو دعي عنك الاتّزان و أقبلي على الطيش، أو ربما نتائج مضمونة لتكوني غبية أو كيف تركضين من أجل رجل تحبينه،أو طرق مضمونة لصيد الرجل،

كلها عناوين تليق بمجهوداتك الجبارة من أجله، إن إقناع غراب بتغيير ريشه أسهل من إثنائك يا زنبقتي البيضاء فلماذا أعاكسك؟ "صرحت باستسلام، فيما كانت ملامح أثيل تنفرج شيئا فشيئا " سيتلوّى وجه ذاك العجوز المتوحّش إبراهيم،و سأعمل على اختلاق أكبر كذبة عرفها التاريخ. أما أمك، فدعها علي، ستموت إحدى قريباتي قريبا على أية حال، أتمنى فقط أن لا تموت قبل الوقت المناسب، وإن ما عاشت فلا فرق عندي سأوظّفها حجة لذهابنا إلى المكان الذي يسجن فيه لا قدر الله طبعا. إن صهرنا العزيز يستحق منا كل المجازفات، طبعا سيحمل معه عندما يبارح السجن شهادة خريج السجون، و لكنني لا أمانع فهو لم يقتل أو يسرق بل دخل في سبيل قضية عادلة، إنه رائع، لكن إن ساءت أخلاقه و امتنع عن الزواج مدعيا أن الظروف لا تسمح، أو تحجّج بفقدان الوظيفة وقرينات حجج الرجال للتهرّب من الواجب، فأقسم أني سأحشد ضده مسيرة أولها أمام منزله وآخرها في حيّنا، وأجبره على الزواج منك،لا أحد يحقّ له تحطيم قلبك "

وعندئذ تطلّعت إليها أثيل بعينين ممتنتين،شاكرتين و سرعان ما عانقتها ،بالرغم من سلوكها الصبياني الطائش الذي تبديه غالبا إلا أن سميحة في مواقف حاسمة مشابهة تتحوّل إلى كائن عملي جدي و عملي ،إنها داعمها الذي لا يتزعزع ، تستمدّ منها قوتها و شجاعتها،كيف لا و هي التي لولا وجودها في حياتها ما كانت لتصعد درجة واحدة في قصة حبها و لا لتحقق شيئا يذكر ،هذه المرأة التي تظهر أمامها على سجيتها، دون أن تتكلف الراحة أو الهناء، بدون وضع أقنعة "أنا بخير، أنا على ما يرام "كانت تنزع أقنعتها جميعا بمجرد أن تجتمع بها عدا قناع واحد ، فمهما بلغ إيمانها بحب السيدة ذروته لم تتجرأ على رفعه بموجب حرصها الدامغ على الاحتفاظ بها صديقة و أما و شقيقة،لم تشكرها فقط ،بل قالت أنه من المستحيل أن ترد جميلها مهما فعلت ،و كانت تقول ذلك بتأثر كبير ،محاولة إيجاد كلمات تصف حجم سعادتها باقتراح زيارته في السجن إذا ما تم الحكم عليه .

_"هل ذكرت لك ابنة عمته تلك شيئا عن المحاكمة "استفسرت سميحة بعد أن انتهت مراسم الشكر "متى ستتم"

_"إنها تجهل، لم يسمح لهم بزيارته"

_"أتوقّع أن تكون قريبة،حافظي على علاقة طيبة معها، لأننا سنستند عل جهودها لنحظى بزيارته، و أيضا لا تكثري من إرسال الرسائل حتى و إن كان القلق ينهشك "وعظتها محذرة "أنا من تلك المدينة أيضا،و أعرف طباع سكانها، ينفرون من الإنسان الملحاح و حتى لا تظهري بمظهر من تركض خلف الرجل، لن تُسرّ أي عائلة بانتماء فتاة من هذا الصنف إليهم "فهزت أثيل رأسها مستجيبة للنصيحة بكيفية ساخرة، أين يدور تفكير سميحة المسكينة، إن الرجل قد يكمل أيامه

الباقية بين جدران السجن بينما هي تلقّنها آداب التعامل مع عائلة الزوج المستقبلية، ربما لن يكون هناك رجل، ليكون هناك زواج "ينبغي أن تتحلي بأكبر قدر من الصبر،و مهما حصل، اسبقي اسمها دائما بلفظ آنسة أو سيّدة لا ترفعي الكلفة مطلقا".

الفصل السابع

استلقت أثيل متوترة الأعصاب في سريرها بعينين مفتوحتين، تنقل بصرها في السقف، ومن حين لآخر كانت تتقلّب و تتكوّم لعجزها عن تثبيت نفسها في وضعية واحدة أو تسترخي وتمدّ يديها في اتّجاهات مختلفة لتخمد عزيمة الاضطراب المتأجّج في صدرها، و عندما خاطبت نفسها أخيرا بلهجة مهدئة، استطاعت أن تشبك يديها على قلبها تصغي بغير استحسان إلى التكتكات المتوالية الصادرة عن الساعة القديمة المعلّقة بجانب صورة العائلة في جدار الممر، التي لو قُيّض لها أن تتمنى أمنية ما بشأنها لتمنت أن تكون معطّلة مع أن أمها ستفقد صوابها إذا حصل ذلك،لقد كان يثيرها أي صوت، خافتا أو قاصفا،هامسا أو مرتفعا،و يفزع تفكيرها كفزع سرب من الحمام يلتقط حبات القمح عن الأرض،كانت أذناها تترصّدان بلهفة صوت الحاسوب يخبرها بورود الرسالة الموعودة، تلك اللهفة التي كانت دروبا من التظاهر ببرودة الأعصاب، والسيطرة الذاتية على نفسها.

"كم الساعة الآن "سألت،لقد لجأت إلى السرير عند الساعة الثامنة والنصف،و بدا أن فرسخا طويلا مرّ منذ ذلك الحين،لا شك أنها التاسعة والنصف أو ربما العاشرة،لقد تأخّر الوقت،لماذا لم ترسل سمراء لها أي خبر عن المحاكمة إذا؟من المفترض أن تصلها رسالتها بوقت أبكر،و من المفترض أن تنتهي المحاكمة عند الساعة السابعة أو الثامنة باعتبارها انطلقت حامية عند الساعة الرابعة. وما لم يكن القاضي بطيء الحركة أو ثقيلا بأدائه يستمتع بترك الجماعة تنتظر، أو أن خطبا تقنيا قد استهان بحظ رجلها، فإن حكما ثقيلا ظالما قد صدر بحقه،و تنفست عميقا عندما ساورتها الفكرة اللعينة،أحكموا عليه بالمؤبد؟ على الأرجح أن السنوات لم تقل عن عشرا،إن لعنة الوزير مثل لعنة الأرواح الشريرة الهندية،لن تفارقك قبل أن تفارق الدنيا بثوان معدودة. أجل، أجل،ليس الحكم بالهيّن. حيث أن سمراء بعد ظهر اليوم و بينما هي تهم بترك البيت لتنطلق نحو المحكمة، طمأنتها أنها ستنقل الحكم فورا من فم القاضي إليها مباشرة، أنطق القاضي كفرا؟،أكفر بعدالة القانون إلى حد عجزت فيه النزعة الإنسانية عن ابتلاع الحكم؟ أكان الحكم جلّادا متحجرا طاغيا أعمى البصيرة؟بحيث أغمي على العمة فنقلت من فورها إلى المشفى،و ابنتها العليلة مفطورة القلب على قريبها بجانبها تقبض على يديها في محاولة يائسة لتهدئة جزعها وكفكفة دموعها المنهمرة و رفع معنوياتها، أو أن ردهة البيت الآن تحتضن صرخاتهما المنقبضة كصراخ امرأة ثكلى، وليس مستبعدا أن تشاركهما الخالة الوقورة النواح المتقطع بالنشيج، وليس للنساء صبر كصبر الرجال، ولا تعتبر إلا السكينة الأنيسة والصمت المزعوم والكلام القليل ثم التشبث بعدم البكاء حالة غير طبيعية لهن. إنهن ضعيفات بقلوب رهيفة وعيون ندية بالدموع تتجرّد من دثار التعقّل و سعة البال عند أول إعلان لخبر محزن، وازدردت أثيل ريقها بصعوبة و الهلع الفتاك

يتوغّل عميقا في باطن روحها عندما تسلّقت صورة ثلاث نساء نائحات إلى ذهنها المتقلّص: كان حريا بها أن تعلمني بالحكم، لا توجد محاكمة تستمر إلى هذا الوقت المتأخّر، أ كان سفاحا بجرائم جنكيز خان ليحاكم على هذا النحو؟ربما نسيتني في غمرة السعادة أو التعاسة، فمنذ أن جمعتهما المعرفة بعد رسالتها الأولى، وهي تنتقد بطئها وأعصابها الممدودة إلى اليابان. إن تثاقلها يدعو إلى الجنون، علاوة على أنها قليلة الرسائل، مقتضبة الكلمات، كأنها لا تستحسن أن تتعمّق علاقتهما أكثر مما هي عليه، ولولا أن خليل أكّد على قرابتهما لاعتقدت أنها لا تمت له بأي صلة، إنه نشيط حيوي سريع الاستجابة، بينما هي لا يوجد وصف يكافئها قدر بطئها.

حسنا إن هذا ليس مهم، إنها قريبته و كفى، لكن أين هي؟ متى تنوي إبلاغها؟ إنها لن تكون مستهترة جدا بحيث تؤجل الأمر إلى غاية انقضاء محكوميته، أتراها لم تعد إلى البيت؟ أتبقى خارجه إلى هذا الوقت؟.

ووسط دوامة التساؤلات شقّت خاطرة جميلة طريقها، ربما خرج الآن واجتمع المهنئون حوله أمام بوابة السجن، بحيث عرقلوا عودته السريعة إلى البيت، يقبلونه و يحيونه و يطرون شجاعته النارية التي لو رحّبوا بامتلاك نتفة منها لكرّسوها لنفس الغرض، ربما لن تكون الرسالة الموعودة قادمة من بريد البطيئة سمراء، بل من فارسها الوسيم خليل، وشقّت ابتسامة شجيّة طريقا موازيا إلى شفتيها، إننا نصبح سعداء جدا عندما نلفّ أنفسنا بأفكار جميلة، قد لا يذهب مدى تحقّقها على أرض الواقع أبعد من عظام رؤوسنا.

إذا اتّفق وأن تلقت منه رسالة الآن، ماذا لو أن نصف هذه الجملة الشرطية تحقّق: سأخبز خبزا و أوزّعه على كل فقراء الحي، أيعقل أن هذا فقط هو جزاء خروجه من هذه المصيبة البئيسة!!، إن هذا جزاء وافر القلّة، ونتيجة استخفاف ذاتها بالمنحة أوت إلى وعد آخر: سأتبرّع بكل راتبي القادم إلى دور الأيتام، رغم أن الله يشهد أن يدها لا تملك أي حق لتضعها على الراتب القادم ولا على الذي بعده، فالديون المتراكمة تتحرّق بشوق لتنهش منه كل قطعة، لا يا عزيزتي ليست بالفكرة المصيبة، ابحثي عن غيرها: سأقيم مأدبة عشاء متواضعة على شرف السيدتين المتخاصمتين جميلة وسميحة اللتين بزغ فجر نزاعهما بعد ليلة الزفاف الأولى، ونتيجة عدم استسلام كلا منهما تفاقم الصراع واتّسعت هوة الخصومة، إن الله لا يستحسن عملا كالإصلاح بين جارين لايطيق أيا منهما الآخر. وحيث أن هذه المسألة صعبة التحقق، فالعجائز كفيلات بتحقيق مأرب البرّ بوعدها: تنفيذ طلب أو اثنين من طلباتهن اللحوحة ويُبرّ بكل الوعود، إن مطلع فجر هذه الفرضية البديعة، جعلها تعد بأي شيء.

"لكن أين هي، هذه السلحفاة البطيئة "و شرع قلبها يتمدّد و يتقلّص، يئن في صيحات مكتومة متقطّعة، و ثانية تنهّدت و قلّما استطاعت تجنّب التنهّد منذ أن زحفت إلى السرير، ليتها لم تستغني بتلك النزعة الفولاذية عن اقتراح سميحة بالمكوث معها، فإنسان تحدّثه بما يدور بخلدها وتنقل إليه مخاوفها وتخبره متذمّرة أي المتلكآت هي تلك المرأة سمراء، أفضل مليون مرة من هذا الجحيم الأبكم، و من هذا الفتور البهيمي و السكون الراكد، ولولا أن أمها أضحت في الآونة الأخيرة تدمدم ساخطة عن وقوع عينيها عليهما مقترنتين مثل قرني الماعز، وأن الحوارات الهامسة في الغرفة المغلقة تشعّب شكوكها، لأسعدها رفقة سميحة في هذه الدقائق الفاترة.

لقد مرّ شهران منذ اعتقاله، وكانت المحاكمة قد أُجلت أكثر من تأجيل واحد، لخشوع القاضي في تنفيذ الأوامر و انشغاله بعدّ فلساته، وتقرير وجهة الرحلة القادمة .

وبقدر ما كانت أعصابها ووقتها يسمحان، كانت سمراء ابنة العمة المتريثة، المثقلة بالأعمال الغامضة ترسل رسالتين أو ثلاث في الأسبوع الواحد، رسائل خالية من أي مضمون قد يهمها، على أنها كانت تبتدع بعض الاطمئنان المزيّف لتقاتل به فزع أثيل المستحكم، و كل رسالة تختتم بخاتمة لطيفة: إن ما كنت بحاجة إلى شيء فأرجوك لا تترددي في طلبه، لقد كانت وصية خليل صارمة بخصوص الاعتناء بك. إنها ليست بحاجة إلى شيء ما عدا الاطمئنان عليه و أن تصافح أذناها خبر مبارحته ذاك السجن المعتم، و بينما كانت عيناها ملتصقتين بتلك العبارة، كانت تشعر بالامتنان لاهتمامه بها و إحاطتها بعنايته البعيدة، لتصنيفها نقطة مهمة ضمن الوصايا الحازمة. و بسرعة كانت تردّ على تلك الرسالة بقولها: لا شكرا، إن ما تمكنت من زيارته فانقلي له سلامي، وأخبريه أن صديقته أثيل تقدّره كثيرا.

وحيث أن التقدير كان في قاموسهما مرادفا آخر للحب،فإنه سيفهم مباشرة قصدها بينما لن يصافح الفهم الرأس البطيء كصاحبته المتريثة.

بالنسبة إلى أثيل لم تكن قضية رجل تحبه فحسب، و تميل إليه وتخلص له المشاعر،إن الأمر يتجاوز هذه العتبة، بل كانت قضية رجل صادق نازل الوزير في نزال غير عادل و انتهى به الأمر معاقبا. ولو أن رجلا آخر غير رجلها أقدم على هذه الشجاعة الباسلة لما أحسّت بغير التعاطف والإجلال والفخر، لأن السماء التي تظلّلهما واحدة، وهكذا كانت تذرف مزيجا من دموع الفخر والألم في آخر ساعة من الليل أو أول ساعات السحر، مزيجا قد لا يتلاءم، لولا أن المسألة برمتها قضية قول كلمة الحق و ليس إلا الحق.

إن الإخلاص الوطني الذي يصبّ في نهر شخصيتها أرغمها على الافتخار به رغم صعوبة وضعه ورغم أنه فُصل عنها و انتزعت منها لقاءاتهما و أحاديثهما الشيّقة و رسائلهما المتبادلة العذبة، إنها

فخورة به تعتزّ بنفسها؛ لكونها أحبت رجلا من تلك الطينة الأصيلة بضمير حي ونزاهة رفيعة،و كبرياء صقيلة، و إباء مترفع، ولولا أنه كان على غير هذه الصورة النبيلة لما أحبته، طبعا إن خصالها ترجم أن تحب وغدا عديم الضمير، أو رجلا من هؤلاء الذين شاركتهم سرير الخزي، لا توجد فتاة ترفض منحة مثله،ما أسعد حظها به! وما أشدّ ما ستكون الحياة جميلة برفقته ! و منعت نفسها عن التفكير بغير رفقته الى أن يموت أحداهما، ذلك أن حقيقتها الملوّثة طُمرت بتراب الحبّ الحقيقي المخلص، الذي يحوّل المستحيل إلى ممكن.

وكانت ذكرياتهما معا تنبض في عقلها و تستوفي حقها الكامل في خيالها و تجرّ كل ذكرى شقيقاتها بفعالية قصوى، ذكريات دافئة مليئة بالمحبّة الصامتة، مفعمة بابتساماته اللطيفة والساخرة حول كل شيء، التي من شأنها أن تدفعها إلى الضحك أو الانفعال أو الخجل القرمزي، مفعمة بأحاديثه العذبة المجنونة، عن كلمات الإطراء المباغتة الباعثة على الخجل: من الصعب أن أرفع بصري عنك، تبدين فاتنة جدا، لن أقولها مرة أخرى، مرة فقط، أشعر كما لو أنني سألتهمك دفعة واحدة. عن مواساته لآلامها التي لم يستسلم مطلقا في التنقيب عن موطنها، لقد نجح جزئيا في دحر الحزن المتأصل في أعماقها، العالق في مقلتيها.و إن لم ينجح بالإجمال؛ فذلك ليس ناجما عن عدم إلحاحه، أو لضعف في مهارته، إن ذلك ناجم عن وخز ضميرها بفعل كذبها الوقح عليه، واستمرارها في الكذب بعد الكذبة الأولى كنتيجة حتمية لاتّباع الأثر الأول، و ليس في نيتها أن تكذب إلى الأبد، فقط أوان الحقيقة لم يحن بعد.

ولأن حزم خالته المغرمة بالنظام كان يتنافى و الفوضى التي يصنعها، كان اقصاؤها من أحاديثه شبه مستحيل، أما الموظفون الذين تُوّج لزعامتهم؛ فإنه يقهقه و هو يشك أنهم سيتغيرون رغم مجهوداته: أي فائدة ترجى من رئاسة حمقى بطيئي الاستجابة،خاصة الفتيات الثلاث، وجوه جميلة تصلح للزينة، أما العمل؛ فأفضّل فتاة مثلك يا عزيزتي،جميلة نعم و لكنها نشيطة وتلفّ نفسها بخيوط الالتزام المهني. إنها تفتقده، أكثر مما كانت تتوقع أن يحصل لها إذا ما افترقت عنه،حيث يسهل عليها الآن القول باعتراف واثق أنها لن تستطيع العيش من دونه.

للمرة الأولى في حياتها قابلت رجلا يضمر لها نوايا حسنة،يفكر في مصلحتها، يخاف عليها، يهز مضجعه عدم راحتها، يسأل عن أمها و شقيقتها و عن الأحوال داخل المنزل المتهالك الفقير،ثم يتردّد في عرض المساعدة عندما يدرك أن ذلك سيحرجها، و يكسر كبرياءها ، كان يراعي مشاعرها كمراعاة طفل صغير و يبذل ما بوسعه لاستعادتها من عالم الأهوال الذي يجهل عنه أكثر مما يعرف، وكان يؤلمه أن يراها متألمة حزينة، أليس هذا حظا عظيما!.

و بينما كان يظن أن بعض أساليبه في الاعتناء بها و تدليلها، بسيطة و هينة مثل إحضار السكاكر لها و بعض الهدايا التي رفضت معظمها و وضع يديه فوق رأسها لكي لا تتبلل إذا ما فاجأتهما أمطار غير متوقعة ،و مراقبتها من بعيد حتى تغيب ،و أساليب أخرى معبرة عن مدى اهتمامه بها ،كانت هي تكاد تموت من السعادة ،و تتمنى لو تستمر تلك اللحظة إلى الأبد و تصبح كل الأيام يوم سبت ،و فرحها بتلك الحركات الرجولية هو السبب الوحيد الذي كان يستحق أن تسهر من أجله إلى ساعة متأخرة مفكرة فيها الواحدة تلو الأخرى مبتسمة ،و لا يوقفها عن التبسم إلا عجز شفافها السعيدة عن إنتاج المزيد من الابتسامات الربيعية .

وحتى إن فشلت بعض تلك الوسائل في خفض درجة البرودة في القلب الحزين، كان يتمسّك بالتصميم على كتم الأصوات الهدّامة، أصوات الصور الحية في عقلها، صور رجال لم يعمدوا إلى هتك جسدها فقط بل وإلى تدمير روحها بإهاناتهم اللاذعة، وحتى إن تظاهرت نسيانهم ولكن أطيافهم في الحقيقة بارعة في البقاء بحيث فشلت في طردها، كصفحات كتاب تحفظها عن ظهر قلب، لا ينفع تمزيقها قطعا صغيرة أكثر مما يضر، لكون ذاكرتك الخائنة تمردت عليك وأصبحت عدوا لدودا، وفية لذكريات تزيد في عمرها و تحافظ على فتوّتها.

باستيعابها أن الثورة و هزّ الأعصاب والانفعال لن يفيدوا إلا في استفزاز القلق الخامد لأمها، واستنفار الطبيعة الإنسانية المتطفّلة، و تجمهر الأسئلة أمام أبواب أذنيها: ما بك يا حبيبتي هل بدر أي تصرّف أخرق من أحد، هل تعانين من مشكلة؟،هل أنت مريضة؟،أتحتاجين إلى مساعدة؟، استعانت ببرود غريب، كأن لا شيء كان يهمها، نزل عدم الاكتراث ضيفا غير متوقّع، و في الواقع لم تكن تحرّض نفسها أو تجبرها على استقطاب هذا الإحساس الغريب، كانت تقدّر أن الذعر والهلع والخوف العلني لن يفرزوا لها إلا إثارة الانتباه و تشتتا في التركيز و إزعاجا غير مبرّر لابنة عمته التي من المرجح أن تكون هي و أمها أكثر ذعرا، ليس لها إلا التصرّف بعقلانية وهدوء الأعصاب إلى حين مرور العاصفة و الكابوس الأسود، و تقريبا لم تكن تبتسم مطلقا إلا ابتسامات متكلفة مزيفة تراوغ بها حظوظ الشكّ بالرقي في رؤوس المحيطين بها.

ولكن مهما جرّدت نفسها من مظاهر توتر الأعصاب أو فقدان عنصر الاكتراث ولسبب ما تنقضّ عليها صورته في زنزانة قذرة و ضيّقة لا تنسل إليها رماح الشمس الذهبية، حيث لن يسعه تمييز الليل عن النهار، حجرة لا يتغير هواؤها والجرذان تتجوّل حوله حيث أن تلك الأماكن مواطنها الطبيعية، وما لم يخلصها النوم من شناعة الصور فلم يكن إلا الأنين والتمزّق يغرزان في قلبها كرماح حادة.

إن الدنيا قد تبدّلت أحوالها، لقد استولى عليها ضباب رمادي كثيف وغلفت سماءها سحابةٌ قاتمة و استباحتها كوابيس ليلية مفجعة، وانتقلت الحياة من الهناء إلى الضياع الذي لا ينجم عنه أي تفكير بالمستقبل، ولولا أن طيفه المتفائل يدفعها للمقاومة لخارت قواها واستسلمت للطابع الجديد المنكر لنعيم الأيام الماضية.

وأي حضن تأوي إليه عندما تمدّ المخاوف رجليها، و تجدف الأحزان على شواطئ قلبها، أي حضن أفضل من سميحة، كانت تأوي إليها كلما تعرّضت لغارات شرسة، كلما تأخّرت وسائل الدفاع عن إقناعها، تستمد منها رباطة الجأش و تستخلص مواساة عبقة برائحة السكينة، وإن ما كرّرت سميحة العبارة ذاتها لأكثر من مرة فليس لأن أثيل لا تصدقها، بل تفاديا لإفساح المجال لأي خاطرة عابثة أخرى

"سترين، أن ما يدور في رأسك مجرد نتائج مسبقة لا تمت للواقع بصلة، ستة أشهر أو البراءة التامة، و عندما يتزوجك، سأشتري ذاك الثوب الأخضر الضيق عند الخصر، أليس بديعا؟و لن أقبل إلا بتنسيق قائمة المدعوين، سأستثني تلك الحقيرة جميلة كما استثنتني من حفل زفاف ابنتها، أتتذكرين يا أثيل كيف كانت وقحة؟"

"هل ينطق حدسي كذبا، هل فشل يوما في التنبؤ "في الواقع لم ينطق يوما بغير الهذيان والبدع، ولم يفشل يوما في إضافة خيبة جديدة إلى سجلها الحافل، على أنها سريعة النسيان تماما كسرعتها في اتّخاذ القرارات.

وكان يمكن لأي عجوز من العجائز الهرمات التي أكرمتهن بعنايتها على مدى سنوات وفسحت لهن مجال الحوار مع إنسان آخر غير أنفسهن أن يخبرنها أنها لا تبدو بخير لولا أنها أخفت آثار الأوجاع بما يناسبها من مراهم، أخفتها بإتقان و دهاء، فأثناء زيارتها المعتادة لهن كانت تجاريهن في أحاديثهن الهرمة التقليدية التي أكل عليها الدهر و شرب و تفتح فمها مبتسمة و تضحك بغير شغف و طيبة نفس لدعاباتهن الظريفة، كلامهن عن أيام ذهبت و لن تعود،و للأسف أن ليس في وسعهن استنساخ تلك الأيام الجميلة المسقّفة بالعطاء والمحبة، الخالدة بالتواصل والمؤازرة، وكانت تبدي دهشتها و انبهارها عندما تقتضي ضرورتها، و تختم جلستها التي يتضايقن متأسفات لانقضائها بسرعة بالتماسها المتأثّر منهن الدعاء لرجل مسكين، لو كان يعرفهن معرفة جيدة لاعتبرهن بمقام الأم التي فقدها "من هو يا أثيل،أ نفسه الرجل الذي طلبت إلي الدعاء لأجله السنة الفائتة؟ "

_"أجل إنه هو "كانت تردّ على كل واحدة منهن، كون السؤال كان يطرح على وتيرة ثابتة متكررة

_"ما به هذه المرة،أهو حادث آخر؟ "

_"لا ليس حادثا،و لكنه في السجن "

_"السجن "كنّ يندهشن و يضطربن من الكلمة،ما أجبن العجائز "ماذا فعل؟ "

_"لم يفعل شيء،إنه سوء فهم، لُفقت له تهم باطلة "

_"ما أكثر المظلومين في السجون "كانت جميعهن متفقات على هذا الجواب والأسف والشفقة يظلّلان وجوههن المنكمشة "مسكين، سأدعو له بكل سرور"

وسرعان ما تضمّ الأيادي الواهنة المعروقة وترفع عاليا إلى مستوى الوجه، و تغمض الأعين لاستجلاب جو ملائم من الخشوع ثم تتحرّك الشفاه المكومة في دعاء صادق، لأجل رجل يرينه مظلوما من نافذة الفتاة الصالحة الرزينة، الظافرة بمحبتهن من أعماق قلوبهن، و يجزعن من رؤيتها مجفلة حزينة، وكانت أثيل واثقة أن الله سيستجيب لهن و تعليل هذه الثقة المبسوطة اطّلاعها على أفعالهن الحميدة في الماضي، نساء صالحات طاهرات، قابلن أزواجهن في لقاء حيي لأول مرة في ليلة الزفاف، على الأقل إنهن لم يختلقن الروايات، و ليس لها أن تثق أن الله يخصها بالحظوة ذاتها بعد ما ارتكبته من آثام.

اليوم عند الساعة الرابعة بعد شهرين من مكوثه في السجن تقرّرت محاكمته. إنّ نار الوزير مرزوق الناقم تطالب بحطب تشديد العقوبات، ونفوذه يتلذّذ بمأساة الشاب المسكين، فالعالم الخارجي لا يتّسع لطاغية و مناضل، على قضبان السجن أن تحتضن جسد أحدهما، وهكذا رُشّح الوزير الفاسد ليبقى حرا طليقا يضيف إلى سجله الحافل بالفضائح مهازل واختلاسات أخرى، بينما يلقى بخليلها النزيه صاحب الضمير الحي بين مخالب السجن، ليتعلم لغة جديدة بحروف غير تلك التي كان يستعملها، لغة السكوت، الخنوع والطاعة العمياء وربما التملّق مستقبلا.

"أين هي "سألت مجدّدا بنفاذ صبر عندما خانها التماسك الطويل وهدّتها الحيرة المحمومة وتساقطت آخر أوراق الصبر " لماذا لم تظهر بعد، متى سترسل الرسالة، أكاد أصرخ"، إن الترقّب المهشّم لم يسفر عن جديد، إلا إذا اعتبر تفاقم القلق وارتفاع لهيب الحيرة جديدا ذا قيمة، وظلّت عيناها يقظتين جامدتين حائرتين وأذناها مرهفتين، وقلبها ينشج و هي تضمّ ركبتيها إلى صدرها وتلفّ ذراعيها حولهما و تلاصقهما بوجهها، و عندما نفذ صبرها كليا طفقت تبكي.

ومرّت نصف ساعة أخرى و تقدمت عقارب الساعة، ويبدو أن عقارب القريبة العزيزة قد تعطّلت، وسرعان ما نهضت لتتفقد الحاسوب فوجدت الرسالة الموعودة قد وصلت

_"عزيزتي أثيل

بودي بادئ الأمر أن أعتذر لك، فلقد تأخّرت في إبلاغك، مع أنني قطعت لك وعدا بعدم التأخّر، لقد مررت بسلسلة متكاملة من العقد والحوادث التي لا أستحسن إشغالك بها، لقد أطلق القاضي حكمه أخيرا، وحكم على خليل بسنة كاملة بتهمة التشهير و تلفيق الأكاذيب، سيطلق سراحه في العاشر من آذار من السنة القادمة، نشكر الله أن التهمة لم تكن خيانة الوطن أو التخابر و أن الحكم لم يكن أقسى و أشد ظلما، كما أن السجن لا يبعد عنا إلا أميالا قليلة،

وهكذا بوسعنا زيارته في فترات متقاربة، إنه يبلغك سلامه الحار، و يخبرك أن لا تقلقي بشأنه لأنه سيكون بخير، وأوصاني أيضا إبلاغك الاعتناء بنفسك. أتصوّر أن علاقتكما تفوق بعمقها مجرد الصداقة، حيث أنه يتحدث عنك بحماس مفرط غافلا عن ورطته، وصرح أنه ليس حزينا بسبب سجنه إلا لصيرورتك وحيدة خارجه، و مرة أخرى أنا في خدمتك إذا ما كنت بحاجة إلى أي شيء فقط دعيني أعرف، سأقطع رسالتي؛ لأن لدي بعض الأمور التي تقتضي إشرافي الشخصي عليها،ف.........."

لم تتمّ أثيل قراءة الرسالة لأن شعورا هائلا بالغبطة و السرور قد تولّاها و تصبّب الى عقلها المائج بعض السكينة واستطاع قلبها أن يزهر وتهدأ ثوره رعبه و انكسرت شوكة الخوف، الخوف من حكم جائر بشع بربري، الخوف من جنون العظمة،و موائد الغطرسة و بواعث النفس الطاغية. وما لم تكن يد الله الرحيمة قد تدخلت فلطّفت العقوبة لربما كانت الرسالة الآن تحمل أرقاما مهولة. إنها سعيدة بالحكم المخفف بالسنة الواحدة، بالفصول الأربع المتتابعة والشهور الاثني عشر والأيام الثلاث مئة وخمس و ستون، سعيدة بكونها ليست عشرا أو عشرين، ولأن المؤبد لم يراود عقل الوزير الناقم في لحظة جنون عمياء .

إنّها سعيدة؛ لأن الأيام ستمرّ سريعا والسنة ستنقضي أسرع، كوميض البرق بين فتحة عين وغمضتها، وعندها ستتمكن من رؤيته كالمعتاد،طبعا ما لم يتهور و يشتم وزيرا آخر، لن تسمح له بإهانة مسؤول آخر وليذهب الحق والضمير والنزاهة وحقوق الشعب إلى جهنمّ،ليستولي الوزير على كل قطعة أرض ،ليأتِ الغزاة ،ليحرقوا و يجوعوا و ينهبوا و يغتصبوا ،ليباع الوطن ،ليحكم الأوغاد و ليعثوا في الأرض فسادا ، و لتذهب قضايا الوطن إلى السجن بدلا عنه، فلماذا ينبغي عليه أن يدفع ثمن الدفاع عن حقوق أناس جبناء خامدين لا يستحقون، أناس يعيشون حياتهم التعسة بكل رضا وقناعة، أناس لا يضيرهم أن يهانوا أو يحفلوا بأي شيء سوى البقاء آمنين. وفجأة انذهل عقلها؛ فهي لم تفكر يوما على هذا النحو المخزي، ولو قُدر له أن يقرأ أفكارها في هذه اللحظة السعيدة ،لن يوفّر لها إلا الخطاب المؤنب، وربما لن يحترمها أو يقدّرها أو يحبها، لكن من أين سيعلم؟، ستحرص على كبح لسانها وتخزين أفكارها الأنانية في مكان حيث لا يسعه مطالعتها فيه .ليست غبية جدا لتدعه يكشف أغوارها و ينسحق من خسّتها حديثة الولادة المستشرية في كل خلية من خلايا جسدها، المستمدة من خوفها البهيمي من فقدانه و عذاب الأيام الفارطة الذي لا تصفه مجرد كلمات. نعم فلتكن قضية الجميع أو لا تكن أبدا؛ لأن قضية الواحد تقوده وحيدا متروكا عاجزا إلى قضبان السجن، ليس عليه أن يقاتل من أجل شخص تخلّى عن القتال لأجل

نفسه وينتظر من الوزير أن يتحرك ضميره ويحسّن سلوكه، مع أنه يعلم أن ضمير الوزير قد مات، وهل يستيقظ الموتى؟.

ما يهمها الآن أن تجده أمامها أيام السبت واقفا بهيئته البهية شامخا بكبريائه الوقورة،ضاحكا على حكايات جارتها الجريئة الطائشة، مناورا في سبيل إبهاجها، مطريا بشيء من التحفّظ جمالها ولون عينيها، مشدّدا عليها كما يشدد على الأطفال الصغار بعدم الركض والقفز على السلم، يشدّد عليها بمعالجة الموطئ قبل وضع القدم عليه،بعدم الانضمام إلى الأماكن الخطرة، ليست تهتم سوى برسائله التي تفد إليها أربع مرات وخمس في اليوم الواحد، تحمل في أسطرها أخباره و مغامراته ورواياته عن العمل والعائلة و الإيعاز بمشاعر الحب و العاطفة الصادقة.

عندما يخرج من ذاك المكان القذر الموحش ستنقل إليه بالتفصيل الممل كيف عاشت هذه الأيام البالية، المثقلة بشعور الخوف و كيف ارتاعت هلعا عليه، و كيف أن تجربة أخرى كتلك قد تقتلها، ونبأ كذاك قد يسوقها إلى الجنون، و بفعل حرصه على مشاعرها و لأنه يحبها ويعطف عليها سوف تفشل جرأته في إيلامها و سيؤول خوضه في تلك الأمور الخطيرة إلى مجرّد أحاديث عابرة حبيسة الجدران مع جمع من الأصدقاء الحقيقيين، بينما يحتسون فناجين قهوة.

إنها سعيدة حقا، لقد انخفض الرقم المهول من الكارثة إلى المعقول، وزال الصفر من خلف الواحد، وأصبح الواحد هذا وحيدا في الساحة و مع أنه ليس هينا يسيرا، فكذلك ليس عسيرا فتّاكا. وربما سيكون محظوظا ويطاله العفو في الشهور القادمة، وارتفعت السعادة إلى أعلى مستوياتها، بينما نزلت درجة الخوف و الهلع و القلق النهّاش إلى أدناها، سنه واحدة، وتهادت الكلمة إلى عقلها رنّانة وئيدة خفيفة مرنة، و وقفت على قدميها المزهوتين و راحت تدور و تدور في أرجاء الغرفة، كأنها تؤدي رقصة صوفية، وبينما هي تدور اصطدمت بحافة السرير فأوجعتها الضربة و تأوّهت وكادت أن تفقد توازنها و تسقط قبل إتمام الدورة الأخيرة،عندئذ استيقظت من نشوة الظفر الزائفة، لأي شيء هي سعيدة هذه السعادة الساذجة الحمقاء؟ وبينما هي تسأل نفسها هذا السؤال الجديّ عوى صوت الحقيقة في ذهنها، عوى عواءً ممزوجا بمرارة الجراح المجنّحة. الحقيقة التي تجاهلتها في دوار الوهم الغابر.

أتفرح لأن إنسانا بريئا حكم عليه بسنة؟، إنسانا لم يأت جريمة ولم يسرق أو يكذب أو يأتي ما يستحق عليه العقاب.

أتفرح بتخفيف وطأة الظلم؟ أتفرح بحكم الجلّاد العادل الرحيم، بسنة بدل عشر وعشرين، وكانت لثانية حماسية قد شكرت الوزير أيضا على لطفه و كريم أخلاقه، لأي شيء كانت تشكره؟ ألأنه كان منصفا رؤوفا بظلمه، وأن عصاه ضربت خفيفا بدل ضرب مكسر،بينما هو من كان يجب

أن تكسر على ظهره العصا، بينما هو من ينبغي أن يرسل إلى السجن. أجل لقد ظلمه بإنصاف مغشوش وقهره برأفة خادعة وأعاق مستقبله بكرم كاذب، شكرا لأن المصير لم يكن أحلك من هذا، شكرا لأنك ظلمته بضمير عابث و عجرفة سامدة .

كان مفعول النشوة الهائئة و الفرج الدائخ قد زالا الآن، زالا كما يزول الضباب تاركا محله نوعا من السخرية و الجلد الذاتيين،و شيء آخر، لقد توغّل الجليد بأرجل نشيطة ثانية إلى قلبها، عندما تتوقّع الأسوأ و يأتي السيء فقط يصبح مدعاة للسعادة والشكر وحتى وإن كان المنطق ينتقد وجودك في ذاك المكان من أصله، ومن تراه يعترف بالمنطق!.

كيف نسيت أن السنة تمرّ كعشر بالنسبة إلى من هم محتجزون ظلما داخل قبر، وليست كرمشة عين بالنسبة إلى من هم خارجه، تمر بطيئة قاهرة برعاية صحية معدمة و طعام رديء، أو ربما التضوّر جوعا هو الاحتمال المرتقب، واستحمام نادر، وشجارات عنيفة بين المساجين تنتهي بعقوبات انفرادية لأيام، ولما لا، لأسابيع أيضا وحرمان من الطعام، أو ممارسة أي نشاط، وألبسة مهترئة،خفيفة لا تتلاءم و برد الشتاء القارس والأوامر الفظّة و الإهانات بدون سبب وإذلال حاقد.

كيف نسيت نحول الأجساد وانتشار الأمراض والقمل والحشرات والمعاملة التي تليق بالحيوانات والأغطية البالية و النفسية المحطمة والأسرّة القذرة، إنه ليس فندق خمس نجوم لتغتبط بالسنة الواحدة، و رغم كونه لا يمنع من الحياة على أنها تجد صعوبة في وصفها حياة طبيعية، هل هناك أسوأ من سلب حرية الإنسان مع عدم إتيانه جرما يستحق ذلك؟،إنه مكان موحش قبيح يسرق من الإنسان لمعته و من قلبه عنفوانه و من عقله حماسه ونشاطه ويلفظه إلى خارج جوفه شاردا بليدا ميتا بروح حية، مجوّفا كالقصب، أو يحوّله إلى كائن قاس صلب كالصخور عنيفا كالمجانين، تحرمه كل الذكريات من العيش بسلام، تنقضّ عليه عندما يجتمع بالآخرين. وعاودها الشعور بالمرارة و استحال وجهها شاحبا كلون الشمع الأصفر وشرع الحزن يعتصر قلبها و يضغط عليه بشعور جنائزي نائح،لأي شيء هي سعيدة؟

ونقلت بصرها بعصبية بين أثاث الغرفة المتآكل المخلّع هنا و هناك بينما يداها تقبضان بتشنّج على شراشف السرير الزرقاء الفاتحة، وتاقت برغبة مجنونة إلى رؤيته و العطف عليه ومواساته بدفء كلماتها، وأن تخبره كم هي موحشة الدنيا بدونه ، وأنها مستعدة لانتظاره عشرا وعشرين وخمسين، وأن طول السنوات لن يخطف من خيالها صورته الرقيقة وابتسامته العذبة. أجل ينبغي أن تقابله في أسرع وقت وإن كانت ابنة عمته تودّ خدمتها والاعتناء بها، فهاهي تفتح لها المجال لتفي بوعدها الذي قطعته، وتحرّكت مبتعدة عن السرير و هاهي تشد جسدها و تهيء يديها استعدادا منها لكتابة أول التماس منها، وتولّد فيها إصرار عنيد، ومن مواطن سحيقة استخرجت

تفاصيل رحلتها إلى المشفى كي تطمئن عليه: إن ما رفضت سمراء مساعدتي، سأعتمد على جهود السيّدة سميحة، إن حلولها دوما ناجعة، و حيلها لا تخيب، كما أنها من تلك المدينة و لا شك أن لها معارف يكافئون الحاجة، سأقابله،مهما كلفني الأمر "

الفصل الثامن

لم تتوقّع أثيل أنها ستشعر بهذا الشعور العاق الكافر، بينما هي جالسة بانتظار إحضار خليل من الزنزانة رقم 131 لمقابلتها، و يعزى هذا الإحساس إلى أنها لم تزر سجينا طيلة حياتها و لم تطأ قدماها مكانا مماثلا، و لم يدر بخلدها من قبل أن حدوث هذا الأمر ممكن لأن أفراد العائلة المكونة من أربع نساء متجنّبات للمشاكل لم يرتكبن أي إثم أو أي جرم يستحققن عليه عقابا مشابها و شملتها رحمة الله عندما لم يقبض عليها في إحدى المناسبات البائسة تمارس جنحة الزنى تحت الأسقف الصماء والشقق المغلقة، تضطجع بجانب رجال لا تنسَ نتفة من ملامح وجوههم القاسية الزاخرة بالاستهتار و الجبروت والاشمئزاز الذكوريّ من أي أنثى تعرض جسدها كسلعة رخيصة للبيع.

و لو أن أمها العظيمة يخطر على بالها أن ابنتها الرزينة المطيعة ،تركّز عينيها بلهفة في هذه الدقيقة على باب يدلف منه المساجين لرؤية أهاليهم و أقربائهم والتنهّد ينبعث من باطن رئتيها وتلتهب في عروقها نار الانفعال، وقلبها يخفق فتضع يدها من حين لآخر عليه لتكبح توترها الظاهر، ضمن زمرة من السيّدات والسادة الذين اكتسبوا عادة جديدة وغدت عادة طبيعية في نظام الحياة الرتيب (عادة زيارة أقربائهم السجناء)، لو عرفت لذهلت و أغمي عليها من هول الصدمة، معتبرة المسألة شائنة عظمى وفضيحة مجلجلة و عارا مبتذلا ثم لراحت تلطم وتنوح في أرجاء البيت الطاهر: تزورين سجينا !!رجلا غريبا !!!لا تربطنا به أي صلة قرابة، تحبينه!!.

إنّ الحب من الممكن أن يُهمل وزنه ويغدو طبقا جانبيا يُلتهم في حال لم يحقّق الطبق الرئيسي فعاليته في إقناع تعاليم أمها أو بعد ساعة أو ساعتين عندما تزقزق عصافيرها الثائرة. و بعد أن تفرغ من جعبتها كل التأنيب و العتاب و تَنتهك نظرات الخذلان و الخيبة الوجه الخجول ، ومن المحتمل أن لا تُصنّف قضية الحب في مستوى واحد مع الزنى، أما زيارة رجل سجين غريب، فإن احتمال أن تتلقّى الأمر ببعض الحكمة والتفهّم والاستغناء عن النحيب النابع من هول الصدمة أشبه بتفهّم الغزلان لنوايا الأسود.

ولم تكن سميحة تجاريها و ترافقها و تساعدها، لكونها تؤيد قصص الحب التافهة أو تميل إليها أو تشجّع عليها، ليس ذلك ما كان يحدوها إلى السماح بجرّ رجليها إلى أي مكان ترغبه الفتاة العاقلة الرشيدة، بل لأنها قطعة ثمينة من روحها، غالية عليها كإحدى ابنتيها، كان مما يحزّ الألم في نفسها أن ينفطر القلب الطيب، و تُخذل أمنيات لزجة طرية لفتاة أفنت سنوات صباها المشرقة لخدمة عائلتها و سلخت نفسها في سبيله، وحيث أن إدخال السرور على قلبها من خلال تنفيذ هذه النزوات العاطفية الصغيرة _حسنا إنها ليست صغيرة جدا _لن يضرّها بقدر ما يمكن أن ينفعها،و

أصرت على أنه إذا كان هناك علاقة واحدة بين رجل و امرأة في العالم كله تتسم بالبراءة و الطهارة ، و لا تتعدى تبادل الأحاديث فقط ، فهي علاقة أثيل بهذا الرجل ،ليس لأنها غيرت رأيها بخصوص طباع الرجال ،بل لأنها تؤمن أن أثيل بتربيتها الملكية ما كانت لتبيح لأي رجل كان بلمس حتى يدها ،و المغازلة العفيفة هي التنازل الوحيد الذي تبيحه لرجل تحبه ،و قد مضى وقت طويل منذ توقفت عن وعظ الفتاة و بدأت في التفكير بامتعاض مضاعف أن قوانين الأم فيها من التسلط غير العقلاني أكثر ما فيها من الحكمة .

و مع هذا ،لم تكن سميحة تبتعد عنها أكثر مما يمنع عنها مراقبتها بعد إيداعها الحديقة بمسافة خطوات،بحيث تتيقّن أنها ستكون آمنة سالمة بعد أن تكرّر على مسامعها أن تتوخّى الحذر ، وكان عليها أن تفكر بأمور تقوم بها ، لكن الوقوف كحارسة إلى حين فراغ الحبيبين من الحديث لم يكن ضمن تلك الرزمة من الأفكار ، وهكذا اكتشفت أن عادة القلق المتأصّلة في مليكة لم تعد منحصرة فيها، بل إنها كانت تتفوّق عليها إذا ما تعلّقت القضية بحبيبة قلبها أثيل، تلك الفتاة التي كان عهدها القديم طفلة حيية ساذجة، والتي قابلتها لأول مرة في الشارع الضيّق أمام بيتها ترتدي ثوبا أخضر بلون التفاح يصل إلى ركبتيها و خفين فضيين يلائمان قدميها الصغيرتين، تتوسّط حلقة من العرائس المصنوعة من القماش، فتاة حلوة جميلة، وجهها أبيض بلون الزنبق الأبيض وعيناها واسعتان ساحرتان تخطفان قلب الإنسان

_"ما اسمك يا حلوة "سألتها سميحة في ذاك اليوم، بينما رفعت الفتاة الجميلة بصرها ونظرت إليها نظرة ساذجة بريئة .

_"أثيل "

"إن اسمك جميل،هل تقيمين في هذا البيت؟ "

_"أجل،هل تلعبين معي؟ إن بناتي نائمات الآن، عندما يستيقظن سأعرفك بهن"

إن تلك العبارة الطفولية أجمل عبارة صافحت سمعها، و منذ ذلك الوقت وحب الفتاة ينمو في قلبها، وكانت تطرق على باب العائلة تستأذن ربّ الأسرة مرافقة الطفلة في إحدى نزهها إلى الحديقة أو لاقتناء أغراض البيت، كونها غريبة عن المكان و بسبب طباعها الغريبة التي لا تبيح لها كسب أصدقاء جدد بينما توفّر لها كسب ناقمين كثر، و بفعل عدم إجبار نفسها يوما على اعتناق سلوك اجتماعي لائق يرفعها في أعين من حولها، علاوة على هذا كان زوجها دائم الانشغال، منهمكا طول النهار في عمله اليومي، وهكذا ملأت الطفلة غربتها، ورافقتها إلى جلساتها المسالمة قبل أن يغريها عالم الشجارات و النزاعات إلى الانخراط فيه.

وكان مما ساعد على توطيد الرابط بينهما صداقة متينة بين والدها وزوج سميحة، ثم أتى انشغال الأبوين بمرض طفلتهما الثانية، فعُهد بأثيل إلى الأيادي المتحرّقة للاعتناء بها، وتدليلها، وإطعامها و الغناء لها قبل النوم، و عندما أُخبرت سميحة أنها حامل بعد أن فقد الأمل في ذلك ،لم ينعشها الخبر إلا لحلمها أن ترزق طفلة مثل أثيل ، أما زوجها فكاد يحلّق من السعادة، و لم تستطع إلا أن تبسم ابتسامة حالمة في وجه زوجها المسرور جدا، وحيث أن أثيل الصغيرة كانت تُشاهد رفقة سميحة أكثر من أي إنسان آخر، كان الغرباء عن الشارع والعائلتين يعتقدون أن الطفلة طفلتها بينما لم تكن كذلك، ولأن اعتقادهم كان يبهجها، كانت تبتسم قائلة إنهما صديقتان. وستظلّان صديقتين إلى الأبد.

لم تستطع أثيل أن تشعر بالارتياح لقاعة الزيارات هذه، ولم تستطع تحاشي تشبيهها بإسطبل الحيوانات، كان قلبها ينقبض بينما عيناها تتنّقلان من نقطة إلى أخرى: الأسقف المرتفعة،الأضواء الباهتة،الطاولات القديمة المقشرة ، والغبار المتراكم، رائحة الرطوبة الكريهة، الوجوه الفظّة القاسية والنظرات الباردة، البدلة بلونها المدهام الضارب إلى السواد، لطالما كرهت أثيل هذه البدلة و العصا الغليظة .

هذا المكان موحش للغاية، وتساءلت: إن كانت لا تستطيع أن تتحمّل وجودها هنا لفترة وجيزة، فكيف سيتحمّل خليل سنة كاملة !؟و إن كانت قاعة الزيارة بهذه الحالة الرديئة، فكيف حال الزنزانة إذا؟ كانت حزينة وسعيدة في وقت واحد،حزينة من الأحوال، سعيدة لأنها ستراه بعد قليل. واختلطت الأصوات بالضحكات والهمهمات الخفيضة وبكاء الأطفال، غريب كيف يستطيع هؤلاء الناس أن يضحكوا، ربما تضحك هي أيضا بعد قليل مع أن الله وحده يعلم أن عينيها تتحفّزان للبكاء عند أول فرصة سانحة.

فهمت أثيل من قسمات الوجه المتعب النحيل أنه تفاجأ بزيارتها غير المتوقّعة، وفهمت كذلك أن رؤيتها لم تثلج صدره كثيرا، وبينما هو يتقدّم نحوها ركّز بصره عليها وابتسم لها ابتسامة ودودة باهتة ،فسرت رعدة في أوصالها و طفق قلبها يخفق كأنها تراه للمرة الأولى في حياتها، كان يشبه رجلا عاش في مكان ناءٍ زريّ لردح طويل، و عندما أصبح على مسافة يسيرة وقفت على قدميها تبادله التبسّم، و لم تبعد عينيها عنه رغم لغط الأصوات من حولها و ارتفاع بعضها مما يسترعي الانتباه إلى أن بلغها ووقف قبالتها فتلاشت ابتسامته و قال بلهجة فاترة لم تألفها:

_"ماذا تفعلين هنا يا أثيل؟،ظننت أنك عمتي أو سمراء" بقلب كليم نظرت إليه، وبينما هي تتفرّس في وجهه النحيل الشاحب الجاف غارت ابتسامتها و انقبض وجهها وتحرّك فيها شعور هائل من الألم، وعزّ عليها رؤيته على هذه الصورة الزرية، عينان مرهقتان تحتهما انتفاخ داكن ،و لحية

مهملة وشعر غير مرتّب و وجنتان خاسفتان و جسد نحيف للغاية نتيجة فقدانه الكثير من وزنه، و لم يفشل في ملاحظة ردة فعلها على هيئته

_"أأبدوا وسيما إلى هذه الدرجة؟"قال مازحا و استعاد مزاجه المعتاد بينما ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه "إنك تقودينني إلى الخجل يا آنستي الحلوة، اجلسي" وسحب كرسيه وجلس بسرعة ودون وعي منها جلست كأنّها منومة مغناطيسيا، كان يتصرّف مثل من ينعم بإقامة ممتازة، تماما كرجل متواجد في فندق خمس نجوم، كما لو أن جدران السجن لم تغيره أو تؤثّر فيه، ولكن لسان هيئته يقول خلاف هذا، و ودّت أن تبكي ولكنها كبحت جماح دموعها وحاولت أن تبتسم لهذه الفكاهة على أن عجزها حال دون ذلك

_"كيف حالك، وأمك كيف حالها و شقيقتاك؟ "سألها بينما كانت شاردة ووجهها جامد كقطعة شمع أبيض ، و لولا أن الحزن تغلّب عليها لأبدت استحسانا و امتنانا لسؤاله عن عائلتها في مثل هذه الظروف، وأخلدت إلى الصمت فأضاف مبتسما

_"أجئت هنا لتسكتي؟ ألست سعيدة برؤيتي؟ "

_"بلى "قالت دون تردّد، كانت تخشى أن يظنّ أنها تشمئز من حالته الكارثية، إنها تحبّه بجميع حالاته، وإن كان على هيئة أسوأ فالأمر عندها سيان، ولن تفلح أي حالة زرية في إخماد حبه الدامي في قلبها .

_"إذا ما الخطب يا عزيزتي؟، تتبلور فكرة جميلة الآن في رأسي، هل ستقبلينني؟ افترضت هذا من الطريقة التي تحدقين بها إلي،إلهي كم سيكون هذا رائعا"،وحيث أنها تعلم أنه يخفّف من هول الورطة التي أوقع نفسه فيها، لم تتورّد وجنتاها، بل أجشهت بالبكاء، ينبغي أن تتماسك و لا تسمح لنفسها بذلك .

_"إلهي ،كم تبدو وسيما! "قالت بلطف "و لهذا يصعب علي أن أبعد عيني عنك".

_"إنها جملتي أيتها اللصة "و أمال جسده إلى الأمام ثم خفض صوته مغضنا ما بين حاجبيه في تعبير هزلي " تبدين تحسّنا أنثويا ملحوظا، آمل أنك لا تغازلين كل رجل أثناء غيابي؟ ".

_"لا أستطيع أن أفعل "و أجبرت نفسها على التبسّم و اصطنعت مظهر السرور بالدعابات المراوغة لحقيقة الظروف.

_"طبعا لن تفعلي، إنني لا أسمح لك،و سأقتل أي رجل يحاول مغازلتك "كيف يمكن له أن يكون بهذا البرود و عدم الاكتراث: قالت أثيل في نفسها، وهو يقبع في هذا المكان المقيت،كيف يسعه أن يبتسم ويطلق الدعابات ويتظاهر بالشدة،كيف أنه يخفي تلك المرارة الموشومة في عينيه.

_"كنت أخطّط لسؤالك عن الذي رافقك إلى هنا، بيد أنني أعرف الجواب، هل السيّدة سميحة بالخارج؟"

_"أجل، إنها تنتظرني رفقة ابنة عمتك "

_"أنا شاكر لها لمرافقتها لك إلى أي مكان، من الجيد وجودها في حياتك، كيف وجدت ابنة عمتي، أ ليست بدينة؟ إنها تلتهم البيض المسلوق ثلاث مرات في اليوم "سأل و التفت إلى سيّدة غاضبة ثم عاد ببصره إليها .

_"إنها امرأة لطيفة،كيف لا!! و هي تطمئنني عليك و تنقل إلي أخبارك ".

_"أنا بخير كما ترين "و فتح كفيه إلى أعلى ليُظهر لها كم أنه بخير "ننعم بوقت فراغ أكبر مما نحظى به خارجا، وتغذية جيدة، و رعاية صحية من النوع الممتاز، أنا بخير تماما، و عندما أغادر هذا المكان سأتوجّه مباشرة إلى قصر الوزير لأسأله عن سبب كرمه الخاص معي، سنة واحدة!!؟ بينما كان يمكن أن يزرعني هنا إلى الأبد، إن عمتي مبدعة عندما تقرّر أن تشكر أحدا،يزرعني!! هكذا قالت،أليست كلمة مناسبة؟ "و صدرت عنه ضحكة مرتفعة لفتت بعض الأنظار من حوله وخاصة السيدة القصيرة المكتنزة التي تضع طبقة سميكة من المساحيق وتلفّ رأسها بغطاء بنفسجي معقود أسفل ذقنها، كم أنه مغتبط ومرح !! و عندئذ خرجت الأمور عن السيطرة و انهارت المقاومة الحجرية، ثم فاضت العينان الملتاعتان بالدموع فتخلّى خليل عن حالة الاستمتاع والمزاح الثقيل واعتدل في جلسته ثم تحسّس جيوب القميص والسروال، فلم يعثر على منديل و سرعان ما تلألأت عيناه ببريق المرارة .

_"لا تبكي،لا تبكي أرجوك"قال متوسّلا بلهجة تنمّ عن الحنو و العطف و طفت الهشاشة إلى السطح "أستطيع احتمال هذا السجن، و لكن ليس دموعك أنت بالذات، لا تبكي "و لكنها لم تستطع إلا أن تبكي، و كافحت كي تكفكف الدموع الرقراقة على أن العجز سدّ عليها الطريق

_" خذي "قالت السيّدة القصيرة محتدة و هي تمدّ لها منديلا بينما يتطاير من عينيها انزعاج كتطاير الحمم "ستتعودين، إنك جديدة في الميدان، ربما أنت عروس جديدة، تبدين كذلك" لم يبد أن زوجها قد رحّب بتصرفها المتطفّل المتمثل في حشر أنفها في أمور الآخرين، إذ راح يمسّد جبينه بيده و هو يزفر زفرات متلاحقة " اسكتي يا امرأة، اجلسي مكانك "و مدّت أثيل يدها شاكرة لتتناول المنديل .

_" ستتعودين لأنهم تعودوا قبلنا "أضافت غير عابئة بأوامر زوجها الناصّة على عودتها إلى مكانها فورا "لن يتوبوا أبدا،منذ أن تزوجت و زوجي يقضي معي أسبوعا في المنزل و باقي السنة في

السجن، وكما ترين أنا أبتسم رغم كل شيء، لاحظي" تقمصت ابتسامة مضحكة ،كاشفة عن فراغات بين أسنانها الكبيرة .

_"ستتعودين، إن من علامات عدم وجود نيّة في التوبة "و رمت خليل بنظرة نزقة تشي بالاتّهام "أنهم يضحكون و يطلقون الدعابات، لذلك انسي أن تبحثي معه مسألة الإقلاع، حظا موفقا " ورفعت ذقنها وحاجبها ملوية شفتيها ثم استدارت وخطت نحو كرسيها ،و سمعت أثيل زوجها يرغي و يزبد و سمعتها تحثّه على تغيير الموضوع.

_" لن أتوب "علّق خليل بمرح ، هازئا بالورطة التي وقع فيها، و كون منظر المرأة كان مغريا على الضحك لم يؤثّر في هيجان الدموع الجارية، فتنهّد خليل لأن كلماته المهدئة لم تجدِ نفعا

_"بمقدوري التحمّل،إن كان ذلك ما يبكيك،أتحمّل ما يتحمّله غيري من المساجين المذنبين وغير المذنبين، بل هناك من يتحمّل أكثر من هذا" وحمل صوته الثابت بعض الجدية، الأمر الذي جلب بعض السلام إليها،إنها تفضّل أن يكون جديا بخصوص المسألة التي أفزعتها و كادت توقف قلبها عن النبض.

_"و لكن لماذا أنت؟ لا ينبغي أن تكون هنا، إن وجودك في هذا المكان خطأ "قالت عندما انقطع سيل الدموع و المنديل مبلّل الأطراف في يديها .

_" لأنني أتيت عملا صالحا " قال ببساطة مهوّنا عليها "لأنني لا أباع و أشترى ،عندما لا يستطيعون شراءنا ،يزجون بنا في السجون ، هناك دائما نقطة بداية جديدة و يجب أن ينطلق منها رجل ما، لست الأول يا أثيل و لن أكون الأخير،الحياة أقصر من عيشها مجرد حيوان ناطق يأكل و يشرب وينام، لا ،لسنا كذلك، لست نادما على ما فعلت، و إن ما عاد بي الزمن إلى الوراء سأفعل الشيء ذاته بالطريقة ذاتها، الضمير أن يتاح لك الخطأ فتفعل الصواب، أن يتاح لك الكذب فتختار الصدق، أن تتاح لك السرقة بسهولة فتختار الرضا بما تملك، أن يتاح لك الصمت فتختار الاستنكار بأعلى صوت، ليس السجن بذي أهمية، لقد سجن ملايين الأبرياء قبلي وسيسجن الملايين بعدي، فهناك على الدوام أوغاد أعمتهم السلطة ،و على الدوام هناك شرفاء يقدمون حريتهم و أرواحهم في سبيل الحق، ذاك الوزير الجبان مرزوق ليس إلا واحدا من المرتزقة لا وطن لهم ولا شرف، ما يقلقني فقط أنني نكثت بوعد قطعته على نفسي، وعد بالاعتناء بك وتعويضك عن الأيام الصعبة التي عشتها، أنت فقط من يهمني خارج هذه الأسوار، لأن خالتي لديها من يعتني بها وعمتي كذلك، أما أنت؛ فليس لديك أحد، و أردت أن أسندك وأدعمك، وعوضا عن ذلك،ها أنا أجرّك خلفي، أشعر بالخزي لوجودك هنا، لو أن سمراء أطلعتني لما وافقت على وجودك هنا".

وثانية أجهشت بالبكاء و شقّت التعاسة طريقها إلى قلبها .

"أنت لا تعرف كيف كنت أشعر، ليس بمقدوري وصف العذاب الذي عشته، و كيف أحسست عندما عرفت بأنهم زجّوا بك في السجن، كدت أموت من الفزع والخوف ، خشيت أن يصيبك مكروه، سأموت إن حدث لك شيء "و قبل أن تتم عبارتها، تساتلت دموعها على وجنتيها.

_"لا تتفوّهي بهذه الأقوال" اجتاحه الضيق من صدى الكلمة "لا تتحدّثي عن الموت أمامي، كيف يسعني العيش من دونك، لا شيء في الدنيا بوسعه تحطيمي طالما أنت موجودة، أنت من تشفين جراحي، إنه أنت التي تقوّي من عزيمتي و تدفعني إلى عدم الاستسلام، و كل ثانية تقفز صورتك إلى خيالي بتفاصيلها وأرى العينين الجميلتين أمامي، ووجهك الجميل فتندحر كل متاعبي، كأن بهما سحرا ناجعا. لو أنك تتخلين عني، فتلك هي نهاية العالم".

وحمل صوته جزعا وإحباطا "لقد خسرت الأعزاء على قلبي ولن أتحمّل خسارة المزيد منهم، لذلك لا تخافي علي فأنا سأكون دائما بخير، و فضلا عن ذلك إنني أحبك، أحبك،لا أستطيع أن أحدّد منذ متى ولكنني أحبك، أعتقد أنني أحببتك منذ أن فزعت لاختفائك تلك المرة عندما دخلت المستشفى نتيجة إصابتك بالزكام، وعندما رأيتك أول مرة، خبلت عقلي وسلبت فؤادي".

ونظرت إليه نظرة هائمة وقلبها يخفق خفقانا مجنونا، كأن سماع الكلمة في الواقع ليس كتخيله يقولها، لقد عرفت منذ وقت أنه يحبها،ولم تكن بحاجة إلى سماعها، و لكن وقعها أصابها بالذهول و الغبطة في آن واحد، إنها للحظة سرمدية.

_"و أنا أيضا أحبك "اعترفت دون تردّد أو اكتراث بشيء و اعترت صوتها رعشة، كانت جزءا من رعشة سيطرت على كل جسدها بفعل صوته الذي تلفظ بتلك الكلمة" منذ سنوات، عندما رأيت صورتك لأول مرة ،و قرأت مقالتك، هناك خفق قلبي، قلبي الذي كان يعيش في عزلة مقفرة، ثم دأبت على شراء الجريدة لأجلك، و قراءة كل ما تكتبه، لقد غيرت حياتي يا خليل وأزلت منها كل التعب والشقاء، أحبك كثيرا ".

ورانت فترة من السكون تبادلا خلالها نظرات الهيام الخالص والابتسامات الودودة، كان من دواعي سروره أن يعلم، بكونه سببا في زوال شقائها و تعبها، يا له من اعتراف بديع.

_"إنني سعيد لسماعك تقولينها "قال باستحسان "وهكذا يسهل علي أن أسالك انتظاري، هل تنتظرينني يا حبيبتي؟ بقي ثمانية أشهر فقط "

_" أنتظرك إلى الأبد " أجابت دون تفكير"إلى الأبد "

_" إذا أنا أطلب يدك للزواج " .

أشرق وجهها و انبعث من قلبها موجات من السعادة الصاخبة، سعادة فائقة لم تذق مثلها، ولم تعرف لها مثيل، لم تعتقد بعد الذي حصل، أنها ستسعد لطلب رجل يدها للزواج، وأي رجل؟ إنه الرجل الذي تهيم في حبه"كنت سأعرض عليك يوم السبت الذي كنا سنلتقي فيه ، لكن تم اعتقالي، حالما أخرج من هنا، سآتي لطلب يدك من أمك، طبعا لن يكون لدي ما أقدّمه لك، فأنا سأكون خريج سجون، وعاطلا عن العمل، كما أنني مهدّد بالسجن مرة أخرى لأنهم لن يدعوني و شأني، و فكرة أن أتغيّر لا تروق لي، وربما سيؤول مصيرك _ما تفوهت به المرأة منذ قليل _تتعودي، كانت على حق، فهل آمل في موافقتك بعد قائمة المآزق التي ستنعمين بها ".

_"أعيش معك تحت أي ظرف " أجابت بثقة "لا أعبأ بأي شيء، أنت من يهمني و لا شيء سواك،أركب أي قطار لا أعرف وجهته طالما أنت على متنه ".

وفجأة داهمتها غصّة مريرة، لأنها لم تكاشفه بعد عن المسألة التي يفزعها الإفصاح عنها، وتساءلت إن ما كان يستطيع أن يتفهّم، و تساءلت إن كان بوسع الحب أن يرمّم تلك العاهة المشينة، وأن يحطّم الحواجز بينهما، وإن ما كان سيتصرّف مثل ابن شقيقة العجوز راضية، ليت القطار لا يتوقّف بأي محطة،ليته يتحرّك إلى الأبد.

_"هل أنت بخير"سأل قلقا، لأن ملامح وجهها سرحت على نحو ملحوظ، واكتست بانزعاج لم يدرك كنهه و الذي لم يسبق له أن فهمه ثم أردف مفسّرا كأنه قد استوعب سبب ضيقها

_"أعرف ما يقلقك،إنها أمك أليس كذلك؟،لن توافق على زواج ابنتها من رجل مثلي، عندما تعلم أنني قضيت سنة في السجن، لعلها ستستاء و تحتجّ على زواجنا. لا تقلقي، ستتولّى عمتي وخالتي أمر إقناعها، من المؤكد أنها ستلقي محاضرة عن وجوب توفّر بعض الشروط في الرجل المتقدم لطلب يدك خاصة أن لا يكون رجل مشاكل ومآزق دائمة، وذلك من حقها، فابنتها جميلة جدا وجميع الرجال يحلمون بالزواج منها . أنا أحسد نفسي لأنك تحبينني أنا واخترتني أنا من بين كل الرجال . هذا إن تجاهلت حقيقة أنك ركيزة البيت و المسؤولة عنه،سنبحث حلولا لهذه العقد فيما بعد، أما إن رفضتني أمك من المرة الأولى سأطرق الباب مرة ثانية و ثالثة وخامسة ومئة، ولن يصدّني عن الزواج بك إلا رفضك الشخصي، و إذا ما اعتمدنا على تأييد السيدة سميحة لي، و لجأنا إلى موهبتها الفذة في إقناع أمك كما تقنعها بإخراجك من البيت فالأمر محسوم النتيجة، وأنت من الآن ستصبحين زوجتي،و لهذا يا حبيبتي لا أريد لعقلك الجميل أن يتعب بالتفكير".

لماذا لا تكون الحواجز بهذا الانخفاض؟،أمها و مسؤولية شقيقتها، لماذا تكون الأمور معقّدة على تلك الشاكلة، إن القضية تتعلّق بالشرف، الأمر الذي يقتل لأجله الرجال، الشرف الذي يحمل لأجله السلاح، و تُقطع لأجله الأعناق، و تقضي الأرواح، الشرف الذي هو أهم من الحياة في

نظرهم، وحيث أنه لم يتّفق لها أن بحثت معه هذا الموضوع الرهيب من قبل، فلا تستطيع التنبؤ بردة فعله، على أنها واثقة أنه يحبها و حبه يعادل حبها أو يتفوّق عليه، و أنها تعني العالم له كما يعني العالم لها. إن الذي يكدّرها و يمضّها و يعكس الغصّة الدامية في قلبها على وجهها ،ليس خليل الحنون ذو العينين الدافئتين والقلب الرحيم، والوجه المسالم، رغم أن وداعته تتوارى إذا ما سيطر عليه الغضب والعصبية، ليس خليل الرجل الذي يحبها، الشاكر لجميلها، المقدّر لمعروفها، بل خليل الرجل العادي بغريزته التي فطر عليها، الرجل الذي ينتمي لمجتمع يستعظم فكرة الزواج من عاهرة، الرجل الذي تلازمه نزعة ضرورة طهارة المرأة للتزّوج منها من أيام الصغر،الرجل الذي يشمئز من امرأة باعت جسدها و إن كان هو مشتريه، ذلك ما يخنق رغبتها في الإفصاح و يدفعها إلى الذعر من تغلّب الغريزة على الحب.

"لست واثقة من ليونتها أليس كذلك؟"استأنف قائلا ،لأنها لم تحر جوابا "أعدك أننا سنتجاوز هذه النقطة، ستلين عندما أثبت لها أنني أحبك بصدق، و أنني سأحافظ عليك كما لو كنت بين يديها، ثم سأعدها أنني سأحقق أمنيتك بزيارة سنغافورة، طبعا عندما أصبح غنيا"و ابتسم وأشرقت عيناه بشعاع السرور .

_"ألازلت تتذكّر ؟ "أجابت بنغمة عاطفية؛ لأنه لا ينسَى أمنياتها .

_"من المؤكّد أنني لا أنسى حرفا مما كتبته، أو تحلمين به،سنعقد اتّفاقيّة إذا، تنتظرينني وبدوري، لا شيء سيثنيني عن نيلك " و فتح عينيه في تعبير حازم و كأنه يعلن نهاية النقاش

_"لا شيء؟"استوضحت محدّقة إليه ،موعزة أنه ربما توجد أشياء لتثنيه، شاعرة بالذنب.

_"لا شيء " أجاب واثقا و برزت من عينيه ومضة التحدّي والتصميم، عندئذ سرى في عروقها المستنفرة دافق من الارتياح .

_"خليل،أصدقني القول "حوّلت الحديث إلى نقطة كانت ستعود إليها فيما بعد"كيف تسير الأمور هنا؟ ".

_"سيئة" قال بصراحة ثم أضاف بسرعة عندما رأى الخوف في عينيها "لكن لا تبكي، ولا تجزعي، إنه سجن يا أثيل،و ليس فندقا،ثم إنني و أمثالي ممن حكم علينا بسبب قضايا معينة، يمارس معنا نوعا من الخصوصية في التعامل ،على أنني بخير الآن "

_"و فيما مضى؟ "سألت مشفقة .

_"لن نتحدث عن ذلك "أجاب حازما "ستنقضي الزيارة بعد قليل، ولا أخطّط لإهدار الوقت في الجدال حول ما مضى،ألا يسرك أنني أفضل الآن؟".

_"بلى "

_"و إذا؟"

_"حسنا لن أسأل ثانية "وأطرقت رأسها مستجيبة لأسلوبه الخشن الجديد في إلقاء الأوامر، وأحسّ أنه خاطبها بفظاظة وكان مقيتا معها، فحاول أن يصلح ما أفسده منذ قليل وحوّل نبرته إلى لطيفة لزجة

_" بوسعي أن أصمد، كما اتّفق و أخبرتك،الرجال دائما يصمدون، و بوسعهم إبداء روح مكافحة عندما تقتضي الضرورة ذلك، والآن هل أخبرتك أنك تبدين في غاية الجمال، ماذا فعلت بي؟ يشرفني أن تسكني قلبي، أعطيك إياه، افعلي به ما تشائين و لكن لا تكسريه،إنني سعيد جدا لوجودك بحياتي ".

_" لا أتمنى إلا أن تكون سعيدا، أن تكون آمنا "أجابت و عيناها تنطقان فرحا .

_"هل افتقدتني كثيرا؟"سأل بأسلوب لطيف يوفره لسؤال أطفال الحي .

_"أجل،كثيرا "

_"أثيل، إنه آخر لقاء لنا في السجن، لن تأتي لزيارتي مرة أخرى "و همّت أن تحتجّ و لكنه أوعز لها بحركة حازمة من يده أن تدعه يتم عبارته فتراجعت " لم أكن لأقبل وجودك هنا لو تمت استشارتي، ولكن الأمر فُرض علي، و لقد سررت بزيارتك بالطبع، على أنها ستكون الأخيرة، و قراري نهائي، ليس هذا بالمكان المناسب لك، وأرفض أن تقطعي تلك المسافة الطويلة لتقابليني بهذا المنظر الزري ".

_"أقبل أن أقابلك بأي منظر " أعلنت باندفاع، وملامح وجهها المبتهلة توحي بالاعتراض.

_"أنا شاكر لوفائك يا حبيبتي، ولكن لا، لن تأتي إلى هنا ثانية" و كسا وجهه تعبير جازم "سأقابلك المرة القادمة في الحديقة، وستتكفل سمراء بنقل كل أخباري إليك، لأنها ستزورني بانتظام رفقة خالتي و عمتي، و إن أردت إبلاغي شيء فأرسلي لها رسالة، قدّريني كثيرا يا أثيل في الرسائل، هذا ما أحتاجه " وابتسم مستمتعا

_" كما تشاء " قالت مستسلمة

_"تبدين أجمل عندما تطيعين الأوامر"و تحرّك الشرطي بين الطاولات يعلن نهاية الزيارة، وتظاهر البعض بعدم الاكتراث، فتابعوا الأحاديث الشيّقة و الضحكات الراعدة، و عندئذ كرّر الرجل الطويل أوامره صارما، مؤكّدا، ضاربا على الطاولات بكفّ يده ونهض الاثنان كارهين، يتبادلان نظرات جريحة، من الصنف الذي تبادلاه مرارا مودعين في الحديقة، و كانت تتوسّل إليه صامتة أن يتراجع عن قراره، وأملت أن تحدوه عاطفة أكبر منه إلى إلغاء ما عزم عليه، ووثب قلبها

من مكانه، و أحسّت أنها تتألّم ألما مبرحا، و أرادت أن تنظر إليه أطول فترة ممكنة كيما ترسخ صورته الأخيرة في عقلها حتى و إن كانت الصورة منحرفة عن المألوف، فلم يبدر منه إلا كلام قليل.

_"سأشتاق إليك، وداعا "و كان في صوته ما ينمّ عن بؤس و مرارة .

_"سأشتاق لك أيضا"قالت واستدارت ببطء،و أحسّت أن قوتها لن تلبّها لمبارحة هذا المكان رغم رداءته.

الفصل التاسع

"عزيزي خليل

إنني أجعل من نفسي شخصا غريب الأطوار في الأيام الأخيرة، و ستلاحظ أنت ذلك أكثر من الجميع إن ما سنح لك وقتك الضيّق و فتحت حاسوبك وقرأت الرسائل العشر الأخيرة الواردة من قبلي، ستلاحظ أنها أُرسلت بفواصل لا تزيد عن عشر دقائق، ستفاجأ حتما، لأن الحماس استولى علي لعلمي أنه سيطلق سراحك غدا، و قد عدّته العائلة اللطيفة أكثر من غريب، ينبغي عليك أن تنوّه بجهودي الاحترافية في سبيل إرضائك واستقبالك .حاولت أن لا أحزن ووجدت صعوبة هائلة في ذلك، لم أكن أملك من أمري إلا أن أصبر على فراقك الطويل رغم أن السيّدة سميحة وضعت خططا ممتازة لإسعادي و إشغالي .

وعند الساعة الثانية بعد منتصف الليل استيقظت على وقع شجار حام في آخر الشارع بين رجلين، ثم فهمت أنه دار حول ديون لم تستوفى، وتساءلت كما هو شأني دائما إن ما كان خليل سيخصّني بالرسالة الأولى أو أن الأصدقاء المتلهّفين و الأقرباء و أفراد الأسرة المتشوقين سيبزّون مني الحظ الأول في الطابور الطويل.

من الطبيعي أن تتسمّر خالتك و عمتك أمام باب السجن قبل بزوغ الفجر، ودموع الفرح تترقرق في كل زوج من العيون المتلهفة بقلّة صبر لرؤيتك، ستحظيان بالقبلات الأولى وستتنافس منزلتك الرفيعة في قلبيهما من أجل اصطحابك إلى بيتها، أما أنا؛ فسأزرع أمام الحاسوب غدا بدل أن أزرع أمام باب السجن امتثالا لأوامرك القمعية لاستقبال رسالتك الأولى فور ورودها.

انتزعت السيّدة سميحة بمهارة موافقة ابن السيد إبراهيم لأجل يوم عطلة لصبيّة تعاني من الحنين المتعطّش و التّوتّر العصبي لأن خليلها سيطلق سراحه غدا، و يرجع الفضل في ذلك أنّ الابن أكثر ليونة من أبيه المتزمت المتعصب، هل تستطيع كلمة بسيطة كالحنين الثائر أن تصف مدى شوقي إليك؟؟لا،لا، تستطيع كل كلمات العالم بجميع اللغات أن تصف شيئا مما يختلج في قلبي، و لولا أن عباراتك الأخيرة في السجن منذ ثمانية أشهر آزرت فؤادي ببعض الصبر و الأمل لما خمدت نيران القلق والحيرة والشوق والألم،و أنا شاكرة لابنة عمتك الغالية، لأنها لم تحرمني من أخبارك طوال هذه الفترة.

أكاد لا أستطيع تحمّل ليلة أخرى و ساعات نهار قادمة، بينما وسعني أن أنوء بعبء الأشهر المنصرمة الجوفاء من دونك،و وجدت عزاءً مريحا في كتابة الرسائل رغم معرفتي أنها لن تُقرأ من طرفك، دونت لك فيها كل تفاصيل الأيام التي انقضت بلا لون دون وجودك، ستستقبلك ألف رسالة ويتردد صوت ورودها المزعج بحيث تصمّ أذنيك بيديك.

أنا متلهفة ليوم غد، و كأنني سأحلّق في الفضاء كعصفور حر مغرد سعيد، وأتساءل كل ليلة قبل أن ينسل النوم إلى عيني الضائعتين في عالم يفتقدك، أتساءل بشيء من الحيرة الساذجة، إن ما كان الحب الذي اعترفت به لا يزال حيا في قلبك، فحبي أنا خالد لا يموت، أحبّك كثيرا يا بطلي. وحيث أن الانزواء في ركن محدّد يوترني،أخذت أتجوّل في أنحاء البيت مثل شبح البيت المسكون، وأسبّب الفوضى و أحدث ضجّة، و تساءلت أمي بينما أنا أضحك بصخب إن ما كنت أعاني من متلازمة السيدة سميحة المطلقة للدعابات، وكان يمكن أن أواجهها أن الذي يسعدني أكبر من مجرد دعابة سخيفة لولا أنها ستجد اعترافي مدعاة للزعيق والتوبيخ المتواصل، كذلك تجوّلت مضطربة في بيت السيدة سميحة، أعيد على مسامعها أنك ستكون حرا غدا، فتقسم بأغلظ الأيمان وبجهود عديمة الجدوى أنها حفظت المعلومة أكثر من حفظ عبارة زوجها الراحل: هل تعلمين أن أمي كان يُشار إليها بأنها امرأة بألف رجل. أجل إنني فخور بها، لا يزال طعمها الحار عالقا في لسانها و لا تنفك تردّدها كببغاء.

_و الآن يا أثيل إن عقلي غدا تعبا، ولن يسعني أن أدسّ فيه عبارة أخرى، لقد فهمنا أن السيّد المحترم خليل سيطلق سراحه غدا، إن هذا نبأ خرافي، حفظه الله إنه مثل الملاك، عبّرت كمن سئم من مضع نفس اللبان ، لشدّ ما أسعدني وصفها لك بالملاك، ولم يعقني ردّها المتألق من ترسيخه في ذهنها مجددا، أجل لقد ذكرت أمامها للمرة الخامسة عشر أنك ستكون حرا غدا

أثيل المتلهّفة إليك "

ملاحظة. سأفشي لك لأول مرة بعد اعترافي الأول في السجن أنني أحبك وسأفعل إلى الأبد لأنني لا أستطيع إلا أن أحبك.

"عزيزي خليل

مرّت خمس دقائق على رسالتي الأخيرة، ووجدت أنني بحاجة ملحة إلى تسليط الضوء على بعض المسائل المهمة، ليست بتلك الأهمية، حسنا، أنا منفعلة وأحتاج إلى تبديد الوقت، فبالكاد تخلّصت مني جارتي العزيزة زاعمة أن رأسها سينفجر من الصداع، ولا أملك الجرأة لأدقّ بابها، أشك أنها ستفتحه؛ لأن الطارق سيكون شخصا مزعجا كطفل متطفّل يروي لها مغامرته الطافحة شجاعة للمرة السادسة عشر، سئمت منه و من رواياته، فليس لدي سواك لأزعجه بالحديث عنك، أخشى يا خليل أن لك مؤيدين ومحبين كثر، أكثر من عدد الحاقدين المبغضين أو اللامباليين، لا أستطيع إلا أن أتذمّر منهم، فإنهم بتحلقهّم حولك لإبداء إعجابهم الرصين و تجديد إخلاصهم الورع سيكونون حاجزا منيعا لإعاقتك عن الرجوع إلى البيت باكرا، وهكذا لن أحظى بفرصة لمحادثتك إلا بعد أن ينزعج أهاليهم من طول غيابهم عن المنزل. كم أكره تلك العادة في

الاكتظاظ أمام باب السجن للاستقبال، وكنت سأرحّب بسعة صدر بحنين العمة والخالة الغاليتين المدلهتين بك، حيث أنهما تشتاقان إليك وأستطيع أن أتخيّل أي اجتماع عائلي بهيج يُعقد الآن في الحديقة الخلفية للمنزل وسط أحواض الزهور العطرة والاقتراحات المتبادلة و الترحيب بفكرة إعداد هذا الطبق وصرف النظر بعبوس عن آخر.

إن التجهيزات قائمة لغرض إبهاجك، كنت سأرحّب لولا أن ذلك يعني استلاءهما عليك كليا بينما، لن ينالني أنا إلا الانتظار المفضي إلى مزيد منه، وطبيعة السيّدات بمقام الأم الثانية لا تخفى،فهما ستسألان أسئِلة لا حصر لها حتى كيف كان جفناك يتحركان، و إبداء الملاحظات الدقيقة حول جسدك و شعرك و بروز عظام وجهك و عاداتك الجديدة المكتسبة، ثم ستقولان بينما تحتلّ كل منهما يمينك و يسارك متعلقتين بذراعيك كأنك ستفلت منهما: اه يا خليل ما أجوف ما كانت الدنيا من دونك، إن ضحكتك كانت تملأ البيت و الآن غدا كئيبا ليس فيه أي روح؛ خليل لقد تشاورت مع خالتك و أجمعنا رأينا على قضائك الليلة و التي يليها و الثالثة في بيتي، ثم بوسعك مرافقتها إلى المنزل، لن يكفي أسبوع لأشبع منك، ثم انظر كم تبدو هزيلا شاحبا، سأتولّى عملية الإشراف بنفسي على تغذيتك وإعداد الأطباق المناسبة لاسترجاع صحتك موجّهة كل رعايتي الحريصة إليك، أعي أنهم في السجن لا يقدّمون إلا عدسا عديم الطعم، و مرقا تجري فيه حبات الحمص النّيء و غذاء رديئا، و عندئذ تعترض الخالة الغالية : متى اتّفقنا على مثل هذا الهراء، طبعا ينبغي أن يذهب صوبا إلى منزله ليرتاح، ثم بوسعه أن يذهب إلى الزيارات بعد أسبوع، أنا خالته التي أفهم ما يريد قبل أن ينطق به، و أنا بنفسي سأشرف على تغذيته و الاعتناء به كما سبق وفعلت، أشكّ أنه يرحّب بفكرة أن يأكل من غير يد خالته،و بينما المنافسة تبلغ أشدها يوحي إلي حدسي المتواضع أن السيّد الوديع، اللطيف للغاية خليل سيعلن متحدّيا أن الوجهة الأولى هي البيت؛ لأنه متلهّف أكثر مني للتحدث مع غاليته أثيل، ألست على صواب؟،خليل أكاد أفقد صوابي، وليس بوسعي البقاء هنا و الانتظار، يبدو الغد بعيدا كأنه في السنة القادمة

المخلصة لك دوما أثيل

ملاحظة.ستصلك رسالة بعد خمس دقائق إن لم تفتح السيّدة سميحة الباب، سأقول مجدّدا أنك ستكون حرا غدا ".

"حبيبتي التي أحبها أكثر من أي إنسان أثيل، الفتاة الوفية المخلصة التي يجري عشقها في دمي ويسكن عقلي و قلبي وكل ركن من جسدي:

اشتقت إليك، وتكاد كلمة شوق لا تفي بغرض التعبير عن مدى اشتياقي إليك.

بالكاد تخلّصت من سيطرة خالتي و عمتي و ذريتهما النكدة، و بالكاد انتزعت تسريح الانفراد بنفسي لأكتب رسالة إلى أميرتي الجميلة، سرّني أن عيني لم تقعا عليك عندما اجتزت بوابة السجن، رغم تحرّقي و لهفتي لرؤيتك، بيد أن منظرك ترتجفين تحت أمطار آذار الغزيرة لا يغريني، كما أن ما يضايقني هو أن تقطعي مسافة كيلومترات طويلة من أجل أن تكثر الأسئلة حولك: من هذه؟، سيسأل الجميع، وبالخصوص لأنك فتاة جذّابة أكثر مما أستطيع حجبه عن الأعين الفضولية وسأعترف لك قبل أي شيء أنني أحبك حبا عظيما كما لم يحبّ رجل امرأة، وكنت فقط أحلم باللحظة التي أخرج فيها من ذاك المكان القبيح، لأقرأ رسائلك فأنسى كل متاعبي وهمومي .

لقد حرصت ابنة عمتي على مط شفتيها و جعل حاجبيها يرقصان بطريقة ماكرة للغاية وهي تنقل إليّ رسائلك المشفرة، وتخبرني بابتسامة أشدّ مكرا عن تقديرك الخالص لي.

حسنا يا عزيزتي إنني حر طليق متنعّم بكامل صحتي الجسدية والعقلية، وأشعر بدافق حارّ من الحيوية و الطاقة للعودة إلى الحياة الطبيعية، قرأت الرسائل الأربع الأخيرة فحسب، وسيتمّ تأجيل قراءة البقية إلى أن تقرّر السيّدتان تركي و شأني فقد اكتسبتا أفكارا جديدة تستدعي الملاحظة و تستصرخ الإصغاء، اكتشفت أن طابع النظام الدقيق قد تأصّل في خالتي أكثر عن ذي قبل، وبدورها عمتي لم تتأخر لتثبت لي أنها قد طوّرت مواهبها في ميدان الثرثرة حول الأزمات الاقتصادية، كم أنه لطف منها أن تستقبل سجينا بهكذا مواضيع، فضلا على أنني حلّلت طويلا: ما الغرابة في وضع إحدى صديقاتها شعرا مستعارا، لست متأكدا إن ما كانت قد فرغت من عرضها الأزمات الاقتصادية العالمية، و لكنني واثق أن الأزمات الأخلاقية ستكون حاضرة بقوة على طاولة العشاء وسأضطرّ لإبداء عظم دهشتي وسخطي لانحلال أخلاق المجتمع العزيز.

إنك تسألين أين أنا؟،لماذا تأخرت؟و تخشين أن يلصقوا بي تهمة أخرى ثم يضيفوا إلى الحكم سنة أو سنتين غير متوقّعتين. لا يا حبيبتي لم يكرّموني بإضافة سنة أخرى، فالوزير يستمتع بعطلة ربيعية هادئة في أحد الجزر، وليس له وقت ليستخفّ أكثر بحياتي المُقدّرة لديه بحياة فأر،كل ما في الأمر أن المعجبين و المعجبات و طاقم العمل المكون من شابين و أربع فتيات زاعقات وعلى رأسهم السيّد مالك بالإضافة إلى خالتي وعمتي و بعض أفراد العائلة التفّوا حولي مثل السرب، تلقيت قبلا وأحضانا تكفي لإخراج الكآبة من كل الدنيا، وقرأت فرحة حقيقية في الوجوه المنشرحة، مما دفع معنوياتي إلى التحليق عاليا .

حبيبك خليل الذي يحبك كثيرا،أكثر مما تحبينه أنت .

ملاحظة،قبل أن تنهي قراءة هذه الرسالة ستصلك الثانية،لن أبارح مكاني ما لم أتحقق أنك سئمت مني، وسأقابل إلحاحهم بالتجاهل، أنت تأتين في المقام الأول قبل الجميع."

"حبيبتي أثيل

كيف يخطر لك أن تستوضحي مني إن ما كان حبك حيّا في قلبي؟ لا أملك خيارا إلا أن أحبك، وأحبك بامتنان، لأنك برزت إلى حياتي مثل النور في الوقت المناسب، لست نصفي أو ظلّي يا أثيل، أنت كلّي، ولست شاطئي أو رملي أنت عمقي، أنت زرقة لوني. و أكرّر أنني أحبك كما لم يحبّ رجل امرأة، وأشعر أنه لا يوجد حبيبان مثلنا في العالم بأسره بوفائنا، بصدقنا، بصفاء قلوبنا، بتمسّكنا ببعصنا بعضا، و لا أنفك أحسد نفسي عليك.

طيلة أشهر السجن، ظلّت صورتك تدفعني إلى التماسك، وتبعدني عن الإحباط واليأس، كنت أنظر من نافذة السجن والضوء المنساب الباهت يبدّد شيء من الظلمة، بينما المكان يضيق على رحبه وكنت أستحضر ملامح وجهك في خيالي و يتردّد صوتك الرقيق في أذني فيتلاشى كل الغضب والمرارة والقهر و يتّسع الضيق،و يا أثيل، غالبا ما كنت أخاف، أنا الذي لم يخف في حياته من فقدان شيء سوى أمه، أنا الرجل العنيد المتماسك. أجل أصارحك بأني خفت أن أخرج من السجن فلا أجدك، رغم أن ابنة عمتي كانت تفد إلي بأخبارك وتطمئنني أنك بخير، لكن لا،صوت خسيس عميق يصرخ في داخلي يسوقني إلى الجنون، أخشى خسارتك، وإن ما خسرتك سأخسر صفاء حياتي وجمالها وينهار العالم من حولي .أجل أحبك إلى الحد الذي أتخاذل فيه عن العيش بدونك، ومن بين جميع الظروف الحالكة خشيت أن تتأثّري بسلطة الأم المتعطشة لتأمين مكانة لابنتها المثالية ضمن عائلة محترمة باسم التقاليد النزقة أو الواجب الحياتي المحتم، أن تتزّوجي رجلا آخر سواي، شيئا فشيئا أحكمت الفكرة قبضتها وبات الصوت مسموعا رغم غارات التجاهل والقمع الفعّال،كأنها قادمة من عقل الشيطان، فقادتني إلى الاضطجاع ساهدا،و تساءلت مذعورا حانقا "ماذا لو أنها تزّوجت، ماذا لو أنها ملك رجل آخر الآن، بينما أنا عاجز عديم الحيلة، وعندما أتخيّلك بين أحضان رجل ساقك إليه الواجب الزوجي، أضرب الحائط بكف يدي حتى تتورّم، فيعتقد الحراس أنني فقدت عقلي، لأن صياحي أحيانا كان يملأ المكان، وربما مالوا إلى الاعتقاد منتشين جذلا أن الوزير بلغ غايته بإذلالي، كم أنهم أغبياء إذا ما ساور رؤوسهم الكسيحة هذا الاعتقاد، لا يُذلّني خسارة حياتي أو قهر الرجال، بل قهر الحب و خسارة الفتاة التي أهواها، الفتاة التي تقلّدت منصب المسير و الآمر، ووضعت الأمور في مسارها الصحيح، ثم سرعان ما أقبض على صدغيّ بكلتا يدي عاجزا مثل حيوان جريح في فخ، ما حيلتي إزاء فوز رجل آخر بجسدها لا بقلبها، فأنا واثق من ملكيته، ما حيلتي بفوزه بها بعقد مبارك بالشرع والقانون يبيح له أن يتصرّف بها كيفما يشاء، ثم ما تلبث أن تثير هذه المصيبة عاصفة من الغضب الذي لا قبل لي بالتحكّم بهيجانه، فتاتي أنا يمتلكها غيري!! لن أسمح مطلقا بذلك، ولذا سأدخل في صلب الموضوع الذي

بحثناه سويا قبل أشهر. أودّ أن أتزوّجك في أقرب الآجال، وإن كنت لا تبالين بالمظاهر النسوية التافهة وتقاليد المجتمع الغبية، والهذيان حول طوافك في محلات الألبسة وإظهار نفسك في عرض بدائي تافه أمام الأعين وحرق خصلات شعرك و لفّها عند مصففة الشعر، وإهدار طاقتك في ما لا يفيد، وإن أنت لا تمانعين أن تشاركيني أيام فقري القادمة إلى أن أثبّت نفسي في وظيفة جيدة، فأنا أخطّط لمفاتحة السيدتين في موضوعنا هذا المساء على طاولة العشاء التي لم أستطع تجنّب الانضمام إليها.حسنا، إن عادة إفشاء الأسرار عند النساء مفيدة غالبا، قبل أن أبدي رفضي لأنني متعب رفعت عمتي حاجبيها في تعبير مستنكر قائلة أنها تدرك ما نوع التعب الذي أعانيه وفورا أخذت سمراء تداري عنقها بسرعة خاطفة مثل السلحفاة، متظاهرة بنفض الغبار عن فستان خالتي، إنها لم تستطع حفظ لسانها صامتا في حلقها، و لأكون صريحا، عوض أن أستاء بفعل إفسادها فرصتي في مفاجأتهم، سررت من ثرثرتها، إذ ترتّب عنها تسهيل مَهمتي، وهذه الليلة وقبل أن أفتح فمي لأشرح لهم كيف وقعت في الحب مثل الأحمق وأنني أنوي الزواج، أنا الذي كنت أشارك عمر رأيه أن الزواج مزال وقته، وأعلّق بعيدا عن مسامع والدتي أن النساء يعكّرن صفو الحياة الطليقة، والزواج عبارة عن أغلال تحدّ من حرية الرجل،أودّ متلهفا الآن أن تُوضع حول رقبتي و يدي أطواق من حديد.

قبل هذا سيقع على رأسي سؤالها كالفرج العظيم: خليل، علمت من سمراء"،طبعا ستسقط سمراء الشوكة عامدة على الأرض داسّة رأسها تحت الطاولة متظاهرة بالبحث عنها تفاديا لنظرتي المؤنبة: علمت أن الفتاة جميلة جدا، تقول إنها لم تر فتاة أجمل منها، وأنها هادئة و مؤدبة، و ثيابها محترمة و من هيئتها تبدو من عائلة أصيلة.

وماذا قالت سمراء أيضا؟سأستفهم

"قالت إنها تبدو مناسبة لك، وجديرة بالانضمام إلى عائلتنا، هل نعتبر أننا حصلنا على زوجة ابن صالحة؟ أقصد هل أنت جدي بخصوص الفتاة؟ سأجيب واثقا و الحماس يقطر من وجهي: أجل ستحصلان على زوجة ابن ناعمة و جميلة و أكثر فتيات الدنيا كبرياء و أدبا.

أثيل، يبدو أنّهن لن يتركنني و شأني، سأتعرّض إلى تحقيق و استجواب دقيقين و أثناء نزولي درجات السلم سأقوم ببعض التمارين اللائقة لأجل إحراز الأجوبة: هل صحيح أنهم يضعونكم في الماء المغلي؟ هل تم إجباركم على أكل الحشرات؟ أحقا ينام خمسون رجل في زنزانة واحدة؟ أيعقدون مباريات للشجار من أجل التسلية، تتلهّف النساء لمعرفة كيف هي الأماكن الغامضة مثل السجن، الذي لو أتيحت لهن الفرصة لإشباع فضولهن حوله لما تردّدن في ارتكاب جريمة تفضي إلى اكتشافه.

هلا تطلبين من السيّدة سميحة مفاتحة أمك بموضوعنا؟ أو ربما تفّضلين والدتيّ الجليلتين لتأدية المَهمة بدلا عنها

خليل الذي يحبك إلى الأبد

ملاحظة: كانت الرسالة طويلة، آمل عندما أعود أن تحزمي قرارك أيا من الثلاث تريدينها أن تجلس في غرفة الضيوف مقابل أمك العظيمة.

ملاحظة ثانية: إن كنت ترغبين ببعض الوقت لغرض التفكير، فلن أحرمك من حقك الطبيعي، فكل الفتيات يجدن بمهارة فائقة إخراج الرجل عن صوابه، بينما هو ينتظر الرد، وأنا لست استثناءً، أخرجيني عن طوري إذا شئت.

ملاحظة ثالثة: سأراك هذا السبت كما هي العادة، لن أقبل بأي عذر، قلت لن أقبل بأي عذر.

"عزيزي خليل

لقد قرأت رسالتك بوافر من السرور، يسعدني أنك بمثل هذا الحماس، ويسعدني أن وجدتك رسائلي بصحة جسدية جيدة، وبينما أنا أقرأ نما في داخلي ارتياح شديد لعدم تأثّرك بظروف السجن القاسية، ما أجمل أن ألمس مسحة الاستهتار القديم في شخصك، تشعرني بالطمأنينة، هذا هو خليلي الرائع القوي الذي لا يؤثر فيه شيء، دم ساخرا إلى الأبد يا خليل، دم ساخرا لأعرف أنك بخير.

لا تفترض أنني أرغب في إثارة عصبيتك، و لكن يا خليل أرى أن مفاتحة العائلة بالموضوع هذه الليلة ليس بالفكرة السديدة، لقد أبديت فعليا في وقت سابق موقفي الصارم من الفقر والحفلات والطواف في المحلات، لست أعبأ بها أكثر مما تعبأ بها أنت، و إنني جاهزة للعيش معك في عرزال خشبي فوق الشجر، لنتريث قليلا، فلم يمض ساعات على خروجك من السجن، أنت بحاجة إلى بعض الراحة كما أحتاج أنا أيضا لإفشاء بعض الأمور الجدية أمامك، ولست بحاجة إلا للوقت، وحيث أننا في البيت نمرّ بضائقة عائلية عابرة، أشك بجاهزيتي للزواج منك يا خليل، حتما لست أرفض ،كما أنني لا أحتاج وقتا للتفكير شأني كالفتيات اللاتي يملن إلى إخراج الرجل عن صوابه، وليس إلا بقاؤك آمنا سالما طليقا كما أنت الآن أمنية عزيزة على قلبي على المستوى ذاته مع الزواج منك، أرجو أن تتفهّم موقفي كما كنت دائما، في سبيل أن أسعدك سآتي هذا السبت وسنقضي اليوم بطوله سوية

سيكون الجوّ الأسريّ المتلاحم مفيدا لك يا عزيزي، بوجود السيدتين الرائعتين خالتك وعمتك، أرجوا لك عشاءً طيبا

أثيل المحبة

ملاحظة: أحبك أكثر مما تحبني، لا تنسَ،تذكر هذا إلى الأبد، إلى الأبد، أحبك حبا بلا حد".
_"فتاتي المتريثة أثيل

إنك تدفعينني إلى الحيرة، هل أصدّق حقا أنك تحبينني؟ أغوص في قرارة نفسك فأغرق يا أثيل،أضيع عندما لا أحصل على تفسير مقنع لسلوكك معي،ما كل هذا التناقض يا أثيل؟

بينما كنت أنا مندفع للإعراب عن رغبتي المحمومة في الارتباط بك،و وضع الخطط رفقة عمتي وخالتي، تعربين أنت عن رفضك بسياسة مراوغة مستعملة مصطلح (نتريث)،لقد رفضتني بطريقة لبقة جدا كما يبدو ثم تحاولين طلاء الرفض بدهان زاه، كم هو أنيق رفضك لي !! كم أنك فاتنة مستبدة يعذبني صدها لي !!!.

لا يا أثيل،هناك ما تخفينه عني، و طالما تيقّنت من إخفائك بعض الأسرار، وليس هذا في صالحنا، أستغرب لماذا تنزل هذه الضائقة العائلية فجأة دون سابق إنذار، هل تحبكين مؤامرات خلف ظهري أو ماذا يحصل بالضبط؟،لست مرتاحا لأعذارك المزعومة، لقد عدت مرتاحا بعدما ظفرت بدعم السيدتين، و بعدما أبديتا بحماس رغبتهما المحمومة في التعرّف عليك وعلى عائلتك، وتم التفاهم على التجهيزات اللازمة و العرس البسيط الذي حدّدنا موعده نهاية الشهر القادم إن وافقت عائلتك، تسدّين علي الطريق قائلة إنك لست جاهزة !!أهو خوف من الزواج؟ أو خوف من رفض والدتك لي؟ أو ربما فاتحتها بالموضوع و لم تنتزعي منها إلا الاحتجاج الصريح؟ لقد صدمتني وخدشت حماسي، هذا ما يسعني الشعور به في الوقت الراهن: الصدمة، وثبّطت همتي، وأخشى القول أن عذرك الزاهي المدلّل لم يتجاوز قشرة رأسي الخارجية

المستاء منك خليل

ملاحظة: أنا مستاء يا فراشتي، و لست تملكين إلا مصارحتي بالحقيقة التي تخفينها عني".
"عزيزي المستاء خليل

اااه يا حبيبي، كيف يسعك أن تشكّ في حبي و إخلاصي لك؟؟،منذ أن قرأت رسالتك و أنا أشعر بانقباض في قلبي، كل هذه الفرضيات لا مبرّر لها، عمدت إلى عدم الرد الفوري عليك تجنّبا لتفاقم غضبك، أشعر بالذنب؛ لأنني آلمتك وجرحت شعورك وخيبت رجاءك، إن الموضوع برمته سوء فهم لظروفي، لم أصرّح أبدا أنني أرفضك، و كيف أقدم على رفضك، و أنا أحبك كل هذا الحب، هل تصدقني إن ما أقسمت لك أنني لم أفاتح أمي بأي موضوع؟ إنها لم تعلم وكن على يقين يا خليل أنها لن تمانع زواجنا بعد أن أصرّ أنا عليه، إنها تحبني و توافق على أي شيء يسعدني، أنها فقط بحاجة إلى الوقت من أجل حلّ بعض الأمور العائلية، أ لاتزال مستاءً مني؟ إن لم أتلق منك رسالة سأفهم أنك لا تزال غاضبا و سيؤلمني أن تظلّ كذلك

المحبة الهائمة أثيل"

"عزيزي خليل

لا تفعل بي هذا، لا تحبسني في زنزانة واحدة مع الخوف والحزن والارتباك. انتظرت رسالتك ولكنها لم تردني. إن النوم مستاءٌ مني مثلك تماما.

هل أطمع أن تبذل جهدا و لو ضئيلا لأجل أن تتفهّمي، إنك تشعر شعورا مفحما أنني خيّبت أملك و خذلتك و كسرت قلبك في الوقت الذي تحتاج مني الوقوف إلى جانبك. كن واثقا أنني أفعل أي شيء لإسعادك، لأن سعادتك تعني سعادتي أنا أيضا، هل التمست الكثير عندما طلبت إليك منحي بعض الوقت لأجل ترتيب بعض المسائل الطارئة في البيت؟ إن صمتك مخيف أكثر من تأنيبك، أخاف منك عندما تصمت يا خليل،أخاف منك عندما تغضب، سأبوح لك بسر، خسارتك تعني الموت بالنسبة لي، سأموت إن خسرتك، لأنك روحي و أنفاسي، أنت حياتي وأملي ومصدر قوتي. سأظلّ مستيقظة إلى أن تردني رسالة من طرفك. تثبت من خلالها أنك لست غاضبا مني، أنا جديّة بهذا الخصوص و لا نية لي بالمزاح معك،سوف لن أنام

المحبة المخلصة التي لن تنام أثيل "

"لغزي المحير أثيل

إنك تحاولين تحريك قاع القدر و هذا لن يجدي، كونه خاليا إلا من المرق، ليس بمقدوري أن أقول أنني أفهمك على النحو الذي تشائين، كما لا أستطيع أن أنفي امتلاء صدري بحزن قاتم ممزوج بالحيرة في اللحظة الراهنة. بوسعي فقط أن أتظاهر بتفهّمك، إن كان ذلك يرضيك ويحسّن حالتك المرتبكة. و فضلا عن كل هذا أنت لا تسمحين لي بمعرفة مشاكلك، وأنا على يقين تامّ أن مساهمتي في حلّها تُصنّف لديك أزمة عالمية و تدخّلا صفيقا في شؤونك العائلية الخاصّة. إنها تعتبر في دستورك المتعصّب قضية شائكة معقدة تذوي كبرياءك الرفيعة، تنتابني رغبة جامحة في تفكيك رأسك ومعرفة الأسرار الغامضة التي تنفر ميولك من إطلاعي عليها، ثم أتساءل تائها، أتراها السيّدة سميحة توصّلت إلى معرفتها؟ فهي صديقتك الحميمة رغم أن هذه الصداقة توقعني في الحيرة كما تحيرني أمور أخرى، و أجيب نفسي أنها ستعرف في حالة واحدة إذا كان السر مشتركا بينكما، سر عجيب كالقبض عليكما ووضعكما في السجن، أهذا ما تخفينه؟سوابق عدلية؟ هل تدحرجت إلى السجن من قبل، أقضيت سنة مثلي بين جدرانه؟ أشكّ أنك والسيدة العظيمة تملكان ذاك الحظ البديع لتسلما كل مرة، هل تعثّر الحظ ذات مرة؟ ثم أتّهم نفسي بالغباء،أكانت أمها لتسمح باستمرار الصداقة العابثة لو اتّفق و حدثت هذه الكارثة لابنتها!!، اذهبي إلى النوم يا منجم الأسرار و كهف الغموض لقد تأخّر الوقت، إذ لا يظهر أن مزاجي يحفل بمحاولاتك

لتلطيفه، و سأخلد بدوري إلى النوم، و لست في حالة حسنة لاستقبال أي رسالة منك، فأرجو عدم معارضة رغبتي، لا تبعثي بأي رسالة أخرى

تصبحين على خير

ملاحظة، لست غاضبا، أنا منزعج فقط من المزاج المتقلب الذي أعامل به، و ليس لدي أدنى رغبة في النقاش معك، عندما أكون جاهزا سأكتب لك بنفسي إلى ذاك الوقت لا ترسلي شيء"

"حبيبتي غريبة الأطوار أثيل

قمت بنزهة قصيرة إلى خارج البيت بمفردي، يكثّف فريد رغبته في اجتماع ودي كذاك الذي كنا نعقده قبل دخولي السجن، فصارحته أنني أفضّل البقاء وحدي إلى أن أكون قادرا على زعزعة رأسي في أمور العمل، فذاك ما استدعاني لأجله.

وبعد فترة قصيرة تلبّسني الندم و شعرت بالذنب؛ لأنني عاملتك بأسلوب عدائي شرس غير مبرّر فعدت إلى البيت بسرعة البرق،و بالكاد تحرّكت شفتاي لمبادلة تحية خالتي التي كانت تنزل لوحات الحائط لغرض تنظيفها. عدت لأسلّم نفسي لك من أجل الثأر لكرامتك المهانة وشعورك الجريح، يركلني ضميري، لأنني هاجمتك بفظاظة عجيبة منذ يومين، و زدت الطين بلة عندما قطعت رسائلي عنك، أما ما جعلني ألعن نفسي، فكوني جرّدتك من حق إرسال أي رسالة، الأمر الذي أطعته دون نقاش أو عصيان.

كنت منزعجا، لكونك غير واضحة وصريحة، يندر أن أستطيع تجنّب وصفك بالمتناقضة وقلّما أتحاشى إنشاء جدول بالأمور التي تعمل لمصلحتي و التي تعمل ضدي، تكتبين رسائل طيلة أشهر لتخرجيني من الحالة البائسة التي كنت عليها، تقطعين مسافة طويلة لتريني في السجن ثم تبكين لأجلي، وتصارحينني أنك تحبينني منذ سنين خلت حبا صامتا متحفظا، تنتظرينني بلهفة، تفعلين المستحيل لأجلي، ثم عندما أعرض الزواج عليك تمتنعين، أليس لدي الحق في اعتبارك فتاة غامضة؟، ألست لغزا محيرا؟ أيحلو لك تشريدي يا فتاتي؟ يسهل عليك إقناعي لو أنك تَعتقين نفسك من شكليات الغموض، و تجربين وسائل عملية غير أن تكوني سرا مبهما، فسري لي بالله عليك، فسري لي كي أفهم.

هذه أول مرة أصطدم معك فيها، أنزعج من نفسي، لأنني تركتك يومين دون السؤال عنك وها أنا قد راجعت نفسي، وأعترف نادما بقسوتي الفظّة، هل خلدت إلى النوم باكية لأنني صرخت في وجهك؟ فأنت تتأثّرين بسرعة وتبكين أسرع، و ليس إلا الحزم يكبح نازلة البكاء تلك، كم أنني كنت وغدا لعينا عديم القلب!! و لكن يا أثيل ما بيدي حيلة، فأنا أغدو مجنونا عندما لا أستطيع فهمك،إلهي ،كم أغدو مجنونا ، ولست أفضل عندما لا تتنازلين مقدار ذرة لإزالة الغموض

واللبس، كيف أغرس في روحك الحزينة الثقة بشخصي؟ كيف أجعلك تفهمين أن بوسعك وضع رأسك المثقل بالهموم على كتفي؟ و نقل أعبائك إلي، فأنا رجل، وبمقدوري أن أتحمّل، سأحرص من الآن فصاعدا على تنفيذ رغبتك فلا أضغط عليك إلى أن تطلبي أنت يدي للزواج، انتظري لترى كيف سأردّ لك الصاع صاعين، جهّزي قدميك الظريفتين لغرض الجري خلفي، بقدر ما أتعبتني سأتعبك، ماذا تقترحين علي؟ فأنت صاحبة خبرة في رفض عروض الزواج، الله فقط يعلم عدد الرجال الذين حطّمت قلوبهم بينما أنت تنطقين مزهوة كلمة لا، الله يعلم كم رجلا خيبت رجاءه وأرجعته من عتبة الباب يجرّ أذيال الخيبة، أراهن أن جميع رجال مدينة س.ب تقدّموا إلى السيدة والدتك لطلب يدك، وأراهن أنهم جميعا قوبلوا بتقطيب الحاجبين، و هز الرأس بالرفض، كم أنك قاسية القلب!!، ولولا أن تلك القسوة أبعدتهم عن البيت لما كنت الآن أطريها و أتغزّل بها، رائعة أنت عندما تصبحين قاسية، إلهي، كم أحب قسوتك ،على أنها لن تفيدك إذا ما أوقعتني فتاة حسناء أخرى في حبالها، فتاة تقدّر عظم خسارتها إن ما أهملت كنزا ثمينا مثلي ورفضت، حينها ستكون قسوتك ملعونة.

دعنا لا نتطرّق إلى هذا الموضوع فترة غير محدودة إلى أن تجمعي أشلاء جاهزيتك تماما للمَهمة الخطيرة (الزواج)، و بالمناسبة أنا مهتم بمعرفة طبيعة الضائقة، طبعا إن كنت لا تشكين أنني أهل للانسجام المطلق وظروف حياتك الغامضة.

تقرير اليومين السابقين هو كالاتي، تلقيت عرض العمل القديم من السيّد مالك, ولا أعتقد أن بوسعي أن أدير ظهري لعرضه، رغم أن شعوري بالإثم يتغلّب على رغبتي في الانضمام الى فريقة، لقد كدت أتسبّب في تشميع جريدته إلى الأبد، أخشى أن كرمه هذا سيودي به في النهاية إلى مرافقتي إلى السجن في المرة القادمة و في أعقابنا طاقمة الفاشل، تلقيت عرض عمل آخر أنا في صدد التفكير بخصوصه،فسّجلّ الجريدة إلى الآن خال من أي علامة سوداء، أما سجل السيّد مالك، فالعلامة الثانية القادمة ستوقف قلبه.

وعن خالتي فأفترض أن البريق الذي يشعّ في عينيها لحلمها بملاعبة أطفالي قريبا وحملهم والاعتناء بهم وإطعامهم، سيزول تلقائيا بعد أن أنبئها آسفا أن العروس صاحبة العينين السوداوين الساحرتين والغمازتين المغريتين ليست جاهزة بعد لتتجاوز عتبة باب منزلي، هل أخبرها أنك لن تكوني عروس البيت بعد شهر كما أملت، أو أدع الأمور تسير على ما هي عليه؟ ربما ليس من الحكمة أن انقل إليها عدوى خيبة الأمل وإثارة الأعصاب كما حصل معي.

ملاحظة: إنك مبهرة من جميع النواحي ما عدا غموضك المبهم كقاع البحر.

ملاحظة ثانية: لم أكن لأحبك إلى هذا الحد لولا أنك تجعلينني أنتظرك دائما، في حديقة كئيبة أمام باب عقلك المتعالي، والله يعلم كم المدة التي حكمت بها علي لأتمكّن من نيلك كزوجة، أتذكرين يا أثيل عندما كنت أقول أن الاستسلام غير وارد في قاموسي، كذلك أقول الآن، سأنالك يعني سأنالك، ستكبرين معي ونتشارك الأوقات السعيدة والحزينة وأراقب شعرك الأسود يستحيل رماديا، وأشهد على التجاعيد تنال من وجهك الجميل، عندئذ سأهمس في أذنك همسا يتطفل عليه الفضوليون، وسيرتفع فضولهم عندما تضحكين و يهتز قلبي ولعا بك، كأنني أسمع ضحكتك للمرة الأولى ".

"عزيزي خليل

لقد أسأت إليك، وفي الواقع أنا من يجب عليها الشعور بالذنب، إن ضميري يلسعني، نفّذت طلبك على مضض مني، وعمدت إلى احترام رغبتك فيما يتعلق بتركك و شأنك إلى أن تخمد نار غضبك، ما حدث بيننا لم يكن اصطداما، مجرد سوء تفاهم عرضي لن يتكرّر، ففي حين تحسب أنت أنني أرفض الزواج منك، أؤكد لك أنني أحتاج بعض الوقت،ذات يوم سيكون بوسعي أن أكشف لك عن خبايا الحياة التي نعيشها أنا وأسرتي،و حتى تشعر بالراحة لم تضطرّ أمي يوما حتى في أصعب الأوقات إلى إرغامنا على فعل شيء لا نرغب فيه، تخونها النزعة الأمومية لتفعل، مما يعني أنها لن تقدم على تزويجي لأي رجل لا يستميله قلبي، هل تشعر ببعض السكينة الآن؟

المحبة دوما أثيل "

"عزيزي خليل

قفزت إلى مخيلتي بالأمس بعد الظهر، صورة لامرأة التقيتها صدفة على متن الحافلة التي كانت تنقلنا إلى العاصمة لزيارة إحدى قريبات السيّدة سميحة بسبب مرضها، و أجهل السبب الذي يدفعني إلى تذكّرها، و مهما أبذل من طاقة لا تستطيع صورتها إلا أن ترتفع إلى رأسي، يومها قالت عبارة التصقت بذهني "إن الله يعرف و يريد أن يعرف و يريد أن يغفر، أما البشر فإنهم لا يعرفون ولا يريدون أن يعرفوا ولا يريدون أن يغفروا" كانت امرأة بدينة متجهمة القسمات كئيبة المنظر، تحمل حزنا عميقا في عينيها، أليس قاتلا عندما لا يفهمك المحيطون بك؟،لقد قرأت ذلك في عينيها المغتمتين، من الواضح أنه لم يتم فهمها، و لهذا أصبحت تحكي للغرباء قصتها، علّها تعثر على بعض التجاوب و الفهم، مسكينة تلك المخلوقة، تدفعني أمنية غامضة ملحة للاجتماع بها قبل نهاية هذا الشهر، قبل نهاية هذا الشهر، لم يغير مقدار نتفة أنني أود طردها من عقلي، إنها صامدة، أنا غبية لأنني أروي هذه السخافات،خليل أليس من العسير أن يقف المرء في منتصف

الطريق فلا يستطيع التراجع إلى الوراء بقدر ما يعجز عن التقدّم إلى الأمام، لا تتعب نفسك بوصفي بالمجنونة ، فأنا قد سبقتك وكتبت النعت على كف يدي، ألست عاطفية جدا؟خليل أرغب أن أختم هذه الرسالة بسؤال أرجو منك الإجابة عليه، أيصنع الحب المعجزات كما روت قصص التاريخ، و الأساطير وكما يروي العاشقون الهائمون؟؟ أخشى أن يكون واضع هذه النظرية مجرد أحمق مستهتر لم يقع في الحب يوما، فالذين يكتبون القصص ليسوا أصحابها، أخشى أنه يصنع الوهم، أخشى أن سلطته تترمّل أحيانا في سواد الأقدار، أحبك و أخشى أن لا تكتمل قصتنا

أثيل السخيفة "

"مجنونتي عديمة العقل أثيل

يبدو أن السيّدة المبجلة اصطحبتك إلى مشاهدة مسرحية رومنسية مأساوية، بينما ظننت أنك تمزحين، أستطيع أن أتخيّل دموعك و هي تنزل جارية على وجنتيك الموردتين، بالله عليك يا أثيل، إن أمثالك لا يصلحون لمشاهدة مناظر حزينة مبكية فسرعة تأثّرك أسرع من سرعة الضوء، ماذا أتوقّع بعد ساعة من الألم و الأحزان و الدموع و الفراق؟اااه من السيّدة سميحة وأفكارها الغربية، إن منظرا كئيبا يستفز الذكريات الحزينة الخامدة، ولهذا أعتبر قفز صورة المرأة الكئيبة إلى عقلك شيئا بديهيا طبيعيا، وها أنت تصرّين على مقابلة امرأة مجهولة قبل نهاية الشهر، وإن فاتك أن تلاحظي، فقد كرّرت العبارة مرتين، مما يسوقني إلى الاقتناع بأن عزلك عن جارتك سيكون في صالحك، ستموتين إن افترقت عنها، أعلم جوابك، و ليكن في علمك أنني لا أنوي تفريقك عنها في المستقبل، سأعتبر أنني أخاطب بنتا صغيرة و أجيبها على سؤالها، سأتقدّم إلى الأمام، فأنا عالم بما يوجد خلفي، بيد أن الأمام مجهول غامض و لن يكون أسوأ على أية حال من الوراء الذي لو كان مناسبا لما انطلقت منه. أما فيما يتعلق بالحب، فهو لا يصنع المعجزات فحسب، بل يفتت كل العقبات، لأن الحب سيّد علينا جميعا وماذا يكون للعبد إلا إطاعة أوامر سيده، وإلا فالشقاء بانتظاره و كيف يستطيع الإنسان أن يشقى بينما لديه خيار آخر مريح و مبهج في الناحية الأخرى؟

خليلك رغم جنونك إلى ما لانهاية "

"عزيزي خليل

ليس أسوأ من لقاء عاطفي لحبيبين لم يتقابلا منذ ثمانية أشهر تحت زخات المطر، أتوسل الآن لأجل أن يتوقّف حبل المطر و نواح الرياح، يمتدّ الشتاء دونما إذن كل سنة، ليقضي على حق الربيع في الظهور، لا أخطّط لتأجيل الموعد حتى و لو قرّرت السماء أن تمطر حجارة، لن أشعر بها و أنا أنعم بنظرة من عينيك الهادئتين الوديعتين، أتراك تشاطرني الرأي؟، أكاد أجزم أنك تجهّز نفسك متحمّسا لرؤيتي، سأنزل لتناول العشاء لأن أمي التي أحبها أكثر من أي إنسان آخر في الدنيا

تستدعيني من الأسفل، ثم أخلد للنوم باكرا، أشعر بإرهاق شامل في جسدي، أراك غدا يا أعز الناس على قلبي

أثيل "

"عزيزتي أثيل

إن الساعة تشير إلى التاسعة، وهي تمطر هنا أيضا، لن تقرئي رسالتي على أية الحال فأنت نائمة كما سبق و ذكرت، يتعين علي الخروج، وسأعود إلى البيت عند الساعة الحادية عشرة،لن أنام قبل أن أتفقّد صندوق الرسائل فربما اشتقت إلي وقرّرت أن تعترفي بذلك، سأكون جاهزا للترحيب بحنين الساعة العاشرة، يقولون إنه رومنسي للغاية، أحلام سعيدة يا طفلتي.

خليل المتلهف بصورة لا توصف لرؤيتك "

الفصل العاشر

عندما اجتازت أثيل باب الحديقة بقدمين تشتعلان حماسا، و السرور ينبض وهّاجا في وجهها مع خفقات سريعة مجنّحة من الشوق، رأت خليل يروح و يجيء على قدمية متوتّرا على طول الطاولة داسا كلتا يديه في أعمق جيبي سرواله الأسود ،حانيا رأسه بحيث لم تتبّين الارتباك إلا من حركة ساقيه، فاستولت عليها دفعة قيمة من الانفعال المحموم، كأنها ستقابله للمرة الأولى "إنه متلهّف لرؤيتي أكثر من لهفتي عليه، إنّ قلبي يكاد ينفجر من السعادة "، بالكاد استطاعت تحمّل الشهور الثمانية لتجتمع به، كم أنها مرت بطيئة مترثة وكل دقيقة منها شبيهة بالموت حافلة بالكدر والخوف والفزع و الألم.

كانت قد هندمت نفسها أمام المرآة استعدادا لهذا اللقاء المنتظر، ووقع اختيارها على ارتداء الفستان الأزرق ذي الياقة والكمين العريضين الذي يفضّله خليل، و رغم أنه غدا قديما جدا ليحظى باختيارها إلا أنها كوته بصورة جيدة مما جعله يبدو أحسن قليلا، و قامت بتغيير تسريحة شعرها، و لم تترك شيء لم تجربه كيما تبدو جميلة. كل هذا كلّفها الوقوف ساعة كاملة أمام المرآة و بينما هي تتأمّل نفسها، تحسّست وجنتها المتضرجتين بفعل انخراطها في مشهد خيالي حالم، ماذا لو كان خليل خطيبها بصفة رسمية؟، كان حتما سيقبّلها على وجنتها قبلتين رقيقتين ،ويقرص ذقنها كفتاة صغيرة مدلّلة، ليته كان مسموحا لها بتقبيله قبلتين على وجنتيه، ليت الصفة الرسمية كانت موجودة، كيف سيكون طعمها !!بالطبع كانت ستشعر بغبطة عظيمة يوازيها خجل ميداني مهذّب خال من التصنّع، ما أجمل هذا الشعور !! و تزامن المشهد الحالم مع توطيدها العزم على مصارحته بوضعها بعد أسابيع قلائل، بعد أن تفارقه ذكريات السجن المريرة و يتجاوز الظلم الفادح الذي وقع عليه، سوف تستجمع شجاعتها لهذا الحدث هائل الأهمية ، و مما لا يختلف فيه اثنان أنه سيسامحها لعظم حبه و شدة تعلّقه بها.

كان الجو صحوا، و السماء زرقاء صافية، و الشمس تتبختر في السماء كأنها عروس، وكانت قد شكرت الله لنعمة الطقس المشرق الدافئ الربيعي المشمس، وبدأت الأزهار تتبرعم والأوراق الخضراء تتموقع على نحو ملحوظ، و بينما هي تخطو خطوات خفيفة واثقة باتّجاهه، رفع رأسه فرآها وخطا بدوره نحوها لمقابلتها في منتصف الطريق، ولأنه استحث الخطى بدا كأنه يركض لا يمشي، وعندئذ همّ فمها أن يفترّ عن ابتسامة الفرح الذي يضجّ في صدرها، و لكن تعبيرا غريبا متجهما مختنقا في وجهه النحيل المتعب منعها من التبسّم، و عندما أصبح بجانبها رنا إليها بنظرة مستفهمة مذعورة ،و خليل الذي لم يتجرأ يوما على لمس يدها لأي سبب حتى في ذروة شفقته على متاعبها بتوجيه من تربيته المحافظة ، شدّ قبضته على معصم يدها دون أن يقول شيء ،و فعل

ذلك بشكل أوجعها كثيرا ، مما جعلها تصدر تأوهات متألّمة مكتومة،و لم يبد أنه يعبأ بعدم لياقة تصرفه بلمس يد فتاة يدرك جيدا أنها واحدة من الفتيات اللاتي لا يسمحن بذلك لرجل غريب ، وأسرع مما يمكنها، جذبها و مشى بها الخطوات المتبقية إلى الطاولة، وكان بمقدورها أن تحلّل النظرة الخاطفة التي رمقها بها، لم تكن نظرة رجل متلهّف يقتله الحنين لرؤية فتاته التي لم يرها قرابة السنة، ولا نظرة رجل هازئ ساخر بالورطة التي وقع فيها سابقا كتلك التي أبرزها في السجن، وأيضا لم يبد أنه ينوي إجلاسها بالسرعة الفائقة على المقعد بغية تأمّل ملامح وجهها، لم تكن أيا من تلك، كانت مجرد نظرة استفهام ممزوجة بالرعب، لكن رعب من أي شيء؟ و بدا عليه أنه في عجلة من أمره ليسأل عن شيء خطير، و أن وقته ضيّق, هل سيقبض عليه؟ أهو فارّ من مطاردة الشرطة؟هل أقدم على إهانة مسؤول آخر؟،لا ليس هذا و لا ذاك، باعتبار أنه لم يلتحق بالعمل من جديد.

استوضحت بينما كان يجرّها من يدها متألمة من قبضة يده "خليل ما الأمر؟".

_"اجلسي "قال بصوت آمر، بعد أن أصبحت عند الطاولة و عيناه تلتهبان بغضب ساطع "بسرعة، اجلسي ".

فأذعنت للأمر و جلست و الأفكار تتشابك في رأسها كخيوط متشابكة

"هناك أمر ينبغي أن تنفيه بسرعة، و إلا فإنني سأفقد عقلي " .

استطاعت أثيل أن تلاحظ الآن أن عينيه كانتا حمراوين، محشورتين ضمن دائرتين داكنتين، دلالة على أنه لم ينم طوال الليل، كانت نظرته مظلمة كأنها سحابة قاتمة و وجهه شاحب كوجوه المصدومين، وشفتاه مبيضّتين من الخوف وأنفاسه مختنقة، لكن ما الذي أصابه؟قال أنه سيفقد عقله.

_"لقد وصلتني رسالة لعينة عند الساعة العاشرة عندما عدت إلى البيت ظننتها أنت، ولكن المرسل الحقير كان شخصا آخر، تخرّصت الرسالة بأمور خسيسة عنك، أمورا أصابتني بالجنون المسعور عندما قرأتها، لو أنه تجرّأ و واجهني و قالها أمامي لكنت قتلته دون تفكير"

عندئذ تخثر الدم في عروقها حتى أحست بانفجار قادم، وفتحت عينيها فتحة واسعة، وأحسّت أنها في جوف كتلة من الجليد القارس البارد، وخافت حتى الموت، كأن وعكة صحية عنيفة ألّمت بها: لقد عرف الحقيقة على ما يبدو، أجل هناك من تطوّع لإخباره،أدركت أنه عرف بوحي مبهم مع أنها لا تفهم كيف ،لقد عرف و هي التي أجّلت إفشاء السر الشائن إلى أن يستقرّ وضعه خارج السجن، و تلتئم جراحه الناجمة عن مكوثه ظلما بين جدرانه سنة كاملة، عرف عن طريق شخص آخر سواها، و لقد أتت تلك اللحظة القبيحة التي كانت تخاف منها و تزامنت مع أول لقاء لهما بعد

خروجه من السجن، ليس قدومها بالمستحسن أبدا. لم تعرف من قبل أن معرفته ستخلّف هذا الجحيم في فؤادها.

ما بهذه الطريقة تخيلت معرفته بسرها الآثم، كانت في عقلها قد رسمت طريقا آمنا سالكا :رسالة لا تنافسها طريقة مستحيلة كالبوح له وجها لوجه ، تتضمن :تمهيدا في البداية يصف تضاريس الفقر و تجاعيد المعاناة وإفلاس حيلة الفقراء ،كانت ستنتقل به إلى عالمها البسيط وتجعله ينخرط في بؤسها اليائس العليل، ثم بكيفية ذكية صادقة بليلة ،تستدر تعاطفه المشروع،على متاعبها القديمة وأحزانها المطمورة ،ثم ستحدثه عن فاتورة الفقر الغالية و عن قمعه المستبد ،و عن الأجساد التي عرضت للبيع وعن الثياب المنتزعة و العفاف المهدور و الحرب الخاسرة ضد الرذيلة وكيف أن العفة والحاجة تصارعتا على أرض وعرة في حرب غير متكافئة الأسلحة وانتهت العفة أسيرة ذليلة في سجن العار .

_"ماذا ذكر " سألت متلعثمة وقلبها يرتعش كأثاث في زلزال بدرجات عالية أما وجهها، فكان متصّلبا كقطعة خشب من الزان.

_"أمورا بغيضة، الذي حيرني أنه يعرف عنك كل شيء من الكنية إلى أسماء شقيقتيك وأمك ويحيط علما بحالتك الاجتماعية و مغامراتك والسيّدة سميحة،،،،و السيد الذي تعملين في مكتبته،،،" وحرك رأسه برما من استعراض التفاصيل بينما عيناه مثقلتان بذعره القانط.

كان في عينيه بريق عنيف ،مشتعل ،مخيف،و لأول مرة خافت منه حد الموت، أكثر من خوفها من أي إنسان حتى والدتها، و تأمّلت ملامحه الشرسة، و أملت أن لا يختار الله هذه اللحظة بالذات ليعاقبها على هتك حدوده إن كان لم يغفر لها،و إن كان قد قرّر أن يجازيها، ليت الله يعاقبها بيوم آخر، ليس الآن، ليس بالرجل الذي تموت حبا فيه، ليس أسوأ من هذه اللحظة إلا حادث جسدها الموشك على الغرق وسط تلاطم أمواج البحر عندما كانت طفلة و مرض أمها المزمن.

"حقير "أردف ناقما "حقير، أو ربما كانت حقيرة، لم أكن لأحفل بكلامه لولا أنه أنبأني بأمور عميقة عنك، ولهذا تسرّب الشكّ المعتوه إلى عقلي،،،،يقول أنك اقدمت على،،،، بيع"وصمت مطبقا على أسنانه، وقد احتقن وجهه من الغضب الملتهب في صدره، كان مذعورا من احتمال صدق فحوى الرسالة السامّة، و فجأة نال اصفرار ووهن من وجه أثيل كأن أوردتها فصدت مرة واحدة،وأحسّت بنوبة من الدوار و ليس لديها ما تتحدّى به هذه الحقيقة المرّة البائسة كحالتها الحالية بشكل متطابق .

_"هل أنت بخير،لقد اصفرّ لون وجهك"و وثب على قدمية و عندما أصبح بجانبها انحنى فوقها، بينما تسمرّت عيناها لا شعوريا في نقطة ضبابية خلف القضبان الحديدية كأن الحديقة

باتت سجنا ،تنظر دون تمييز لماهية الأشياء أمامها و قد جمد كل شيء فيها لكأنها تمثال منحوت، لكأنها في غيبوبة عاجزة، إنها لحظة وحشية في حياتها.

وتراقصت الأشياء أمام عينيها، أكانت امرأة التي تنظر إليها أو رجلا،أو أنه موقف الحافلة !!ماذا يكون ذلك؟ و فيما يهمها الفرق بين الثلاثة؟ ألا تزال حية أو أنها ماتت الآن و هي تقابل مناظر العالم الآخر !!حتما لم تمت،كانت يداها الآن باردتين كالثلج. وعندما كان ينادي باسمها بصوت قلق متسائل عن الذي حلّ بها، تسرّب الإدراك إلى عقله بطيئا متخاتلا كالسم بطيء المفعول، وبحركة واحدة استقام في وقفته كأنه تلقّى طعنة في الظهر وعاد إلى مكانه منفعلا مرتعدا، ليقابل عينيها في نظرة مبتهلة متضرّعة ،متوسّلا إياها نفي المحتوى، وسرعان ما حملقت إليه بنظرة بائسة معتذرة شرحت كل شيء فنطق بصوت ضعيف متوسّل لرجل مصيره معلق بكلماتها

_"ليس صحيحا" لو لم يكن رجلا لبكى "أليس كذلك؟، إنه يتخرّص الأكاذيب عليك ".

و أحست بحريق في قلبها، ليتها ماتت قبل أن رأته على هذه الحالة، ليتها لم تأت إليه أبدا، ليتها تركته ينتظر إلى الأبد معتقدا أنّها كائن وهمي غير موجود، ليتها لم تعرفه، ليتها لم تشفق عليه ذات يوم، فقد توضّح لها أن منظره مقعدا وحيدا بين جدران الغرفة المعتمة لن يكون أكثر بؤسا من منظره الآن، و هو يرنو إليها بعينين ناطقتين بالشقاء و الألم و الرجاء و الخيبة والخذلان الضليل، عينان تتخاطران ضد الافتراء والكذب و الاتّهام، وحطّم قلبها مشهدُه اليائس، فنكست رأسها ساكبة الدموع ضاغطة بيدها على فمها كيما تكبح صوت نشيجها

"ماذا يعني هذا؟"سأل بائسا ، مسترشدا بعلامات الفهم المتقدمة نحو عقله .

واعترفت بصوت خفيض غير واضح، كأنها تهمس لنفسها وشوارد الذعر تتدافع كجيش زاحف، لم تتخيّل يوما أن مصارحته بالحقيقة صعبة كمصارحة مريض بمصير الموت المحتّم

_ "كنت مضطرة، مضطرة "

_"ماذا قلت؟،أعيدي الذي قلته،ماذا قلت؟"،كرر العبارة بنبرة ثابتة تلامس البرود تقريبا، ثم أمسك عن الكلام.

فلم تقل شيئا، فهو لم يسألها ليتأكّد من جوابها ،لقد فهم قبل أن تبلغه إجابتها، و ارتفع صوت بكائها يبتلع السكون اللاسع من حولهما، و لم يخطر في ذهنها أن تبحث هوية الشخص أو تسأل نفسها عن هذا اللئيم، الحقير الذي يعرف عنها كل صغيرة و كبيرة و شغل نفسه بصورة كريهة حقودة بتدمير صورتها ،و رفع الستار عن آثامها، هذا الشخص القميء الوضيع متحجّر القلب ذو النية الغادرة، الآن ينبغي لها أن تبذل كل طاقتها و تكرّس الوسائل و الأساليب لتخفّف من هول الصدمة عن حبيبها، و بكل ما أوتيت من قوة ستدافع عن نفسها ،و تشرح له مستميتة

مبرراتها الفعلية، لن تخسره مهما حصل،أجل أجل، ستمرّ الصدمة البتارة و عندئذ سيتاح لها المجال الخصب لتوضّح و تبرّر و تشرح و تزاول مهمتها كخطيبة مقنعة، لكنها الآن عاجزة عن شيء آخر إلا البكاء العاجز، و عندما لم يعد يصدر عنه أي سؤال أو صوت، رفعت بصرها الذليل الخجل ببطء متردّد و زحف متهاديا متراخيا حذرا ،فوقع على وجه تلاشى منه أثر الدم الأحمر فأصبح شاحبا كوجوه الموتى، و فمٍ فاغرٍ فغرة دائرية من الصدمة، وعينين معذبتين مسلوختين من الألم توزعان النظرات عشوائيا خلف جسدها المرتعش دون أن تحطا مرة واحدة على وجهها الباكي ، مفكرا في كل شيء و أي شيء و لا شيء.

عاهرة ماجنة رخيصة :هذه الألفاظ التي تخلّلت السطور الاثني عشر، باعت شرف عائلتها وشانتهم بالعار، ليس مرة أو اثنتين و لم تعرف رجلا أو اثنين فحسب. لا، رجال بعدد شعر رأسها تنتقل من أحضان واحد لترتمي في أحضان آخر، و بينما هي تخطو خارج شقة الفسق والمجون والرجل يطري مفاتنها، شفتاه تودعان شفتيها بقبلة مفعمة باللذّة والحنين الرومنسي، تفكر مغرورة بجمالها في شقة أوسع، و أفخم أثاثا، ورجلا أرفع مقاما ،متعذرة بمرض أمها ،الفتاة التي أوهمته أنها أكثر فتيات الدنيا عفّة وطهارة، أبدعت بنفاقها العذري لعب الدور، التي كانت وجنتاها تتخضبان بلون الدم الأحمر كلما قبضت عليه يمعن النظر فيها، كلما أطراها بكلام لطيف عذب. عاهرة مجرد عاهرة مغناج تصطنع مظاهر الشرف والطهارة.

وكان قد بحث في عقله عن مسوغات مقنعة لرفضها الزواج منه، فلم يتعدّ فهمه لبواعثها إلا دينا ثقيلا يقتضي إيفاءه، أو المسؤولية المقدسة نحو العائلة المكونة من نساء وحيدات عاجزات ،متلاحمة مع خوف من الزواج و الارتباط، أو الفارق الاجتماعي الغبي الذي تعلّق عليه الفتيات أهمية كبيرة، ما أشدّ ما كان أحمقا و هو يسوّغ رفضها بالحجج القائمة على نبل قلبها وحسن تقديرها للناس من حولها،ما أشد ما كان غبيا و هو يثبت الأشرعة في نصابها الدقيق كيلا تتحطّم السفينة إلى أن تبلغها، ما أسوأ ما نكلت به و هو الذي أمضى الليالي اليقظة يخطّط لحياتهما القادمة معا لاسم أول طفلة يرزقانها، كان يحلم أن تتحلّى بجمال أمها الفتّان و تملك وجها أبيضا كالرخام كوجهها، وعينين سوداوين كعينيها، ما أفظع الأسلوب القذر المستهتر الذي تبنّته سعيا منها لتسخر منه. ولم يعرف السبب، ولكن خطر على باله بيدق على رقعة شطرنج و لعبة الدحاحل،و زهر النرد أثناء قذفه في الهواء ،و تذكر الطائرة الورقية، وفئران التجارب .أمور كثيرة لم يعرف لماذا تذكرها الآن .

كأنه كان مقتولا مترنّحا وفي الدورة الأخيرة قبل السقوط الحاسم، يكتشف اكتشافا صادما. القاتل هو حبيبه، صانع البهجة في قلبه، الشخص الذي وعده بالإخلاص الأبدي والحب الوفي،

حفّز فيه حب الحياة و ابتسم له ابتسامات التقدير والمحبة والعشق المجنون، علّمه أن كل حب وفقد سيعوض، اكتشاف مر قاتل كاكتشاف يوليوس قيصر لخيانة بروتس، واكتشاف شمشون لخيانة دليلة.

تلك النظرة المخمورة في عينيه حطّمت قلبها، وجعلته كالخرقة الممزّقة وحولّته إلى مدينة خاوية مهجورة قاتمة الأسوار مخربة البنيان، تلك النظرة تذيبها، تشعل جوفها، تكسر جوارحها.

وتمنّت مكلومة لو يسعها ضغط رأسه على صدرها و أن تمسح بيدها الأنيسة على شعره مخبرة إياه أنها تشعر بالألم الذي يحرق قلبه، وأنه على مستوى متكافئ مع ألمها، إن لم ينلها أبلغ وأفتك منه، بماذا يشعر الآن؟ هل يكرهها، هل يتقزّز منها، هل سيفهمها؟، وفتحت فمها لتتكلّم وبنبرة ضعيفة كنبرة المشرف على الموت قالت:

"خليل ".

وطرق صوتها البهيّ الفاتر أذنيه فعاد بصره الشارد إلى وجهها الشاحب ،فدقق النظر فيها متسائلا ،إلهي كيف يمكن لهذا الوجه البريء أن يخفي ساقطة ،إلهي كيف لهذه الملامح الرقيقة أن تخون و تخدع وتتلاعب،إلهي كيف لذاك الفم الجميل أن يكذب؟، وانساق لهنيهة طويلة إلى الغوص في تاريخ معرفته بها،إلى رسائلها و لقاءاتهما ونظراتها وأساليبها ومزاعمها الشريفة فطاش عقله و ثارت غرائزه و رأى في وجهها رجلا أحمقا و فتاة لعوبا و حطام أحلامه ونهاية كل شيء.كيف استطاعت ؟كيف تجرأت ؟.

وما عتم أن ضغط على عينيه بقوة كأنما يود طرد الصورة المسخ من عقله، كمن استيقظ من أعماق حلم رهيب مفزع بمجرد أن هزّته يد رحيمة حنونة، وكانت تعابير وجهه صفحة بيضاء ،فاستعصى عليها التنبؤ بما يدور في عقله، و لأنها اعتبرت الخيبة و الخذلان شعورين طبيعيين، فإنهما لا يخطّان أي سطور من شأنها أن تسوّد البياض الناصع.

"لا تبكي" أمرها بصوت تكتسيه برودة فولاذية وعيناه نصف مغمضتين، "لا تتكلمي"

"دعني أشرح لك كل شيء،،" قاطعها في منتصف الجملة ضاربا بعنف على الطاولة بقبضة يده المشدودة، كانت أوداجه منتفخة مرعبة،وعاد الدم يتجمّع هائجا في صدغيه وصوته ترتفع حدّته في نبرة شرسة عدوانية قصفت أذنيها فارتعشت رعشة شاملة، بينما عيناه غنمتا بنظرة دموية وحشية "ألا تفهمين!؟ قلت لا تتكلمي، اصمتي و إن لم تخرسي صوت البكاء ذاك فأقسم أني سأخرسه بطريقة تتذكرينها ما تبقى من عمرك "و ثانية ضربت يده الخشنة العصبية على الطاولة، اليد التي أنجى أثيل من بطشها وترك كدمات و جروح عميقة على جلدها أنها فتاة.

فخنقت بكاءها بسرعة محاولة السيطرة على رعشان جسدها تحاشيا لزعيقه الثائر" ولا كلمة واحدة دون أن أطلب إليك الكلام، ستشرحين لاحقا عندما يحين الوقت، لا أستطيع تحمّل سماع صوتك اللعين، لم تشتغلي في مطعم أو محل، لقد كذبت علي بينما كنت تنظرين في عيني، ورغم علمك أن الكذب أكثر صفة أمقتها وأستهجنها، إلا أن معرفتك لم تشكّل أي فرق، كانت خالتي على حق عندما سألتني ماذا تعرف عن الفتاة؟ كم كنت أحمقا عندما أجبت متباهيا أنني أحيط علما بكل صغيرة و كبيرة بحياتها، لا تهزّي رأسك استنكار "و كزّ على أسنانه "مهلا، هل تعتبرين قضيتك الوضيعة خطأ بسيطا يجوز إخفاؤه، لا تحاولي أن تتكلّمي، أحذّرك لست في مزاج مريح لأسمعك، اخرسي " الخيبة تخرج أسوأ ما في الإنسان و تجعله مجنونا غير مكترث لما يقول أو يفعل،

لم يكن هذا خليلها الرجل المسالم الهادئ،الذي يثيره ألمها فيتراجع عن كلمة قالها أو حركة مكدّرة تجرأ عليها دون وعي منه، الذي يحرص على عدم جرح شعورها المرهف أو تكدير صفو مزاجها، الذي يهيء لمسامعها أطرب الكلمات و أقواها عذوبة متطّلعا إليها كجوهرة متألقة وماسة غالية، لقد كان مثالا مقاربا للرجل المطعون في شرفه الذي قبض على زوجته مضطجعة في سرير بيته مع رجل آخر، و بينما هي تشرح موقفها لم تجد ما تبرّر به فعلتها إلا خسّتها و قلّة شرفها. الرجل الذي يريد أن ينتقم لغرور الذكر الغريزي فيه، و كبريائه المشروخة.

وبعد دقيقتين بعد أن تخلّى عن هيئته المصدومة الحانقة، واستولى عليه هدوء زائف وحقد مستور، دسّ يده في جيب معطفه وأخرج علبة سجائر وقداحة، ومن العلبة سحب سيجارة بينما كان يراقبها من تحت أهدابه و وضعها في فمه ثم أشعلها، الأمر الذي جعل فمها يفترّ من الدهشة، فهي لم تعلم مسبقا أنه يدخّن، و بينما هو ينفث ذيلا أفقيا من الدخان نحوها بحيث جعلها تسعل علّق بنبرة يشوبها التهكّم .

"هيا يا أثيل، ليس أخطر من سرك الساقط "فصُعقت و أطبق ألم مميت على قلبها إلا أنها تجاهلت، ساقط!! ساقط !! ماذا يريد أن يثبت الآن ماذا ينوي؟سيهينها إذا، إنها منهجية باردة جافّة يختارها الرجال بغية الثأر لكبريائهم الذبيحة، تعمل لصالح تخفيف وطأة الألم عن كاهلهم، الإهانة والإذلال والإساءة و التجريح. فليكن له ذلك، إن ما كان يريحه و يطرد الغضب من عقله، كان عليها أن تتحمّل ذات يوم، و كون اليوم استعجل القدوم، لا يعني أن ردة الفعل ستتغيّر ،على أنها تثق بنظرية واحدة،الحب يصنع المعجزات،، الحب يفتت العقبات،الحب سيّد ونحن عبيده، وما هي إلا إهانة أو إهانتان و يشفق عليها ثم يقسم متألّما نادما أنه لم يعن حرفا مما قال، وأنه يحبها إلى الحد الذي فقد عنده السيطرة على أفكاره وكلماته و أعصابه، ستتحلّى بالصبر إلى أن

يطلب إليها التبرير، وعندما تبرّر سينقشع كل الضباب، ثم صائحا بأعلى صوته سيعترف أنه يفضّل أن يتخلّى عن حياته و لكن ليس عنها.

بدت خاضعة مقهورة، لقد قرعت تلك الحركة قلبها كالسهم وأعادت إلى عقلها ذكريات مريرة، كان يدرك أنها شهدت هذا الموقف من قبل فعمد إلى تذكيرها إن كانت قد نسيت، .حركة تفتعل لإهانة الساقطات.

وفجأة صفّر تصفيرا طويلا كأنه لا يعبأ أو يهتم و كأن افتضاح حقيقتها لم يزد عن حد أنه أيقظه من غفلته ،على أنه لم يتسبب في إيلامه،كان يبدو كرجل بارد الأعصاب عديم التأثّر،حيث أن المعرفة ليست إلا إضافة عادية متوقّعة، و أن الفتاة التي كان مستميتا للزواج منها لا تشكّل أي فرق ولن تشكّل حقيقتها الماجنة أي فرق مثلها، صفير يسرد قصة الحب الخائبة الخائنة بلحن ساخر مستهتر، إن صوت صفيره ينفذ إلى أذنيها كصوت المدفع، و ناجته عيناها كما تناجي المتهمة المظلومة قاضيها، و ودّت أن تضغط يديها على أذنيها و رجته بلهجة دمثة مؤدبة:

_"أرجوك يا خليل " أملت لأول مرة أن ينصرف و يتركها لوحدها،أملت أن يكون أي شخص إلا خليل، لا يبدو مطلقا أنه سيتزحزح من مكانه حتى لو ركعت عند قدمية.

_"هل أزعجك صوت صفيري؟ "سأل هازئا ووجهه تعلوه مسحة من الاستخفاف بها "إنني آسف، لأنني جرحت شعورك، متى كنت تنوين إطلاعي على النبأ السعيد، بعد الزواج؟خطّة محكمة، هكذا تضعينني أمام الأمر الواقع، ولن أستطيع تقبّل الحقيقة المشوهة كما هي، وإن ما أنا منحتك الطلاق فذاك يوم حظك، ستمحين من سجلّك المغامرات الآثمة على شراشف سرير غرفتي ، وتخرجين من منزلي الفتاة المطلقة الشريفة ،ثم تنطلقين في رحلة زواج آمن ساترا للمخازي القديمة، لن يفسّر أحد أني طلقتك نتيجة اكتشافي بدعتك الشائنة "فاتّسعت مقلتاها غير مصدقة، وبدأت أسوار نظرية الحب الصانع للمعجزات في الانهيار، غير أنها لم تلتفت لتشاهد المشهد المهوّل، بل فسرت أنه مجرد ضجيج حزنه المكبوت، بمقدورها أن تقاوم لأجله، لقد تحمّلت من المعاناة مالا يصدّقه عقل، ومرّت على رأسها مآس لا يستوعبها إنسان، ونالت من الإذلال والإهانات خلف الأبواب الموصدة حيث تبدو إهاناته نوعا من الإطراء الحاقد فقط، وظلّت تحدّق إليه بعينين مستسلمتين هامدتين دون أن تنبس ببنت شفة، وبعد أن نفث دخان السيجارة بشكل لولبي استأنف

_"كنت خيارا ملائما،حيث أن استدراجي إلى الفخّ المنصوب سهل كاستدراج فأر بواسطة قطعة جبن عفنة، كنت مقعدا بائسا عاجزا. إن الأشقياء يستسلمون لأول بادرة عاطفية تواسيهم، وأنت كنت مذهلة عندما صمدت سنة بطولها ترسلين رسائل تتضمن أرقى أنواع العاطفة البشرية

وأفضل أصناف المواساة، وعندما كنت أنتظرك هنا خطرت لك فكرة عظيمة، دعيه ينتظر كالأبله شهرين أو ثلاث وهكذا سيقدّر أنني لست فتاة متاحة سهلة المنال، بل فتاة صعبة ، وكان أداؤك مذهلا مدعاة للتصفيق الحارّ، أقنعتني أنك أكثر فتيات الدنيا عفة وطهارة، ولكونك استعملت وجهك الفتّان ،سهّلت المَهمة على نفسك، أما عندما دخلت إلى السجن أفسدت خططك، ملعون ذاك السجن !!"قال على لسانها "واضطررت للانتظار سنة كاملة و عندما خرجت، قلت لا،، ينبغي أن أجعله مجنونا بي، وليس إلا الرفض المتواصل يخضع كبرياء الرجل بحيث تسيطرين علي كليا "ثم استحال الاستخفاف تهديدا "احمدي الله أني لم أتزّوجك بعد يا عزيزتي، لأنني في اللحظة التي أميط فيها اللثام عن عارك كنت سأقتلك مباشرة "لم يكن واثقا من روايته الجديدة، ولكنها تعزل الألم المضطرم في زاوية محدّدة بحيث يسهل القضاء عليه، أما عبارته الأخيرة عن القتل، فهي إنهاء للأحلام الشريرة التي كانت ترسمها في خيالها، و انتقام آخر بارتداد أملها خائبا بواسطة رسم الصورة الكاملة لمستقبلها المظلم .

_"كنت سأخبرك "أسرعت عاجزة تدافع عن موقفها تكبح دموعها لئلا تثير عصبيته، فأمرها أن تصمت بحركة مهينة من يده فالتزمت الصمت كارهة .

_"حان أوان الاستجواب"وازداد العنف في صوته، يحمل في عينيه شرا وكراهية و شيئا يشبه الرغبة في قتلها وتمزيقها إربا إربا، شيئا مثل الغضب القاتم "لا تحاولي أن تكذبي لأنني سأدرك أنك تكذبين وحينها،،،، دعيني لا أحدّثك عن جانبي السيء،ربما تودّين اكتشافه بنفسك "وقذف عقب السيجارة على الأرض على نسق مبتذل ثم صوّب نحوها نظرة عصبية

_" لا أعرف إن ما كانت الحقيقة أو كنت تكذبين كما كذبت في نواح أخرى، كانت أمك في روايتك المزيّفة امرأة مستقيمة و عظيمة، و لم تكن تسمح بانفلات بناتها. حسنا، قلت إنّها تنزعج من سلوك السيّدة سميحة، كيف سمحت لك بذاك العبث؟".

_" لا تعرف" ومجددا غضّت طرفها، وتنازلت رجفة يديها لصالح شفتيها .

_"ممتاز "قال بحرارة" ألم تكن مهتمة بمعرفة أين تقضي ابنتها الليالي التي تغيب فيها عن المنزل، أو أن الكذب كان ينجز المَهمة مثلما فعل معي؟؟ "

رغم أن كلماته طعنتها إلا أنها تجاهلت الإهانة، كانت تعرف أنه يتألّم، ولكن لا يزال هناك إمكانية لمراجعة نفسه، سيندم لاحقا عندما تبرّر له،سيحلّ الحب كل العقد.

_"لم أقابل أي رجل بالليل "أجابت بصوت متقطّع بينما تحاشت النظر إليه، لم تشعر بالعار في حياتها مثلما شعرت به الآن، و لم يكن موضوعا قابلا للبحث معه على أية حال، لكنها مضطرة إلى الإجابة .

_"متى قابلتهم إذا؟"

_"باليوم العادي، أقصد النهار " و شعرت بإذلال مميت

_"اوه النهار" سخر منها بضحكة انفجارية، بينما تصدّع وجهها و بينما قال بغير يقين" إن ممارسة الجنس بالنهار مفيدة، توصلك إلى ذروة المتعة ،و يقال أنها تقلّل من إمكانية حدوث الحمل، أقصد أنها لا تنتج اللقطاء،معلومة علمية غير مثبتة،ربما أتأكّد منك إذا كانت المعلومة صحيحة أو خاطئة، أنت لم تحملي من قبل نتيجة ممارسة الجنس بينما ضوء النهار يغمر الغرفة".

تحوّل وجهها من متصدّع حزين إلى منقبض مشدوه، أي هراء هذا !؟،أية ألفاظ شنيعة هذه التي تجلس لتسمعها، ممارسة جنس!! لذة!! حمل !!والله لن تبقى ثانية أخرى وتسمع ألفاظا مقذعة كهذه و استعدت للمغادرة، فالتقطت حقيبتها و تحرّكت في مجال المقعد لتخرج منه غير أن قبضة شديدة أجلستها مكانها، فقد كان أسرع منها بالتقاط الحقيبة ونقلها إلى جانبه .

_" إن ما تحرّكت من مكانك مرة ثانية،،، "هدّد محذّرا "سأقول ما أريد، وستسمعين ما أرغب في إسماعك إياه،ستبقين هنا إلى أن أفرغ من حديثي ".

عندها شهقت و خافت خوفا مميتا، ليس بمقدورها أن تسمعه يذّلها وتحتفظ بأعصابها هادئة، ثم إنها لا تسمح لنفسها بالبكاء، بينما هي لا تحتاج شيئا أكثر من سفح الدموع، كانت عيناه حقودتين ، تلتهبان بنظرة حمراء بلون الغسق و منظره كمنظر حيوان مفترس و لكن جريح يهاجم عشوائيا ليدافع عن نفسه و ينفس عن عجز كامن:

_" أما الأب فمن نعيم حظه أنه مات، قبل أن تلطّخ ابنته العفيفة شرفه، و تجعله مضغة في الأسرّة، إذ كيف كان رجل محترم ليشعر عندما يبلغ مسامعه صنيع ابنته المصونة، سينهار"أو لو لم يمت الأب ،كانت لتلوث نفسها: فكرت " أما إن كتب له عمر جديد سيقتلك حتما،لا تحاولي أن تشرحي، كوني على يقين أنني أعرف ما تودّين قوله، فقط أبقي فمك مغلقا، السؤال التالي "و زالت أمارات الغضب من وجهه و حلّت محلّها سخريته الأولى

_"السيّدة العزيزة سميحة،هل تعرف؟".

_"لا " أجابت دون تردّد "لا تعرف".

_"لماذا لم تخبريها؟" سأل وابتسم مستخفا بها

ابتلعت أثيل ريقها بمشقة، وتنهّدت ثم أغلقت عينيها و سرعان ما أعادت فتحهما كدائرتين يطوف بهما شبح الخوف، لم يكن يسأل ليحصل على جواب بعينه، كان فقط يسأل ليهينها ويدهس على كرامتها، من المستحيل أن تخبرها لأنها خافت خسارتها، خشيت عدم تفهّمها

_"هلا تدعني أشرح لك، أتوسل إليك "إنه يسدّ الطريق أمامها لتشرح موقفها

"ألم تكن تحبك أكثر من أي شخص في الدنيا؟مثل ابنتها من دمها ولحمها؟ ليست أمك كي تموت من عارك، بل جارتك فقط، بماذا كنت تفكّرين عندما أعرضت عن إفشاء سرك أمامها؟ سأجيبك" وانبعث منه صوت هازىء "إنك واثقة من أمر واحد، لن تتقبّل حقيقتك القذرة مهما حاولت أن تشرحي، تلك الحقيقة التي لا يقبلها أحد، و اللحظة التي تعلم فيها ستتزامن مع طردك من حياتها وسوف تتّخذ إجراءً تلقائيا لا تناقشه في عقلها مرتين، ببساطة ستبعدك عنها و عن بناتها، لست تثقين بقدرتك على إقناعها بأن فعلتك يوجد لها مبررات، أحتار فقط لماذا وثقت في حبي أنا، وثقت أنه سيدفعني إلى فهمك و تقبّلك بحالتك بينما لم تثقي في حب السيدة سميحة، بالله عليك كيف خطر لك إمكانية زواجي منك بهذه الخطيئة التي تحملينها، كيف ظننت أنني سأغسل عارك. لو أنّك قرّرت من البداية أن تسأليني لاختصرنا الطريق، أخبريني"سأل عازما" من الذي أوعز لك أن الحبّ بوسعه تجاوز هذه العقبة؟، هل أكون أنا من بين هؤلاء السفلة الذين دسّوا في رأسك هذا الوهم؟ما أحمقني!! "و ضحك على نفسه، لأنه جعل منها أضحوكة لفتاة لعوب "أنا زرعت ذلك في رأسك، لأنني ظننت القضية أبسط من هذا بكثير، كأن تتعلّق بديون متراكمة، أو مسؤولية عائلية تقف حائلا بينك و بين الزواج، و كذلك مال اعتقادي أنك تخافين من ترك بيت والدك الذي نشأت و ترعرعت و كبرت فيه، ذلك ما حثّني على تلقينك نظرية الحب الذي يصنع المعجزات، على أن عارك ليس عقبة فحسب،لا بل حاجزا مرتفعا لا يقفز عليه أعتى أنواع الحب، وأرقاها على الاطلاق".

وجلب إليها عناده مثل الجصّ اليابس ، نوعا من اليأس و التعب النفسي، و إذا فتلك نظرية فاشلة تساقطت أغصانها عند أول عاصفة رياح، و لكن، لا، لن تستسلم بهذه السهولة، لن تعدم الفرص، و يُنتظر منها الآن أن تتصيّد فرصة مواتية لتغزو مبرراتها كل خلية من عقله، دوافعها التي ساقتها إلى براثن الزنى و الخطيئة الرهيبة، و أن الحافز كان الخوف من المصير المؤلم لثلاث فتيات وحيدات دون والدة ترعاهنّ و تشرف على حياتهنّ بعد أن قضى الأب في حادث باغ، لم يكن بمقدورها تحاشي ذلك المصير إلا عن طريق المسلك المنحرف،لن تستسلم،ستكافح من أجل كسب تفهّمه .

_"ربما تفهمني إن ما أنا وضّحت لك " قالت و صوتها يحمل توسّلا ورجاء.

فأجابها ساخطا و لاح له إصرارها على الشرح وقاحة أخرى ،كأنها تعمد إلى الاستهتار به أكثر مما فعلت و تعتبره مجرد مغفل، ضعيف الشخصية ،مجرد عجين في يدها تشكله كيف تشاء ،فاشتد حقده عليها .لا بد أن يصفع هذه الوقاحة .

_"لنفرض أنني فهمتك،ما الذي ينتظر أن يتغير، لقد حطمت كل شيء وحطمتني أنا بالدرجة الأولى، لن تفهمي مطلقا الألم المميت الذي ينهشني في هذه الثانية "و عقب جملته بابتسامة تهكمية،وجد فيها متنفسا لأحقاده "تشرحين لأجل إقناعي بالزواج منك؟،هذا الذي يشغل تفكيرك إذا، لطالما ملت إلى تصديق أن العاهرات عديمات الرحمة والحياء، لا يملكن ذرة إشفاق على الآخرين، المهم عندهن أن تمتلىء جيوبهن بالمال، أو تتحقّق مصالحهن" بمجرد أن خرجت كلمة العاهرة من فمه انخلع قلبها،و تلوّن وجهها بلون المرارة، واجهها إنسان ما بهذه الكلمة بكل ما أوتي من حقد، لكن لا الوقت و لا الزمان ملائمان لتذكر من كان، وكان تحليله لسبب تغيّر وجهها بديهيا كقراءة صفحة من جريدة

_"اعذري وقاحتي، لم أجد لك صفة أخرى تفي عملك السابق، طالما بعت وقَبضت فأنت عاهرة".

قبضت أثيل على فستانها بقبضة جامدة كأن يديها صخرتان فائقتا التصلّب، إنها ليست حقيقته، هو يعمد إلى وضع قناع عدم الاكترات تجنّبا لهتك ستر ضعفه و حبّه الكبير لها، ومع ذلك اعترفت جزئيا أنها عاجزة عن مجابهة القسوة العنيفة المنبعثة من قلبه المفجوع وسياسة الانتقام الحاقدة، مثل من تجابه إعصارا قويا بيديها الواهنتين، أو تطرق على باب منزل مهجور لن يفتح لها مهما وقفت صامدة، أو بابا موصدا مرفوض الطارق عليه مرفوضا كلص خطير أو مرتكب لذنب شنيع، كان يحاورها بلغة خشنة باردة مهينة، لغة متوحّشة كلغة كائنات الأدغال التي لا تجيد التحاور، تنقضّ على الفريسة بعد نظرة متفحصة سريعة، كان يعلّق غير آبه، يستلذّ تجريحها و إهانتها، إنه فقط يتألّم و هذه السياسة ناتجة عن ألم فائق قاهر، ستزيله كما أزالت آلاما أشد فتكا، إنه صامت هذه اللحظة، ينتظر أن تشرح له،مما لا شكّ فيه أنه يخلق لها فرصة لتدافع عن نفسها، لن تعدم الحيلة فاندفعت مصممة إلى الحلبة الفارغة لتصارع العناد والغضب و الهزيمة و كبرياءه الطريحة المهانة .

_"خليل، أقسم لك أنني لم أكذب عليك، و كنت أنوي إخبارك في الوقت المناسب، ليس بعد الزواج بل قبله،لو تعرف يا خليل كيف كانت تلك الأيام، لو تعرف حجم العذاب الذي نلته".

_"لا أعرف، و لا أريد أن أعرف" قاطعها بجفاء هازا كتفيه بغير اكتراث.

_"لا بأس، يا أثيل"نصحت نفسها، و راحت تشجّعها "واصلي"،إنه الآن لا يقاطعها بسخرية على الأقل، و فضلا عن هذا إن الغضب المغلّف بالبرود قد شرع في التبدّد .

_"كان المبلغ المطلوب لعملية أمي كبيرا "أردفت متغاضية عن جفائه وبرودة تعامله" أكبر مما تستطيع طالبة معدمة فقيرة أن تؤمنه،و قالت يومها موظّفة الاستقبال: عليك أن تودعي المبلغ في

حساب المشفى وإلا أنهم سيخرجونها، أين كنت سأذهب بها؟!"و أجهشت بالبكاء، وقطع هذا صوتها، وبدا وكأنّها إنسان بائس تعب، حكم عليه بالهزيمة و الخسارة،و لكنه يبذل ما يستطيع لينهض ويقف على قدميه، وعندما فعل و مشى قليلا عاد فتعثّر وتلا ذلك سقوط وانبطاح، وخانته قدماه فزحف على بطنه ليصل إلى الهدف المنشود، كذلك رأت هي نفسها في وجهه الساخر.

_"وفرت جزءا بسيطا من المبلغ لإجراء العملية في اليوم التالي، ووعدت بدفع الباقي قبل أن تغادر أمي المشفى ".

_"بعد أن بعت جسدك على دفعتين!! "و لاح على وجهه تعبير شبه حزين، بينما سخرت شفتاه بابتسامة ناقمة.

_"ثم تلا العملية مستلزمات كالأدوية و الأشعة والتحاليل " الآن هي مثل التلميذ الغبي المراد منه إعادة الواجب المنزلي قبل انقضاء ساعة الدرس، و زملاؤه يضحكون عليه، و المدرس يسخر منه كلما وجد لذلك سبيلا، على أنه مصمّم عازم "ثمنها يقصم الظهر،كان الحال المرمّل يستلزم أقرباء ميسوري الحال، و هم غير متوفرين، كنا محاطين بجيران فقراء ،أحوالهم المادية يرثى لها، لم تغط حتى ربع نفقات مستلزماتهم الحياتية، قدموا لنا الدعم و الكلام المواسي و التربيت على الأكتاف والزيارات للبيت من أجل الاطمئنان على أحوال ثلاث بنات وحيدات، أجل يا خليل وجدت نفسي في مأزق مزر لا أتمناه لأحد. أنت لا تعرف شعور أن تصرخ أمك من الألم و يتباطأ نفسها فتظنّ أنها ماتت "لم يكن ينظر إليها بل راح ينقل بصره في الحديقة غير مكترث ،بل مالت إلى أنه لم يكن يستمع لها ، و فجأة لوّح بيده مبتسما لفتاة صغيرة قائلا بصوت ناعم: كيف حالك، تبدين جميلة اليوم، و ردّت الفتاة بصوت طفولي ظريف: أشكرك، كدلالة حاسمة على عدم اكتراثه و سحقت الحركة قلبها، و غمرها إحساس بالإذلال الشديد وانحطاط الكرامة، وانعدام القيمة، شعور ماكر قاتل مألوف ،ثم سرعان ما أخرج سيجارة ثانية و أشعلها و فورا لازمتها رغبة صارخة في البكاء، و اشتعلت فيها غصة بالإشفاق الذاتيّ كأنها متسّولة تستدرّ العطف عليها .

إنه يضعها في مرتبة متدنية و يتعمّد زرع الشعور بالمذلة، يعاملها كما عاملها رجال سبقوه بمعرفتها، و ينكّل بكبريائها، إنه يصفع روحها المحطّمة بشيء من التعجرف و الغطرسة، وما لم يشبع هذا الغرور النهم للتجريح، لن يقدر على فهم بواعثها العاجزة.

_"استمري، فكلي آذان صاغية "و نظر إليها نظرة استصغار وزود نبرته بكل ما يستطيع من تهكم و فظاظة "أحرّرك من واجب إطاعة أوامري بعدم الكلام دون إذن صريح مني".

_"و كانت شقيقتاي صغيرتين،معدمتين مثلي، تبكيان بشكل مستمر على الوضع الذي آلت إليه أمنا، ترتعشان من فكرة موتها، تلجآن إلي متوسلات بعمل شيء من شأنه أن ينقذها من براثن

الموت خاصة ياسي، كانت طفلة تحنّ إلى أحضان أمها. و لولا ذلك يا خليل أقسم أنني أفضّل الموت على إلصاق ذاك العار بنفسي إلى الأبد، ثم هبّت ريح العواصف، وطفت إلى السطح نوائب أشد ضراوة، و مرضت شقيقتي أيضا بعد أن أخذت أمي تتعافى،, و بانقطاع أمي عن العمل انتقلت المسؤوليات من كتفيها إلى كتفي، كان من واجبي أن أوفّر ،دواءً وطعاما ولباسا و تدفئة، وواجبات لا تنتهي تقتضي نقودا، و أقسم أنني حاولت العثور على حل لأجنب نفسي ذاك الطريق الرديء،و باءت كل محاولاتي في إيجاده بالفشل".

كانت كمن يقرأ كتابا مملا لإنسان يتحرّق للمغادرة لولا أنه يتحلّى بالمجاملة الاجتماعية، وتجلّى في عينيه ألق ساخر، لو أنها أغبى إنسان على وجه الأرض لم يكن ليفوتها ملاحظته وأحسّت بالتعب والمرض والخذلان في مزيج تطفو فوقه المرارة واستقطبت عيناها مسحةً من الذل والانكسار، وهمّت أن تتمّ رواية قصة معاناتها الطويلة مع المرض والفاقة والحاجة، وقبل أن تفتح فمها اعترضها غير متأثّر البتة بسؤال تمنّت لو أنه لم يُطرح، لأنه يؤيد لجوءها المتكرّر إلى أسوأ الصفات التي يبغضها: الكذب

"سؤال صغير يا أثيل،كيف برّرت لأمك مصدر المال؟ لا بد أنها سألت وحتى الجيران انتابهم الفضول لمعرفة المصدر، فهو حتما لم يسقط عليك من السماء بين ليلة وضحاها، بماذا برّرت؟، لدي فضول لمعرفة الكذبة التي ابتدعتها لتنقذي نفسك من ورطة الجواب، إنك بارعة في الكذب".

نكست رأسها و بلّلت شفاهها الجافّة مرتبكة متوترة،إنها تخاطب حائطا لا يعي ولا يلين ولا يسمع.

_"أنا أتحرّق شوقا لمعرفة الجواب "أضاف بلهجة فظّة، يشوبها الضيق مراقبا وجهها الغائر في دوامة من الارتباك.

_"كذبت عليها "همهمت متراخية بصوت غير واضح دون أن تقابل عينيه "وكذبت عليهم"

_"أي كذبة؟"سأل بعدائية، و عيناه تنطقان بالازدراء.

"دعنا منها، أرجوك".

_"أي كذبة "كرّر السؤال و هو يتميّز غيظا

_" إن إحدى صديقاتي بالجامعة تنخرط في جمعية خيرية"أجابت بنبرة متقطّعة مهشّمة" وعندما أعلمتها بمرض والدتي وحاجتنا إلى المال،عقد والدها اجتماعا طارئا و طلب من جميع الأعضاء بذل قصارى جهدهم لجمع المبلغ خلال فترة وجيزة، و قلت إن والد صديقة أخرى تبرّع لدفع نفقات الدواء والأشعة و التحاليل اللازمة ".

_"و طبعا كما هو متوقّع صدقك الجيران السذّج و الأم المسكينة، كونهم غير عالمين بحال الجمعيات، غير عالمين بغشّهم و سرقاتهم لمال المتبرعين، إنك تذهلينني يا عزيزتي الكاذبة، ترغب يداي في التصفيق"و غدا صوته مزيجا من التأثر المزيف و المداهنة و الغموض بوجهة صعبة التحديد مما أرهق أعصابها.

"جلست هنا أمامي ثلاث أشهر، نظرت في عيني، أطرقت رأسك خجلا، جعلت وجنتيك تتضرجان كأنك لم تقابلي رجلا يوما، كأنني الرجل الأول الذي نظر إليك، أتيحت لك ألف فرصة لتخبريني الحقيقة، ولكن، لا، أردت أن أحبك، أن أجنّ بك، أن أتحوّل إلى مدمن عليك ليسهل ابتلاعي لذنبك، رسمت، خططت، اسمعي إذا، الكذب لا يولد من رحم النبل والشرف، الكذب يولد من خاصرة الخطيئة و الخسّة، و الكذبة تنجب نسختها، الكذبة الأولى تنجب الثانية و الثانية تنجب الثالثة وهكذا دواليك.. إنك تلوّنين كل كذبة باللون الأبيض ظنا منك أن الناس مجبرون على رؤيتها بيضاء لكونك فتاة طيبة و مضحيّة و تنشئين من كذبتك مقالات فلسفية تضربين فيها المفاهيم و المقاييس بعضها بعضا، ثم سرعان ما تلفظين نتيجة وقحة تضعين هذا وذاك في كفة واحدة مستغلة ضياع العقل في زحمة المتاهة الفلسفية، كذبتك ليست بيضاء و لا زرقاء و لا حمراء، كذبتك سوداء ملعونة والأمر الذي لا تدركينه أن كذبتك مثل أطفال الزنى بوسعك اختيار أجمل الأسماء لهم،لكن دون كنية . "

وعلى نحو مفاجىء صاحت في وجهه بعد أن نالها التعب والعجز وأنهكها الشرح العقيم، والفهم المستحيل،و كذلك تملّكها اليأس.

_"ماذا كنت تتوقّع مني أن أفعل،ها، أخبرني أنت "و سرعان ما خفضت صوتها قليلا متحاشية دفعه إلى حالة العصبية، ليس أفظع من عودته الى سياسته الساخرة الهازئة بألمها، وتحوّلت إلى كائن واهن بالكاد يستطيع الكلام

_"ضع نفسك مكاني يا خليل،ماذا كنت لتفعل؟".

_"أن تقتلي نفسك، بدل أن تدخلي حياتي لتفسديها، إنك تتمسّكين بالحياة لمقدرتك على الغفران لنفسك، بينما لم ينبغي أن تغفري لها، من منحك الحق لتغفري لنفسك؟لو لم تفعلي لما تجرّأت على تأمّل غفراني، كيف تجرّأت؟أين عزة نفسك؟" قال ببساطة بينما جحظت عيناها من هول الصدمة، أيعقل أن يتفوّه بمثل هذا الهراء، أيعقل؟؟لم يبد عليه أنه رجل أحبها من قبل، بدا رجلا قاسيا عديم الضمير،عديم القلب، رجلا لا يأبه لها.

_"لا ألومك لما فعلته،لا يهمني،فحتى النقطة التي قّررت فيها أن تقتحمي حياتي، لم أكن لأكترث إن أنت بعت جسدك أو تصدقت به، ألومك لأنك جعلتني أحبك و أتعلّق بك، ألومك لأنك لعنت حياتي دونما إشفاق أو رحمة،ألومك لهذا ".

_"صدقني يا خليل، لم أكن أنوي ذلك، لولا أنك كنت في خطر،لقد أحببتك حبا عظيما كتمته لسنوات، و عندما علمت بأمر الحادث اكتسحني الموت، وشعرت أنني سأموت إن أنت غادرت الدنيا، و لاحقا علمت أن والدتك توفيت و أنك غدوت وحيدا مهزوما بين جدران البيت، فوطّدت العزم على إخراجك من تلك الحالة، و بمجرد أن علمت بشفائك انسحبت، وغمرني شعور خرافي من السعادة، لأنك عدت كما كنت، و فيما بعد عندما مرّت السحابة القاتمة من حياتك، أبديت إصرارا على مقابلتي، و كنت أتألّم لجلوسك هنا دون طائل و حاولت أن أتملّص من رغبتي الشديدة لمقابلتك ورؤية وجهك،الوجه الذي أحبه،و لكن،،،"

فقاطعها متما عبارتها

_"ولكن شخصا ما أقنعك أن الحب الكبير يصنع المعجزات و يغفر الأخطاء مهما عظم شأنها، لم يكن ذلك من صنع رأسك، هل هي السيدة سميحة من أقنعتك أو شخصا آخر؟،أو ربّما استنتجت من قصة محفّزة رُويت على مسامعك الحالمة، بوسعي أن أتخيّلك تنتقلين من اليأس القاتل إلى البهجة العارمة بمنتهى السذاجة" إن تفكيره صائب، ولا يسعها الإنكار فعيناها توافقان دونما نقاش.

_"لا،ليس ذلك صحيحا "و حدجها بنظرة مشمئزة "لقد تم تلقينك أوهاما لا أساس لها من الصحة، وكان ينبغي أن تعلمي بفطرتك أنه لا يوجد رجل طبيعي محترم يرضى بهكذا وضع مهما بلغ حبه للمرأة، وعلاوة على هذا سأضع في علمك أن حبي العظيم قد تراجع دون الصفر، شكرا لصاحب الرسالة، لن أسميها ملعونة الآن، فهي من فتحت عيني على الحقيقة، ينبغي أن أعيد للمرسل رسالته مع باقة من الورود، لاهتمامه الأمين بمصلحتي، لا تومئي برأسك،ألا تصدقين أنني لم أعد أحبك، كما تشائين".

سلوكه الساخر العصبي كان جزءا لا ينفصل عن الصدمة الأولى، أما الآن، فإنه يتكلّم كإنسان واع، مدرك، واثق، بارد الأعصاب، يبوح بالحقيقة كما هي، دون تزييف أو تجميل، ولكن يبقى في عقلها أن الحب العظيم لا يموت بين يوم وآخر، إنه فقط يتألّم.

_"إنك متألّم فقط يا خليل "أجابت بوهن و قلبها يخور على نسق بائس بينما صوتها شبه شائخ.

_"متألّم!!،سيحتاج الأمر إنسانا طيبا رحيما، ليفهم ألمي "قال ببؤس، دون أن يسدل ستار السخرية و عدم الاكترات و دون التنكّر لأحاسيسه، دون أن يضحك أو يغلّف نفسه بالاستهتار "ليس أنت الإنسان الذي ينتظر منه أن يفهمني،لست أنت،لم يؤذني حتى ألد أعدائي بالقدر الذي آذيتني به أنت، كنت أرى سهامهم و هي تنطلق نحوي، بينما السهم الخادع كان من طرفك أنت التي أثق بها ثقة عمياء، لقد حطمتني، أنت التي بنيتني، دفعتني للسقوط،أنت التي أنهضتني بيديك اللعوبتين و قناعك البريء الخادع".

_"إنني آسفة يا خليل، آسفة لأنني صنعت لك هذا الحزن العميق "شاب صوتها إشفاق وعطف "إنني أفهمك ".

_"لا "احتجّ وعادت الكآبة إلى صوته و تغلّب ضعفه على عدم اكتراثه، رامقا إياها بنظرة طويلة ثابتة تحمل عذابا مزّق قلبها، و جعل روحها تئن وتستعر كمدا " إنك مجرد جزّار يعتذر إلى الشاة التي ذبحها، بينما هو يراقبها تسبح في دمها كأنه يسخر منها، أو نارا تواسي الحطب بعد أن تحوّل رمادا، أو عنكبوتا ينعي الحشرة التي أسرها نسيجه معتذرا عن تطبيقه قانون الطبيعة، لن تفهمي، أن العالم من حولي قد انهار و أن الدنيا غدت بدون طعم، بدون لون ،غدت ثقيلة جدا، أنت التي سخرت بمشاعري، ولم تعتبريها إلا فطورا صباحيا خفيفا، هل تتوقعين أن كلمة آسف ستخلصني من شعور القهر و البؤس؟،لا يا أثيل، ليس بهذه البساطة، هل تفهمين أنك دنّست قلبي عندما سكنته، دنسته، و حطمته "ظهر هادئا رزينا، متحليا بتهذيبه المعتاد، مغلوبا على أمره، وهكذا سيفتح لها المجال لتواسيه و تقمع حزنه، منذ برهة قصيرة كانت فاقدة للأمل بصورة لا توصف، خائرة القوى، عاجزة كطير مصاب، أما الآن، فقد تخلّى عن عصبيته وانقلب إلى رجل بائس مقهور، تحوّل إلى نسخته الحقيقية العاجزة عن ستر الكآبة و الألم .

_"عندما توفيت أمي "أردف "لم أعد أنا، واعتقدت أن دنياي لن تعود إلى سابقتها، لم تعد رائحة قهوة الصباح تعني أن أمي استيقظت و روحها المرحة الحنونة تملأ البيت، أصبح لها معنى مختلفا، معنا أشبه برمح يستقر في قلبي كلما قفزت الحقيقة المرة إلى عقلي، ثم أتيت أنت الهدية الإلهية التي أعادت إلي كينونتي، تغيّرت نظرتي إلى كل شيء، فأثاث الغرفة لم يعد يلتحم بذكرى الراحلين الغالين على قلبي،لا،إنه لم يعد يرمز إلى شيء معين، إنه لا يحيي ذكريات أناس اجتمعوا مبتهجين ليختاروه، و الستائر لم تعد مجرد قماش يريحني من ضوء الشمس، والغرفة بوجودك لم تعد سجنا ضيقا، بك أنت كنت أواجه قدري المقعد العاجز، كنت قويا بك، بك كنت أواجه فقداني لأغلى إنسان على قلبي، بك أنت يا أثيل، أنت من سقتني إلى احتضان الدنيا من جديد و استقبال الأقرباء و الأصدقاء في ردهة البيت، كان وجودك يمدّني بنوع من الشجاعة و القوة، و

يحثّني على الوقوف، لم أع حينها أنني أحبك، كل ما خلص إليه عقلي أنك ضرورية كالهواء، والماء، أنك الضوء الذي أهتدي به لأجد طريقي، أما الآن، فلا أستطيع القول إلا أنني تائه من جديد، محطّم ، هل ما زالت بك حاجة للقول أنك تفهمين؟، إنني أشبه إنسانا ميتا. لقد قتلتني ببساطة، بضمير بارد، بروح مستخفة كأنني صرصور، أو حشرة، أشعر أنني بحجم الحشرة، سحقتني تماما ككائن عديم القيمة، لا أعرف إن ما كنت أرغب في رؤية الناس من الآن فصاعدا، الناس والأشياء الذين رأيتهم بعينيك، انهار العالم يا أثيل،انهار كل شيء، ثم "وفجأة استيقظ من غيبوبة الاعتراف بالعجز،ما هذا؟ ماذا يفعل؟ جلد نفسه، إنه يبدو ضعيفا مهزوزا أمامها، إنه يعرّي مشاعره في الوقت الذي ينبغي عليه إبداء الفظاظة والقسوة، وبينما هو ينتهي من نشره خرق مشاعره المغتصبة، رأى دمعة مشفقة حارة تسيل من عينيها، ثم تلتها دموع أخرى تترنّح على وجنتيها المخادعتين تماما ككل عضو فيها، مستغلة لحظة ضليلة ضعيفة،إلهي ما أوقحها، وعندئذ حاول أن يستدعي غضبه عليها بقدر ما يستطيع،

_"هل تحبينني يا أثيل؟"سأل بلهجة لطيفة

_"أجل، أحبك،أحبك "أجابت و هي تنشج، "أحبك يا حبيبي، إنني آسفة لأنني جعلتك تتألّم، إنه ذنبي أنا،كان ينبغي أن أخبرك و لا أدعك تصل إلى هذا الحد من الشقاء ".

_"أصدقك، أنا أصدقك،أتفعلين أي شيء لأجل أن أسامحك يا أثيل؟ هناك ما ينتظر منك فعله لأجلي" قال بصوت حنون هادئ،و ابتسم ابتسامة ودودة،و عاد الأمل يخفق في قلبها، وابتسمت هي أيضا،شكرا لك يا الله،لقد نجحت.هذا ما كان يُتوقّع منه، أن يسامحها،لقد كان ادعاؤه لموت الحب الكبير مجرد مسرحية كاذبة ،معدمة الحظ في النجاح ليبرهن لنفسه أنه ليس إنسانا عاجزا في وجه سلطة الحب، لكنه استسلم في الأخير ،إنه ليس صخرة أو حجرا، بل كائنا من لحم و دم ، و أجابته بصوت يترقرق حنوا و عيناها السوداوان تضجّان بالأمل.

_"أي شيء، أي شيء".

_"إذا ،فلن نختلف في السعر" قال، و ابتسم ابتسامة خبيثة وفاض حقده المسرور من وجهه، أما هي فقد تحجّر وجهها في ثانية واحدة وهي تتبادل معه نظرة مصدومة، في حين تشنّج فمها المبتسم المحنّط بلفائف السرور الغافر، وذبلت أزهار العفو المغرم ثم تهالكت سيقانها متسلسلة على أرض يابسة تنتحب بدمع فيّاض رعونة الإنسان الجائر، عندما أدركت ما تنطوي عليه عبارته، لجمت الصدمة لسانها فانطفأ صوتها كما تنطفىء المصابيح المضيئة .

_"هيا يا أثيل" علّق بخبث مبتسما بطريقته التي تبعث الذعر فيها، لقد استيقظ الوحش الشرس ثانية، إذ لم يتّفق لإنسان أن أشهر شفقته الصريحة أمامه يوما. الشفقة: الشعور الذي

يبغضه أكثر من الكذب و دون أن يزجرها أو يصرخ في وجهها أرجع إليها شفقتها على شكل إهانة قاصفة .

_"أراهن أنك تفتحين شهية الرجال بمجرد أن يروك، ولن أنكر أنني كنت أشتهيك أيضا،لن أكذب عليك " .

وبحركة استقرت في رأسها كالرصاصة،زحفت عيناه بطريقة منحرفة من عينيها نزولا إلى شفتيها ثم إلى رقبتها و أخيرا إلى صدرها الناهد ، واستقرتا هناك لوهلة يسيرة .

_" لا تخبريني أنك لست للبيع، إنك جميلة جدا وأنا أيضا أريدك، و كنت أكبح رغبتي إلى أن أتزوّجك، و أظفر بما أشاء، أما الآن و لم تعد إمكانية الزواج موجودة ،هل أطمع الحصول عليك بمقابل نتّفق عليه كلانا أنا و أنت؟اعذريني يا أثيل فأنا لا أعرف أسعار العاهرات، و لم يسبق لي أن خبرت سوقهن"و شعر بلذة خرافية أطفأت نار إحساسه بالإهانة ،بل راح ينشر طيات لذته بنشوة لم يسبق أن شعر بها " و لم أتمكن سابقا من الاهتمام بالمسألة ، فلم يتّفق أن تعاملت مع عاهرة أو رغبت فيها، هل أفهم من صمتك أنك سترفعين السعر،ألست تحبينني؟ سنقضي وقتا ممتعا باعتبار أنك تحبينني ".

وعلى نحو غير متوقّع كرهته،و تقهقر حبها العظيم كأنها لم تحبه يوما، و رأته بعين مختلفة نزقة مستهجنة،و بدا أمام ناظريها كالرجال المنحرفين الذين قاموا بإذلالها وإهانتها و سرقة لمعة حياتها ، وأخفقت تعويذة الحب في جعلها تتأمّل أن يغفر لها، الآن توضّح لها استحالة عفوه عنها، الآن أقصت الغريزة الذكورية كل نشاط مزعوم للحب وجهد خارق للعواطف المقدّسة، الآن خسرت الحرب بعدما خسرت معارك التبرير والشرح والتفسير و الإذلال الشخصي، الآن ضاع كل شيء و غدت مطمورة تحت طبقات يتيمة من القهر والخذلان والبؤس والعار، الآن انطفأت شمعة الحب العظيم بنفخة من الأعراف العفيفة المناهضة للرذيلة و الآثام.

كان على حق، لقد تمّ تلقين الوهم لها، لقد خدعوها، عندما قالوا أن الحب يصنع المعجزات ويزيل الحواجز و أنه قوة جبارة لا يستخف بها، عبثا تحاول، لم يكن ليفهمها لا اليوم و لا غدا ولا بعد عشرين سنة ،ولن يفهمها أحد.و فجأة نالت الدموع منها فبكت

_"لا تبكي أرجوك، لست أبتزك "علق باستخفاف مشبكا يديه خلف رأسه بينما كان صمتها مأهولا بالحسرة "ربما أحييت جروحا قديمة، هل أفهم أنك ترفضين عرضي؟،ألست تريدين النوم في أحضاني أنا أيضا؟، سأريحك إذا،ليس لدي سلوك منحرف،كنت أمزح معك،لن أقترب من عاهرة، لدي قناعة أن اقتناء الأشياء المستعملة التالفة لا تجلب أي متعة للرجل،لا أحب الأشياء

المستعملة، اطمئني لن ألمسك حتى لو قدمت لي نفسك مجانا، أنا أشمئز من جميع المستخدمات، ومنك أنت على وجه التحديد،أشمئز منك و أتقزّف ".

كانت عيناه تقطران ازدراءً واشمئزازا،هذه النظرة البشعة التي وقّعت لأجلها قرارها الحازم بعدم الزواج،مستعدة لدفع عمرها ثمن أن لا ينظر إليها بهذه الصورة.

أردف متوعّدا،و وجهه يتغمّد الكمد الذليل و يسدل الغلّ المسعور .

" لن يمنعني إنسان على وجه الأرض من جعلك تدفعين ثمن استهتارك بمشاعري "ووثب على قدميه بينما تحاشت هي النظر إليه و سيطر عليها شعور مرّ جارف باليأس، و عندما تحرّك مبتعدا عن الطاولة، دسّ يده في سرواله و أخرج قطعة نقدية ثم قذف بها على الأرض وراقبتها، وهي تتدحرج إلى أن استقرت على مسافة قريبة من إحدى قدميها .

_"إنها قيمتك، احتفظي به لتتذكّرك برأيي الصريح في شخصك، ستتذكّرك دائما أنني أحتقرك وأشمئز منك".

جلبت إليها الحركة جحيما لا يطاق،و ملأها شعور بالعدم و كأنها جارية في سوق النخاسة تباع و تشترى و تيقنت أنها خسرته فعلا و أنها من البداية خاضت حربا خاسرة ،يا ليتها لم تكن بتلك السذاجة ،يا ليتها صدقت عقلها ،يا ليتها تتفتت و تذوب و تختفي ،يا ليته لم يكن ،يا ليتها لم تكن، يا ليت الأب لم يمت، ورغم أنها لم تقابل عينيه البنيتين الفاتحين المحتقرتين في الوداع الأخير الكسيح ، إلا أنها رفعتهما بسرعة عندما استدار ليذهب، و شيّعته بنظرها إلى أن اختفى نهائيا.

لقد ذهب ولن تراه مجددا، اللهم إلا إذا اقتضت ضرورة جعلها تدفع الثمن، لقاءهما المدبّر، وتفوّقت نميمة غرور الرجل المخدوع المُستخف بكبريائه الرفيعة، و ما لم يتحوّل إلى وحش مرة ثانية، وما لم توقظه دسيسة الإهانة في وقت من أوقات الليل أو تحفّزه في فراغات النهار، أو تلعب بعقله ذكرياتهما معا و تخطر له صورته يحبها و يغازلها و يفكّر فيها بسذاجة بينما كانت تستر إثمها الخليع و تنشر عطر عفتها، وما لم تستصرخه كرامته المهانة طلبا للثأر، فلن تنعم برؤيته لمرة ثانية ولن تتلقى منه رسالة يهينها فيها و يذلّها لاعنا اليوم الذي عرفها فيه، و الساعة التي أرسلت له ترفع من معنوياته و تشد من أزره.

لقد ذهب، حاملا معه صورة وجهها الجزع، و عينيها المفجوعتين النديتين بدموع جامدة، حرصت على عدم تساقطها،حاملا معه السحنة المصدومة بعرضه الأخير،حاملا معه صورتها المهانة الذليلة، وقلبها المفطور منعكس على وجهها الشاحب.

لقد ذهب متلذّذا بقهرها، متغطرسا بطحن كرامتها، واثقا بمقدرته على النيل لكرامة الرجل المخدوع، دم ساخرا يا خليل حتى أعرف أنك بخير،كان يسخر،لكن أكان فعلا بخير !!أتراه كان يعني

كل كلمة قالها !! أو أنها كانت وليدة الغضب و البؤس و الخيبة و الخذلان، هل يمحى الحب بهذه السهولة و تنخفض درجاته بهذه البساطة؟،و أسرعت تجيب نفسها مستندة إلى مؤشرات تعابير الوجه التي لا تخطئ،"لم يعد يحبني، لقد كان صادقا عندما قالها، لم يعد يحبني، لن يحبني بعد افتضاح عاري،و كشف حقيقتي، ليس لأي رجل المقدرة على حب امرأة ملوثة غير شريفة، لقد خسرته"،ما من شك أنها خسرته دون أمل في استعادته،فنظرة الاحتقار لا تكذب حتى لو ادعّى اللسان عكس ذلك. ليته كفّ عن حبها فحسب،هناك شعور مرير أسوأ من التوقّف عن الحب، الاشمئزاز و النفور و الاحتقار.

لقد ذهب، بعد أن سحق قلبها و صنع فيه ندبة لا تزول، و بعد أن أفحم شعورها وحطّم كيانها وأهانها بوصفها عاهرة، تلك التي لا تحفل إلا بملء جيوبها بالمال، و الاهتمام بمصالحها، والجري خلف الرجال لتمنح عشا دافئا، بينما هي لا تستحق إلا الازدراء و الاحتقار. ذهب بعد أن قذف بوجهها عرضا حقيرا شلّ حركة جسدها.

لقد ذهب ،بعد أن انتزع منها دفء الحب، و قتل أملها في الحياة، و بتر يدها بحيث لن توجد لتمدها طلبا العون و التفهم من إنسان آخر، و زرع فيها رعبا كاسحا مميتا من اطّلاع الناس على شناعة ما أتت.

لقد ذهب بعد أن سلب منها احترامها المتبقي لنفسها، الاحترام الذي احتفظت به رغم الألم والمعاناة والشدائد مجتثا إيمان الفتاة المضحية في سبيل أمها و شقيقتها، مهشّما المرآة التي كانت تُجمّل آثامها، والتي تواسيها دوما بقولها: إنك عظيمة إذ ضحيت بنفسك في سبيل أمك، وشقيقتيك، وأحسّت أن الشظايا المكسّرة مغروسة في قلبها كتكفير عن كل لحظة وهم خادع انخرطت فيها.

لقد ذهب ضالّا تائها بنفس الصورة التي قادتها إليه أول مرة،مخذولا سكرانا بخمر الخيانة والمرارة والطعن في الظهر، في عينيه كراهية واحتقار، وفي وجهه المصدوم اشمئزاز و تقرف، صانعا لها جحيما لن يبرد، موقدا لها نارا لن تخبت ،محوّلا النور الذي اهتدت بواسطته إلى ظلمة حالكة السواد.

لم يكن وغدا عندما رفض التزّوج بها، فقد سلّمت الآن بصدر واسع وعقل منفتح بنظرية جديدة: الحب لا يصنع المستحيل، و لا يسوق الرجل إلى غفران الخزي و لا يحوّل الجدران إلى ضباب يسهل اختراقه.

ولم يكن عندما استدرجها إلى الاعتقاد أنه صفح عنها ثم عرض عليها النقود مقابل أن يحصل عليها، وعاد فقال إنه لن يلمس عاهرة، و لا كان عندما صرخ و صاح في وجهها،و لا عندما وصف سرّها بالساقط، ولا عندما أجرى ذاك الاستجواب المذلّ.

لم يكن وغدا عندما ضغط على جراحها بيدين عديمتي الرحمة، عندما شتمها و أهانها متعمدا قاصدا، لا ،لم يكن وغدا في أي من تلك النقاط الناقمة، لقد كان وغدا حقيرا عندما استهتر بآلامها وذكرياتها الثكلى، سخر من حالتها الهائمة على وجهها، بينما كانت روح أمها معلقة بين الموت والحياة، كانت حركة البنت الصغيرة و نفث دخان السجائر في وجهها أشد فتكا من ابتلاع حفنة من الأشواك الحادة، وحيث أنها لم تستطع إلا أن تقاوم غرورا مستبدا، خسرت عزة نفسها، و أنزلتها إلى أحقر المنازل.

ولو أنه نظر إليها من نافذة الإنسانية كما توقّعت، بدل نافذة الرجل المخدوع الخائب لأحسّ بالخجل والعار من نفسه، لأنه لم يكن يضحك فقط على معاناة فتاة وحيدة عاجزة، أجبرتها الحياة والظروف على احتمال ما لا يطيقه هو وأمثاله، ساقتها إلى التمرّد على الدين والعادات والتقاليد، بل كان يسخر من المعاناة الإنسانية، سخرية إنسان لم يواجه الخطر، لم يذق المر والبؤس، بينما يسهل أن يحكم، إنسان لم يعش المأساة بينما يستطيع أن يعطي المواعظ ويسدي النصائح. سخرية إنسان متفرّج بين حشد من الجمهور على استعراض إنسان مريض.

لو أنه أعتق نفسه من غريزة الرجل لمدة وجيزة و استطاع تصوّرها مضروبة مهانة، تطرق على الأبواب طرقا ضعيفا متألّما، و عندما تفتح لها، تدخل ليغتال جزء إضافي من براءتها ثم تُشتم وتُعامل بعنف، وتقبّل بوحشية و تقلّب بانحراف مهووس، لتجنّب بقدر ما يستطيع أن يوجّه إليها مجرد تلميح أو خدش كلامي غير مقصود، لم يحطمها لأنه لم يقبلها، بل لأنه لم يفهمها.

هل حلمت بالكثير؟ هل ارتكبت مخالفة شنيعة نتيجة حبّها له، و طمعها بالزواج منه؟كان حبها ساذجا بريئا، صادقا، حب طفلة تعتقد أن ذنبها قابل للمغفرة طالما أنه لها عذرا مقنعا وأعلنت توبتها وبارحت قدماها ذاك العالم القذر، و أن دافعها كان أصفى من ماء البحر، أهدى من ضوء القمر، وأن كذبها عليه خوفا من خسارته كان سيشفع لها تماما مثل قولها الحقيقة.

وسقى كل خلية فيها، شعورها باليتم مرة ثانية، و استعادت في عقلها هيئة الرجل الذي أنبأهم بوفاة والدها ،و عند عتبة باب الحديقة رأته يغيب، وأحست بوالدها يموت للمرة ثانية.

وانحنت ببطء لتلتقط القطعة النقدية عن الأرض و سرعان ما قبضت عليها، كأنها تقبض على عقرب سام: ستذكرك برأيي الصريح بك، ستذكّرك أنني أشمئز منك و أحتقرك، هذا ما ختم به قصة حبهما المستحكمة العظيمة حصينة الأسوار، واستحثت دموعها فخذلتها و أدركت أنها في

جوف بؤس شديد،الذي لا يمنحك دموعا لترتاح بها،ما أسوأ أن يكون المرء بائسا، وانقلب شعورها بالمرارة و الألم إلى عدم الشعور بأي شيء، واكتشفت بفطرتها السديدة ،أنها تحاول حماية نفسها من ألم آخر ناجم عن تراجيديا وداعه الأخير.

أهي تعسة؟أو بائسة؟ أو متألمة،أهي منهارة،مستنزفة؟ لقد استولى عليها فعليا برودٌ تام،لا، ليست تستطيع تحديد طبيعة شعورها، تملّكها شعور من الصعب تحليله أو تعريفه، شعور لم تخبره في حياتها أقسى من أسوأ شعور ملأها من قبل، إنها فقط تحس بالرغبة الجامحة في البقاء هنا إلى الأبد، ماذا يسمى هذا غباء؟! وفاء،جنون؟ أي شيء إلا أن يسمى تعاسة،فهي إما أنها تجاوزتها وابتعدت عنها كثيرا أو أن قلبها مات في جنازة صامتة كونه السبب الأول في فاجعتها.

ما له صامت؟هذا القلب المخادع الغشاش الكاذب،المارق، منبع الأوهام والكذب، مبعث الأحلام والخيال،لقد كانت الثانية التي صدقته فيها متعالية متغطرسة، و لم تع ذلك إلى أن وافتها لحظة دفع الثمن، ما له لا يحرّر لها دموعا تكون متنفسا لغيظها المكبوت !!ما له لا يواسيها ولا يشجّعها الآن بعد أن شهد مراسم رفضها الأخيرة !!..

فجأة ،رأت الأحداث و الصور و الذكريات جميعا تتنحى جانبا لتفسح المجال لصورة بالمرور ،لم تكن إلا صورة امرأة الحافلة ،كانت تشق طريقها بخيلاء ،بطريقة استعراضية عديمة الرحمة ،و تقدمت نحوها محاطة بأحاديثها الارتجالية الصادقة و مشاعرها المكلومة و حبها المنبوذ و آلامها الراسخة و ندوبها العميقة حتى تصدرت المشهد ،كانت تسخر منها ،لكن الشيء المؤكد أنها ليست سخرية خبيثة:طريقة عفوية للمواساة لا تعرف سواها ،تقبلت أثيل سخريتها باستسلام و رضوخ،لم تحاول طردها و لا مناقشتها و لا حتى صم أذنيها لتجنب سماع خطبتها عن الأحلام المستحيلة كأنها بذلك تعاقب نفسها لتفانيها في تجاهلها ،إنها القصة الوحيدة التي استحقت القراءة و التمعن و التفاعل و ليس قصة ابن شقيقة راضية و تخاريف سميحة و روايات الحب العظيم الذي يقفز على كل الحواجز حتى العهر ، سمعتها تقول بتلك الابتسامة الممزقة و الألم الجبار :قلت لك ،لن يفهمك ،لن يقبلك ،،،،سمحت أثيل باستحضار كل كلمة قيلت في الحافلة إلى أن أتمت و ذهبت لحالها بالطريقة ذاتها.

ولفترة زمنية غير محدودة جلست على المقعد الخشبي في الحديقة، ركبتاها الواهنتان الخاملتان لا تقويان على الوقوف، و جسدها مشلول، وعيناها ثملتان من الصدمة ووجهها كأنه وجه مجنون تحت تأثير المهدئات.

سكنت، ليس ذلك النوع من السكون الذي طالما غلّفت نفسها به، لا،بل سكون جديد غريب عنها، يشبه سكون من خسر جميع معارك الحياة، و لم يعد في جعبته ما يقاتل به أو ما يصمد

لأجله، حتى لو تعرّض لهجوم مباغت، مثل من أصبح لا يهمه الدفاع الغريزي عن نفسه. كل ما حولها يعزف موسيقى الفراق الأبدي لحبيبين أذكى الحب في قلبهما نارا مستعرة، وهاهي تحرقهما كحطب يابس.

و أغمضت عينيها تستعرض أول لقاء بينهما،هنا على هذه الطاولة، عندما عجز عن رفع عينيه عنها، واصفا إياها بالجميلة، مبتسما، رقيقا في معاملتها،عذبا في محاورتها،حذرا كيلا يجرح شعورها، مؤكدا لها أنه موجود الآن و أنها لم تعد وحيدة،سيساعدها و يفعل أي شيء لأجلها، سيزيل البريق الحزين من عينيها، سيكون ملجأها، و سيفهمها،نعم، سيفهمها،سيفهم أي مسألة مهما كان حجمها خطيرا،على أنه في نهاية المطاف لم يتمكّن من الفهم بينما تمكن من إيذاء شعورها و إهانتها و استطاب احتقارها.

واعترفت بصوت خافت محطّم "أحبه،أحبه "لا أستطيع أن أكرهه، كانت تلك لحظة هشّة توهّمت فيها أن الحب الكبير يمكن أن يتحوّل إلى بغض و كراهية،و أقرّت مستسلمة أن الحب الذي اعترفت به ذاك اليوم البعيد بين جدران السجن لم يكن إلا قطرة من بحر حبها العظيم الذي يضجّ في قلبها، تحبه حبا مختلفا عن حب النظرة الأولى و الثانية والعاشرة، تحبه حب النظرة الأخيرة التي تضاعفه و تمزجه مع ألم الفراق.

الآن و قد ذهب تساءلت مؤنبة نفسها، كيف وسعها أن تكرهه ولو لثانية واحدة، لقد خدعها الغضب و الطيش و الألم، لأنه ما انفك يهينها ويشتمها و يذلها و يصفها بالعاهرة ووجدت الإيمان بالكراهية تنفيسا ملائما لألمها الكبير.

و بينما هي تهمّ كارهة بالوقوف على قدميها، طرقت عقلها كمطرقة كلمة العاهرة تلك. كان هناك في ذاكرتها العاطلة تقريبا شخص آخر غير خليل نعتها بهذا اللفظ: ميرنا،و فجأة لم يعد هذا الاسم يعني لها مجرد اسم شقيقتها، بل يقود إلى معان خائنة مرعبة،فجلست مرتعدة الفرائص مشوّهة المعالم، وأحدثت الفكرة في جسدها ارتعاشا مدويا محركة فيها شعورا بالصدمة القاضية، وطفق الألم الضليع و البؤس الخاسف يموجان في قلبها مجددا إثر هذا الإدراك المباغت.

ميرنا التي ما انفكت تهددها صامتة بإفشاء سرها، وإخبار جميع محبيها ومقدريها بحقيقتها، ميرنا التي تبتزّها بطريقة بشعة و تلعب بأعصابها، وتغير عليها بغارات مفاجئة بطريقة مباشرة أو عن طريق تسميم عقل أمهما.

ميرنا الفتاة الأنانية القاسية النكدة التي لو استحقت في الحياة شيئا كما يفكر الجيران والأصدقاء، لاستحقت أن تبقى وحيدة كما كانت دائما.

ميرنـا التي لـو اتّفـق أن أحسـت بعاطفـة الحـب نحـو أحـد، فسـيكون ذاك الأحـد هـو نفسـها ونفسـها فقـط، و التي لـم يسـتلطفها إنسـان مـن المعـارف والجيران لطبعهـا النزق و سـلوكها المنفـر، ولـولا أن أمهـا مجبولـة فطريا على حبها تجبرهـا عاطفـة أمومية على اسـتيعاب صفاتها الشـريرة، لما اسـتطاعت أن تتحمّلها.

ميرنا التي تعتبر مسـاعدة إنسـان بحاجـة دون أن تحصل على منفعة، إجهادا لنفسـها و هـدرا لوقتها واسـتغلالا أنانيا لطاقتها، التي لم تـواس قلبا مفطورا و لم تخفّـف شـعورا حزينا، والتي قـال عنها العجوز صالح، وهو مالك البيت الأخير في ناصية الشارع: كان السيد نعيم رجلا طيبا ومحترما، كما أن زوجته امرأة أصيلة رحيمة،كيف حدث و أن رزقا بهذا الشيطان القبيح، وعندما بلغها ما قاله تعمّدت جعله يتعثّر و يقع عقابا له على نعتها بالشيطان القبيح.

ميرنا التي تتذمّر و تشتكي من ظروف الحياة، التي تخجل من آلة خياطة والدتها،المنزعجة أبدا مـن صـوتها، الخجلـة بعملهـا السـابق كمنظفة،مدعيـة متباهيـة أمـام أصدقـاء المعهـد أنهـا معلمـة متقاعـدة. ميرنـا الفتـاة قبيحـة التعامـل ذات المـزاج الزئبقـي والعينـين الجـاحظتين الحقـودتين البـاعثتين على النفـور،ذات الفـم النـاقم في وجههـا قلبي الشـكل،و لا تعتبر هـذه مجتمعـة صفـاتها البشـعة فحسـب، بل إن روحها سـوداء،و أفعالها قادمة من عقل الشيطان.

ميرنـا التي لـم يرغـب فيهـا أي رجـل،التي تُحمّـل الآخـرين سـبب فشـلها وخيباتهـا، المهووسـة بانخراطها في صفوف الطبقـة الأرسـتقراطية ، السـاخطة على النـاس والحيـاة الفقيرة، وعلى أثيـل بصـورة خاصـة، الفتاة الحقودة ذات الـروح السـوداء كما تنعتها سـميحة، والتي ترجـع دوافـع نفورهـا منها لأن أخلاق أثيل المترفعة تعوزها.

التي تعـزف لحـن تلطيخهـا لشـرف العائلـة كلمـا أحسّـت بالاكتئـاب أو الضيـق مـن مشـاكلها وحياتهـا، كانـت تجـد متنفسـا لغضبهـا وخيباتهـا في ذاك الوجـه الأبيـض الجميل،الـذي لـو وسـعها امتلاكـه بحيلـة مـاكرة أو سـرقة ممكنـة لما فكـرت مـرتين: لا تعتقـدي أنني أغـار منـك لأنـك جميلـة "قالـت لهـا ذات مـرة "فالجمـال لعنـة و بلاء،والمهـم هـو جمـال الـروح، أنـا راضـية بقسـمة الله "يـا للفكاهة،لو علم الرضا بأنه غدا أحد صفاتها لتبرّأ من نفسه قبل أن يتبرأ منها.

"أجل هي" هجسـت مصعوقـة "أجـل مـن غيرهـا، هي مـن أرسـلت الرسـالة لخليـل، إنهـا تعـرف سري، من المؤكد أنها كانت تتجسّس خلف الأبواب، لم تكن السـيدة سميحة تتوهّم،لقد كانت هي". ليس إلا حقدها الرجراج يقدم على عمل شنيع كهذا، ليس إلا هوسها بالانتقام ينزل بها إلى مستوى حقير متدن كإرسالها رسالة تفضح فيها أختها أمام رجل غريب عنهما، ليسـت إلا كراهيتهـا العميـاء تسـوقها إلى إهانـة فتـاة مثلهـا حتى و لـو كانـت هـذه أختهـا من دمهـا و لحمهـا،من سـواها،إنها هي، إنهـا

تحقد عليها و تكرهها، لم تكن سميحة إلا مصيبة عندما قالت أنها ستؤذيها ذات يوم عندما أجرت مقارنة حالتهما وحالة الأخوين هابيل و قابيل،و ها قد فعلتها، واستعادت حالتها في ذهنها عندما فتحت باب غرفتها ذات يوم فقبضت عليها تتسلّل خارجة على رؤوس أقدامها مثل اللص،،و إذا ما فرضت حقيقة بغضها و مقتها، نفسها في الميدان، فإن ذلك يقلّل من فرص نعيمها بانتظارها لتتشاركا حديثا أخويا طيبا.

أما الجواب على نظرات الدهشة لوجودها في غرفتها

"إنني أبحث عن قطة ياسي" وابتسمت يومها ابتسامة ظريفة، أبرزتها بمظهر غريب كأنها تغطّي على عمل مشين ارتكبته "لقد تعلقت بها،ليست بغرفتك".

وتذكّرت أثيل والدم الساخط يغزو عروقها، صندوق صور خليل المصنوع من خشب الورد، هدية والدها المتوفّى، لم تعثر عليه في موضعه،كان يفترض أنه موضوع تحت الفساتين وليس مدسوسا بينها، و كذلك تذكّرت أن صورة خليل يقبّل جبين أمه المقصوصة من الجريدة كانت أعلى الترتيب بينما قابلت عيناها صورته فاتحا كفيه نحو السماء عند شاطئ البحر، ويومها كذلك اتّهمت عقلها بضعف الذاكرة "أجل يا أثيل كنت مستعجلة، وعشوائيا دسسته بين الفساتين".

كيف تفعل بها هذا؟،صرخت صرخة صامتة، وثار فيها غضب مشؤوم، وضيق فوّار فاستجمعت شتاتها المبعثر ، واستعادت رباطة جأشها، و شمخت برأسها كما تشمخ ميرنا كرمز على عفتها المصون وشرفها الكامل، ستواجهها، لن تخاف منها بعد الآن، ستعطيها أسباب فعلية ميدانية لتكرهها،, وليس أوهاما من إنتاج حقدها الراشد.

الفصل الحادي عشر

كان البيت فارغا، والسكون الجاثم عليه يجعل أصوات الأطفال في نهاية الشارع مسموعة مرتفعة، إذ انضمت ياسمين الصغيرة إلى فتيات سميحة، سالي وريحان بهدف قضاء النهار معهما، وربما استدعى خوفهما بقاءها ليلا، ذلك أن والدتهما اضطرّت للسفر إلى مدينتها، بسبب نوبة مرض مفاجئة لإحدى القريبات التي كان يفترض بها الموت قبل سنة و نصف حسب تفكير الجارة الغريبة، فقد كانت العجوز مريضة بشكل لا يدعو إلى التفاؤل "ااه،لم تمت مرة أخرى، وهاهي تطلبني على عجالة، ربما ستضع اسمي ضمن قائمة الورثة، على أنني أطعن في فرضية ملكيتها شيئا ذا قيمة، أخشى ما أخشى أن تهبني خاتما من خواتمها الفضية لأجل البركة، يحتار المرء كيف تفكّر العجائز، أحتاج المال، ماذا أصنع بالبركة؟ "

أما ضربة الحظ التي خدمت أثيل، فهو غياب أمها عن البيت، فبعد ليلة شاقة من البكاء والتأثّر على وفاة إحدى الجارات القديمات الطيبات، غادرت في الصباح الباكر لتشارك في التحضير لجنازتها، مؤكّدة أنها لن تعود إلا بعد العشاء موصية بناتها بعدم نسيان إغلاق الباب، وتناول العشاء المعدّ مسبقا ، ما أشد ما بكت، ما أقسى ما تألّمت، إنها تتأثر بسرعة عندما تسمع بوفاة أحد،و يعود ذلك إلى أن مصائب الموت تثير فيها ذكرى وفاة زوجها "إن أمي إنسان رقيق القلب لا يتحمّل، رغم ما تبديه من صلابة و حزم، و لكنها تتأثّر بسهولة كما يتأثر طفل صغير ".

إذا فميرنا اللئيمة وحيدة في البيت، فليس من مكان يستقبلها لكونها لا تحب أحد و كل أحد يبادلها الشعور، واتّجهت عينا أثيل المفؤودتان إلى السلم، عينان حمراوان متعبتان، حاربتا ضد البكاء و العذاب، فلم تظفرا إلا بالخيبة، و صعدت الدرج بتثاقل تجرجر قدميها و تترنح مثل بندول الساعة ، شاعرة بألم كسير وخيبة ناضجة مكتملة، و كان حلقها جافّا و بحاجة ماسة إلى كوب ماء، وحاجتها إلى النظر في عيني ميرنا الحقودتين أعظم، لهذا تجاهلت جفاف حلقها، واكتشفت أن ميرنا بغرفتها بعد أن سمعتها تدفع كرسيها إلى الخلف، وما إن فتحت الباب حتى التفت إليها مغتاظة.

_"كان يجدر بك طرق الباب "قالت ميرنا حانقة، وهي تجفّف طلاء الأظافر الأسود الذي صبغت به أظافرها "إنني مشغولة كما ترين و ليس بي رغبة في التحدث معك ".

فخطت أثيل بتصميم داخل الغرفة مغلقة الباب خلفها، معيرة وقاحة أختها أذنا متجاهلة

_"ما هذا التصرّف الوقح، اخرجي من غرفتي" طردتها مرتعشة بإشارة من السبابة.

_"لماذا ترتعشين يا شقيقتي؟ "كان وجه أثيل هادئا و صوتها خافت كما هو المألوف "هل أتيت عملا سيئا يدفعك إلى الخوف من مواجهتي؟".

فتملّكها الذعر و أسرعت تنزل ذراعها، وأسرعت كذلك تنسّق تعابير وجهها بحيث تتجنّب انكشاف فعلتها، وفهمت أن الأمور سارت على حسب خطتها من خلال مطالعتها للوجه المتصدّع والعينين الخائبتين، فاستولت عليها سعادة دستها بين الجدية والتظاهر، وانتعشت أسارير وجهها، إن قلبها يحتفل بهذه المناسبة السارّة.

_"ماذا تقصدين؟،لا أفهم ألغازك، إنك لا تبدين على طبيعتك"

_"بل تفهمين "احتدت أثيل، و صوتها يتهشّم " تعرفين ما أقصد، أنت من أرسل له الرسالة"

_"أي رسالة ؟" أنكرت برزانة، مشيحة بوجهها متظاهرة بإغلاق زجاجة الطلاء، و بينما هي تحكم إغلاقها لتتجنّب النظر إلى أثيل، تقدّمت نحوها و عندما أصبحت بجانبها ضغطت بقوة على ذراعها النحيلة

_"لماذا؟"سألت ساخطة " كفّي عن التظاهر، أنت تعرفين ماذا أقصد"

_"أجل، كنت أنا التي أرسلتها "اعترفت بغلّ، قاذفة إياها بنظرة مهتاجة، وبريق الحقد الرهيب يضيء عينيها "أنا من أرسلت الرسالة إلى خليك الغالي" وران الصمت بينهما لدقيقة، كانتا تتبادلان النظرات،حاقدة متأججة بالكراهية والاحتقار من طرف ميرنا، مصدومة،غير مصدّقة من طرف أثيل.

_"أجل أنت، من غيرك "و أفلتت ذراعها مبتعدة عنها، مشرعة يديها في حركة تعبيرية عن الخيبة و الصدمة الجديدة باعترافها.

_" هل أفهم من حالتك العصبية أنه رفضك؟"و شابكت ميرنا ذراعيها النحيلتين تحت صدرها الضامر، يتخلّل صوتها حقد مسرور "ألم يتفهّم حبه الكبير، قصص نضالك ضد المرض والفاقة؟، دعيني أفكّر، هل كان الاشمئزاز والاحتقار هو رد الفعل الذي سبّب لك هذه الحالة النفسية الرديئة؟ "

"ما هذا الحقد؟ "قالت أثيل في نفسها، مختنقة النفس، مذهولة من الغلّ الرهيب المتجذّر في صميم هذه الفتاة، و أرادت بلهفة أن تضع نقطة عند هذا الحد، و تخطو خارج هذه الغرفة الخالية من روح الإنسانية،لكن، لا،ستقاومها،ستواجهها .

_"كان سيعرف على أية حال يا أثيل،كانت نهاية حتمية مؤكدة،و لكنك خدعت نفسك،لم يكن الرجل لك يوما،ألا تستطيعين أن تدرك أنك أتيت شناعة عظيمة،ليس ذنبا بسيطا يسهل غفرانه، زنى، زنى أتفهين!! زنى"أضافت متغطرسة نافثة سمّها كالأفاعي، كانت تشعر أنها في موضع أقوى يمكّنها من إهانتها حتى و هي مخطئة بخصوص عبثها اللاأخلاقي بأغراض غيرها، تلك العادة كم هي مقيتة؟ كم هي منفرة؟ كم تدل على رداءة الأخلاق؟ كم تدلّ على انهيار القيم و المبادئ؟،و

لكن الغاية تبرّر الوسيلة، ولن يشبع جوع ذاك الحقد إلا الانحطاط إلى مثل هذه المستويات، إنها مكروهة منبوذة على أية حال، ولن يضيرها أن تضيف إلى رصيدها المزري المملوء بنزعات الشر، لن تضيرها خسة وحقارة أخرى.

_" طالما أصررت على انتقاد تأثير السيدة سميحة الطائش عليك، وكذلك تأثير العجائز الخرفات، اعتمدت على الحب و العواطف الغبية، و طبعا قامرت بأوراق جمالك الفتّان الذي يبهر عيون أي رجل، أي رجل تقع عيناه عليك، من أجل أن تكسبي حربك ضد الشرف المثلوم، هل أدركت الآن أن جمالك بعرضه و طوله و فتنته الساحرة ليس قويا كفاية ليصحّح المسار الخاطئ الذي سرت عليه، لماذا تنظرين إلي هذه النظرة الجافة المؤنبة؟، إنني فقط تكرّمت وفتحت عينيه على الحقيقة، لن تخدعي الرجل إلى الأبد يا أثيل"

_"عندما يتعلّق الأمر بالشر و الأعمال الرديئة تصبحين أكرم الناس " أجابت أثيل بعناء تعلو شفتيها ابتسامة تعبة ساخرة "كنت أرتاب في أمرك يا ميرنا، أرتاب أنك تتجسسين خلف الأبواب، كيف تفتشين في أغراضي؟ كيف حصل أن نزلت إلى الحضيض بهذه الصورة؟ كيف تتجرئين يا ميرنا؟ كان علي أن أصدق كل من قال أنك تحقدين علي إلى الدرجة التي قد تتسببين بإيذائي".

وارتعشت وجنتا ميرنا من الغضب، ثم استدارت و خطت نحو النافذة، ساحبة الستائر بعنف، و نظرت خارجا و الغلّ يستولي على صوتها

_"تلك تحذيرات السيّدة سميحة بلا ريب، فهي تكرهني، شريكتك في مغامراتك الغرامية العابثة، هي المخطّط والمدبّر للقاءات الحدائق المثيرة، أجل تجسّست "و استدارت بسرعة رافعة صوتها دون خجل، لتقابل عيني أثيل بخبث، كانت عيناها مثقلتين بحقد شرير"منذ ذاك اليوم عندما حضرت إلى البيت وغمزتك، ارتبت في أمركما، كنتما تخططان لشيء ما، ولولا أنني خشيت على سمعة العائلة، خشيت أن تحطّميها أكثر مما فعلت، لما أقلقني اصطحابها لك حتى إلى بيت البغاء، موطنك الأصلي، ولكن الأمر يتعلّق بسمعتنا أنا و ياسي، نحن سندفع ثمن أغلاطك أيضا، إن ما أشيع خبر إحدى بدعك الخليعة، عندها لن يهتم أحد بالزواج بنا أي عائلة تقبل بنا؟، لا توجد، تجسّست "و صرخت في وجهها بينما كانت أثيل تصغي منهوكة، وعيناها تتابعان حركة الفم القبيح الكبير، الفم الوقح الكاذب "و عندما ارتبت صعدت قبلكما، و اضطررت كارهة إلى التنازل عن مبادئي، وقفت وأرهفت السمع و خلف الباب المغلق كنتما تهامسان عن رجل دخل إلى السجن، و كنت تبكين من أجله، فاستنتجت أن لك حبيبا خفيا، أما الصدمة الحقيقية، فعندما سنحت لي الفرصة لدخول غرفتك و تفتيش أغراضك، كان ذاك الصحفي المدعو خليل الذي أهان الوزير، إنه لا يعجبني بالمناسبة، فهو متعجرف ومدلّل".

_"لا يعجبك !!"قاطعتها أثيل بسخرية، لقد تجرأت على وصف خليلها الغالي بالمتعجرف والمدلل، وحيث أنها تعرضت للإهانة من قبله، وحيث أنه صاح في وجهها، وصرخ، فهذا لا يعني استغناءها عن حبه و واجبها الأبدي في الدفاع عنه.

_"إذا ظننت أن هناك نسبة واحد بالمئة لتحصلي عليه، لذهبت إليه عارية".

دهشت ميرنا، لم تسمع أثيل يوما تطلق لفظا كهذا، حتى مع كونها عاهرة غير شريفة، إنها مؤدبة ومهذّبة و لكنها خرجت عن طورها. لا يهمّ، ستصفع أذنيها في الوقت المناسب، فبجعبتها الكثير من الكلام الجارح، الكتاب مملوء بالخزي و العار، ستمزّق كل صفحة و تقرأها على مسامعها، انتظري يا أثيل، خططت و هي مستشيطة غضبا في سرها، ستسفحين الدموع حتى تفقدي البصر.

_"لن تصدقي أنه لا يعجبني! تلك مشكلتك، إنك ترينه من زاوية عشقك المقرف، سأكمل لك،أردت فتح حاسوبك و بريدك لكن برزت مشكلة صغيرة إلى السطح، كلمة السر " عندئذ قطّبت أثيل حاجبيها كتعبير مندهش من وقاحة أختها في عرض انحطاطها و انهيار أخلاقها، كأنها تتبجّح بصنيع ممتاز . أجل، لقد كانت تتبجّح "جربت تواريخ مناسبات عائلتنا المهمة كتاريخ ميلاد أبي. لا، تاريخ ميلاد أمي، كذلك لا، ماذا عن تاريخ اجتماعهما معا، ذلك ما وضع نهاية لبحثي القصير، ثم سرعان ما ظفرت بحقائق دسمة، حب خالد، من نوع خرافي، كحب الأساطير والملكات، دعم باسل ووعود مقنعة ووفاء خالص، تقارير عن يوميات العشاق الهائمين، غرام تحت ظل شجرة الصنوبر في الحديقة، عدم فهم للوميض الحزين في العينين السوداوين، و أصبحت أقرأ كل ما تكتبينه من غرفتي ، و كل يوم عندما أقابلك على طاولة الإفطار، أتساءل حائرة، كيف تستطيع شقيقتي أن تظفر بما تريد بهذه السهولة؟، كيف استطاعت الوصول إلى رجل كذاك الرجل المشهور المرغوب من كل النساء؟ باستثنائي أنا بالطبع، إنها تجرّ في أعقابها أي رجل تقع عليها عيناه، حتى ذاك تمكنت من نيله ببساطة، وتساءلت كذلك،كيف بوسع أختي أن تتنزّه و تضحك وتغرم، تأكل وتشرب؟"تخلّت عن مظاهر الحقد والكراهية، وتحوّل صوتها إلى ناقم مشمئز "تتحدث،تذهب إلى الرحلات، تحتفل،بعد أن دنست نفسها، ودنستنا معها، كيف تستطيعين؟"

سرعان ما عادت القسوة والصلابة إليها و تمدّدت تعابير وجهها المتقلّصة من التأثّر بانهيار سمعة العائلة "يوم عدت من السجن مثلا، السجن لاحظي أنني قلت السجن، تشاركتِ أنت والسيدة السميحة في خداع أمي، سمحت لتلك المرأة الوضيعة بخداع أمنا، و تعذرت بحجة مراجعتها طبيبا مشهورا لأجل داء المفاصل الذي أصابها، وترجو رفقتك، وكان على الأرجح طبيب قلبك الكليل المتعب من عدم رؤيته، عندما عدت كتبت في رسالة سيقرأها لاحقا، حبيبي "و

ضغطت يدها على قلبها في تقليد ساخر مستصغر لشعور أثيل التي تنفّست بعمق ذاهلة من أثر جرأة أختها وعجرفتها، ليس لديها شيء تفعله إلا الإصغاء أو الانصراف.

_"حبيبي، كنت سعيدة اليوم و حزينة في الوقت ذاته، سعيدة لاعترافك أنك تحبني، وحزينة لأنك كنت تبدو تعبا مريضا، بدوت تعبا يا خليل، لقد تمزّق قلبي عندما رأيتك على تلك الحالة، إنك فقط قوي وبوسعك أن تتحمّل، هذا ما واسيت به نفسي بينما أنا أقف مقابل السجن المقيت مطبق الهدوء كأنه مغارة مظلمة، يا حبيبي كيف سأقضي الأشهر القادمة من دونك، إن حياتي عديمة القيمة، عديمة الروح، سأنتظرك إلى الأبد، أحبك أحبك...لست أنكر أنك كنت وفية مخلصة له "وضحكت هازئة" قلّما كنت تضحكين، وكنت تبتسمين كأنه واجب رسمي تؤدينه بشق النفس، ورأيتك أكثر من مرة منتفخة العينين من البكاء ،حمراء المقلتين، شاحبة الوجنتين ، تجيبين بمهارة مذهلة على استفسار أمك عن الذي أصابك، أنا بخير يا أمي، ولكن السيد إبراهيم يضغط علينا بقوانينه، مسكين ذاك العجوز، يعوزه الحظ كي لا تُلقَى عليه اللوائم الغرامية، ولم تتخلصي من مظاهر الحداد إلا عندما اقترب موعد خروجه من السجن، عندها عادت الحياة إليك، وعدت تنتقلين في البيت سعيدة مغتبطة، تفيض الحيوية من جسدك، وكنت أنا أجهّز لانتقامي منك، لإهانة شرف عائلتنا وهكذا اخترت الساعة العاشرة، أين توقّع السيد المحترم تلقي رسالة شوق و حنين، فأسديت له خدمة أكبر من رسالة عاطفية غبية، رفعت له الستار ليشاهد الحقيقة المرة و يرى حبيبته عارية بين أحضان الرجال، فانفطر قلبه وغادر القاعة مسرعا ليسمعها بصوتك، فربما لم يصدقني كفاية، النتيجة يا أثيل، أن من يريد كل شيء، لا يظفر بأي شيء "

_"هل أنت مرتاحة الآن "سألت أثيل خامدة الروح، و صوتها ضعيف كليم،، أما قلبها فإنه قاوم ما يكفيه حتى غدا الآن مستسلما خائرا، و عقلها منذهل يستوعب بوعي كل ما يدور، على أنه مخدّر من الألم، ليس يفكر بأي شيء, إنه صامد فحسب كيلا تفقد هي صوابها

_"مرتاحة، أجل مرتاحة "كرّرت ميرنا كأنها تؤكد على عظم سرورها "الآن انتقمت منك لاغتصابك كل رجل من يدي، هل تحسّين بما كنت أحسه؟ الآن انتقمت منك لإهانة شرف عائلتنا، و هناك عقاب لن ينتهي بنهاية قصتك الغرامية، هناك عقاب أشد فتكا ينتظرك، ذاك الفزع والخوف والذعر الذي يرافقك كل ثانية من حياتك، خوف من معرفه والدتنا، سيمشي معك كل خطوة إلى الأبد، و أينما تلفت سيقابلك "و ضغطت على أسنانها بشماتة و الغلّ يرتعش في عينيها الجاحظتين، أما تعابير وجهها، فهي مجعّدة تتلوّى غيظا مما ضاعف حظوظ القبح في اعتلاء عرش جميع صفاتها.

_"كما علمت أنا من مصدر خاص، و كما علم خليلك المحترم، ستعلم أمنا أيضا".

_"و ستحتفلين أنت!! "علقت أثيل آليا "كما تحتفلين الآن".

_" ستعرف ذات يوم، و لا أستطيع القول أنني سأحتفل "تنهّدت ميرنا آسفة، فليس بوسعها الاحتفال كما هي الآن "لأن ذلك سيحطمها، ستموت عندما تعرف، ومن الآن أحمّلك المسؤولية كاملة، و عندها يا أثيل لن ينالك إلا بغضي أنا و ياسي، سنطردك من حياتنا نهائيا".

_"ستخبرينها، حتى لو كلّفك ذلك خسارتها، فقط من أجل تحطيمي وإثقالي بعذاب الضمير، أثق الآن أن حقدك سيفلت من عقاله، و يفضح أمامها الحقيقة كاملة".

فصمتت ميرنا، لأنها ما انفكت تشكّ في مقدرتها على كتم السر، و ما انفكت ترغب مهووسة في تحطيم أختها نهائيا، ما انفكت تودّ الصراخ بأعلى صوتها لتفضحها أمام الجميع، ربما ليس اليوم أو الغد، ربما إن هي لم تتزوّج خلال السنة القادمة، ربما هناك ستخبر أمها، ليست متأكدة من مقدرتها على الإفصاح كذلك، لقد انقضّت عليها فكرة مجنونة عندما اطّلعت على سر أثيل، أن ترسل رسالة ورقية إلى والدتها و تفضح كل شيء دفعة واحدة، لكنها خشيت أن تموت وتبقى دون معيل، خشيت من العواقب المترتبة عن ذلك، خافت على نفسها من الشعور بالندم.

إن الحقد عدو لدود يحطم الحاقد قبل المحقود عليه، يحطمه بحيث لا يرى سواه في مدى بصره، يسرق من عقله حتى الاهتمام بنفسه، مستعد لإهلاك نفسه بيده إذا ما كان الهلاك سيشمل غريمه، أجل إنها تحقد عليها منذ أن دنّست شرف العائلة، منذ أن سرقت منها أول رجل، هل هي متأكدة أن الحقد انطلق في ذاك الموكب، أو أنه انطلق قبل ذلك بكثير؟

_"لن أخبرها، ليس لأجلك، فقط لأجلها لأنني أحبها، وأراعي مصلحتها، لكن يا أثيل ستعلم أؤكد لك، إن حقيقتك لن تبقى مستورة إلى الأبد، تستحقين أسوأ العقوبات لما فعلته". أصرت ميرنا على ضرورة نيل العقاب، وكذلك استعرضت كرمها الفياض لعدم تبييتها نية إخبار أمها، على أثيل أن تنحني جزاءً لمعروفها

_"ألم تستفيدي مما فعلته؟ "وخطت خطوة نحوها ثم نظرت في عينيها مباشرة، نظرة متسائلة عميقة، تحمل عدم الاكتراث، الانهيار، الألم، العذاب، الخيبة، برود الأعصاب.

_"ألم تستفيدي من بيعي لجسدي؟ لقد عشت على ذلك إن كانت ذاكرتك قد خانتك، درست منه،أكلت و شربت "واحمرّ وجه ميرنا وتراجعت خطوة إلى الوراء مجيبة بارتباك

_"لم أكن أعرف حينها أن ذاك هو مصدر المال، لقد قلت أنك تعملين عملا جيدا، وأن صديقاتك تكفلن بعملية أمي".

_" لا أعتقد أنك كنت تحبينني خلال تلك الفترة أيضا، و رغم ذلك قبلت أن تأخذي نقودا مني وأن تعيشي على إحساني".

_"غير صحيح "أنكرت ميرنا مبعدة وجهها عن نظر أثيل الممعن "كنت أحبك لأنك شقيقتي، لكن عندما فضح عارك أمامي كرهتك و احتقرتك".

_"من تخدعين يا ميرنا؟" سخرت أثيل بابتسامة تخدم الغرض "إنك لم تأبهي يوما لقضايا الشرف تلك، لو أنه يجبر رجلا ما على التزّوج بك لحطمته دون تفكير، أنت يا مدعية الشرف والمبادئ، لا تتفوهي بأي كلمة، إن الحقيقة لن تعجبك على أية حال، و لكنني المرآة التي ستنظرين من خلالها الآن، المرآة التي لن تخدعك، بينما قضيت حياتك بطولها ترين الحقائق من خلال مرآة نفسك الحقودة، المريضة بالكراهية ،تعرفين أنني كنت مضطرة لذاك العمل ولكنك تتنكرين للحقيقة لأنها لا تخدمك ،ليس الشرف و الفضيلة بتلك الأهمية في قاموسك، حتى أنا نفسي خدعت بولعك بهما، لكنها ذريعة جيدة من أجل الانتقام مني، لأنني كنت دائما فتاة جميلة محبوبة، منذ كنا أطفالا صغارا، يوما ما عندما كنت طفلة في الثامنة أو التاسعة، لاحظت كم أنني محبوبة من طرف الجميع، لأن سلوكي كان جيدا، و كنت مهذبة أجيد التعامل مع الجميع، وخاصة السيّدة سميحة، خاصة هي، فاختيارها في النزه والهدايا والحب كان يقع دوما علي، بينما لم يقع عليك مرة، ولتنتقمي من تلك الطفلة المحبوبة، سرقت أغراض صديقتك في المدرسة ودسستها بين أغراضي كي أتّهم بالسرقة، أتذكرين يا ميرنا؟"

راحت تدور حولها كأنها وتد خشبي مثبت، بينما ميرنا عاجزة عن التكلّم"أنت أيتها الشريفة، من فعلت ذلك، ثم أتذكرين يا ميرنا؟ عندما كنا نعود إلى البيت، كيف كنت تختلقين الأكاذيب، وتبتدعين القصص ابتداء من دفعي الكاذب لك على الطريق إلى بعثرة أشيائك، ثم إلى جرّك من شعرك. حسنا، كنت تكذبين بلا حد "

_"هيا يا أثيل، كنا أطفالا " بررت ممتعضة من نبش صندوق أفعالها الماضية الخسيسة.

_"لم تكوني يوما طفلة يا ميرنا "قالت أثيل بمرارة" وقد اكتشف الجميع ذلك ما عداي، كنت كائنا حقودا حسودا، أنانيا، وقد كبرت معك تلك الصفات وتوسّع نفوذها كلما ازدادت أرقام عمرك، إنك تكرهينني منذ الصغر، وتلومينني على تجاهل الآخرين لك، ماذا فعلت ليحبك الآخرين؟، لا شيء، اعتقادا منك أن حبهم لن يفيد أي مصلحة لك"

_"اخرجي من غرفتي "أمرتها حانقة

_"لماذا يا ميرنا، هل أزعجتك الحقيقة؟ "

_"إنك فقط تتألمين، و تبحثين عن أحد تعلقين عليه خيبتك "صاحت ميرنا ساخطة

_"أنا أتألم، إن كان في ذلك تسرية لروحك السوداء، أتمزّق من الألم، لا أشعر أنني قادرة على تحمّل الحياة من دونه، كان روحي و النفس الذي أتنفّسه، كان كل شيء، كان النعيم،لقد أحبني يا ميرنا، أجل، أجل، أحبني شأنه كجميع الناس، أحبني وأحببته حبا صادقا حقيقيا، عشت شعورا رطيبا حلو، نعم أتألم، لأنه عرف عن طريقك، بينما كانت توجد طرق أخرى ليعرف بها، أتألم لأنني اكتشفت اليوم أنك تحقدين علي إلى حد الهوس، و لم تحبيني يوما" وترقرقت الدموع في عينيها "الحقد الذي حرمك من اكتشاف الحب، الذي منعك من تبادل الحب مع الآخرين، الحب الذي لم تجربيه من قبل، لأنه لم يحبك أحد باستثناء أنا وأمي وأبي، و ربما ياسي، أحبني إلى درجة رغب فيها بالتزّوج مني، لكن ماذا عنك، من رغب يوما في ذلك؟، لا أحد "كانت ميرنا تغلي من الغيظ، و كانت عيناها ترمقان أثيل شزرا .

-"تقول معلوماتي أنهم غير مطلعين على عاري، إذا ما خطبهم؟ تتهدّل أكتافهم بمجرد رؤيتك، ما بالهم لا يحبونك، حتى أولئك الذين جمعتك بهم مغامرات صغيرة "أضافت مداهنة، بتلميح أجفل ميرنا "أجل، أعلم أنك خضت غمار مغامرة أو مغامرتين ظريفتين، و عدت خائبة، أتعرفين العلة؟ إنهم يفضحونك بسرعة، فأنانيتك وقسوتك و حبك العظيم لنفسك لا يخفى على أحد، وهذا ما يحول بينك وبين الحب، لن يحبك حتى أطفالك في المستقبل يا شقيقتي. أجل، إنني أتألّم يا أختي، لقد سحقتني اليوم وإنني أهنئك، سحقتني إلى حد أنني شعرت بشعور قاتل مميت خبرته مرة واحدة، في تلك المرة و خلف غرفة مغلقة، طلب إلي رجل حقير من تلك الزمرة أن أنفّذ له رغبة وضيعة فرفضت، و عندئذ صفعني حتى سال الدم من أنفي وفمي، لم تؤلمني الصفعة، بل آلمني ذاك الشعور، لقد نزلت من مرتبة الإنسان إلى مرتبة الحيوان، واليوم كذلك أنزلني خليل إلى تلك المرتبة، اليوم أهانني دون أن يصفعني على وجه بيده. يا ليته فعل، يا ليته لم يصفع قلبي بكلماته، إنني أتألّم يا شقيقتي، أتألّم، و ليس جحيمه أقلّ من الجحيم الذي صنعته لي بمجرد أن عرفت،الجحيم الذي ستصرين دائما على إلقائي في جوفه، ماذا تعرفين عن الذي عشته أنا، إن خليل رجل وليس من غير الطبيعي أن لا يفهمني، ولكن ماذا عنك؟ أنت شقيقتي التي عايشت معها المآسي والفقر والجوع و الخوف، ماذا عنك أنت، على الأقل كان بوسعك أن تفهميني" انفجرت في البكاء "تعرضت للإهانة و المعاملة السيئة، لم أبع جسدي فحسب، بل روحي أيضا فنيت معه، تحطمت إلى شظايا صغيرة، و من أجلكن جمعت شتات نفسي، قاومت لأجلكن، وقفت من أجلكن، ضحيت بجسدي بدلا عنكما".

_"لا أهتم " أجابت ميرنا ببرود، و بداخلها إنما كان ينمو غلّ حديث لتذكريها بحقيقة أنها ليست محبوبة من أحد،لقد ختم الحديث عند هذه النقطة، ليس بها حاجة لإضافة شيء آخر.

وأحسّت أثيل أنها مستنزفة القوى و أنها تخاطب فراغا سحيقا كما أحسّت بإعياء شديد يجتاح جسدها،فانحنت بتثاقل، مثقلة الأنفاس لتلتقط حقيبتها الملقاة على الأرض ثم خرجت متهادية الخطى مخلّفة ميرنا لوحدها يتناثر من وجهها المحمرّ،غضب و ازدراء.

خلف باب الغرفة المرتبة، انزلقت أثيل ببطء حتى لامست الأرض، كانت تعبة من كل شيء، من العالم بأسره،كانت تشعر بالدوار و الرهبة اللذين عرفتهما عندما عادت من بيت الرجل الأول الذي هتك عفافها ذا الساقين الطويلتين و العينين الحمراوين المهيبتين،باجتياح أقوى و أفتك، وأكثر إيلاما،و بدا كأن العالم موحش مخيف، والغرفة قاتمة كجحر حيوان،و بدا كأن خطبا مهولا سحق الدنيا القديمة و حوّلها إلى قتامة ليلية مرعبة،و أحسّت بالوحدة المضنية كأنها تزحف في أنبوب ضيق طويل خانق.

كل شيء كان كالكابوس، مشهدها الصباحي الجائش مع خليل، منظره الساخر، نظراته التي تشبه محاكمة غير عادلة، وجهه الموبوء، المشهد الذي خُتم بعرض سفيه غير محترم، عرض يُجليها بمظهر العاهرة المتاحة، ثم عودتها إلى البيت خائبة منهارة، مواجهتها لحقد أختها، كانت العجرفة ترفع رأسها والحقد يدفعها الى إهانتها، تتبجح بانهيار أخلاقها، تتبجّح بخستها وحقارتها، تستنكر بإباء مزيّف التهم الموجهة إليها.

لا تهتم أجل إن سهولة نطق تلك العبارة المقتضبة بديهي، طالما لم تدفع ثمنا كالذي دفعته هي، طالما لم تجردها الحياة من ملامح البراءة اللطيفة، ولم تسرق منها لمعان الصبا البديع.

ما كانت قيمة تلك التضحية؟ أن تصرخ أختها بوقاحة في وجهها قائلة أنها لا تهتم. انتهى بها المطاف تجلدها كما تجلد بقرة هرمة عديمة النفع من أجل دفعها للتحرك أسرع متجهين بها نحو المسلخ لذبحها، ااه من العبارة ووقعها، "لا تهتم "ببساطة متكبرة، لقد دفعت ثمنا غاليا لتسمع أحدهم يحطّ من قيمة تضحيتها، ثمنا لو أنها دفعته لأجل مصلحة شخصية لما أفزعها أن يغرس في أذنها كسكين حاد، وإن أمها قبل أن تجلدها هي أيضا و توبّخها و تضربها و تطردها من البيت ستكون يداها باردتين متهدلتين في تابوت يناسب طولها الفارع ملفوفة برداء أبيض يشير إلى حالة الموت.

ودست يدها لتخرج قطعة النقود المعدنية من الجيب الصغير في الحقيبة، وعندما صارت في متناول يدها رفعتها عاليا فوق مستوى رأسها وتأملتها كقطعة أثرية نادرة، كضربة حظ لعالم الآثار، وسرعان ما هبّت على عقلها الفاتر عبارته الأخيرة "ستذكرك برأيي الصريح بك، ستذكرك كيف أني أحتقرك و أشمئز منك".

لن يفيدها إلقاؤها بعيدا عن بصرها، أو قذفها من النافذة، ولا التبرّع بها لأحد المتسولين على الرصيف، الذين يرتفع عددهم كل سنة، ارتفاعا يقابله حيرة الناس الطيبين في منح أحد وترك آخر، ولا دسّها في مكان ما، في الخزانة أو درج المكتب السفلي قليل الاستعمال، ولا تحت الأغطية الشتوية التي تحتل رف الخزانة السفلي أو بين طبقات السرير، أو صوف الوسادة، فلا اليوم ولا غدا ولا بعد عشرين سنة ستمحى من عقلها عبارته الجارحة تلك، لن تكون أقلّ شأنا من عبارة أختها المقتضبة "لا أهتم "ستستمران بتعذيبها والتنكيل بها، إضافة إلى الفزع والخوف خشية معرفة أمها.

وبينما هي تقبض عليه كان يراودها إحساس مرعب كأنها تقبض على الجمر الأحمر، وليست يدها من تحترق، على أن قلبها كان يعاني من ذاك الشعور بقوة، و كان مفروضا عليها أن تحسّ ذاك الإحساس النهاش بعد يوم حافل بالإهانات و الصدمات و العذاب.

لم تكن بحاجة إلى منحها شيء يذكرها بموقفه منها، فعيناه الباردتان نطقتا بالاشمئزاز قبل فمه، ووجهه المفجوع أدانها و سخر منها و من معاناتها، ستحتفظ بالعبارة في عقلها ما كان في العمر بقية، إلى أن تموت لن تنسى كيف حطّم فؤادها و اشمأز منها.

ولو أن المنطق هزّها كيما تستفيق من غفوة حبها المخلص لطردته بعيدا عن قلبها، إنها لا تملك خيارا إلا أن تحبه، وهذا ما سيتسبب في إيذائها وجلب التعاسة لها ليلا و نهارا، سترى أسوأ الكوابيس، و هي مستيقظة كما و هي نائمة، سواء شاءت أم لا، ستظل تحبه حتى مع أدائه المبتذل الأخير في الحديقة، وستفتقد كل شيء فيه.

كيف هو الآن؟ ماذا يفعل؟ أتراه كئيبا مثلها محطم الفؤاد، خائر القلب، معذب الروح؟مبتئسا حزينا بنظرة سوداء لكل شيء كما هي حالها؟ هل توقّف العالم عن اعتناق المعنى الجميل المعتاد، هل انهار و غدا كومة من الحطام، هل يخترقه الألم كطعنات السكين، هل يشعر أن الدنيا كئيبة كأصيل شتوي؟.

حتما لا، لن يشعر مثلها أبدا، لقد توقّف عن حبها بعد صدمته الأولى، وقبل أن يخرج من جوفها كان كارها ناقما عليها، ولن يؤذيه شيء، ربما عاد إلى الحياة الطبيعية أسرع مما تظن، بينما هي ينتظرها جحيم لا يطاق، مشوار غير محدود من الشوق و الحنين واسترجاع الذكريات البيضاء والسوداء و الوردية، الألم و الانهيار و العزلة والوحدة، الاعتزال في غرفتها المظلمة بستائر منسدلة، ونور شمس محجوب، ستنتزع من الشمس حقها في الزحف إلى غرفتها، أجل هذا ما ينتظرها، أما الرجال فلا يؤثر فيهم مثل هذه الحوادث الصغيرة، إنهم أصلب من الحديد، أقوى من الظروف بوجوهها جميعا، أكبر من الفراق، أقسى من الألم، يتعافون بسرعة ويعتبرون كل حادث في

حياتهم سخافة أو دعابة مضحكة، باستثناء وفاة أمهاتهم، فليس من الغرابة التخمين أن موت زوجاتهم ربما لا يثبّط من همتهم.

اااه، لقد استيقظ هذا العذاب الآن، استيقظ كالوحش الكاسر وسرعان ما سينهش لحمها وقلبها و يجعلها تذوي وتذوب و تنهار وتبكي بطريقة لا شعورية، إلى أن تلّفها الأذرع الطيبة و ترى دموعها على الأصابع المبللة، وتنبهها أمها بائسة أنها ستفعل أي شيء كي لا تراها تبكي، ما هذا الألم!! إنه يتجاوز حد التحمّل كأنها نار تتلظى في قلبها، إذا كان بهذا الجور بعد ساعات من الفراق!! فكيف به إذا بعد شهر أو شهرين، كيف بألم السنة و السنتين؟؟.

في كل صباح قادم من حياتها، سيتربص بها حتى يشاهد فتحة عينيها السوداوين، و ينتهي فراغ عقلها في اللحظات الأولى، خاليا من أي ذكرى، وما إن تزحف الصور و الوقائع، عندئذ ينقض عليها ساحقا فؤادها، مسيلا عينيها بدموع اللوعة، خاطفا راحة قلبها، مانحا إياه بردا قارسا كالجليد تقريبا.

ولم يكن الملجأ الذي يرّن في رأسها الآن فكرة مجنونة أو خطيرة إلا لرابطته الوطيدة بمعاناة أمها وألمها، إن هذه لا تقدر بأي وجه من الوجوه على فراق ابنتها يوما واحدا، وستغدو بانتقالها للعيش في ذاك المكان الجديد مفصولة عنها، وستتبادلان الرسائل بدل الخطاب المباشر، ولا تنعمان برؤية بعضهما البعض، وكلما حلّت على رأسها ستضمّ أشياءها وتبكي بكاءً مرا ثم تصرّ على زيارتها زيارة فورية، لتعيدها قسرا إلى البيت، و هي مجنونة من الحزن

"لن أقبل بأي عذر، هيا لا تمزحي الآن ستعودين معي "ستقول بصوتها الحازم" هيا يا أثيل، إن هذه المكان لا يناسب إلا عجائز الثمانين والمرضى والذين لا يحتاجهم أحد، أما أنا فبحاجة ماسة إليك،لا أحتاج نقودا، أحتاج رؤيتك أمامي على طاولة الوجبات، أحتاج صوتك الهادئ ينادي علي، أحتاجك لتأتي بعد أن ينام البيت و تخبريني أنك تفعلين أي شيء لأجلي، هيا يا أثيل، أحتاج أن أستقبلك عند الباب وأوبّخك لتأخّرك، وأيضا إن تلك السيدة المدعوة سميحة قد وهنت عزيمتها بعد مغادرتك المنزل، وأصبحت مثل الشبح، حسنا أنا أستهجن تصرفاتها الطائشة، على أن اقتحامها البيت و خداعها لي لاصطحابك، الله أعلم إلى أين؟ كان أحسن من الآن، إنها لا تطرق بابنا مطلقا، وإني لا أسمعها تنادي ابنتيها بالبغلتين، كما كانت تفعل، يبدو كأنها ماتت من دونك، ويبدو كذلك كأنها لا تحفل بأي شيء".

ستهجس أثيل _"لا أستطيع يا أمي، فأنا لا يسعني مواجهتك عندما تعلمين بالخزي الذي ارتكبته، إنك حريصة على الشرف متعصبة للفضيلة، لن تصمدي إلى أن ينطلق لساني في رحلة شاقة من أجل شرح موقفي، ستموتين حتما وأعيش أنا مثقلة بعذاب الضمير إلى الأبد سيعذبني

ضميري، إنك تفضّلين الموت على أن تبيع ماستك الغالية جسدها من أجل إنقاذك، لن يفيدني أن أعلّل فعلتي بترميم صحتك المريضة، لن تفهمي أنت أيضا، كما لم يفهمني حبيبي، و لم تفهمني شقيقتي... كنت كلما أشم رائحة الخبز في الصباح و أسمع صوتك يدمدم موبّخا و صوت آلة الخياطة يملأ البيت يخرس ضميري، وأقنع نفسي أنني صببت تضحيتي في المجرى المناسب، وأحتضن ذنبي في كل مرة أحتضنك فيها و أنسى وجعي عندما أستنشق رائحتك. على أنك لن تفهمي، إن لك فتاتين تحتاجان وجودك و رعايتك، و أنت أيضا بحاجة إليهما، اهتمي بهما كثيرا، فهما عزيزتان على قلبك كما أنا، أما السيدة سميحة، فبوسعها زيارتي هنا، سأواسيها قائلة أنني لم أحب مخلوقا كما أحببتها باستثنائك أنت، وإنها تؤلمني عندما تبكي".

إنه الملجأ الوحيد الذي لن تمانع أمها ذهابها إليه، بل إنها لن تستطيع منعها، بسلطتها ونفوذ الأم القلقة، بحزمها و قلقها، حتى و إن تمسّكت بأطراف ثوبها وعبثت بضميرها و توسلت إليها ، لن يفيدها مطلقا، لأنها ستنتقل إلى ذاك الملجأ.

وأخيرا عندما استطاعت أن تكفكف دموعها زحفت إلى سريرها وانكمشت على نفسها محاولة أن تغمض عينيها، جارة الغطاء على جسدها وسرعان مااستسلمت لنوم متقطّع، لأنها كانت تعبة و منهكة .

الفصل الثاني عشر

راقبت ميرنا قطعة السكر تذوب في فنجان الحليب، كأنها تراقب ظاهرة فلكية عجيبة، في الواقع كانت شاردة و هي متكئة بمرفقها على الطاولة و يدها على صدغها، مثل من تحمل الدنيا على أكتافها، كانت تتنهّد كمن يُزيل همّا ثقيلا عن صدره، و لمّا كانت فترة بحثها عن عمل قد امتدتّ أطول مما أملت فإنّه من السهل الاعتقاد أنها مستاءة من الوضع، وإن له يدا قوية في الوضع الشارد الذي تحلّقت به على الطاولة رفقة والدتها و شقيقتها الصغرى ياسمين.

ولو أن هاتين الاثنتين كانتا حاضرتين في المنزل بعد ظهر الأمس، لما حدث ذاك النوع من الشجار المحتدم المزدحم بالاعترافات والاتهامات الصريحة، النقاش الذي أمضت ميرنا ليلتها مكدّرة بسببه، يكتظّها الغيظ لعدم خروجها منه منتصرة فائزة، لقد خسرت هي وفازت أختها وكان مما يغيظها غيظا مكبوتا أن تعترف بخسارتها.

على أن الاعتراف لن يكون سيّدا عليها إن ما أبقت رأسها شامخا و فمها متحركا بكلام نزق مناسب، وقلبها مشحونا بالحقد الملتهب، ستظلّ أثيل تلك المدنسة سيئة السمعة، العاهرة التي لوّثت شرف العائلة و كفى، وسيظلّ إبغاضها و الإساءة إليها و صنع جحيم جاهلي لها، أولوية مهمة من أولويات حياتها.

ولكن كان يعتمل في قلبها شعور غريب غامض المعالم، مثل حساء لزج متناثر على الأرض أو سحابة دخان عنيفة، كانت هناك فكرة مبهمة مجهولة في الجزء الباطني من عقلها كأنها في بئر عميقة استعصى عليها إخراجها لتتبيّن ماهيتها، شعور صعب التفسير والتعريف، إحساس دخيل احتلّها دون أن يحمل اسما محددا شأنه كالمشاعر المعتادة.

وكان صدى صوت ما غير واضح يعبث براحتها ،و هي غير قادرة على الوصول إلى مصدره، إنها تجهل مبعثه، وتجهل كلماته أيضا، أجل إنه مكوّن من كلمات غامضة كأنها مكتوبة من ضباب، هناك ما يصدّها، هناك ما يقاومها، ولو أنها عرفت المنبع لربما استطاعت التقاط الكلمات من موطنها.

وبينما هي تمعن النظر في الحليب الأبيض، أحسّت فعليا أنها كئيبة، كئيبة كما لم تكن يوما، حتى عندما تم رفضها كزوجة، و تم انتزاع الرجال منها واحدا تلو الآخر، كئيبة أكثر من ذاك اليوم عندما خاطبتها موظفة استقبال إحدى الفنادق التي أملت أن تقبلها كموظفة جديدة، خاطبتها باستصغار وقلة تهذيب وبلهجة فيها شيء من الازدراء،لقد فشلت في إجبار نفسها على أن تكون في غاية الفرح، يجدر بها أن تكون سعيدة، لقد وصلت إلى غايتها، وفرّقت العاشقين المولعين ببعضها،

وفـوق هـذا وذاك نالـت مبتغاهـا في تحطـيم كبريـاء شـقيقتها وتبديـد أحلامهـا، فمـا بالهـا ليسـت سعيدة؟!.

وواجهت نفسها، فهرعت تنبذ أي فكرة لا تخدم غاياتها الحاقدة، وأسرعت كذلك توضّح غير مقتنعـة أنهـا مستشـيطة غيظـا مـن حوارهـا منزوع الأقنعـة مـع أثيـل، هـذا مـا يفسّـر كونهـا كئيبـة، مغتاظة من الطريقة المهينة التي أشارت إلى أنها لم تكن طفلة يوما، إلى أنها شيطان بروح سوداء، إلى تذكيرها بنزواتها الصبيانية البريئة وليدة عناد طفولي ساذج، إلى ظفرها بموقع المنبوذة، و غير المرغوبة من طرف الجميع، إلى أن عديمة العقل سميحة لم تحبها كذلك، إلى أمور كثيرة لم يفترض بأثيل طرقها والتحريك فيها، أمور ليست حقيقية، بل مجرد أسلحة تقليدية للدفاع عن حطّتها.

ولم تدرك في تلك اللحظات أنها كانت تعيش صراعا جادا، و تخوض معركة ليس ضد المنطق والحقائق و النظريات السليمة فحسب، بل ضد مشاعرها السلبية أيضا، كانت تخوض معركة ضد نفسها، ولكن أنّى لها أن تدرك وهي مغرورة عنيدة، ربما لن تدرك في الوقت الراهن، بيد أن الوقت المناسب سيأتي، سيأتي حتما فلا غموض يخيّم إلى الأبد.

راحـت أمّهـا المتصـدرة لطاولـة الفطـور، توظّـف أسـلوبا نسـويا احترافيـا لغـرض النحيـب على الجـارة القديمـة المتوفـاة، وكان يعـوز مشـهدها الحـزين، الـدموع التي سكبتها مـرة واحـدة، عنـدما انحنت لتقبّل جبين السيّدة تودعها وداعا أخيرا والأهل من خلفها يتباكون ويلطمون ويصرخون أما ياسمين المتثائبة والتي سئمت من مراقبة شرود ميرنا الغريب، فقد ركّزت عينيها على باب الحجرة المفتوح تترّقب بنفاذ صبر انضمام أثيل إليهن لتقصّ عليها أحداث الليلة الفائتة مع بنات محبوبتها التي سافرت على عجل، منبهة الفتاتين إلى ضرورة إحكام إغلاق الباب، و جلي الصحون،و مهدّدة إياهما بالعقاب العسير إن ما عادت و وجدت البيت في حالة صداقة وطيدة مع فوضى عارمة.

_"أين هي، لماذا لا تنزل؟ "قاطعت ياسمين أمها بغير احترام، غير أن هذه و في غمرة اجترار محاسن الأموات، لم يسترع انتباهها أن الساعة قد جاوزت السابعة و النصف، وأن فتاتها الكبرى قد تأخّرت عن عملها، و لولا أن القلق المباغت طرق عقلها، لعنّفت ياسمين لمقاطعة حديثها بهذا الأسلوب الوقح.

_"أجل أين هي؟، إنها السابعة و النصف، هل نسيت أن تضبط المنبه؟ لا أتصوّر أن السيد إبراهيم منحها إجازة".

"ربما لن يسعها الذهاب إلى العمل اليوم "تدخّلت ميرنا بينما عيناها شاردتان ،تكسو وجهها أمارات العبوس، و لم تعِ حقيقة الذي تلفّظت به حتى أيقظتها نبرة والدتها المرتفعة المذعورة تقريبا

_"لماذا لن يسعها ذلك، أهي مريضة؟".

تلعثمت ميرنا، أي مأزق هذا الذي ورّطت فيه نفسها !!،بماذا ستبرّر كرمها المتطرّف في الاهتمام بشؤون أختها وتقرير عدم ذهابها إلى العمل.

_" من هذا المريض؟" كانت أثيل تقف عند الباب تزيّن وجهها الجميل ابتسامة مشرقة وتتضوّع منها رائحة عطر خفيف ناعم، كانت ترتدي فستانا أسود تتخلّله أزهار أرجوانية ذات أوراق خضراء متجهة إلى الأسفل و تنتعل حذاءً أسود كذلك ذا شرائط عقدتها عند كاحليها، مسدلة شعرها الأسود الناعم على كتفيها، كانت تبدو جميلة حقا كما لم يتّفق لها بدت، ذلك أنها وضعت طلاءً أبيض على وجهها و أحمر شفاه ناعم خفيف على شفتيها مع استعمال مسحوق زهري فاتح لإخفاء شحوب وجنتيها دون أن يكون مبتذلا، وكذلك فعلت بعينيها شيئا ما، فقد بدتا بارعتي الجمال، واسعتين جذابتين مظلّلتين بألوان ترابية بنية فاتحة، و حيث أن السيّدة سميحة غير موجودة، فهذا لا يعني أنها ستحرم من الإطراء الجزل والثناء السخي، وهاهي ثلاثة أزواج من الأعين تنعم النظر فيها مبهورة، متفحصة، وفيما كانت سيدة البيت وابنتها الصغيرة تبادلانها التبسّم، كانت ميرنا فاغرة فاها من الدهشة كسمكة خارج البحر، محتبسة الأنفاس و قد جفّ الدم من وجهها بشكل سريع، تملّكتها الحيرة و الفضول لمعرفة الذي يجري، و استطاعت أن تعترف شأنها كالموجودتين معها، أن أختها تبدو حسناء جدا، ترى ماذا يكمن خلف هذا القناع الزاهي، ماذا يكمن خلف هذه الابتسامة الوديعة؟؟.

يستحيل التكهّن بما يدور بخلدها، أي حالة هذه التي برزت بها من الباب؟بينما يُنتظر منها أن تمرّ بحالة مأساوية خشيبة تبكي الحجر، و تدمي أكثر القلوب تحجّرا و قسوة،أهو ألم باطني تحاول أن تحسن إخفاءه؟؟أو هو عدم اكتراث أو تعاف سريع أو أنها لم تكن تحبه قط؟ ربما تخدّرت أعصابها من الحزن، أعوذ بالله منها إنها تتجدّد كطائر الفينيق الأسطوري، تبدو تماما كمن عرض عليها حبيبها الزواج.

وبمجرد أن استوطن هذا الاحتمال عقلها عنوة حتى خسف لونها تماما، و لظيت عيناها بنار الحسد "ذاك إذا، إنه لم يصبر على فراقها، فعاد إليها عجولا يعتذر على وقاحته و إهانته لها، إذا فلقد عاد مهزوما هزيمة نكراء بعد خوضه معركة ضارية ضد المبادئ والتقاليد والشرف، ما هذا الحظ المزهر كحظ شجرة الدر في صيد المحبين و الرجال!!،لقد عاد إليها،اااه ما أشقى حظي، حتما هناك طرق أنجع للانتقام غير تلك، كان ينبغي أن أفكّر مرتين قبل أن أقدم على إخباره فأنا لم أستفد إلا تذليل الصعوبات أمام قدميها، ليلعنه الله عديم الشرف، عديم الرجولة، ليلعنه الله".

"أثيل، ألن تذهبي إلى العمل؟،تبدين كمن ستذهب إلى نزهة، تبدين جميلة جدا يا حبيبتي "سألت ياسمين المولعة بالنزه و الفسح و التجوّل في الحدائق، و الفضول يسطع من وجهها أما ميرنا، فكادت أن تزعق مستجدية توضيحا للذي يدور أمامها، كان قلبها يلتهب بنار الغيرة.

_"أثيل،إنها السابعة و النصف، لقد تأخرتِ " سألت الأم شبه منزعجة، فلم يُأخذ برأيها قبل الذهاب إلى النزه، و كان جليا أنها تستعد للذهاب إلى مكان ما غير عملها المعتاد.

و بينما كانت تسحب كرسيها لتجلس، قدّمت إجابتها

_"طبعا سأذهب "وابتسمت باستخفاف عندما خطر لها وجه السيد العجوز إذا لم تذهب إلى العمل "هل تردن أن يموت السيد إبراهيم بسكتة قلبية، وأمي أعطني بعض الزبدة، أين الحليب؟ أرجوك لا تضعي الكثير من السكر، متى عدت الليلة الفارطة؟".

_"عندما عدت كنت نائمة "أجابت الأم و هي تمرّر لها صحن الزبدة و تملأ كوبها بالحليب " دخلت غرفتك و ناديت مرارا فلم تجيبي، لم أرد إزعاجك، هل عدت فور ركوب السيدة سميحة الحافلة، أو أنك انتظرت إلى حين انطلاقها والتلويح لها بكلتا يديك؟ " ثم زمّت شفتيها ومطّت لهجتها في تعبير غيور ساخر.

_"لم أعد فورا، انتظرت إلى حين انطلاق الحافلة، كان ينبغي أن تؤمنني على ابنتيها، ليس ابنتيها، قالت كلمتها المعهودة".

كانت مرحة حيوية، سعيدة جدا، ولم تسمح لعينيها أن تقعا مرة على ميرنا كأنها غير موجودة، بل تتجاوزانها سريعا إلى ياسمين ثم تقفلان عائدتين إلى أمها "وتعيد على مسامعي ضرورة الإشراف الشخصي على قيامهما بالواجبات البيتية "وختمت عبارتها مطلقة ضحكة رزينة .

_"لو تعرفين الذي حصل يا أثيل "تحمّست ياسمين ضاحكة مبعدة كوبها جانبا، لأنها ستحتاج إلى استخدام بعض الحركات و تخشى أن تكسره أثناء تأديتها.

_"ستؤخّرين شقيقتك "قالت الأم بحزم " تروين لها الأحداث في المساء".

_"دعيها تخبرني يا أمي"قالت أثيل بليونة " فنحن لن نعمل كالمعتاد، سنجمع الكتب في علب من أجل إبعادها عن الغبار، لقد حصلنا على أسبوع إجازة، إلى أن تنتهي الإصلاحات "

_"أي إصلاحات؟" استفسرت بنبرة تنمّ عن استغراب

_"سيتم ترميم المكتبة،أخبرتك عن نيّة السيد إبراهيم في تحسين وضعها و قد تم تأجيل المسألة أكثر من مرة نظرا لظروفه، إنها تعاني من بعض التصدعات و لهذا منحنا عطلة لمدة أسبوع كامل، سأستغلها في مسألتين مهمتين "حلق حماس في عينيها و ابتسمت مداهنة،ابتسامة تشي بالغموض والتشويق " ليس الآن، إلى حين انتهاء ياسمين من إطلاعنا على تفاصيل الليلة الفائتة".

ولأنها أعطتها الكلمة من جديد، وعاملتها باحترام مثل فتاة كبيرة، أحسّت ياسمين بعاطفة امتنان نحو شقيقتها الكبرى، و أنشأت تتلو على مسامعهنّ بصوت تبعّضه الضحكات العالية عن استيقاظهن فزعات نتيجة صراخ سالي المتوهّمة سماعها ضوضاء مريبة في الطابق السفلي والتي قفزت إلى جانب أختها، ثم التصقت بها "لصوص في البيت، لصوص أخشى أن يقوموا بقتلنا " وحيث أن ريحان كانت في غاية التعب، فقد دفعت أختها بكلتا يديها متهّمة إياها في عقلها "إنك مجنونة عودي إلى النوم "،،،،"ها يا ريحان احبسي أنفاسك قليلا وأنصتي جيدا، إنه يتحرّك في الطابق السفلي، أخشى أنه ليس مجرد لص عادي، على الأرجح إنه شبح، قالت إحدى صديقاتي أن الأشباح يتجوّلون في البيت عندما يغيب الإنسان الراشد" وحدث أن فزعت ريحان بقدر يفوق فزع سالي عندما بلغها قرقعة الأواني المعدنية" إن ما صرخنا سيعلمون أننا هنا، و ربما كان عددهم أكثر من واحد، إنهم يهجمون على البيت أنا أريد أمي "فقالت ياسمين في نفسها: يا لهما من جبانتين ليس من احتمال أقوى من كونها هرّة جائعة، ثم رفعت صوتها بشجاعة، مزهوة بنفسها"انتظرا هنا سأنزل إلى الطابق السفلي لأتحقّق بنفسي عن مصدر هذه الأصوات"..

_"لا لن تذهبي، لن نقبل بانفتاح هذا الباب، إن كان لصا سيستعملك كورقة ضغط علينا لنكشف مكان إخفائنا أغراضنا الثمينة".

_"ليس لصا "قالت ياسمين واثقة، و صدرها ينتفخ لكونها فتاة شجاعة.

و هكذا فتحت الباب مخلّفة إياهما في عناق مذعور يتصفّد العرق منهما، تتبادلان مواساة المصلحة والتربيت على الأكتاف، و تبين أن اللص المتطفّل لم يكن إلا هرة متشردة جائعة، دخلت عن طريق النافذة المفتوحة، و عندئذ استدعتهما من الطابق السفلي "تعاليا،لا تخافا، إنها هرة فقط " وما إن أحستا بالأمان حتى طفقت كل واحدة منهما تنظر بعين الاتّهام إلى أختها و تحمّلها مسؤولية ترك النافذة مفتوحة، و بالكاد استطاعت فض الشجار المحتدم .

_"إنهما كالسيدة سميحة، تحبان الشجارات" غرقت في نوبة من الضحك ثانية وكذلك كانت أثيل تضحك، حتى أحست بألم في فكيها وغصّة في حلقها"ورقة ضغط!!، إن هذا مضحك للغاية، إن هذا أحمق ما سمعت، وماذا تملكان؟؟،حقا إنهما نسخة عن أمهما "فيما كانت ميرنا تفسّر وتحلّل وتتلوّى غيظا وجزعا، تنطوي نظراتها على الدهشة والحقد القائظ، ما المثير للضحك في رواية غبية سخيفة مثل هذه؟ إنها لا تحرّض طفلا على الضحك، وعندما ارتسمت ابتسامة خفيفة على فم أمها العابس المفؤود، الفم الذي قلما يشاهد ضاحكا أو مبتسما، أدركت أن في الواقعة ما يجلب الضحك، وراحت تجبر عينيها على الابتعاد عن وجه أثيل، لكنهما تعودان آليا، تعودان لتتوسّما حزنا خفيا أو جزعا، أو تنتزعا من وجهها اعترافا خرج عن السيطرة بتمزّق قلبها أو تحطّم

فؤادها، على أنها لم تظفر إلا بالخيبة، إنها فعلا سعيدة، منبسطة الأسارير، وقذفتها بنظرة حادة كرأس الرمح لأنها كذلك، ماذا يحطّمها؟فهي منذ أن كانت طفلة قوية متينة متماسكة شجاعة، لا يؤثر فيها انهزام أو انكسار، تجدّد نفسها كأنها مخلوق أسطوري، ولو لم يكن لها جسد كجسدها، وذراعان ضعيفتين كذراعيها، لارتابت في طبيعتها البشرية.

إنها تسقط و تنهض بسرعة حتى مع عدم وجود يد تسندها لتقف، تتحدّى بعزيمة فجة وإرادة حديدية كل أزمة و رزيئة، و كذلك أرغمت نفسها على الإقرار بفشلها الذريع، أجل لقد فشلت في إذلالها، وتنكيس رأسها.

_"تنتظرهما وظيفة جيدة هذا الأسبوع "قالت أثيل ببهجة"وكذلك أنت يا ياسمين، سأستعين بهما، وكذلك بالسيدة سميحة من أجل تجديد دهان البيت، انظري يا أمي، لقد تدهورت حالة الجدران، و غدت شاحبة مقشّرة "

تابعت بحماس "ما رأيكن في اللون الأزرق الفاتح، إني أحبه، أما إن كان هناك من يعارض ويريد أن يقترح لونا آخر ، فأنا مواطن يعزّز مبدأ الديمقراطية، سنجري انتخابات نزيهة "وضحكت

_"إذا فالسيد المحترم قادم ليطلب يدها، لذلك تريد إبراز البيت بصورة حسنة تلائم طبقته الراقية "هجست ميرنا و أطلقت زفرة طويلة واضعة رؤوس أصابع يديها على صدغها، لافتة انتباه الثلاثة و استرسلت أثيل بالحماس ذاته، ملهية أمها

_"كذلك لون الأثاث، إنه باهت مما يولّد انطباع لدى الرائي المتفحص أنه رث قديم، ومكب النفايات أولى به من بيتنا، انظرن إنه يدعو إلى الرثاء "أظهرت تعبيرا منفرا" سنشتري طلاء غامقا، وبهذه اللمسات البسيطة، سيصبح البيت مختلفا".

_"مرحى "صاحت ياسمين مبتهجة وصفّقت "أحب مثل هذه الأعمال، لطالما حلمت أن أكون دهانا، وسنحظى بمحادثات ممتعة،و مسلية، إن انضمام السيدة وابنتها مجلبة للسرور، لكن هل ستوافق؟"

_"ستوافق" أجابت الأم بجفاء مطبقة شفتيها "ستوافق على أي شيء تطلبه منها أثيل، و إن طلبت روحها فلن تمانع."

_"حسنا إذا فأنت موافقة يا أمي؟" سألت أثيل بحرارة

_"ولكن ياحبيبتي، إنها فرصة مواتية لتنعمي ببعض الراحة، لماذا ترهقين نفسك؟لا تحصلين على إجازة كل يوم،سنحصل على بعض المال بطريقة ما ،و نؤجّر دهانا يقوم بالمَهمة ".

_"ليدهن نصف البيت في السنة الأولى والنصف الآخر بعد عشر سنوات"سخرت أثيل وضحكت ياسمين و أمّها، فخمول تلك الفئة مكشوف عند الجميع "لن أستطيع المجيء اليوم

"قلدت أثيل أعذار الدهان "فأنا مريض، وغدا سآخذ زوجتي للطبيب، مات أحد أقربائي،ماتت زوجتي مع أنها حية ترزق تتذمّر من سلوكه في إحدى الحلقات النسوية "

_"أصبحت مثل السيدة سميحة "قالت أمها مبتسمة و ضربتها ضربة خفيفة على ذراعها.

_"بل أصبحت نسخة ثانية منها، إنها العشرة الطويلة تفعل الأفاعيل"أكّدت ميرنا بتهكّم، رامقة أثيل بنظرتها المألوفة عندما تقرّر أن تستفزّها.

_"و الآن، لدي مفاجأة سارة، سأطلعكن عليها و أحتاج دعمكن" قالت أثيل بسرعة متجاهلة لسعة ميرنا التي أصابها الجنون والغمّ من الأسلوب البارد الجاف الذي تعاملها به شقيقتها .

واختنقت لأن المفاجأة السارة هي إعلان رغبة ذاك الحقير في عرض الزواج عليها، لا شك أنهما اتّفقا على كل التفاصيل بالليلة الفائتة، و كذلك حدّدا يوما لزيارة السيدتين المهمتين في حياته، ليلعنه الله مليون مرة وليقطع نسله الجبان المفتقد إلى عنصر الكرامة، أما أمها، فقد مالت نحو أثيل، وكذلك اتّكأت ياسمين على مرفقها لتجيد الإصغاء .

_"سأشارك في مسابقة لأحسن قصة قصيرة "أعلنت أثيل بسرور" أعلنوا عنها في الجريدة الأسبوع الفائت، في البداية لم أتحمّس كثيرا، لأن لغتي ضعيفة نوعا ما، لكنني سرعان ما غيرت رأيي، فلست أخسر شيء إن أنا شاركت، أما الجوائز، فهي قيمة جدا بالنسبة إلى الثلاثة الأوائل الفائزين، جهّزت بعد المحاولات على أنها ليست جيدة، أحتاج إلى مكان هادئ أستطيع أن أجمع فيه أفكاري ".

_"و أين ذاك المكان؟ "استفسرت الأم، وقد نطقت عيناها بالقلق .

_"البحر طبعا يا أمي، البحر، من غيره يصلح مصدرا للإلهام، خاصة بهذا الطقس البارد، ستكون الحركة قليلة، هناك سأجلس، وأكتب باطمئنان".

إذا؛ فلم تكن المفاجأة خطوبة قريبة و زيارة أهل الوقح خليل إلى بيتهن، الحمد لله: فكرت ميرنا بانشراح داخلي، ولم يكن وجهها المسترخي بعد انكماش إلا علامة على ذلك، و لكن يبقى احتمال عودتهما الى بعضهما قائما كما تقوم أعمدة هذا البيت المكدود، فلا ينتظر أن تسعد فتاة إلى هذه الدرجة المغالية لمجرد أنها ستكتب قصة غبية على شاطئ البحر أو تجمع قطيعا من الأغبياء لدهن جدران البيت، ليتها تستطيع استعارة عقلها لثوان، ليتبدّد الغموض الثائر في عقلها هي، كم أنها منفعلة تأكلها الحيرة ويربكها الستار المنسدل.

_"أثيل إنك تخافين البحر يا عزيزتي"و تذكرت مليكة مشهد ابنتها وسط الأمواج المتلاطمة، فشعرت بانقباض شديد و دهمها قلق عنيف "منذ أن أوشكت على الغرق و أنت ترفضين حتى الوقوف على مسافة أقدام منه "

_"ذلك عندما كنت طفلة يا أمي، انتهى زمن الخوف، أنا اليوم لا أخاف من شيء "وأخيرا نظرت إلى ميرنا نظرة قويّة متحدية، تكتنفها معاني الشجاعة والصمود و اللامبالاة، ولبثتا دقيقة تحدّقان إلى بعضهما، تتحاوران صامتتين، و كل منهما تفهم صمت الأخرى، كان هناك وميض مبهم في العينين السوداوين، وميض محارب شجاع ، ضحّى بنفسه وبعائلته وماله لأجل وطنه، وعندما عاد مبتور الساق مغتبطا، كوفئ بتهمة الخيانة العظمى، ونظرات الاحتقار، وأصابع الابتذال وغمزات السخرية

وميض إنسان فقد القدرة و الشهية في آن واحد ليشرح و يفسر، و يعلل، و يقنع، وميض إنسان لم يعد يهمه أي شيء لأنه خسر كل شيء، و فجأة انسلّت خاطرة عودته إليها خلسة من عقل ميرنا التائه، مخلّفة فيه علامة استفهام ضخمة، و أحسّت أن العينين المواجهتين لها متّقدتان كنار هائلة تحرقانها وتتهمانها، عينان لا تشيحان ولا تستسلمان، شجاعتان شامختان، وشعرت لوهلة بالشعور الدخيل الغامض يتسلّق ببطء وتريث نحو النور لتتمكّن من فهمه، شيء ما يطبخ في قلبها شيء ما بدون رائحة أو ذوق.

كانت أثيل كمن توجّه الخطاب لها بشكل خاص قائلة "لست أخافك يا ميرنا، افعلي ما تشائين ،اصرخي و أخبري العالم كله أنني داعرة رخيصة، وحتى أمنا أخبريها فأنا لا أتأثّر أبدا، ولست أبالي بهم و لست أبالي بك كذلك، لقد فقدت خليلي بالأمس و أنا مهيأة لخسارة العالم بأسره، حدث أن بلغت نقطة حاسمة في حياتي وأدركت أن الخوف نصيب أولئك الذين يملكون شيء قيما ليخسروه، أما أنا، فلست أملك شيئا لأخاف من خسارته، فقد خسرت بالأمس أعظم الخسائر في حياتي".

_"لا البحر ولا المرتفعات "أردفت أثيل واثقة "أستطيع وضع قدمي فيه دون أن أخاف منه، البشر هم المخيفون يا أمي، أما البحر ،فإنه وديع مسالم لا يغرقك إلا إذا أصررت على ذلك"

_"ما هذه الفلسفة الغريبة؟ "علقت الأم متضايقة مقطّبة حاجبيها.

فلم تجب أثيل على استفسارها بل حوّلت الحديث إلى مجرى مختلف

_"هل تحضرين لنا طبق القرنبيط في الفرن؟ لم نتذوقه منذ ستة أشهر،أتذكرين؟ عندما احترق الطبق".

_"لا تذكريني يا أثيل، تلازم رائحته أنفي من حينها "وجعّدت أنفها زافرة "وأنفر من مظهره حتى و هو نيء لاقترانه بها".

_"ودعنا نحضر حساء الدجاج و طبق الفاصولياء بالثوم و التوابل، وسلطة الأرز مع الخضر كوجبة غداء، وكذلك فطيرة التفاح عندما تأتي السيدة سميحة وابنتاها لمساعدتنا في طلاء البيت".

_"أجل من الواجب علينا تجهيز وليمة من أجل السيدة المبجلة و فتياتها "قالت ياسمين متحفزة، تحذو حذو حماس شقيقتها "سأساعد أيضا في التحضيرات".

_"سأشتري فستانا جديدا هذا المساء "أخبرت أثيل "أريده بألوان فاتحة زاهية ليرفع معنوياتي عندما أبدأ الكتابة".

_"إنك متحمّسة جدا، وهذا يسرني "رفرفت دموع السعادة و انطلقت عاطفة الأم الحنون من عقالها "أتمنى لك التوفيق دائما و أنتما أيضا،أود القول أنكن عزيزات على قلبي، أنتن كل حياتي، لا أستطيع أن أتحمل فقدان إحداكن".

_"هيا يا أمي، إنها مناسبة سعيدة بينما أنت توشكين على البكاء "خاطبتها ياسمين بصوت عاطفي رقيق "ستبكين أثيل، إنها الآن تكبح دموعها بشقّ النفس".

وعندما تُركت أثيل وميرنا لوحدهما، لم يعد يسع الأخيرة أن تصمد أمام الفضول الشامس، فقالت بنبرة ساخرة، وهي تدلي الدلو لتستفزّ مياه البئر الراكدة العميقة .

_"ماذا حلّ بخليلك الغالي؟،هل استطعت نسيانه بهذه البساطة؟" .

سرعان ما جاءها الجواب كأنه كان يتصدّر رأس اللسان ببرود

_"من خليل؟ إني لا أعرفه" ردّت أثيل ببرود قارس و سدّ الجواب كل طريق لطرح المزيد من الأسئلة، لأن أثيل استقامت في وقفتها، وخرجت دون أي توضيح.

بعد أن أغلقت الباب خلفها، و رفعت بصرها المثبّت على صفحة جريدة منتزعة عالقة، لمحت أثيل جميلة: العدّوة اللدود لسميحة تدير المفتاح في الباب ثلاث دورات لإحكام غلقه، كان وزنها يتضاعف بشكل ملفت محولا جسمها إلى كتلة بيضوية من اللحم، أثقلت حركتها فغدت تمشي مثل بطريق، ووجهها يشبه فطيرة منتفخة مطلية بالمساحيق المبهرجة، وخطواتها بطيئة كسلحفاة، وجسدها يتهادى عندما تنقل ثقله من قدم إلى أخرى أثناء المشي، وقفت تلوح لها بإحدى يديها، فمع أنها و سميحة تتنافران و تتشاجران، و تتبادلان المسبات و الشتائم، مع أنها كذلك لا تظهر حبها إلا للذين يخدمون مصلحتها و مصلحة زوجها، فهي لا تتورّع عن إخبار أثيل في كل مناسبة تجمعها بها أنها تحبها و تعزو هذا الحب إلى سبب مبهم لا تعرفه، على أن تعبيرا من التذمّر يرافق ذاك الاعتراف، لعدم ميلها إلى حب الناس، و على وجه التحديد أحباء البغيضة سميحة.

_"صباح الخير يا بياض الثلج "حيتها عندما أصبحت أثيل مقابلها، متفحّصة إياها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها كأنّها جهاز أشعة "لو أن تلك البغيضة تسمعني ستحتجّ قائلة: إن هذا اللقب يسيء إليك،فتلك الشيطانة بياض الثلج كما يقدر عقلها البليد عاشت مع سبعة رجال، واستيقظت على قبلة رجل غريب،كيف تحتملين أسلوبها السوقي وجهلها الشنيع، في مناسبات نادرة تمتنع إظهاره ".

إن ذلك سبب مغر لإطلاق ضحكة عالية، و لذلك أعادت أثيل رأسها إلى الخلف و ضحكت، وكانت ميرنا قد صعدت بسرعة البرق إلى غرفتها كيما تسترق النظر إليها خلف الستائر المسحوبة جزئيا، على ما تضحك؟ماذا تخبرها تلك السيدة البدينة كي تقهقه في منتصف الشارع على تلك الشاكلة؟ ثم لماذا عليها أن تقلق عليها؟ إنها ليست قلقة، هي فقط نوبة فضول لم تشبع.

"إنها سيدة طيبة"دافعت أثيل عن محبوبتها وتأبطت ذراع جميلة ثم مشتا بتريث شديد" أنتما فقط لا تتناغمان، شجاركما أصبح عادة رسمية مثل الأعياد و المناسبات الوطنية".

_"ربما تقصدين أن العلّة في أنا يا أثيل "استنكرت جميلة مغضنة جبينها، ماطة شفتيها.

"لم أقصد ذلك يا سيدة جميلة "صحّحت أثيل فكرة السيدة المستاءة " أنت أيضا سيدة طيبة، وربما تحبان بعضكما و لا تعرفان، فالعداوة دائما تُنتج الحب".

_"أعوذ بالله " استدارت ثم بصقت على الحائط "هل إحدانا رجل لينتج عن العداوة حب وهيام، لا يا حبيبتي، أفضل أن أحب كلبا، أنا أبغضها"شدّدت" وهذا شعوري من أول لقاء جمعنا، شعرت بكراهية بديهية، كأننا التقينا قبل ذلك، وكنت سأسدي لك نصيحة جيدة بخصوصها" اتّخذت هيئة مناسبة لتنصحها ثم قربت شفتيها السميكتين وصدر عنها صوت انخفضت نغمته

_"هل سألت نفسك يوما يا أثيل عن السبب الذي يبقيك عزباء إلى الآن؟،من غيرها السيدة سميحة، أجل أجل، إنها نذير شؤم وتشوّه سمعتك بأفعالها، يدهشني أنك لم تتوصّلي لهذه النتيجة إلى الآن، فتاة بمثل جمالك وأدبك، يحبها الجميع، وأنا على رأسهم ،رغم أن عدد الذين أحبهم لا يتجاوز الستة، نفسي وزوجي وأبنائي الثلاث وأنت أيضا ضمن القائمة، إن من مصلحتك الابتعاد عنها".

_"لقد صنعت أيامي الجميلة" اعترضت أثيل بنبرة عاطفية ساذجة و شاب عينيها بريق دافىء، أحفظ جميلة قليلا" وإنني ممتنة لها، هل سبق لك و أحببت شخصا مثل أحد من أبنائك، لا، أما السيدة سميحة، فتحبني كأنني ابنتها".

_"لست سوى ساذجة غبية يا أثيل "زأرت جميلة" لا تعرفين مصلحتك، لقد نصحتك، ورفضتِ نصيحتي ".

_"أشكرك عليها، هل سمعت أنني سأشارك في مسابقة أحسن قصة قصيرة "فهزّت جميلة رأسها غير آبهة أن لا " أجرتها جريدة النور و تقديم المخطوط قبل منتصف الشهر القادم"

_"إنك متحمسة من أجل أمور غير ذات بال"قالت جميلة بخيبة أمل "يا أثيل، تحمّسي عندما تظفرين برجل و ليس كتابة قصة قصيرة، لم يقدّم لك عملك في المكتبات إلا سلوك المثقفين المنحرف الشبيه بالبدعة، إنهم زمرة من المجانين كثيفي الشعر غريبي الأطوار بينما يحسبون أنفسهم أصحاب عقول منفتحة، تخلي عن عادة قراءة الكتب واستعملي خصائصك هنا و هناك لتصطادي رجلا جيدا".

_"هناك رجل في الحقيقة "قالت أثيل محفّزة فضول السيّدة.

_"هذا رائع، أيتها المخادعة " ظهرت نواجذها، فقد ابتسمت بحبور " لهذا تبدين بهذه السعادة والجمال، هل أخبرتك أنك تبدين جميلة اليوم! "

_"هل يبقى سر بيننا يا سيدة جميلة؟ "همست أثيل بصوت خافت

_"أقسم أني لن أخبر أحدا"

_"أعتقد أنك ستكونين مدعوة قريبا لحفل زفاف".

_"تقصدين زفافك؟ رائع، أين يقيم؟،أرجو أن لا يكون بعيدا عن هنا "

"لا يقيم هنا، على الأقل ليس من منطقتنا، أرجوك يا سيدة جميلة على الأمر أن يبقى سرا إلى أن يتقدّم لطلب يدي ".

_"ألا تثقين في كلمتي يا أثيل، احذري من السيدة سميحة، إن ما أطلعتها و ليس مني أنا" عبّرت متشدقة

_"لم أخبرها إلى الآن، إنه يستعجل الزواج مني " قالت أثيل

_"ما اسمه؟ "وعندئذ تلاشى البريق المسرور من عيون أثيل، واكتسحها عذاب حالك واضطرم حزن مشفر لم يسترع انتباه جميلة لانشغال حواسها بإشباع فضولها .

_"ليس مهما أن تعرفي اسمه يا سيدة جميلة ".

_"و ماذا يشتغل؟ "فرمقتها أثيل بنظرة تدل على ضجرها و لكنها ابتسمت "لست أسالك إلا حفاظا على مصلحتك،فبنات هذا الجيل يملن إلى الحب قبل الزواج و ما شابه، و إن كان بدون عمل، فإنها ليست قضية مقلقة بالنسبة لعقولهن المهووسة بقصص الحب، تزوجي من تتوسمين فيه خصال الأب الجيد لأطفالك،من يستطيع أن يتحمّل المسؤولية، أن يكون لديه عمل، تذكري ذلك، و ليس مهما مصدر المال، المهم أن لا تجوعي و تعري و تبردي و تمشي حافية القدمين، المهم أن يغادر البيت من الصباح، و لا يعود إلا المساء محملا بما يفيد راحتك، وليس عاطلا يجلس

معك في البيت، المال مهم يا أثيل، لا سعادة و لا توافق دون مال " كانت جميلة تدافع عن زوجها المنخرط في جميع المناسبات الانتخابية لأي نوع من المناصب.

_"إذا فليس مهما أن يرتكب جرما ليأتيني بالمال؟ " سألت أثيل و رفعت حاجبيها

_"ليس القصد يا أثيل،ليس القصد،ألمح إلى أن الرجل بماله و ليس بوسامته أو مظهره ".

الفصل الثالث عشر

وضعت أثيل حجرا ذا وزن معتبر بحجم اليد على رزمة من الأوراق المدوّن عليها محاولات لإنشاء قصة قصيرة لا تزيد أسطرها عن سبع تحاشيا لبعثرتها بفعل الرياح المتناوحة، كانت عبارة عن مسودات مخفقة، غير موفّقة،محكوم عليها بالفشل، تحتاج إلى تمزيق أكثر من حاجتها إلى تصحيح و مراجعة وتحسين وتشجيع، وكانت سميحة قد صرّحت متشائمة أنها تتمنى لو تعطيها العلامة الكاملة لو أنها استوعبت من المعروض عليها ما يجعلها تلعن أساتذة اللغة؛ لأنهم كانوا دوما يوهنون عزيمتها بعلامات ضعيفة.

ولم تكن غاية أثيل في الواقع استجداءً للعلامات الممتازة، أو أخذا بالآراء أو تقييما للعمل؛ فهي لا تجهل أن سميحة غير مخولة لمثل هذه المَهمة الصعبة على نفسها، ورغم أن هذه الأخيرة استمرت في التبجح لسنوات بقدراتها العلمية و الأدبية، فقد توضّح على لسان إحسان صديقتها أنها كانت تتكىء على جدار الغشّ و التحايل كيما تكسب معركتها ضد الطرد من صفوف الثانوية. وإن ما أخذت بعين الاعتبار عملياتها الحسابية الخائبة و ثقافتها الضئيلة ولغتها الركيكة؛ فلن يسحب منها المرء إلا الغرور و الادّعاء المتبجح، بيد أنها كانت صريحة عندما نصحتها باستشارة فارسها المغوار خليل؛ فهو حتما سيقيم عملها بتدقيق ناضج ونصيحة قائمة على الثراء الفكري السليم .

ولكن القضية بمجملها تميّزت بطابع معين، كترسيخ فكرة بعينها في عقول أفراد العائلة والجيران وأصدقاء العمل وعجائز الرفقة، لقد كان لها هدف حصيف أحاطته بحذقها ودججته بتخططيها البارع وحقنته بألم قلبها الكئيب الكسير جدا، الألم الذي أدركت مزوّدة بالمعطيات المحيطة أنه لن يتوارى إلا خلف ساعات النوم القليلة.

إذ و بعد تلك الأمسية التي قضتها نائمة استيقظت في ساعة متأخرة من الليل، يرافق كل خفقة قلب ألم مدمر، و أسى موجع و تنبعث كل دمعة من مكان سحيق من قلبها المعذب، وكانت في الحقيقة مستيقظة عندما فتحت أمها باب غرفتها لتتفقّدها، غير أنها تظاهرت بالنوم العميق كيما تنصرف سريعا و تتركها لوحدها.

وهكذا طفقت تحضر نفسها تحضيرا لا يتسلل إلى ذهن مخلوق يعرفها أو لا يعرفها، أنه محض تمثيل أريب متناهي الجودة، فائق الإتقان، كامل الأركان، مكوّن من عناصر رئيسية لا تتقبل الخطأ و لا تتحمّل هفوة صغيرة، و إلا فإن العواقب لن تكون مدمرة لأمها فحسب؛ بل لكل محبيها العزيزة على قلوبهم.

و ارتكزت تلك الخطة بالدرجة الأولى على تجاهل تلميحات أختها الوقحة المستفزة؛ بل تجاهلها هي كليا من أعلى نقطة فيها إلى أسفلها، من ظاهرها النكد إلى باطنها الحاقد، من قلبها الممتلئ بالكراهية إلى عينيها المتلظيتين غلا، من فمها الناطق تجريحا وإهانة إلى حنجرتها المسمومة، إلى عقلها موطن الدسائس والخداع ومصنع المكائد و المؤامرات.

ثم التظاهر أمام الجميع بمن فيهم ميرنا أنها فتاة سعيدة،أجل سعيدة، وفرحة فرحا مزخرفا بالطموح والتحليق، واثقة بمهاراتها المكتسبة وتجاربها الفعّالة في ترويض الآلام والأحزان العنيدة، لقد قطعت أول الأشواط المستعصية، ذاك الصباح عندما استيقظت و نظرت إلى المرآة مليا فلم تر إلا فتاة شاحبة منتفخة العينين تحتهما هالة حمراء بلون الدم دلالة على تورّم عينيها من شدة البكاء، واهنة العزيمة، متهدلة الكتفين، كانت هذه العلامات جلية على جسدها، فحتى عودة الأم من عزاء حزين لن يفلتها من الاستجواب، و لم تكن ميرنا تستطيع التحكّم في طباعها القاسية هذه الأيام، ولأنها تجرأت على العبث بأغراض ليست خاصتها و التنصّت خلف الأبواب، وإرسال رسالة محرضة مسمومة إلى رجل تدعي أنه لا يعجبها، فلن يضيرها أن تزيد وزرا آخر على حملها الثقيل من الأوزار.

وهكذا استعانت بالمساحيق، والطلاء الأبيض، وأحمر الشفاه الناعم؛ لتطمر مظاهر الجنائز والثكل في وجهها، وشكرت مخلصة مبتكرها، كم أنها مفيدة في تغطية الأزمات النفسية والانكسار الروحي، أما ارتداء فستان أسود أنيق، فإنه اللمسة الأخيرة الملحة لإظهار السيدات الكئيبات بالصورة القوية المتماسكة، كان هذا موضع تبني من النساء اللاتي تعرضن للخيانة الزوجية ففي الوقت الذي توحي فيه ثيابهن بعدم الاكتراث، تجترّ قلوبهن الوجع البئيس فقط من أجل أن يثبتن نظريا أنهن غير عاجزات، و أنها قد دفنت رجلها مع آخر دمعة تدحرجت على وجنتها، وبالنسبة لأثيل؛ فليس لها من فائدة في توثيق أي نظرية لرجل، كل ما في الأمر أنها تحتاج بإلحاح محموم لتوثيقه في عقول مجموعة من الأعزاء و الأصدقاء.

ولم تدر أمها و شقيقاتها أنها تمرّنت على الأداء، كأنها ممثل مبتدئ يقف على خشبة المسرح لأول مرة، و أنه كان يرتجف خلف الستارة خوفا من انكشاف ضعفه، وأن التوتر الذي طاف بركبتيه و الارتجاف الذي نال منهما كاد ينسيه المشاهد التي سهر يحفظها عن ظهر قلب.

وأنها شجّعت نفسها بقدر ما تقتضيه الدواعي المستقبلية، فليس لها وهي الممثل الرئيسي في المسرحية أن تصمت فحسب، لا،فذلك لن يرفع الكفة، إن من واجبها مشاركتهن الأحاديث وتوجيهها مثل القوس من نقطة إلى أخرى، و تقهقه حتى تظهر نواجذها و تبتسم آليا حتى مع خلو الساحة من دوافع و مباعث، و تحرص على نشر مشاريعها المستقبلية بحماس يافع و حرارة

عزامة، مشددة التعليمات إلى نفسها أن تتجنب البكاء فإن ما هي بكت لمرة واحدة لن تفنى دموعها قبل انقضاء اليوم.

وساعدتها ياسمين جاهلة بحجم صنيعها، عندما شرعت تقص حكاية ليلة ساهرة مع اللصوص والجبن والهرر الجائعة و الفتاتين المذعورتين، ولو أنها استطاعت لما ضحكت؛ بل إن البكاء كان أكثر من مطلب ضروري، لو استطاعت لما تحلّقت معهن على طاولة الإفطار،لو استطاعت لما تحمّلت أن تنظر إلى العينين السوداوين النديتين بدموع الفخر و القلق و الحزن الظاهر لموت جارة قديمة راحلة عن دنياها، بل و للأمانة و في اللحظة التي لاحت فيها العبرات المتأثرة شعرت أنها لا تتحمل بقاءً،ولولا أن أمها أسرعت فلجمتها قبل نزولها لما وسعها أن تضبط نفسها، كانت كمن يجلس على الجمر، كمن يرتدي حذاءً ضيقا ينتظر بفارغ الصبر انتزاعه لترتاح قدماه، واتّفق أن انتعلت أثيل واحدا في طفولتها، و ارتأت أن تنزعه و تمشي حافية و منعها منظر قدميها المتورمتين فأعادته إليهما بسرعة،خوفا من رواية بترهما و بقائها من دونهما التي ألّفتها أمها، ما أصعب أن تنتعل حذاءً ضيقا !! و الأصعب منه عدم انتعاله البتة.

ومن ناحية ميرنا فتفاديها لم يكن بالأمر العسير، لقد جعلتها تعاني وآذت شعورها و لم تخرج من غرفتها قاتمة المعالم المفعمة بالسوء الرازحة تحت رحمة صاحبتها عديمة القلب، لم تخرج ذاك المساء و إلا قد خرج من قلبها كل ذرة حب لها، لقد مات الإيمان القوي بالأخوة والروابط العائلية المتينة وانخرطت الأواصر في منظمة مفكّكة، منتهية الصلاحية، إغلاقها قضية وقت وتوقيت.

لم تكن الكراهية بالشعور المتوقّع من قلب رحيم كقلب أثيل،قادر على الحب والتسامح والغفران، قلب مفعم بالحنان والعاطفة، قلب سريع التأثر، بيد أن عدم التقدير والجفاء العاطفي والتجاهل يعتبر أسوأ من الحقد و الاحتقار و الكراهية بالنسبة إليها، في الوقت الذي عجزت ميرنا طيلة ذاك الأسبوع عن تفسير الشعور النامي في الاتّجاه المعاكس لطبيعتها الضالة في أغوار الحقد و المشاعر السلبية.

ولم يكن مرد مراقبتها الدقيقة لأثيل وفاءً صادقا لطبيعة قديمة أو نزعة خبيثة كما دنت الفكرة لرأسها، و رغم أنها حاولت أن تزعجها و تكدّر صفوها بتدبير من عقلها، إلا أنها لم تزد عن اعتزالها كارهة لخطط العهد المنصرم بأمر حازم من قوة متمكنة.

_"ليست إلا هدنة "أسرت في نفسها، عندما ترتفع معنوياتها قليلا ستنقضّ عليها كما ينقض صقر على صوص منسل من قن، و حيث أن ما يحرّضها ليس شيطانا من نوع عادي، فقد تجرأت على قلب المواجع مرتين أو ثلاث بالإضافة إلى تلميحها الخسيس الدائم عن فتيات خليعات أنتجن

بفجور زرافات من أطفال السفاح بمصير مجهول، وهكذا تبعّضت مواثيق الهدنة لعدم مقدرتها على رؤيتها مبتهجة وسط جمع من الدهانين المخفقين المقهقهين على قصص الأيام الخوالي، وبقيت مكتوفة الأيادي في وجه هذا البرود المستحدث و الفتور المستفز، ليتها تبدي ردة فعل، لماذا ليست تخاف و ينكفىء لونها كسابق عهدها؟.

أحيانا كان الشعور المتسلّق يومض خاطفا جليا، و قبل تمكنها من استجلاء المعرفة كان يختفي، ولولا أنها تعرف نفسها معرفة جيدة، لاعتقدت أنه قلق على شقيقتها، و تألّم لألمها ولكن ميرنا هي ميرنا، الأخت الأنانية التي لا تهتم.

لا تعتبر ميرنا مصيبة إلا في قضية واحدة إذ أن الجواب الصامت الذي كان يتراءى لعقلها ينبعث من عقل أثيل لم يكن وهما أو خطأ، كانت مصيبة عندما تخيلت أختها تخاطبها قائلة "لقد خسرت كل شيء،و ليس لدي ما أخاف خسارته الآن".

وكانت مخطئة أيضا عندما فكرت أن أختها كائن سعيد الحظ، سعيد الروح، لأنها في الحقيقة لم يكن أتعس منها في العالم بأسره إلا من هم بمثل أزمتها العاطفية، أولئك الذي سبقوها بالاستسلام للكآبة أسرع مما كان ينتظر منهم أن يفعلوا.

وعندما أنهت أثيل فصل مخططها الأول ظافرة بالإطراء الذاتي على الأداء المحمود والموهبة المصقولة، و بينما كانت قدمها تطأ أرض الشارع لمحت جميلة تقفل الباب، فاستوعبت أن فرصة ذهبية أتت عند قدميها، سيدة ثرثارة تمسك السر في جعبتها أسبوعا على الأكثر، قبل أن تنفجر مفشية إياه في عاصفة من الأحاديث النسوية المثيرة، سيدة يميل هواها إلى تقديم أخبار دسمة "هل علمتم أنها ستتزوج شابا محترما "،"ها حقا،من يكون؟"،"للأمانة لست أعرف قابلتها ذاك الصباح واعترفت لي قبل الجميع حتى قبل من يدّعون صداقتها "..."لا ليست تواعده، ما هذا الكلام أعوذ بالله، إنها فتاة محترمة، استنتجت عن طريق استدراجها أنه شاب مناسب من منطقة أخرى، و كذلك فهمت أنه جنّ على الزواج منها بعد أن زار المكتبة ليشتري كتابا، و ما إن رآها حتى خطفت لبه، وجعلته كالمخبول، و بدا كأنه أعجبها كذلك، فلقد بدت في غاية السعادة والحيوية، للصراحة لم يسبق لي أن رأيتها على تلك الصورة المسرورة من قبل، وقالت إنها ستشارك في مسابقة سخيفة لا أعرف ما ذاك، قصة قصيرة، لست أتذكر،"

"لقد بدت سعيدة" أجل ذلك ما سعت أثيل لترسيخه في كل الأذهان، وعلى وجه التحديد أولئك الذي يملكون أفواها تتحرّك و تتكلّم بإسهاب ودون فواصل، و تذكر و تخترع و تبالغ، لقد بدت سعيدة جدا مع أن الله وحده يعلم أنها كانت تحمل قلبها في يدها و تشاهده و هو ينزف مثل الجريح.

"تبدين سعيدة "كذلك قال إبراهيم متجهما حازما ، و هو يعد بخصم الأسبوع من الراتب، أو إضافة ساعات عمل كتعويض منصف عن الخسارة التي تعرّض لها، وبينما وقفت الفتاتان على مسافة مناسبة تكتمان ضحكتهما لهذا الطبع الكزّ، ضحكت أثيل بصوت واضح، إنها سعيدة حقا، فليس من احتمال أقل من هذا، فالضحك دلالة حاسمة على سعادة الإنسان، هل كانت تدعو في الصلاة من أجل أن يتصدّع الحائط ويتشقق السقف؟سألها إبراهيم مرتابا، فأجابت: لا، فهي تحب عملها.

_"و تحبين أكثر مرافقة السيدة سميحة"علّق جانبه القاسي الجارح " سامحها الله، و التغيب عن العمل، وتأخرتِ مرات "

_"إنك رجل طيب يا سيد إبراهيم "

_"و المناسبة؟ "أجاب بغير اهتمام

_"أشعر برغبة في مصارحة كل إنسان بالصفة المميزة فيه ".

_"ربما لن يشاركك البعض رأيك،أنا رجل مستقيم عملي ،أفضل فصل العواطف عن العمل".

وشعرت أثيل، و هي تودّعه لأجل الإجازة، أنها ترغب بإخباره المزيد، أنها مثلا تمنحه منزلة الأب، وأنها لم تنزعج إلا نادرا من أسلوبه الصارم و تحوله المفاجىء و صراخه في وجهها عندما أسقطت الكتب و تأخرت ، و أنها تتمنى لو بوسعها طبع قبلة على جبينه الوضيء.

لا ،ستشرع بالبكاء بينما لا ينبغي للسعداء أن يبكوا، ينبغي فقط أن تزرع في رأسه بذور سعادتها وابتسامتها العريضة و هي تخترق عتبة الباب رفقة رفيقتها.

وابتسمت لكل إنسان: بركة،حميد، بائع الثياب وتأمّلت الجدران والوجوه بأصنافها وأشكالها وأحوالها، وقبل أن تنفصل عن الفتاتين أخبرتهما عن مشروعها الصغير في كتابة قصة قصيرة ناجحة، متذمّرة من انفلات الأفكار وضياعها قبل تثبيتها على الورقة، ولم تكونا لتشجعاها لولا أنهما تتمنيان أن تحظيا بمثل هذه الغنيمة

_"ربما ستصبحين مشهورة، وتتخلّصين من لعنة السيد إبراهيم" وانخرطت الثلاثة في الضحك

_"إنه رجل حريص على ممتلكاته فقط" أجابت أثيل الجواب المعتاد

_"حريص !إنه لئيم، ليتنا نراه كما ترينه أنت يا أثيل، إذا ما وجدت عملا آخر يعطيني ربع الراتب سأتركه و حرصه للشياطين"وارتفعت القهقهات الصادرة عن ثلاث أفواه ثم افترقتا عنها معتقدات أن أثيل سعيدة مثلهما أو يزيد.

و في صباح يوم الإثنين عادت سميحة قبل صياح الديك حتى، بأمل خائب وأسف مسطور على وجهها تندّد ببواعث السيدة الخرفة لاستدعائها بينما هي امرأة مشغولة، ذات برنامج مزدحم

_"اشتاقت إلي" تذمّرت و هي تذرع أرض الغرفة و تطوّح بيديها في الهواء "و لم تمت في الأخير، على الأقل كنت سأضرب عصفورين بحجر، و لا أضطرّ للسفر مرة ثانية لحضور جنازتها "ثم انتحبت "أهذا سبب أستدعى لأجله يا أثيل؟و بينما كنت هناك أتميز غيظا كادت بغلتاي تحرقان المنزل، أجل ألم تعرفي لقد تركتا الغاز مفتوح، و لولا أن أعمالي الخيرية شفعت لي وسبقت القدر، لكان بيتا بنصف جدار أسودا كالفحم، و كانتا انتقلتا إلى دنيا الحق وارتحت منهما".

_"سيدة سميحة "قاطعتها أثيل بهدوء الحمام "تعالي اجلسي، لدي خبر لأنبئك به"

_"تبدين في غاية السرور، هل من أخبار سعيدة "سألت سميحة متحمسة

_"أجل "و قبضت أثيل على يديها

_"هل تساعدينني في طلاء المنزل رفقة ابنتيك "فأفلتت سميحة يديها متجهّمة

_"أهذا هو الخبر السعيد؟ "

_"لا،ليس هذا "و لمعت عيناها و ابتسمت ثم أطرقت بطرفها خجلة "إن خليل يريد زواجا سريعا،و بسيطا عائليا، مما يعني أن علينا التعجّل،ليس بوسعي توظيف دهان "

و تلاشت سورة الغضب من وجه سميحة و سرعان ما عانقتها .

_"إذا ،فالسيد خليل عرض الزواج أخيرا، يا له من خبر مفرح !متى حددتما موعد الزيارة الأولى"

_"على الأرجح ستكون منتصف الشهر القادم والزواج بعده بأسبوعين"

_"ها إنه موعد قريب "انفعلت سميحة بفعل ضيق الوقت "هل اشتريت فستانا مناسبا؟ ماذا عن التجهيزات الأخرى،ما،،"

_"ستساعدينني، أليس كذلك؟ لم أخبر أمي بعد، و لست متأكّدة أن فكرة إخبارها الآن سديدة، أخطّط لإعلامها أسبوعا قبل الموعد و أخطط لترك المَهمة لك، سأقول أنه رآني للمرة الأولى رفقتك في تغطية إعلامية للجمعيات الخيرية،تعرفين طبع أمي"

"أعرفه "أجابت بنزق "لو تعلم أنك تحبينه لطبقت عليك قوانين الجاهلية التي تنصّ على عدم الزواج عن حب".

و عندما قلّبت المسألة على جميع وجوهها، تحوّل حماسها إلى دموع جارية

_" سيدة سميحة، لماذا تبكين؟ " اضطربت أثيل و اشتعل عقلها حيرة .

_"إنني سعيدة لأجلك، كنت أتمنى أن أرى هذا اليوم،و لكنني سأجبر على فراقك يا أثيل، الأمر الذي سيؤلمني "

_"لن نفترق مطلقا، بوسعك زيارتي متى شئت"

_"لكنه لن يسمح لك بالتسكّع معي كما كنا نفعل".

_"إذا فأنت تقرّين أن ما كنا نفعله مجرد تسكّع " و ابتسمت مازحة محاول التهدئة من روع سميحة التي ضحكت من خلال دموعها

_"أتذكرين "قالت سميحة بلهجة عاطفية متأثّرة "عندما كنت طفلة، عندما رأيتك أول مرة تحيطين نفسك بتلك الدمى، هناك استوليت على قلبي يا أثيل "

_"و أنّى لي أن أنسى؟ "اغرورقت عيناها بالدموع " ستسببين بكائي يا سيدة سميحة،إن خليل يحبك كثيرا، و سوف يسمح لنا بالتسكّع إن كان ذاك ما يبكيك"

_"لن أراك كل يوم ".

_"لكننا سنتبادل الرسائل، و ربما نستطيع الحديث عن طريق الهاتف العمومي إن لم تكسر الفاتورة ظهرك "

_"سأستغني عن المشاريع لأجل أن أكلمك "صرّحت سميحة بإباء "و لكن دعينا لا نبكي الآن، اعتمدي علي وعلى ابنتي في طلاء البيت، سأكسر ظهريهما إن أبديتا أدنى شعور بالتذمر"

_"سيدة سميحة، هل أسالك معروفا آخر؟ "

_" أي شيء "

_"هل تعتنين بالسيدات العجائز بدلا عني، لقد زرت السيدة راضية وصفية بالأمس على أنني لم أطلعهما عن نبأ زواجي القريب، فذلك سيؤلمهما كما تعرفين، أرجوك "رجتها عندما أبدت بعض النفور و الخمول .

_"السيدة صفية تبحث فقط عن مصغ لأحاديثها حول زوجها، ساعة في الأسبوع، والسيدة راضية تخلّى عنها أشقاؤها، و زياراتهم تكاد تكون منعدمة"

قبل أن تتم إعلان القائمة، مطّت سميحة شفتيها في استنكار واضح

_"أعرفهن جميعا، صفية ذات العيون الشبيهة بعيون البقر، و راضية التي تحدّثك عن أقدم أسلافها كأنّها عاشت معهم و أمنية التي لا أعرف مناسبة تسميتها بهذا الاسم، تنام و تشخر بينما تحدثك، و أسماء تشعرك أنه غير مرغوب فيك، و جليلة تسألك قهوة أو شاي و تنتظر أن ترفضي كليهما كأنك ترفضين شتيمة؛ لأنها مقترة، ااااه يا أثيل، على الأقل كنت اخترت لنا جماعة جيدة، لا تحزني، سأهتم بهم".

_"حقا؟".

_"وهل لدي خيار، ضعي لي جدولا للزيارات و الرغبات كي أتقيد به، سأعلقه على جدار المطبخ".

_"إنك رائعة يا سيدة سميحة".

_"و الآن هلمي أخبريني عن كل التفاصيل، كيف حدث أن عرض عليك الزواج، هل عرض برسالة أو في آخر لقاء لكما بالحديقة؟".

التهمت أثيل طبق القرنبيط بشهية مزيفة، وبنفس الشهية التهمت أفخاذ الدجاج مع الأرز وأحسنت الأم تحضير بعض أنواع الكعك لإرضاء نهم ابنتها المفاجئ و أثنى الجميع على مهارتها عندما شاركتهن سميحة و بناتها وجبة الغداء و العشاء بعد أن سلخن يومهن في دهن جدران البيت بلون أزرق فاتح سار للعيون، و كانت ياسمين أكثر أهل البيت حماسا و ابتهاجا لهذا التحديث البيتي الطارئ، و كانت أثيل تتردّد على غرفتها في أوقات الغسق، تغنيان أغاني الطفولة الأثيرة، و كان يقطع صوتهما ضحكات ساخرة إثر نشاز اللحن و غلظة الأصوات، وفضلا عن ذلك كانتا تفقدان الكلمات؛ فتتريثان قبل استئناف الغناء. و كانت ميرنا تتنصّت من خلال باب غرفتها المفتوح إلى قهقهات ياسمين السعيدة بهذه الأغنيات السخيفة والأفكار الصبيانية برفقة أثيل، بينما معها المعاملة مختلفة، إنها تتصلّب مثل صنم أبكم لا تفتح فمها إلا لتنتقدها أو تضايقها، ولا تذكر ميرنا وهي تبعثر ذكرياتهما سويا في عقلها، أنهما تعاطتا حديثا تزيد دقائقه عن الخمس، وكانت عبارة عن وقت جاف بارد المشاعر، وكان النفور السمة الواضحة الجلية، إنها للصراحة لم تفعل أي شيء لتكسب ودها، و كانت تعتبر ذلك أمرا قليل الأهمية و لا يخدمها، شأنها مع الآخرين.

وعندما يجفّ حلقاهما،تتوقفان ، يلي ذلك سأم و ضجر من الغناء و سرعان ما تلجآن إلى المحادثات العشوائية التي لا تنقطع إلا لنداء من الطابق السفلي من أجل الاجتماع على طاولة العشاء

_"حسنا يا ياسي الحلوة، ستكونين محامية في ظرف أربع سنوات، ما الذي حفزك لتغيير رأيك حيث كان حلمك أن تصبحي معلمة؟ "

_"إن مهنة المحاماة أفضل؛ فهي ستفتح لي المجال للدفاع عن حقوق المظلومين، و إلحاق الهزيمة بالظالمين، ألا يروق لك خياري يا أثيل؟"

_"لا يهم، فكلتا المهنتين نبيلتان، لا يهم أن تكوني معلمة أو طبيبة أو محامية، المهم أن تكوني قوية، أن تثقي بما تفعلينه، أن يكون لك عمل يؤمّن لك قوت يومك، ولا تسوقك الحاجة إلى مد يدك الى أحد ".

_"كنت أتمنى لو أنني جميلة مثلك يا أثيل" وأحنت رأسها في حركة آسفة.

_"لست بحاجة إليه، إنه لعنة "أجابت أثيل بلوعة.

_"ليس صحيحا، فلديك الكثير من المعجبين، و بوسعك صيد أي رجل يعجبك "و تردّدت قبل أن تنطق الكلمة الأخيرة.

_"و لم أظفر بأي واحد منهم " نطقت متنهّدة و تشكلت غيمة من الحزن في كلتا عينيها و ما إن انتبهت إلى وجه ياسمين المشكّك المحلّل لسحنتها حتى ضحكت

_"لم أتزوج إلى الآن،كما ترين فكلهم مجانين بلا عقل، عديمو الفائدة "ثم أردفت بحرارة "المهم يا عزيزتي أن تملكي حظا جميلا، لا وجها جميلا، فكثير من الجميلات لم يظفرن بزواج موفّق، تسمعين عنهن بالطبع، كوني قوية فقط، لا تسمحي لأحد أن يجرح شعورك، لا تتنازلي، وأحبي ،فالحب شعور جميل يلوّن الحياة بأزهى الألوان، و يشيّد حياتك حتى لو كانت دمارا، إن الحب إحساس مدهش رغم أن أسبابه مجهولة و رغم افتقارنا إلى قيادته و التحكم فيه" وأبعدت عينيها عن وجهها و ركّزت بنقطة ما في الوسادة "إنه ينسج نفسه دون أن ينتبه أحد منا لما يحدث، يكوّن نفسه من قشرة رقيقة ضعيفة ثم يصبح أصلب فأصلب، إلى أن يتحوّل إلى كتلة متماسكة، لم يكن الحب شعورا يبدأ و ينتهي عندما نرغب في ذلك، لم يكن زرا نضغط عليه فنختار قانعين لحظة البداية والنهاية، كان الحب على مر الأزمان يختار لنا أشخاصا غير متوافقين معنا فكريا أو جسديا، مختلفين عنا في الشكل واللون والثقافة والمستوى الاجتماعي والسلوك الشخصي، أشخاصا قد تتنافر ميولنا و صفاتهم ،يختار لنا الحب ما يريد و لو كنا لا نريد ، أن تحبيه يعني أن تتمني له الأحسن حتى بعيدا عنك، أن تحبيه يعني أن لا تؤذيه"وكانت شاردة تخرج الكلمات آليا من مكان سحيق من عقلها، إلى درجة أنها خرجت عن نطاق الموضوع.

_"هل أحببت من قبل يا أثيل؟"سألت ياسمين باهتمام، فأجابت عن السؤال بنظرة طويلة حزينة و لكن لسانها نفى قائلا

_"لا، لو أنني أحببت لكنت تزوجت "ثم ابتسمت محركة رأسها حركة مضحكة "لكنني أجيد تقديم النصائح، لأنني أحسّ أن أختي معجبة برجل ما " فاحمرت وجنتا ياسمين و تلعثمت نبرتها

_"لا،ليس كما تظنين،،،"

_" هوني عليك، ارتاحي، ليس هدفي أن تبوحي لي " كان صوتها مطمئنا و لهجتها رقيقة

_"في الواقع يوجد "تشجّعت ياسمين الكتومة، التي لم يسبق أن باحت بعاطفتها لأحد، واحتلّها إحساس عنيف بضرورة البوح،بقصد الظفر بنصيحة

_"بمقدورك أن تتفهميني يا أثيل، كنت محرجة منك وخشيت أن تضحكي علي "

_"كيف خطر لك ذلك؟ " ربتت على وجنتيها "لماذا عساني أضحك عليك، لم تعودي طفلة يا ياسي، لقد كبرت الآن ".

_"اه يا أثيل،إنه لا يبالي بي مطلقا، أحبه منذ ثلاث سنوات، للصراحة يميل إلى الفتيات الأنيقات والجميلات، كما أن وضعه الاجتماعي يبدو ممتازا "

واضطرم ألم متفوّق في قلب أثيل، و لعبت العبارة "أحبه منذ سنوات، أحبه منذ سنوات "على أعصابها غير أنها كتمت شهقتها

_"لديك أهم من الجمال، و الطبقة الاجتماعية، تلك الأمور تبدو تافهة مقارنة بأمور أخرى أشد ضرورة "

_"ماذا لدي؟ "استفسرت حائرة

_"اعتزازك بنفسك، الثقة، وأمر آخر ليس من المستحسن ذكره الآن، افعلي شيئا ما للفت انتباهه، ولكن لا تصرّحي أنك تحبينه، وإياك أن يرتاب أنك تجرين خلفه، لأنه لن يقبل بك، تقول السيدة سميحة أن الرجال لا يحبون الفتاة التي تجري خلفهم،لا تعترفي له قبل أن يعترف لك "

_" أثيل، هل من اقتراحات جيدة، من السيدة سميحة، فهي قلما تقترح شيئا معقولا، هل شجعتك على أمر من قبل و ثبتت فعاليته؟"

لقد دفعتها إلى أمر، وثبت أنه خاطئ، فسميحة مفيدة، تمنح نصائح جيدة للمحبطين ومتعاطي الكحول، و لكن في مشاريع الحب، نصائحها لا تجلب إلا الخيبة.

وما إن تختلي أثيل بنفسها عندما يخلد أهل البيت الى النوم، حتى تكف عن التظاهر وإرغام نفسها على أن تكون إنسانا مختلف غير حقيقتها الكئيبة المعذبة، منتزعة الحذاء الضيق الخانق، وعندئذ تتجمد تعابير وجهها وتتبخر الابتسامة الوردية من على شفتيها مخلفة فما أحمرا مفؤودا، ثم تنهمر الدموع من عينيها بمقاومة ضئيلة مبللة الوسادة، ثائبة إلى حالتها الممزقة، مسمرة عينيها على نقطة ما في الغرفة، وكانت تتفقد حاسوبها من حين لآخر علها تستقبل معجزة آبدة، كرسالة مطمئنة تنطوي على الود القديم، وسرعان ما تتحقّق أن المعجزات ليست من حظها.

لقد كان الثمن الذي أجبرها على دفعه مرّا لا يوصف، أغلى بكثير من ذاك الذي توعّدها به، لقد توهمت أنه سيقوم بتهديدها، بتدميرها، بإزعاجها، و إن هو طرح عرضه ذاك مرة ثانية فلم يكن ليؤلمها، لقد توهمت أنه سيعترض طريقها و تراه بينما تذهب إلى العمل، بوجهه المتغضّن وعينيه الشرستين، لم يكن الثمن أيا من ذلك ،لم يكن العقاب بتلك الرحمة ، تلك الأثمان كانت ستسرها و تدلّها على أنه لا يزال يحفل بها، و يحبها، بينما الثمن الذي كانت تدفعه الآن: تجاهله وحرمانها من رؤيته و سماع أخباره، كان الثمن غاليا جدا، أن لا يهينها ،فتلك وجدها كثيرة عليها ،

أن لا يزعجها، أن لا يهددها، ما من مجال أنه نسيها و طوى صفحتها بصفة نهائية مقررة. بالرغم من تبوئها منزلة الاهتمام والتبجيل من المحيطين بها، كانت تعيش عزلة فاحمة، لا يستطيع إلا وجهها المرغم أن يبدل التعابير، أما داخلها؛ فقد تصلّب ، و تضرّر جزء كبير من قلبها إن لم يكن كله، و لم يعد ممكنا ترميمه أو إصلاحه، حيث أنه تحوّل إلى رماد يحتلّ موقدا داكنا مهجورا.

وكانت صوره تبعثر هنا وهناك على السرير، و يمعن النظر إلى كل واحدة على حدى، مبتسما ، ساخرا، برفقة أحد أفراد العائلة، برفقة أحد المشوّهين، أو المفتقدين إلى إحدى الأعضاء الجسدية، يقرأ كتابا، يحمل قلما و يدوّن، ثم سرعان ما تُمرّر أطراف أصابعها على الوجه المسالم الشفوق، على الابتسامة اللطيفة الدمثة، على العينين الفاتحتين الوديعتين، وعلى نحو مفاجئ تُجمّع عشوائيا بحيث تجعد أطراف بعضها أو تتلف جزئيا و تدسّ في الصندوق الخشبي بطريقة سريعة، ثم توضع على الرف العلوي للخزانة منزلها القرير، و عندما أعلنت الساعة الخامسة من يوم الجمعة، تمّ تمزيقها إلى قطع صغيرة بقرار حازم من اليد التي جمعتها ورعتها من الإتلاف و قلة الحرص، ثم وُضعت في كيس جنبا إلى جنب مع المسودات بغرض نثرها في مياه البحر الزرقاء يوم غد: السبت.

وفكّرت أن رسالة مؤنسة أو عناقا عطوفا أو تفهّما لمشاعرها من طرف اثنين سبّبا لها أقسى أنواع البؤس: خليل و ميرنا ،خليق بإنقاذها من قرارها، ورفع معنوياتها و إعادة الأمل إلى نفسها، ولكن أنّى لميرنا التي تفتقر إلى الشفقة والرحمة أن تنفّذ مهمة جليلة كهذه و هي التي تخطّط لإفشاء سرها وإخبار أمها، ستخبرها يوما عندما تنفجر كراهيتها و يخرج حقدها عن السيطرة، و بالنسبة لخليل فأملها بعودته إليها كأمل إبليس بدخول الجنة.

تحتاج إلى عطف خاص، و صدر تبكي عليه، و كتف يسند رأسها،تحتاج إلى إنسان شفوق يطمئنها أن كل شيء سيكون على ما يرام و أنها ستتحسّن، و أن الألم الذي ينوح بقلبها الآن سينضب ويتلاشى، وأن الدموع ستستحيل بسمات مشرقة و السواد الذي يرهب عينها سيؤول إلى بياض ناصع، تحتاج إلى يد تربت عليها و تكفكف دمعها و تهتك نسيج أحزانها، وقبل أي شيء تفتقد إلى التفهّم، إلى عين تنظر إلى تضحيتها بإنصاف، تفتقر إلى يد القسط والمواساة، قد يكون هذا الكائن موجودا في بقعة ما على وجه الأرض، و لكنه لن يفيدها طالما هو ليس ميرنا أو خليل.

وفي هذا الصباح البارد من صباحات إبريل شاركتهن الفطور مستعرضة فستانها الأخضر ذا الياقة المرتفعة و الكمين العريضين المزينين بأشرطة فيروزية ، و الذي رافقته كنزة سوداء تصل إلى نهاية الخصر، تقيها البرد و أبدعت في أداء بعض الدورات البطيئة تتقد حماسة، بينما تلقي على مسامعهن إمكانية فوزها بالمركز الأول أو الثاني إن ما وُظّفت لجنة عادلة لغرض التحكيم، و

عندما حلّت دقيقة انصرافها تمنت لها ياسمين و أمها حظا طيبا و أوصتها بعدم التلكؤ في العودة إلى البيت "لا تنسي نفسك، لا تجلسي قريبا من إحدى تلك المرتفعات الشاهقة، ففي أقل من أسبوع بُلغ عن خمس حوادث سقوط، وغرق ثلاثة متهورين على مسافة آمنة من الشاطئ، كيف يسبح الناس في هذا الطقس المتجمد،اااه إنه انتحار أن يلقوا بأجسادهم في الماء البارد "، وشرعت أثيل تنظر حولها إلى الجدران و الأواني ، إلى الكوب المرسوم عليه وردة حمراء، إلى الموقد الأبيض ذي الثلاث مصادر ،و صحن والدها الأثير العميق الرخامي المزين بورود زرقاء، والتقت عيناها بعيني ميرنا التي ما انفكت تراقبها ،و تشكّ أن هناك شيء مهشما غامضا واضحا بسلوكها هذا الصباح، و لكنها أشاحتهما عنها بسرعة ،وبسرعة حطتهما على وجه أمها ثم انحنت مقبلة يدها مغتبطة "إنني أحبك يا أمي و أفعل أي شيء لأجلك، سأكون هنا قبل العصر"

لقد اتّفق و أن سمعت ميرنا عبارة "أفعل أي شيء لأجلك " تلفظ أمامها في مناسبات متكرّرة، وكانت تضايقها و يغمرها إحساس بالاشمئزاز كمن يتعرّض إلى وخز لاسع، و تفسير ذلك، إيمانها المتجذّر أن أثيل تنطق بها كتكفير متستر عن ذنوبها، لكن عندما سمعتها في تلك اللحظة المشكّكة، أوحت لها بدلالة لحالة متناقضة عن السابق و استوحش قلبها، تلك النظرة تحمل رسالة مبهمة تشبه؟؟تشبه ماذا؟.

وعندما دقّت الساعة التي تشبه الصندوق الخشبي المستطيل ذات المينا الصفراء، الثانية بعد الظهر و خلف باب غرفتها وبعد أن اشتغل عقلها بسرعة خيالية في التحليل والتفكير، جاءتها النتيجة تتخطّر مثل صبيّة فتية سريعة الخطى، بعدما كانت تتثاقل مثل عجوز هرمة، وفككت الألغاز انطلاقا من شعورها الغامض إلى سلوك أثيل و عندئذ، عندئذ أصابها بما يشبه الصدمة المرتعدة، فشهقت وهزّتها عاطفة عنيفة وأحسّت بالاختناق، أجل إن حالتها تقترب من حالة إنسان مذعور لناحية رفع عنها الطمس وأزيل عنها اللبس، كانت تشبه وداعا أخيرا؟أجابت نفسها بينما تغلغل إلى أحشائها شعور قوي بالخوف، وما عتم حدوث شيء غير قابل للتصديق، شبه مستحيل، سالت دموع حقيقية من عينيها تجرّ بعضها بعضا و بللت أصابعها، وسرعان ما تلفتت يمينا و يسارا مرتعشة، ووجدانها يستصرخ و قلبها يقرع "لم تكن سعيدة أبدا "حدثت نفسها فزعة "كانت تتظاهر كي لا يشك أحد في طبيعة موتها، كي يُظنّ أن إنهاء حياتها مجرد حادث عرضي، ما أغباني إذ لم أفهم ذلك، لقد أصيبت بالكآبة منذ عودتها، لم تكن تضحك ولا تبتسم، كانت تمثّل، تمثل، لا تموتي أرجوك، لا تموتي يا أثيل، إن ما أصابها مكروه لن أسامح نفسي ما حييت "و أنشأت تلوي يديها ببعضهما البعض و تتجوّل مذعورة في زوايا الغرفة، ثم تجلس لغاية تهدئة روعها "لن تتحمّل

أمي موتها، ولن تتحمّل ياسي، بل كل أهل الحي لن يتحمّلوا، وليست السيدة سميحة بمن تحبها حبا ضئيلا لتتمكّن من التحمّل هي الأخرى،إن ما ماتت فأنت قاتلها، ما عتمت أهدّدها وأهينها وأخيفها".

وتذكّرت كيف كان يتيبس وجهها عندما تفتح لها أمهما الباب مهتاجة نتيجة تحريضها المتفنن، ودس السموم في رأسها، و تذكّرت كذلك كيف كانت تقف متلذذة بهلعها، تتنعم بالرهبة السابحة في عينيها، تبتسم ساخرة "لقد أرسلتها إلى الموت،هي،،،"و تحرّكت شفاهها في تضرع مستعطف وتوسّل خاشع "لا تجعلها تموت يا الله،أرجعها إلى البيت و أقسم أنني سأضمها و أتفهمها، و أرعاها، فقط أرجعها سالمة "و اندفعت الدموع مثل الوديان نادمة معترفة "إنها قد فعلت ما فعلت لأجلنا، كي لا تموت أمنا ونبقى أيتاما، تلك العبارة المقيتة التي تلفظت بها: لم تؤلمني الصفعة و لكنني نزلت من مرتبة الإنسان إلى مرتبة الحيوان، هي من أعادتني إلى رشدي، هي من أيقظت ضميري، لقد أشفقت عليها، وأدركت أنها جزء مني، إنها أختي، الآن أدرك ماهية الشعور الغامض الذي كان يتردّد علي".

الآن استوعبت حقيقة ذاك الشعور الذي نما خلسة، لم يكن إلا الشفقة والاعتراف بأغلاطها، وكانت أثيل مصيبة بكل ما نطقت به؛ فهي تمقتها ردحا قبل معرفتها بسرها، لقد دوّت تلك العبارة في رأسها مثل القنبلة الصامتة، فأيقظت ضميرها النائم و لكن الغضب سترها و البغض طمسها، وطوال الأسبوع كانت تستفزّها و تتحرّش بها ليس لإهانتها؛ بل لتتيقن أنها لا تزال حية الروح، وفورا حركت قدميها نحو النافذة، ليست أثيل ضمن الطائفة التي تروج وتجيء في الشارع. لقد اعتادت مراقبتها من هذه الناحية من النافذة خلف الستائر بينما قلبها يبدع حقدا و عقلها يئن بغضا، و راودتها حمى القلق و كادت تفقد صوابها بينما أصابها وهن شامل في جسدها، كأن قلبها كتلة من الألم المتجمع في بقعة واحدة، و قبل أن تستطيع تعديل سحنتها القاتمة ألفت نفسها تهزّ ياسمين مثل طفل صغير

_ "دعنا نذهب إلى البحر "

التفتت إليها ياسمين بنظرة نزقة

_ "لدي امتحان الأسبوع القادم"

فألحّت عليها

_"أرجوك،سأختنق من المكوث بالبيت، لن نتأخّر، ساعة فقط"

فحسمت ياسمين قرارها

_"قلت لا، اذهبي لوحدك، سأنتظر أثيل إلى أن تعود إلى البيت، و أقرأ ما كتبت"

كانت تغيظها و تستفزّها لكن ميرنا هجست يائسة

_ "ربما لن تعود، ربما لن نراها ثانية".

وبالعودة إلى أثيل، فبعد أن التقطت حجرا معتبر الحجم لتثبت به رزمة الأوراق على يمينها وخصّصت مكانا على يسارها لحقيبتها، رتّبت فستانها وجلست على مرتفع شاهق عن البحر في مكان يشبه جزيرة نائية، ثم راحت تصيخ السمع إلى اصطخاب أمواج البحر، و إلى التجاجها المضطرب واصطفاقها القاصف، كانت الرياح قوية تتناوح بصورة غير مألوفة، و كانت الشمس تنبثق في لحظات قليلة بدفء كليم و حرارة ضئيلة، وخفقت الأوراق الرازحة تحت كتلة الحجر مصدرة حفيفا صائتا، حتى كادت تتمزّق لتعتق نفسها، وقبل أن تجري يدها على الورقة البيضاء الفارغة أرسلت أثيل بصرها إلى الأفق الغائم البعيد بلونه الرمادي وإلى مياه البحر الداكنة الممتدة، ومرتفعات الجهة المحاذية، وكان بوسعها مشاهدة الأمواج المتلاطمة مع الصخور، ولم تجد سببا لتلقي نظرة أسفل المرتفع الذي تجلس عليه من الآن، هناك متسع من الوقت، و رأت بغير وضوح عائلة مكونة من زوجين وثلاثة أطفال على مرتفع شبه بعيد، ودار بخلدها لو أن الزوجين كانا على مقربة لحذّراها متخوفين من الاستمرار في الجلوس في مثل هذا الطقس البارد، ولوصفا موقعها القريب من الحافة بالخطر على حياتها، وعلى الأرجح يستطيعان الضحك مازحين، بينما يقولان أن ذلك يشبه الانتحار، وسرعان ما اختلست النصيحة خطواتها إليها ،كما لو أن أحدا قرأ أفكارها من عجوز صغير الجثة لا يُستدلّ على لون عينيه لصغر حجمهما، ودلّت ثيابه الأنيقة المنسّقة على تلقيه عناية جيدة، ولكن تقاطيع وجهه التعسة عكست ألما قريرا وحزنا دفينا، وعلى الأرجح كان عائدا من مَهمة بعثرة بعض الذكريات المريرة في أرجاء البحر،قال محذّرا بعد أن أصبح على مسافة تمنع الرياح من تكسير صوته

_" توخي الحذر، وأبقي نفسك بعيدة عن الحافة، فربما غلبتك الرياح ودفعتك إلى الأسفل، إنها قوية كما ترين، ثم يا ابنتي ما الذي أخرجك في هذا الطقس البارد؟ أشعر كما لو أننا في نهاية كانون الثاني، وليس بداية إبريل "ونظر إلى السماء"يتقلّب الجو بسرعة"

استدارت بجسدها كاملا لتمنحه الجواب الملائم، و كان وجهها و يداها قرمزيتين بينما افترّ ثغرها عن ابتسامة ودية

_"سأمكث فترة قصيرة، كنت أحتاج إلى مكان ساكن أكتب فيه قصة قصيرة لأشارك في مسابقة"

_"حظا موفقا يا ابنتي، تبدين متحمسة وهذا جيد، لست أنوي تثبيط عزيمتك، على أن اختيارك للمكان لم يكن موفّقا، ولا أودّ إخافتك، و لكن" وخفض رأسه آسفا " لقد وقع ابني من هذا المكان وتوفي، أنا آتي إلى هنا كل يوم تقريبا، لا أريد تكرار المأساة مجددا مع شاب أو فتاة"

فخاطبته بنبرة مواسية يتخلّلها الأسف و الحزن

_"أنا آسفة من أجلك، ذلك محزن، ليتغمده الله برحمته الواسعة، كم مضى على وفاته؟"

_"أربعة أشهر، ومنذ ذلك اليوم المشؤوم و أنا أحضر هنا يوميا، لست أطيق الحياة من دونه، خسارة الأبناء تقصم الظهر و تسرق السعادة من حياة الإنسان و تجعله أجوف الروح، إنها مدمّرة، لماذا يتهوّر الشباب بهذه الصورة المستهترة؟لماذا لا يقدّرون أن حياتهم ليست ملكهم فحسب؛ بل ملكنا نحن أيضا، و أن أرواحنا تموت معهم و قلوبنا تحترق من اللوعة؟ انظري كيف تركني رهانه السخيف بالوقوف على الحافة و غلق عينيه لمجرد إشباع نزوات غبية، هنا أشعر بالارتياح، أشعر أنه مزال هنا، أما بالبيت؛ فأعجز عن منع نفسي من البكاء و أخشى أن تخونني صحتي فلا أستطيع القدوم إلى حيث أشعر بوجوده و أصاب بالبؤس، لا تجعلي والديك يأتيان إلى هنا و لا تجعليهما يبكيان في البيت، لا تجعليهما بائسين، لو تعلمون حجم الأسى الذي تخلفونه برحيلكم لما استهترتم بحياتكم على هذا الشكل، لأنكم لا تموتون لوحدكم نحن نموت معكم، يحترق قلبي يا ابنتي لا أنسى، لا تجعليهم مثلي ابتعدي"

استطاعت أثيل أن تستشفّ العناء المبذول من الرجل كيما يتحاشى البكاء، كانت نبرة صوته منكسرة مثل غصن جاف ضعيف تشوبها فراغات عاوية، وتكوّن في خيالها مشهد حزين لأمها تحضر يوميا مثل هذا العجوز على مدى الفصول الأربع طلبا للارتياح، و أثارت الفكرة في عقلها نوعا من الاطمئنان ،الحمد لله؛ فعلى الأقل ستهدأ دموعها و يخفّ حزنها و تشعر بالعزاء في هذا المكان ،كما يشعر هذا العجوز، وسرى في جسدها تيار سريع من التأثّر ، فارتسمت على وجهها ابتسامة حزينة، لن تدع أحزانه تتغلّب على قرارها

_"أعدك أنني سأكون حذرة، لن تتكرر المأساة، طاب يومك،وأجدد أسفي لفقدانك عزيزك"

كتبت أثيل بخط جميل منسق واضح، و بكلمات صغيرة لأن القصة التي هي في صدد كتابتها ليست قصيرة كما اشترطت الجريدة، معاناتها حكاية طويلة، وليست تعتقد أن ورقة واحدة ستفي بغرض تدوينها، قصة فتاة لم تعد تخاف الموت، بل تخاف الحياة، أضحت مرتاعة من وجوه الناس من حولها، من أصواتهم تقاضيها و حركاتهم تزجرها و تتقرّف منها، وردود أفعالهم تحكم عليها، من دبيب أقدامهم تتحرّك مبتعدة عنها، تتحاشى الاقتراب منها أو الاصطدام العرضي بها، كأنهم يخشون أن يلتصق بهم ما التصق بها، ذلك عندما يكتشفون الجزء الخفي القاتم من حياتها، الجانب المظلم المقفل عليه في صندوق الأسرار، سيعرفون، كما عرفت ميرنا وخليل، و قبل الجميع ستعلم أمها، ولن تجد لها داعما أو مدافعا؛ بل ستجد منتقدين و قضاة و نافرين مكشرين عن أنيابهم جاهزين لإهانتها و ذمّها:

"يحكى أنه كان هناك فتاة صغيرة جميلة بريئة تدعى أثيل، كان والدها الذي أمل أن يرزق بصبي فخورا بها سعيدا بولادتها، وذلك عندما قابل وجهها الجميل للمرة الأولى يضيئ مثل نجمة متلألئة في السماء الصافية، فتلاشت خيبته واستحالت سرورا جزيلا، وتعلقا لفت الانتباه وأثار الدهشة، كان يعود من العمل مكدودا متعجلا لينعم بوقت لطيف رفقتها و يلاعبها و يتابع كل حركة جديدة تطرأ على سلوكها: لقد حرّكت أصابعها، إنها تنادي أبي، تحاول الجلوس، تحاول الوقوف، إنها ذكية، و كلما اصطحبها في نزهة قصيرة لم يكن أحد المارين ليقاوم جمالها وغمازتيها البديعتين عندما تبتسم، وبفعل جاذبية مثيرة، يدنون إليها و يقبّلون وجنتيها ويقرصون برقه ذقنها المدبب الجذاب ثم يخبرون والدها أن ابنته ستغدو أميرة ساحرة، ها ،يا للسخرية، لقد غدت ابنته داعرة ساقطة، وعندما بلغت الثالثة نقل لها الوالدان السعيدان خبرا مشرقا، أنها سترزق أختا صغيرة، فطفر قلبها سرور ، ولم يخامر عقلها حينئذ أنها سترزق بلاءً مزمنا، ومصيبة لعينة، وإن استطاعت الفتاة المحافظة على مكانتها المرموقة في قلب الأبوين فلأنها المولود الأول، وهذا لا يحطّ من حظ شقيقتها في نيل المكانة ذاتها، لكن بمحبة مختلفة، وكبرت الفتاة و غدت جميلة بصورة واضحة، وكذلك كانت مهذبة ومؤدبة ومطيعة، فأحبّها كل من رآها، و كان يحلو لهم تسميتها "بياض الثلج، الزنبق الأبيض، الأميرة الصغيرة"، آملين أن تحذو بناتهم حذوها في السلوك الرزين، والتصرّف الرصين ، و كانت النسوة يضربن بها المثل كلما تبنت بناتهنّ سلوكا رديئا: إنها مثل النسمة الخفيفة، إنها مثل العصفور، تصرفن مثلها، لا أسمع أمها توجهها بأي نداء، ليس مثلي أكاد أفقد صوتي من الصراخ"، وحيث أنها كسبت قلوب الجميع، ونالت محبتهم، كانت تدفع ثمنا غاليا في الجهة الأخرى ، تنامي أحقاد أختها، وتضاعف غيرتها يوما بعد يوم، ثم سرعان ما تعمّقت المسافة بينهما، وغدت الأذية والافتراء وابتداع القصص الكاذبة سلاحا لمعاقبتها على سرقتها الاهتمام منها على حد تفكيرها، وكانت أثيل تعتقد أن الوعي يعوز أختها لتفهم أنها تحبها، و تريد التودّد إليها؛ لأنها لا تزال طفلة، وعندما تغدو كبيرة ستتبدّد غيرتها العليلة، ولكن آنّى للنقاء والصفاء القلبي أن يستطيع فهم نزعات الشر والسواد.

ذات يوم قضى الأب الفقير المكافح في حادث عمل مأساوي ،و بقيت زوجته و بناته الثلاث وحيدات دون رجل يعيلهن، فاضطرّت الزوجة لتكثيف جهودها من أجل أن تتصدّى لنوائب الحياة، فعملت منظفة في إحدى المكاتب والذي منحها راتبا رديئا لا يغطي مصاريف أسبوع واحد، وكانت تعود إلى البيت مرهقة لتعتكف خلف آلة الخياطة، و كانت أثيل تذهل للقوة الجبارة التي ينطوي عليها الجسد المنهوك، وكانت تعدها وهي تقبل راحتي يديها المتورمتين بالتناوب أنها ستعوّضها يوما ما عندما تتحصل عل شهادتها و يصبح بمقدورها العمل، يومها لن تسمح لها

بإنهاك نفسها، ولن تسمح لها بالخروج صباحا قبل شروق الشمس لتعمل بأجرة ضئيلة التي لو كان لها خيارا آخر لاستغنت عنها.

لقد عوضتها، هذا الذي حدث عندما تدهورت صحة الأم و ألزمها المرض الفراش و ذكر الأطباء أن قلبها بحاجة إلى عملية عاجلة و إلا فإن احتمال فقدان حياتها تفوق نسبته التسعين بالمئة، عوّضتها ليس عن طريق الشهادات الجامعية، و لا عن طريق العمل الشريف، لقد عوّضتها بشهادة مزاولة العهر في شقق الفجور، ببيع جسدها و منحها اللذّة للرجال، عوّضتها قبل أن يحين أوان منح الشهادات، و هكذا وقفت الفتاة الفقيرة في مفترق الطرق مذعورة من موت أمها، ترتجف من خاطرة خسارتها، حيث لم يبق سواها ليعتني بهم، و تضاءلت خياراتها بعد أن قلّبت كل حجر وطرقت كل باب، وسألت المعونة من كل إنسان تعرفه، و كان كل إنسان يقابلها بيدين عاجزتين ووجه آسف، فتعود خائبة، و كانت لا تجهل أنهم على مستوى متكافئ مع فقرها، و إن كانت تملك سقفا يأويها حتى مع تهالكه ،فلم يرتفع حظ بعضهم مثلها فظلّ يتخبّط حائرا كيف يدبّر نقود الإيجار للشهر التالي، وبينما كانت تسند صدغها مجفلة متخبطة، فتح لها باب يفضي إلى الجحيم ،عندما نصحتها إحدى الزميلات أن تستثمر جمالها في تحصيل المال، و لو أنها فهمت المقصد لما طرحت السؤال متلهفة

_"كيف ذلك، أخبريني ماذا علي أن أفعل؟ "

_"إنك جميلة، أعرف سيدة تدعى كارمن توفّر زبائن من النوع الجيد، رجالا أغنياء يقدّرون الجمال، و يدفعون جيدا،في الواقع المبلغ الذي ذكرته ينفقونه على عشاء أو حفلة صغيرة "

و لذعها الاقتراح كما لو أنها تلقّت صفعة على وجهها، وسرعان ما وبّختها لهذه الإهانة السليطة و النصيحة الوضيعة، ولولا أنها زارت أمها في المستشفى لتجدها تئن مثل المحتضرين لما اضطرّت إلى الاعتذار في اليوم التالي على تصرّفها الأرعن، إذ طالما كانت الدعارة المهنة المخلصة للنساء اللاتي لا يملكن ما يسدّن به ثغرات الفاقة و الجوع و المرض، كان الواجب الأسري يملي عليها بيع شيء ما، و لم يكن إلا جسدها ذا قيمة ليباع ،فحتى البيت الذي عرضته للبيع لم يرحب أحد بشرائه.

_"أنا أعتذر إليك، لقد باغتني العرض، هلا تعرفينني على السيدة كارمن؟،سأفعل أي شيء لأحصل على المال"

_"ها، الآن تريدين أن تعتذري مني، بينما كدت تغرزين أظافرك في وجهي، سأتغاضى عن إهانتك لي؛ لأن أمك مريضة، تعالي غدا، وسآخذك إليها"

ولم تفصح كارمن عن تفاؤلها بهيئتها الحيية الخجولة بوضوح شديد، الهيئة التي تنفر منها أهواء الرجال، ولكن أمرين لعبا لصالحها جمالها الأخّاذ وكونها صبية عذراء، إنها لا تستطيع نسيانه وصورته لا تغيب عن عقلها: الرجل الأول بعينيه الحمراوين المخيفتين وساقيه الطويلتين،وشبقه الشهواني المسعور المسطور على وجهه" وانبعثت آهة من فم أثيل رافعة يدها عن الورقة يجترّ خيالها صورته المقززة وخامرها إحساس رهيب بالشفقة على نفسها؛ لأنها تحملت ما لا يطيقه إنسان، و بينما لا يستطيعون أن يعيشوا وضعها، يملكون الجرأة كي يحكموا عليها، بينما احتفظت عيناها بجفافهما من أي دمع، و مجددا جرت يدها على الورقة كما لو أنها تريد أن تنتهي من كتابة الحكاية الحزينة بسرعة

_"وعندما تسأل أثيل نفسها، هل أنت نادمة؟,تجيب أن، لا ،و لو عاد بها الزمن إلى الوراء ولم تجد حلا بديلا ستبيع جسدها مجددا، و ليس لأحد لومها أو محاكمتها، لقد كانت مضطرة كبائعة، بينما لم يكن هؤلاء الرجال الأوغاد مضطرين كمشترين،كان بوسعهم مساعدتها دون أن يسرقوا شرفها و يمزّقوه تحت أجسادهم القذرة، كانوا يدفعون ثمنها كأنهم يدفعون ثمن وجبة، يعاملونها بالشوكة و السكين و التقطيع و الفرم و الابتلاع كما تعامل هي.

وعندما تعود إلى البيت كان ينتظرها عبء آخر: أن تحتفظ ببرودة أعصابها وتتظاهر بالهدوء والسعادة كما لو أنها كانت بحفلة صبايا مرحات لم يخبرن نوائب الحياة بعد،وتطوي صفحة الجحيم الذي عاشته بعد ظهر اليوم،وأن لا تمنحهم مجالا ليستنتجوا أنها ماتت. أجل،ماتت، وقلبها ينبض نبضا وظائفيا بحتا، ولم تعد تملك أملا أكبر مما تملك أرض جرداء، وتلوّنت حياتها بألوان صدئة، شاحبة، باهتة، إلى أن قابلته عيناها عند ساعة من العصر، فهزج قلبها وذاب الصقيع عنه، كانت عيناه مثل سر عميق من أسرار البحر، عينان فاتحتان مسالمتان، ابتسامته مشرقة مثل الشمس ،سرقت قلبها، و إن كانت لا تدرك كنه تعلقها به، فليست تنكر أنه خلب لبها من النظرة الأولى، ومنذ تلك اللحظة أصبح كل حياتها، يسرها كسرور الطفل باستقبال الهدايا، أن تجمع صوره في صندوق خشبي، ويطرد الغم عنها عندما تقرأ الذي يكتبه و ينشره كل أسبوع، كان يكفي أن يكون بخير و أن تراه سعيدا، و ليست تطلب من الحياة أكثر، فلقد حدثت معجزة عظيمة لم تحلم بحدوثها وأحبّها و نعمت بمقابلة وجهه السموح، وقلق عليها، و نظر إليها النظرة الأبوية الرحيمة، وغمرها بعطفه و مودته، ووصل به الحد أن عرض عليها الزواج، و إن لم تكتمل قصة الحب تلك، فليس له ذنب في ذلك، إنه رجل محترم شريف،ومن حقه أن يرفضها، لديه كل الحق، على أن حياتها من دونه مستحيلة، أن تحيا عالمة بازدرائه واحتقاره أكبر مما تحتمله روحها، و كما قالت السيدة في الحافلة، كان ثمن الحلم باهظا جدا، باهظا بصورة لا توصف "و قلّبت الورقة

"ليست حزينة؛ لأنها ستموت، فالموت يعني الحرية، الخلاص، بينما الحياة تعني الخوف والذعر الدائمين، لن تخاف الآن، كلما رأت سحنة أمها متغضّنة، و لن تعود إلى البيت من الآن فصاعدا فترتجف ركبتاها عندما تستقبلها بوجه منقبض و لون منكفئ و عينين مؤنبتين، لن تعود إلى البيت، إنها الحرية المطلقة ،و عندما رتّبت خطتها و أصرّت على تنفيذها، ارتاحت وأحسّت بالهناء، وكانت تحرشات ميرنا ترتد خائبة، فطالما ستموت لم تعد تهتم بشيء، وكذلك استوحت فكرة سخيفة لم تفهم لماذا ألحت على تجسيدها،من المحكوم عليهم بالإعدام الذين يُدعَون لاختيارهم الوجبة الأخيرة و يسمح لهم بارتداء أحسن الثياب، فوقع اختيارها على تناول طبق القرنبيط واشتراء ثوب أخضر أنيق، كم أن ذلك سخيف!، ماذا يفيد المرء تناوله طبقه المفضل و ارتداؤه ثيابا جيدة طالما سيموت، و بالنسبة لها، إضافة إلى تثبيت فكرة أنها سعيدة للغاية، كانت جزءا من مخطّط استوحته من حادثة ابن السيدة أسماء، إنّها تذكر بوضوح كيف استطاعت العجوز راضية أن تقنع أمه بكذبة حسنة النية، رؤيته سعيدا ساعات قبل تبليغها نبأ وفاته كي تستبعد فكرة انتحاره، فالنسبة للأم المسكينة إنها تفضّل ابنا مات بحادث على ابن منتحر بسبب الكآبة أو العار، و لقد وُفقت بقدر إجادتها طرح الكذبة سليمة الهدف .

وهكذا و بعد أن تحمّلت و تجلّدت بالصبر، وتشجّعت لتبقى حية، ظنا منها كالآخرين أن بقاءها حية أطول فترة ممكنة إنجاز عظيم، لم يبق لها ما تناضل لأجله، لقد فقدت خليلها الغالي إلى الأبد وذكر أنه كان ينبغي أن تموت بدل أن تدخل حياته لتفسدها، و كذلك أعلنت أختها بصفاقة أنها لا تهتم لتضحيتها، لا ترى ضوءً و لا أملا، ترى الظلام و السواد، هي كائن فارغ يائس جدا فقد كل شيء، إنها محبطة ومكتئبة جدا، لم تعد تتحمل، نفذت منها كل الطاقة، تحمّلت أكثر مما ينبغي، كانت تتمنّى لو أنه هنا كما تمنّى ليراها شجاعة مقدامة، أن يراها تتحدّى خوفها من المرتفعات والبحر، شامخة أمام الأمواج العاتية، و لكنه للأسف ليس هنا كما تمنى، ليته هنا.

ستتعذّب أمّها لسنين قادمة عذابا أقل من عذابها لو أنها اكتشفت السر الخطير الذي تخفيه ابنتها الصالحة، ولكن سيضمحل وجعها شيئا فشيئا وستنساها ذات يوم، و ربما يأتي التعويض الكريم على شكل حفيدات جميلات يمرحن حولها، إحداهن اسمها أثيل الصغيرة، فميرنا ستحول دون أن تسمى إحدى فتياتها على اسم داعرة وضيعة، بينما ياسمين رقيقة القلب ستتشاجر مع زوجها ووالدته لتنتزع حق منح ابنتها الأولى اسم شقيقتها الراحلة، وكذلك سيتزّوج خليل امرأة شريفة، ابنة عائلة محترمة ،بعد أن يتجاوز كراهيته للنساء، الكراهية التي زرعتها فيه بيديها، لا شك أنه فقد الثقة في جنس النساء، و لكن لا، إن الرجال كما كانت تؤمن على الدوام يتعافون سريعا، سينجب طفلة، على أن صورته الأخيرة المحفورة في عقلها لا تحفّزها على الاعتقاد أنه

سيمنحها اسمها، الذي يذكره بالخيبة و الألم و الخداع و الاشمئزاز، ولأن السيدة سميحة كانت متعلقة بها ستصيبها الكآبة، وليست تشك في أنها ستلتصق بقبرها في السنة الأولى والثانية، وقد يمتدّ حزنها إلى سنة ثالثة، و كذلك سيشملها التعويض السخي عندما تتزّوج ريحان و سالي.

إنها تتمنى الحظ لكل أثيل ستولد، حظا ليس كحظها العاثر، وتتمنى أن لا تبتلى إحداهن بمصيرها فتلجأ بنظرة مظلمة سوداء و عزيمة خائرة إلى مرتفع شاهق طالما كانت تخشى الوقوف عليه لترمي نفسها و تموت، و تتمنى أن لا يسوق الفقر و الجوع و المرض أي فتاة لتعيش على ثمن جسدها، هذه كانت قصة أثيل الحزينة التي لن يعرفها أحد، أثيل التي لا ترى نقطة نور؛ لأنها صرفت كل النور على أحبائها، التي قُبرت أحلامها تحت شجرة الصنوبر في الحديقة، هناك واجهت روحها الميتة، هناك سُئلت كيف استطاعت أن تغفر لنفسها، هناك حكم عليها بالموت، .الدنيا شرسة جدا، وهي تعبة جدا جدا لتواصل و تشرح، و هكذا اختارت أن تكون نهايتها، إنها تثق أن الله يعرف و يريد أن يعرف و يريد ان يغفر, وهي تتضرّع إليه الآن ليغفر لها ولكل الأشقياء أمثالها "

وصنعت من الورقة طائرة ثم أرسلتها و راقبتها مودعة ، تترنّح في الرياح القوية إلى أن طفت على سطح البحر مثل كيس فارغ ثم أدركتها موجة هائلة، و لم تعد تظهر في مدى بصر أثيل، وما لبثت أن أخرجت من حقيبتها القطع الممزقة لصوره و نثرتها مثل الرماد، و كذلك دسّت يدها في الجيب الصغير و أخرجت القطعة المعدنية و تأمّلتها للمرة الأخيرة "ستذكرك دائما برأيي فيك، ستذكرك كم أحتقرك و أشمئز منك "و بحركة رشيقة قذفتها في البحر، كأنما أرادت أن تسبقها قصتها و ذكرياتها و آلامها إلى قاعه.

الفصل الأخير

أي شخص يرى الحالة المأساوية التي كانت عليها سميحة لا يستطيع إلا أن يستنتج آليا أن الفتاة المقبورة تحت الثرى هي ابنتها الوحيدة العزيزة على قلبها، و كان لا يمرّ إزاءها إنسان رجل كان أو امرأة إلا و يضطره نحيبها المفجوع ليقف دقائق يتبادل معها حديثا قصيرا ويواسيها بعبارات متداولة مألوفة و يعزيها كأن ذلك واجبا مفروضا ،راجيا من الله منحها الصبر و يلهمها القوة الضارعة لتتجاوز محنتها الأليمة، حتى و إن لم يكن يجمعها بهم إلا الظروف الواحدة والفقد المشترك.

كان قد مرّ خمسة أيام على وفاة أثيل إثر فقدانها توازنها، عندما نهضت على قدميها لتعود إلى البيت في حدود الساعة الثانية و النصف ثم سقوطها من على ارتفاع شاهق عندما حثها الفضول على استجلاء منظر البحر (الرواية التي فسّرت بها الشرطة وقوع الحادث و هي تنقل النبأ للعائلة) وجزم عجوز صغير الجثة أنه حذّرها من الاقتراب من الحافة خوفا عليها من تكرار مأساة ابنه المريرة الذي توفي منذ أربعة شهور بظروف مطابقة، فتأسّفت من أجله ثم شكرته مبتسمة مؤكدة له أنها ستتوخى الحذر، مطلعة إياه والحماس يستعر في وجهها اللطيف، أنها تنوي كتابة قصة قصيرة، وأنه انتقد اختيارها لهذا المكان نظرا لبرودة الطقس وشدة هبوب الرياح.

وكانت سميحة قد سدّدت رأيا خاطئا عندما التجأت إليها والدة أثيل مضطربة متقطعة الصوت من شدة الخوف ، تتكلّم على نحو غير مريح بعد أن تجاوزت الساعة الرابعة، و لم تعد ابنتها إلى البيت، تخبرها أنه قد ألمّ بها شعور مشؤوم غير معروفة موارده، وسرت في جسدها رعشة منبهة و أنبأتها غريزة الأم أن مكروها حلّ بابنتها، فاستخفت سميحة بقلقها واصفة إياها بالقيود المستحكمة و الوفاء القبلي لعادة التوتر، و إنها منذ انتقلت للعيش في بيت زوجها وأصبحت جارتهم، و هي تعرفها ،أما قلقة على نحو مبالغ فيه،ترتعد فرائصها إن تأخرت بناتها خمس دقائق.

_"عزيزتي مليكة، إنك تبالغين كعهدك،ستعود بعد قليل، لم يسقط الظلام بعد، إنها في بيت إحدى العجائز،أراهن أنها في بيت السيدة صفية أو السيدة راضية ترتشف كأسا من الشاي، لم ترض أن أرافقها هذا الصباح كي لا أزعجها و أشوّش أفكارها، اجلسي هنا و هوني عليك، و أرجو أن لا تنفجري في وجهها مثل المدفع عندما تعود".

ولكن ميرنا التي عجزت عن التزام الهدوء و عجزت عن التحكّم بأعصابها، و التي خشيت أن يفتضح خوفها فتتورّط في استجواب غير مسبوق، وضعت قناعها القديم على وجهها ودعمت قلق أمها أمام سميحة، متهمة أختها بالاستهتار و قلة المسؤولية، و أن من واجبها أن تعود إلى البيت في

الوقت المحدد ،إذ أنها عالمة بعادة أمهما في القلق و التوتر، بينما كان قلبها يتقلّب من الخوف مثل تقلّب الماء المغلي في القدر.

ومرت ساعة و السيدتان تترقبان رفقة ميرنا عودة أثيل تطلاّن من الباب بالتناوب، و كانت سميحة تصل إلى نهاية الشارع ثم ترتد خائبة "ليس من أثر لها"، ولم تهتم إحداهن بالاستفسار عن المكان الذي ستتخّذه للجلوس من أجل الكتابة، فهي منذ أن أوشكت على الغرق وهي طفلة صغيرة لم تذهب إلى هنالك إلا مرات قليلة بصحبة سميحة بعد إصرار وإلحاح محموم، حسنا لم يبق إلا إبلاغ الشرطة عندما برز الأفق بلونه القرمزي الداكن ، و سرعان ما انطلقت دورية للبحث رغم أن المسؤول أخبر ببلاهة باردة، أنه ينبغي مرور أربع و عشرين ساعة على غياب المفقود عن البيت .

_"هل تظنّ أننا نبلغّ عن ضياع قطة "صاحت سميحة حانقة "إنها فتاة لم تتأخّر يوما في العودة فوق الساعة الخامسة".

وتجمّع الجيران عندما بُلغوا بالنبأ العاجل أن أثيل مفقودة و أنها لم تعد إلى البيت منذ غادرته صباحا وسرت همهمات بينهم، ودبّ القلق في نفوس الجميع، و اضطربت الوجوه بينما النساء يترقبن من الشرفات مؤنسات مطمئنات، وكادت الأم أن يغمى عليها و صمّمت سميحة تصميما حرونا على الانضمام إلى فرقة البحث،فرفضوا بالإجماع قائلين أنهم سيجدونها ويعودون بها إلى البيت، و الاحتمال الأوفر حظا أن ساقها كسرت أو كاحلها التوى أو أنها رافقت إحدى العجائز المريضات إلى المشفى. تنفّست ياسمين الصعداء عندما سمعت هذه الفرضيات تطرح هنا وهناك، ولكن ميرنا أدركت بعد الاستعانة بكل الدلائل الأسبوعية المبنية على معطيات دقيقة أن أختها لن تعود أبدا، والنتيجة التي وصلت إليها بعد ظهر اليوم كانت صحيحة قائمة على تحليل صائب، بيد أنها تمسّكت بالأمل، وأجبرت نفسها على التماسك من أجل أمها المنهارة: أثيل فتاة قوية، إنها تنهض بعد كل سقوط بسرعة، كما لو أنها لم تسقط، وكانت و هي تنظر إلى المرأتين المذعورتين تشعر بعذاب الضمير يدقّ رأسها كالمطرقة.

"أشعر أن ابنتي أصابها مكروه "صاحت الأم باكية، عندما تجاوزت الساعة الثامنة، وهي تضغط على صدرها متنفسة بعمق رغبة منها في انتزاع الشعور المعتم "لقد تعرّضت لخطب ما،سيدة سميحة إني مذعورة حتى الموت،لا يعقل أن تبقى أثيل خارج المنزل إلى هذه الساعة إلا إذا،،،،"

_"لا تفكري على هذا النحو المشؤوم "قاطعتها سميحة متكلفة الهدوء، ولكن وجهها كان يرتجف والذعر يبرق من عينيها "لن يحدث شيء لها "أضافت بغير اقتناع "لنأمل خيرا، ستعود حبيبتنا أثيل إلى البيت، و هذه المرة أعدك أنني لن أدافع عنها عندما توبّخينها "ستدافع عنها، ولن

تسمح لمخلوق بمعاتبتها، المهم أن تعود إلى البيت، يا ليتها ذهبت خلفها و راقبتها من بعيد، يا ليتها تعود سالمة فقط.

وأسفرت نتائج البحث المشترك الخائبة بعد انقضاء أربع ساعات عن عثورهم على أغراضها: أوراق وحقيبة ولكنهم للأسف لم يعثروا عليها في الأرجاء، و ليسوا يستبقون الأحداث، ولكنهم يفترضون أنها سقطت من المرتفع، مجرد فرضية أولية لم تطرح على مسامع الأم الملتاعة، وانقضى الليل الأسود الرهيب كجناح غراب أسود، ولم يستطع أحد أن ينام تلك الليلة من صغيرهم إلى كبيرهم ،وقد اجتمعت النسوة في بيت أثيل يتحرقن إلى الأخبار، ويواسين السيدة وابنتيها، وربّتت جميلة على كتف سميحة، ولم تكن هذه تتمتّع بوعي كامل لتدفعها بعيدا عنها؛ بل إنها رحبت بدعمها عاجزة و أسندت رأسها على ذراعها متجمّدة من الخوف.

وبعد ظهر اليوم التالي جاء النبأ القاصم، لقد لفظ البحر جثتها بعد ساعات، وتحوّلت الفرضية إلى أمر واقع حتمي، غير قابل للشك، لقد انزلقت ووقعت في البحر مباشرة و ليس على جسدها كدمات أو جروح.

ولم تستطع أمها أن تصدّق و صاحت بهم أنهم يكذبون و أن تلك الجثة ليست جثة ابنتها؛ بل جثة فتاة أخرى وتوسّلت إليهم نفي أن الغريقة هي ابنتها، ونكسوا رؤوسهم متأسفين عاجزين عن تفنيد الكارثة المرّة، كلما قبضت على يد أحدهم ترجوه بصوت مكسّر كالزجاج أن يكذب عليها، أن يخدعها،أن يمنحها أمل . وعندما رافقتهم للتعرّف على ابنتها سقطت خائرة قبل أن يسعها الصراخ، فقد كانت هذه ابنتها العزيزة، فتاتها الرزينة، المحبوبة،الصبية التي حملت المسؤولية عنها، فتاتها المطيعة العاقلة، رقيقة الطباع، ابنتها البكر وسعادتها الأولى.

ولم يكن بمقدور سميحة أن تتحمّل النبأ، كان قد مَثل أمامها جدار من الظلام بلمح البصر وعظامها تفتتت كالطين الهش فغدت كائنا رخويا، وكذلك لم تستطع أن تذرف دمعة في اللحظات الأولى، إن الإنكار هو ملاذها، ليس من القابل للتصديق أن فتاة حيوية رائعة مثل أثيل، والتي ستتزّوج بعد أسابيع قليلة تموت بهذه الكيفية الرهيبة، صديقتها الصغيرة المدهشة، وأحسّت أن صوتها الرقيق و ضحكتها البديعة يخترقان أذنيها من كل صوب، وألفت نفسها تبتسم فوق رأسها واستيقظت من المتاهة الحلزونية على نغمة مواسية لتنظر إلى الوجه الأبيض والعينين المغمضتين، فدوّى صوت صياحها مثل صوت أم ثكلى.

كانت تأتي إلى المقبرة بصفة يومية منتظمة لتبقى ساعتين، تكلّم القبر الساكن، كأنها تكلّم إنسانا حيا يصغي إليها و يحاورها و يحير لها جوابا، و في الصباح الباكر من اليوم الخامس قبل أن تدقّ الساعة السابعة، جلست على الأرض بجانب القبر و راحت تكيل العتاب لصاحبته على نحو

مؤثر، وكانت تسكب الدموع كأنها طوفان إلى أن يعصر النشيج صوتها، فتتمهّل، ثم تستأنف مجددا

_"كيف استطعت يا أثيل، أن تغادري الدنيا، و تتركيني لوحدي، ااه يا حبيبتي، إنني لا أحتمل الحياة من دونك، كل شيء غدا بلا طعم، بلا لون، لقد كنت أنت من تحركين حياتي، أنت من كنت تلونينها وتزينينها مثل المصابيح الملونة، لست أستطيع أن أتأقلم مع الحياة الجديدة،بل لست راغبة في التأقلم، يواسونني قائلين أنني سوف أشفى، ماذا يقصدون بالشفاء؟،عدم البكاء، عدم الصراخ، عدم الكلام عنك، إذا سأشفى إن كان ذاك هو مفهوم الشفاء لديهم، ولكن يا أثيل هناك شفاء لن يحدث أبدا وهو النسيان، ليس لأنه غير قابل للحدوث؛ بل لأنني لا أريده، لا أريد الشفاء، لا أريد نسيانك يا أثيل وسوف لن أنساك، إلى أن ألتحق بك، لن يمكنني نسيانك دقيقة واحدة، لقد أحرقت قلب أمك وقلبي وقلوبنا جميعا، لماذا لم تكوني حذرة؟ إن قلبي يتفتّت كلما أتخيلك تتخبطين في الماء البارد دون يد تمدّ إليك لتساعدك، لتنقذك من الموت، أعرف كيف كنت تصارعين لتعيشي، أعرف كيف كنت تشعرين، والماء يملأ رئتيك ويخنق أنفاسك، وذلك ما أدمى قلب أمك كذلك،اه يا أثيل لو أنك قضيت بكيفية مختلفة؛ لاستطعنا أن نواسي أنفسنا بطريقة ما، لقد عشت طوال حياتك تخافين من الماء و البحر وتصابين بالغثيان عندما تقتربين منه، عشت حياتك تهربين من صوته و رائحته و لونه و أمواجه، فكيف استطعت الاقتراب من الحافة دون خوف، كيف استطاع البحر اللعين أن يغرقك و يزهق روحك الجميلة، و أنت لا تزالين صبية يافعة، كان ينبغي أن لا أدع خداعك ينطلي علي، كيف صدقتك عندما ادعيت الشجاعة وانعدام الخوف؟،عندما تظاهرت أنك لا تهابين شيء، حتى مياه البحر، أنا من ينبغي أن تلام؛ لأنني أذعنت لرغبتك، بالذهاب لوحدك،ما كان ينبغي أن أسمح بذلك، و ليس ينفع الندم بعد فوات الأوان، هل نفع الندم يوما يا أثيل؟ لا،،كنت سعيدة جدا، تحلقين من الفرح، لأن حلمك اكتمل،الحلم الذي سخرت منه أول مرة، إنني لم أخبرك أنني ضحكت، ليلعني الله لأنني سخرت من أحلام صبية بريئة صافية الروح مثل الماء، إصرارك و طيبة قلبك هي من ساهمت في جعله حقيقة، و لكنه لم يكتمل.

إنني لا أنام هذه الليالي، أدعو الله أن لا يحرمك من جنانه؛ لأنك كنت مخلوقا طيبا كالملاك، إنك لم تسيئي لأحد، ولم تجرح مشاعر أي إنسان، و أدخلت السرور لحياتنا و خففت الآلام، وكنت غاية في الرقة و الهدوء واللطف، هل أستطيع أن أتأقلم من دونك؟،ما أغباهم عندما يعدونني بأنني سأتحسّن،ما أغباهم عندما يعدونني بالشفاء، من يشفي منك يا أثيل؟،من يريد أن يشفى منك؟؟من يريد أن يخرجك من قلبه و عقله؟،ينهرونني عن البكاء؛ لأن بكائي سيعذبك، لأنه يسيئ إليك و لا يفيدك،هل كنت لأسيء إليك لو بمقدوري كبح دموعي،لو أن الأمر بيدي لما بكيت،

لما حضرت إلى القبر لأزعجك، لما احتضنت أمك و سمعتها تعترف لي أنها كانت تشعر بالغيرة مني لأنك كنت تحبينني، إنني أعذب أمك المسكينة يا أثيل، أنا التي أهرع إليها لأواسيها من أجلك،فأجدها متجلدة صابرة راضية بقضاء الله، أجدها تحاول أن تتماسك من أجل ابنتها الصغيرة، فالمسكينة لا تفارق غرفتك تقول إنك سوف تعودين و يجب أن تكون بانتظارك، ما أشقاها؛ لأنها لا تستطيع البكاء، إنها متخشبة مثل تمثال، وصديقاتك العجائز يقدّمن أحسن ما عندهن، إنهن يقسمن بسذاجة على منحك حسناتهن جميعا يوم الحساب، لأنك كنت عطوفة شفوقة عليهن في الحياة الدنيا، بينما أنا كنت أتهرّب من زياراتهن معك، أتذكرين، عندما قلت أني أشعر بصداع في رأسي عندما طلبت إلي مرافقتك لزيارة إحداهن ،كنت أكذب يا حبيبتي، كنت أتهرّب مما أسميه ثرثرة العجائز الفارغة، بينما كان قلبك كبيرا جدا لتصغي وتساعدي و تهوني، لهذا أحببنك و تعلّقن بك و جئن إلى أمك فور بلوغهن النبأ، لا أنسى وصيتك النبيلة بالاعتناء بهن، بعد أن تتزوجي و تنتقلي إلى بيت زوجك، ولكنك انتقلت إلى بيت آخر غير بيته، لقد وعدتك وسأفي بوعدي لك، ربما هذا الشيء الوحيد الذي سيخفّف الألم عني، على الأقل لقد تركت لي شيء أعتني به من أجلك، ذلك هو مشروعي القادم والوحيد إلى أن أفارق الحياة، سأكرّس ما تبقّى من حياتي لخدمتهن، بل سأبحث عن المخلوقات الوحيدة التي تحتاج عناية، عجائزك الغاليات إلى أي حد سأعتني بهن؟ إلى الحد الذي يجعلك سعيدة هانئة في قبرك، إلى الحد الذي يحفّزهن لمنحك مزيدا من الحسنات، إلى الحد الذي يهوّن علي فراقك " وأخيرا أبكم النشيج صوتها، و أسندت رأسها إلى القبر ماسحة عبراتها بباطن كفها ، بينما شعرت بيد قوية خشنة تحطّ على كتفها، فخطر لها أنه أحد المارين بها،ولكنها سمعت صوت إنسان يعرفها لأنه نطق اسمها مسبقا إياه بسيدة، فاستدارت إليه ببطء واهن ثم دققت النظر إليه ، لقد عرفته حتى مع التغيّر الهائل الطارئ على وجهه، كانت عيناه حمراوين مثل جمرتين متقدتين؛ لأنه قضى الليل بطوله يبكي و لم تكن سميحة قد رأت بؤسا في عيني رجل كالبؤس الذي رأته الآن، و كان وجهه مكدودا، يقطر حزنا و شعره غير منسق منسدل على جبينه، معذبا عذاب إنسان مجنون من الألم الأسود، و وجنتاه خاسفتين شاحبتين ،مفلستين من الدم، يرتدي سترة رمادية بدت لوهلة واسعة عليه ، مجرد رجل مغلوب على أمره، رجل تعيس منهوك القوى خال من العلامات الحيوية القديمة التي كانت تجليه بالصورة الحسنة و الطلعة البهية، وأحست بالشفقة عليه ونسيت حزنها ؛ لأنها اكتشفت أن حزنه أضعاف حزنها. لم تكن قد قابلته من قبل، و كذلك لم تتبادل معه حديثا أو تحية حتى، لكنها كانت تحبه، لأن العزيزة على قلبها أثيل كانت مغرمة به، كيف تستطيع أن تواسيه؟أي كلمات تقول؟أي شيء تفعل ؟، إنها مدركة أن عبارات العالم النموذجية بأسرها لن تستطيع أن تخفّف عنه هذا الألم العاصف،لا

شك أنه يتألم ألما مسعورا، كيف لا وهما كان سيتزوجان بعد أسابيع قليلة، وكانا قد رسما حياتهما معا،و رتّبا الأمور جميعها ولم يبق إلا انتقالها للعيش معه في بيت واحد،ما الذي بمقدورها فعله لأجله؟ إن أثيل لو كانت حية وشاهدته على هذه الصورة لاضطربت واكتأبت و بكت بكاءً مرا و لاحتلها شعور بالتعاسة ثم لكانت الآن تكافح من أجل إسعاده وطرد همومه، كان صديقها وحبيبها، و كان ذات يوم ابنها أيضا،ما الذي ينبغي أن تفعله لأجله وهي مفلسة الحيلة، لا تستطيع منع دموعها من الانهمار؟.

كان خليل قد بُلغ بالخبر الفظيع عند التاسعة والنصف مساء أمس،عندما عاد من الطواف الفارغ في الشوارع والأماكن التي لم يرتّب لزيارتها، لم يبحث عن شيء بعينه، كان يهرب من البقاء لوحده، كان لا يخاف من عقله؛ بل يخاف من قلبه، وكان يجلس عند قبر أمه صامتا أحيانا، متحدثا ثرثارا أحيانا أخرى، ولم تغادر ذهنه صورة أثيل الأخيرة في الحديقة، والتي لو قُدر له نسيان حالتها فهذا لا يعني إلا تحوّله إلى رجل مجنون، و عندما عاد تجنّبت خالته الجزعة سؤاله عن الأماكن التي يقضي نهاره فيها؛ لأنه غدا حاد الطباع، سريع الغضب، شرسا عدوانيا، قليل التهذيب تقريبا؛ فقد اكتسب طبعه القديم المتهوّر عندما تعرض للحادث و فقد القدرة على المشي وعندما توفيت أمه، طرأ تغير على حياته وعلى نظرته، ووقاحة على تصرفاته، لم يخسرها فحسب؛ بل خسر نفسه أيضا.

لفت انتباهه عند الساعة العاشرة ليلا بينما كان يتسكع في الطرقات بيتٌ مهجورٌ عديم السقف، أحد جدرانه القائمة به كوة على امتداد طوله و الباقية انتصبت إلى نصفها و تناثرت حجارتها على الأرض و تكدس بعضها في الزوايا ،فدخل إليه و جلس في زاوية يتأمل أنامل الليل تلون الكون و النجوم تكسر الظلمة و القمر يتحدى العتمة، فسحلته ذاكرته مرغما و تراءت له أثيل جالسة في الزاوية المقابلة جلسة إغراء و تضحك عليه ضحكا ماجنا و تلف خصلة من شعرها الأسود حول إصبعها و تعض شفتها بغنج وضيع مثلما تفعل الساقطات، ثم رفعت ثوبها على نوع خليع كاشفة عن فخذ غض،و فتحت أزرار فستانها عند الصدر ثم كشفت عن كتفها ورشقته بنظرات ساخرة "كم أنك غبي يا خليل ،سخرت منك ووضعتك أين أريد، حركتك مثل بيدق على رقعة شطرنج "و ثانية صدرت عنها ضحكة ماكرة، وما يلبث أن يلعن نفسه ويحتضن رأسه بكلتا يديه أملا في طرد طيفها .و بينما هو كذلك، احتل الزاوية متشرد مجنون ممزق الثياب يداري طعاما ملتقطا من حاوية القمامة، وأولاه ظهره ليستر قوته الضنين متلفتا إلى خليل بنظرة متوجسة، داسا الطعام في فمه،في تلك اللحظة حسده خليل بقوة من باطن روحه، و تمنى أن يكون مكانه "إلهي ،لما لست مكانه".

كان يثابر على التدخين بصورة مفرطة، على نحو غير معقول، إلى أن تداهمه نوبة سعال قوية مصحوبة بالغثيان، كأنه كان يفتّش عن طريقة ما ليقتل نفسه، رغم إدراكه أنه لن يموت بهذه الكيفية الرحيمة، فلم يسبق لإنسان أن مات بها، أضحى ساخطا يائسا جريح الكبرياء، تماما كما يمكن لإنسان مخذول أصيب بخيبة أمل فاحمة قاتلة أن يكون، لإنسان فقد أهم عناصر حياته، عنصرا تقترب أهميته للماء و الهواء؛ بل فقط ركيزة حياته المنيعة، فقد أثيله الحنونة، إن الصدمة تُولّد صمتا بلا حد أو ثرثرة بلا حد، أما بالنسبة لخليل؛ فقد جعلته غاصبا بلا حد،متسكعا بعشوائية في الشوارع بلاحد.

اندفع نحوه خليط متناقض من المشاعر يصارع بعضها بعضا، ينتصر ويُغلب، منذ أن تركها في الحديقة متيبسة الوجه، أحس بالغضب و الشفقة عليها، أحس برغبه في قتلها و نقيضها في مواساتها، يحسّ كما لو أنه يريد الركض إليها و بالوقت ذاته أن يهرب منها، يفهمها و يلومها، يحبها ويكرهها ،ولم يكن بوسعه تمييز أسباب الكراهية، هل لأنها عاهرة و هو الذي يمقت ذاك الصنف من النساء الوضيعات، أو لأنها أخفت عنه حقيقتها؟، أو لأن الكراهية جزء منيع من حبه المجنون بها، إنه يحتقرها و يقدّرها، يريدها وينفر منها،يتمناها قلبه و يلفظها عقله، صفوف من المشاعر المتضاربة، نوع من الصراع بين العقل والقلب. كان واثقا من مسألة واحدة، أنه لن يتزوجها و لو عاش بقية حياته شقيا، لأن شرفه سوف يشقيها ،و سوف يظلّ يشك فيها، موجها أصابع الاتّهام نحوها سواءً أتت ذنبا أم لم تأت، و إن ما أنجبت أطفالا سوف ينفر منهم لطعنه في أبوته لهم، أجل، إنه سيخنق حريتها، كانت كبرياؤه تخاطبه بلغة حازمة بينما قلبه يتوسل إليه أن يرضى بها كيلا يعيش شقيا ما بقي من عمره.

إن قلبه اللعين يحاول خداعه "إنك تحبها "،فكان خليل يصرخ مثل المعتوه العاجز ،يجيب مثل أسير استسلم لإرادة العدو ،انتصر التعذيب على وطنيته "أجل إنني أحبها، أحبها "و حبها يتضاعف على نحو مرعب ،و يخشى أن يخرج عن المعقول، لم يبد له من قبل أنه يحبها على هذا النسق كما يبدو له الآن، إنه يحنّ إليها و يريدها كأنها مادة مخدرة تعوّد عليها عقله، ينبغي أن يتعاطاها و إلا إنه سينفجر، إن حبها اللعين مثل الأصفاد تعاقبك بوجع مهلك كلما أقدمت على محاولة التخلص منها ،تسلخ موضع الجرح الخامد؛ كي تعيدك عبدا ذليلا إلى حالة الخنوع، إن حبها مثل السرطان لا يملك ترياقا شافيا، يوجعك اليوم و غدا و إلى الأبد، إن حبها مثل الحصار الناجم عن حمق سياسي يمنع عنك المؤن و الذخائر، ينهكك، يمتصك حتى تضعف ثم يتم الغزو بسهولة و سرعان ما يسلب منك، السيادة، العرش، الأرض وعندئذ تغدو مملوكا مسودا تأمر

فتنفذ، تُقزّم فترضى، تهان فتبلع، وليس لك إلا البكاء على الأمجاد المدفونة تحت أنقاض الذكريات مشرئبة الأعناق، لا تعفيك إن حُزت رقبتها من التلصص عليك من خلال شقوق الحطام.

ولكن لا، لن يبلع، لن يتزوجها، لتذهب ظروفها إلى الجحيم، لتذهب دوافعها إلى الجحيم كذلك، لن يتزوجها مطلقا، و كان يضرب رأسه بالحائط أملا أن يزيلها الضرب من رأسه على أنها لا تختفي ولا تزول و لا تذهب، إنها كما رآها للمرة الأولى كاذبة مدعية مختلقة للقصص فيشعر بالمهانة، يحسّ أنها سخرت منه و ضحكت عليه و استغفلته ،كما لو أنه رجل أخرق يسهل التمثيل عليه، و سرعان ما يحقد عليها، و سرعان ما يجد العزاء في صورتها الأخيرة، مهانة ذليلة، متألمة فيشعر بالاستمتاع، يتلذّذ لأنه انتقم منها، شكر وأعجب بنفسه لأنه أهانها بذاك العرض الوضيع، لا شك أنه جرحها و آلمها، ما أجمل هذا الشعور المزهر، إنه يسري عنه، و يحثه على الفرح، شعور لذيذ كطبقه المفضل، كهوايته الأثيرة، هنا يتساوى معنى الهزيمة والانتصار،و على نحو غير مسبوق، يشعر أن ذلك لم يكن كافيا للنيل منها، ليته فعل بها شيئا آخر أكثر سوءا و أشد فتكا لأن قلبها صنع من حجر و كرامتها من قذارة و ضميرها من كفن، ليته نطق بالمزيد من الإهانات، ثم يخبو هذا الوحش الكاسر، و يستيقظ خليل الملاك الرحيم، الهادئ الطيب، كيف استطاع أن يجرحها بذاك الشكل غير الإنساني؟ كيف استطاع أن يهينها ويجرح مشاعرها ويكسر قلبها و هي التي أنقذته، الحائط،يتعيّن عليه ضرب رأسه بالحائط، ربما يتهشّم هذا الرأس ويرتاح، ليتها تختفي من عقله، ليته لم يحبها، ليته لم يتعرف عليها، ليتها تركته في الحديقة ينتظر إلى الأبد، ليته يراها الآن لأنه يشتاق إليها، ليته لا يراها مطلقا ،ليته يبكي لينسى و فجأة يشرع في البكاء مثل الطفل الصغير ،بيد أن دموعه وقفت في صفها فرفضت تجريده من ألمه الضارع .

عبثا يحاول مصادرة حبها من قلبه،إنها ثورة فاشلة على نظام ديكتاتوري دموي متأصل بانقلابات النرجسية المرضيّة لتحقيق المصلحة الشخصية.

أضحت أمانيه بسيطة جدا من الحياة، ليس يطلب الكثير، لو يستطيع أن يستحيل جمادا، شيء بدون إحساس،حجرا أو صخرة، شجرة،ترابا أو طينا، من الآمن له أن لا يظلّ إنسانا، ليس يحتاج إلا لفقدان الشعور، ليته يكون سحابا أو ضبابا، جزءا من الطبيعة الصامتة الموجودة لخدمة الإنسان. إن الإنسانية تعني الألم، تعني الشعور، تعني الشقاء، تعني العذاب.

إنه أمر مسلّم به، إن هذا العذاب دائم، سوف يتنفّس معه كل نفس، يستيقظ معه كل صباح، ينام معه كل ليلة، يرتدي معه الملابس، يزدرد معه الطعام، يتجوّل معه في الشوارع والعمل، يحضر معه الاجتماعات واللقاءات، يتحلّق معه على طاولات العائلة، سوف يحلّ معه أينما يحلّ ويذهب معه أينما يذهب، أينما يلتفت، عندما يرفع رأسه أو يخفضه، عندما ينظر إلى

الشمس، تلك التي لن يستطيع أن يمنع شروقها، عندما ينظر من خلال النافذة، عندما يفتح الحاسوب،سيكبر معه و يشيخ هو و يظل ألمه شابا يافعا ، لن يتمكن من الشفاء، هذا العذاب ليس له دواء، مثل المرض الخبيث المتفشي، لا يقتلك دفعة واحدة ولا يدعك تعيش بسلام، إنه يغزو كل ركن و طرف و عضو.

راح يعود و ينام متأخرا و يستيقظ عند العاشرة صباحا، ليس مهتما بمباشرة أي عمل، ولماذا يهمه أن يعمل؟ تركيزه مشتت، و سلوكه يشبه سلوك المنحرفين، يتصرّف على نحو غريب مثير للريبة، ليس يعبأ بمظهره، ولا بأفعاله، لحيته فوضوية، شعره مهمل، ربما تشاجر ثلاث مرات أو أربع على أقل تقدير، تشاجر مع رجال لا يعرفهم، صادفهم في شوارع المدينة القديمة والشوارع المظلمة، منعدمة الأمان، التي تتجمع بها الأصناف الرديئة من البشر، لصوص محترفون ومجرمون سابقون، كان يبحث عن متنفس للغضب، يثق أن الأماكن المظلمة المهجورة تحتوي الآلام.

تراءى له أن سببا تافها كالنظر إليه كاف لإشعال حرب عالمية، ليس شجارا بسيطا فحسب "أنت لماذا تنظر إلي "..."لم أكن أنظر إليك،كنت أنظر إلى ما خلفك، ليس فيك أي ميزة يتحرّق الخلق لرؤيتها "„ إنه يهينه،حسنا إن لكمة أو لكمتين ستعلمه أن يضع رأسه في الأرض،و أن لا يتطاول على غيره.

وماذا عن امرأة تستوقفه في الطريق تستفسر منه عن الساعة أو تستدلّ على مكان

_"هل تظنين أنني ساعة،احملي معك واحدة "..." ليس عملي أن أدلّك على الأماكن لست خريطة، اذهبي إلى أي مكان، المهم أن تغربي عن وجهي ".

لم يتّفق له أن قلّل من احترام امرأة، فوالدته نشّأته على احترامهن، والتحدّث معهن بتهذيب، على أن تجربته الأولى في التقليل من احترامهن في الحديقة و أداءه المذهل في ذلك، ساقه إلى معاودة الكرة، سيهين كل امرأة من الآن فصاعدا على نحو شيّق، يطيب له إهانتهن، فداخل كل امرأة عاهرة متسترة تدعي الشرف و الفضيلة.

وكذلك زار أماكن لا يعرف لماذا ذهب إليها، اللهم إلا إذا كانت تجذبه إليها بقوة أكبر من مقاومته، إن فيها جاذبية غريبة،و يجلس تحت الأشجار يتوقع أن تنزل عليه معجزة كما نزلت التفاحة على رأس نيوتن فغيرت الكون ، يقف ليتساءل عن سبب تواجده هنا، لماذا مر بهذا الطريق بينما هناك واحد مختصر، المكان الوحيد الذي زاره يحمل معه وعيه الكامل هو قبر أمه، كان يشكو إليها ما الذي فعلته الفتاة به، كيف حطّمت قلبه، كيف خدعته، كيف خذلته والخذلان قاتل و كيف جعلته يعاني، و ليس بوسعه إخبار أحد، كم أن الحمل ثقيل، يتوق إلى مشاركته مع أحد، بيد أن بعض الهموم لا تقتسم و لا تشارك.

ليس يعبأ بعدد السجائر التي يدخنها، و كانت خالته تعظه مرتبكة، أن استمراره على هذه الشاكلة سيودي به لقتل نفسه، فيحدّق بها حانقا، ويزجرها كيلا تتدخل في شؤونه،و أن تدعه لحاله، جلب هذه العادة الرديئة من السجن، عجيب كيف يتحمّل الرجال هذه الرائحة الكريهة، عجيب كيف يدفعون مالا ليبدّدوا صحتهم الثمينة. كانت تود مساعدته، لكنها لا تعرف الأسباب التي أودت به إلى هذه الحالة، فهو لا يكلمها، و نادرا ما يمكث بالبيت، يعود ليلا، تشعر بعودته، و لكنها لا تجرؤ على مقابلته، لا شك أنه عصبي غاضب.

عاد مبكرا في هذه الليلة عند التاسعة و الربع, تلقّى رسالة جديدة عند التاسعة و النصف، ليس به رغبة ليقرأ الرسائل، من المؤكد أنه السيد مالك، أو إحدى الجرائد المهتمة بتوظيفه،أو ربما هي أثيل، في محاولة وقحة منها للسؤال عنه و التودّد إليه، أعرضت عن مراسلته هذه المدة اعتقادا منها أنه يحتاج إلى عنصر الوقت ليهدأ و يتلاشى غضبه، وعندئذ بوسعها أن تضيف المزيد من الإيضاحات والمبررات، و تبذل مجهودها الذي يدعو إلى الشفقة كيما تبيض فعلتها السوداء، سيسعده معرفة أنها كانت تتلوّى ألما في غيابه، و لكن أمله خاب عندما قرأ اسم المرسل، كان المجهول الذي كشف له حقيقتها، لم يخطر له أن يتحرّى عن هويته الملعونة، وفتح الرسالة ليقرأها جاء نصها كالتالي

_"السيد خليل

لم أقدّم نفسي في الرسالة السابقة، ربما ستصاب بالصدمة عندما تعرف من أكون كما صدمت أثيل عندما عرفت؟ أنا شقيقتها الوسطى ميرنا، كنت في رسائلها لك أمثّل الشقيقة المحبة الودودة، و لكن ذلك ليس صحيح، لقد كذبت عليك، ربما تتساءل لماذا أكتب إليك هذه الرسالة الآن، وماذا كانت دوافعي لأفضح شقيقتي أمامك؟، إن ضميري قد استيقظ بعد فوات الأوان، و هو يقرعني و يعذبني و لا مفر منه، و ليس لدي شخص أشاركه همومي سواك، فلا أحد غيرك مطّلع على سر أختي، منذ طفولتنا و أنا أكرهها و أحقد عليها، كانت فتاة جميلة محبوبة مرغوبة من طرف الجميع، بينما لم أظفر أنا إلا بالازدراء و التجاهل و ألقيت باللوم عليها، كنت أعتقد أنها تتعمّد خطف الأنظار و جلب الانتباه، و هكذا استنزفت طفولتي في إلحاق الأذية بها، كنت أرتّب خططا ماكرة تعطّشا مرضيا مني لإظهارها بصورة سيئة أمام أبوينا، ذلك لم يكن ناجعا كثيرا، على أنه كان يمتص بعض الكراهية التي أكنّها لها، و لم يبد أن شعوري إزاءها كان ليتغير، فقد كبرت و كبر معها جمالها و فتنتها، و كذلك ارتفع عدد محبيها، وكان الرجال جميعا يرغبون فيها بينما أنا لا، و عندما عرفت سرها لم أهرع إليها لأشكر لها تضحيتها من أجلنا و آخذها بين ذراعي .لا؛ بل جعلت حياتها لا تطاق،أصبحت أهدّدها بإخبار أمي، وألعب بأعصابها و أجعلها تخاف ويمتقع لون وجهها،

تلذّذت بذاك الشعور، و وجدت متنفسي فيه، أرهقتها، أتعبتها، آلمتها، خلعت قلبها، جعلتها تعاني وتحزن، وآخر ما بلغته كراهيتي أنني أرسلت إليك رسالة أفضحها أمامك، اخترت التوقيت المناسب لأجعلها تقابلك، رميتها بين أنيابك لتظهر لها احتقارك واشمئزازك، كنت مسرورة مبتهجة للغاية، وعادت إلى البيت وواجهتني وصفعتني الحقيقة على وجهي، في ذاك اليوم قالت أختي عبارة أوجعتني في الصميم، لقد نزلت من مرتبة الإنسان الى مرتبة الحيوان، و رفض عنادي الاعتراف بالوجع، وصفته بالغضب والامتعاض، رفضت أن أقرّ به، وفي الصباح الباكر استيقظت سعيدة جدا. كل الناس توهّموا أنها سعيدة، في الواقع تعمّدت أن تزرع فيهم ذاك الاعتقاد، قلت لنفسي أن هناك خطبا ما، لاينبغي أن تسعد، إنها لا تتحطّم، كيف تتعافى بهذه السرعة؟،أكملت مشروعي في إيذائها، كنت ألمح إلى فعلتها، غير أنها لم تعبأ بي، ظننت أنني أفعل ذلك بسبب كراهيتي. لا،اكتشفت متأخّرة أنني أصبحت أحبها و أقدر صنيعها أخيرا، ولكن كله حصل بعد فوات الأوان،خدعتنا عندما قالت أنها ستذهب لتكتب قصة صغيرة عند شاطئ البحر، تظاهرت أنها متحمّسة، أنها بخير، ذهبت يوم السبت، قبّلت يد أمي و خاطبتها قائلة أنها ستفعل أي شيء لأجلها، قالتها كأنما كانت تودعها الوداع الأخير، لم أدرك ذاك المعنى في الوقت المناسب وإلا لكنت منعتها من الذهاب، لكنت عانقتها و وعدتها أني لن أسمح أن تعلم أمي، لكنت اعتذرت لها و رجوتها أن تغفر لي، كل الجيران والأقارب و الأصدقاء يظنون أنه كان حادث، أنها وقعت في البحر و ماتت، بينما هي في الواقع قتلت نفسها، لقد انتحرت أختي بسببي، أنا من قتلتها، خشيت أن أخبر أمي كما أخبرتك أنت، وكذلك لم تستطع أن تتحمل خسارتك ، لقد تحمّلت طويلا، كيف أستطيع الآن أن أعيش؟ لم يسعني زيارة قبرها بينما في حياتها كنت أنفر من زيارة غرفتها، لقد ماتت أختي يا سيد خليل، ماتت أثيل، لم تعد موجودة و البيت من دونها يبدو مثل البيت المهجور، إن أمي تسلخ نهارها في المكان الذي توفيت فيه، و أختي تحجز نفسها في غرفتها تحيط نفسها بأشيائها و السيدة سميحة، تكاد تسكن في المقبرة، بينما أنا يلفّني الخوف و الفزع، ذاك الخوف الذي وعدتها أنها ستعيش في جوفه إلى الأبد، التصق بي أنا، إنها تأتي في أحلامي وتخبرني أنها لن تسامحني،هذا هو العقاب ...."

وكفّ خليل عن القراءة، "ماتت أثيل "راح الصدى يتردّد في عقله، وفجأة ابتلعه الظلام الدامس، كان ينزلق إلى تجويف عميق ليس له نهاية، ليس له قاع، تجويف أسود مظلم، كأنه يودّ أن يصرخ، و لكن الصرخة لا تخرج من فمه، شعر بأسوأ شعور في العالم، إنه يستمر في السقوط إلى أسفل، كان مغيبا عن الدنيا و هاهي رحلة العودة تعيد إليه إدراكه الخامد ، وجد مستقرا أخيرا كرسيا من الخشب يجلس عليه مثبتا،لم يبد أي استجابة، لم يتحرك لم يلتفت، لم يرفرف

جفنيه، لم يحرك يديه كأنه مقيد،و شرعت نار مجنونة تشتعل في باطنه، كأنه يراها و هي تلقي بنفسها في البحر، لم تلق نفسها، كان هناك رجل خلفها يدفعها لتسقط، فشل في التعرّف على هوية ذاك الوغد الذي يتربّص بها ليدفعها إلى البحر، يعلم أنها لا تجيد السباحة، يعلم أنها تخاف المرتفعات، تخاف مياه البحر، هو من أجبرها على الذهاب الى هناك، ثم دفعها بيدين خائنتين، كانت تثق به، كانت ستذهب معه إلى جهنم معتقدة أنها النعيم، و لكنه خانها ودفعها لتسقط، من يكون؟ تعرّف عليه و قلبه يحترق من الصدمة، إنه هو نفسه،خليل الوغد المنحط، هو من قتلها، لم تقتل أثيل نفسها؛ بل قتلت بيديه القاسيتين و إن كان لا بد من وجود جريمة فهو منفذها، إن لم يكن شريكا فيها بالتعاون مع شقيقتها، قتل حبيبته الغالية التي أنقذته وحمته وكانت مستعدة لتقبله بعاهته الكسيحة، أحبته مسجونا، أحبته عصبيا ومجنونا، كما كانت تحبه أمه، الحب الذي لا تشوبه الغايات، كم أنها شقية هذه الفتاة !!،يا لسوء طالعها، لماذا أحبت وغدا مثله وغدا قضى عليها، وكفر بمعروفها، لقد رحلت أمه عن الدنيا للمرة الثانية، وتحرّر صوته المكتوم فصرخ كالمجنون، وتهيّج كالحيوان المتألّم، لن يستطيع أن يجنّ على أية حال؛ بل سيعاقبه الله على قتلها بأن يبقى عاقلا واعيا لكل ما يدور حوله.

"اه يا خليل "نشجت سميحة و هي تنهض على قدميها "لقد ذهبت، إنها ميتة، وقعت في البحر وماتت".

لم يجبها؛ بل حدّق بلوعة فوق كتفها إلى الزلم الرخامي الأبيض ، المنقوش عليه بحروف سوداء واضحة ، اسم أثيل و كنيتها، تاريخ ميلادها ووفاتها، و عيناه الجافتان تضطرمان شقاء.

قالت سميحة برفق عندما برز لها مثل الطفل الصغير الذي ماتت أمه، وهو أحوج منها إلى المواساة .

_"تذرّع بالصبر، كلنا نتذرّع به، إن أمها المسكينة تحاول أن تظهر متماسكة و كذلك أنا، وشقيقتاها وكل من أحبها "و حوّلت بصرها إلى قبر قريب مخبرة إياه أنه قبر والدها، لقد اجتمعا سويا، ولم يكن يستطيع أن يشيح نظره عن الزلم كأنه لا يستطيع أن يصدّق أن المدفونة هنا هي حبيبته أثيل، من غير الممكن أنها تنام هنا،و تنفّس بعمق، واستطاعت سميحة أن تثير انتباهه عندما استخدمت مسألة معينة

_"كنتما ستتزوجان، في الشهر القادم، كانت سعيدة جدا"

فجرّ نظره إليها ببطء و قال بوهن

_"أهي من أخبرتك بذلك؟ "

_"أجل، ليست تخفي عني أي سر "

_"بلى؛ لقد أخفت عنك أخطر سر في حياتها لئلا تخسرك " هجس بحرقة و معالم وجهه تتكسر،و كأن بركان هائلا يثور في جوفه

ثم استطردت

_"كانت سعيدة جدا، لأنها ستتزوجك؛ بل إني لم أرها في حياتي أكثر منها سعادة الأسبوع الأخير،لقد جعلتها أسعد النساء على وجه الأرض، ربما يواسيك هذا قليلا".

و سرعان ما أطرق رأسه عاصرا عينيه الشقيتين، و أراد أن يعترف أنه جعلها أشقى فتاة على وجه الأرض، وأنها كانت تمثّل عليهم جميعا دور الفتاة السعيدة، وأنها كانت تتمزّق من الألم، لو أنها عاشت تعاستها بتفاصيلها الدقيقة لأحسّ ببعض العزاء، ولكنه حرم من هذا لعلمه أن التظاهر بالسعادة يزيد من تعاسة الإنسان و يجعل الألم يتفاقم، فهذا لا يواسيه؛ بل يقتله في الدقيقة ستين مرة، أراد أن يكشف لها الحقيقة دون تردد، يخبرها أنه أهانها وجرح شعورها، وقسا عليها، أنه مجرد شيطان في جسد إنسان، مجرد وغد حقير بائس عديم الرحمة،ما أقسى أن يحرم من الاعتراف بذنوبه لأحد، حيث أن هذا الاعتراف الذي يخفّف عنه، كانت قد دفعت ثمنه حياتها كي لا يعرفه أحد، لقد سبق أن استخف بجروحها، وليس له الحق أن يستخّف بموتها، إذا عليه أن يصمت و يكمل ما بدأته، في عناء أبكم و شقاء عظيم .

_"عندما أخبرتني أول مرة أنها تحبك، ظننتها مجنونة، كان ذلك عندما تعرضت لذاك الحادث، التمست مني الذهاب إلى المشفى لتطمئن عليك، سخرت منها "و رفعت منديلها تضغط به على عينيها لتكبح سيل الدموع الجاهز.

_"هل جاءت إلى المشفى؟"سأل بعناء إنسان مجرد من الوعي

_"لا أظنها أخبرتك، أجل، اضطررت إلى مرافقتها؛ لأنها هدّدت أنها ستذهب وحدها، لقد أحبتك كثيرا يا خليل، أكثر من نفسها "

راح ضميره يركله، وكانت ألفاظها تغرز في قلبه كصفائح الحديد الساخن، وكان وجهه صفحة من العذاب والحزن وشعر في قلبه بألم جسدي حقيقي ومن بين شفتين جافتين خرج صوته متأثرا متقطعا، كأنه يؤلمه

"أنا أيضا أحببتها، أكثر من أي شيء في الدنيا، و لست أشعر أن بمقدوري العيش دونها، هل تستطيعين التحمّل أنت؟"

فوضعت سميحة يدها على ذراعه

_"كانت فتاة رائعة طيبة، شجاعة، لقد أحبها كل من عرفها، كن قويا، إنها مشيئة الله، كلنا سنموت يوما ما، كلنا، كن قويا يا خليل "

وتنهّد تنهيدة تعيسة،ثم نظر إليها ساخرا من مواساتها،"كن قويا"، ومتى كان قويا؟إنه جبان ضعيف، ولولاها لما قامت له قائمة، لقد استطاع نوعا ما أن يتحمّل أهوال السجن و المعاملة الفظة، والظروف السيئة؛ لأنه يعرف أن الجزاء سيكون رؤيتها عندما يخرج، لماذا ينبغي أن يكون قويا؟لأي غاية؟ إنه لا يصمد من دونها، كان قويا بها، و ها قد انتهى العالم بنهايتها، كل شيء جميل ذهب معها.

"لن ننساها أبدا، لقد رحل عنا جسدها، ولكن صورتها ستظل محفورة في عقولنا "قالت سميحة ما تظنه لغوا مألوفا لا يفيد لكن ينبغي أن يقال ، و قد وسعها أن تستجمع رباطة جأشها عندما رأت أنه في حال يرثى لها "سأذهب الآن، وأعود بالغد"

_"سيدة سميحة "نادى عليها عندما ابتعدت عنه بضع خطوات

_"كانت تحبك كثيرا "فأومأت برأسها موافقة، وابتسمت شبه ابتسامة حزينة و شيّعها ببصره إلى أن انعطفت عند أحد القبور، و عندما استدار استولت عليه حسرة دامية، إنه وحده الآن، وخيّم سكون ثقيل، و ظل صامتا لمدة دقيقة مذهولا جامدا شاعرا بضياع في كون ليس له بداية أو نهاية ، لم يعرف من أين يبدأ أو ماذا يقول لإنسان ساهم في موته، إنسان طيب تعلم منذ الصغر أن يمنح لا أن يأخذ، لقد باعت جسدها في سبيل أمها، لا شك أن ذلك كان أشق عليها من الموت ،إنها تضحية تتطلب نفسا عظيمة ،و هي امرأة عظيمة ،وسوف تظلّ كذلك، ليس مهما أنها لطّخت نفسها بالعار، حيث أنها فعلت ما رأته ضروريا، و كان يستطيع أن يمحو كل معاناتها بحركة واحدة، أن يفهمها و إن لم يستسغ فكرة الزواج منها ، على أنه استهان بها و سخر من معاناتها، إنه نادم الآن ندما حقيقيا أين لا ينفعه الندم ،و لو لم تمت لظل حاقدا عليها ،كان يجب أن تموت ليستريح حقده و يستطيع فهمها ، وأدرك أنها لم تخدعه مطلقا كما تصوّر ذاك اليوم في الحديقة، لقد راقبته لسنوات من بعيد كمنفي يراقب وطنه وأحبته حبا صامتا مع إمكانية تواصلها معه بسهولة، و حاربت كي لا تفعل ذلك، و لولا حاجته الماسة إلى ملهم معين لما ظهرت في حياته.

_"لو أنني لم أختر شرفي اللعين "قال برنة عذاب وأسف "لو أنني اخترت أن أكون ملجأك، لما كنت ترقدين هنا، لكانت الحياة تدب في أوصالك، إنك حمقاء غبية يا أثيل؛ لأنك قتلت نفسك بسبب وغد حقير مثلي لا يساوي دمعة من عينيك، كنت حقيرا معك، أهنتك و جرحت قلبك،،أ تصدقينني؟ إن قلت أنني كنت أتألّم أضعاف ألمك، أردت أن أعطي ذلك الألم لإنسان آخر؛ لأنه لا يحتمل و اخترتك أنت لحمله عني، اخترتك لإيلامك،أحبك قلبي و نبذتك غريزتي المغرورة ، وكنت أحبك حتى وأنا أهينك، و عندما شعرت بأنني خسرتك انهار عالمي الجميل، كانت العبارات الجارحة منبعثة من مكان مجوف مظلم من قلبي، و شعرت بغيرة مجنونة من هؤلاء الرجال"غدا

يتنفس بصعوبة " كنت أنانيا؛ لأنني فكرت في نفسي و ليس فيك، فكرت كيف أشعر أنا فقط، و ليس بما تشعرين أنت، ألم أعدك أنني سأعوضك، وآخذك لتري العالم؟،لقد أرسلتك إلى القبر، هكذا عوضتك "و طفق يبكي ،عيناه مثل مزرابين في ليلة ماطرة " أحاول أن أقنع نفسي أنك لم تفعلي ذلك، أنك غيرت رأيك في الدقائق الأخيرة ،و أنه كان مجرد حادث حتى لا يؤنبني ضميري، لكن ذلك لا يجدي، ليتني فهمتك، ليتني واسيتك وأخبرتك أنني أشعر بألمك ومعاناتك، كما أشعر به الآن، وماذا إن أنا تزوجتك؟، أكان العالم سينتهي؟،أ كانت الدنيا ستنهار؟، أخبريني ماذا ينفعني المحافظة على الكبرياء والكرامة وأنا في غاية الشقاء والتعاسة، ماذا يفيدان؟ لقد حرمت منك و هذا هو العقاب العادل الذي أستحقه، كنت مثل طائر سجين يتخبط بين قضبان قفص بديع ليحرّر نفسه، ولم يستفد إلا إنهاك قواه واضطهاد كرامته، كان يظن لسذاجته أن لطم جناحيه يخيف متوحشا دمويا مستعبدا كالإنسان، فلم يزد ذلك إلا على إضحاكه وتأمين عرض ممتع له، كنت أنا الطائر و كنت أنا الإنسان بينما لم تكون أنت إلا القفص، مات الطائر و ظل القفص.

وعندما تحدّثت عن الشقاء، توهّمت أنه قابل ليتحمله الإنسان؛ لأن الإنسان يستطيع أن يتحمّل، ظننت أنه كشقاء السجن أو فقدان أمي، أو فقدان قدمي، إنه مختلف لا يطاق، لا يحتمل، لقد مت ألف مرة و أنت حية، بينما أحيا أنا ألف مرة وأنا ميت و هذا أسوأ من الجحيم، أحسدك؛ لأنك تنامين في هذا القبر، أما أنا؛ فتنام في داخلي قبور بعدد أعضائي، أحسدك لأنك انتهيت من كل شيء، بينما أنا انتهيت إلى لا شيء، آلامي لا تنصفها الكلمات يا أثيل، آلامي تؤلف كتبا تخط أسطرها من نزيف قلبي الدامي، آلامي حكايات. ألف موت و موت و ألف جحيم و جحيم، آلامي لا تنام لتستيقظ، لا تتوه لتعود، لا تبعثر لتجمع، آلامي كانت قذائف تقصف مدنك الهشّة، وعندما سوتها بالأرض حلت عليها لعنة مدنك ،فطفقت تقذف بعضها بعضا، ها قد ختمت رحلة شقائك في حين بدأت رحلة شقائي، وليس لي ملجأ سواك لأهرب من هذا الشقاء الرهيب، ماذا أفعل يا أثيلي؟.إلى أين أذهب يا حبيبتي، ليس لي ملجأ، ليس لي ملجأ، كان لدي واحد فقط هو أنت، والآن وقد رحلت، رحلت معك كل ملاجئ الدنيا، تستطيع حتى أكثر الشوارع بؤسا أن تحتضن جسدي، ولكن ماذا عن روحي المعذبة،من سيحتضنها، أين تذهب؟ إنها متألمة تنتقل من ضياع لآخر، روحي مشردة يا أثيل، وقلبي يتلوّى عذابا لا يطاق،من سيفهمني بعدك؟ كنت أعتقد أنني أعاقبك بينما كنت أنت من يعاقبني، والآن بعد موتك اكتشفت أن العقاب ليس بتلك الرحمة، فعلى الأقل كنت حية تتنفسين، إن عقابي الحقيقي بدأ الآن، وأنا أقابل هذا القبر والزلم كحقيقة يستحيل الهروب منها، تعاقبني ذكرياتك، حيويتك التي أخمدتها، تعاقبني ضحكتك التي أزهقتها، تعاقبني حمرة وجنتيك التي لونتها بالشحوب، تعاقبني عيناك التي أبكيتها، تدينني قدماي التي

أوقفتها ووحدتي التي جمعتها وعزلتي التي فككتها ولا أدين إلا شرفي، أجل شرفي الذي منعني من ابتلاع خطيئتك،ذلك ما أسعى لتقديمه كبرهان قوي على براءتي، لكنني تعيس جدا؛ لأنني لا أملك حضنا يحضن ألمي، بينما أنت تخلصت من ألم الدنيا تحت هذا التراب، إنني أبكي وأبكي وأبكي ولكن الدموع لا تغسل قلبي من الألم، ما أقساك يا أثيل، كيف تفعلين هذا بي؟

لم أكن لأتزوجك يا عزيزتي، مطلقا لن أفعل، كنت سأتزوّج امرأة غيرك كاملة الشرف؛ لأنتقم منك ثم أدعم أي طريق يوصل لك النبأ كي تتلوي قهرا، امرأة أشرب معها أنخاب التعاسة، أتعسها كثيرا لتتعسني أكثر، أراك فيها عندما لا أنظر إليها، و أتذكّر أنها ليست أنت عندما تقع عيناي عليها، أناديها باسمك، وأكرهها عندما تناديني باسمي، لم أكن لأكون خليل غيرك. أنا خليلك أنت وغاليك أنت و كلي نصفك،و نصفي كلك"

وفجأة استحال كرجل فقد عقله ودس يده في التراب "لماذا فعلت هذا؟أنت من كنت نافذة حياتي؟ الدنيا سوداء يا أثيل، موحشة، لا أرى شيئا أبيض، كله سواد في سواد، ابتلعني الظلام إلى الأبد أشعر بالألم، أشعر بالألم القارس، روحي تتمزق من فرط العذاب،ذهب كل الأعزاء ولم يبق إلا الوحدة والضياع الأبدي، هذه الوحدة التي استطعت تحمّلها بوجودك، ولكن أنّى لي أن أستطيع بدونك، أحبك يا أثيل، أحبك و لم أتوقف عن حبك ثانية و سوف أحبك إلى الأبد، وإلى الأبد سآتي إليك، فأنت ملجئي الأول والأخير ولا أملك ملجأ سواك".

ولم يعلم خليل أن أثيل قد تراجعت عن خطتها، وأن ملجأها الأخير كان الحياة، وليس الموت وأن كلمات العجوز حفرت عميقا في قلبها و وقعت صك مضيها قدما في الحياة، أشفقت على أمها و خافت من دموع البيت بقدر ما انتعشت بشعور الارتياح، وأشفقت عليها من زيارتها المتكررة لهذا المكان وقرّرت أنها لن تفعل بأمها هذا، لن تسمح لهذا الوجع المكين الذي طالعته في وجه الرجل أن يكون مصير أمها.ربما لن تحدث تلك الأمور التي تجفلها، ربما يتغير قدرها .

ولم يعلم أنها عندما وقفت على حافة المرتفع ونظرت إلى مياه البحر الرصاصية و قد تلاشى خوفها كأنه لم يكن يوما، وأدركت بوحي غامض و على نحو غريب أنها لا تريد الموت، بل تريد الحياة، ترغب فيها كما لم ترغب فيها يوما، ستعيش توسلا لمغفرة الله، لا لمغفرة الإنسان وستبذل في سبيل مغفرته ما تستطيع، فمقابل كل باب ذنب، يفتح الله عشرة أبواب للتوبة، شريطة أن تكون صادقة، و هي صادقة في توبتها منذ انقطعت عن ذاك العمل.

ولم يعرف أنها ابتسمت ابتسامة مشرقة، واغرورقت عيناها بدموع الأمل إثر عزمها الجديد، وأقرّت أن الحزن الشديد والكآبة العمياء والإحباط القاتم واليأس الثائر طمسوا كل أمل مشرق وتفكير رشيد، ولم يعلم أنها تنهدت تنهيدة الفرج ووضعت خططا جديدة قيد الدراسة.

لـم يعلـم أنهـا دفعـت يـديها إلى أعلى و فتحـت كفيهـا باتّجـاه السـماء، لتشـكر الله على إرسـاله العجوز إليها في الوقت المناسب ليفتح عينيها ويدل عقلها على القرار السليم، لقد أتت ذنبا كبيرا، و بإقدامها على قتل نفسـها لـن تصحّح المسـار الخـاطئ، بـل سـترتكب جريمـة أخرى أشـنع وأفظع، وعندها لن يسامحها الله مطلقا على عدم إيمانها به، ليس الانتحار حلا و لولا ذلك لما كان حراما، لقد أرادها الله أن تصل إلى هنا لتفهم أنها لا تريد الموت، لقد كانت حزينة، كئيبة وكانت مهزومة، خسرت محبوبها الغـالي،و لكنها اكتشـفت أنها تملك أملا أعظم من كل آمال الدنيا، تملك العـودة الدائمـة إلى الله، و إن أغلقـت جميـع أبـواب البشـر في وجههـا، فبابـه مفتـوح لا يغلـق،أجـل سـتجدد توبتها و تعمل ما تستطيع في سبيل أن يغفر الله الرحيم لها.

ولـم يعلـم خليـل أنهـا لامـت نفسـها و جلـدتها؛ لاسـتهانتها بحـدود الله، كيـف وسـعها أن تفكـر في قتل نفسـها؟ و أنها قررت أنهـا سـتحيا ولـو بدونه. وأنها تذكرت شـعارها في الحيـاة "الشـمس سـتشـرق من جديـد،لا بـد لهـا أن تشـرق "و لكـن الأوان كـان قـد فـات، و النهايـة التي غيرتهـا إنمـا كانـت قـدرها المحتم.